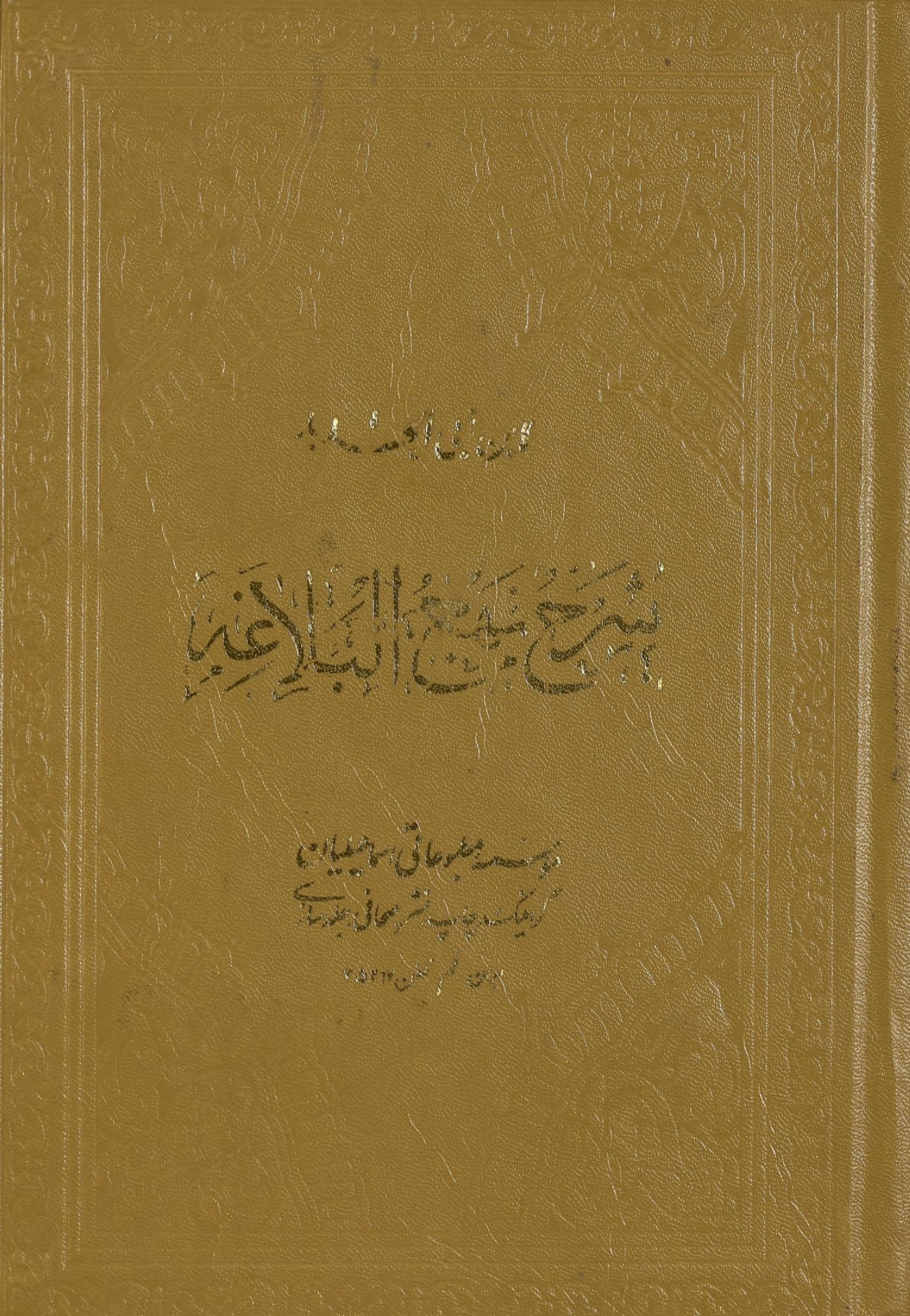


ابن ابی الحدید
شرح نهج البلاغه
موسسه مطبوعاتی اسماعیلیان
چاپ و نشر معارف جعفری
ایران قم تلفن ۲۵۲۲۳

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء السابع عشر



مؤسسة اسماعيليان
للطباعة والنشر والتوزيع
قم ايران - تلفون ٢٥٢١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل [1]

(٤٦)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ فإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ به عَلَى إقامَةِ الدِّينِ ، وَأَقْمَعُ به نخوَةَ الأثيم ، وأَسُدُّ بهِ لَهاةَ الثَّغر المخُوفِ .

فاسْتَعِنْ باللهِ عَلَى ما أَهمّكَ ، واخْلِط الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ من اللّينِ ؛ وارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أرْفَقَ ، واعْتَزِمْ بالشِّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إلّا الشِّدَّةُ .

* * *

واخْفِضْ للرَّعِيّةِ جَنَاحَكَ ، وَابسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ؛ وآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللحْظَةِ والنّظْرَةِ ، والإشارَةِ والتّحِيّةِ ، حَتّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ ،وَلَا يَيْئَس الضعفاءُ مِنْ عَدْلِكَ . والسلام .

* * *

الشّرحُ :

قد أخذ الشاعر معنى قوله : « وآسِ بينهم فى اللحظة والنّظرة » ، فقال :

---

(١) ا : « وبه نستعين » ، د : « وبه ثقتى » .

اقسم اللحظَ بيننا إنّ فى اللّحـ ظِ لَعنوانُ ما تُجِنُّ الصدورُ
إنّمـا البِرّ روضةٌ فإذا ما كان بشرٌ فروضةٌ وغديرُ

قوله : « وآس بينهم فى اللحظة » ، أى اجعلهم أسوة ، وروى : « وساوِ بينهم فى اللحظة » ؛ والمعنى واحد .

واستظهِرْ به : اجعلْه كالظَّهْر .

والنّخوة : الكبرياء : والأثيم : المخطىء المذنب .

وقوله : « وأسَدّ به لَهاة الثّغر » ، استعارة حسنة .

والضِّغْث فى الأصل : قبضة حشيش مختلط يابسُها بشىء من الرّطْب ، ومنه « أضغاث الأحلام » للرؤيا المختلطة التى لا يصحّ تأويلها ، فاستعار اللفظة هاهنا ؛ والمراد امزُج[1] الشدّة بشىء من اللين [2]فاجعلهما كالضِّغْث ، وقال تعالى : ﴿ وَخُذْ بيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ [2] .

قوله : « فاعتزم بالشدّة » أى إذا جدّ بك الجِدّ فدَع اللّين ، فإنّ فى حال الشدّة لا تُغنِى إلّا الشدّة ، قال الفِنْد الزِّمَّانِىّ :

فلمّا صرّح الشرُّ فأمسَى وهو عُريانُ[3]
ولم يبقَ سوى العدوا نِ دِنّاهمْ كما دانُوا

قوله : « حتى لا يطمع العظماء فى حَيْفك » ، أى حتَّى لا يطمع العظماء فى أن تمالئهم على حَيْف الضعفاء ، وقد تقدّم مثل هذا فيما سبق .

---

(١) د : « مزج » . (٢-٢) ساقط من د .
(٣) ديوان الحماسة ١ : ٢٣ - بشرح التبريزى ، من شعر قاله فى حرب البسوس .

الأصْـلُ :

ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم لعنه الله :

أُوصِيكُما بِتَقْوَى اللهِ ، وألّا تَبْغِيا الدُّنْيا وإنْ بَغَتْـكُما ، ولا تَأْسَفا على شَيْءٍ مِنْها زُوِيَ عَنْـكُما ، وقُولا بالحَقِّ ، وأعْمَلا لِلأَجْرِ ، وكُونا لِلظَّالِمِ خَصْما ، ولِلْمَظْلُومِ عَوْناً.

أُوصِيكُما وجَمِيعَ ولَدِي وأهْـلِي ومَنْ بَلَغَهُ كِتابي بِتَقْوَى اللهِ وَنَظْمِ أمْرِكُمْ ، وصلاحِ ذَاتِ بَيْنِـكُمْ ، فإنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُما صلى اللهُ عليـهِ وآلهِ يَقُولُ : صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أفْضَلُ مِنْ عامَّةِ الصَّلَاةِ والصِّيامِ .

اللهَ اللهَ فى الأَيْتامِ ، فَلَا تُغِبُّوا أفْوَاهَهُمْ ، ولا تُضَيِّعُوا بِحَضْرَتِـكُمْ .

واللهَ اللهَ فى جِيرَانِـكُمْ ، فإنَّهُمْ وصِيَّةُ نَبِيِّـكُمْ ، ما زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ .

واللهَ اللهَ فى الْقُرْآنِ ، لَا يَسْبِقُـكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ .

واللهَ اللهَ فى الصَّلَاةِ ، فإنَّها عَمُودُ دِينِـكُمْ .

واللهَ اللهَ فى بَيْتِ رَبِّـكُمْ ، لَا تُخَلُّوهُ ما بَقِيتُمْ ، فإنَّهُ إنْ تُرِكَ لَمْ تُناظَرُوا .

واللهَ اللهَ فى الْجِهادِ بِأمْوَالِـكُمْ وأنْفُسِكُمْ وألْسِنَتِـكُمْ[1] فى سَبِيلِ اللهِ .

وعَلَيْـكُمْ بِالتَّوَاصُلِ والتَّباذُلِ ؛ وإيَّاكُمْ والتَّـدابُرَ والتَّقاطُعَ ، لَا تَتْرُكُوا

(١) ساقطة من ب .

الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْىَ عَنِ المُنْكَرِ ؛ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجابُ لَكُمْ .

***

ثم قال :

يا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِماءَ المُسْلِمِينَ خَوْضاً ، تَقُولُونَ : قُتِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ، قُتِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ! أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِى إِلَّا قاتِلِي ، انْظُرُوا إِذَا أَنا مُتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ ؛ فَإِنِّى سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ يَقُولُ : إِيَّاكُمْ والمُثْلَةَ ولَوْ بِالْكَلْبِ العَقُورِ .

***

الشَّرح :

روى : « واعملا للآخرة »، وروى « فلا تغيّروا أفواهكم » ؛ يقول : لا تطلبا الدّنيا و إن طلبتْكما ؛ فإذا كان مَنْ تطلبه الدنيا منهيًّا عن طلبها فمن لا تطلبه يكون منهيا عن طلبها بالطريق الأولى .

ثم قال : « ولا تأسفا على شىء منها زُوِى عنكما » أى قبض ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « زُويتْ لىَ الدنيا فأريت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلْك أمّتى ما زُوِى لى منها » .

وروى : « ولا تأسيا » ؛ وكلاهما بمعنى واحد ، أى لا تحزنا ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾[1] .

---

(١) سورة الحديد ٢٣

قوله : « صلاح ذات البين » أخذ هذه اللفظة عبد الملك بن مروان فقال لبنيه وقد جُمعوا عنده يومَ موته :

انفُوا الضّغائن بينكمْ وعليكمُ عند المغيب وفى حضور المشهدِ
بصلاح ذاتِ البين طول حياتكمْ إن مُدّ فى عمرى وإن لم يُمْدَدِ
إنّ القِداحَ إذا اجتمعنَ فرامَها بالكَسر ذو بطشٍ شَديدٍ أيِّدِ
عزّت فلم تُكسَر ، وإن هى بُدّدتْ فالوهنُ والتكسير للمتبدّدِ

وذات هاهنا زائدة مقحمة .

قوله : « فلا تُغبّوا أفواههم »، أى لا تجيعوهم بأَن تطعموهم غِبًّا ، ومن روى : « فلا تغيّروا أفواههم »؛ فذاك لأنّ الجائع يتغيّر فمه ، قال عليه السلام : « لَخُلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

قال : « ولا تُضَيِّعُوا بحضرتكم »أى لا تضيّعوهم، فالنهى فى الظاهر للأيتام ؛ وفى المعنى للأوصياء والأولياء ، والظاهر أنه لا يعنى الأيتام الذين لهم مال تحت أيدى أو صيائهم لأنّ أولئك الأوصياء محرّم عليهم أن يصيبوا من أموال اليتامى إلّا القَدْر النَّزْر جدًّا عند الضرورة ثم يقضونه مع التمكّن ، ومَنْ هذه حالُه لا يحسن أن يقال له : لا تغيّروا أفواه أيتامكم ، وإنما الأظهرُ أنّه يعنى الّذين مات آباؤهم وهم فقراء يتعيّن مواساتهم ويقبح القعود عنهم، كما قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾[1] ، واليُتْم فى النّاس من قِبَل الأبِ ، وفى البهائم من قِبَل الأمّ؛ لأن الآباء من البهائم لا عناية لهم بالأولاد ، بل العناية للأمّ لأنها المرضعة المشفقة ؛ وأمّا النّاس فإنّ الأبَ هو الكافل القيّم بنفقة الولد ؛ فإذا مات وصل الضّرر إليه لفقد كافله والأمّ بمعزل عن ذلك . وجمع يتيم على أيتام ، كما قالوا : شريف وأشراف . وحكى أبو علىّ فى التّكْملة : « كمىء وأكماء » ، ولا يسمّى الصبىّ يتيما إلّا إذا

(١) سورة الإنسان ٨

كان دون البلوغ وإذا بلغ زالَ اسمُ اليتيم[1] عنه. واليتامى أحد الأصناف الذين عيّنوا فى الخُمْس بنصّ الكتاب العزيز.

٭٭٭

[فصل فى الآثار الواردة فى حقوق الجار]

ثم أوصى بالجيران ، واللفظ الذى ذكره عليه السلام قد ورد مرفوعا فى رواية عبد الله ابن عمر لمّا ذبح شاة ، فقال : أهْدَيتُم لجارنا اليهودىّ ؟ فإنّى سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » ، وفى الحديث أنه صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِمْ جاره » ، وعنه عليه السلام : « جار السوء فى دار المقامة قاصمة الظهر » ، وعنه عليه السلام : مِن جهد البلاء جارُ سُوء معكَ فى دار مُقامة إن رأى حسنةً دفنَها ، وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها .

ومن أدعيتهم : اللهمّ إنّى أعوذ بك من مالٍ يكون علىّ فتنة ، ومنْ ولد يكون علىّ كَلاًّ ، ومِنْ حَليلة تقرّب الشيب ، ومن جار ترانى عيناه وترعانى أذناه ، إن رأى خيراً دفنه ، وإن سمع شرًّا طار به .

ابن مسعود يرفعه : « والذى نفسى بيده لا يُسلِم العبد حتى يَسْلم قلبُه ولسانه ، ويأمن جارُه بوائقَه » ، قالوا : ما بوائقه ؟ قال : « غَشْمه وظلمه » .

لقمان : يابنىّ حملتُ الحجارة والحديد فلم أر شيئا أثقلَ من جار السوء .

وأنشدوا :

ألا مَنْ يشترِى داراً برُخْصٍ ... كراهة بَعْضِ جيرتِها تباعُ

وقال الأصمعىّ : جاور أهلُ الشام الرّومَ ، فأخذوا عنهم خصلتين : اللؤم وقلّة الغَيْرة ،

---

(١) ا : « اليتم » .

وجاور أهل البصرة الخَزَر ، فأخذوا عنهم خصلتين : الزنا وقلّة الوفاء ، وجاور أهلُ الكوفة السوادَ ، فأخذوا عنهم خصلتين : السخاء والغَيْرة .

وكان يقال : مَنْ تطاول على جارِه، حُرِم بركة داره .

وكان يقال : من آذى جاره ورّثه الله دارَه .

باع أبو الجهم العدوىّ داره ، وكان فى جوار سعيد بن العاص بمائة ألف درهم ، فلما أحضرها المشترى قال له : هذا ثمن الدار ، فأعطنى ثمن الجوار ، قال : أىّ جوار ؟ قال : جوار سعيد بن العاص، قال : وهل اشترى أحدٌ جِوارا قط ! فقال : رُدّ علىّ دارى ، وخذ مالك ، لا أدَع جوار رجل إن قعدتُ سأل عنّى ، وإن رآنى رحّب بى ، وإن غبْت عنه حفِظنى ، وإن شهدت عنده قرّبنى ، وإن سألته قضى حاجتى ، وإن لم أسأله بدأنى، وإن نابتْنِي نائبة فرّج عنى . فبلغ ذلك سعيدا فبعث إليه مائة ألف درهم ، وقال : هذا ثمن دارك ، ودارك لك .

الحسن : ليس حسنُ الجوار كفُّ الأذى ، ولكنّ حسنَ الجوار الصَّبْر على الأذى .

جاءت امرأة إلى الحسن فشكت إليه الخَلّة[1] ، وقالت : أنا جارتك ، قال : كم بينى وبينك ؟ قالت : سبع أدؤُر ، فنظر الحسن فإذا تحت فراشه سبعة دراهم ، فأعطاها إياها ، وقال : كدنا نَهْلِك .

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام له بما يُصْلِحه ، وحماه ممّن يقصده ، وإن هلك له شىء أخلفه عليه ، وإن مات وداه لأهله ، فجاوره أبو دواد الإيادىّ ؛ فزاره على العادة ، فبالغ فى إكرامه .وكانت العرب إذا حمدت جارا قالت : جار كجار أبى دُواد ، قال قيس بن زهير :

---

(١) الخلة : الحاجة .

أُطوِّف ما أُطوِّف ثم آوِى ... إلى جارٍ كجارِ أبى دُوَادِ [١]

ثم تعلّم منه أبو دواد ، وكان يفعل لجاره فِعل كعبٍ به .

وقال مسكين الدارِمىّ :

ما ضرّ جاراً لى أجاوِرُهُ ... ألاّ يكونَ لبابهِ سِتْرُ [٢]

أَعمى إذا ما جارتى خرجتْ ... حتّى يوارىَ جارتى الخِدْرُ

نارِى ونارُ الجار واحدةٌ ... وإليه قَبلِى يُنزَل القِدْرُ [٣]

استعرض أبو مسلم صاحب الدولة فرسا مِحْضيرا [٤] ، فقال لأصحابه : لماذا يصلح هذا ؟ فذكروا سباق الخيل ، وصَيْد الُحمر والنّعام ، واتباع الفارّ من الحرب ، فقال : لم تصنعوا شيئاً يصلح للفرار من الجار السوء .

سئل سليمان علىّ بن خالد بن صفوان عن ابنيه : محمد وسليمان ـ وكانا جارَيْه ـ فقال : كيف إحمادُك جوارَهما ؟ فتمثّل بقول يزيد بن مفرّغ الحميرىّ .

سقى الله داراً لى وأرضا تركتُها ... إلى جنبِ دارَىْ معقل بن يسارِ

أبو مَالِكٍ جارٌ لها وابن مَرثدٍ ... فيالك جارَىْ ذلّةٍ وصَغـــارِ

وفى الحديث المرفوع أيضا من رواية جابر : « الجيران ثلاثة : فجارٌ له حقّ ، وجار له حقَّان ، وجارٌ له ثلاثة حقوق ؛ وصاحب الحقّ الواحد جارٌ مشرك لا رحِم له ، فحقّه

---

(١) المضاف والمنسوب ١ : ١٠٠

(٢) الأولان فى أمالى المرتضى ١ : ٤٣ ، ٤٤

(٣) موضعه فى أمالى المرتضى :

ويَصَمُّ عمَّا كانَ بينهما ... سمعى ومَا بى غَيْرَهُ وَقْرُ

(٤) فرس محضير ؛ أى شديد الحضر ؛ وهو العدو .

حقّ الجوار ، وصاحب الحقّين جار مسلم لا رَحِم له ، وصاحب الثلاثة جار مسلم ذو رَحِم ، وأدْنَى حق الجوار ألّا تؤذىَ جارَك بقُتار قِدْرِك ، إلاّ أن تقتدح له منها » .

قلت : تقتدح : تغترف ، والمقدحة المغرفة .

وكان يقال : الجيران خمسة : الجار الضارّ السَّيّىء الجوار ، والجار الدَّمِث الحسن الجوار ، والجار اليربُوعىّ المنافق ، والجار البرَاقشىّ المتلوّن فى أفعاله ، والجار الحسدلىّ[1] الذى عينه تَراك وقلبه يرعاك .

وروى أبو هريرة، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : اللهمّ إنى أعوذ بك من جار السوء فى دار المُقامة ، فإنّ دار البادية تتحوّل .

***

قوله عليه السلام : « والله الله فى القرآن » أمرهما بالمسارعة إلى العمل به ، ونهاهما أن يسبقهما غيرُهما إلى ذلك ، ثم أمرهما بالصلاة والحجّ .

وشدّد الوَصاة فى الحجّ ، فقال : « فإنه إن تُرِك لم تناظروا » أى يتعجّل الانتقام منكم .

فأما المثلة فنهىٌ عنها ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمثّل بهبّار بن الأسود لانه روّع زينب حتّى أجهضتْ ، ثم نهى عن ذلك ، وقال : لا مُثْلة ، المثلة حرام .

(١) الحسدلى : منسوب إلى الحسدل ؛ وهو القراد .

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية

فإنَّ البَغْيَ والزُّورَ يُوتِغانِ المَرْءَ فى دينِهِ ودُنْياهُ ، ويُبْدِيانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ ، وقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ ما قُضِيَ فَوَاتُهُ ، وقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ الحَقِّ فتَأَوَّلُوا عَلَى اللهِ فَأَكْذَبَهُمْ ، فَاحْذَرْ يَوْماً يُغْتَبَطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عاقِبَةَ عَمَلِهِ ، ويَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطانَ مِنْ قِيادِهِ فَلَمْ يُجاذِبْهُ ، وقَدْ دَعَوْتَنا إِلَى حُكْمِ القُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ، ولَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنا ، وَلَكِنَّا أَجَبْنا القُرْآنَ فى حُكْمِهِ ، والسَّلامُ .

* * *

الشرحُ :

يوتغان : يهلكان ؛ والوتَغ بالتحريك : الهلاك ؛ وقد وتغ يَوْتَغ وتَغا ، أى أثِم وهلك ، وأوتغه الله أهلكه الله ، وأوتغ فلان دينه بالإثم .

قوله : « فتألَّوْا على الله » أى حلفوا من الأَلِيّة وهى اليمين ، وفى الحديث : « من تألّى على الله أكذبه الله » ، ومعناه : مَنْ أقسم تجبّراً واقتدارا : لأفعلنّ كذا ، أكذبه الله ، ولم يبلغ أمله .

وقد روى « تأوّلوا على الله » أى حرّفُوا الكلم عن مواضعه ، وتعلّقوا بشبهة فى تأويل القرآن انتصاراً لمذاهبهم وآرائهم ، فأكذبهم الله بأن أظهر للعقلاء فسادَ تأويلاتهم والأوّل أصحّ .

و يغتبط فيه : يفْرح و يُسَرّ ، والغِبطة : السرور ، روى « يغبط فيه » أى يتمنّى مثلُ حاله هذه .

قوله : « و يندم من أمكن الشيطان من قياده فإنه يندم فلم يجاذ به » الياء التى هى حرف المضارعة عائدة على المكلف الذى أمكن الشيطان من قياده . يقول : إذا لم يجاذب الشيطان من قياده فإنه يندم ؛ فأما مَنْ جاذَبَه قيادَه فقد قام بما عليه .

ومثله قوله : « ولسنا إياك أجَبْنا » قوله : « والله ما حكّمت مخلوقا وإنما حكّمت القرآن » ومعنى « مخلوقاً » : بشراً لا محدِثا .

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضاً :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا ، وَلَهَجاً بِهَا ، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَاجَمَعَ ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ ، وَلَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى ، حَفِظْتَ مَا بَقِيَ؛ وَالسَّلَامُ .

* * *

الشّرْحُ :

هـذا كما قيل فى المثل : صاحب الدّنيا كشارب ماء البحر ؛ كلّما ازداد شرباً ازداد عطشا ، والأصل فى هـذا قول الله تعالى : « لو كانَ لابن آدم واديانِ من ذهبٍ لابتغى لهما ثالثا ، ولا يملأُ عين ابن آدم إلّا التراب » ، وهــذا من القرآن الذى رُفع ونسختْ تلاوتُه .

وقد ذكر نصر بن مزاحم هذا الكتاب وقال :

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كتبه إلى عمرو بن العاص ، وزاد فيه زيادةً لم يذكرها الرضىّ : أمّا بعد ؛ فإنّ الدنيا مشغلة عن الآخرة ، وصاحبها منهوم [1] عليها ، لم يصب شيئاً منها قطّ إلّا فتحت عليه حرصاً ، وأدخلت عليــه مؤنة [2] تزيده رغبةً فيها ؛ ولن

(١) صفين : « مقهور فيها » .

(٢) صفين : « مئونة » .

يستغنَى صاحبُها بما نال عمّا لم يدرك ، ومن وراء ذلك فراق ماجَمع ؛ والسعيد مَنْ وُعِظ بغيره ، فلا تُحْبِط أجرك أبا عبد الله (١ ولا تشرَك معاوية فى باطله ١) ؛ فإن معاوية غمص الناس ، وسفّه الحق (٢) . والسلام (٣) .

قال نصر : وهذا أوّل كتاب كتبه علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، فكتب إليه عمرو جوابه :

أمّا بعد ، فإنّ الذى فيه صلاحنا ، وألفة ذات بيننا ، أن تُنِيب إلى الحقّ (٤) ، وأن تجيب إلى (٥ ما ندعوكم إليه من الشورى ٥) ؛ فصبَر الرجل منّا نفسَه على الحقّ ، وعذَره النّاس بالمحاجزة ، والسلام (٦) .

قال نصر : فكتب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص بعد ذلك كتابا غليظاً .

وهو الذى ضرب مَثَله فيه بالكلب يتبع الرجل،وهو مذكور فى " نهج البلاغة " .

واللَّهَج : الحرص .

ومعنى قوله عليه السلام : « لو اعتبرت بما مضى حفِظْت ما بقِيَ » ، أى لو اعتبرتَ بما مضَى من عمرك لحفظت باقيَه أن تنفقه فى الضّلال وطلب الدنيا وتضيّعه .

* * *

(١ـ١) صفين : « ولا تجارين معاوية فى باطله » .

(٢) غمص الناس : احتقرهم ؛ وسفه الحق ، أى جهله .

(٣) صفين ١٢٤

(٤) تنيب إلى الحق : ترجع

(٥ـ٥) صفين : « أن نجيب إلى ما تدعون إليه من شورى » .

(٦) صفين ١٢٣

(٥٠)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمرائه على الجيوش

من عبد الله على بن أبى طالب أمير المؤمنين رفعة إلى أصحاب المسالح :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى ٱلْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ ، وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ ٱللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ .

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ ، وَلَا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلَّا فِي حُكْمٍ ، وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ ، وَلَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ ، وَأَلَّا تَنْكِصُوا عَنْ دَعْوَةٍ ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ ، وَأَنْ تَخُوضُوا ٱلْغَمَرَاتِ إِلَى ٱلْحَقِّ ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ ٱلْعُقُوبَةَ ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً .

فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ ٱللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ ، وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

أصحابُ المسَالح : جماعات تـكون بالثّغر يحمون البَيْضة ، والمَسْلَحةهى الثّغر ، كالمرغبة ، وفى الحديث : « كان أدنى مسالحِ فارس إلى العَرب العُذَيْب »[1] ؛ قال : يجب على الوالى ألّا يتطاول على الرعيّة بولايته ، وما خُصّ به عليهم من الطَّوْل وهو الفضل ؛ وأن تـكون تلك الزيادة التى أعطِيها سبباً لزيادة دنوّه من الرعيّة وحنوّه عليهم .

ثم قال : « لكم عندى ألّا أحتجِز دونـكم بسرٍّ » ، أى لا أستتر . قال : « إلّا فى حرب » ، وذلك لأن الحرب يحمَد فيها طىّ الأسرار ، والحرب خُدعة .

ثمّ قال : « ولا أطوِى دونكم أمرا إلّا فى حُـكْم » ، أى أظهركم على كلٍّ مافى نفسى مما يحسن أن أظهرَكم عليـه ؛ فأمّا أحكام الشريعة والقضاء على أحَد الخصْمين فإنّى لا أعلمـكم به قبل وقوعه ؛ كيْلا تفسد القضيّـة بأن يحتال ذلك الشخص لصرْف الحـكْم عنه .

ثم ذكر أنّه لا يؤخّر لهم حقا عن محلّه ـ يعنى العطاء ؛ وأنّه لا يقف دون مقطعه ، والحق هاهنا غير العطاء ، بل الحـكم ، قال زُهير :

فإنّ الحقّ مقطعُـه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاء[2]

أى متى تعيّن الحـكْم حكَمْتُ به وقطعت ولا أقف ، ولا أتحبَّس .

ولمّا استوفىما شرط لهم قال : فإذا أنا وَفّيت بمـا شرطت على نفسى وجبتْ لله عليـكم النّعمةولى عليـكم[3] الطاعة .

ثم أخـذ فى الاشتراط عليهم كما شرطِ لهم ، فقال : ولى عليـكم ألّا تنـكصوا عن

---

(١) العذيب ؛ بالتصغير : يطلق على مواضع ؛ منهـا ماء بين القادسية والمغيثة ؛ بينه وبين القادسية أربعة أميال . (٢) ديوانه ٧٥ . النفار : المنافرة إلى الحاكم ؛ أو رجل يحكم بينهم . الجلاء : أن ينكشف الأمر وينجلى . (٣) ا : « نحوكم » .

دعوة ، أى لا تتقاعسُوا عن الجهاد إذا دعوتُكم إليه ، ولا تفرّطوا فى صلاح ؛ أى إذا أمكنتْكم فرصة ، أو رأيتم مصلحة فى حرب العدوّ أو حماية الثّغر ، فلا تفرّطوا فيها فتفوت . وأن تخوضوا الغمراتِ إلى الحقّ ؛ أى تكابدوا المشاقّ العظيمة ؛ ولا يهولنّكم خوضُها إلى الحقّ .

ثم توعّدهم إن لم يفعلوا ذلك ، ثم قال : فخذوا هذا من أمرائكم ؛ ليس يعنى به أنّ على هؤلاء أصحاب المسالح أمراء من قِبَله عليه السلام كالواسطة بينهم وبينه ، بل من أمرائكم ؛ يعنى منّى وممّن يقوم فى الخلافة مقامى بعدى ، لأنه لو كان الغرض هو الأوّل لما كان محلهم عنده أن يقول : « ألا أحتجز دونكم بسرٍّ ولا أطوى دونكم أمرا » لأن محلّ من كان بتلك الصفة دون هذا .

(٥١)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج :

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أصحاب الخراج :

أَمَّا بعدُ ؛ فإنَّ مَنْ لمْ يَحْذَرْ ماهُوَ سائِرٌ إليْهِ ، لمْ يُقدِّمْ لِنفْسِهِ مايُحْرِزُها .
وَاعْلَمُوا أنَّ ما كُلِّفْتُمْ يسِيرٌ ، وَأنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ ، لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مالَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ ، فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاءُ الْأُمَّةِ ، وَسُفَرَاءُ الأئِمَّةِ ، وَلَا تُحْشِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ ، وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ ، وَلَا تَبِيعُنَّ النَّاسَ فِي الْخَرَاجِ كُسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا ، وَلَا عَبْداً ، وَلَا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ ، وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهَدٍ ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْ سِلَاحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ .

وَلَا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً ، وَلَا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً ، وَلَا دِينَ اللهِ قُوَّةً .

وَأَبْلُوهُ فِي سَبِيلِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا

وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا ، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

* * *

الشرح :

يقول : لو قدّرنا أنّ القبائح العقليّة كالظلم والبغى لا عقابَ على فعلها بل فى تركها ثواب فقط ؛ لم يكن الإنسان معذوراً إذا فرّط فى ذلك الترك ؛ لأنه يكون قد حرَم نفسَه نفعاً هو قادر على إيصالها إليه .

قوله : « ولا تُحشموا أحداً » ؛ أى لا تغضبوا طالب حاجة فتقطعوه عن طلبها ، أحشمتُ زيداً ، وجاء « حَشَمْته » ، وهو أن يجلس إليك فتغضبه وتؤذيه . وقال ابن الأعرابىّ : حشمتُه : أخجلته ، وأحشمته : أغضبته ، والاسم الحِشْمة ، وهى الاستحياء والغضب .

ثم نهاهم أن يبيعوا لأرباب الخراج ماهو من ضروريّاتهم كثياب أبدانهم وكدابّةٍ يعتَمِلون عليها ، نحو بقر الفلاحة ، وكعبْدٍ لابدّ للإنسان منه يخدُمه ، ويسعى بين يديه .

ثم نهاهم عن ضرب الأبشار لاستيفاء الخراج .

وكتب عدىّ بن أرْطاة إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى عذاب العمّال ، فكتب إليه : كأنّى لك جُنّة من عذاب الله ، وكأنّ رضاىَ ينجيك من سَخط الله ! من قامت عليه بيّنة ، أو أقرّ بما لم يكن مضطهدا مضطرا إلى الإقرار به ، فخُذْه بأدائه ؛ فإن كان قادرا عليه فاستأدِ ، وإن أبَى فاحبسه ، وإن لم يقدر فخلّ سبيلَه ؛ بعد أن تُحلِّفه بالله أنّه لا يقدِر على شىء ، فلأنْ يلقوا الله بجناياتهم أحبُّ إلىّ من أن ألقاه بدمائهم .

ثم نهاهم أن يعرِضُوا لمال أحدٍ من المسلمين أو من المعاهَدِين ؛ المعاهد هاهنا : هو الذّمىّ أو مَنْ يدخل دار الإسلام من بلاد الشرك على عهد ، إما لأداء رسالة ، أو لتجارة ؛ ونحو ذلك ، ثم يعود إلى بلاده .

ثم نهاهم عن الظّلم وأخذ أموال النّاس على طريق المصادرة والتأوِيل الباطل ؛ قال : إلّا أن تخافوا غائلةَ المعاهَدين ، بأن تجدوا عندهم خيولًا أو سلاحا ، وتظنّوا منهم وثبة على بلد من بلاد المسلمين ، فإنه لا يجوز الإغضاء عن ذلك حينئذ .

قوله : « وأبْلُوا فى سبيل الله » ، أى اصطنعوا من المعروف فى سبيل الله ما استوجب عليكم ، يقال : هو يبلوه معروفا ، أى يصنعه إليه ، قال زهير :

جَزَى الله بالإحسانِ ما فَعَلَا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الّذِى يَبْلُو [1]

قوله عليه السلام : « قد اصطنع عندنا وعندكم أن نشكره » ، أى لأنْ نشكره، بلام التعليل وحذفها ، أى أحسن إلينا لنشكره ، وحذفها أكثر نحو قوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [2] .

---

(١) ديوانه ١١٦

(٢) سورة المائدة ٨٠

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد فى معنى الصلاة :

أَمَّا بَعْدُ فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِثْلَ مَرْبِضِ الْعَنْزِ ، وصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ والشَّمْسُ بَيْضاء حَيَّةٌ فى عِضْوٍ مِنَ النَّهارِ حِينَ يُسارُ فِيها فَرْسَخانِ ، وصَلُّوا بِهِمْ المَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ ، ويَدْفَعُ الحَاجُّ إِلَى مِنًى ، وصَلُّوا بِهِمُ الْعِشاءَ حِينَ يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ ، وصَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ والرَّجُلُ يَعْرِفُ وجْهَ صاحِبِهِ ، وصَلُّوا بِهِمْ صَلَاةَ أَضْعَفِهِمْ ؛ ولَا تَكُونُوا فتَّانِينَ .

* * *

الشَّرْحُ :

[بيان اختلاف الفقهاء فى أَوقات الصلوات]

قد اختلف الفقهاء فى أوقات الصلاة ، فقال أبو حنيفة : أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر الثانى ؛ وهو المعترِض فى الأفق ، وآخر وقتها مالم تطلع الشمس . وأوّل وقت الظهر إذا زالت الشمس ، وآخر وقتها إذا صار ظلّ كلِّ شىء مثليْه سوى الزوال . وقال أبو يوسف ومحمّد : آخر وقتها إذا صار الظلّ مثلَه .

قال أبو حنيفة : وأوّل وقت العصر إذا خرج وقتُ الظهر ؛ وهذا على القولين ، وآخر وقتها ما لم تغرب الشمس ، وأوّل وقت المغرب إذا غرَبت الشمس ، وآخر وقتها

مالم يغب الشّفق ؛ وهو البياض الّذِى فى الأفُق بعـد الحمرة . وقال أبو يوسف ومحمـد : هو الحمرة .

قال أبوحنيفة : وأوّل وقت العِشاء إذا غاب الشفق ، وهذا[1] على القولين، وآخر وقتها مالم يطلع الفجر .

وقال الشافعىّ : أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر الثـانى ، ولا يزال وقتها المختار باقياً إلى أن يسفر، ثم يبقى وقت الجواز إلى طلوع الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخرىّ من الشافعية : لا يبقى وقت الجواز ، بل يخرج وقتها بعـد الإسفار ويصلّى قضاء ؛ ولم يتابعه على هذا القول أحدٌ . قال الشافعىّ : وأوّل وقت الظُّهر إذا زالت الشمس . وحكى أبو الطيّب الطَّبرىّ من الشافعية أنّ من الناس من قال : لاتجوز الصّلاة حتى يصير الفىء بعد الزَّوال مثل الشِّراك .

وقال مالك : أحبّ أن يؤخر الظّهر بعد الزوال بقدر ما يصير الظلّ ذراعا ؛ وهذا مطابق لما قال أمير المؤمنين عليه السلام حين تفىء الشمس كَمرِبض العنز ، أى كموضع تربض العنز، وذلك نحو ذراع أو أكثر بزيادة يسيرة .

قال الشافعىّ : وآخر وقت الظهر إذا صار ظلّ كلّ شىء مثله ، ويعتبر المِثْل من حدّ الزّيادة على الظلّ الذى كان عند الزوال، وبهذا القول قال أبو يوسف ومحمد ؛ وقد حكيناه من قبلُ، وبه أيضا قال الثورىّ وأحمد ، وهو رواية الحسن بن زياد اللؤلؤىّ عن أبى حنيفة ، فأمّا الرواية المشهورة عنه ــ وهى الّتى رواها أبو يوسف ــ فهو أنّ آخر وقت الظهر صيرورة الظلّ مثليْه ، وقد حكيناه عنه فيما تقدم .

وقال ابن المنذر : تفرّد أبو حنيفة بهذا القول ؛ وعن أبى حنيفة رواية ثالثة أنه إذا صار ظلّ كل شىء مثـله خرج وقت الظهر ؛ ولم يدخل وقت العصر إلى أن يصير ظلّ كلّ شىء مثليْه .

---

(١) ا : « وهو » .

وقال أبو ثور ومحمد بن جرير الطبرىّ : قدر أربع ركعات بين المِثْل والمثلين ، يكون مشتركا بين الظهر والعصر .

وحكى عن مالك أنه قال : إذا صار ظلّ كل شىء مثله ، فهو آخر وقت الظهر وأوّل وقت العصر ، فإذا زاد على المِثْل زيادة بينة خرج وقت الظهر واختصّ الوقت بالعصر .

وحكى ابن الصّبّاغ من الشافعية ، عن مالك ، أنّ وقت الظّهر إلى أن يصير ظلّ كلّ شىء مثله وقتا مختارا ، فأمّا وقت الجواز والأداء فآخره إلى أن يبقى إلى غروب الشمس قَدْر أربع ركعات ؛ وهذا القول مطابقٌ لمذهب الإماميّة .

وقال ابن جُرَيج وعطاء : لا يكون مفرّطا بتأخيرها حتى تكون فى الشمس صُفرة .

وعن طاوس : لا يفوت حتى اللّيل .

فأمّا العصر فإن الشافعىّ يقول : إذا زاد على المِثْل أدنى زيادة ، فقد دخلَ وقت العصر ؛ والخلاف فى ذلك بينه و بين أبى حنيفة ؛ لأنّه يقول : أوّل وقت العصر إذا صار ظلّ كلّ شىء مثلَيْه ، وزاد عليه أدنى زيادة . وقد حكيناه عنه فيما تقدّم .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى العصر مطابق لمذهب أبى حنيفة ، لأنّ بعد صيرورة الظلّ مثلَيْه ، هو الوقت الذى تكون فيه الشمس حَيّة بيضاء فى عِضْو من النهار ، حين يُسار فيه فرسخان ، وأما قبل ذلك فإنّه فوق ذلك يُسار من الفراسخ أكثر من ذلك ، ولا يزال وقت الاختيار عند الشافعىّ للعصر باقياً حتى يصير ظلّ كلّ شىء مثليْه ؛ ثم يبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخرىّ من أصحابه : يصير قضاء بمجاوزة المِثْلَيْن ؛ فأمّا وقت المغرب فإذا غَرَبت الشمس وغروبها سقوط القرص .

وقال أبو الحسن علىّ بن حبيب الماوردىّ من الشافعيّة : لابدّ أن يسقط القُرْص و يغيب

حاجب الشمس ، وهو الضياء المستعلى عليها كالمتّصل بهـا ، ولم يذكر ذلك من الشافعيّة أحد غيره .

وذكر الشّاشى فى كتاب " حلية العلماء " أنّ الشيعة قالت : أوّل وقت المغرب إذا اشتبكت النجوم . قال: قد حكى هذا عنهم . ولا يساوى الحكاية ، ولم تذهب الشيعة إلى هذا ، وسنذكر قولهم فيما بعد .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى المغرب لا ينصّ على وقت معين لأنّه عرف ذلك بكونه وقت الإفطار ، ووقت ما يدفع الحاجّ ، وكلاَ الأمرين يحتاج إلى تعريف كما يحتاج وقت الصلاة ، اللهمّ إلّا أن يكون قد عرّف أمراء البلاد الّذين يصلّون بالناس من قبل هذا الكتاب متى هذا الوقت الذى يُفْطر فيه الصائم ، ثم يدفع فيه الحاجّ بعينه ، ثم يحيلهم فى هذا الكتاب على ذلك التعريف المخصوص .

قال الشافعى : وللمغرب وقت واحد ، وهو قول مالك .

وحكى أبو ثور عن الشافعىّ أنّ لها وقتين، وآخر وقتها إذا غابَ الشّفق. وليس بمشهور عنه ، والمشهور القول الأول ، وقد ذكرنا قول أبى حنيفة فيما تقدّم ، وهو امتداد وقتها إلى أن يغيب الشّفق ، و به قال أحمد وداود .

واختلَف أصحابُ الشافعىّ فى مقدار الوقت الواحد ، فمنهم من قال : هو مقدّر بقدْر الطّهارة وستر العَوْرة والأذان والإقامة وفعل ثلاث ركعات ، ومنهم مَنْ قَدّره بغير ذلك .

وقال أبو إسحاق الشيرازىّ منهم : التضييق إنّمـا هو فى الشّروع ، فأمّا الاستدامة فتجوز إلى مغيب الشفق .

فأما وقت العشاء ، فقـال الشافعىّ : هو أن يغيب الشفق وهو الحمرة ، وهو قول مالك وأحمد وداود وأبى يوسف ومحمـد ، وقد حكينا مذهب أبى حنيفة فيما تقدّم ، وهو أن يغيب الشفق الذى هو البياض ، و به قال زُفَر والمزنىّ .

قال الشافعىّ : وآخر وقتها المختار إلى نِصْف الليل ، هذا هو قوله القديم ، وهو مذهب أبى حنيفة ، وقال فى الجديد : إلى ثلث الليل . و يجب أن يحمَل قولُ أميرِ المؤمنين عليه السلام فى العشاء أنّها إلى ثلث الليل على وقت الاختيار ، ليكون مطابقا لهذا القول ، و به قال مالك ، و إحدى الروايتيْن عن أحمد ، ثم يذهب وقت الاختيار؛ و يبقى وقتُ الجواز إلى طلوع الفجر الثانى .

وقال أبو سعيد الإصطخرىّ : لا يبقى وقت الجواز بعد نصف الليل ، بل يصير قضاء .

***

فقد ذكرنا مذهبى أبى حنيفة والشافعى فى الأوقات ، وهما الإمامان المعتبران فى الفقه ، ودخل فى ضمن حكاية مذهب الشافعى ما يقوله مالك وأحمد وغيرهما من الفقهاء .

فأما مذهب الإماميّة من الشيعة ، فنحن نذكره نقلا عن كتاب أبى عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رحمه الله المعروف بالمفيد " بالرسالة المقنّعة " قال : وقتُ الظهر من بعد زوال الشمس إلى أن يرجع الفىء سُبْعَى الشخص ، وعلامة الزوال رجوعُ الفىء بعد انتهائه إلى النّقصان ، وطريق معرفة ذلك بالإصطرلاب أو ميزان الشمس ، وهو معروف عند كثير من الناس ، أو بالعمود المنصوب فى الدائرة الهنديّة أيضا ، فمن لم يعرف حقيقة العمل بذلك ، أو لم يجد آلته فلينصب عوداً من خشب أو غيره فى أرض مستوية السّطح ، ويكون أصلُ العود غليظا ورأسه دقيقا شبْه المذرى ، الذى ينسج به التّكك أو المسلّة التى يخاط بها الأحمال ، فإن ظلّ هذا العود يكون بلا شكٍّ فى أول النهار أطولَ من العود ، وكلّما ارتفعت الشمس نقص من طوله حتى يقف القُرْص فى وسط السماء ، فيقف الفىء حينئذ ، فإذا زال القرص عن الوسط إلى جهة المغرب رَجَع الفىء إلى الزيادة . فليعتبْر مَنْ أراد الوقوف على وقت الزوال ذلك بخطط وعلامات يجعلها على رأس ظلّ العود عند وضعه

فى صدر النهار ، وكلّما نقص فى الظلّ شىء علّم عليه ، فإذا رجع إلى الزيادة على موضع العلامة عرف حينئذ برجوعه أن الشمس قد زالت .

و بذلك تُعرف أيضا القبلة ، فإنّ قُرْص الشمس يقف فيها وسَط النهار ، و يصير عن يسارها و يمين المتوجّه إليها بعد وقوفها وزوالها عن القُطْب ، فإذا صارت مما يلى حاجبه الأيمن من بين عينيه عُلم أنها قد زالت ، وعرف أنّ القبلة تلقاء وجهه ؛ ومن سبقت معرفته بجهة القبلة فهو يعرف زوال الشمس إذا توجّه إليها ، فرأى عينَ الشمس مما يلى حاجبه الأيمن ؛ إلا أنّ ذلك لا يبين إلاّ بعد زوالها بزمان ، و يبيّن الزوال من أوّل وقته بما ذكرناه من الإصطرلاب وميزان الشمس والدائرة الهندية والعمود الذى وصفناه ، ومَنْ لم يحصل له معرفة ذلك ، أو فقد الآلة توجّه إلى القبلة فاعتبر صيرورة الشمس على طرف حاجبه الأيمن وقت العصر من بعد الفراغ من الظهر ، إذا صليت الظهر فى أوّل أوقاتها ـ أعنى بعد زال الشمس بلا فصل ـ و يمتدّ إلى أن يتغيّر لون الشمس باصفرارها للغروب ، وللمضطر والناسى إلى مغيبها بسقوط القُرْص عمّا تبلغه أبصارنا من السماء، وأوّل وقت المغرب مغيب الشمس ، وعلامة مغيبها عدم الُحمْرة فى المشرق المقابل للمغرب فى السماء؛ وذلك أن المشرق فى السماء مُطلٌّ على المغرب ، فما دامت الشمس ظاهرة فوق أرضنا فهى تلقى ضوءها على المشرق فى السماء ، فيرى حُمْرتها فيه ، فإذا ذهبت الحمرة منه علم أن القُرْص قد سقط وغاب وآخره أول وقت العشاء الآخرة ، وأوّل وقتها مغيب الشمس وهو الحمرة فى المغرب ، وآخره مضى الثلث الأول من الليل ، وأول وقت الغداة اعتراض الفجر ، وهو البياض فى المشرق يعقبه الحمرة فى مكانه ؛ و يكون مقدمة لطلوع الشمس على الأرض من السماء ؛ وذلك أن الفجر الأول ، وهو البياض الظاهر فى المشرق يطلع طولا ثم ينعكس بعد مدّة عرضا ثم يحمر الأفق بعده للشمس .

ولا ينبغى للإنسان أنْ يصلّى فريضة الغداة حتى يعترض البياض ، وينتشر صُعُداً فى السماء كما ذكرنا ، وآخر وقت الغداة طلوع الشمس .

هذا ما تقوله الفقهاء فى مواقيت الصلاة .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « والرجل يعرِف وجه صاحبه » ؛ فمعناه الإسفار ، وقد ذكرناه .

وقوله عليه السلام : « وصلُّوا بهم صلاة أضعفِهم » ؛ أىْ لا تطيلوا بالقراءة الكثيرة والدّعوات الطويلة .

ثم قال : « ولا تكونوا فتّانين » ، أى لا تفتِنوا الناس بإتعابهم وإدخال المشقّة عليهم بإطالة الصلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة ، نحو أن يُحْدِث الإمام فيستخلف فيصلّى الناس خلف خليفته ، فإن ذلك لا يجوز على أحد قولى الشافعىّ ؛ ونحو أن يُطيل الإمام الركوع والسجود ، فيظنّ المأموم أنّه قد رفع فيرفعون أو يسبقونه بأركان كثيرة ؛ ونحو ذلك من مسائل يذكرها الفقهاء فى كتبهم .

* * *

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما بدأ بصلاة الظهر ، لأنها أوّلُ فريضة افترضت على المكلّفين من الصلاة على ما كان يذهب إليه عليه السلام ؛ وإلى ذلك تذهب الإماميّة ، وينصر قولَهم تسميتها بالأولى ؛ ولهذا بدأ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بذكرها قبل غيرها ؛ فأمّا مَنْ عدا هؤلاء فأول الصلاة المفروضة عندهم الصبح ؛ وهى أول النهار .

* * *

وأيضا يتفرع على هذا البحث القولُ فى الصلاة الوسطى ، ما هى ؟ فذهب جمهور

النّاس إلى أنها العصر ، لأنها بين صلاتىْ نهار وصلاتَى ليل ؛ وقد رووا أيضا فى ذلك روايات بعضها فى الصحاح ، وقياس مذهب الإمامية أنها المغرب ؛ لأنّ الظهر إذا كانت الأولى كانت المغرب الوسطى ؛ إلا أنّهم يروون عن أُئمتهم عليهم السلام أنها الظهر ، و يفسرون الوسطى بمعنى الفُضْلى ؛ لأنّ الوَسط فى اللغة هو خيار كل شىء ، ومنه قوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾(١) ، وقد ذهب إلى أنّها المغرب قوم من الفقهاء أيضا .

وقال كثير من الناس : إنّها الصبح ، لأنها أيضا بين صلاتىْ ليـل وصلاتىْ نهارٍ ، ورووا أيضا فيها روايات وهو مذهب الشافعى ، ومن الناس من قال : إنها الظهر كقول الإمامية ولم يسمع عن أحد معتبرا أنها العشاء إلا قولا شاذًّا ذكره بعضهم .

وقال : لأنها بين صلاتين لا تُقْصَرَان .

---

(١) سورة البقرة ١٤٣

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعى رحمه الله لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبى بكر وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن .

بسم الله الرحمن الرحيم

هَذَا ما أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ علىّ أَميرُ المُؤمِنِين ، مالِكَ بْنَ الحَارِثِ الأَشْتَرَ فى عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ ولاَّهُ مِصْرَ جِبَايَةَ خَرَاجِها ، وجِهادَ عَدُوِّها ، واسْتِصْلاَحَ أَهْلِها ، وعِمارَةَ بِلاَدِها .

أَمَرَهُ بِتَقْوى اللهِ وإِيثارِ طاعَتِهِ ، وإتّباعِ ما أَمَرَ بِهِ فى كِتابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وسُنَنِهِ الَّتى لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا باتِّباعِها ، ولا يَشْقَى إلاَّ مَعَ جُحُودِها وإِضاعَتِها ، وأَنْ يَنصرَ اللهَ سُبْحانَهُ بِيَدِهِ وقَلْبِهِ ولِسانِهِ ؛ فإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ ، وإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ .

وأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ ، ويَنْزَعَها عِنْدَ الجَمَحاتِ ، فإِنّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بالسوءِ ، إِلَّا ما رَحِمَ اللهُ .

ثُمَّ اعْلَمْ يامالِكُ ، أَنِّى قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بلادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْها دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وجَوْرٍ ، وأَنَّ النَّاسَ يَنظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فى مِثْلِ ما كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ

الْوُلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِى اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ . فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، فَامْلِكْ هَوَاكَ ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لا يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ .

***

الشرح :

نصرة الله باليد : الجهاد بالسيف ، و بالقلب الاعتقاد للحقّ ، وباللسان قولُ الحقّ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد تكفَّل الله بنُصرة من نَصَره ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ[1] ﴾ .

والجمَحات : منازعة النفْس إلى شهواتها ومآربها ، ونزعها بكفّها .

ثم قال له : قد كنت تسمع أخبار الولاة ، وتعيب قوماً وتمدح قوماً ، وسيقول الناس فى إمارتك الآن نحو ما كنت تقول فى الأمراء ؛ فاحذر أن تعاب وتذمّ كما كنت تعيب وتذمّ مَنْ يستحقّ الذم .

ثم قال : إنما يستدلّ على الصالحين بما يكثر سماعه من ألسنة النّاس بمدحهم والثناء عليهم ؛ وكذلك يستدلّ على الفاسقين بمثل ذلك .

وكان يقال : ألسنة الرعيّة أقلام الحقّ سبحانه إلى الملوك .

ثم أمره أنّ يشحّ بنفسه ، وفسّر له الشحّ ما هو ؟ فقال : أن تنتصف منها فيما أحبّت

---

(١) سورة الحج ٤٠

وكرهت ، أى لا تمكنها من الاسترسال فى الشهوات ، وكُنْ أميراً عليها ، ومسيطراً وقامعاً لها من التهوّر والانهماك .

فإن قلت : هذا معنى قوله : « فيما أحببْتَ » ، فما معنى قوله : « وكرهت ؟ » .

قلت : لأنها تكره الصلاة والصوم وغيرها من العبادات الشرعية ومن الواجبات العقلية ، وكما يجب أن يكون الإنسان مهيمنا عليها فى طرف الفعل يجب أن يكون مهيمناً عليها فى طرف التَّرْك .

* * *

الأصل :

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ : إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ؛ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ ، مِثْلَ الَّذِى تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ .

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَىْ لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنْدُوحَةً .

وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّى مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ .

وَإِذَا أَحْـدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَالَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ .

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ !

* * *

الشّرح :

أشعِر قلبَك الرحمة ، أى اجعلها كالشِّعار له ، وهو الثّوب الملاصق للجسد ؛ قال : لأنّ الرعيّة إمّا أخوك فى الدّين ، أو إنسان مثلك تقتضى رقّة الجنسيّة وطبع البشريّة الرحمةَ له .

قوله : « ويؤتى على أيديهم » ، مثل قولك : « ويؤخذ على أيديهم » ؛ أى يهذّبون ويثقّفون ، يقال : خذ على يد هذا السّفيه ، وقد حجَر الحاكم على فلان ، وأخذ على يده .

ثم قال : « فنسبتُهم إليك كنسبتك إلى الله تعالى » ، وكما تحب أن يصفح الله عنك ينبغى أن تصفح أنت عنهم .

قوله : « لا تنصبن نفسَك لحرْب الله » ؛ أى لا تبارزْه بالمعاصى . فإنه لا يدىْ لك بنقمته؛ اللام مُقحمة ، والمراد الإضافة ، ونحوه قولهم : لا أبالك .

قوله : « ولا تقولنّ إنى مُؤَمّر » ؛ أى لا تقل : إنى أمير ووالٍ آمر بالشىء فأطاع .

والإدغال : الإفساد ، ومنهكة للدين: ضعف وسقم .

ثم أمره عند حدوث الأُبّهة والعظمة عنده لأجل الرئاسة والإمْرَة أن يذكر عظمةَ الله تعالى وقدرتَه على إعدامه وإيجاده، وإماتته وإحيائه ؛ فإنّ تذكّر ذلك يطامن من غُلَوائه ، أىْ يغضّ من تعظّمه وتكبّره ، ويطأطىء منه .

والغَرْب : حدّ السيف ، ويستعار للسطوة والسرعة فى البطش والفَتْك .

قوله : « ويُفِىء » ؛ أى يرجع إليك بما بعد عنك من عَقْلك ، وحرْف المضارعة مضموم لأنّه من « أفاء » .

ومساماة الله تعالى : مباراته فى السموّ وهو العلوّ .

***

الأصْلُ :

أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لَكَ هَوًى فِيهِ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ ، وَكَانَ لِلهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ .

وَلَيْسَ شَىْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ ؛ فَإِنَّ اللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ .

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِى الْحَقِّ ، وَأَعَمُّهَا فِى الْعَدْلِ ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ ، وَإِنَّ سُخْطَ الخاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا العَامّةِ .

وَلَيْسَ أَحَـدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَئُونَةً فِي الرَّخَاءِ ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلاَءِ ، وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحَافِ ، وَأَقَلَّ شُـكْراً عِنْدَ الإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ المنعِ ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ ، مِنْ أَهْلِ الخَاصَّةِ ؛ وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالعُـدَّةُ لِلأَعْدَاءِ ؛ والعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ ، فَلْيَـكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ .

***

الشَّـرْحُ :

قال له : أنصِف اللهَ ، أى قُم له بمـا فَرَض عليك من العبادة والواجبـات العقليّة والسمعيّة .

ثمّ قال : وأنصِف الناس من نفسك ومن ولَدِك وخاصّة أهلِك ومَن تحبّه وتميل إليه من رعيّتك ، فمتى لم تفعل ذلك كنتَ ظالما .

ثمّ نهاه عن الظّلم ، وأكّد الوِصاية عليه فى ذلك .

ثمّ عرّفه أنّ قانون الإمارة الاجتهاد فى رضا العامّة ، فإنّه لا مبالاة بسُخْط خاصّة الأمير مع رضا العامّة ، فأمّا إذا سخِطَت العامّة لم ينفعه رضا الخاصّة ، وذلك مثل أن يكون فى البلد عشرةٌ أو عشرون من أغنيائه ، وذوِى الثّروة من أهله ، يلازمون الوالىَ ويخدُمونه ويسامرونه ، وقد صار كالصّديق لهم ، فإنّ هؤلاء ومن ضارَعهم من حواشى الوالى وأرباب الشفاعات والقرُبات عنده لا يُغنُون عنه شيئا عند تنكّر العامّة له ، وكذلك لا يضرّ سُخْط هؤلاء إذا رضيت العامّة ، وذلك لأنّ هؤلاء عنهم غنًى ، ولهم بدل ، والعامّة لا غنًى عنهم ولا بدل منهم ، ولأنّهم إذا شَغَبوا عليه كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب ، فلا يقاومه أحد ، وليس الخاصّة كذلك .

ثمّ قال عليه السلام ـ ونِعمَ ماقال : ليس شيء أقلَّ نفعا ، ولا أكثرَ ضررا على الوالى من خواصّه أيّام الولاية ، لأنّهم يثقّلون عليه بالحاجات ، والمسائل والشّفاعات ، فإذا عُزِل هَجَروه ورَفَضوه حتّى لو لقوه فى الطريق لم يسلّموا عليه :

والصِّغو[1] بالكسر والفتح والصّغا مقصور : الميْل .

* * *

الأصْـلُ :

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَأَشْنَأُهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ ، فَإِنَّ فِى النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِى أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا ، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَاظَهَرَ لَكَ ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَاغَابَ عَنْكَ ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ ؛ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ مَاتُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ[2] رَعِيَّتِكَ .

أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَالَا يَضِحُ لَكَ ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إلى تَصْدِيقِ سَاعٍ ، فَإِنَّ السَّاعِىَ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ .

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِى مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ ، وَلَا جَبَاناً يُضَعِّفُكَ عَنِ الْأُمُورِ ، وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ .

* * *

(١) ب : « الصفو » ، تحريف .　　(٢) فى د : « عن » .

الشَّرْحُ :

أشنَأُهم عندك ، أبغَضُهم إليك .

وتَغابَ : تغافَلْ ، يقال : تَغابى فلانٌ عن كذا .

و يَضِح : يَظهَر ، والماضى وَضَح .

* * *

[فصل فى النهى عن ذكر عيوب الناس وما ورد فى ذلك من الآثار]

عاب رجلٌ رجلا عند بعض الأشراف فقال له : لقد أُستدللتُ على كثرة عيوبك بما تُكثِر فيه من عُيوب الناس ، لأنّ طالبَ العُيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها .

وقال الشاعر :

وأجرأُ من رأيتَ بظهر غيبٍ على عَيب الرجال أولُو العيوبِ

وقال آخر :

يامن يعيب وعيبُه مُتَشَعِّبٌ كم فيك من عيبٍ وأنت تعيبُ !

وفى الخبر المرفوع : « دعُوا الناس بغَفَلاتهم يعيشْ بعضُهم مع بعض » .

وقال الوليد بن عتبة بن أبى سُفْيان : كنت أسايرُ أبى ورجلٌ معنا يقع فى رجل ، فالتفت أبى إلىّ فقال : يا بُنىّ ؛ نَزّه سمعَك عن استماع الخنا كما تُنزّه لسانَك عن الكلام به ، فإنّ المستمعَ شريك القائل ، إنّما نظر إلى أخبث مافى وعائه فأفرَغَه فى وعائك ، ولو رُدّت كلمة جاهل فى فيه لسعد رادّها كما شقِىَ قائلُها .

وقال ابن عباس : الحدَث حَدثان : حَدَث مِنْ فيك ، وحَدَث من فَرْجك .

وعاب رجلٌ رجلا عند قُتَيبة بن مسلم ؛ فقال له قتيبة: أمسِك وَ يْحك ! فقد تلمّظت بمُضغةٍ طالما لَفِظها الكرام .

ومرّ رجل بجارَيْن له ومعه ريبة ، فقال أحدهما لصاحبه : أفهمتَ مامعه من الرّيبة ؟ قال : ومامعه ؟ قال : كذا ، قال : عبدى حرّ لوجه الله شكرا له تعالى إذ لم يعرّفنى من الشرّ ماعرّفك .

وقال الفُضَيل بن عِياض : إنّ الفاحشة لَتَشيع فى كثير من المسلمين حتّى إذا صارت إلى الصالحين كانوا لها خُزّانا .

وقيل لبزُرْجُمِهر : هل من أحد لا عيبَ فيه ؟ فقال : الذى لا عيبَ فيه لا يموت .

وقال الشاعر :

ولست بذى نَيْرَبٍ فى الرّجا ... ل مَنّاعَ خيرٍ وسَبّابَها [1]
ولا مَنْ إذا كان فى جانبٍ ... أضاعَ العشيرةَ وأغتابَها
ولكن أطاوِعُ ساداتِها ... ولا أتعَلَّمُ ألْقابَها

وقال آخر :

لا تلتَمس من مساوى الناس ماسَتَروا ... فيكشف اللهُ سِتْرا من مَساوِيكا
وأذكر محاسنَ مافيهم إذا ذُكِروا ... ولا تَعِب أحداً منهم بما فيكا

وقال آخر :

ابدأ بنفسك فأنهَها عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه ، فأنت حكيمُ [2]
فهناك تُعذر إن وعظتَ ويقتدَى ... بالقول منكَ ويُقبَل التّعليمُ

* * *

(١) النيرب : الشر وحمل العداوة .

(٢) لأبى الأسود الدؤلى ؛ خزانة الأدب ٣ : ٦١٧ ؛ والرواية هناك : « عن غيها » .

فأمّا قوله عليه السلام : « أطلقْ عن الناس عقدة كلّ حقد » ، فقد استوفَى هذا المعنى زيادٌ فى خطبته البتْراء فقال : وقد كانت بينى و بين أقوام إحَن[١] ، وقد جعلت ذلك دَبْرَ أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسنا فليزدَدْ إحسانا ، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته ، إنّى لو علمتُ أنّ أحدكم قد قتله السُّلال[٢] من بُغضِى لم أكشف عنه قناعا ، ولم أهتِكْ له سِترا ، حتى يبدىَ لى صفحته ، فإذا فعل لم أناظرْه ، ألا فليشمل كلّ امرئ منكم على ما فى صدره ، ولا يكوننّ لسانُه شفرةً تجرى على وَدَجِه .

* * *

[فصل فى النهى عن سماع السعاية وما ورد فى ذلك من الآثار]

فأمّا قوله عليه السلام : « ولا تعجلنّ إلى تصديق ساعٍ » ، فقد ورد فى هذا المعنى كلامٌ حَسَن ، قال ذو الرّياستين : قبول السِّعاية شرّ من السعاية لأنّ السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس مَنْ دلّ على شىء كمن قبله وأجازه ، فامقت الساعىَ على سِعايته ، فإنه لو كان صادقا كان لئيما إذ هتَكَ العورة ، وأضاع الحُرْمة .

وعاتب مصعبُ بنُ الزبير الأحنفَ على أمرٍ بلغه عنه فأنكره ، فقال مُصعب : أخبرنى به الثِّقة ، قال : كلاّ أيها الأمير ، إن الثقة لا يبلّغ .

وكان يقال : لو لم يكن من عَيْب الساعى إلاّ أنه أصدق ما يكون ، أضرّ ما يكون على الناس ، لكان كافيا .

كانت الأكاسرة لا تأذن لأحد أن يطبخ السِّكْباج[٣] ، وكان ذلك مما يختصّ به الملِك ، فرفع ساعٍ إلى أنو شروان : إنّ فلانا دعانا ونحن جماعة إلى طعامٍ له وفيه

---

(١) الإحن : جمع إحنة ، وهى العداوة . (٢) السلال والسلّ بمعنى .
(٣) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل ؛ معرب .

سِكْباج ، فوقَّع أنو شروان على رقعته : قد حمدنا نصيحتَك ، وذَممنا صديقَك على سوء اختياره للإخوان .

جاء رجلٌ إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة عبد الملك على دِمَشق ، فقال : أيُّها الأمير ، إنّ عندى نصيحة ، قال : اذكُرها ، قال : جارٌ لى رجع من بعثه سرّا ، فقال : أمّا أنت فقد أخبرتَنا أنك جارُ سَوْء ، فإن شئت أرسلنا معك ، فإن كنت كاذبا عاقبناك ، وإن كنت صادقا مقتناك ، وإن تركتنا تركْناك ، قال : بل أتركك أيّها الأمير . قال : فانصرف .

ومثلُ هذا يُحكى عن عبد الملك أنّ إنسانا سأله الخلْوة ، فقال لجلسائه : إذا شئتم ! فانصرفوا ، فلمّا تهيّأ الرجل للكلام قال له : اسمع ما أقول ، إيّاك أن تمدَحَنى فأنا أعرَفُ بنفسى منك ، أو تَكذِبنى فإنّه لا رأى لمكذوب ، أو تسعى بأحد إلىّ فإنّى لا أحبّ السعاية ؛ قال : أفيأذنُ أمير المؤمنين بالانصراف ! قال : إذا شئت .

وقال بعض الشعراء :

لَعَمرُكَ ما سبّ الأميرَ عدوُّهُ ... ولكنّما سبَّ الأميرَ المبلِّغُ

وقال آخر :

حُرِمتُ مُنائى منكَ إنْ كانَ ذا الذى[1] ... أتاكَ به الواشُون عنّى كما قالوا

ولكنّهم لمّا رأوكَ شريعةً ... إلىّ تواصَوا بالنميمةِ واحْتالوا[2]

فقد صِرتَ أُذْنا للوُشاة سميعةً ... ينالون مِنْ عِرْضى ولو شئتَ ما نالوا

وقال عبد الملك بنُ صالح لجعفر بن يحيى وقد خرج يودّعه لمّا شخص إلى خُراسان : أيّها الأمير ، أُحِبّ أن تكون لى كما قال الشاعر :

(١) فى د « ان يكن الذى » ، وهو مستقيم الوزن والمعنى أيضاً .

(٢) الشريعة : مورد الشاربة .

فكونى على الواشين لَدّاء شَغْبةً ... كما أنا للواشى ألدُّ شَغُوبُ (١)

قال : بل أكون كما قال القائل :

وإذا الواشى وَشَى يوماً بها ... نفع الواشى بما جاء يضُرّ

وقال العباس بن الأحنف :

ما حطّك الواشُون من رُتْبةٍ ... عندى ولا ضَرّك مُغتابُ

كأنّهمْ أثنَوْا ولم يعلموا ... عليكَ عندى بالذى عابوُا

✡ ✡ ✡

قوله عليه السلام : « ولا تُدْخلن فى مشوورتك بخيلا يعدل بك عن الفَضْل ، ويعدك الفقر » ، مأخوذٌ من قول الله تعالى : ﴿ الشَّيطانُ يَعِدُكم الفقرَ ويأمُرُكُمْ بالْفَحْشَاءِ واللهُ يَعِدُكُمْ مَغفرةً منهُ وفَضْلاً ﴾ ؛ قال المفسّرون : الفَحْشاء ها هنا البُخْل ؛ ومعنى «يعدكم الفقر» ، يخيِّل إليكم أنكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم فيخوّفكم فتخافون فتبخلون .

قوله عليه السلام : «فإنّ البخلَ والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن بالله» ، كلامٌ شريف عالٍ على كلام الحكماء ، يقول : إن بينها قَدْرا مشترَكا وإن كانت غرائز وطبائع مختلفة ، وذلك القدْر المشترك هو سوء الظنّ بالله ، لأنّ الجبان يقول فى نفسه : إن أقدمتُ قُتِلت ، والبخيلَ يقول : إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرتُ ، والحريصَ يقول : إن لم أجدَّ وأجتهد وأدأب فاتنى ما أروم ؛ وكلّ هذه الأمور ترجع إلى سوء الظنّ بالله ، ولو أحسن الظنّ الإنسان بالله وكانَ يقينه صادقا لعلم أنّ الأجل مقدّر ، وأنّ الرزق مقدّر ، وأنّ الغنى والفقر مقدّران ، وأنّه لا يكون من ذلك إلاّ ما قضى الله تعالى كونه .

* * *

(١) اللداء : الشديدة الخصومة .

الأصلُ :

إنَّ شَرَّ وُزَرائِكَ مَنْ كانَ قبلَكَ للأَشْرارِ وَزِيراً ، وَمَنْ شَرَكَهُمْ فى الآثامِ فَلاَ يَكُونَنَّ لكَ بِطَانَةً ، فإنَّهُمْ أَعْوَنُ الأَثَمَةِ ، وإخْوَانُ الظَّلَمَةِ ؛ وأنْتَ واجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الخلفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرائِهِمْ ونَفَاذِهِمْ ، ولَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وآثامِهِمْ ، مِمَّنْ لَمْ يُعاوِنْ ظالِماً عَلَى ظُلْمِهِ ، ولا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ ؛ أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً ، وأَحْسَنُ لكَ مَعُونَةً ، وأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً ، وأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً .

فاتَّخِذْ أُولَئِكَ خاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وحَفَلاتِكَ ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الحَقِّ لكَ ، وأَقَلَّهُمْ مُساعَدَةً فِيما يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيائِهِ ، واقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ .

***

الشَّرْحُ :

نهاه عليه السلام ألّا يتّخذ بطانة قد كانوا من قبلُ بطانةً للظّلمة ، وذلك لأنّ الظلم وتحسينه قد صار ملَكةً ثابتة فى أنفسهم ، فبعيد أن يمكنهم الخلوّ منها إذ قد صارت كالخُلُق الغريزىّ اللازم لتكرارها وصيرورتها عادةً ، فقد جاءت النصوص فى الكتاب والسنّة بتحريم معاونة الظلمة ومساعدتهم ، وتحريم الاستعانة بهم ، فإنّ من استعان بهم كان معيناً لهم ، قال تعالى : ﴿ وما كُنتُ متَّخِذَ المُضِلِّين عَضُداً ﴾[1] وقال : ﴿ لا تجدُ قوماً يُؤْمِنُون باللهِ واليَوْم الآخر يُوَادّون مَنْ حادّ الله ورسولَهُ[2] ﴾ .

وجاء فى الخبر المرفوع : « يُنادَى يوم القيامة : أين من بَرَى[3] لهم » ـ أى الظالمين ـ قلما .

---

(١) سورة الكهف ٥١　　(٢) سورة المجادلة ٢٢

(٣) ب : « يرى » ، تحريف ، صوابه فى ا ، د .

أُتِى الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج ، فقال له : ما تقول فى الحجّاج ؟ قال : وما عَسَيت أن أقول فيه ، هل هو إلاّ خطيئة من خطاياك ، وشَرَر من نارِك ! فلعنك الله ولعن الحجّاج معك ! وأقبل يشتمهما ، فالتفت الوليد إلى عمرَ بن عبد العزيز فقال : ما تقول فى هذا ؟ قال : ما أقول فيه ! هذا رجل يشتِمُكم ، فإمّا أن تَشْتِمُوه كما شتمكم ، وإمّا أن تَعفُوا عنه . فغضب الوليدُ وقال لعُمَر : ما أظنّك إلاّ خارجيًا ؛ فقال عمر : وما أظنّك إلا مجنونا ؛ وقام فخرج مُغضَبا ، ولحقه خالدُ بنُ الرّيان صاحب شُرْطة الوليد ، فقال له : ما دعاك إلى ما كلّمتَ به أمير المؤمنين ؟ لقد ضربت بيدى إلى قائم سَيْفى أنتظر متى يأمرُنى بضرب عنقك ؛ قال : أوَ كنت فاعلا لو أمرك ؟ قال : نعم ، فلمّا استُخْلف عمرُ جاء خالد بن الرّيان فوقف على رأسه متقلّدا سيفه ، فنظر إليه وقال : ياخالد ، ضَعْ سيفك ، فإنك مطيعنا فى كلّ أمرٍ نأمرك به — وكان بين يديه كاتب كان للوليد ، فقال له : ضع أنتَ قلمك ، فإنك كنتَ تضرّ به وتنفع ، اللهّم إنى قد وضعتهما فلا ترفَعْهما ، قال : فو الله ما زالا وضيعَين ، مَهينَين حتى ماتا .

وروى الغزالىّ فى كتاب "إحياء علوم الدّين" ، قال : لما خالط الزّهرىّ السّلْطان كتب أخٌ له فى الدّين إليه : عافانا الله وإيّاك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك ، أصبحت شيخا كبيرا ، وقد أثقلتْك نعم الله عليك بما فهّمك من كتابه ، وعلّمك من سنّة نبيه ، وليس كذلك أخذ الله الميثاقَ على العلماء ، فإنه تعالى قال : ﴿ لَتُبيّنُنَّهُ للناس ولا تَكْتمونهُ [1] ﴾ . واعلم أنّ أيسرَ ما ارتكبت ، وأخفّ ما احتملت ، أنك آنستَ وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغىّ ، بدنوّك إلى مَنْ لم يؤدّ حقّا ، ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك أبا بكر قُطْبا تدور

---

(١) سورة آل عمران ١٨٧

عليه رَحاَ ظُلمهم ، وجِسْرا يعبرُون عليه إلى بلائهم ومعاصيهم ، وسُلَّما يَصعدون فيه إلى ضلالتهم ، يُدخِلون بك الشكّ على العلمــاء ، ويقتادون بك قلوبَ الجهلاء ، فما أيسر ما عَمَّروا لك فى جَنْب ما خرّبوا عِليك ، وما أكثر ما أخذوا منك فى جنب ما أفسدوا من حالك ودينك ! وما يؤمِّنك أن تـكون ممّن قال الله تعالى فيهم : ﴿ فخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أضاعوا الصّلاةَ واتبعوا الشهواتِ فسوف يَلقَون غيّا[1] ﴾ يا أبا بكر ، إنّك تُعامِل من لا يجهل ، ويحفظ عليك من لا يغفل ، فداوِ دِينَك فقد دخـله سَقَم ، وهَيِّئْ زادَكَ فقــد حضرَ سَفر بعيد ؛ ﴿ وما يخفَى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء[2] ﴾ ، والسلام .

***

الأصْـلُ :

والْصَقْ بأهْلِ الْوَرَعِ والصِّدْقِ ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى ألاّ يُطْرُوكَ ولاَ يُبَجِّحُوكَ بِباطِلٍ لَمْ تَفْعلْهُ ، فإنَّ كَثْرَةَ الإطْرَاء تُحْدِثُ الزَّهْوَ ، وتُدْنِى مِنَ الْعِزَّةِ .

ولاَ يَـكُونَنَّ الْمُحْسِنُ والْمُسِئُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاء ؛ فإنَّ فى ذَلِكَ تَزْهِيداً لأهْـلِ الإحْسانِ فى الإحْسانِ ، وتَدْرِيباً لأهْلِ الإساءَةِ عَلَى الإساءةِ ، وأَلْزِمْ كُلاًّ مِنهمْ ما أَلْزَمَ نَفْسَهُ .

***

---

(١) سورة مريم ١٢٥ (٢) سورة ابراهيم ٣٨

الشَّـرْحُ :

قوله : « والصَق بأهل الورع » ، كلمـةٌ فصيحة ، يقول : اجعلهم خاصّتك وخُلصاءك .

قال : ثمّ رُضْهم على ألاّ يُطرُوك ، أى عودهم ألاّ يمدحـوك فى وجهك . ولا يبجّحوك بباطل : لا يجعلوك ممن يبجَح أى يفخر بباطل لم يفعـله كما يُبَجِّح أصحابُ الأمراء الأمراء بأن يقولوا لهم : ما رأينا أعدل منكم ولا أسمحَ ، ولا حَمَى هذا الثغرَ أمير أشد بأسا منكم ! ونحو ذلك ، وقد جاء فى الخبر : « احثُوا فى وجوه المدّاحين التراب » .

وقال عبد الملك لمن قام يسارّه : ما تريد ! أتريد أن تمدَحَنى وتَصِفنى ، أنا أعلم بنفسى منك .

وقام خالد بنُ عبدِ الله القَسْرىّ إلى عمرَ بن عبـد العزيز يوم بيْعته فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ كانت الخلافة زائِنتَه فقد زيّنتَها ، ومَنْ كانت شرّفته فقد شرّفتها ، فإنّك لـكما قال القائل :

و إذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجُوهٍ كان للدّرّ حُسنُ وجهك زَيْنَا

فقال عمرُ بنُ عبد العزيز : لقـد أُعطِى صاحبُـكم هذا مِقْوَلًا ، وحُرِم مَعْقولا . وأمَرَه أن يجلس .

ولما عَقدَ معاوية البَيْعة لابنه يزيد قام النّاس يخطبون ، فقال معاوية لعمرو بنِ سعيد الأشْدَق : قم فاخطب يا أبا أميّة ، فقام فقال : أمّا بعد ، فإنّ يزيدَ ابنَ أمير المؤمنين أملٌ تأمُلونه : وأجلٌ تأمَنونه ، إن افتقرتم إلى حِلمِه وَسِعَـكم ، وإن احتَجتم إلى رأيه أرشَدَكم ، وإن اجتَدَيتم ذاتَ يده أغناكم وشَمِلَـكم ؛ جِذْعٌ قارِح ؛ سُوبِق فَسَبق ، ومُوجِد فمُجد ،

وقُورِع فقَرَع ، وهو خلفَ أمير المؤمنين ، ولا خَلَف منه . فقال معاوية : أَوْسعتَ ياأبا أميّة فاجلس ، فإنّما أردنا بعضَ هذا .

وأَثنَى رجلٌ على علىّ عليه السلام فى وجهه ثناءً أوسَع فيه ـ وكان عنده متّهما ـ فقال له : أنا دونَ ماتقول ، وفوق مافى نفسك .

وقال ابن عبّاس لعُتْبة بن أبى سُفْيان وقد أَثنَى عليه فأكثر : رويداً فقد أمهَيْتَ ياأبا الوليد ـ يعنى بالغتَ ، يقال أمهَى حافرُ البئْر ، إذا استقصَى حفرَها .

فأمّا قوله عليه السلام : « ولا يكوننّ المحسن والمسىء عندك بمنزلة سواء » ، فقد أخذه الصّابى فقال : « وإذا لم يكن للمُحسِن مايَرفعه ، وللمسىء مايَضَعُه ، زَهِد المحسن فى الإحسان ، واستمرّ المسىء على الطّغيان » ، وقال أبو الطّيّب :

شرّ البلاد بلادٌ لا صديقَ بها وشرّ مايكسب الإنسان مايصِمُ (١)

وشرّ مافبضتْه راحتى قَنَصٌ شُهْبُ البُزاة سواءٌ فيه والرَّخَمُ

وكان يقال : قضاء حقّ المحسن أدبٌ للمسىء ، وعقوبة المسىء جزاءٌ للمحسِن .

***

الأصل :

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَتَخْفِيفِهِ المَئونَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَالَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ ، فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنّ بِرَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ .

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٧٣ .

وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ ، وَٱجْتَمَعَتْ بِهَا ٱلْأُلْفَةُ ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ ، فَيَكُونَ ٱلْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا ، وَٱلْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا .

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَمُنَاقَشَةَ ٱلْحُكَمَاءِ ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ ؛ وَإِقَامَةِ مَا ٱسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ .

***

الشرح :

خلاصةُ صدرِ هذا الفصل، أنّ مَنْ أحسنَ إليك حَسُن ظنُّه فيك ، ومَنْ أساء إليك أُستَوْحش منك ، وذلك لأنَّك إذا أحسنتَ إلى إنسانٍ وتكرّر منك ذلك الإحسان تبع ذلك اُعتقادُك أنه قد أحبّك ، ثمّ يتبع ذلك الأعتقادَ أمرٌ آخر ، وهو أنّك تحبّه ؛ لأنّ الإنسان مجبول على أن يحبّ مَن يحبُّه ، و إذا أحببتَه سكنتَ إليه وحَسُن ظنّك فيه ، وبالعكس من ذلك إذا أسأتَ إلى زيد ، لأنّك إذا أسأت إليه وتكرّرت الإساءة تَبِع ذلك اُعتقادُك أنّه قد أبغضك ، ثمّ يتبع ذلك الأعتقادَ أمرٌ آخر ، وهو أن تُبغضه أنت ، و إذا أبغضتَه انقبضتَ منه وأستوحشت ، وساءَ ظنّك به .

قال المنصور للرّبيع : سَلْنى لنفسك ؛ قال : ياأمير المؤمنين ، ملأتَ يدى فلم يبقَ عندى موضعٌ للمسألة ؛ قال : فسَلْنى لوَلَدك ، قال : أسألك أن تحبّه ، فقال المنصور : يار بيع، إنّ الحبَّ لا يُسأل ، وإنّما هو أمرٌ تقتضيه الأسباب ، قال : يا أمير المؤمنين ، إنّما أسألك أن تزيد مِنْ إحسانك ، فإذا تكرّر أحبّك ، و إذا أحبّك أحببتَه . فأستحسن

المنصورُ ذلك ، ثمّ نهاه عن نقض السّنن الصالحة التى قد عمل بهـا من قبله من صالحى الأمّة ، فيـكون الوزر عليـه بما نقَض ، والأجر لأولئك بما أسّسوا ، ثم أمره بمطارحة العلماء والحكماء فى مَصالح عمله ، فإنّ المشورة بركة ، ومن استشار فقـد أضاف عقْلا إلى عقله . وممّا جاء فى معنى الأوّل :

قال رجلٌ لإياس بن معاوية : مَن أحبُّ الناسِ إليك ؟ قال : الذين يُعطُونى ، قال: ثمّ من ؟ قال : الذين أُعطِيهم .

وقال رجل لهشام بن عبد الملك : إنّ الله جعل العطاء محبّـة ، والمنعَ مَبغضَة ، فأعِنّى على حُبّك ، ولا تُعِنّى فى بُغْضك .

***

الأصْـلُ :

وَٱعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ ، لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلا بِبَعْضٍ ، وَلَا غِنًى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ، فَمِنْهَا جُنُودُ ٱللهِ ، وَمِنْهَا كُتَّابُ ٱلْعَامَّةِ وَالخَاصَّةِ ، وَمِنْهَا قُضَاةُ ٱلْعَـدْلِ ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الإنْصَافِ وَالرِّفْقِ ، وَمِنْهَا أَهْلُ ٱلْجِزْيَةِ وَٱلْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِى الحَاجَاتِ وَالمَسْكَنَةِ ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى ٱللهُ لَهُ سَهْمَهُ ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِى كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً .

فَٱلجُنُودُ بِإِذْنِ ٱللهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ ، وَزَيْنُ ٱلْوُلَاةِ ، وَعِزُّ الدِّينِ ، وَسُبُلُ ٱلْأَمْنِ ؛ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ ٱللهُ لَهُمْ مِنَ الخرَاجِ الَّذِى يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهٰذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ ٱلْقُضَاةِ وَٱلْعُمَّالِ

وَالْكُتَّابِ ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا ؛ وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ ، مِمَّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ .

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ ، الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ. وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ .

وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ ، إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ ؛ وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ .

***

الشرح :

قالت الحكماء : الإنسانُ مَدَنيٌّ بالطّبع ومعناه أنه خُلِق خِلْقةً لابدَّ معها من أن يكون منضمًّا إلى أشخاصٍ من بنى جنسه ، ومتمدّنا فى مكان بعينه ، وليس المراد بالمتمدّن ساكنَ المدينة ذات السّور والسّوق ، بل لابدّ أن يقيم فى موضع مّا مع قوم من البَشَر ؛ وذلك لأنّ الإنسان مضطرٌّ إلى مايأكله ويشرَبُه ليقيمَ صورتَه ، ومضطرٌّ إلى مايلبسه، ليدفع عنه أذى الحرّ والبَرْد ، وإلى مَسكَن يسكُنه ليردّ عنه عاديةَ غيره من الحيوانات ، وليكون مَنزِلا له ليتمكّن من التصرّف والحركة عليه ، ومعلومٌ أن الإنسان وحدَه لا يستقلّ بالأمور التى عددناها ، بل لابدّ من جماعة يَحرُث بعضهم لغيره الحرْث ، وذلك الغير يَحُوك للحرّاث الثوب ، وذلك الحائك يبنى له غيره المَسْكَن ، وذلك البنّاء يحمل له

غيرُه[١] الماء ، وذلك السّقاء يكفيه غيرُه أمرَ تحصيل الآلة التى يطحن بها الحبّ ويعجن بها الدّقيق ، ويَخبز بها العجين ، وذلك المحصّل لهذه الأشياء يكفيه غيرُه الاهتمام بتحصيل الزّوجة التى تدعو إليها داعية الشَّبَق ، فيَحصُل مساعدة بعض الناس لبعض ، لولا ذلك لما قامت الدنيا ، فهذا معنى قوله عليه السلام : «إنّهم طبقات لا يصلُح بعضُها إلّا ببعض ، ولا غَناء ببعضها عن بعض » .

ثم فصّلهم وقسّمهم فقال : منهم الجند ، [٢]ومنهم الكتّاب ،ومنهم القُضاة ، ومنهم العمّال[٢] ، ومنهم أرباب الجزية من أهل الذمّة ، ومنهم أرباب الخراج من المسلمين ، ومنهم التجّار ، ومنهم أرباب الصّناعات . ومنهم ذوو الحاجات والمَسكَنة ، وهم أدوَن الطبقات .

ثم ذكر أعمال هذه الطبقات فقال : الجند للحماية ، والخراجُ يُصرَف إلى الجند والقُضاة والعمّال والكتّاب لما يحكمونه من المعاقد ، ويجمعونه من المنافع ، ولابدّ لهؤلاء جميعا من التجّار لأجل البَيْع والشّراء الّذى لا غَناءَ عنه ، ولابدّ لكلٍّ من أرباب الصناعات كالحدّاد والنجّار والبنّاء وأمثالهم . ثمّ تلى هؤلاء الطبقة السفلى ، وهم أهل الفقر والحاجة الّذين تجب معونتُهم والإحسانُ إليهم .

وإنّما قسّمهم فى هذا الفصل هذا التقسيم تمهيدا لما يذكره فيما بعد ، فإنّه قد شرع بعد هذا الفصل فذَكَر طبقةً طبقةً وصِنفاً صِنفا ، وأوصاه فى كلّ طبقة وفى كلّ صِنْف منهم بما يليق بحاله ، وكأنّه[٣] مَهّد هذا التمهيد ، كالفِهْرِست لما يأتى بعده من التفصيل .

* * *

(١) ب : « غير تحريف » .

(٢–٢) ساقط من ب ، وأثبته من ا ، د .

(٣) ا : « فكأنه » .

الأصل :

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ ، وَأَطْهَرَهُمْ جَيْباً ، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً ، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ ؛ وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ ؛ وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ .

ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ ؛ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ ؛ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ .

ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا ؛ وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ . وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ .

وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا ؛ فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ ؛ وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ ؛ وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ . وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ[1] عَلَى وُلَاةِ أُمُورِهِمْ ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ .

فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ ، وَوَاصِلْ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ

---

(١) مخطوطة النهج : « بحيطتهم » بالياء المشددة المكسورة .

مِنْهُمْ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ فَعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ .

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى ، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ .

وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعَظِّمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً ، وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً ، وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) ، فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ .

* * *

الشرح :

هذا الفصل مختصّ بالوصاة فيما يتعلّق بأمراء الجيش ، أمَرَه أن يولّيَ أمر الجيش من جنودِه مَن كان أنصحَهم لله فى ظنّه ، وأطهرَهم جَيْبا ، أى عفيفا أمينا ؛ ويُكنَى عن العفّة والأمانة بطهارة الجَيْب ، لأنّ الّذى يسرق يجعل المسروق فى جَيْبه .

فإن قلت : وأىّ تعلّق لهذا بوُلاة الجيش ؟ إنّما ينبغى أن تكون هذه الوصيّة فى وُلاة الخراج !

قلت : لابدّ منها فى أمراء الجيش لأجل الغنائم .

ثمّ وصف ذلك الأمير فقال : «ممّن يبطىء عن الغضب ، ويستريح إلى العُذر» ، أى يقبل

---

(١) سورة النساء ٥٩

أدنى عذر ، ويستريحُ إليه ، ويَسكُن عنده ، ويَرْؤُفَ[1] على الضّعفاء ، يَرفق بهم ويَرحَمُهم . والرأفة : الرحمة . ويَنْبو عن الأقوياء : يَتجافى عنهم ويبعد ، أى لا يُمكّنهم من الظّلم والتعدّى على الضعفاء . ولا يثيره العُنْف : لا يهيج غضبَه عُنْف وقَسْوة . ولا يَقْعد به الضّعف ، أى ليس عاجزا .

ثم أمره أن يَلصق بذوى الأحساب وأهلِ البُيوتات ، أى يكرمهم ويَجعل مُعوّله فى ذلك عليهم ولا يتعدّاهم إلى غيرهم ، وكان يقال : عليكم بذوِى الأحساب ؛ فإنْ هم لم يتكرّموا استحيَوْا[2] .

ثم ذكر بعدهم أهلَ الشجاعة والسّخاء ، ثم قال : « فإنها جِمَاع من الكرم ، وشُعَب من العرف » ؛ من هاهنا زائدة ؛ وإن كانت فى الإيجاب على مذهب أبى الحسن الأخفش ، أى جماع الكرم ، أى يجمعه كقول النبى صلى الله عليه وآله : « الخمر جِمَاع الإثم » . والعُرْف : المعروف .

وكذلك « من » فى قوله : « وشُعَب من العُرْف » أى وشُعب العُرْف ، أى هى أقسامه وأجزاؤه ، ويجوز أن تكون « من » على حقيقتها للتبعيض ، أى هذه الخلال جملة من الكرم وأقسام من المعروف ؛ وذلك لأنّ غيرها أيضا من الكرم والمعروف ، نحو العدل والعفّة .

قوله : « ثم تفقَّدْ من أمورهم » ، الضمير هاهنا يرجع إلى الأجناد لا إلى الأمراء لما سنذكره ؛ ممّا يدلّ الكلام عليه .

فإن قلت : إنه لم يَجْرِ للأجناد ذِكْرٌ فيما سبق ؛ وإنما المذكور الأمراء !

قلت : كلاّ بل سبق ذكر الأجناد ، وهو قوله : « الضعفاء والأقوياء » .

---

(١) د : « يرأف » ، تحريف .

(٢) د : « استحسبوا » ، ب : « استحبوا » ، وأثبت ما فى ا .

وأمره عليه السلام أن يتفقّد من أمور الجيش مايتفقّد الوالدان من حال الوَلد ؛ وأمره ألّا يعظِّم عنده مايقوّيهم به وإن عظم ، وألّا يستحقِر شيئاً تعهّدهم به وإن قلّ ، وألّا يمنعه تفقّدُ جسيم أمورهم عن تفقد صغيرها . وأمره أن يكون آثر رءوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه مَنْ واساهم فى معونته ؛ هذا هو الضمير الدالّ على أنّ الضمير المذكور أولا للجُند لا لأمراء الجند ؛ لولا ذلك لما انتظم الكلام .

قوله : « من خُلُوف أهليهم » ، أى ممن يخلفونه من أولادهم وأهليهم .

ثم قال : لا يصحّ نصيحة الجند لك إلا بحيطتهم على ولاتهم ؛ أى بتعطّفهم عليهم وتحنُّنهم ، وهى الحِيطَة على وزن الشِّيمة ، مصدر حاطه يحوطه حَوْطا وحياطة ، وحِيطة ، أى كلأه ورعاه ، وأكثر الناس يروونها إلّا « بحيِّطتهم » بتشديد الياء وكسرها ، والصحيح ماذكرناه .

قوله : « وقلّة استثقال دُوَلهم » ؛ أى لا تصحّ نصيحة الُجنْد لك إلّا إذا أحبُّوا أمراءهم ثم لم يستثقلوا دُوَلهم ؛ ولم يتمنّوا زوالَها .

ثم أمره أن يذكر فى المجالس والمحافل بلاء ذوى البلاء منهم ؛ فإنّ ذلك مما يُرهِف عَزْم الشُّجَاع ويحرّك الجبان .

قوله : « ولا تضمَّنَّ بلاَء امرئٍ إلى غيره » ، أى اذكر كلَّ مَنْ أبلى منهم مفرَدا غير مضموم ذكرُ بلائه إلى غيره ، كى لا يكون مغمورا فى جَنْب ذكر غيره .

ثم قال له : لا تعظّم بلاء ذوِى الشرف لأجل شرفهم ، ولا تحقِر بلاء ذَوِى الضَّعَة لضعة أنسابهم، بل اذكر الأمورَ على حقائقها .

ثم أمره أن يردّ إلى الله ورسوله ما يُضلعه من الخطوب ؛ أى مايئوده ويُميله

لثقَله ، وهذه الرواية أصحّ من رواية من رواها بالظّاء ؛ و إن كان لتلك وجه .

* * *

[رسالة الإسكندر إلى أرسطو وردّ أرسطو عليه]

و ينبغى أن نذكر فى هـذا الموضع رسالة أرسطو إلى الإسكندر فى معنى المحافظة على أهل البيوتات وذوى الأحساب ، وأن يخصّهم بالرياسة والإمْرة ؛ ولا يعدل عنهم إلى العامّة والسِّفلة ، فإن فى ذلك تشييداً لـكلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ووصيّته

لما ملك الإسكندر إيران شَهْر — وهو العراق مملـكة الأكاسرة — وقتلَ دارًا بن دارا كتب إلى أرسطو وهو ببلاد اليونان :

عليك أيّها الحـكيم منّا السلام ، أما بعد ؛ فإن الأفلاك الدائرة ، والعلل السمائيّة ؛ و إن كانت أسعدتنا بالأمور التى أصبح الناس لنا بهـا دائبين ، فإنّا جدُّ واجِدِين لمس الاضطرار إلى حكمتك ، غير جاحدين لفضلك والإقرار بمنزلتك ، والاستنامَة[١] إلى مشورتك والاقتـداء برأيك ؛ والاعتماد لأمرك ونهيك ، لِمَا بلوْنَا من جَدا ذلك علينا ، وذقنا من جنًا منفعته ، حتى صار ذلك بنجوعه فينا ، وترسُّخه فى أذهاننا وعقولنا كالغذاءِ لنا ، فما ننفكّ نعوّل عليه ، ونستمدّ منه استمدادَ الجـداول من البحور ، وتعويل الفروع على الأصول ، وقوّة الأشكال بالأشكال . وقد كان مما سيق إلينا من النّصر والفَلْج ، وأتيح لنا من الظَّفَر ، وبلغنا فى العدوّ من النّـكاية والبطش ما يعجز القول عن وصفه ، ويقصر شكر المنعم عن موقع الإنعام به ، وكان من ذلك أنّا جاوزنا أرض سورِيَة والجزيرة إلى بابل وأرض فارس ، فلما حللنا بعقْوة[٢] أهلهـا وساحة بلادهم ، لم يـكن إلا ريثما تلقّانا نفرٌ منهم برأس ملـكهم هديَّة إلينا ، وطلباً للحظوة عندنا ، فأمرنا بصلْب مَن

---

(١) كذا فى ا ، واستنام إلى الأمر : سكن إليه ؛ وفى ب : « الاستبانة » .

(٢) العقوة : ما حول الدار

جاء به وشهرته لسوءبلائه ، وقلة ارعوائه ووفائه ؛ ثم أمرنا بجمع مَنْ كان هناك من أولاد ملوكهم وأحرارهم وذوى الشرف منهم ؛ فرأينا رجالاً[1] عظيمةً أجسامهم وأحلامهم ، حاضرة ألبابهم وأذهانهم ، رائعة مناظرهم ومناطقهم ، دليلاً على أن ما يظهر من رُوائهم ومنطقهم أنّ وراءه من قوّة أيديهم ، وشدّة نجْدتهم وبأسهم ما لم يكن ليكون لنا سبيل إلى غلَبتهم و إعطائهم بأيديهم ، لولا أنّ القضاء أدالنا منهم ، وأظفرنا بهم ، وأظهرنا عليهم ، ولم نرَ بعيدا من الرأى فى أمرهم أن نستأصل شأفتهم ، ونجتثّ أصلهم ، ونلحقهم بمَنْ مضى من أسلافهم ، لتسكن القلوب بذلك إلى الأمْن جرائرهم و بوائقهم ؛ فرأينا ألاّ نعجل بإسعافٍ بادئ الرأى فى قتلهم دون الاستظهار عليهم بمشورتك فيهم . فارفع إلينا رأيك فيما استشرناك فيه بعدصحّته عندك ، وتقليبك إياه بجلىّ نظرك ، وسلام أهل السلام ، فليكن علينا وعليك .

فكتب إليه أرسطو :

لملك الملوك ، وعظيم العظماء ، الإسكندر المؤيّد بالنصر على الأعداء ، المهدىّ له الظفر بالملوك ، مِن أصغر عبيده وأقل خوَلِهِ ؛ أرسطوطاليس البَخُوع بالسُّجود ، والتذلل فى السلام ، والإذعان فى الطاعة .

أما بعد ، فإنه لا قوّة بالمنطق و إن احتشد الناطق فيه ، واجتهد فى تثقيف معانيه ، وتأليف حروفه ومبانيه على الإحاطة بأقلّ ما تناله القدرة من بَسْطه علوّ الملك وسموّ ارتفاعه عن كلّ قولٍ ، وإبرازه على كلّ وصف ، واغترافه بكلّ إطناب . وقد كان تقرّر عندى من مقدّمات إعلام فضل الملك فى صَهْلة سبقه ، و بروز شأوه ، ويُمْن نقيبته ، مذ أدّت إلىّ حاسةُ بصرِى صورة شخصه ، واضطرب فى حسّ سمعى صوتُ لفظه ، ووقع وهمى

(١) ب : « رجالة » .

على تعقب نجاح رأيه ، أيّام كنت أؤدى إليه من تكلّف تعليمى إيّاه ما أصبحتُ قاضيا على نفسى بالحاجة إلى تعلّمه منه . ومهما يَكُنْ منّى إليه فى ذلك ، فإنما هو عقل مردود إلى عقله ، مستنبطة أواليه وتواليه من علمه وحكمته . وقد جلا إلىّ كتاب الملك ومخاطبته إيّاى ومسألته لى عمّا لا يتخالجنى الشكّ فى لقاح ذلك و إنتاجه من عنده ، فمنه صَدَر وعليه ورَد ؛ وأنا فيما أشير به على الملك — و إن اجتهدت فيه واحتشدت له ، وتجاوزت حدّ الوسع والطاقة منّى فى استنطافه واستقصائه — كالعدم مع الوجود ، بل كما لا يتجزّأ فى جنب معظم الأشياء ، ولكنّى غير ممتنع من إجابة الملك إلى ما سأل ، مع علمى ويقينى بعظيم غناه عنى ، وشدّة فاقتى إليه ، وأنا رادٌّ إلى الملك ما اكتسبتهُ منه ، ومشير عليه بما أخذته ، منه فقائل له :

إنّ لكل تربة لا محالة قَسْماً من الفضائل ، و إن لفارس قسمها من النَّجْدة والقوّة ، و إنّك إن تقتل أشرافهم تُخَلِّف الوضعاء على أعقابهم ، وتورث سِفْلتهم على منازل عِلْيَتهم ، وتغلِّب أدنياءهم على مراتب ذوى أخطارهم ؛ ولم يبتلَ الملوك قطّ ببلاء هو أعظمُ عليهم وأشدّ توهينا لسلطانهم من غلبة السِّفْلة ، وذلّ الوجوه ، فاحذر الحذر كله أنْ تمكّن تلك الطبقة من الغَلَبة والحركة ، فإنه إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجمٌ دهمهم منه مالا رويّة فيه ، ولا بقيّة معه ؛ فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمَد إلى مَنْ قبلك من أولئك العظماء والأحرار ، فوزّع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كلّ مَنْ ولّيته منهم ناحيته ، واعقد التاج على رأسه و إن صغر ملكه ، فإن المتسمّى بالملك لازم لاسمه ، والمعقود التاج على رأسه لا يخضع لغيره ، فليس ينشب[1] ذلك أن يوقع كلّ ملك منهم بينه و بين صاحبه تدابراً وتقاطعاً وتغالباً على الملك ، وتفاخراً بالمال والجند ؛ حتى ينسوْا بذلك أضغانهم عليك وأوتارهم فيك ، و يعود حربهم لك حرباً

(١) ا : « يلبث » .

بينهم ، وحنَقهم عليك حنقاً منهم على أنفسهم ، ثم لا يزدادون فى ذلك بصيرة إلا أحدثوا لك بها استقامة ؛ إن دنوتَ منهم دانوا لك ، وإن نأيتَ عنهم تعزّزوا بك ، حتى يثب مَنْ ملك منهم على جاره باسمِك ، ويسترهبَه بجندك ، وفى ذلك شاغلٌ لهم عنك ، وأمانٌ لإحداثهم بعدك ، وإن كان لا أمانَ للدهر ، ولا ثقة بالأيام .

قدأدّيتُ إلى الملك ما رأيتهُ لى حظا ، وعلىّ حقا ، من إجابتى إيّاه إلى ما سألنى عنه ، ومحضتهُ النصيحة فيه ، والملكُ أعلى عيناً ، وأنفذُ رَوِيّةً ، وأفضل رأيا ، وأبعد هِمّة فيما استعان بى عليه ؛ وكلّفنى بتبيينه والمشورة عليه فيه . لا زال الملك متعرّفاً من عوائد النّعم وعواقب الصنع ، وتوطيد الملك ، وتنفيس الأجل ، ودَرك الأمل ؛ ما تأتى فيه قدرته على غاية قصوى ما تناله قدرة البشر !

والسلام الذى لا انقضاء له ، ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء ، فليكن على الملك .

قالوا : فعمِل الملك برأيه ، واستخلف على إيران شهر أبناء الملوك والعظماء من أهل فارس ، فهم ملوك الطوائف الذين بقوا بعده ؛ والمملكة موزعة بينهم إلى أن جاء أزدشير ابن بابك فانتزع الملك منهم .

* * *

الأصْلُ :

ثُمَّ اُخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِى نَفْسِكَ ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ ، وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ ، وَلَا يَتَمَادَى فِى الزَّلَّةِ ، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَىْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ ، وَلَا يَكْتَفِى بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ . وَأَوْقَفَهُمْ فِى الشُّبُهَاتِ ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّمًا بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ ، وَأَصْبَرَهُمْ

عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ .

ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ ، وَأَفْسِحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيحُ عِلَّتَهُ ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَالَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَرًا بَلِيغاً ، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا .

***

الشَّرْحُ :

تمحّكه الخصوم : تجعله ماحكا ، أى لجوجا ، محك الرّجل ، أى لجّ ، وماحك زيد ، عمْرا ؛ أى لاجّه .

قوله : « ولا يتمادى فى الزّلّة » ، أى إن زلّ رجع وأناب ، والرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادى فى الباطل .

قوله : « ولا يحصَر من الفىء » هو المعنى الأول بعينه ، والفىء : الرجوع ، إلاّ أنّ ها هنا زيادة ، وهو أنه لا يحصَر ، أى لا يعيا فى المنطق ، لأنّ مِن النّاس من إذا زلّ حصِر عن أن يرجع وأصابه كالفهاهة والعىّ خجلا .

قوله : « ولا تُشرِفُ نفسه » ، أى لا تشفق . والإشراف : الإشفاق والخوف ، وأنشد الليث :

ومِنْ مُضَر الحمراء إشراف أنفسٍ   علينا وحيّاها علينا تمضّرا

وقال عروة بن أُذَيْنة :

لقد عَلِمْتُ وما الإشرافُ من خُلُقى أنّ الذى هو رزقى سوفَ يأتينى(١)

والمعنى : ولا تشفق نفسه ، وتخاف من فوت المنافع والمرافق .

ثم قال : « ولا يكتفى بأدنى فهم » ، أى لا يكون قانعا بما يخطر له بادئ الرأى من أمر الخصوم ، بل يستقصى و يبحث أشدّ البحث .

قوله : « وأقلهم تبرّما بمراجعة الخصم » ، أى تضجُّراً ، وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه عليه السلام ، فإنّ القلق والضجر والتبرُّم قبيح ، وأقبح ما يكون من القاضى .

قوله : «وأصرمهم» ، أى أقطعهم وأمضاهم . و ازدهاه كذا ، أى استخفّه . والإطراء : المدح . والإغراء : التحريض .

ثم أمره أنْ يتطلّع على أحكامه وأقضيته ، وأن يفرض له عطاء واسعا يملأُ عينه ، و يتعفّف به عن المرافق والرّشوات ، وأن يكون قريب المكان منه ، كثير الاختصاص به ليمنع قربه من سعاية الرجال به وتقبيحهم ذكره عنده .

ثم قال : « إنّ هذا الدّين قد كان أسيرا» ، هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه ، وأنّهم لم يكونوا يقضون بالحقّ عنده ، بل بالهوى لطلب الدنيا .

وأما أصحابنا فيقولون : رحم الله عثمان ! فإنه كان ضعيفا ، واستولى عليه أهله ، قطعوا الأمور دونه ، فإثمهم عليهم وعثمان برىء منهم .

* * *

---

(١) اللسان (شرف)

[فصل فى القضاة وما يلزمهم وذكر بعض نوادرهم]

قد جاء فى الحديث المرفوع : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » ؛ وجاء فى الحديث المرفوع أيضا : « من ابتلى بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم فى لحظه وإشارته ومجلسه ومقعده » .

دخل ابن شهاب على الوليد ـ أو سليمان ـ فقال له : يابنَ شهاب، ما حديث يرويه أهل الشام ؟ قال : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنه يروون أنّ الله تعالى إذا استرعى عبداً رعيّة كتب له الحسنات ، ولم يكتب عليه السيئات ، فقال : كذبوا يا أمير المؤمنين ، أيّما أقرب إلى الله ؛ نبىّ أم خليفة ؟ قال : بل نبىٌّ ؛ قال : فإنه تعالى يقول لنبيه داود : ﴿ يا دَاوُدُ إنّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الأَرض فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيل الله إنّ الّذِين يَضِلُّون عن سبيل الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١) ﴾ . فقال سليمان : إن الناس ليَغُرُّوننا عن ديننا .

وقال بكر بن عبد الله العَدَوِىّ لابن أرطاة ـ وأراد أن يستقضيه : والله ما أحسِن القضاء ، فإن كنتُ صادقا لم يحلّ لك أن تستقضىَ مَنْ لا يحسن ، وإن كنت كاذبا فقد فسقت ، والله لايحلّ أن تستقضَى الفاسق .

وقال الزُّهرىّ : ثلاث إذا كنّ فى القاضى فليس بقاضٍ ، أنْ يَكْرَهَ اللائمة ، ويحبّ المحمدة ، ويخاف العزْل .

وقال محارب بن زياد للأعمش : ولِّيت القضاء فبكى أهلى ، فلمّا عُزِلت بكى أهْلِى ، فما أدرى مِمّ ذلك ؟ قال : لأنك ولِّيت القضاء وأنت تكرهه وتجزعُ منه ،

---

(١) سورة ص ٢٦

فبكى أهلك لجزعك ، وعزلت عنه فكرهت العزل وجزعت فبكى أهلك لجزعك .
قال : صدقت .

أُتِيَ ابنُ شُبْرمة بقوم يشهدون على قَرَاح[١] نخل ، فشهدوا ـ وكانوا عدولا ـ فامْتحنهم فقال : كم فى القَراح[١] من نخلة ؟ قالوا : لا نعلم ، فردّ شهادتهم ، فقال له أحدهم : أنت أيّها القاضى تقضى فى هـذا المسجد منذ ثلاثين سنةً ، فأَعلِمْنا كم فيه من أسطوانة ؟ فسكت وأجازهم .

خرج شريك وهو على قضاء الكوفة يتلقّى الخيزران ، وقد أقبلتْ تريد الحجّ ، وقد كان استُقضى وهو كاره ، فأتى شاهى[٢] ، فأقام بها ثلاثا ، فلم توافِ ، فخفّ زادُه وما كان معه ، فجعل يبلّه بالماء ويأكلهُ بالمِلح ، فقال العلاء بن المنهال الغَنَوىّ :

فإنْ كان الّذى قـد قلتَ حقّا … بأن قد أَكرَهوكَ على القضاء[٣]
فما لَكَ مُوضِعا فى كلّ يومٍ … تلقَّى مَنْ يَحُجّ من النّساء
مُقيماً فى قُرى شـاهى ثلاثاً … بلا زادٍ سوى كِسَرٍ وماءِ!

وتقدّمتْ كَلْثَم بنت سريع مولَى عَمرو بن حريث ـ وكانت جميلةً ـ وأخوها الوليد ابن سريع إلى عبد الملك بن عُمير ؛ وهو قاضٍ بالكوفة ، فقَضَى لها على أخيها ، فقال هُذَيل الأشجعىّ :

أتاه وليـدٌ بالشهودِ يسوقُهمْ … على ماادّعى من صامتِ المالِ والخَوَلْ
وجاءت إليـه كَلثمٌ وكَلامُها … شِفاءٌ من الدّاء المخامِرِ والخَبَلْ
فأدلى وليـدٌ عنـد ذاكَ بحقّه … وكان وليـدٌ ذَا مِراء وذا جَدَلْ
فدَلّهت القِبطىّ حتّى قضى لهـا … بغـير قضاءِ الله فى مُحكَم الطّوَلْ

---

(١) القراح هنا : البستان ، وانظر ياقوت (قرح) (٢) شاهى : موضع قرب القادسية
(٣) الخبر والأبيات فى ياقوت ٥ : ٢٢٤ .

فلو كان مَنْ فى القصر يَعــلَمُ علمَه ... لمــا أُستعمل القِبطىُّ فينا على عَمَلْ

له حين يقضى للنّساء تخاوُصٌ ... وكان وما فيـه التَّخاوُصُ والحَوَلْ

إذا ذاتُ دَلٍّ كلّمتْــه لحاجةٍ ... فهمّ بأن يَقضِى تَنحْنَحَ أو سَعَلْ

وبرّق عينيــه وَلَاكَ لسانَهُ ... يرى كلَّ شىء ماخــلا وَصْلِها جَلَلَ

وكان عبدُالملك بن عمير يقول : لعن الله الأشجعىّ ، والله لربّما جاءتنى السّعلة والنّحْنحة وأنا فى المتوضّأ فأردّها لما شاعَ من شِعره .

كتب عمر بنُ الخطّاب إلى معاوية : أمّا بعد ، فقد كتبتُ إليك فى القضاء بكتاب لم آلُكَ ونفسِى فيه خيراً ؛ الزم خمسَ خِصال يَسلمْ لك دينُك ، وتأخذْ بأفضل حظّك : إذا تقدّم إليك الخصمان فعليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة ، وأَدْنِ الضّعيف حتّى يشتدّ قلبُه وينبسطَ لسانُه ، وتعهّد الغريبَ فإنّك إن لم تتعهده ترَكَ حقّه ورجع إلى أهله ؛ وإنّما ضَيّع حقه من لم يُرفَقْ به ، وآس بين الخصوم فى لحظك ولَفْظك ، وعليك بالصّلح بين النّاس مالم يَستَبِن لك فصل القضاء .

وكتب عمر إلى شُريح : لاتسارِر ولا تُضارِرْ ، ولا تَبِع ولا تَبتَع فى مجلس القضاء ، ولا تَقْض وأنتَ غضبانُ ، ولا شديدُ الجوع ، ولا مشغولُ القلب .

شهد رجل عند سوّار القاضى ، فقال : ماصناعتُك ؟ فقال : مؤدِّب ؛ قال: أنا لا أجيز شهادتَك ؛ قال : ولِمَ ؟ قال : لأنّك تأخذ على تعليم القرآن أجرا ، قال : وأنت أيضا تأخذ على القضاء بين المسلمين أجرا ، قال : إنّهم أكرَهونى ؛ قال : نعم أكرهوك على القضاء ، فهل أكرَهوك على أخذ الأجر ! قال : هلمّ شهادتَك .

ودخل أبو دُلامَة ليشهَد عند ابن أبى ليلَى ، فقال حين جلس بين يديه :

إذا النــاسُ غطّونى تَغطّيتُ عنهمُ ... وإن بحثوا عنّى ففيهمْ مَباحِثُ [1]

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٣٤ ، وفيه : « إن الناس » .

وإن حَفَروا بئرى حفرْتُ بثارِهمْ ليعلم ماتُخفيه تلك النَّبائثُ

فقال : بل نعطّيك يا أبا دُلامة ولا نبحثك ؛ وصرَفَه راضيا ، وأعطى المشهود عليه من عنده قيمةَ ذلك الشىء .

كان عامرُ بنُ الظَّرِب العَدْوانىّ حاكِمَ العرب وقاضيَها ، فنزل به قوم يستفتونه فى الخنثى وميراثه ؛ فلم يدرِ ما يَقضِى فيه ، وكان له جارية اسمُها خصيلة ، ربّما لامها فى الإبطاء عن الرّعى وفى الشىء يجدُه عليها ، فقال لها : ياخُصَيلة ، لقد أسرَعَ هؤلاء القومُ فى غنمى ، وأطالوا المكث ؛ قالت : وما يَكبُر عليك من ذلك ؟ اتبعْه مَبالَه وخلاك ذمّ ، فقال لها : أمسى خُصَيلُ بعدَها أو رُوحى .

وقال أعرابىّ لقوم يتنازعون : هل لكم فى الحقّ أو ماهو خير من الحقّ ؟ قيل : وما الّذى هو خيرٌ من الحقّ ؟ قال التحاطّ والهَضْم ؛ فإنّ أخذ الحقّ كلّه مرّ .

وعزل عمرُ بنُ عبد العزيز بعضَ قُضاتِه ، فقال : لم عزلْتَنى ؟ فقال : بلغنى أنّ كلامك أكثرُ من كلام الخصْمين إذا تحاكَمَا إليك .

ودخل إياسُ بنُ معاويةَ الشام وهو غلام ، فقدّم خَصْماً إلى باب القاضى فى أيّام عبد الملك ، فقال القاضى : أما تَستَحيي ! تُخاصم وأنت غلامٌ شيخاً كبيرا ؟ فقال : الحقّ أكبرُ منه ، فقال : اسكتْ وَيْحَك ! قال : فمن ينطق بحجّتى إذاً ! قال : ماأظنّك تقول اليوم حقّا حتّى تقوم ؛ فقال : لا إله إلّا الله . فقام القاضى ودخل على عبدِ الملك وأخبرَه ، فقال : اقضِ حاجتَه وأخرجْه من الشام كى لا يُفسِد علينا الناس .

واُختصم أعرابىّ وحَضَرِىّ إلى قاضٍ ، فقال الأعرابىّ : أيّها القاضى ، إنه وإن هَمْلَجَ[1] إلى الباطل ، فإنه عن الحق لَعطُوف .

وردّ رجلٌ جارِيةً على رَجل اشتراها منه بالحُمْق ، فترافَعَا إلى إياسِ بنِ معاوية ،

---

(١) هملج : أسرع .

فقال لها إياس : أىّ رِجْليكِ أطوَل ؟ فقالت : هذه ، فقال : أتذكرين ليلَة ولدتْك أمّك؟ قالت : نعم ، فقال إياس : ردّ ردّ !

وجاء فى الخبر المرفوع من رواية عبد الله بن عمر : « لا قدّستْ أمّةٌ لا يُقضَى فيها بالحقّ » ؛ ومن الحديث المرفوع من رواية أبى هريرة : « ليس أحدٌ يَحكُم بين الناس إلّا جِىء به يومَ القيامة مغلولةٌ يداه إلى عُنقِه ، فكّه العَدْل ، وأَسلَمه الجور » .

وأُستعدى رجلٌ على علىّ بن أبى طالب عليه السلام عمرَ بنَ الخطّاب رضى الله عنه وعلىٌّ جالس ، فالتفت عمرُ إليه ، فقال : قم ياأبا الحسن فاجلس مع خَصْمك ، فقام فجلس معه وتناظرا ؛ ثمّ انصرف الرّجل ورجع علىّ عليه السلام إلى محَلّه ، فتبيّن عمر التغيّر فى وجهه ، فقال : يا أبا الحسن ، مالى أراك متغيّراً ! أكرهتَ ما كان ؟ قال : نعم ، قال : وما ذاك ؟ قال : كنّيتنى بحضرة خَصْمى ، هلّا قلتَ : قم ياعلىّ فاجلس مع خَصْمك ! فاعتنق عمرُ عليّا ، وجعل يقبّل وجهَه ، وقال : بأبى أنتم ! بِكم هدانا الله ، وبِكم أخرجَنَا من الظُّلْمة إلى النور .

أبان بنُ عبدِ الحميد اللّاحقىّ فى سوّار بن عبد الله القاضى :

لا تَقدَح الظِّنّةَ فى حُكْمِه   شيمتُه عدلٌ وإنصافُ
يَمضِى إذا لم تَلقَه شُبهةٌ   وفى اعتراض الشكِّ وَقّافُ

كان ببغداد رجلٌ يُذكَر بالصّلاح والزهد يقال له رُوَيم ، فولِّىَ القضاءَ ، فقال الجنيد : مَنْ أراد أن يستَوْدع سرَّه من لا يفشيه فعليه برُوَيم ، فإنّه كتم حبّ الدنيا أربعين سنة إلى أن قدر عليها .

الأشهب الكوفىّ .

يا أهلَ بغدَاد قد قامت قيامتُكمْ   مذ صار قاضيَكُمُ نوحَ بن دَرّاجِ
لو كان حَيًّا له الحجّاجُ ما سلِمتْ   صحيحةً يده من وَسْم حَجّاجِ

وكان الحجّاج يسِم أيدى النّبَط بالمِشراط والنِّيل .

لمّا وقعت فتنة ابن الزبير اعتزل شُريحٌ القضاءَ وقال : لا أَقضِى فى الفتنة ؛ فبقىَ لا يَقضِى تسعَ سنين ، ثم عاد إلى القضاء وقد كبِرتْ سنّه ، فاعترضه رجل وقد انصرف من مجلس القضاء ، فقال له : أما حان لك أن تخافَ الله ! كبرتْ سنّك ، وفسَدَ ذِهْنُك ، وصارت الأمورُ تجوز عليك ، فقال : والله لا يقولُها بعدكَ لى أحدٌ . فلزم بيته حتّى مات .

قيل لأبى قِلابة وقد هَرَب من القضاء : لو أجبتَ ؟ قال : أخاف الهَلاك ، قيل : لو اجتهدتَ لم يكن عليكَ بأسٌ ؛ قال : وَيْحكم ! إذا وقع السابح فى البحر كم عسى أن يَسْبَح !

دعا رجلٌ لسليمان الشّاذَ كونىّ ، فقال : أرانيكَ اللهُ يا أبا أيّوبَ على قضاءِ إصبَهان ! قال : وَيْحك ! إنْ كان ولابدّ فعلَى خَراجِها ، فإنّ أخذَ أموال الأغنياء أسهلُ مِن أخذِ أموال الأيتام .

ارتفعتْ جميلةُ بنتُ عيسى بن جراد ـ وكانت جميلةً كاسمها ـ مع خصمٍ لها إلى الشَّعبىّ ـ وهو قاضى عبدِ الملك ـ فقضَى لها ، فقال هُذَيل الأشجعىّ :

فُتِنَ الشعبىُّ لمّا ... رَفَع الطَّرفَ إليها
فتنتْه بثَنايا ... ها وقَوْسَىْ حاجِبَيْها
ومَشَتْ مشياً رُوَيداً ... ثم هزّت منكِبَيْها
فقضَى جَوْراً على الخصْـ ... ـمِ ولم يقضِ عليها

فقبض الشّعبىّ عليه وضرَبَه ثلاثين سوطا .

قال ابنُ أبى ليلَى : ثم انصرف الشعبىّ يوما من مجلس القضاء وقد شاعت الأبيات

وتَناشَدَها النـاسُ ، ونحن معه ، فمررْنا بخادمٍ تَغسل الثياب، وتقول :

* فُتِن الشعبىُّ لمّـــــا *

ولا تَحفظ تتمّة البيت ، فوقف عليها ولقّنها ، وقال :

* رفَع الطَّرْفَ إليهـــا *

ثمّ ضحك وقال : أبعدَه الله ! واللهِ ماقضينا(١) لها إلّا بالحقّ .

جاءت أمرأة إلى قاضٍ فقالت:مات بَعْلى وَتَرَكَ أبوَيْن وأبنا و بنى عمّ ، فقال القاضى: لأبوَيْه الثُّـكْل ، ولأبنه اليُتْم ، ولك الأيْمة ، ولبنى عمّه الذّلّة ، وأحمِلى المال إلينا إلى أن تَرتفِـع الخصوم !

لقى سُفْيان الثورىّ شريكا بعد ما أستُقضِىَ ، فقال له : ياأبا عبد الله ، بعد الإسلام والفِقه والصلاح تَلِى القضاء ! قال : ياأبا عبدِ الله ، فهل للنّاس بدٌّ من قاضٍ ! قال : ولابدّ يا أبا عبدِ الله للنّاس من شُرَطِىّ .

وكان الحسنُ بنُ صالح بن حىّ يقول لمّا ولِّىَ شَريكُ القضاء : أىَّ شَيْخ أفسَدوا !

قال أبو ذَرّ رضى الله عنه : قال لى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : يا أبا ذَرّ اعقِل(٢) ما أقولُ لك ؛ جَعلَ يردّدها علىّ ستّة أيام ، ثم قال لى فى اليومِ السابع : « أُوصِيك بتقوَى الله فى سَريرَتك وعلانِيتَك ، و إذا أسأتَ فأحسن ، ولا تسألنّ أحداً شيئا ولو سَقَط سوطُك ، ولا تتقلدنّ أمانةً ، ولا تلِيَنّ وِلاية ، ولا تكفلنّ يتيما، ولا تقضينّ بينأثنين» .

أراد عثمانُ بنُ عفّانَ أن يستقضىَ عبدَ الله بن عمر ، فقال له : ألستَ قد سمعت النبىّ صلّى الله عليه وآله يقول : « من أستعاذ بالله فقد عاذَ بمَعاذ! » ، قال : بلى ، قال : فإنّى أعوذ بالله منك أن تستقضِيَنى .

---

(١) ا ، د : « قضيت » ، وأثبت ما فى د . (٢) فى د : « افعل » .

وقد ذكر الفقهاء فى آداب القاضى[1] أمورا قالوا : لا يجوز أن يقبَل هديّةً فى أيّام القضاء إلّا ممّن كانت له عادة يهدى إليه قبل أيام القضاء ، ولا يجوز قبولها فى أيّام القضاء ممّن له حكومة وخصومة ، و إن كان ممّن له عادة قديمة ، وكذلك إن كانت الهديّة أنفَسَ وأرفعَ ممّا كانت قبل أيّام القضاء لا يجوز قبولُها . و يجوز أن يحضر القاضى الولائم ، ولا يحضر عند قوم دون قوم لأنّ التخصيصَ يشعِر بالمَيْل ، و يجوز أن يَعودَ المرْضَى ، و يَشهدَ الجنائز ، و يأتى مقدم الغائب . و يكره له مباشرة البيع والشراء . ولا يجوز أن يَقضىَ وهو غَضْبان ولا جائع ولا عَطْشان ، ولا فى حال الُحزن الشديد ، ولا الفرح الشديد ، ولا يقضى والنّعاس يَغلِبه ، والمَرض يُقلِقه ، ولا وهو يدافع الأخبَثَين ، ولا فى حَرٍّ مُزْعِج ولا فى بَرْد مزعِج . و ينبغى أن يجلس للحُكم فى موضع بارز يصل إليه كلّ أحد ، ولا يحتجب إلّا لعذر . و يُستحَبّ أن يكون مجلسُه فسيحا لا يتأذّى بذلك هو أيضا . و يكره الجلوس فى المساجد للقضاء ، فإن احتاج إلى وكلاء جاز أن يتّخذهم و يوصيهم بالرفق بالخصوم . و يستحبّ أن يكون له حَبْس ، وأن يتّخذ كاتبا إن احتاج إليه ؛ ومن شرط كاتبه أن يكون عارفاً بما يَكتُب به عن القضاء .

واختُلف فى جوازِ كونه ذِمّيّا ؛ والأظهرَ أنه لا يجوز . ولا يجوز أن يكون كاتبُه فاسقا ، ولا يجوز أن يكون الشهودُ عنده قوماً معيّنين ، بل الشهادة عامّة فيمن استكمل شروطَها .

***

الأصلُ :

ثُمَّ انْظُرْ فِى أُمُورِ عُمَّالِكَ ، فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَارًا ، وَلَا تُوَلِّهِمْ مُحابَاةً وَأَثَرَةً ، فَإِنّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيانَةِ . وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَياءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَالْقَدَمِ فِى الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقاً ، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا ، وَأَقَلُّ فِى الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا ، وَأَبْلَغُ فِى عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا .

(١) كذا فى ا ، د ، وهو الصواب وفى ب : « القضاء » .

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ ، أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ . ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ . وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا ، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ .

***

الشَّرْحُ :

لمّا فرغ عليه السلام من أمر القضاء ، شرع فى أمر العمّال ، وهم عمّال السواد والصَّدَقات والوقوف والمصالح وغيرها ، فأمَرَه أن يستعملهم بعد اختبارهم وتجرِبَتهم ، وألّا يولّيَهم محاباةً لهم ، ولمن يشفع فيهم ، ولا أثَرة ولا إنعاماً عليهم .

كان أبو الحسن بنُ الفُرات يقول : الأعمال للكُفاةِ مِن أصحابنا ، وقَضاء الحقوق على خواصّ أموالنا .

وكان يحيى بن خالد يقول : مَنْ تسبّب إلينا بشفاعة فى عمل فقد حلّ عندنا محلّ مَنْ ينهض بغيره ، ومَنْ لم ينهض بنفسه لم يكن للعمل أهلا .

ووقّع جعفر بن يحيى فى رُقعةِ متحرّم به : هذا فتًى له حُرْمة الأمل ، فامتحنْه بالعمل ؛ فإن كان كافيا فالسلطان له دوننا ، وإن لم يكن كافيا فنحن له دون السلطان .

ثم قال عليه السلام : « فإنهما — يعنى استعمالهم للمحاباة والأثرة — جماع من شُعَب الجَوْر والخيانة» ، وقد تقدّم شرح مثل هذه اللفظة ، والمعنى أن ذلك يجمع ضروبا من الجوْر والخيانة . أمّا الجوْر فإنه يكون قد عدل عن المستحق إلى غير المستحقّ ففى ذلك جَوْر على المستحقّ ،

وأمّا الخيانة فلأنّ الأمانة تقتضى تقليدَ الأعمالِ الأكفاء ؛ فمن لم يعتمد ذلك فقد خان مَنْ ولاّه .

ثم أمره بتخيّر مَنْ قد جرّب ؛ ومَنْ هو من أهل البيوتات والأشراف لشدّة الحرص على الشيء والخوف من فواته .

ثم أمره بإسباغ الأرزاق عليهم ؛ فإنّ الجائع لا أمانةَ له ؛ ولأنّ الحجّة تكون لازمةً لهم إن خانوا ، لأنهم قد كُفُوا مؤنة أنفسِهم وأهليهم بما فرض لهم من الأرزاق[1] .

ثم أمره بالتطلّع عليهم وإذكاء[2] العيون والأرصادِ على حركاتهم .

وحدوة باعث ، يقال : حدانى هذا الأمر حَدْوةً على كذا ؛ وأصله سَوْق الإبل ، ويقال للشّمْأل حَدْواء ؛ لأنّها تسوق السحاب .

ثم أمره بمؤاخذة من ثبتتْ خيانته واستعادة المال منه ؛ وقد صنع عمر كثيرا من ذلك؛ وذكرناه فيما تقدّم .

قال بعض الأكاسرة لعامل من عمّاله : كيف نومُك بالليل ؟ قال : أنامُه كلّه ، قال : أحسنت ! لو سرقت ما نمت هذا النوم .

* * *

الأصْلُ :

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ ٱلْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى ٱلْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ .

وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ ٱلْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي ٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَرَاجِ ؛ لِأَنَّ ذٰلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ؛ وَمَنْ طَلَبَ ٱلْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ ٱلْبِلَادَ ، وَأَهْلَكَ

---

(١) فى د « الرزق » . (٢) فى ا ، د « وبعث » .

ٱلْعِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا ؛ فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً ، أَوِ ٱنْقِطَاعَ شِرْبٍ ، أَوْ بَالَّةٍ ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ ٱغْتَمَرَهَا غَرَقٌ ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ ؛ خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ .

وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ ٱلْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ ؛ مَعَ ٱسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ ٱلْعَدْلِ فِيهِمْ ؛ مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَاعِكَ لَهُمْ ؛ وَٱلثِّقَةِ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ ؛ فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ ٱلْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ ؛ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ ، فَإِنَّ ٱلْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ ؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ ٱلْوُلَاةِ عَلَى ٱلْجَمْعِ ؛ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ ٱنْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ .

***

الشَّرْح :

انتقل عليه السلام من ذكر العمّال إلى ذكر أرباب الخراج ودَهَاقين السّواد ، فقال : تفقدّ أمرَهم ، فإنّ النّاس عيال عليهم ؛ وكان يقال : استوصُوا بأهل الخراج ؛ فإنّكم لاتزالون سِماناً ماسَمِنُوا .

ورُفِع إلى أنوشِرْوان أنّ عامل الأهواز قد حمل من مال الخراج ما يزيد على العادة ؛ وربما يكون ذلك قد أجحف بالرّعية ، فوقّع : يُرَدّ هذا المال على من قد استوفى منه ؛ فإنّ تكثيرَ المَلِك ماله بأموال رعيّته بمنزلة مَنْ يحصّن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه .

وكان على خاتَم أنوشِرْوان : لا يكون عُمرانٌ ، حيث يجور السلطان .

وروى : « استحلاب الخراج » بالحاء .

ثم قال : « فإن شكَوْا ثِقْلاً » ، أى ثقل طَسْق [1] الخراج المضروب عليهم ، أو ثقل وطأة العامل .

قال : « أو علّة » نحو أن يصيب الغلّةَ آفة كالجراد والبرق أو البرد .

قال : « أو انقطاع شرْب [2] » بأن ينقُص الماء فى النهر ، أو تتعلق أرض الشّرب عنه لفقد الحَفْر .

قال : « أو بالّة » ، يعنى المطر .

قال : « أو إحالة أرض اغتمرها غرق » ، يعنى أو كوْن الأرض قد حالت ، ولم يحصل منها ارتفاع ؛ لأنّ الغرق غمرها وأفسد زَرْعها .

قال : « أو أجْحف بها عطش » ، أى أتلفها .

فإن قلت : فهذا هو انقطاع الشّرب ؟

قلت : لا ، قد يكون الشِّرب غير منقطع ، ومع ذلك يُجحِف بها العطش ، بأن لا يكفيها الماء الموجود فى الشِّرب .

ثم أمره أن يخفّف عنهم مَتَى لحقهم شىء من ذلك ؛ فإنّ التخفيف يُصْلح أمورهم ، وهو وإن كان يُدْخِل على المال نقصاً فى العاجل إلاّ أنه يقتضى [3] توفير زيادة فى الآجل ؛ فهو بمنزلة التجارة التى لا بُدّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه .

---

(١) فى اللسان عن التهذيب : « الطسق شبه الخراج له مقدار معلوم ؛ وليس بعربى خالص » :
(٢) الشرب بالكسر : النصيب من الماء .
(٣) فى د « يفضى إلى » .

قال : « ومع ذلك فإنه يفضى إلى تزيين بلادك بعمارتها ، وإلى أنكَ تَبْجح بين الولاة بافاضة العدل فى رعيّتك معتمدًا فَضْلَ قُوّتهم » ؛ و «معتمدًا» ، منصوب على الحال من الضّمير فى « خَفّفت » الأولى ، أى خَفّفت عنهم معتمدا بالتخفيف فضل قوّتهم .

والإجمام : الترفيه .

ثم قال له : وربما احتجتَ فيما بعد إلى تكلفهم بحادث يحدُث عندك المساعدة بمالٍ يقسطونه عليهم قرضاً لك أو معونة محضة ؛ فإذا كانتْ لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك ، طيّبة قلوبُهم[1] به .

ثم قال عليه السلام : فإن العمران محتمل ما حمّلته .

* * *

سمعت أبا محمد بن خُليد ـ وكان صاحب ديوان الخراج فى أيام الناصر لدين الله ـ يقول لمن قال له : قد قيل عنك : إنّ واسط والبَصْرة قد خربت لشدّة العُنف بأهلها فى تحصيل الأموال ! فقال أبو محمد : ما دام هذا الشّطّ بحاله ، والنّخْل نابتا فى منابته بحاله ، ما تخرب واسط والبصرة أبدا .

ثم قال عليه السلام : « إنما تُؤْتَى الأرض » ، أى إنما تُدْهَى من إعواز أهلها ، أى من فقرهم .

قال : والموجب لإعوازهم طمعُ ولاتهم فى الجباية وجمع الأموال لأنفُسهم ولسلطانهم وسوء ظنّهم بالبقاء يحتمل أن يريد به أنهم يظنّون طول البقاء وينسَوْن الموتَ والزوال . ويحتمل أن يريد به أنهم يتخيّلون العَزْل والصرف ، فينتهزون الفرص ، ويقتطعون الأموال ، ولا ينظرون فى عِمارة البلاد .

* * *

(١) فى د « نفوسهم » .

[عهد سابور بن أردشير لابنه]

وقد وجدت فى عهد سابور بن أردشير إلى ابنه كلاماً يشابه كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا العهد ؛ وهو قوله :

واعلم أنّ قِوام أمرك بدُرور الخراج ،ودُرور الخراج بعمارة البلاد ، و بلوغ الغاية فى ذلك استصلاح أهله بالعدل عليهم ، والمعونة لهم ؛ فإنّ بعض الأمور لبعضٍ سبب ، وعوامّ الناس لخواصّهم عدّة ، وبكلّ صنف منهم إلى الآخر حاجة ، فاختر لذلك أفضلَ مَنْ تقدر عليه من كُتّابك ، وليكونوا من أهل البَصَر والعفاف والكفاية ، واسترسل إلى كلّ امرئ منهم شخصا[1] يضطلع به ؛ ويمكنه تعجيلُ الفراغ منه ؛ فإن اطّلعت على أنّ أحدا منهم خان أو تعدّى ، فنكِّلْ به، و بالغ فى عقوبته ؛ واحذر أن تستعمل على الأرض الكثير خراجها إلا البعيد الصوت ، العظيم شرف المنزلة ؛ ولا تولينّ أحداً من قواد جندك الذين هم عُدّة للحرب ، وجُنّة من الأعداء ، شيئاً من أمر الخراج ؛ فلعلك تهجُم من بعضهم على خيانة فى المالِ ، أو تضييع للعمل ؛ فإن سوّغته المال ، وأغضيت له على التّضييع ، كان ذلك هلاكا و إضرارا بك و برعيّتك ، وداعيةً إلى فساد غيره ؛ و إنْ أنت كافأته فقد استفسدته ، وأضَقْت[2] صدره ، وهذا أمرٌ توقّيه حزم ، والإقدام عليه خُرْق ، والتقصير فيه عَجْز .

واعلم أن من أهل الخراج مَنْ يلجئ بعض أرضه وضياعه إلى خاصّة الملك و بطانته ؛ لأحد أمرين ؛ أنت حرىّ بكراهتهما : إمّا لامتناع من جوْر العمال وظلم الولاة ؛ وتلك منزلة يظهر بها سوء أثر العمال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده ، و إما للدفع عمّا يلزمهم

---

(١) فى د « شقصا » .
(٢) فى د « وأضغنت » .

من الحقّ والتيسّر له ، وهذه خَلة تفسُد بها آداب الرعيّة ، وتُنتقص بها أموال الملك ، فاحذر ذلك ، وعاقب المتلجئين والملجأ إليهم .

***

ركب زياد يوما بالسُّوس يطوف بالضياع والزروع ، فرأى عمارة حسنة ، فتعجّب منها ، فخاف أهلها أن يزيد فى خراجهم ، فلما نزل دعا وجوه البلد ، وقال : بارك الله عليكم ، فقد أحسنتم العمارة ، وقد وضعت عنكم مائة ألف درهم . ثم قال : ما توفّر علىّ من تهالك غيرهم على العمارة وأمنهم جوْرى أضعاف ما وضعت عن هؤلاء الآن ؛ والذى وضعته بقدر ما يحصل من ذاك ، وثواب عموم العمارة وأمن الرعيّة أفضل ربْح .

***

الأصْلُ :

ثُمَّ ٱنظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ ؛ فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ ، وَٱخْصُصْ رَسَائِلَكَ ٱلَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ ٱلْأَخْلَاقِ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ ٱلْكَرَامَةُ ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَإٍ .

وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ ٱلْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى ٱلصَّوَابِ عَنْكَ ، وَفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْدًا ٱعْتَقَدَهُ لَكَ ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي ٱلْأُمُورِ ، فَإِنَّ ٱلْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ .

ثُمَّ لَا يَكُنْ ٱخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَٱسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ ٱلظَّنِّ مِنْكَ ، فَإِنَّ

ٱلرِّجَالَ يَتعرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ ٱلْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ حديثهم ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ ٱلنَّصِيحَةِ وَٱلْأَمَانَةِ شَىْءٌ ؛ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِى ٱلْعَامَّةِ أَثَرًا ، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلّٰهِ ، وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ .

وَٱجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ ؛ لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا ، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ؛ وَمَهْمَا كَانَ فِى كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ .

***

[فصل فيما يجب على مصاحب الملك]

الشرح :

لما فرغ من أمر الخراج ، شَرَع فى أمر[1] الكتّاب الذين يلُون أمر الحضرة ، ويترسّلون عنه إلى عمّاله وأمرائه ، وإليهم مَعاقد التدبير وأمرُ الديوان ، فأمرَه أن يتخيّر الصالح منهم ، ومَنْ يوثق على الاطلاع على الأسرار والمكايد والحِيَل والتدبيرات ، ومن لا يُبطِره الإكرام والتقريب ، فيطمعَ فيجترئَ على مخالفته فى مَلَإٍ من الناس والردّ عليه ، ففى ذلك من الوَهَن للأمير وسوء الأدب الذى انكشف الكاتب عنه ما لا خفاء به .

قال الرشيد للكِسائىّ : يا علىّ بن حمزة ، قد أحللْناك المحلّ الذى لم تكن تبلغه همّتك ، فروِّنا من الأشعار أعفّها ، ومن الأحاديث أجمعَها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرْنا بآداب الفُرْس والهند ، ولا تُسرع علينا الردّ فى ملَإٍ ، ولا تترك تثقيفنا فى خلاء .

وفى آداب ابن المقفّع : لا تكوننّ صحبتك للسلطان إلاّ بعد رياضةٍ منك لنفسك على

(١) فى د « ذكر » .

طاعتهم فى المكروه عندك ، وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك ، فإن كنتَ حافظا إذا ولّوك . حذِراً إذا قرّبوك ، أمينا إذا ائتمنوك ، تعلّمهم وكأنك تتعلّم منهم ، وتؤدّبهم وكأنك تتأدّب بهم ، وتَشكُر لهم ولا تكلّفهم الشكر . ذليلا إن صَرَموك ، راضيا إن أسخطوك ، وإلا فالبعد منهم كلّ البعد ، والحذَر منهم كلّ الحذر . وإن وجدتَ عن السلطان وصحبته غنى فاستغن عنه ، فإنه من يخدُم السلطانَ حقّ خدمته يخلّى بينه وبين لذة الدنيا وعمل الأخرة ، ومَنْ يخدمه غير حق الخدمة فقد احتمل وزْر الآخرة ، وعرّض نفسه للهلكة والفضيحة فى الدنيا . فإذا صحبتَ السلطان فعليك بطول الملازمة من غير إملال ، وإذا نزلتَ منه بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملَق ، ولا تُكثِرْ له من الدّعاء ، ولا تردّنّ عليه كلاما فى حفْل وإن أخطأ ، فإذا خلوتَ به فبصّره فى رفق ، ولا يكوننّ طلبك ما عنده بالمسأله ، ولا تستبطئه وإن أبطأ ، ولا تخبرنّه أنّ لك عليه حقّا ، وأنكّ تعتدّ عليه ببلاء ، وإن استطعتَ ألّا تنسى حقّك وبلاءك بتجديد النصح والاجتهاد فافعل ، ولا تعطينّه المجهود كلّه من نفسك فى أوّل صحبتك له ، وأعدّ موضعا للمزيد . وإذا سأل غيرَك عن شىء فلا تكن المجيبَ .

واعلم أنّ استلابك الكلامَ خفّة فيك واستخفافٌ منك بالسائل والمسؤل ، فما أنت قائل إن قال لك السائل : ما إيّاك سألتُ ؟ أو قال المسؤل : أجب بمجالسته ومحادثته أيّها المعجب بنفسه ، والمستخفّ بسلطانه[1]

وقال عبدُ الملك بنُ صالح لمؤدّبِ ولده بعد أن اختصّه بمجالسته ومحادثته : ياعبدَ الله ، كُن على التماس الحظّ فيك بالسّكوت أحرصَ منك على التماسه بالكلام ، فإنّهم قالوا : إذا أعجبك الكلامُ فاصمُت ، وإذا أعجبك الصّمتُ فتكلّم . واعلم أن أصعب الملوك معاملةً الجبّارُ الفَطِن المتفقّد ، فإن ابتُليتَ بصحبته فاحترس ، وإن عُوفيت فاشكر الله على السّلامة ، فإنّ السلامة أصل كلّ نعمة . لا تساعدْنى على ما يَقبُح بى ، ولا تردّنّ علىّ

خطأً فى مجلس ، ولا تكلّفْنى جوابَ التشميت والتّهنئة ، ودع عنك : كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسَى ! وكلّمنى بقدر ما أَستنطِقك ، واجعل بدَل التقريظ لى صوابَ الاستماع منّى.
واعلم أنّ صواب الاستماع أحسنُ من صواب القول ، فإذا سمعتَنى أتحدّث فلا يفوتنّك منه شىء ، وأَرِنى فهمَك إيّاه فى طَرْفِك ووجهِك ، فما ظنّك بالمَلِك وقد أحلّك محلّ المعجب بما يسمعك إيّاه ، وأحللته محلّ من لا يسمع منه ! وكلٌّ من هذا يُحبِط إحسانَك ، ويُسقِط حقَّ حُرمتك ، ولا تستدعِ الزيادة من كلامى بما تُظهر من استحسان ما يكون منّى ، فمن أسوأ حالا ممّن يستكدّ الملوك بالباطل ، وذلك يدلّ على تهاونه بقدر ما أوجَب الله تعالى من حقّهم . وأُعلم أنّى جعلتك مؤدّبا ، بعد أن كنتَ معلّما ، وجعلتك جليسا مقرَّبا بعد أن كنتَ مع الصّبيان مباعدا ، فمتى لم تعرف نقصانَ ماخرجتَ منه ، لم تعرفْ رُجْحانَ مادخلتَ فيه ، وقد قالوا : من لم يعرف سوء ما أَوْلَى ، لم يَعرِف حُسنَ ما أَبلَى .

* * *

ثم قال عليه السلام : وليكن كاتبُك غيرَ مقصّر عن عرض مكتوبات عمّالك عليك ، والإجابة عنها حسن الوَكالة والنيابةِ عنك فيما يحتجّ به لك عليهم مِن مكتوباتهم، وما يُصدِره عنك إليهم من الأجوبة ، فإن عَقَد لك عقدا قوّاه وأَحكَمه ، وإن عَقد عليك عقدا اجتهد فى نقضِه وحَلّه . قال : وأن يكون عارفا بنفسه ، فمن لم يعرف قدرَ نفسِه لم يَعرِف قدرَ غيرِه .

ثمّ نهاه أن يكون مستنَدَ اختيارِه لهؤلاء فِراستُه فيهم ، وغلبةُ ظنّه بأحوالهم ، فإن التّدليس ينمّ فى ذلك كثيرا ، وما زال الكتّاب يتصنّعون للأمراء بحُسن الظاهر ، وليس وراء ذلك كثير طائل فى النصيحة والمعرفة ، ولكن ينبغى أن يرجع فى ذلك إلى ماحكمتْ

به التجربةُ لهم ، وما وُلّوه من قبـل ، فإن كانت ولا يتُهم وكتابتُهم حسنةً مشكورةً فهم هم ، وإلّا فلا ، ويتعرّفون لفراسات الوُلاة ، يجعلون أنفسهم بحيث يعرف بضُروب من التصنّع ، وروى «يتعرّضون» .

ثم أمَرَه أن يقسم فنونَ الـكتابة وضروبَها بينهم ، نحو أن يكون أحدهم للرسائل إلى الأطراف والأعداء ، والآخر لأجوبة عمّال السواد ، والآخر بحضرة الأمير فى خاصّته وداره ، وحاشيته وثقاته .

ثم ذكر له أنّه مأخوذ مع الله تعالى بما يتغابَى عنه ، ويتغافل من عيوب كتّابه ، فإن الدّين لا يبيح الإغضاءَ والغفلةَ عن الأعوان والخَوَل ، ويوجب التطلّع عليهم .

* * *

[فصل فى الـكتّاب وما يلزمهم من الآداب]

واعلم أنّ الـكاتب الذى يشير أمير المؤمنين عليه السلام إليه هو الذى يسمى الآن فى الاصطلاح العرْفى وزيرا ، لأنّه صاحب تدبير حضرة الأمير ، والنائب عنه فى أموره ، وإليه تصل مكتوباتُ العمّال وعنه تصـدر الأجوبة ، وإليه العَرْض على الأمير ، وهو المستدرِك على العمّال ، والمهيمِن عليهم ، وهو على الحقيقة كاتبُ الـكتّاب ، ولهـذا يسمّونه : الـكاتب المطلَق .

وكان يقال : للـكاتب على الملك ثلاث : رفعُ الحجاب عنه ، واتّهام الوُشاة عليه ، وإفشاء السرّ إليه .

وكان يقال : صاحبُ السلطان نصفُه ، وكاتبُه كلّه . وينبغى لصاحب الشرْطة أن يطيل الجلوس ، ويديمَ العُبوس ، ويستخفّ بالشفاعات .

وكان يقال : إذا كان الملك ضعيفا ، والوزيرُ شَرِها ، والقاضى جائرا ، فرّقوا المُلك شَعاعا .

وَكان يقال : لا تَخفْ صولةَ الأمير مع رِضا الكاتب ، ولا تثقنّ برضا الأمير مع سُخْط الكاتب ، وأخذ هذا المعنى أبو الفضل بنُ العميد فقال :

وزعمتَ أنّك لست تُفكِر بعد ما عَلِقتْ يداك بذِمّة الأمراءِ
هيهاتَ قد كذبتْك فكرتُك التى قد أوهمتْك غِنًى عن الوزراءِ
لم تُغنِ عن أحدٍ سماءٌ لم تجد أرضا ولا أرضٌ بغير سماءِ

وكان يقال : إذا لم يُشرِف المَلِك على أموره ، صار أغشّ الناس إليه وزيرُه .

وكان يقال : ليس الحرب الغشومُ بأسرعَ فى اجتياح[1] المُلْك من تضييع مراتب الكتّاب حتّى يصيبها أهل النّذالة ، ويزهدَ فيها أولو الفَضْل .

* * *

[فصل فى ذكر ما نصحتْ به الأوائلُ الوزراء]

وكان يقال : لا شىء أذهبُ بالدّوَل من استلقاء المَلِك الأسرار .

وَكان يقال : مِن سعادة جِدّ المرء ألّا يكون فى الزّمان المختلط وزيرا للسلطان .

وكان يقال : كما أنّ أشجع الرّجال يحتاج إلى السّلاح ، وأسبَقَ الخيل يحتاج إلى السّوط ، وأحدّ الشِّفار يحتاج إلى المِسَنّ ، كذلك أحزم الملوك وأعقلُهم يحتاج إلى الوزير الصالح .

وكان يقال : صلاحُ الدنيا بصلاح الملوك ، وصلاح الملوك بصلاح الوزراء ،

---

(١) اجتياح الملك : الذهاب به .

وكما لا يَصْلُح الملك إلاّ بمن يستحقّ الملك ، كذلك لا تَصلُح الوَزارة إلاّ بمن يستحقّ الوَزارة .

وكان يقال : الوزير الصالح لا يرى أنّ صلاحه فى نفسه كائن صلاحا حتّى يتّصل بصلاح الملِك وصلاح رعيّته ، وأن تكون عنايته فيما عطف الملك على رعيّته ، وفيما استعطف قلوب الرعيّة والعامة على الطاعة للملك ، وفيما فيه قِوام أمر المُلْك من التدبير الحَسَن ، حتّى يجمع إلى أخذ الحقّ تقديم عموم الأمن . وإذا طرقت الحوادثُ كان للمَلِك عُدّةً وعتادا ، وللرعيّة كافيا محتاطا ، ومن ورائها محاميا ذابًّا ، يعنيه من صلاحها ما لا يعنيه من صلاح نفسِه دونَها .

وكان يقال : مَثَل الملك الصالح إذا كان وزيره فاسدا مَثلُ الماء العذب الصافى وفيه التمساح ، لا يستطيع الإنسان ـ وإن كان سابحا ـ وإلى الماء ظامئا ، دخوله ، حذرا على نفسه .

قال عمر بنُ عبد العزيز لمحمد بن كعب القُرَظىّ حين استُخلِف : لو كنتَ كاتبى ورِدْءًا لى على ما دُفعت إليه ! قال : لا أفعل ، ولكنّى سأرشدك ؛ أسرِع الاستماع ، وأبطئْ فى التصديق حتّى يأتيك واضحُ البرهان ، ولا تعملن ثبجتك فيما تكتفى فيه بلسانك ، ولا سوطك فيما تكتفى فيه ثبجتك ، ولا سيفك فيما تكتفى فيه بسوطك .

وكان يقال : التقاط الكاتب للرّشا وضبطُ الملك لا يجتمعان .

وقال أبرويز لكاتبه : اكتُم السرَّ ، واصدُق الحديث ، واجتهد فى النصيحة ، وعليك بالحَذَر ؛ فإنّ لك علىَّ ألاّ أعجّل عليك حتّى أستأنىَ لك ، ولا أقبل فيك قولاً حتّى أستيقنَ ، ولا أُطمِعُ فيك أحدا فتُغتال ؛ واعلم أنّك بمَنجاةٍ[1] رفعة فلا تحطّنها ، وفى

(١) المنجاة : ما ارتفع من الأرض .

ظلّ مملكةٍ فلا تستَزِيلنّه . قارِب الناس مجاملةً من نفسك ، وباعدْهم مسامحةً عن عدوّك ، واقصِد إلى الجميل ازدراعا لغَدِك ، وتنزّه بالعفاف صَوْنا لمرُوءتك ، وتحسن عندى بما قدرت عليه . احذر لا تُسرِعَنّ الألسنةَ عليك ، ولا تَقبَحن الأحدوثة عنك ، وصُن نفسَك صونَ الدُّرّة الصافية ، وأَخلِصها خلاصَ الفِضّة البيضاء ، وعاتبها معاتبة الحَذِر المُشفِق ، وحصِّنها تحصينَ المدينة المنيعة . لا تدَعنّ أن ترفع إلىّ الصغيرَ فإنّه يدلّ على[1] الكبير ، ولا تكتمنّ عنّى الكبير فإنه ليس بشاغل عن الصغير . هذِّب أمورَك ثمّ القنى بها ، وأَحكِم أمرَك ثم راجعنى فيه ، ولا تجترأنّ علىّ فأمتعِض ، ولا تنقبضنّ منّى فأتّهم ، ولا تُمرِضنّ ما تلقانى به ولا تخدجنّه[2] ؛ وإذا أفكرتَ فلا تعجل ، وإذا كتبتَ فلا تُعْذِر ، ولا تستعن بالفضول فإنها علاوة على الكفاية ، ولا تقصّرنّ عن التحقيق فإنها هُجْنة بالمقالة ، ولا تلبّس كلاما بكلام ، ولا تبعدن معنًى عن معنى . وأكرم لى كتابك عن ثلاث : خضوع يستخفّه ، وانتشار يهجّنه ، ومعانٍ تعقّد به . واجمع الكثير مما تريد فى القليل مما تقول ، وليكن بسطة كلامك على كلام السُّوقة كبسطة الملك الذى تحدّثه على الملوك . لا يكن ما نلتَه عظيما ، وما تتكلم به صغيرا ، فإنما كلام الكاتب على مقدار الملك ، فاجعله عاليا كعلوّه ، وفائقا كتفوّقه ، فإنما جماع الكلام كلّه خصال أربع : سؤالك الشىء ، وسؤالك عن الشىء ، وأمرُك بالشىء ، وخَبرُك عن الشىء ، فهذه الخصال دعائمُ المقالات ، إن التمِس إليها خامس لم يوجَد ، وإن نَقَص منها واحد لم يتمّ ؛ فإذا أمرت فاحكم ، وإذا سألت فأوضِح ، وإذا طلبتَ فأسمح ، وإذا أخبرت فحقّق ، فإنك إذا فعلت ذلك أخذت بجراثيم القول كلِّه ، فلم يشتبه عليك واردةٌ ، ولم تُعجزْك صادرة . أثبت فى دواوينك ما أخذت ، وأحْصِ فيها ما أخرجت ، وتيقّظ لما تُعطى ، وتجرّد لما تأخذ ، ولا يغلبنّك النِّسيان عن الإحصاء ، ولا الأناةُ عن التقدّم ، ولا تخرجنّ

---

(١) كذا فى ا ، وهو الوجه ؛ وفى ب : « عن الكبير » .

(٢) التمريض : التوهين ، والتخديج : يأتى به ناقصاً .

وزنَ قيراط فى غير حقّ ؛ ولا تعظّمنّ إخراج الألوف الكثيرة فى الحقّ ؛ وليكن ذلك كلّه عن مؤامرتى .

* * *

الأصْلُ :

ثُمَّ ٱسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِى ٱلصِّنَاعَاتِ ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا ، ٱلْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ ، وَٱلْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ ٱلْمَنَافِعِ ، وَأَسْبَابُ ٱلْمَرَافِقِ ، وَجُلَّابُهَا مِنَ ٱلْمَبَاعِدِ وَٱلْمَطَارِحِ ؛ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ ٱلنَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ، وَلَا يَجْتَرِءُونَ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ .

وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ . وَٱعْلَمْ ـ مَعَ ذَلِكَ ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقًا فَاحِشًا ، وَشُحًّا قَبِيحًا ، وَٱحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّمًا فِي ٱلْبِيَاعَاتِ ، وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ ، وَعَيْبٌ عَلَى ٱلْوُلَاةِ ، فَٱمْنَعْ مِنَ ٱلِاحْتِكَارِ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ . وَلْيَكُنِ ٱلْبَيْعُ بَيْعًا سَمْحًا بِمَوَازِينِ عَدْلٍ ، وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْبَائِعِ وَٱلْمُبْتَاعِ ؛ فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ ، وَعَاقِبْهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ .

* * *

الشّرْحُ :

خرج عليه السلامُ الآن إلى ذكر التّجار وذوى الصناعات ؛وأمرَه[1] بأن يعمل معهم الخير ، وأن يُوصِىَ غيره من أمرائه وعمّاله أن يعملوا معهم الخير . واستوصِ بمعنى «أوص»

(١) ا ، ب : « أمره» ، بدون واو .

نحو قَرَّ فى المكان واستقرّ ، وعلا قِرْنَه واستعلاه .

وقوله : « استوصِ بالتجّار خيرا » ، أى أوصِ نفسك بذلك ، ومنه قول النبىّ صلّى الله عليه وآله : « استوْصوا بالنّساء خيرا » ؛ ومَفْعولا «استوصِ وأوصِ» ها هنا محذوفان للعلم بهما ، ويجوز أن يكون « استوصِ » أى اقبل الوصيّة منّى بهم ، وأوصِ بهم أنتَ غيرك .

ثم قسّم عليه السلام الموصّى بهم ثلاثة أقسام : اثنان منها للتجّار[1] ، وهما المقيم ، والمضطرب ، يعنى المسافر .

والضّرب : السيرُ فى الأرض ؛ قال تعالى : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ[2] ﴾ ، وواحد لأرباب الصناعات ، وهو قوله : « والمترفّق ببدنه » ، ورُوِى « بيديه » ، تثنية يد .

والمَطارِح : الأماكن البعيدة .

وحيث لا يلتئم الناس : لا يجتمعون ، ورُوِى « حيث لا يلتئم » ؛ بحذف الواو .

ثم قال : « فإنّهم أولو سِلْم » ، يعنى التّجار والصناع ، استعطفه عليهم ، واستماله إليهم .

وقال : ليسوا كعمال الخراج وأمراء الأجناد ، فجانبهم ينبغى أن يراعى ، وحالُهم يجب أن يُحاط ويُحمَى ، إذ لا يتخوّف منهم بائقة لا فى مال يخونون فيه ، ولا فى دَوْلة يُفسِدونها . وحواشى البلاد : أطرافها .

ثم قال له : قد يكون فى كثير منهم نوعٌ من الشحّ والبُخل فيدعوهم ذلك إلى الاحتكار فى الأقوات ، والحَيْف فى البياعات . والاحتكار[3] : ابتياع الغلاّت فى أيام

---

(١) د : « التجار »

(٢) سورة النساء ١٠١

(٣) د : « فالاحتكار »

رخصها، وادّخارها فى المخازن[1] إلى أيام الغلاء والقحط. والحَيْف: تطفيفٌ فى الوزن والكيل، وزيادةٌ فى السعر[2]، وهو الذى عبّر عنه بالتحكّم، وقد نهى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عن الاحتكار؛ وأما التطفيف وزيادة التّسْعير فمنهيٌّ عنهما فى نص الكتاب[3].

وقارَفَ حُكْرة: واقعها، والحاء مضمومة، وأمرَه أن يؤدب فاعل ذلك من غير إسراف، وذلك أنّه دون المعاصى التى توجب الحدود، فغاية أمرِه من التعزير الإهانة والمنع.

***

الأصلُ:

ثُمَّ ٱللهَ ٱللهَ فِي ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى مِنَ ٱلَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ؛ مِنَ ٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ ٱلْبُؤْسَى وَٱلزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً.

وَٱحْفَظْ لِلهِ مَا ٱسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَٱجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي ٱلْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ ٱلَّذِي لِلْأَدْنَى؛ وَكُلٌّ قَدِ ٱسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ.

وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ ٱلتَّافِهِ لِإِحْكَامِكَ ٱلْكَثِيرَ ٱلْمُهِمَّ؛ فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ. وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ، مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ ٱلْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ ٱلرِّجَالُ؛ فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَشْيَةِ وَٱلتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ.

ثُمَّ ٱعْمَلْ فِيهِمْ بِٱلْإِعْذَارِ إِلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ ٱلرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى ٱللهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ.

---

(١) د: «المحارز». (٢) د: «التسعير».

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾.

وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ ، وَذَوِى الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ ، مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ ، وَذَٰلِكَ عَلَى الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ ؛ وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ .

***

الشَّرحُ :

انتقل من التجّار وأرباب الصّناعات إلى ذكر فقراء الرعيّة ومَغْموريها ، فقال : وأهل البؤسَى ، وهى البؤسُ كالنُّعمى للنّعيم ، والزَّمْنى أولو الزَّمانة .

والقانع : السائل ؛ والمعترّ : الّذى يَعرِض لك ولا يسألك ، وهما من ألفاظ الكتاب العزيز[1] .

وأمَره أن يعطيَهم من بيت مال المسلمين لأنّهم من الأصناف المذكورين فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾[2] ، وأن يُعطِيَهم من غلّات صوافى الإسلام —وهى الأرَضون الّتى لم يُوجَف عليها بخيل ولا ركاب — وكانت صافية لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، فلمّا قُبض صارت لفقراء المسلمين ، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام .

ثم قال له : « فإنّ للأقصى منهم مثل الّذى للأدنى » ، أى كلّ فقراء المسلمين سواء فى سهامهم ، ليس فيها أقصى وأدنى ، أى لا تُؤثِر مَنْ هو قريب إليك أو إلى أحدٍ من خاصّتك على مَنْ هو بعيد ليس له سببٌ إليك ، ولا علْقة بينه وبينك . ويمكن أن يريد به : لا تَصرِف غلّات ما كان من الصّوافى فى بعض البلاد إلى مساكين ذلك

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الحج ٣٦ : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ .

(٢) سورة الأنفال ٤١

البلد خاصّة ، فإنّ حقّ البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حقّ المقيم فى ذلك البلد .

والتافه : الحقير. وأشخصتُ زيدا من موضع كذا ؛ أخرجتُه عنه . وفلان يصعّر خدّه للناس ، أى يتكبّر عليهم .

وتقتَحِمه العيون : تزدَريه وتحتقِرُه . والإعذار إلى الله : الاجتهاد والمبالغة فى تأدية حقّه : والقيام بفرائضه .

* * *

كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه ، ولا يثق إلى غيره ، ويقعد بحيث يَسمع الصوت ، فإذا سمعه أدخلَ المتظلّم ، فأصيب بصَمَم فى سَمْعه ، فنادَى مناديه : إنّ الملك يقول : أيّها الرعيّة ، إنّى إن أصبتُ بصَمَم فى سمعى فلم أُصَب فى بصرى ؛ كلّ ذى ظلامة فليَلْبَس ثوبا أحمر ؛ ثمّ جلس لهم فى مستشرَف له .

وكان لأمير المؤمنين عليه السلام بيتٌ سمّاه بيتَ القِصَص ، يُلقِى الناسُ فيه رقاعَهُم ، وكذلك كان فعل المهدىّ محمّد بن هارون الواثق ، من خلفاء بنى العبّاس .

* * *

الأصْـلُ :

وَاجْعَلْ لِذَوِى الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامًّا ؛ فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلّهِ الَّذِى خَلَقَكَ ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ ؛ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ ؛ فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِى غَيْرِ مَوْطِنٍ : « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِىِّ ؛ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ » .

ثُمَّ ٱحْتَمِلِ ٱلْخُرْقَ مِنْهُمْ وَٱلْعِيَّ ، وَنَحِّ عَنْهُمُ ٱلضِّيقَ وَٱلْأَنَفَ ، يَبْسُطِ ٱللهُ عَلَيكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ ، وَيُوجِبْ لكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ . وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً ، وَٱمْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ .

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا؛ مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ ٱلنَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ . وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ .

☆☆☆

الشّرح :

هذا الفصل من تتمّة ماقبله ، وقد رُوِى « حتّى يكلّمك مكلّمهم »، فاعل من « كلّم »، والرواية الأُولى أحسن .

وغير متتعتع : غير مزعِج ولا مقلق .

والمتَتَعْتِع فى الخبر النبوىّ : المتردّد المضطرب فى كلامه عِيًّا من خوف لحقه ، وهو راجع إلى المعنى الأوّل .

والخُرق : الجهل . ورُوِى: « ثمّ احتمل الخُرق منهم والغَىّ » . والغىّ ، وهو الجهل أيضا ، والرواية الأولى أحسن .

ثم بيّن له عليه السلام أنه لابدّ له من هذا المجلس لأمرٍ آخر غير ماقدّمه عليه السلام، وذلك لأنّه لابدّ من أن يكون فى حاجات الناس ما يضيق به صدور أعوانه ، والنّواب عنه ، فيتعيّن عليه أن يباشرَها بنفسه ؛ ولابدّ من أن يكون فى كتب عمّاله الواردة عليه

ما يعيا كتّابه عن جوابه ، فيجيب عنه بعلمه . ويدخل فى ذلك أن يكون فيها مالا يجوز فى حُكم السياسة ومصلحة الولاية أن يطلع الكتاب عليه ، فيجيب أيضا عن ذلك بعلمه .

ثم قال له : لا تدخِلْ عملَ يومٍ فى عمل يومٍ آخر فيُتْعِبك ويُكَدِّرك ؛ فإنّ لكلّ يومٍ ما فيه من العمل .

✲ ✲ ✲

الأصلُ :

واجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيما بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ تَعالى أفْضَلَ تِلْكَ المَواقيتِ ، وأجْزَلَ تِلْكَ الأقسامِ ، وإنْ كانتْ كُلُّها للهِ؛ إذَا صَلَحَتْ فِيها النِّيَّةُ ، وسَلِمَتْ مِنْها الرَّعيَّةُ .

ولْيَكنْ فى خاصَّةِ ما تُخْلِصُ للهِ بهِ دِينَك إقامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتى هِىَ لَهُ خاصَّة ، فأعْطِ اللهَ مِنْ بَدَنِكَ فِى لَيْلِكَ ونَهارِك ، وَوَفِّ ما تقَرَّبْتَ بِهِ إلَى اللهِ سُبْحانَهُ مِنْ ذلِكَ كامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ ولا مَنْقُوصٍ ، بالِغاً مِنْ بَدَنِك ما بَلَغَ .

وإذا قُمْتَ فى صَلَاتِك لِلنَّاسِ فلا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً ولا مُضَيِّعاً ، فإنَّ فِى النَّاسِ مَنْ بِهِ العِلَّةُ ، ولَهُ الحَاجَةُ ؛ وقَدْ سأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ حِينَ وجَّهَنِى إلَى الْيَمَنِ: كَيْفَ أُصَلى بِهِمْ؟ فَقالَ : « صَلِّ بِهِمْ كَصَلاةِ أضْعَفِهِمْ ؛ وكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » .

✲ ✲ ✲

الشَّرحُ :

لمّا فرغ عليه السلام من وصيّته بأمور رعيّته ، شَرَع فى وصيّته بأداء الفرائض التى

أفترضها الله عليه من عبادته ، ولقد أحسن عليه السلام فى قوله : « و إن كانت كلّها لله » ، أى أنّ النّظر فى أمور الرعيّة مع صحّة النيّة وسلامة الناس من الظّلم من جملة العبادات والفرائض أيضاً .

ثم قال له : « كاملا غيرَ مثلومٍ » ، أى لا يحملنّك شُغْل السلطان على أن تختصر الصّلاة اختصاراً ، بل صلّها بفرائضها وسُنَنها وشعائرها فى نهارِك ولَيلِك ؛ و إن أتعبك ذلك ونالَ من بدَنك وقُوّتك .

ثمّ أمرَه إذا صلّى بالناس جماعة ألّا يطيل فينفّرهم عنها ، وألا يخدج الصّلاة و ينقُصها فيضيّعَها [1] .

ثم روَى خبرا عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، وهو قوله عليه السلام له : « صلّ بهم كصلاةِ أضعفهم » ، وقوله : « وكن بالمؤمنين رحيما » ؛ يحتمل أن يكون من تتمّة الخبر النبوىّ ، و يحتمل أن يكون من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، والظاهر أنّه من كلام أميرِ المؤمنين من الوصيّة للأشتر ؛ لأنّ اللفظة الأولى عند أرباب الحديث هى المشهور فى الخبر .

***

الأصْلُ :

وَأَمَّا بَعْدَ هٰذَا ؛ فَلَا تُطَوِّلَنَّ ٱحْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ ٱحْتِجَابَ ٱلْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ . وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا ٱحْتَجَبُوا دُونَهُ ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ ٱلْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ ، وَيَقْبُحُ ٱلْحَسَنُ ، وَيَحْسُنُ ٱلْقَبِيحُ ، وَيُشَابُ ٱلْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّمَا ٱلْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى ٱلْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ

(١) د : « فيضعفها » .

ٱلْـكَذِبِ ؛ وَ إِنما أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ إِمَّا ٱمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي ٱلْحَقِّ ، فَفِيمَ ٱحْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ ! أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ ، إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لَا مَؤُونَةَ فِيـهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ .

* * *

الشَّـرْحُ :

نهاه عن الاحتجاب ؛ فإنّه مَظِنّة انطواء الأمور عنه ، و إذا رُفِـع الحجاب دخل عليه كلُّ أحد فعَرَف الأخبار ، ولم يَخْفَ عنه شيء من أحوال عَمله .

ثمّ قال له : لم تحتجب ، فإنّ أكثر الناس يحتجبون كيلا يُطلَب منهم الرِّفد ! وأنت فإن كنتَ جوادا سَمْحا لم يكن لك إلى الحجاب داعٍ ، و إن كنتَ مُمسِكا فسيعلم الناسُ ذلك منك ، فلا يسألك أحدٌ شيئاً .

ثم قال : عَلَى أنّ أكثَرَ ما يسأل منك مالا مؤونة عليـه فى ماله ؛ كردّ ظُلَامة أو إنصاف من خَصْم .

* * *

[ذكر الحجاب وما ورد فيه من الخبر والشعر]

والقول فى الحجاب كثير :

حضر بابَ عمرَ جماعةٌ من الأشراف : منهم سُهَيل بن عمرو وعُيينة بن حِصْن والأقرع ابن حابس ، فحُجِبوا ، ثمّ خرج الآذن فنادى : أين عمّار ؟ أين سَلْمان ؟ أين صُهَيب ؟

فأدخلهم فتمعّرت [١] وجوهُ القوم ، فقال سُهيل بن عمرو : لم تتمعّر وجوهكم ! دُعوا ودُعِينا فأَسرَعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمرَ اليوم لأنتم غداً لهم [٢] أحسد .

واستأذن أبو سُفْيانَ على عثمان فحجبه ، فقيل له : حَجَبك ! فقال : لا عدمتُ من أهلي مَنْ إذا شاء حَجَبني .

وحَجَب معاويةُ أبا الدرداء ، فقيل لأبي الدرداء : حَجبَك معاوية ! فقال : مَنْ يَغشَ أبوابَ الملوك يُهَنْ ويُكْرَم ، ومن صادف بابا مُغلَقا عليه وَجَد إلى جانبه بابا مفتوحا ، إن سأل أُعطِيَ ، وإن دعا أُجِيب ، وإن يكن معاوية قد احتجب فربُّ معاويةَ لم يحتجب .

وقال أبرويز لحاجبه : لا تَضَعنّ شريفا بصُعوبة حجاب ، ولا ترفَعنّ وضيعا بسهولته؛ ضع الرجالَ مواضعَ أخطارهم ، فمن كان قديما شرفه ثمّ ازدرعه [٣] ، ولم يهدمه بعد آبائه فقدّمه على شرفه الأوّل ، وحسِّن رأيه الآخر ، ومَنْ كان له شرف متقدّم ولم يَصُن ذلك حياطةً له ، ولم يزدرعه تثمير المُغارَسة ، فأَلحِق بآبائه مَنْ رفعة حاله مايقتضيه سابقُ شرفِهم ، وألحق به في خاصّته ما ألحق بنفسه ، ولا تأذن له إلّا دَبريًّا وإلا سرارا ؛ ولا تلحقه بطبقة الأوّلين . وإذا ورد كتابُ عاملٍ من عمّالي فلا تحبسه عنّي طرفةَ عين إلّا أن أكون على حالٍ لا تستطيع الوصولَ إليّ فيها ، وإذا أتاك مَنْ يدّعي النصيحة لنا فلتكتبها سرّا ثمّ أدخله بعد أن تستأذن له ، حتّى إذا كان منّي بحيث أراه فادفع إليّ كتابه ، فإن أحمدت قبلت ، وإن كرهت رفضت . وإن أتاك عالم مشتهر بالعلم والفضل يستأذن ، فأْذَنْ له ، فإنّ العلم شريفٌ وشريفٌ صاحبه ، ولا تحجُبنّ عنّي أحدا من أفناء الناس ، إذا أخذتُ مجلسِي مجلسَ العامّة ، فإنّ الملك لا يُحْجَب إلا عن ثلاث : عِيٍّ يكره أن يُطّلع عليه منه ، أو بخل يكره أن يدخل عليه من يسأله ، أو رِيبة هو مصرّ عليها فيشفق من إبدائها ،

---

(١) تمعرت وجوههم : تغيرت غيظاً وحنقاً (٢) ساقطة من د (٣) ازدرعه : أثبته .

ووقوف الناس عليها ، ولابدّ أن يحيطوا بها عِلْما ، و إن اجتهد فى سَترها . وقد أخذ هذا المعنى الأخير محمود الورّاق فقال :

إذا أُعتصمَ الوالِى بإغـلاق بابه ... وردّ ذوى الحاجات دونَ حجابهِ
ظننت به إحـدى ثلاثٍ وربّما ... رَجَمْتُ بظنٍّ واقعٍ بصَوابِ
أقول به مَسٌّ من العِىّ ظاهرٌ ... ففى إذْنه للناسِ إظهـارُ ما بِهِ
فإن لم يـكن عِىّ اللسان فغالب ... من البُخْـل يحمى ماله عن طِلابهِ
و إن لم يكن لاذا ولاذا فريبَةٌ ... يُـكتّمها مستورةٌ بثيـابهِ

أقام عبد العزيز بن زُرارة الـكلابىّ على باب معاوية سنةً فى شمـلة من صوف لا يأذن له ؛ ثمّ أذن له وقرّبه وأدناه ، ولَطُف محـلّه عنده حتّى ولّاه مصر ، فـكان يقال : استأذن أقوام لعبد العزيز بن زرارة ، ثمّ صار يستأذن لهم ، وقال فى ذلك :

دخلتُ على معـاوية بنَ حرب ... ولـكن بعـد يأسٍ من دخولِ
وما نلتُ الدخولَ عليـه حتّى ... حللتُ مَحَـلّة الرجل الذّليلِ
وأغضيتُ الجفونَ على قذَاها ... ولم أنظُر إلى قالٍ وقيـلِ
وأدركتُ الّذى أمّلت منـه ... وحرمانُ المُـنَى زادُ العَجولِ

و يقال : إنه قال له لمّا دخل عليه أميرُ المؤمنين : دخلتُ إليـك بالأمل ، واُحتملت جفَوْتك بالصبر ، ورأيتُ ببابك أقواما قدّمهم الحظّ ، وآخرين أخّرهم الحرمان ، فليس ينبغى للمقدّم أنْ يأمن عواقب الأيام ، ولا للمؤخّرأن يَيْئَسَ من عطف الزّمان .

وأوّل المعرفة الاختبار ، فابلُ واختبر إن رأيت . وكان يقال : لم يلزم باب السلطان أحدٌ فَصبر على ذلّ الحجاب ، وكلام البوّاب ، وألقى الأنَف ، وحمل الضَّيْم ، وأدام الملازمة ، إلاّ وصل إلى حاجته أو إلى معظمها .

قال عبد الملك لحاجبه : إنك عينٌ أنظرُ بها ، وجُنّة أستلئم بها ، وقد ولّيتُكَ ما وراء بابى ، فماذا تراك صانعا برعيّتى ! قال : أنظر إليهم بعينك ، وأحملُهم على قدر منازلهم عندك ، وأضَعُهم فى إبطائهم عن بابك ، ولزوم خدمتك مواضع استحقاقهم ، وأرتّبهم حيث وضعهم ترتيبك ، وأحسن إبلاغهم عنك وإبلاغَك عنهم . قال : لقد وفّيت بما عليك ، ولكن إن صدّقت ذلك بفعلك . وقال دِعْبل وقد حُجِب عن باب مالك بن طَوْق :

لَعَمرِى لئن حجبتْنى العبيدُ | لما حجبتْ دونَكَ القافيهْ [1]
سأرمى بها من وراء الحجابِ | شَنعاءَ تأتيك بالداهيهْ
تُصمّ السميعَ ، وتعمِى البصيرَ | ويُسألُ من مِثلها العافيهْ

وقال آخر :

سأترك هذا الباب ما دام إذنُه | على ما أرى حتّى يلينَ قليلا
فما خاب من لم يأته مترفّعاً | ولا فاز مَنْ قد رام فيه دُخولا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً | وَجَدْنا إلى ترك المجىء سبيلا

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف الكاتب وقد حجبه :

وإن عدتُ بعد اليوم إنّى لظالمٌ | سأصرف وجهى حيث تُبغى المكَارمُ
متى يُفلح الغادى إليك لحاجةٍ | ونصفُكَ محجوبٌ ،ونصفك نائمُ !

يعنى ليله ونهاره .

استأذن رجلان على معاوية ، فأذن لأحدهما ـ وكان أشرف منزلةً من الآخر ـ ثم أذن للآخر فدخل ، فجلس فوق الأوّل ، فقال معاوية : إنّ الله قد ألزَمَنا تأديبكم

---

(١) ديوانه ٢١٢ ، ونقلها عن ابن أبى الحديد (النجف ١٩٦٢) .

كما ألزَمَنا رعايتكم ، وإنّا لم نأذن له قبلك ، ونحن نريد أن يكون مجلسهُ دونَك ، فقم لا أقام الله لك وزنا ! وقال بشار :

تأبى خــلائقُ خالدٍ وَفعَالُه ... إلاّ تجنُّب كلّ أمر عائب

وإذا أتينا البابَ وقت غَدَائه ... أدنى الغَدَاء لنا برغم الحـاجب

وقال آخر يهجو :

يا أميرا على جَريبٍ من الأر ... ضِ له تسعةٌ من الحجّابِ

قاعد فى الخراب يَحْجُبُ عنّا ... ما سَمِعْنا بحاجبٍ فى خرابِ

وكتب بعضهم إلى جعفرَ بن محمد بن القاسم بن عُبيد الله بن سليمان بن وهب :

أبا جعفرٍ إنّ الولاية إن تكنْ ... منبّلة قوسا فأنت لهـا نَبْلُ

فـلا ترتفِـع عنّا لأمرٍ وَلِيتَه ... كما لم يصغِّر عندَنا شأنَك العَزْلُ

ومن جيّد مامُدِح به بشر بن مروان قول القائل :

بعيـدُ مَراد الطَّرف ماردّ طَرْفه ... حذار الغَواشى باب دارٍ ولا سترِ

ولو شاء بِشْرٌ كان من دونِ بابه ... طماطمُ سودٌ أو صقالبةٌ حُمرُ (١)

ولـكنّ بشرا يَسّرَ البابَ للّتى ... يكون له فى غِبّها الحمدُ والأجر

وقال بشّار :

خليليَّ مِنْ كعبٍ أعينَا أخاكما ... على دهرِه إنّ الـكريم يعينُ

ولا تَبخَلا بخـلَ ابن قرعَة إنّه ... مخافة أن يرجَى نَداه حَزِينُ

إذا جئتَـه للعُرف أغلَق بابَه ... فلمْ تَلقَهُ إلّا وأنت كَمِينُ

فقل لأبى يحيى متى تُدرِكُ العُـلا ... وفى كلّ معروف عليك يمينُ !

---

(١) الطماطم : الأعاجم .

وقال إبراهيم بن هرمة :

هَشٌّ إذا نَزَل الوفودُ ببابه ... سهلُ الحجاب مؤدّب الخدّام[1]

وإذا رأيتَ صديقَه وشقيقَه ... لم تدرِ أيّهما ذوى الأرحام

وقال آخر :

وإنّى لأستحيِي الكريمَ إذا أتى ... على طمعٍ عند اللئيمِ يُطالبهْ

وأرثِي له من مجلسٍ عند بابِهِ ... كمرثِيَتى للطِّرف والعِلْج راكبُهْ

وقال عبد الله بن محمّد بن عيينة :

أتيتُك زائرا لقضاء حقّ ... فحالَ السّتر دونَك والحجابُ

ورأيى مذهب عن كلّ ناء ... يجانبه إذا عزّ الذّهابُ

ولست بساقطٍ فى قِدْر قومٍ ... وإن كرهوا كما يَقَع الذّبابُ

وقال آخر :

ما ضاقت الأرضُ على راغبِ ... تطلّب الرزقَ ولا راهبِ

بل ضاقت الأرض على شاعرٍ ... أصبح يشكو جفوةَ الحاجبِ

قد شَتَمَ الحاجبَ فى شعره ... وإنّما يَقصِد للصّاحبِ

* * *

الأصْلُ :

ثُمَّ إنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً ، فِيهِمُ اُسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ ، وَقِلَّةُ إنْصَافٍ فِى مُعَامَلَةٍ ، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوالِ ، وَلَا تَقْطَعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً ، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِى اُعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِى

---

(١) المحاسن والمساوى ١ : ٢٦٤ .

شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ ، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذٰلِكَ لَهُمْ دُونَكَ ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِباً ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ .

وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً ، فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ ، وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ ، وَإِعْذَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ .

***

الشَّرْح :

نهاه عليه السلام عن أن يَحمِل أقارَبه وحاشيتَه وخواصَّه على رقاب النـاس ، وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتّطاول والإذلال ، ونهاه من أن يقطع أحدا منهم قطيعةً ، أو يملّكه ضَيْعة تضرّ بمن يجاورها من السادة والدّهاقين [1] فى شِرْب يتغلّبون على الماء منه ، أو ضِياعٍ يُضيفونها إلى ماملّكهم إيّاه ، وإعفاء لهم من مؤنة ، أوحفر وغـيره ، فيعفيهم الُولاة منه مراقبةً لهم ، فيكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم ، وحُمِل ثقلها على غيرهم .

ثم قال عليه السلام : لأنّ منفعة ذلك فى الدّنيا تـكون لهم دونَك ، والوِزْر فى الآخرة عليك ، والعيب والذمّ فى الدنيا أيضا لاحقان بك .

ثم قال له : إن اتّهمتْك الرعيّة بحَيْفٍ عليهم ، أو ظنّتْ بك جَوْرا ، فاُذكر لهم عذرَك

(١) الدهاقين : جمع دهقان ؛ وهو من ألقاب الرؤساء فى الأعاجم .

فى ذلك ، وما عندَك ظاهرا غير مستور ، فإنه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحقّ .

وأصحرتُ بكذا ، أى كشفته ؛ مأخوذٌ من الإصحار ، وهو الخروج إلى الصّحراء .

وحامّة الرجل : أقاربُه و بطانته . واعتقدت عقدة، أى ادّخرت ذخيرة . والمهنأ مصدر هنأه كذا . ومغبّة الشىء : عاقبتُه .

وأُعدل عنكَ ظنونهم : نحّها . والإعذار : إقامة العُذْر .

***

[طرَف من أخبار عمر بن عبد العزيز و نزاهته فى خلافته]

ردّ عمرُ بنُ عبد العزيز المظالم التى أُحتقبها [1] بنو مروان فأبغضوه وذمّوه ؛ وقيل : إنّهم سمُّوه فمات .

وروى الزّبير بن بكّار فى '' الموفّقيّات '' أنّ عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه يوما وهو فى قائلته ، فأيقَظه . وقال له : مايؤمّنك أن تؤتَى فى منامك وقد رفِعت إليك مظالم لم تقضِ حقّ الله فيها ! فقال : يا بنىّ إنّ نفسى مطيّتى إن لم أرفُق بها لم تبلِّغنى ، إنّى لو أتعبتُ نفسى وأعوانى لم يكن ذلك إلّا قليلا حتّى أسقط و يسقطوا ، وإنّى لأحتسب فى نومتى من الأجر مثل الّذى أحتِسب فى يقظتى ، إنّ الله جلّ ثناؤه لو أراد أن ينزّل القرآن جملةً لأنزله ، ولكنّه أنزل الآية والآيتين حتّى أُستكثر [2] الإيمان فى قلوبهم .

ثم قال : يابنىّ ممّا أنا فيه أمرٌ هو أهم إلى أهل بيتك ، هم أهل العدّة والعَدَد ، وقبلهم ماقبلهم ، فلو جمعتُ ذلك فى يوم واحد خشيتُ أنتشارهم علىّ ، ولكنّى أنصف من الرّجل

(١) يقال احتقب فلان الإثم ؛ كأنه جمعه واحتقبه من خلفه . (٢) د : « استكبر » .

والأثنين ، فيبلغ ذلك من وراءهما ، فيكون أنجع له ، فإنّ يُرِد الله إتمام هذا الأمر أتمّه ، وإن تكن الأخرى فحَسْب عبدٍ أن يَعلَم اللهُ منه أنه يحبّ أن ينصف جميع رعيّته .

وروى جُوَيرية بنُ أسماء ، عن إسماعيل بن أبي حكيم ، قال : كنّا عند عمرَ بن عبد العزيز ؛ فلمّا تفرّقنا نادى مناديه : الصّلاة جامعة ! فجئتُ المسجدَ ، فإذا عمرُ على المنبر ، فحَمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ هؤلاء — يعنى خلفاءَ بنى أميّة قبله — قد كانوا أعطَوْنا عَطَايَا ما كان ينبغى لنا أن نأخذها منهم ، وما كان ينبغى لهم أن يُعطوناها ، وإنّى قد رأيتُ الآن أنه ليس علىّ فى ذلك دونَ الله حسيب ، وقد بدأتُ بنفسى والأقربين من أهل بيتى ، اقرأْ يامزاحمُ . فجعل مُزاحمٌ يقرأ كتابا فيه الإقطاعات بالضّياع والنّواحى ، ثمّ يأخذه عمرُ بيَده فيقصّه بالجَلَم[1] ، لم يزل كذلك حتّى نودىَ بالظّهر .

وروى الفراتُ بنُ السائب ؛ قال : كان عند فاطمةَ بنتِ عبد الملك بن مَرْوان جوهر جليل ، وهَبَها أبوها ، ولم يكن لأحد مثله ، وكانت تحت عمرَ بن عبد العزيز ، فلمّا ولِىَ الخلافةَ قال لها : اختارى ؛ إمّا أن تردّى جوهرك وحليّك إلى بيت مال المسلمين ، وإمّا أن تأذنى لى فى فراقِك ، فإنّى أكرَه أن أجتمعَ أنا وأنتِ وهوَ فى بيت واحد . فقالت : بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لى ؛ وأمرتْ به فحُمِل إلى بيت المال ، فلمّا هلك عمر واُستُخلِف يزيد بن عبد الملك قال لفاطمة أخته : إن شئتِ رددته عليك ؛ قالت : فإنّى لا أشاء ذلك ، طبتُ عنه نفسا فى حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبدا . فلمّا رأى يزيدُ ذلك قسَمه بين ولدِه وأهلِه .

وروى سهيل بن يحيى المَرْوَزىّ عن أبيه ، عن عبد العزيز ، عن عمرَ بن عبد العزيز ، قال : لمّا دفن سليمانُ صَعِد عمرُ على المنبر فقال : إنّى قد خلعتُ مافى رقبتى من بيعتكم . فصاح النّاسُ صيحةً واحدة : قد اُخترناك ، فنزل ودخل وأَمَر بالسّتور فهُتِكت ،

---

(١) الجلم : المقص .

والثّياب الّتى كانت تُبسَط للخلفاء فحُمِلت إلى بيت المال ، ثمّ خرج ونادى مناديه : مَنْ كانت له مظلمةٌ من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين فليَحضُر ؛ فقام رجل ذِمّىّ من أهل حِمْصَ أبيضَ الرأس واللِّحية ، فقال : أسألك كتابَ الله ! قال : ما شأنك ؟ قال: العبّاسُ بن الوليد ابن عبد الملك أُغتصَبنى ضَيْعتى ـ والعبّاس جالسٍ ـ فقال عمر : ما تقول يا عبّاس ؟ قال : أقطَعنِيها أميرُ المؤمنين الوليد ، وكتب لى بها سجلًّا . فقال عمر : ماتقول أنت أيّها الذّمّىّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتابَ الله ! فقال عمر : إيهاً لعمرى إنّ كتاب الله لأحقّ أن يُتَّبع من كتاب الوليد ، اردُد عليه يا عبّاس ضَيْعتَه ؛ فجعل لا يدَع شيئا ممّا كان فى أيدِى أهلِ بيتِه من المظالم إلّا ردّها مَظلِمة مَظلِمة .

وروى ميمونُ بنُ مِهْرانَ ، قال : بعث إلىّ عمرُ بنُ عبدالعزيز و إلى مكحول وأبى قِلابة فقال : ماترَوْن فى هـذه الأموال الّتى أخذها أهلى من النـاس ظُلْما ؟ فقال مكحول قولا ضعيفا كَرِهه عمر ، فقال : أرى أنْ تستأنف وتدَع مامضى ، فنظر إلىّ عمرُ كالمستغيث بى ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أحضر ولدك عبد الملك لننظرَ مايقول . فحضر ، فقـال : ماتقول ياعبد الملك ؟ فقال : ماذا أقول ؟ ألستَ تعرِف مواضعها ! قال : بلى والله ، قال : فأردُدْها ، فإن لم تفعل كنتَ شريكا لمن أخذَها .

ورَوَى أبن درستوَيْه ، عن يعقوب بنِ سُفْيان ، عن جويرية بن أسماء ، قال : كان بيد عمرَ بنِ عبد العزيز قبل الخلافة ضَيْعته المعروفة بالسّهلة ، وكانت باليمامة . وكانت أمراً عظيما لها غلّة عظيمة كثيرة ، إنّما عيشه وعيش أهله منها ، فلمّا ولِىَ الخلافة قال لمزاحم مولاه ـ وكان فاضلا ـ : إنى قد عزمت أن أردّ السهلةَ إلى بيت مال المسلمين ، فقال مزاحم : أتدرى كم ولدك ؟ إنّهم كذا وكذا ، قال : فذَرفتْ عيناه ، فجعل يَستدمِع ويمسح الدَّمعة بأصبعه الوسطى ، ويقول : أَكِلُهم إلى الله ، أَكِلُهم إلى الله ! فمضى مُزاحم فدخل على عبدِالملك ابن عمر ، فقال له : ألا تعلم ماقد عزم عليه أبوك ! إنّه يريد أن يردَّ السّهلة ، قال : فما قلتَ

له ؟ قال : ذكرتُ له ولدَه فجعل يستدمع ويقول : أكلهم إلى الله . فقال عبد الملك : بئس وزيرُ الدّين أنتَ ! ثمّ وثب وانطلق إلى أبيه فقال للآذن : استأذنْ لى عليه ، فقال : إنّه قد وضع رأسه الساعَة للقائلة ، فقال : استأذِن لى عليه ؛ فقال : أما ترحمونه ! ليس له من اللّيل والنهار إلّا هذه الساعة . قال : استأذِن لى عليه لا أمّ لك ! فسمِع عمرُ كلامَهما ، فقال : ائذن لعبد الملك ، فدخل فقال : على ماذا عزمتَ ؟ قال : أردّ السّهْلَة قال : فلا تؤخّر ذلك قم الآن . قال : فجعل عمرُ يرفع يديه ويقول : الحمد لله الّذى جعل لى من ذرّيتى مَنْ يعيننى على أمر دينى . قال : نعم يابنىّ أصلّى الظهر ، ثمّ أصعد المنبر فأردّها علانيةً على رءوس الناس ، قال : ومَنْ لك أن تعيش إلى الظّهر ! ثمّ مَنْ لك أن تسلمَ نيّتك إلى الظّهر إن عشت إليها ! فقام عمر فصَعِد المنبَر ، فخطب الناس ورد السّهلة .

***

قال : وكتب عمرُ بنُ الوليد بن عبد الملك إلى عمرَ بن عبد العزيز لما أخذ بنى مروان بردّ المظالم كتابا أغلَظَ له فيه ، من جُملته : إنّك أزْرَيْت على كلّ مَنْ كان قَبلك من الخلفاء وعبتَهم ، وسرتَ بغير سيرتهم بُغْضا لهم وشَنآنا لمن بعدَهم من أولادهم ، وقطعتَ ما أمر الله به أن يُوصَل ، وعَمَدْتَ إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتَها بيت المال جَوْرا وعُدْوانا ، فاتّق الله يابن عبد العزيز وراقبْه ، فإنّك خصَصْت أهلَ بيتك بالظّلم والجور . والّذى خَصّ محمدا صلّى الله عليه وآله بما خصّه به لقد ازددتَ من الله بُعداً بولايتك هذه الّتى زعمتَ أنّها عليك بلاء . فأقصِر عن بعض ماصنعتَ ، واعلم أنك بعينِ جبّار عزيز وفى قبضته ، ولن يتركَك على ماأنت عليه .

قالوا : فكتب عمرُ جوابَه : أمّا بعد، فقد قرأتُ كتابَك ، وسوف أجيبُك بنحو منه، أمّا أوّل أمرك يابنَ الوليد فإنّ أمّك نُباتَة أَمَة السّكون ، كانت تطوفُ فى أسواق حِمْص ، وتدخُل حوانيتَها ، ثم اللهُ أعلم بها ، اشتراها ذُبيان بنُ ذبيان من فَىْء المسلمين ، فأهداها

لأبيك ، فحملتْ بك ، فبئس الحاملُ و بئس المحمول! ثم نشأتَ فكنتَ جبّارا عنيدا . وتزعم أنّى من الظالمين لأنى حرمتُك وأهلَ بيتك فىء الله الّذى هو حقّ القرابة والمساكين والأرامل ! و إنّ أظلم منّى وأترُكَ لعهد الله مَن أُستعملك صبيًا سفيها على جند المسلمين تحكُم فيهم برأيك، ولم يكن له فى ذاك نيّة إلّا حبّ الوالد ولدَه ، فويلٌ لك وويلٌ لأبيك ! ماأكثر خصماءَكما يومَ القيامة ! و إن أظلمَ منّى وأتركَ لعهد الله من أُستعمل الحجّاج بنَ يوسف على خُمْسَيِ العرب ، يسفك الدمَ الحرام ، و يأخذ المالَ الحرام . و إنّ أظلمَ منّى وأتركَ لعهد الله مَن أُستعمل قُرّة بنَ شَرِيك ، أعرابيًا جافيا على مصر ، وأذن له فى المَعازِف والخَمْر والشّرب واللهو . و إن أظلمَ منّى وأتركَ لعهد الله من أُستعمل عثمانَ بن حيّانَ على الحجاز ، فينشد الأشعار على منبر رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ومَنْ جعل للعالية البربريّة سهما فى الخمس ؛ فرويداً يابن نباتة ، ولو التقت حَلْقَتا البطان [1] وردّ الفىء إلى أهله ، لتفرّغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتُكم على المحجّة البيضاء ، فطالما تركتم الحقّ ، وأخذتم فى ثَنِيَّات الطريق ! ومن وراء هـذا من الفضل ما أرجو أن أعملَه ؛ بيع رقبتك ، وقسم ثمنك بين الأرامل واليتامى والمساكين ، فإنّ لكلّ فيك حقّا ، والسلام علينا ، ولا ينال سَلامُ الله الظالمين .

***

وروَى الأوزاعىّ ، قال : لمّا قطع عمرُ بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان مَن قَبْله يُجرُونه عليهم من أرزاق الخاصّة ، فتكلّم فى ذلك عَنْبسة بن سعيد ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إنّ لنا قرابةً ، فقال : إنْ يتّسع مالى لكم ، وأمّا هذا المال فحقّكم فيه كحقّ رجل بأقصى بَرْك الغِماد [2] ، ولا يمنعه من أخذه إلّا بعدُ مكانه . والله إنّى لأرى أنّ الأمور

(١) التقت حلقتا البطان : مثل يضرب للأمر العظيم .

(٢) برك الغماد : موضع بين مكة وزبيد

لو استحالت حتّى يُصبح أهلُ الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله .

ورَوَى الأوزاعىّ أيضا ، قال : قال عمر بنُ عبد العزيز يوما وقد بلغه عن بنى أميّة كلامٌ أغضَبه : إنّ لله فى بنى أميّة يوما ـ أو قال : ذِبحًا ـ وأيمُ الله لئن كان ذلك الذِّبح ـ أو قال : ذلك اليوم ـ على يدى لأعذِرنّ الله فيهم . قال : فلمّا بلغهم ذلك كفّوا ، وكانوا يَعلَمون صَرامَته ، وإنه إذا وقع فى أمرٍ مَضَى فيه .

ورَوَى إسماعيل بن أبى حكيم ، قال : قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوما لحاجبه : لا تُدخِلنّ علىّ اليومَ إلّا مَرْوانيّا . فلمّا اجتمعوا قال: يابَنِى مَرْوان ، إنّكم قد أُعطِيتمْ حظّا وشرَفا وأموالا ، إنّى لأحسب شطرَ أموال هذه الأمّة أو ثُلُثيها فى أيديكم ، فسَكَتوا ، فقال : ألا تُجيبونى ؟ قال رجل منهم : فما بالُك ؟ قال : إنى أريد أن أنتزِعها منكم ، فأردَّها إلى بيت مال المسلمين. فقال رجل منهم : والله لا يكون ذلك حتّى يحال بين رءوسنا وأجسادِنا، والله لا نكفِّر أسلافَنا ، ولا نُفقِر أولادنا[1] . فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا علىّ بمن أطلب هذا الحقّ له لأضرعتُ خُدودَكم ؛ قوموا عنّى .

ورَوَى مالك بن أنس ، قال : ذكر عمرُ بنُ عبد العزيز مَنْ كان قبله من المرْوانيّة فعابهم ، وعنده هشامُ بنُ عبد الملك ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إنّا والله نكره أن تعيب آباءنا ، وتضع شرَفَنا ؛ فقال عمر : وأىّ عيبٍ أعيبُ ممّا عابَه القرآن !

ورَوَى نَوْفل بنُ الفرات ، قال : شكا بنو مَرْوانَ إلى عاتكة بنت مروانَ بن الحَكَم عمرَ ، فقالوا : إنّه يعيب أسلافَنا ، ويأخذ أموالَنا . فذكرت ذلك له ـ وكانت عظيمةً عند بنى مَرْوان ـ فقال لها : ياعمّة ، إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قُبِض وترَك

---

(١) ب : « ونفقر » .

الناسَ على نهرٍ مَوْرود ، فولىَ ذلك النهرَ بعده رجُلان لم يستخصّا أنفسَهما وأهلَهما منه بشىء ، ثم وليَه ثالثٌ فكرى منه ساقيةً ، ثم لم تزل الناس يُسكرُون منه السّواقى حتّى تركوه يابساً لا قَطْرَة فيه ، وأيم الله لئن أبقانى الله لأسكُرنّ [١] تلك السواقى ، حتّى أعيد النّهر إلى مجراه الأوّل ؛ قالت: فلا يُسبّون إذاً عندك ! قال : ومَنْ يسبّهم ! إنّما يرفَع الرجلُ مَظلمته فأردّها عليه .

ورَوَى عبدُ الله بن محمّد التيمىّ ، قال : كان بنو أميّة يُنزِلون عاتكة بنت مروان بن الحكم على أبوابِ قصورهم ، وكانت جليلَة الموضِع عندهم ، فلمّا ولىَ عمرُ قال : لا يلى إنزالَهَا أحدٌ غيرى ، فأدخلوها على دابّتها إلى باب قبّته ، فأنزلها ، ثمّ طبّق لها وسادتَين : إحداهما على الأخرى ، ثمّ أنشأ يُمازِحها — ولم يكن من شأنه ولا من شأنِها المِزاح — فقال : أما رأيت الحرس الّذين على الباب ؟ فقالت : بلى ، وربّما رأيتهم عند من هو خير منك ! فلمّا رأى الغضب لا يتحلّل عنها ترك المِزاحَ وسألها أن تذكر حاجتَها ، فقالت : إنّ قرابتَك يشكونك ، ويزعمون أنّك أخذتَ منهم خير غيرك ، قال : ما منعتُهم شيئا هوَ لهم ، ولا أخذتُ منهم حقّا يستحقّونه ! قالت : إنّى أخاف أن يُهيجوا عليك يوماً عصيبا [٢] ، قال: كلّ يوم أخافه — دونَ يوم القيامة — فلا وقانى الله شرّه . ثمّ دعا بِدينار وَمجمَرة وجلد فألقى الدينار فى النّار ، وجعل يَنفُخ حتى أحمرّ ، ثم تناوله بشىء فأخرجه فوضعه على الجلد ، فنَشّ وفَتَر ، فقال : ياعمة ، أما تأوين لابن أخيك ، مِن مثل هذا ! فقامت فخرجتْ إلى بنى مروانَ فقالت : تزوّجون فى آل عمر بن الخطّاب ، فإذا نزَعوا إلى الشِّبه [٣] جزعتم ! اصبروا له .

وروى وُهَيب بن الورد ، قال : اجتمع بنو مروانَ على باب عمر بن عبد العزيز ، فقالوا لولدٍ له : قل لأبيك يأْذَن لنا ، فإن لم يأذن فأبلغ إليه عنّا رسالة ، فلم يأذن لهم ، وقال :

---

(١) سكر الساقية : سدها .
(٢) د : « أن يهيجوا عليك غضبا يوما » .
(٣) كذا فى د ، وفى ا ، ب « السنة » .

فليقولوا ، فقالوا : قل له : إنّ من كان قبلك من الخلفاء كان يعطينا ، ويَعرِف لنا مواضعنا ، وإنّ أباك قد حَرَمنا ما فى يديه . فدَخل إلى أبيه فأبلغه عنهم ، فقال : اخرج فقل لهم : إنى أخاف إن عصيتُ ربّى عذاب يوم عظيم .

وروى سعيدُ بنُ عمّار ، عن أسماء بنت عبيد ، قال : دخل عنبسة بنُ سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ مَنْ كان قَبلْك من الخلفاء كانوا يعطوننا عَطايا منعتناَها ، ولى عيال وضَيْعة ، فأْذن لى أخرج إلى ضيعتى ، وما يُصلح عيالى ! فقال عمر : إنّ أحبّكم إلينا من كفانا مَؤُونته . فخرج عنبسة ، فلما صار إلى الباب ناداه : أبا خالد ، أبا خالد ! فرجع فقال : أكثِرْ ذكرَ الموت فإن كنتَ فى ضيق من العيش وسّعه عليك ، وإن كنتَ فى سعةٍ من العيش ضَيّقه عليك .

وروى عمرُ بن علىّ بن مقدّم ، قال : قال ابنٌ صغيرٌ لسليمان بن عبد الملك لمزاحم : إنّ لى حاجةً إلى أمير المؤمنين عمر ؛ قال : فاستأذنت له ، فأدخله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لِمَ أخذْت قطيعتى ؟ قال : معاذ الله أنْ آخذ قطيعةً ثبتتْ فى الإسلام ! قال : فهذا كتابى بها — وأخْرَج كتابا من كمه — فقرأه عمر وقال : لمن كانت هذه الأرض ؟ قال : كانت للمسلمين ، قال : فالمسلمون أولَى بها . قال : فاردُد علىّ كتابى ؛ قال : إنّك لو لم تأتنى به لم أسألكه ، فأمّا إذ جئتَنى به فلستُ أدعك تطلب به ما ليس لك بحقّ . فبكى ابن سليمان ، فقال مُزاحم : يا أمير المؤمنين ، ابنُ سليمانَ تَصنَع به هذا — قال : وذلك لأن سليمان عَهِد إلى عمرَ ، وقدّمه على إخوته — فقال عمر : وَيْحك يا مزاحم ! إنّى لأَجد له من اللّوْط[1] ما أَجِد لوَلَدى ، ولكنّها نفسى أجادلُ عنها .

ورَوَى الأوزاعىّ ، قال : قال هشام بنُ عبدِ الملك ، وسعيد بن خالد بن عمر بن عثمان

---

(١) فى اللسان : وقد لاط حبه بقلبى ، أى لصق ، وفى حديث أبى البخترى : « ما أزعم أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر ؛ ولكن أجد له من اللوط مالا أجد لأحد بعد النبى صلى الله عليه وسلم » .

ابن عفّان لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، استأنِف العملَ برأيك فيما تحتَ يدِك ، وخـلِّ بين مَن سبقك وبين ما وُلّوه عليهم ؛ كان أوْ لهم ، فإنك مستكف أن تدخل فى خير ذلك وشرّه . قال : أَنشُدُ كما الله الذى إليه تعودان ، لو أنّ رجلا هلك وترك بنينَ أصاغرَ وأكابرَ ، فغرّ الأكابرُ الأصاغرَ بقوّتهم ، فأكلوا أموالهم ، ثم بلغ الأصاغرُ الحُلمُ فجاءوكما بهم و بما صنعوا فى أموالهم ما كنتما صانعين ؟ قالا : كنا نردّ عليهم حقوقهم حتى يستوفوها . قال : فإنّى وجدتُ كثيرا ممن كان قَبلى من الوُلاَة غرّ الناس بسلطانه وقوته ، وآثر بأموالهم أتباعه وأهلَه ورَهطَه وخاصّته ، فلمّا وليت أتونى بذلك ، فلم يسعْنى إلاّ الردّ على الضعيف من القوىّ ، وعلى الدنىء من الشريف . فقالا : يوفّق الله أمير المؤمنين .

* * *

الأصـلُ :

وَلَا تَدْفعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلهِ فِيهِ رِضاً ، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ؛ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ ، وَأَمْناً لِبِـلَادِكَ ، وَلٰـكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ . فَخُذْ بِالْحَزْمِ ، وَاتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ .

وَ إِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عُقْدَةً ، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً ، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ .

وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ ؛ وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ.

فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ ،

وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ ، فَلَا إِدْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ وَلَا خِدَاعَ فِيهِ .

ولا تَعْقِده عَقْداً تُجَوِّزُ فيهِ الْعِلَلَ ، ولا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ والتَّوْثِقَةِ ، ولا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فيهِ عَهْدُ اللهِ إِلَى طَلَبِ انفِساخِهِ بِغَيْرِ الحقِّ ، فإنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انفِرَاجَهُ وفَضْل عاقِبَتِهِ ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخافُ تَبِعَتَهُ ، وأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ طِلْبَةٌ لا تَسْتَقِيلُ فيها دُنْياكَ ولا آخِرَتَكَ .

* * *

الشَّرْحُ :

أمَرَه أن يقبل السِّلم والصلح إذا دُعِي إليه ، لما فيه من دَعَة الجنود ، والراحةِ من الهمّ ، والأمن للبلاد ، ولكن ينبغى أن يحذر بعد الصّلح من غائلة العدوّ وكيدِه ، فإنه ربما قارب بالصلح ليتغفّل ، أى يطلب غفلتك ، فخذ بالحزم ، واتّهمْ حُسْنَ ظنك ، لاتثقْ ولا تسكنْ إلى حُسنِ ظنك بالعدوّ ، وكن كالطائر الحَذِر .

ثمّ أمرَه بالوفاء بالعهود ؛ قال : واجعل نفسَك جُنّةً دون ما أعطيت ، أى ولو ذهبتْ نفسُك فلا تَغدِر .

وقال الراوندىّ : الناس مبتدأ ، وأشدّ مبتدأ ثان ، ومن تعظيم الوفاء خبرُه ، وهذا المبتدأ الثانى مع خبره خبرُ المبتدأ الأول ، ومحلّ الجملة نَصْب لأنها خبرُ ليس ، ومحلّ ليس مع اسمه وخبره رَفع ، لأنه خبر ، فإنه وشىء اسمُ ليس ، ومن فرائض الله حال ، ولو تأخّرَ لكان صِفةً لشىء . والصواب أنّ « شىء » اسم ليس ، وجاز ذلك ، وان كان نكرةً لاعتماده على النفى ، ولأن الجارّ والمجرور قبله فى موضع الحال كالصفة ، فتخصّص بذلك وقَرُب من المعرفة ، والناسُ : مبتدأ ، وأشدّ : خبرُه ، وهذه الجملة المركبة من مبتدأ

وخبر فى موضع رَفْع لأنّها صفةُ « شىء » وأما خبر المبتدأ الذى هو « شىء » فمحذوف ، وتقديره « فى الوجود » كما حذف الخبر فى قولنا : لا إلٰه إلاّ الله ، أى فى الوجود . وليس يصحّ ما قال الراوَندىّ من أنّ « أشدّ » مبتدأ ثان ، و « من تعظيم الوفاء » خبرُه ، لأن حرف الجرّ إذا كان خبرًا لمبتدأ تعلق بمحذوف ، وها هنا هو متعلّق بأشدّ نفسه ، فكيف يكون خبرا عنه ! وأيضا فإنّه لا يجوز أن يكون أشدّ من تعظيم الوفاء خبرا عن الناس ، كما زَعم الراوندىّ ، لأنّ ذلك كلامٌ غيرُ مفيد ، ألا ترى أنّك إذا أردتَ أن تُخبر بهذا الكلام عن المبتدأ الذى هو « الناس » لم يَقُم من ذلك صورةٌ محصّلة تفيدك شيئا ، بل يكون كلاما مضطربا !

ويمكن أيضاً أن يكون « من فرائض الله » فى موضع رَفع ، لأنه خبر المبتدأ ، وقد قدّم عليه ، ويكون موضع « الناس » وما بعده رفعٌ ، لأنه خبر المبتدأ الذى هو « شىء » ، كما قلناه أوّلا ، وليس يمتنع أيضا أن يكون : « من فرائض الله » منصوب الموضع ، لأنه حال ، ويكون موضع « الناس أشدّ » رفعا ، لأنه خبر المبتدأ ، الذى هو « شىء » .

ثم قال له عليه السلام : وقد لزم المشركون مع شِرْكهم الوفاءَ بالعهود ، وصار ذلك لهم شريعة وبينهم سنّة ، فالإسلام أولى باللزوم والوفاء .

واستَوْبلوا : وجدوه وَبيلا ، أى ثقيلا ، استوبلتُ البلدَ ، أىّ استَوْخمته واستثقلْته ، ولم يوافق مِزاجَك .

ولا تخيسَنّ بعهدك ، أى لا تَغدِرنّ ، خاسَ فلانٌ بذمته ، أى غدَر ونَكَثَ .

قوله : « ولا تختلنّ عدوّك » ، أى لا تمكُرنّ به ، خَتَلته ، أى خدعتُه .

وقوله : « أفضاه بين عباده » ، جعله مشتركا بينهم ، لا يختصّ به فريق دون فريق .

قال : « و يستفيضون إلى جِواره » ، أى ينتشرون فى طلب حاجاتهم ومآربهم ، ساكنين إلى جواره ، فإلى ها هنا متعلقة بمحذوف مقدّر ، كقوله تعالى : ﴿ فى تِسْع آياتٍ إلى فِرْعَوْن (١) ﴾ ، أى مرسلا . قال : « فلا إدْغال » ، أى لا إفساد ، والدَّغَل : الفساد . ولا مُدالسة ، أى لا خديعة ، يقال : فلان لا يوالس ولا يُدالس ، أى لا يخادع ولا يخون ، وأصل الدّلس الظلمة ، والتدليس فى البَيْع : كتمانُ عيبِ السِّلعة عن المشترى .

ثم نهاه عن أن يَعقِد عَقْدا يمكن فيه التأو يلات والعلل وطلب المخارج . ونهاه إذا عقد العقد بينه وبين العدوّ أن ينقضه معوِّلا على تأو يل خفىّ أو فحوى قول ، أو يقول : إنما عنيت كذا ؛ ولم أعن ظاهر اللفظة ؛ فإن العقود إنما تُعقد على ما هو ظاهر فى الاستعمال متداول فى الاصطلاح والعُرْف لا على ما فى الباطن .

وروى « انفساحه » بالحاء المهملة ، أى سعته .

[فصل فيما جاء فى الحذر من كيد العدوّ]

قد جاء فى الحذر من كيد العدو والنهى عن التفريط فى الرأى السكون إلى ظاهر السلم أشياء كثيرة ، وكذا فى النهى عن الغدْر والنهى عن طلب تأو يلات العُهود وفسخها بغير الحقّ .

فرّط عبدُ الله بن طاهر فى أيام أبيه فى أمرٍ أشرف فيه على العطب ، ونجا بعد لأى (٢) فكتب إليه أبوه : أتانى يا بُنىّ من خبر تفريطك ما كان أكبر عندى من نعيك لو وَرَدَ ، لأنى لم أرجُ قط ألاّ تموت ، وقد كنتُ أرجو ألاّ تفتضح بترك الحزْم والتيقظ .

ورَوَى ابنُ الكلبىّ أنّ قيسَ بن زهير لمّا قَتَل حذيفة بنَ بدرومن معه بجَفْر الهباءة،

---

(١) سورة النمل ١٢

(٢) بعد لأى ؛ بعد جهد .

خرج حتَّى لحق بالنَّمِر بن قاسط وقال : لا تنظرُ فى وجهى غَطَفانيّةٌ بعد اليوم ؛ فقال : يا معاشرَ النَّمِر ، أنا قيس بنُ زهير ، غريبٌ حَرِيب طريد شريد موتور ، فانظروا لي امرأةً قد أدّبها الغِنَى وأذلّها الفقر . فزوّجوه بامرأةٍ منهم ، فقال لهم : إنّى لا أقيم فيكم حتّى أخبرَكم بأخلاقى ، أنا فخور غَيور أنِف ، ولستُ أفخر حتّى أبتلَى ، ولا أغارُ حتّى أرَى ، ولا آنَف حتّى أُظلَمَ . فرضُوا أخلاقه ، فأقام فيهم حتّى وُلدِ له ، ثمّ أراد أن يتحوّل عنهم ، فقال : يا معشرَ النَّمِر ، إنّ لكم حقّا علىّ فى مُصاهَرتى فيكم ، ومُقامى بين أظهُرِكم ، وإنّى موصيكم بخصالٍ آمرُكم بها ، وأنْهاكم عن خصالٍ: عليكم بالأناة فإنّ بها تُدرَك الحاجة ، وتُنال الفُرصة ، وتسويد من لا تُعابُون بتسويده ، والوفاء بالعهود فإنّ به يعيشُ الناس ، وإعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنْع ما تريدون منَعه قبل الإنعام ، وإجارة الجار على الدّهر ، وتنفيس البيوت عن منازل الأيامى ، وخَلْط الضّيْف بالعيال . وأنهاكمُ عن الغَدر ، فإنه عارُ الدهر ، وعن الرِّهان فإنّ به ثَكِلْتُ مالكاً أخى ، وعن البَغْى فإنّ به صُرِع زهيرٌ أبى ، وعن السَّرَف فى الدِّماء ؛ فإنّ قتلى أهلَ الهباءة أورثنى العار . ولا تُعطُوا فى الفُضول فتعجزُوا عن الحقوق ، وأنكِحوا الأيامى الأكْفاء فإن لم تصيبوا بهنّ الأكفاءَ فخيرُ بيوتهنّ القبور . واعلموا أنّى أصبحتُ ظالمًا ومظلوما ، ظلمنى بنو بدْر بقتلهم مالكا ، وظلمتُهم بقتلِي مَنْ لاذنب له . ثمّ رحل عنهم إلى غمار[1] فتنصّر بها وعَفّ عن المآكل حتّى أكل الحنْظَل إلى أن مات .

***

الأَصْلُ :

إيَّاكَ والدِّماءَ وسَفْكَها بِغَيْرِ حِلِّها ، فإنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أدْعَى لِنِقْمَةٍ ، ولا أعْظَمَ

---

(١) غمار : اسم واد بنجد

لِتَبِعَةٍ ، ولا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ ؛ وانْقِطَاعِ مُدَّةٍ ، مِنْ سَفْكِ الدِّماءِ بِغَيْرِ حَقِّها ، واللهُ سُبْحانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالحُكْمِ بَيْنَ العِبادِ فِيما تَسافَكُوا مِنَ الدِّماءِ يَوْمَ القِيامَةِ ، فلا تُقَوِّيَنَّ سُلْطانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ ويُوهِنُهُ ، بَلْ يُزِيلُهُ ويَنْقُلُهُ .

ولا عُذْرَ لَكَ عِندَ اللهِ ولا عِنْدِي فى قَتْلِ العَمْدِ ، لأنَّ فِيهِ قَوَدَ البَدَنِ ، وإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطأ ، وأَفْرَط عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِالعُقُوبَةِ ، فإِنَّ فِي الوَكْزَةِ فَما فَوْقَهـا مَقْتَلَةً ، فلا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيـاءِ المَقْتُولِ حَقَّهُمْ .

***

الشَّرْحُ :

قد ذكرْنا فى وصيّة قيس بنِ زُهير آنفا النَّهى عن الإسراف فى الدّماء،وتلك وصيّةٌ مبنيّةٌ على شريعة الجاهليّة مع حميّتها وتَهالُكها على القتل والقتال ، ووصيَّة أمير المؤمنين عليه السلام مبنيَّةٌ على الشريعة الإسلاميّة ، والنّهى عن القتل والعُدْوان الَّذى لا يُسيغه الدّين ، وقد ورد فى الخبر المرفوع : « إنّ أوّل ما يقضى اللهُ به يوم القيامة بين العباد أمرُ الدّماء » . قال : إنّه ليس شىء أدعى إلى حلول النِّقم ، وزوال النِّعَم ، وانتقال الدُّول ،من سَفْك الدم الحرام ، وإنك إن ظننتَ أنك تُقوِّى سلطانك بذلك،فليس الأمرُ كما ظننتَ، بل تُضعفه ، بل تُعدِمه بالكلّية .

ثمّ عرّفه أنّ قتل العَمْد يوجِب القَوَد ؛ وقال له : « قَوَد البَدَن » ، أى يجب عليك هَدْم صورتك كما هدمتَ صورة المقتول،والمراد إرهابُه بهذه اللّفظة فإنّها أبلَغ من أن يقول له: « فإنّ فيه القَوَد » .

ثم قال له : إن قتلتَ خطأً أو شِبه عَمْدٍ كالضّرب بالسّوط فعليك الدِّية . وقد اختلف

الفقهاء فى هذه المسألة ، فقال أبو حنيفة وأصحابُه : القتل على خمسة أوجه : عمْد ، وشبه عمْد ، وخطأ ، وما أُجرِىَ مَجرَى الخطأ ، وقتْل بسبب .

فالعَمْد : ماتعمّد به ضرب الإنسان بسلاح ، أو ما يجرى مجرى السّلاح ، كالمحدّد من الخشب ولِيطة[1] القَصَب ، والمَرْوة[2] المحدّدة ، والنار ؛ وموجِب ذلك المأثَم والقوَد إلّا أن يعفوَ الأولياء ، ولا كفّارة فيه .

وشِبْه العمد أن يتعمّد الضرب بما ليس بسلاح ، ولا أجرِىَ مَجْرى السّلاح ، كالحجَر العظيم ، والخَشَبة العظيمة ، وموجِب ذلك المأثم والكفّارة ، ولا قَوَد فيه ، وفيه الدّية مغلّظة على العاقلة .

والخطأ على وجهين : خطأ فى القصد ، وهو أن يَرْمِىَ شخصا يظنّه صَيْدا ، فإذا هو آدمىّ . وخطأ فى الفِعل ، وهو أن يَرمِى غَرَضا فيصيب آدميّا ، وموجب النوعين جميعا الكفّارة والدّية على العاقلة ، ولا مَأثم فيه .

وما أجرى مجرى الخطأ مِثل النائم يتقلّب على رَجُل فيقتله ، فحُكمه حكمُ الخطأ .

وأمّا القتل بسبب ، كحافر البئرِ وواضعُ الحجَر فى غير مِلكه ، وموجِبه إذا تلِف فيه إنسانٌ الدّيَة على العاقلة ، ولا كفَّارة فيه .

فهذا قولُ أبى حنيفة ومَن تابَعه ؛ وقد خالَفه صاحباه أبو يوسف ومحمّد فى شِبْه العَمْد ، وقالا : إذا ضَرَبه بحجر عظيم أو خشبةٍ غليظة فهو عمْد ؛ قال : وشبه العمْد أن يتعمّد ضربه بما لا يقتل به غالبا ، كالعصا الصغيرة ، والسّوط ؛ وبهذا القول قال الشافعىّ .

وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّ المؤدّب من الوُلاة إذا تلِف تحت

---

(١) الليط : قشر القصب اللازق به .

(٢) المروة : حجر أبيض براق ؛ وفى الحديث : قال له عدى بن حاتم : إذا أصاب أحدنا صيداً وليس معه سكين ، أيذبح بالمروة وشقة العصا » ؟

يده إنسان فى التأديب فعليه الدّية ، وقال لى قوم من فقهاء الإماميّة : إنّ مذهبَنا أن لا دية عليه ، وهو خلافُ مايقتضيه كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

***

الأَصْلُ :

وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ .

وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا ، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ .

وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ .

امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ ، فَتَمْلِكَ الاخْتِيَارَ .

وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ .

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ ، مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا ، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا .

***

الشَّرْحُ :

قد اشتمل هذا الفصلُ على وصايا نحنُ شارِحوها ، منها قولُه عليه السلام : « إيّاك وما يُعجبك من نفسك ، والثّقة بما يُعجبك منها » ؛ قد ورد فى الخبر : « ثلاثٌ مُهلِكات: شُحٌّ مُطاع ، وهوًى متّبَع ، و إعجاب المرء بنفسه » ؛ وفى الخبر أيضا : « لا وَحشةَ أشدّ من العُجْب» ، وفى الخبر : « الناسُ لآدَم ، وآدمُ من تراب ، فما لابن آدم والفخر والعجب! » . وفى الخبر : «الجارّ ثوبَه خُيَلاء لا ينظُر اللهُ إليه يومَ القيامة » ؛ وفى الخبر ــ وقد رأى أبادُجانةَ يتبختَر : « إنّها لِمشيةٌ يُبغِضها الله إلّا بين الصفّيْن » .

ومنها قولُه : « وحُبّ الإطراء » ، ناظرَ المأمونُ محمد بنَ القاسم النُّوشَجانىّ المتكلّم ، فجعل يصدقه ويُطريه ويستحسن قولَه ، فقال المأمون : يامحمّد ، أراكَ تنقادُ إلى ماتظنّ أنّه يسرّنى قبل وجوب الحجّة لى عليك ، وتُطرِينى بما لستُ أحبّ أن أُطرَى به ، وتَستخذِى لى فى المقام الّذى ينبغى أن تكون فيه مقاوِما لى ، ومحتجّا علىّ ، ولو شئت أن أقسِر الأمورَ بفَضْل بيان ، وطُولِ لسان ، وأغتصِب الحجّة بقوّة الخلافة ، وأبّهة الرّياسة لصدِّقت و إن كنت كاذبا ، وعَدلتُ و إن كنت جائرا ، وصُوِّبتُ و إن كنتُ مخطئا ،

لـكنى لا أَرضَى إلّا بغَلَبة الحجّة ، ودفع الشّبهة ، و إنّ أنقصَ الملوك عَقْلا ، وأسخَفَهم رأيا، مَن رضىَ بقولهم : صَدَق الأمير .

وأثنَى رجلٌ على رجل ، فقال : الحمدُ لله الّذى سترنى عنك . وكان بعضُ الصّالحين يقول إذا أطراه إنسان : ليسألكَ[1] اللهُ عن حُسن ظنّك .

ومنها قولُه : « و إيّاك والمَنّ » ، قال الله تعالى : ﴿ يَـأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبطِلُوا صَدَقَاتِـكُمْ بِالْمَنّ وَٱلْأَذَى ﴾[2] . وكان يقال : المَنّ محبّة للنفس ، مَفسَدة للصّنع .

ومنها نَهيُه إيّاه عن التزيّد فى فعله ، قال عليه‌السلام : إنّه يَذهَب بنُور الحقّ ، وذلك لأنّه محض الـكذب ، مِثل أن يسدىَ ثلاثة أجزاء من الجميل ، فيدّعى فى المجالس والمحافِل أنّه أسدَى عشرةً ، و إذا خالط الحقُّ الـكذبَ أذهبَ نورَه .

ومنها نهيُه إيّاه عن خُلف الوَعد ، قد مدح اللهُ نبيّا من الأنبياء وهو إسماعيل بنُ إبراهيمَ عليه السلام بصِدْق الوعد . وكان يقال : وعد الـكريم نَقْد وتَعْجيل ، ووعدُ اللئيم مَطْل وتَعْطيل . وكتب بعضُ الـكتّاب : وحقّ لمن أزهرَ بقول ، أن يُثمِر بفِعْل . وقال أبو مقاتل الضّرير : قلتُ لأعرابىّ : قد أكثرَ الناسُ فى المواعيد ؛ فما قولك فيها ؟ فقال : بئس الشىء ! الوعد مَشغَلة للقلب الفارغ، مَتعَبَة للبدن الخافض ، خيرُه غائب ، وشرّه حاضر . وفى الحديث المرفوع : « عدَة المؤمن كأخذٍ باليد » ، فأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام فقال : «إنّه يوجب المَقْت » ، واستَشهَدَ عليه بالآية . والمَقْت : البُغض .

ومنها نهيُه عن العَجَلة ؛ وكان يقال : أصاب متثبّت أو كاد ، وأخطأَ عجِل أو كاد . وفى المَثَل : « ربَّ عَجَلة تَهَبُ رَيثا » ، وذمّها الله تعالى فقال : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَل ﴾[3] .

---

(١) فى د « لاساءك » . (٢) سورة البقرة ٢٦٤ (٣) سورة الأنبياء ٣٧ .

ومنها نهيُ عن التّساقط فى الشىء المُمكن عند حضوره ، وهـذا عبارةٌ عن النهى عن الحِرْص والجَشع ، قال الشّنْفَرَى :

وإنْ مُدّت الأيدِى إلى الزادِ لم أكنْ بأعجَلِهم إذْ أجْشَعُ القومِ أعْجَلُ

ومنها نهيه عن اللّجاجة فى الحاجة إذا تعذّرت ؛ كان يقال : من لاجّ اللهَ فقد جعَله خصما ، ومن كان الله خصمَه فهو مخصوم ، قال الغزّى :

دعْهـــا سماويّة تجرى على قَدَرٍ لاتُفسِدَنْها برأيٍ منك مَعــكوسِ

ومنها نهيُه له عن الوَهْن فيها إذا اُستوضحت أى وَضَحتْ واُنــكشفتْ ، ويُروَى : « واستوُضِحَتْ » فِعلُ مالم يسمَّ فاعله ، والوَهْن فيها إهمالُها وتركُ اُنتهاز الفرصة فيهـا ، قال الشاعر :

فإذا أمكنتْ فبادرْ إليهـــا حَذَرا مِنْ تَعذُّر الإمكانِ

ومنها نهيُه عن الاُستئثار ، وهذا هو الخُلق النبوىّ ، غَنم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله غنائمَ خَيْبر ، وكانت مِلءَ الأرض نعما ، فلمّا ركب راحلتَه وسار تَبعه الناسُ يطلبون الغنائم وقَسْمَها ، وهو ساكتٌ لا يكلّمهم ، وقد أكثروا عليه إلحاحا وسؤالا ، فمرّ بشجرة فخطفت[1] رداءه ، فالتفت فقال : ردّوا علىّ ردائى ، فلو ملـكت بعدد رَمْل تِهامةَ مَغنَما لقسمتُه بينكم عن آخره ثمّ لا تجدوننى بخيـلا ولا جبانا ، ونَزلَ وقَسمَ ذلك المالَ عن آخره عليهم كلّه ، لم يأخذ لنفسه منه وَبرَةً .

ومنها نهيُه له عن التّغابى ، وصورة ذلك أنّ الأمير يُومَى إليه أن فلانا من خاصّته يَفعل كذا ويَفعل كذا من الأمور المنكرة ويرتـكبُها سرّا ، فيتغابَى عنه ويَتغافل ، نهاه عليه السلام عن ذلك وقال : إنّك مأخوذٌ منك لغيرك ، أى معاقَب ، تقول : اللّهمّ خذ لى من فلان بحقّى ، أى اللّهم انتقِم لى منه .

---

(١) د « فاختطفت » .

ومنها نهيُه إيّاه عن الغضب ، وعن الحُـكْم بمـا تقتضيه قوّته الغضبيّة حتّى يسكن غضبُه ، قد جاء فى الخبر المرفوع : « لا يقضى القاضى وهو غَضْبان » ، فإذا كان قد نُهِيَ أن يقضىَ القاضى وهو غَضْبان على غير صاحبِ الخصومة، فبالأَوْلى أن يُنهَى الأميرُ عن أن يَسطوَ على إنسان وهو غَضبانُ عليه .

وكان لـكسرى أنو شَرْوانَ صاحبٌ قد رتّبه ونَصّبه لهذا المعنى يقف على رأس المَلِك يومَ جلوسه ، فإذا غَضِب على إنسان وأَمَر به قَرَع سلسلة تاجِه بقضيب فى يده وقال له : إنّما أنت بَشَر ، فارحم مَن فى الأرض يرْحَمْك مَنْ فى السماء .

***

الأصـلُ :

ومن هذا العهد وهو آخره :

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ ، مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلى خَلْقِهِ ، مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ ، وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ ؛ وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ ؛ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ[١] ، والسَّلامُ على رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ و[على[٢]] آلهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ .

***

الشّـرْحُ :

رُوِىَ : « كلّ رَغِيبة» ،والرغيبةُ ما يُرغَب فيه؛ فأمّا الرّغبة فمصدرُ رَغِب فى كذا ،كأنّه قال : القادرُ على إعطاء كلّ سؤال ، أى إعطاء كلّ سائل ماسأله .

(١) فى د « وانا إليه راغبون » .   (٢) من «د» .

ومعنى قوله : « من الإقامة على العُـذْر » ، أى أسأل الله أن يوفّقنى للإقامة على الاجتهاد ، وبَذْل الوُسْع فى الطاعة ، وذلك [لأنه[1]] إذا بذل جهدَه فقد أعذَر ، ثمّ فسّر اجتهاده فى ذلك فى رضا الخلْق ، ولم يفسّر اجتهاده فى رضا الخالق ، لأنه معلوم ؛ فقال : هو حُسْنُ الثّناء فى العباد ، وجميل الأثر فى البلاد .

فإن قلت : فقولُه « وتمام النّعمة » على ماذا تَعطفه ؟

قلت : هو معطوفٌ على « ما » من قوله « لما فيه » ، كأنّه قال :أسأل الله توفيقى لذا ولتمام النّعمة ، أى ولتمامِ نعمته علىّ ، وتضاعف كرامته لدىّ ، وتوفيقهلما هو توفيقهللأعمال الصالحة الّتى يستوجبهما بها .

* * *

[فصل فى ذكر بعض وصايا العرب]

و ينبغى أن يذكر فى هـذا الموضع وَصايا من كلام قوم من رؤساء العرب أوصَوْا بهـا أولادَهم ورَهْطَهم ، فيهـا آدابٌ حسان ، وكلام فصيح ، وهى مناسبة لعهدِ أميرِ المؤمنين عليه السلام هذا ، ووصاياه المودعة فيه ، و إن كان كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام أجلّ وأعلى من أن يُناسِبَه كلام ، لأنّه قبَس من نور الـكلام الإلٰهىّ ، وفَرْع من دَوْحة المَنطِق النّبوىّ .

رَوى ابنُ الكلبىّ قال : لمّا[2] حضرت الوفاةُ أوسَ بنَ حارثة أخا الخَزْرج ، لم يكن له ولدٌ غير مالك بن الأوس ، وكان لأخيه الخزرج خمسة ، قيل له : كنّا نأمرك بأن تتزوّج فى شبابك فلم تفعل حتّى حضرَك الموت ، ولا ولدَلك إلّا مالِكٌ ! فقال : لم يهلِكْ هالكٌ ترَكَ مِثل مالك ، وإن كان الخزرجُ ذا عَدَد ، وليس لمالك ولد ، فلعلّ الذى استخرج

---

(1) من د .

(2) أمالى القالى ١ : ٢٠

العَذْق من الجرِيمة (١)، والنارَ من الوثيمة (٢) أن يجعل لمالكٍ نَسْلا ، ورجالا بُسْلا (٣) ، وكلّنا إلى الموت . يامالك ، المنّية ولا الدنيّة ، والعتاب قبـل العقاب ، والتجلّد لا التبلّد ، وأعلم أن القبر خـيرٌ من الفقر ، ومَنْ لم يُعطِ قاعداً حُرِم قائما ، وشرّ الشرب الأشتفاف وشرّ الطعم الأقتفاف (٤) ، وذهاب البَصر ، خـيرٌ من كثير من النّظر ، ومن كرم الـكريم الدّفع عن الحريم ، ومن قَلّ ذَلّ ، وخيرُ الغِنَى القناعة ، وشرّ الفقر الُخضوعُ . الدهر صَرْفان : صَرْف رخاء ، وصرف بلاء ؛ واليوم يومان : يوم لَك ويومٌ عليك ، فإذا كان لك فلا تَبطَر ، وإذا كان عليك فاصطبر ، وكلاهما سينْحَسِر (٥) وكيف بالسلامة، لمن ليست له إقامة ، وحيّاك ربّك .

* * *

وأوصى (٦) الحارثُ بنُ كعب بنيـه فقال : يابنيّ ، قد أتت عليّ مائةٌ وستّون سنةً ما صافحتْ يمينى يمينَ غادر ، ولا قَنعتُ لنفسى بخـلّة فاجر ، ولا صبوتُ بابنـة عمّ ولا كَنّة (٧) ، ولا بحتُ لصديق بسرّ ، ولا طرحتُ عن مُومِسَة قناعا ، ولا بقِيَ على دين عيسى بنِ مريمَ ــ وقد رُوِى على دينِ شُعيب ــ من العرب غيرى وغير تميم بن مرّ بن أسد ابن خزيمة ، فموتوا على شريعتي، وأحفظوا [على (٨)] وصيّتى ، وإلهـكم فاتّقوا ، يَـكفِـكم ما أهمّـكم ، ويصلح لـكم حالـكم ، وإيّاكم ومعصيته ، فيحلّ بكم الدّمار ، ويُوحِش منكم الدّيار . كونوا جميعا ، ولا تفرّقوا فتكونوا شِيَعا ، وبُزّوا قبل أن تُبزّوا (٩) ، فموت

(١) الجريمة : النواة ، والعذق : النخلة . (٢) الوثيمة : الصخرة .
(٣) بسل : جمع باسل ؛ وهو الشجاع . (٤) الاشتفاف : الامتصاص . والاقتفاف : الأخذ بعجلة .
(٥) يعنى ينكشف .
(٦) الوصايا ١٢٣ ، ونسب هذه الوصية إلى مالك بن المنذر البجلى . قال : « وقد كان أصاب دماً فى قومه ؛ فخرج هارباً بأهله حتى أتى بهم بنى هلال ، فلما احتضر أوصى بنيه ، وأمرهم أن يعطوا قومه النصف من حدثه الذى أحدثه فيهم .
(٧) الـكنة : امرأة الابن أو الأخ . (٨) تكملة من د . (٩) بزه : سلبه .

فى عزّ ، خيرٌ من حياة فى ذُلّ وعجز ، وكل ما هو كائن كائن ، وكلّ جمع إلى تباين ، والدهر صَرْفان : صرْف بلاء ، وصرف رخاء ، واليوم يومان : يومُ حَبرة[1] ، و يوم عَبْرة ، والناس رجلان : رجلٌ لك ، ورجلٌ عليك . زوّجوا النساء الأكفاء ، و إلّا فانتظروا بهنّ القضاء ، وليكن أطيب طيبهنّ الماء ، و إيّاكم والوَرْهاء ، فإنّها أدوأ الدّاء ، و إنّ ولدها إلى أفن[2] يكون . لاراحةَ لقاطع القرابة . و إذا اختلف القومُ أمكنوا عدوّهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ، والتفضّل بالحسنة يَقِي السّيئة ، والمكافأة بالسّيئة دخول فيها ، وعمل السوء يُزيلُ النّعماء ، وقطيعة الرّحم تُورِث الهمّ ، وانتهاك الحرمة يُزِيل النعمة ، وعقوق الوالدَين يُعقِب النّكَد ، ويُخرب البلد ، و يمحق العدد ، والإسراف فى النصيحة ، هو الفضيحة ، والحقد منعُ الرِّفْد ، ولزوم الخطيئة يُعقِب البلية ، وسوء الدّعة[3] يقطِّع أسبابَ المنفعة ، والضغائن ، تدعو إلى التباين ؛ يابَنيّ إنّى قد أكلتُ مع أقوام وشرِبتُ ، فذهبوا وغبرتُ ، وكأنّى بهم قد لحقتُ ، ثم قال :

أكلتُ شبابى فأفنيتُهُ ... وأبليْتُ بعد دُهورٍ دُهورَا
ثلاثةَ أهلِين صاحبتُهمْ ... فبادُوا وأصبحتُ شيخاً كبيرَا
قليلَ الطعام عسيرَ القيا ... مِ قد تركَ الدهْرُ خَطوِى قصيرَا
أبيتُ أُراعِى نجومَ السماء ... أقلّب أمرِى بُطونا ظُهورَا

* * *

وصَّى أكثمُ بنُ صَيْفِىّ بنيه ورهطَه فقال : يابَنِى تميم ، لا يفوتنّكم وَعْظى ، إنْ فاتكم الدهر بنفسى ، إنّ بين حَيْزومى وصدرى لكلاما لا أجدُ له مواقعَ إلاّ[4] أسماعَكم ولا مقارّ إلاّ قلوبكم ، فتلقوْه بأسماع مُصْغية ، وقلوب واعية ، تحمَدوا مَغَبّته . الهوى

(١) الحبرة : السرور .
(٢) الأفن : الفساد .
(٣) الوصايا : « الرعة » .
(٤) فى د « غير » .

يَقْظان ، والعقل راقد ، والشّهَوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفسُ مهملة ، والروية مقيَّدة ، ومن جِهَـة التّوانى وترك الرويّة يتلف الحَزْم ، ولن يَعدَم المُشاور مُرْشدا ، والمستبدّ برأيه موقوف على مداحِض الزَّلَل ، ومن سَمّع سُمِّع به ، ومصارعُ الرجال تحتَ بُروق الطمع ، ولو اعتُـبرتْ مواقِـعُ المحن ما وُجدتْ إلاّ فى مَقاتل الـكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرّشاد ، ومَن سلك الجَدَد[1] أَمِن العثار ، ولن يَعْدم الحسودُ أن يُتعب قلبه ، ويُشغل فـكرَه ، ويُورث غَيظه ، ولا تجاوز مضرّته نفسه . يا بنى تميم ، الصبرُ على جرع الحـلم أعذَب من جنا ثمرِ الندامة ، ومن جَعل عِرْضه دون ماله استهـدَفَ للذمّ ، وكَلْم اللّسان أَنـكَى من كَلْم السّنان ، والـكلمة مرهونةٌ ما لم تَنجمْ من الفم فإذا نجمتْ مزجت ، فهى أسدٌ محرَّب ، أو نار تَلَهَّب ، ورأىُ الناصح اللبيب دليلٌ لا يجوز ، ونفاذُ الرأى فى الحرب ، أجدَى من الطّعن والضرب .

***

وأوصى يزيدُ بنُ المهلب ابنه مخلدا حين استخلفه على جُرْجانَ ، فقال له : يا بُنى ، قد استخلفتُك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحىَّ من اليمن فـكن لهم كما قال الشاعر :

إذا كنتَ مرتادَ الرجال لنفعهمْ ... فَرِشْ واصطَنع عندَ الّذين بهمْ ترمى

وانظر هـذا الحىّ من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم ، وانظر هذا الحىّ من تميم فأمطرهم[2] ولا تَزْهَ لهم ، ولا تُدنهم فيطمعوا ، ولا تُقصِهم فيقطعوا ، وانظر هذا الحىّ من قيس فإنهم أكفاء قومك فى الجاهلية ، ومناصِفوهم المآثِر فى الإسلام ، ورضاهم منك البُشَر . يا بنىّ ، إنّ لأبيك صنائع فلا تفسِدها ، فإنه كفى بالمرء نقصا أن يهـدِم ما بنى أبوه ، وإياك والدّماءَ فإنه لا تقيّـةَ معها ، وإيّاكَ وشَـتْم الأعراض فإنّ الحرّ

---

(١) الجدد : الأرض المستوية .

(٢) د « فانظرهم » .

لا يرضيه عن عِرضه عوض ، وإيّاك وضربَ الأبْشار فإنه عارٌ باقٍ ، ووِتْر مطلوب ، واستعمل على النّجدة والفضل دونَ الهوى ، ولا تعزل إلاّ عن عَجْز أو خيانة . ولا يمنعك من اصطناع الرّجل أن يكون غيرُك قد سبقك إليه ، فإنّك إنما تصطنع الرجالَ لفضْلها . وليكن صنيعُك عند مَنْ يكافئك عنه العشائر . احمل الناسَ على أحسن أدبك يكفُوكَ أنفسهم . وإذا كتبت كتابا فأكثر النظر فيه ، وليكن رسولُك فيما بيني وبينك مَنْ يفقه عنّى وعنك ؛ فإنّ كتابَ الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضعُ سِرّه . وأستودعُك الله ، فلا بدّ للمودّع أن يسكت ، وللمشيِّع أن يرْجع . وما عفّ من المنطق وقلَّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك .

***

وأَوصى قيس بنُ عاصم المِنْقَرىّ بنيه ، فقال : يا بنىّ ، خذوا عنى فلا أحد أنصَحُ لكم منّى . إذا دفنتمونى فانصرفوا إلى رحالكم فسوِّدوا أكبرَكم ، فإنّ القوم إذا سوَّدوا أكبرَهم خلفوا أباهم ، وإذا سوّدوا أصغرهم أزرى ذلك بهم فى أكفائهم . وإيّاكم ومعصية الله وقطيعة الرحم ، وتمسكوا بطاعة أمرائكم فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وَضَعوا اتَّضَع . وعليكم بهذا المال فأصلحوه ، فإنه مَنبَهة للكريم ، وجُنّة لعِرْض اللئيم . وإيّاكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل ، وإن أحداً لم يسأل إلاّ ترك الكسب ، وإيّاكم والنِّياحة ، فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ينهىَ عنها ، وادفنونى فى ثيابى التى كنتُ أصلّى فيها وأصوم ، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفنى فقد كانت بينى وبينهم مشاحنات فى الجاهليّة والإسلام ، وأخاف أن يُدخلوا عليكم بى عارا . وخذوا عنّى ثلاثَ خِصال : إيّاكم وكلّ عِرْق لئيم أن تُلابِسوه فإنه إن يسرُرْكم اليوم يسؤكم غداً ، واكظِموا الغيظ ، واحذروا بنىّ اعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائنَ آباءٌ لنا سَلفوا   فلَنْ تبيـدَ وللآباء أبناء

قال ابن الـكلبي : فيحـكي النـاسُ هـذا البيت سابقا للزبير ، وما هو إلاّ لقيس ابن عاصم .

***

وأصى عمرو بن كلثـوم التَّغْلبي[1] [بنيه][2] فقال : يا بَنيَّ إنّي قد بلغت من العمر ما لم يبلغ أحدٌ من آبائي وأجدادي ، ولا بدّ من أمر مقتبِل ، وأن ينزل بي ما نزل بالآباء والأجداد والأمهات والأولاد ، فاحفظوا عني ما أوصيكم به . إنّي والله ما عيّرت رجلا قطّ أمرا إلا عيّرني مثله؛ إنْ حقّا فحق ، و إنْ باطلا فباطل ، ومن سَبّ سُبّ ، فـكُفّوا عن الشتم فإنه أسلم لأعراضكم . وصلوا أرحامكم تعمُرْ دارُكم[3] ، وأكرموا جاركم بحسن ثنائـكم ، وزوّجوا بنات العمّ بني العمّ فإن تعديتم بهنّ إلى الغرباء فلا تألوا بهنّ [عن[4]] الأكفاء . وأبعـدوا بيوتَ النساء من بيوت الرجال ، فإنه أغضّ للبصر ، وأعفّ للذكْر ؛ ومتى كانت المعاينة واللقاء ، ففي ذلك داءٌ من الأدواء ، ولا خـير فيمن لا يغار لغيره كما يغارُ لنفسه ، وقَلّ مَن انتهك حرمةً لغيره إلاّ انتُهِـكت حرمتهُ . وامنعوا القريب من ظُلْم الغريب ، فإنك تَذِلّ على قريبك ، ولا يَجْمُل بك ذلّ غريبك ، و إذا تنازعتم في الدماء فلا يكن حقّـكم الـكِفاء ، فربّ رجل خيرٌ من ألف ، ووُدّ خير من خلف ، و إذا حُدّثتم فَعُوا، و إذا حَدّثتم فأوْجزوا ، فإنّ مع الإكثار يكون الإهـذار ، وموتٌ عاجل خيرٌ من ضَنًى آجل ، وما بكيتُ من زمان إلاّ دهاني بعده زمان ، وربما شَجَاني[5] من لم يكن أمرُه

(١) ب : « الثعلبي » تحريف .
(٢) تـكملة من د .
(٣) في د « دياركم » .
(٤) من د .
(٥) شجاني : أحزنني

عَنانى ، وما عجبتُ من أحْدوثه إلاّ رأيت بعدها أعجوبة . واعلموا أنّ أشجع القوم العَطوف، وخيرُ الموت تحت ظِلال السيوف ، ولا خير فيمن لا رويّة له عند الغضب ، ولا فيمن إذا عُوتب لم يُعْتب ، ومن الناس من لا يرجى خيره ، ولا يخاف شرّه ، فبكوءه [1] خير من درّه ، وعقوقه خيرٌ من برّه ولا تُبرحوا فى حبكم فإن من أبرَح فى حبٍّ آلَ ذلك إلى قبيح بغض ، وكم قد زارنى إنسان وزُرْته ، فانقلب الدّهر بنا فقبَرْته . واعلموا أنّ الحليم سليم ، وأن السفيهة كليم ، إنى لم أمت ولكن هَرِمت ، ودخلتْنى ذِلّة فسكتّ ، وضعف قلبى ، فأهترت [2] ، سلمكم ربكم وحيّاكم .

* * *

ومن كتاب أردشير بن بابك إلى بنيه والملوك من بعده : رشاد الوالى خيرٌ للرعيّة من خصْب الزمان ، الملك والدِّين توءمان لا قوام لأحدهما إلّا بصاحبه ، فالدِّين أُسُّ المُلْك وعمادُه، ثم صار المَلِكُ حارسَ الدِّين ،فلابدّ للمُلك من أسّه ،ولا بدّ للدّين من حارسه، فأمّا مالا حارس له فضائع ، ومالا أسَّ له فمهدوم ، إنّ رأسَ ما أخاف عليكم مبادرة السّفلة إيّاكم إلى دراسة الدّين وتأويله والتفقّه فيه ، فتحملكم الثّقة بقوّة الملك على التّهاون بهم ، فتحدث فى الدّين رياساتٌ منتشِرات سرًّا فيمن قد وترتم وجَفَوتم ، وحرمتم وأخفتم ، وصغّرتم من سِفْلة النّاس والرعيّة وحَشْو العامّة ، ثمّ لا تنشَب تلك الرّياسات أن تحدث خُرْقا فى المُلك ووَهْنا فى الدولة . وأعلموا أنّ سلطانكم إنّما هو على أجساد الرعيّة لا على قلوبها ، وإن غلبتم الناسَ على مافى أيديهم فلن تغلبوهم على مافى عقولهم وآرائهم ومكايدهم. وأعلموا أنّ العاقل المحروم سَالٌّ عليكم لسانه ، وهو أقطعُ سَيْفيه ، وإنّ أشدّ مايضرّ بكم من لسانه ماصرف الحيلة فيه إلى الدّين فكان للدنيا يحتج [3] ، وللدين فيما يظهر يتعصّب ، فيكون

---

(١) بكأت الناقة بكوءاً : قل لبنها .

(٢) الهتر : ذهاب العقل .

(٣) ا : « يجنح » .

للدين بكاؤه ، و إليه دعاؤه ، ثمّ هو أوحد للتّابعين والمصدّقين والمناصحين والمؤازرين ، لأنّ تعصّب [١] الناس موكّل بالملوك ، ورحمتهم ومحبّتهم موكّلة بالضّعفاء المغلوبين، فاحذروا هذا المعنى كل الحذر .

واعلموا أنّه ليس ينبغى للمَـلِك أن يعرف للعبّاد والنسّاك بأن يكونوا أوْلَى بالدّين منه، ولا أحْدَبَ عليهولا أغضَبَ له. [ولا ينبغىله][٢] أن يخلِيَ النّسّاك والعبّاد من الأمر والنهى فى نُسْـكهم ودينهم ، فإنّ خروج النسّاك وغيرهم من الأمر والنّهى عيبٌ على الملوك وعلى المملـكة ، وثُـلْمة بيّنة الضّرر على الملك وعلى مَنْ بعده .

وأُعلموا أنّه قد مضى قبلنا من أسلافنا ملوكٌ كان الملِك منهم يتعهّد الحماية بالتفتيش والجماعة بالتّفضيل ، والفراغ بالإشغال ، كتعهّده جَسَده بقصّ فضول الشعر والظّفر وغَسْل الدّرن والغمر[٣] ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن ، وقد كان من أولئـك الملوك من صحّة ملـكه أحبّ إليه من صحّة جسده، فتتابعتْ تلك الأملاك بذلك كأنّهم ملك واحد، وكأنّ أرواحَهم روحٌ واحدة ، يمكّن أوّلهم لآخرهم ، و يصدّق آخرهم أوّلهم ، يجتمع أبناء أسلافهم ، ومواريث آرائهم ، وثمرات عقولهم عند البـاقى منهم بعدهم ، وكأنّهم جلوسٌ معه يحدّثونه و يشاورونه ، حتّى كأنّ على رأس دارا بن دارا ما كان من غلبة الإسكندر الرّومى على ما غلب عليـه من مُلْـكه . وكان إفسادُه أمرَنا ، وتفرقتُه جماعتَنا ، وتخريبُه عمران مملـكتنا أبلغَ له فيما أراد من سَفْك دمائنا ، فلمّا أذن الله عزّ وجلّ فى جمـع مملـكتنا ، و إعادة أمرنا ، كان من بعثه إيانّا ما كان . و بالاعتبار يُتّقى العثار ، والتجارب الماضية دستورٌ يُرجَع إليه من الحوادث الآتية .

وأُعلموا أنّ طباع الملوك على غير طباع الرعيّة والسوقة ، فإنّ الملِك يُطيف به العزّ ، والأمْن والسّرور والقُدْرة على ما يريد ، والأنَفَة والجُرْأة والعبث والبَطر ، وكلّما ازداد

---

(١) فى د « بغض » . (٢) تـكملة من د (٣) ب : « والغمص » .

فى العُمر تنفّسا ، وفى المُلك سلامةً أزداد من هذه الطبائع والأخلاق حتّى يُسلمه ذلك إلى سُكْر السّلطان الّذى هو أشدّ من سكر الشراب، فينسى النكبات والعَثَرات ، والغِير والدوائر ، وفُحْش تسلطّ الأيام ، ولُؤم غَلبة الدّهر ، فيرسل يدَه بالفعل ، ولسانه بالقول . وعند حُسن الظنّ بالأيّام تحدثُ الغِيَر، وتزوُل النّعَم ؛ وقد كان من أسلافنا وقُدَماء مُلوكنا مَنْ يذكّرهُ عِزّه الذلّ ، وأَمْنُه الخوف ، وسروره الكآبة ، وقدرتُه المَعْجَزَة ، وذلك هو الرّجل الكامل قد جمع بهجة الملوك ، وفكرة السُّوقة ، ولا كمال إلّا فى جمعها .

وأُعلموا أنّكم ستبلوْن على الملك بالأزواج والأولاد والقُرباء والوُزَراء والأخدان ، والأنصار والأعوان والمتقرّبين والنُّدماء والمُضحِكِين ، وكلّ هؤلاء — إلّا قليلا — أن يأخذ لنفسه أحبّ إليه من أن يعطى منها عمله ، وإنّما عمله سوقٌ ليومه ، وذخيرةٌ لغده ، فنصيحتُه للملوك فضلُ نصيحته لنفسه ، وغاية الصّلاح عنده صلاحُ نفسه ، وغايةُ الفساد عنده فسادُها ؛ يقيم للسلطان سوق المودّة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع ، إذا استوحش الملك من ثقاته أطبقتْ عليه ظُلم الجهالة . أخوَف ما يكون العامّة [آمن ما يكون الوزراء ، وآمن ما يكون العامة [1]] أخوف ما يكون الوزراء .

واعلموا أنّ كثيرا من وزراء الملوك من يُحاول أستبقاء دولته وأيّامه بإيقاع الأضطراب، والخَبْط فى أطراف مملكة الملك ، ليحتاج الملك إلى رأيه وتدبيره ؛ فإذا عرفتم هذا من وزير من وزرائكم فاُعزلوه فإنَّه يُدخِل الوَهن والنقْص على الملك والرعيّة لصلاح حال نفسه ، ولا تقوم نفسُه بهذه النّفوس كلّها .

وأُعلموا أنّ بدء ذهاب الدّولة ينشأ من قِبَل إهمال الرعيّة بغير أشغال معروفة ، ولا أعمالٍ معلومة ، فإذا نشأ الفراغ تولّد منه النّظر فى الأمور ، والفكر فى الفروع والأصول . فإذا نظروا فى ذلك نظروا فيه بطبائعَ مختلفةٍ ، فتختلف بهم المذاهب ، ويتولّد من أختلاف مذاهبهم تَعادِيهم وتضاغُنهم ، وهم مع أختلافهم هذا متفقّون ومجتمعون على بغض الملوك ، فكلّ صِنْف منهم إنّما يجرى إلى فَجيعةِ الملك بملكه ، ولكنّهم لا يجدون سُلّما إلى

(١) تكملة من د بها يستقيم الكلام .

ذلك أوثقَ من الدّين والناموس ، ثمّ يتولّد مِن تَعادِيهم أنّ المَلِك لا يستطيع جمعَهم على هوًى واحد ، فإن انفرد باختصاص بعضِهم صارَ عدوَّ بقيّتهم ، وفى طباع العامة استثقالُ الوُلاة ومَلالُهم ، والنَّفاسة [1] عليهم ، والحسد لهم ، وفى الرعيّة المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود ، ويتولّد من كثرتهم مع عداوتهم أن يَجبُن المَلِك عن الإقدام عليهم ، فإنّ فى إقدام الملك على الرعيّة كلّها كافّة تغريراً بمُلكه . ويتولّد مِن جُبْن المَلِك عن الرعيّة استعجالهم عليه ، وهم أقوى عدوّ له وأخلقُه بالظَّفَر ، لأنّه حاضر مع الملك فى دار ملكه ، فمن أَفضَى إليه الملكُ بعدى فلا يكونَنّ بإصلاح جسده أشدَّ اهتماما منه بهذه الحال ، ولا تكونَنّ لشىء من الأشياء أكره وأنكَرُ لرأسٍ صار ذَنَبا ، وذَنَبٍ صار رأسا ، ويد مشغولة صارت فارغةً ، أو غنىٍّ صارَ فقيرا ، أو عامل مصروف ، أو أمير معزول .

واعلموا أنّ سياسة الملك وحراسته ألّا يكون ابن الكاتب إلّا كاتبا ، وابن الجندىّ إلّا جنديّا ، وابن التاجر إلّا تاجرا ، وهكذا فى جميع الطبقات ، فإنّه يتولّد من تنقّل النّاسِ عن حالاتهم أن يلتمس كلّ امرىءٍ منهم فوقَ مرتبته ، فإذا انتقل أوشَكَ أن يرى شيئاً أرفَع مما انتقل إليه ، فيَحسُدَ أو ينافسَ ، وفى ذلك من الضرر المتولّد مالا خفاء به ، فإنْ عجز مَلكٌ منكم عن إصلاح رعيّته كما أوصَيْناه فلا يكون للقميص القَمِل أسرَع خلعا منه لِمَا لبسَ من قميص ذلك المُلْك .

واعلموا أنه ليس مَلكٌ إلّا وهو كثير الذِّكر لمن يلِي الأمرَ بعده ، ومن فساد أمر الملك نشرُ ذِكره ولاةَ العهود ، فإنّ فى ذلك ضُروباً من الضّرر ، وأنّ ذلك دخولُ عداوةٍ بين الملك وولىّ عهدِه ، لأنّه تطمح عينُه إلى الملك ، ويصير له أحبابٌ وأخدان يمنّونه ذلك ، ويستبطئون موتَ الملك . ثم إنّ الملك يستوحش منه ، وتنساق الأمور إلى هلاك أحدِهما ، ولكن لينظرْ الوالى منكم لله تعالى ثمّ لنفسه ثمّ للرعيّة وليَنتخبْ وليّاً للعهد من

(١) النفاسة : كراهة الخير لهم .

بعدِه ، ولا يُعلمه ذلك ، ولا أحد من الخَلْق قريبا كان منه أو بعيدا ، ثم يكتب اُسمَه فى أربع صحائف ، ويَختمها بخاتمه ، ويضَعُها عند أربعة نفرٍ من أعيان أهل المملكة ، ثمّ لا يكون منه فى سرّه وعلانيته أمرٌ يستدلّ به على ولىِّ عهده من هؤلاء فى إدناء وتقريب يعرَف به، ولا فى إقصاء وإعراضٍ يُستَراب له . وليتّق ذلك فى اللّحظة والكَلِمة ، فإذا هَلَكَ الملك جُمعتْ تلك الصحائفُ إلى النسخة التى تكون فى خِزانة المِلك ، فتفضّ جميعا ، ثم ينوّه حينئذ باُسم ذلك الرجل ، فيلقى الملك إذا لقيه بحَداثة عَهْده بحال السّوقة ، ويلبسه إذا لبسه ببصر السوقة وسمْعِها ، فإنّ فى معرفته بحاله قبل إفضاء الملك إليه سُكْراً تُحدِثه عنده ولايةُ العهد ، ثم يلقاه الملك فيزيده سُكْراً إلى سكره ، فيَعمَى ويَصَمّ ، هذا مع مالابدّ أن يلقاه أيّام ولاية انعَهْد من حِيَل العُتاة ، وبغى الكذّابين ، وترقيَة النَّمامين ، وإيغار صدره ، وإفسادِ قلبه على كثير من رعيّته ، وخواصِّ دولته ، وليس ذلك بمحمود ولا صالح .

واعلموا أنّه ليس للمَلِك أن يُحلَّف ، لأنّه لا يقدر أحدٌ على اُستكراهه ، وليس له أن يغضب لأنّه قادر ، والغضب لقاح الشرّ والندامة ، وليس له أن يَعبث ويَلعب ، لأنّ اللعِب والعَبَث من عمل الفُرّاغ ، وليس له أن يفرَغ لأنّ الفَرَاغ من أمرِ السّوقة ، وليس للمَلِك أن يَحسُد أحَداً إلّا على حُسْن التدبير ، وليس له أن يَخافَ لأنه لا يدَ فوقَ يدِه .

وأعلموا أنّكم لن تَقدِروا على أن تَختِموا أفواهَ الناس من الطّعن والإزْراء عليكم ، ولا قدرةَ لكم على أن تجعَلوا القبيحَ من أفعالِكم حَسَنا ؛ فاُجتهدوا فى أن تَحسُن أفعالُكم كلّها ، وألّا تجعلوا للعامّة إلى الطّعن عليكم سبيلا .

وأعلموا أنّ لِباسَ المَلِك ومَطعَمه ومَشربه مقاربٌ للباس السّوقة ومطعمِهم ، وَليس

فضل المَلِك على السُّوقة إلّا بقدرته على اقتناء المحامد واُستفادة المكارم ، فإنّ الملك إذا شاء أحسنَ ، وليس كذلك السُّوقة .

واعلموا أنّ لكلّ ملك بطانةً ، ولكلّ رجل من بِطانتِه بطانة ، ثمّ إنّ لكل أمرئ من بطانة البطانة بطانة ، حتّى يجتمعَ من ذلك أهلُ المَمْلكة ، فإذا أقام الملك بطانته على حال الصّواب فيهم أقامَ كلّ امرئ منهم بطانته على مِثلِ ذلك حتّى يجتمع على الصّلاح عامّة الرعيّة .

احذروا باباً واحداً طالما أمِنْتُه فضرّنى، وحَذِرته فنَفَعنى . احذروا إفشاء السرّ بحضْرة الصِّغار من أهليكم وخَدمِكم ، فإنّه ليس يَصغُر واحدٌ منهم عن حَمْل ذلك السرّ كاملا ؛ لا يترك منه شيئاً حتّى يضعَه حيثُ تكرهون إما سقطا أو غشّا .

واعلموا أنّ فى الرعيّة صِنْفاً أتوا الملك من قِبَل النّصائح له ، والتمسوا إصلاحَ مَنازلهم بإفساد مَنازِل الناس ، فأولئك أعداء الناس وأعداء الملوك ، ومَنْ عادى الملوكَ والنّاسَ كلّهم فقد عادى نفسَه .

واعلموا أنّ الدّهر حاملُكم على طبقات ؛ فمنها حال السّخاء حتّى يدنوَ أحدُكم من السّرف ، ومنها حال التبذير حتّى يدنوَ من البُخْل ، ومنها حالُ الأناةِ حتّى يدنوَ من البَلادة ، ومنها حالُ انتهازالفرُصة حتّى يدنوَ من الخِفّة ، ومنها حالُ الطّلاقة فى اللسان حتّى يدنوَ من الهَذَر ، ومنها حالُ الأخذ بحَكَمة (١) الصَّمْت حتّى يدنوَ من العىّ ، فالملِك منكم جديرٌ أن يَبلُغ من كلّ طبقة فى محاسنها حَدّها ، فإذا وقف عليه ألجم نفسَه عمّا وراءها .

واعلموا أن ابن الملِك وأخاه وابنَ عمّه يقول : كدت أن أكون مَلِكا ، وبالحرِىّ ألّا أموت حتّى أكون مَلِكا ، فإذا قال ذلك قال مالا يسرّ الملك ، وإن كتمه فالدّاء

(١) الحكمة فى الأصل : اللجام ؛ والكلام على الاستعارة .

فى كلّ مكتوم ، وإذا تمنّى ذلك جعل الفساد سُلَّما إلى الصلاح ، ولم يكن الفساد سُلَّما إلى صلاح قطّ . وقد رسمتُ لكم فى ذلك مِثالاً ، اجعلوا المُلْك لا ينبغى إلّا لأبناء الملوك من بنات عمومتهم ، ولا يصلح من أولاد بنات العمّ إلا كامل غير سخيف العقل ، ولا عازبُ الرأى ، ولا ناقص الجوارح ، ولا مطعونٌ عليه فى الدّين ، فإنّكم إذا فعلتم ذلك قلّ طلّاب الملك ، وإذا قلّ طلّابُه استراح كلّ امرئ إلى مايليه ، ونَزَع إلى حَدٍّ يليه ، وعرف حاله ، ورضى معيشته ، واستطاب زمانه .

فقد ذكرنا وصَايا قوم من العرب ، ووصايا أكثر ملوكِ الفُرْس وأعظمهم حكمةً لتُضَمّ إلى وصايا أميرِ المؤمنين فيحصَل منها وصايا الدّين والدنيا ، فإنّ وصايا أميرِ المؤمنين عليه السلام ، الدِّينُ عليها أغلب ، ووصايا هؤلاء الدّنيا عليها أغلَب ، فإذا أخذ من أخذ التوفيق بيده بمجموع ذلك فقد سَعِد ، ولا سعيد إلّا مَن أسعده الله .

(٥٤)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخزاعي، وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافي في كتاب المقامات :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا ـ وَإِنْ كَتَمْتُمَا ـ أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي ، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي ؛ وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي ، وَإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ ، وَلَا لِحِرْصٍ حَاضِرٍ ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ .

وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ ، وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هَذَا الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ .

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ .

فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا ؛ فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا الْعَارُ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ وَالنَّارُ . والسلام .

***

الشَّرْحُ :

[عمران بن الحصين]

هو عمران بنُ الحُصَين بن عبيد بن خَلَف بن عبد بن نهم بن سالم بن غاضرة بن سَلول بن حُبْشِيّة بن سَلول بن كعب بن عمرو الخزاعىّ . يكنى أبا نُجَيد بابنه نجيد بن عمران . أسلَمَ هو وأبو هريرة عامَ خَيْبر ، وكان من فضلاء الصّحابة وفقهائهم ، يقول أهلُ البصرة عنه : إنّه كان يرى الحَفَظة ، وكانت تكلّمه حتّى اكتَوَى .

وقال محمّد بن سيرِين : أفضلُ من نزَل البصرةَ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله عمرانُ بن الحُصَين ، وأبو بَكْرة . واستقضاه عبد الله بن عامر بن كُرَيز على البصرة فعَمِل له أيّاما ، ثم استعفاه فأعفاه ، ومات بالبصرة سنة اثنتين وخمسين فى أيّام معاوية

* * *

[أبو جعفر الإسكافى]

وأمّا أبو جعفر الإسكافىّ – وهو شيخنا محمّد بن عبد الله الإسكافىّ – عدّه قاضى القضاة فى الطّبقة السابعة من طبقات المُعتزِلة مع عباد بن سُلَيمان الصَّيْمَرىّ ، ومع زُرْقان ، ومع عيسى بن الهيثم الصوفىّ ، وجعل أوّل الطبقة ثُمامَة بن أشرس أبا معن ، ثم أبا عثمانَ الجاحظ ، ثم أبا موسى عيسى بن صُبَيح المردار ، ثمّ أبا عمران يونُس بن عمران ، ثمّ محمّد بن شبيب ، ثمّ محمّد بن إسماعيل بن العسكرىّ ، ثم عبد الكريم بن رَوْح العسكرىّ ، ثم أبا يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام ، ثمّ أبا الحسين الصالحى ،

ثمّ الجعفران : جعفر بن جرير وجعفر بن ميسّر ، ثم أبا عمران بن النقّاش ، ثمّ أبا سعيد أحمد بن سعيد الأسدىّ ، ثم عبّاد بن سليمان ، ثم أبا جعفر الإسكافىّ هذا . وقال : كان أبو جعفر فاضلا عالما ، وصنّف سبعين كتابا فى علم الكلام .

وهو الّذى نقض كتابَ '' العثمانيّة '' على أبى عثمان الجاحظ فى حياته ، ودخل الجاحظ الورّاقين ببغداد ، فقال : مَنْ هذا الغلام السّوَادىّ الّذى بلغنى أنّه تعرّض لنقض كتابى ! وأبو جعفر جالسٌ ، فاَختفى منه حتّى لم يرَه .

وكان أبو جعفر يقول بالتفضيل على قاعدة معتزِلة بغداد، و يبالغ فى ذلك ، وكان عَلَوِىَّ الرأى ، محقّقا مُنْصفا ، قليلَ العَصبيّة .

* * *

ثم نعود إلى شرح ألفاظ الفصْل ومعانيه :

قوله عليه السلام : « لم أُرد الناس » ، أى لم أُرد الولايةَ عليهم حتّى أرادوا هم منّى ذلك .

قال : « ولم أبايعْهم حتى بايعونى » ، أى لم أمدُدْ يدى إليهم مدّ الطَّلَب والحرْص على الأمر ، ولم أمدُدها إلّا بعد أن خاطَبُونى بالإمْرَةِ والخلافة، وقالوا بألسنتهم: قد بايعناك، فحينئذ مددتُ يدى إليهم .

قال : ولم يبايعنى العامّة والمسلمون لسلطانٍ غَصَبهم وقهرَهم على ذلك ، ولا لحرص حاضر ، أى مال موجود فرّقته عليهم .

ثم قسم عليهما الكلام ، فقال : إن كنتما بايعتُمانى طوعا عن رضا فقد وجب عليكما الرّجوع ، لأنه لا وجه لانتقاض تلك البيعة ، وإن كنتما بايعتُمانى مكرَهَيْن عليها فالإكراه

له صورةٌ ، وهى أن يجرّد السيف ويمدّ العنق ، ولم يكن قد وقع ذلك ، ولا يمكنكما أن تدّعياه ؛ وإن كنتما بايعتمانى لا عن رضاً ولا مكرهين بل كارهين ، وبين المُكْرَه والكاره فرقٌ بيّن ، فالأمور الشرعيّة إنما تُبنى على الظاهر ، وقد جعلتُما لى على أنفسكما السّبيل بإظهاركما الطاعة ، والدخول فيما دخل فيه الناس ، ولا اعتبار بما أسررْتما من كراهية ذلك . على أنه لو كان عندى ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون فى كراهيّة ذلك سواء ؛ فما الذى جعلكما أحقَّ المهاجرين كلّهم بالكتمان والتقيّة .

ثم قال : وقد كان امتناعكما عن البيعة فى مبدأ الأمر أجمل من دخولكما فيها ثم نكثها .

قال : وقد زعمتما أنّ الشبهة التى دخلت عليكما فى أمرى أنى قتلتُ عثمان ، وقد جعلتُ الحكَم بينى وبينكما من تخلّف عنّى وعنكما من أهل المدينة ، أى الجماعة التى لم تَنصُر عليّا ولا طلحة ، كمحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم ، يعنى أنهم غيرُ متَّهمين عليه ، ولا على طلحة والزبير ، فإذا حكموا لزم كلّ امرئٍ منّا بقدر ما تقتضيه الشهادات . ولا شبْهة أنهم لو حكموا وشهدوا بصورة الحال لحكموا ببراءة علىّ عليه السلام من دم عثمان ، وبأن طلحة كان هو الجملة والتفصيل فى أمره وحصره وقتله ، وكان الزبير مساعداً له على ذلك ، وإن لم يكن مكاشفا مكاشفة طلحة .

ثم نهاهما عن الإصرار على الخطيئة ، وقال لهما : إنكما إنما تخافان العار فى رجوعكما وانصرافكما عن الحرب ، فإن لم ترجعا اجتمع عليكما العار والنار ؛ أما العار فلأنكما تهزمان وتفرّان عند اللّقاء فتعيَّران بذلك ، وأيضا سيُكشف للنّاس أنكما كنتما على باطل فتعيّران بذلك ، وأما النار فإليها مصيرُ العُصاة إذا ماتوا على غير توبة واحتمال العار، وحده أهوَنُ من احتماله واحتمال النارِ معه .

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ فإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ جَعَلَ الدُّنْيا لِمَا بَعْدَها ، وابْتَلَى فِيها أَهْلَها ، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، ولَسْنا للدُّنْيا خُلِقْنا ، ولا بالسَّعْيِ فيها أُمِرْنا ، وإِنَّما وُضِعْنا فيها لِنُبْتَلَى بِها ، وقَدْ ابْتَلانِي اللهُ بِكَ وَابْتَلاكَ بِي ، فَجَعَلَ أَحَدَنا حُجَّةً عَلَى الآخَرِ ، فَعَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيا بِتأْوِيلِ القُرْآنِ ، وطَلَبْتَنِي بِما لَمْ تَجْنِ يَدِي ولا لِسانِي ، وعَصَبْتَهُ أَنْتَ وأَهْلُ الشَّامِ بِي ، وأَلَّبَ عالِمُكُمْ جاهِلَكُمْ ، وقائِمُكُم قاعِدَكُمْ .

فاتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ ، ونازِعِ الشَّيْطَانَ قِيادَكَ ، واصْرِفْ إِلَى الآخِرَةِ وجْهَكَ ، فَهِيَ طَرِيقُنا وطَرِيقُكَ ، واحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللهُ مِنْهُ بِعاجِلِ قارِعَةٍ تَمَسُّ الأَصْلَ ، وتَقْطَعُ الدَّابِرَ ، فإِنِّي أُولِي لَكَ باللهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فاجِرَةٍ ، لَئِنْ جَمَعَتْنِي وإِيَّاكَ جَوامِعُ الأَقْدارِ لا أَزالُ بِباحَتِكَ ؟ ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنا وهُوَ خَيْرُ الحاكِمِينَ ﴾ .

* * *

الشرح :

قال عليه السلام : « إن الله قد جعل الدنيا لما بعدها » ، أى جعلها طريقاً إلى الآخرة .

ومن الكلمات الحكمية : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها ، وابتلى فيها أهلها أى اختبرهم ليعلم أيهم أحسنُ عملا ، وهذا من ألفاظ القرآن العزيز ، والمراد ليعلم خلقه ، أو

ليعلم ملائكته ورُسُله ، فحذف المضاف ، وقد سبق ذكر شيء يناسب ذلك فيما تقدّم ، قال : « ولسنا للدنيا خُلِقْنا » ، أى لم نخلق للدنيا فقط .

قال : « ولا بالسعى فيها أمرنا » ، أى لم نؤمر بالسعى فيها لها ، بل أُمِرْنا بالسعى فيها لغيرها .

ثمّ ذكر أنّ كلّ واحد منه ومن معاوية مُبتلًى بصاحبه ، وذلك كابتلاء آدم بإبليسَ وإبليسَ بآدم .

قال : « فعدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن » ، أى تعدّيت وظلمت ، و « على » هاهنا متعلّقة بمحذوف دلّ عليه الكلام ، تقديرُه مثابرا على طلب الدنيا ، أو مصرّا على طلب الدنيا ، وتأويل القرآن ما كان معاوية يموّه به على أهل الشام فيقول لهم : أنا ولىّ عثمان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن قُتِلَ مَظْلوماً فقَدْ جعَلْنا لوليّه سلطانا[1] ﴾ .

ثم يَعِدُهم الظفر والدولة على أهل العراق بقوله تعالى : ﴿ فلا يُسرِفْ فى القتْلِ إنه كانَ مَنْصوراً[1] ﴾ .

قوله : « وعصبته أنت وأهل الشام » ، أى ألزمتنيه كما تلزم العصابة الرأس ، « وألّب عالمكم جاهلَكم » ؛ أىّ حرّض . والقيادة : حبل تقاد به الدابّة .

قوله : واحذر أن يصيبك اللهُ منه بعاجل قارعة ، الضمير فى « منه » راجعٌ إلى الله تعالى ، و « مِن » لابْتداء الغاية .

---

(١) سورة الإسراء ٣٣

وقال الراونديّ : منه ، أى من البُهْتان الذى أتيتــه ، أى من أجله ، و« من » للتعليل ، وهذا بعيد وخلاف الظاهر .

قوله : «تمسّ الأصل» ، أى تقطعه ، ومنه ماء ممسوس أى يقطع الغُلّة . ويقطَع الدابر أى العقب والنسل .

والأليّــة : اليمين . وباحة الدار : وَسَطها ، وكذلك ساحَتُها ، ورُوى بناحيتك .

قوله : « بعاجل قارعة ، وجوامع الأقدار » ، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف[1] للتأكيد ، كقوله تعالى ﴿ وإنه لحق اليقين[2] ﴾ .

---

(١) د : « الصلة إلى الموصول » .　　(٢) سورة الحاقة ٥١

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام وصى به شريح بن هانئ لما جعله على مقدمته إلى الشام :

اتَّقِ اللهَ فى كُلِّ مَساء وصباحٍ ، وخَفْ على نَفْسِكَ الدُّنْيا الْغَرُورَ ، ولا تأمَنْها على حالٍ .

واعْلَمْ أنك إنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثيرٍ مِمَّا تُحِبُّ مخافَةَ مَكْرُوهِهِ ، سَمَتْ بِكَ الأهْوَاء إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مانِعاً رَادِعاً ، ولِنَزْوَتِكَ(١) عِنْدَ الحَفِيظَةِ واقِماً قامِعاً .

* * *

[شريح بن هانئ]

الشَّرْحُ :

هو شُرَيح بنُ هانئ بنِ يزيدَ بنِ نهيك بن دُرَيد بنِ سُفيان بن الضّباب ، وهو سَلَمة ابنُ الحارث بن ربيعة بنِ الحارث بن كعب المَذْحِجىّ . كان هانئ يُكنَى فى الجاهليّة أبا الحكم ، لأنّه كان يَحْكم بينهم ، فكناه رسولُ الله صلّى الله عليه وآلهِ بأبى شُرَيح ، إذ وفد عليه . وابنه شُرَيح هذا من جِلّة أصحابِ علىّ عليه السلام ، شَهِد معه المشاهد كلّها ، وعاش حتّى قُتِل بسِجِسْتان فى زمن الحجّاج ، وشُرَيْح جاهلىّ إسلامىّ ، يكنَى أبا المِقْدام .

(١) فى د « ولنزواتك » ؛ وهى أظهر .

ذَكَر ذلك كلَّه أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ فى كتاب الأُستيعاب (١) .

قولُه عليه السلام : وخَفْ على نفسك الغَرورَ ، يعنى الشيطان ، فأما الغُرور بالضّم فمصدر . والرادع : الكافّ المانع . والنَّزَوات : الوَثَبات . والحَفِيظة : الغضب . والواقِم : فاعلٌ ، من وقَمْتُه أى رددتُه أقبحَ الردّ وقهرتُه . يقول عليه السلام : إنْ لم تَردَع نفسَك عن كثير من شَهَواتِك أفضتْ بك إلى كثيرٍ من الضّرر ، ومثلُ هذا قولُ الشاعر :

فإنَّكَ إنْ أعطيتَ بطنَك سُؤْلَهــا وفَرْجَك نالا منُتَهى الذّمّ أجمعَا (٢)

---

(١) الاستيعاب ٦٠٧

(٢) البيت لحاتم ، وهو من شواهد المغنى ٣٣١

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة :

أَمَّا بَعْدُ ، فإنى خَرَجْتُ عَنْ حَيِّي هَذَا إِمَّا ظَالِماً وَإِمَّا مَظْلُوماً ، وَإِمَّا بَاغِياً وَإِمَّا مَبْغِيًّا عَلَيْهِ ، وأنَا أُذَكِّرُ اللهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ ، فإنْ كُنْتُ مُحْسِناً أعانَنِي ، وإنْ كُنْتُ مُسِيئاً اسْتَعْتَبَنِي .

* * *

الشرح :

ما أحسنَ هذا التقسيم وما أبلغَه فى عطف القلوب عليه ، واستمالة النفوس إليه !

قال : لا يَخْلو حالى فى خُروجى من أحد أمرين : إمّا أن أكون ظالما أو مظلوما ، وبدأ بالظّالم هَضْما لنفسه[1] ، ولئلّا يقول عدوه : بدأ بدعوَى كونه مظلوما ، فأعطى عدوّه من نفسِه ما أراد .

قال : فليَنفِر المسلمون إلىّ فإنْ وجدونى مظلوما أعانونى ، وإن وجدونى ظالما نهَوْنى عن ظُلمى لأعتِبَ وأنيبَ إلى الحقّ . وهذا كلام حَسن ، ومرادُه عليه السلام يَحصل على كلا الوجهين ، لأنّه إنّما أراد أن يستنفرَهم ، وهذان الوجهان يقتضيان نفيرَهم إليه على كلّ حال ، والحىّ : المنزل ، ولمّا هاهنا بمعنى إلّا ، كقوله تعالى : ﴿ إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافظ ﴾[2] فى قراءة من قرأها بالتّشديد .

---

(١) فى د « وأراد بالظالم هدم نفسه » .

(٢) سورة الطارق ٤

الأَصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى أهل الأمصار يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين :

وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنا أَنَّا الْتَقَيْنا وَالْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، والظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنا واحِدٌ ، ونَبِيَّنا واحِدٌ ، وَدَعْوَتَنا فِي الإِسْلَامِ واحِدَةٌ ، ولانَسْتَزِيدُهُمْ فِي الإِيمانِ بِاللهِ والتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ ولا يَسْتَزِيدُونَنا ، والأَمْرُ واحِدٌ إِلَّا ما اُخْتَلَفْنا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمانَ ، ونَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ ، فَقُلْنَا : تَعالَوْا نُدَاوِي مالا يُدْرَكُ اليوْمَ بِإِطْفاءِ النَّائِرَةِ ، وتَسْكِينِ الْعامَّةِ ، حَتَّى يَشْتَدَّ الأَمْرُ ويَسْتَجْمِعَ ، فَنَقْوَى على وضْعِ الحَقِّ في مَوَاضِعِهِ ، فَقالُوا: بَلْ نُدَاوِيهِ بِالمُكابَرَةِ ، فأَبَوْا حَتَّى جَنَحَتِ الحَرْبُ ورَكَدَتْ ، وَوَقَدَتْ نِيرانُها وَحَمِشَتْ[1] .

فَلَمَّا ضَرَّسَتْنا وإِيَّاهُمْ ، ووضَعَتْ مَخالِبَها فِينا وفِيهِمْ ، أَجابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْناهُمْ إِلَيْهِ ، فأَجَبْناهُمْ إِلَى ما دَعَوْا وسارَعْناهُمْ إِلَى ما طَلَبُوا ، حَتَّى اُسْتَبانَتْ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ ؛ وانْقَطَعَتْ مِنْهُمُ المَعْذِرَةُ ، فَمَنْ تَمَّ على ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ اللهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، ومَنْ لَجَّ وتَمادَى فَهُوَ الرَّاكِسُ الَّذِي رَانَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وصارَتْ دائِرَةُ السَّوْءِ عَلَى رَأْسِهِ .

***

---

(١) في د « وحميت » .

الشَّرْحُ :

رُوِى : « التقَيْنا والقوم » بالواو ، كما قال :

* قلتُ إذ أقبلتْ وزهر تَهادَى *

ومن لم يروها بالواو فقد استراح من التكلّف .

قوله : « والظاهر أن ربّنا واحد » ، كلامُ من لم يَحكم لأهل صِفّين من جانب معاوية حُكْما قاطعا بالإسلام ، بل قال : ظاهرُهم الإسلام ، ولا خلْف بيننا و بينهم فيه ، بل الخلْف فى دَم عثمان .

قال عليه السلام : قلنا لهم : تعالوْا فلنُطفِئْ هذه النائرة الآن بوضع الحرب إلى أن تتمهّد قاعدتى فى الخلافة وتزول هذه الشوائبُ التّى تُكدِّر علىّ الأمر ، ويكونَ للنّاس جماعةٌ ترجع إليها ، وبعد ذلك أتمكّن من قَتَلةِ عثمان بأعيانِهم فأقتصَّ منهم ، فأبَوْا إلّا المكابرَة والمغالبة والحرب .

قوله : « حتّى جَنَحتْ الحرب ورَكدَت » ، جَنَحت : أقبلتْ ، ومنهْ : قد جَنَح الليل ، أى أقبل ، ورَكدت : دامت وثَبتَت .

قوله : « ووَقَدتْ نِيرانُها » ، أى التهبت .

قوله : « وحَمِشتْ » ، أى استعرَت وشَبّت . ورُوِى : « واستحشَمَت[1] » وهو أصحّ ؛ ومن رواها « حَمَستْ » بالسين المهملة أراد اشتدّت وصَلُبت .

قوله : « فلمّا ضَرّستْنا و إيّاهم » ، أى عضّتْنا بأضراسها ، و يقال : ضَرّسَهم الدهر أى اشتدّ عليهم .

---

(١) فى د « واستجرت » . والمعنى عليه يستقيم أيضا .

قال : لمّا اشتدّت الحرب علينـا وعليهم ، وأكَلَتْ منّا ومنهم ، عادوا إلى ما كنّا سألناهم ابتداءً ، وضَرَعوا إلينـا فى رَفْع الحرب ، ورفَعوا المصاحفَ يسألون النزولَ على حُكمِها ، وإغمادَ السّيف ، فأجبناهم إلى ذلك .

قوله : « وسارعْناهم إلى ماطلبوا » كلمةٌ فصيحة ، وهى تَعدِية الفعلِ اللّازم ، كأنّها لمّا كانت فى معنى المُسابَقة ، والمسابقة متعدّية عدّى المُسارعةَ .

قولُه : « حتّى استبانت » ، يقول : استمرَرْنا على كفّ الحرب ، ووضعِها إجابةً لسؤالهم إلى أن استبانت عليهم حجّتنا ، و بطلتْ معاذيرُهم وشُبْهتُهم فى الحرب وشقّ العصا ، فمن تمّ منهم على ذلك ، أى على انقياده إلى الحقّ بعد ظهوره له ، فذاكَ الّذى خلّصه اللهُ من الهلاك وعذابِ الآخرة ، ومن لَجّ منهم على ذلك وتمادَى فى ضلاله فهو الرّاكس ؛ قال قوم : الراكس هُنا بمعنَى المَرْكوس ، فهو مقلوب ، فاعل بمعنى مفعول ، كقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [١] ، أى مرضيّة ، وعندى أنّ اللّفظة على بابها ، يعنى أنّ من لجّ فقد رَكَس نفسَه ، فهو الرّاكس ، وهو المركوس ، يقال : ركَسه وأركَسه بمعنًى ، والكتابُ العزيز جاء بالهمز فقال : ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [٢] ، أى رَدّهم إلى كفرهم [٣] ؛ و يقول : ارتكَس فلان فى أمرٍ كان نجا منه ، ورانَ على قلبه ، أى رانَ هو على قلبه ، كما قلنا فى الرّاكس ؛ ولا يجوز أن يكون الفاعل ـ وهو الله ـ محذوفا ، لأنّ الفاعل لا يُحذَف ، بل يجوز أن يكون الفاعلُ كالمحذوف وليس بمحذوف ، و يكون المصدر وهو الرَّيْن ، ودَلّ الفعل عليه كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾ [٤] أى بدَا لهم البداء . ورَانَ بمعنى غلَب وغطّى ؛ ورُوِى « فهو الرّاكس الّذى رِينَ على قلبه » .

---

(١) القارعة ٧ — (٢) سورة النساء ٨٨

(٣) فى د « كيدهم » . — (٣) سورة يوسف ٣٥

قال : وصارت دائرةُ السَّوْء على رأسِه ، من ألفاظ القرآن العزيز ، قال الله تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ [1] والدوائر : الدُّوَل .

قال :

* وإنّ على الباغى تدورُ الدوائر *

والدائرة أيضا : الهزيمة ، يقال : على مَن الدائرةُ منهما ، والدوائر أيضا الدّواهى .

---

(١) سورة الفتح ٧

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ ٱلْوَالِيَ إِذَا ٱخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْعَدْلِ ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ ٱلنَّاسِ عِنْدَكَ فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ ٱلْعَدْلِ ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ ، وَٱبْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا ٱفْتَرَضَ ٱللهُ عَلَيْكَ ، رَاجِياً ثَوَابَهُ ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ .

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ ٱلْحَقِّ شَيْءٌ أَبَدًا ، وَمِنَ ٱلْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ ، وَٱلِاحْتِسَابُ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ ، فَإِنَّ ٱلَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَصِلُ بِكَ ؛ وَالسلام .

* * *

الشَّرْحُ :

[الأسود بن قُطْبة]

لم أقف إلى الآنَ على نَسَب الأسودِ بن قُطْبة ، وقرأتُ فى كثير من النّسخ أنّه حارثىّ من بنى الحارث بن كعب ؛ ولم أتحقّق ذلك ، والّذى يَغلِب على ظنّى أنّه الأسوَد بنُ زيد ابنِ قُطْبة بن غَنْم الأنصارىّ من بنى عُبَيد بن عَدِىّ . ذَكَره أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ فى كتاب " الاستيعاب " ، وقال : إنّ موسى بنَ عُقْبة عدّه فيمن شَهِدَ بَدْرا [1] .

* * *

(١) الاستيعاب ١ : ٩٠ (طبعة نهضة مصر) .

قوله عليه السلام : إذا اختلف هَوَى الوالى منعَه كثيرا من الحقّ قولُ صِدْق ، لأنّه مَتَى لم يكن الخصمان عند الوالى سواءً فى الحقّ جارَ وظَلَم .

ثم قال له : فإنّه ليس فى الجَوْر عِوضٌ من العَدْل ؛ وهذا أيضا حقّ ، وفى العدل كلّ العِوض مِن الجور .

ثمّ أمرَه باُجتناب ماينكر مِثله من غيره ، وقد تقدّم نحوُ هذا .

وقوله : « إلّا كانت فَرْغَتَهُ » كلمةٌ فصيحة ، وهى المرّة الواحدة من الفَراغ ، وقد رُوِىَ عن النبىّ صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله يُبغِضُ الصحيحَ الفارغ لا فى شُغْل الدنيا ولا فى شُغْل الآخرة » ، ومرادُ أميرِ المؤمنين عليه السلام هاهنا الفَراغُ من عمل الآخرة خاصّة .

قوله : « فإنّ الّذى يصل إليك من ذلك أفضلُ من الّذى يَصِل بك » ، معناه فإنّ الّذى يصل إليك من ثواب الاُحتساب على الرعيّة ، وحفظ نفسك من مَظالِمهم والحَيْف عليهم ، أفضلُ من الّذى يصل بك من حِراسةِ دِمائِهم [1] وأعراضِهم وأموالِهم ؛ ولا شُبهة فى ذلك ، لأنّ إحدى المنفعتين دائمة ، والأخرى منقطِعة ، والنفع الدائمُ أفضلُ من المنقطِع .

---

(١) ب : « دعاتهم » تصحيف ، صوابه فى ا ، د

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى العمال الذين يطأ عملهم الجيوش[1] :

مِنْ عَبْدِ ٱللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ ٱلْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ ٱلْخَرَاجِ وَعُمَّالِ ٱلْبِلَادِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُودًا هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ ٱللهُ ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ لِلهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ ٱلْأَذَى ، وَصَرْفِ ٱلشَّذَى ، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ ٱلْجَيْشِ ، إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ ٱلْمُضْطَرِّ لَا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَبًا إِلَى شِبَعِهِ[2] ، فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُمْ ظُلْمًا عَنْ ظُلْمِهِمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِيَ سُفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَادَّتِهِمْ ، وَٱلتَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيمَا ٱسْتَثْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ ٱلْجَيْشِ ، فَارْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلَّا بِاللهِ[3] وَبِي ، أُغَيِّرُهُ بِمَعُونَةِ ٱللهِ . إِنْ شَاءَ ٱللهُ .

***

الشَّرحُ :

رُوِي «عن مُضارَّتهم» بالراء المشدّدة . وجُباة الخراج : الّذين يجمعونه ، جَبيتُ الماءَ فى الحوض،أى جمعتهُ . والشَّذَى : الضرب والشرّ، تقول: لقدأشذَيْتَوآذَيْت.و إلى ذمّتكم،أى إلى اليهود والنّصارى الّذين بينكم[4]،قال عليه السلام: «من آذى ذِمّيّا فكأنّما[5] آذانى» ،

---

(١) د « عملهم الجيش » .
(٢) مخطوطة النهج : « إلا إلى شبعه » .
(٣) د « بإذن الله » .
(٤) د « بذمتكم » .
(٥) د « فقد » .

وقال : إنما بذلوا الجِزْية لتكون دماؤهم كدِمائِنا ، وأموالُهم كأموالنا ، ويسمّى هؤلاء ذِمّة ، أى أهل ذِمّة ، بحذف المضاف . والمَعَرّة : المَضَرّة ، قال : الجيش ممنوعٌ من أذَى من يمرّ به من المسلمين وأهل الذمّة إلّا من سدّ جَوْعة المضطرّ منهم خاصّة ، لأنّ المضطرّ تباح له الميتة فضلا عن غيرها .

ثمّ قال : فنكّلوا من تَناوَل ، ورُوِى « بمن تَناوَل » بالباء ، أى عاقِبوه . و « عن » فى قوله : « عن ظلمهم » ، يتعلّق بنكلوا ، لأنّها فى معنَى « اردعوا » ؛ لأنّ النَّكالَ يُوجِب الرّدْع .

ثمّ أمرهم أن يكفّوا أيدِىَ أحداثِهم وسفهائِهم عن مُنازَعة الجيش ومصادَمتِه ، والتعرّض لمنعه عمّا أستثناه ، وهو سدّ الجوعة عند الأضطرار ، فإنّ ذلك لا يجوز فى الشرع، وأيضا فإنّه يُفضِى إلى فتنة وهَرَج .

ثمّ قال : « وأنا بين أظهُر الجيْش » ، أى أنا قريبٌ منكم ، وسائرٌ على إثْر الجيش ، فارفعوا إلىّ مظالمَكم وما عَراكم منهم على وجه الغَلَبة والقَهْر ، فإنّى مغيّرٌ ذلك ومنتصِفٌ لكم منهم .

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعي وهو عامله على هيت ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدو طالبا للغارة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ ، وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ ، وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ . وَإِنَّ تَعَاطِيَكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قَرْقِيسِيَا ، وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ - لَيْسَ لَهَا مَنْ يَمْنَعُهَا ، وَلَا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا - لَرَأْيٌ شَعَاعٌ ، فَقَدْ صِرْتَ جِسْرًا لِمَنْ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ ، غَيْرَ شَدِيدِ الْمَنْكِبِ ، وَلَا مَهِيبِ الْجَانِبِ ، وَلَا سَادٍّ ثُغْرَةً ، وَلَا كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوْكَةً ، وَلَا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ[1] ، وَلَا مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

[كميل بن زياد ونسبه]

هو كُمَيل بنُ زياد بنِ سهيل بن هيثم بنِ سَعْد بن مالك بن الحارث بن صهبانَ بن سعد بن مالك بن النّخَع بن عمرو بن وَعْلة بن خالد بن مالك بن أُدَد . كان من أصحاب عليّ عليه السلام وشيعته وخاصّته ، وقتله الحجّاج على المَذْهب فيمن قتَل من الشّيعة . وكان كُمَيل بنُ زياد عاملَ عليّ عليه السلام على هِيتَ ، وكان ضعيفا يمرّ عليه سرايا معاوية تَنهبُ أطرافَ العِراق ولا يردّها ، ويحاول أن يجبُر ماعندَه من الضّعف بأن يُغير على

(١) في د « النصرة » .

أطراف أعمال معاوية مثل قَرْقِيسِيا وما يَجرِى مَجرَاها من القُرَى التى على الفرات ، فأنكر عليه السلام ذلك مِن فِعله ، وقال : إنّ من العجز الحاضرِ أن يُهمِل الوالِى ماوَلِيه، ويتكلّف ماليس من تكاليفه .

***

والمتَبَّر : الهالك ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ ﴾ [١] .

والمسالح : جمعُ مَسلَحة ، وهى المواضع التّى يقام فيها طائفةٌ من الجند لحمايتها .

ورأىٌ شَعاع بالفتح، أى متفرّق .

ثم قال له : «قد صرتَ جسْرا» ، أى يَعبُر عليكَ العدوّ كما يَعبُر الناسُ على الجُسور ، وكما أنّ الجِسر لا يَمنَع من يَعبُر به ويمرّ عليه فكذلك أنت .

والثُّغْرة : الثُلْمة . ومُجْزٍ : كافٍ ومُغْنٍ ؛ والأصل « مُجزئٌ » بالهمز فخفّف .

(١) سورة الأعراف ١٣٩

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رحمه الله لما ولاه إمارتها :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ ، وَمُهَيْمِناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ ؛ فَلَمَّا مَضَى صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ ، فَأَمْسَكْتُ بِيَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْمًا ، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمْ ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ ، وَكَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ .

***

الشَّرْحُ :

المُهيمن : الشاهد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً ﴾ ، أي تشهد بإيمان مَنْ آمن وكُفر من كَفَر . وقيل : تشهد بصحّة نبوّة الأنبياء قبلك .

وقوله : « على المرسلين » ، يؤكّد صحّة هذا التفسير الثانى ، وأصل اللّفظة من « آمن غيره من الخوف » ، لأنّ الشاهد يؤمّن غيره من الخَوْف بشهادته ، ثمّ تصرّفوا فيها فأبدلوا إحدَى همزتَى « مؤامن » ياء فصار « مُؤَيْمن » ، ثم قَلَبوا الهمزة هاء كأرقْت وهَرَقْت فصار « مُهَيْمن » .

والرُّوع : الخلَد ؛ وفى الحديث : « إنّ رُوح القُدُس نَفَث فى رُوعى » قال : مايخطر لى ببالٍ أنّ العرب تَعدِل بالأمر بعد وفاة محمّد صلى الله عليه وآله عن بنى هاشم ، ثمّ من بنى هاشم عنّى ؛ لأنّه كان المتيقّن بحكم الحال الحاضرة . وهذا الكلام يدلّ على بُطْلان دعوَى الإماميّة النصّ وخصوصا الجلىّ .

قال : « فما راعنى إلا انثيال الناس » ، تقول للشىء يفجَؤك بغتَةً : ما راعنى إلاّ كذا ، والرَّوْع بالفتح : الفزَع ، كأنه يقول : ما أفزعنى شىء بعد ذلك السكون الذى كان عندى ، وتلك الثقة التى اطمأنَنْتُ إليها إلاّ وقوعُ ما وقع من انثيال الناس — أى انصبابهم من كلّ وجه كما ينثال التراب — على أبى بكر ، وهكذا لفظ الكتاب الذى كتبه للأشتر ، وإنما الناسُ يكتبونه الآن « إلى فلان » تذمّما من ذكر الاسم كما يكتبون فى أوّل الشِقْشِقِيَة : « أما والله لقد تقمَّصها فلانٌ » ، واللفظ « أما والله لقد تقمّصها ابن أبى قُحافة » .

قوله : « فأمسكتُ بيدى » ، أى امتنعتُ عن بيعته ، حتى رأيت راجعة الناس ، يعنى أهل الرّدة كمسيلمة ، وسَجاح وطُليحة بن خويلد ومانعى الزكاة ؛ وإن كان مانعوا الزكاة قد اختلف فى أنّهم أهل رِدّة أم لا .

ومحقُ الدِّين : إبطاله . وزَهَق : خَرَج وزال .

تنهنَه : سكن ، وأصله الكفّ ، تقول : نهنهت السبعَ فتَنَهْنَه ، أى كَفّ

عن حركته وإقدامه ، فكأنّ الدّين كان متحرّكا مضطربا فسكن وكفّ عن ذلك الاضطراب .

***

رَوَى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى التاريخ الكبير أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما مات اجتمعتْ أسدٌ وغطفانُ وطيّئٌ على طُلَيْحَة بن خُويلد إلا ما كان من خواصّ أقوامٍ فى الطوائف الثلاث ، فاجتمعَتْ أسد بسَمِيْراء ، وغَطَفان بجنوب طيبة [1] وطيّئٌ فى حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن أسد ومن يليهم من قيس بالأبرق [2] من الرَبَذة ، وتأشّب [3] إليهم ناسٌ من بنى كنانة ، ولم تحملهم البلاد ، فافترقوا فرقتين : أقامت إحداهما بالأبرق ، وسارت الأخرى إلى ذى القَصَّة ، وبعثوا وفوداً إلى أبى بكر يسألونه أن يقارّهم على إقامة الصلاة ومنع الزكاة ، فعزم الله لأبى بكر على الحق ، فقال : لو مَنَعونى عِقالا [4] لجاهدْتُهم عليه . ورجع الوفودُ إلى قومهم فأخبروهم بقلة من أهل المدينة ، فأطمعوهم فيها وعلم أبو بكر والمسلمون بذلك ، وقال لهم أبو بكر : أيّها المسلمون ، إنّ الأرض كافرة ، وقد رأى وفدُهم منكم قِلّة ، وإنكم لا تدرون أليْلا تُؤْتَوْن أم نهارا ، وأدناهم منكم عَلَى بريد ، وقد كان القوم يأمُلون أن نقبل منهم ونُوادِعَهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذْنا إليهم ، فأَعِدّوا واستَعِدّوا ، فخرج علىّ عليه السلام بنفسه ، وكان على نَقْب من أنقاب المدينة ، وخرج الزّبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وغيرُهم فكانوا على الأنقاب الثلاثة ، فلم يلبثوا إلاّ قليلا حتى طرق القومُ المدينة غارة مع الليل ، وخلّفوا بعضهم بذى حُسًى

---

(١) فى الأصول : « طمية » والصواب ما أثبته من تاريخ الطبرى

(٢) فى الأصول : « الأزرق » ، والصواب ما أثبته من الطبرى

(٣) تأشبوا إليهم : انضموا .

(٤) أراد بالعقال الحبل الذى يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى ابل الصدقة . وانظر نهاية ابن الأثير

ليكونوا ردءًا لهم ، فوافوا الأنقاب وعليها المسلمون ، فأرسلوا إلى أبى بكر بالخبر ، فأرسل إليهم أن الزموا مكانكم ، ففعلوا ، وخرج أبو بكر فى جمع من أهل المدينة على النواضح ، فانتشر العدوّ بين أيديهم ، واتّبعهم المسلمون على النواضح حتى بلغوا ذا حُسًى ، فخرج عليهم الكمين بأنحاء(١) قد نفخوها ، وجعلوا فيها الحبال ثم دَهْدَهوها بأرْجُلهم فى وجوه الإبل ، فتدَهْده(٢) كلّ نِحْىٍ منها فى طِوَله(٣) فنفرتْ إبلُ المسلمين ، وهم عليها — ولا تنفر الإبلُ من شىء نفارَها من الأنحاء — فعاجَت بهم لا يملكونها حتى دخلتْ بهم المدينة ، ولم يصرع منهم أحد ولم يُصَب ، فبات المسلمون تلك الليلة يتهيّئون ، ثم خرجوا على تعبية ، فما طلع الفجرُ إلاّ وهم والقومُ على صعيد واحد ، فلم يَسمَعوا للمسلمين حِسّا ولا هَمْسا حتى وضعوا فيهم السيف ، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم ، فما ذَرّ قرنُ الشمس إلا وقد وَلّوا الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم ، ورجعوا إلى المدينة ظافرين(٤) .

قلت : هذا هو الحديث الذى أشار عليه السلام إلى أنه نهض فيه أيام أبى بكر . وكأنه جوابٌ عن قول قائل : إنه عمل لأبى بكر ، وجاهد بين يدى أبى بكر ، فبيّن عليه السلام عذرَه فى ذلك ، وقال : إنه لم يكن كما ظنّه القائل ، ولكنه من باب دَفْع الضرر عن النفس وعن الدين ، فإنه واجبٌ سواء كان للنّاس إمام أو لمْ يكن .

☆☆☆

[ذكر ما طعن به الشيعة فى إمامة أبى بكر والجواب عنها]

وينبغى حيث جرى ذكرُ أبى بكر فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن نذكر ما أورَده قاضى القُضاة فى " المغْنى " ، من المطاعن التى طعن بها فيه وجوابُ قاضى القضاة

(١) الأنحاء : جمع نحى ، وهو الزق .
(٢) دهدهوها : دفعوها
(٣) الطول : الحبل يشد به
(٤) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٤ (طبعة المعارف) مع تصرف واختصار

عنها ، واعتراضُ المرتضى فى " الشافى " على قاضى القضاة ، ونذكُر ما عندنا فى ذلك ، ثم نذكر مطاعن أخرى لم يذكُرها قاضى القضاة .

* * *

[الطعنُ الأول]

قال قاضى القضاة بعد أن ذكر ما طعن به فيه فى أمر فَدَك ، وقد سبق القولُ فيه .

ومما طعن به عليه قولهم : كيف يصلُح للإمامة من يُخبر عن نفسه أنّ له شيطانا يَعترِيه ومن يحذِّر الناسَ نفسه ، ومن يقول : «أقيلونى» بعد دخوله فى الإمامة ، مع أنه لا يحلّ للإمام أن يقول : أقيلونى البَيْعة .

أجاب قاضى القضاة فقال : إنّ شيخنا أبا علىّ قال: لو كان ذلك نقصا فيه لكان قولُ الله فى آدمَ وحوّاء : ﴿ فوَسْوس لهما الشيطان [1] ﴾ ، وقوله : ﴿ فأزلّهما الشَّيْطَانُ [2] ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إلاّ إذَا تمنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فى أُمنِيَّتِهِ [3] ﴾ ، يوجب النقص فى الأنبياء . وإذا لم يجب ذلك فكذلك ما وصف به أبو بكر نفسَه ، وإنما أراد أنه عند الغضب يُشفِق من المعصية ويَحذَر منها ، ويخاف أن يكون الشيطان يعتريه فى تلك الحال فيُوَسْوِس إليه ، وذلك منه على طريق الزّجر لنفسه عن المعاصى ، وقد رُوى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه ترك مخاصمةَ الناس فى حقوقه إشفاقا من المعصية ، وكان يولّى ذلك عَقِيلا ، فلما أسنَّ عَقِيل كان يوليها عبدالله بنَ جعفر . فأمّا ما رُوِى فى إقالة البَيْعة فهو خبرٌ ضعيف ، وإن صحّ فالمراد به التنبيه على أنه لا يبالى لأمر يَرجِع إليه أن يُقيله الناسُ البيعة ، وإنما يضرّون بذلك أنفسهم ؛ وكأنه نبّه بذلك

---

(١) سورة الأعراف ٢٠
(٢) سورة البقرة ٣٦
(٣) سورة الحج ٥٢

على أنه غير مكرِه لهم ، وأنه قد خلاّهم وما يريدون إلاّ أن يَعْرِض ما يوجب خِلافه .
وقد رُوِى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أقالَ عبدَ الله بنَ عمر البيعة حين استقاله ، والمراد بذلك أنه تركه وما يختار .

اعترض المرتضى رضى الله عنه فقال : أمّا قول أبى بكر : « وَلِيتُكم ولستُ بخيْركم ، فإن أستقمتُ فاتّبعونى ، وإن أعوجَجْت فقوّمونى ، فإنّ لى شيطانا يَعترينى عند غضبى ، فإذا رأيتمونى مغضَبا فاُجتنبونى لا أُؤثّر فى أشعاركم وأبشاركم » فإنه يدلّ على أنه لا يَصلُح للإمامة من وجهين : أحدُهما أنّ هـذا صفة مَنْ ليس بمعصوم ، ولا يأمن الغَلَط على نفسه من يحتاج إلى تقويم رعيّته له إذا وقع فى المعصية ، وقد بيّنا أنّ الإمام لابدّ أن يكون معصوما موفّقا مسدَّدا ، والوجه الآخر أنّ هذه صفة مَنْ لا يَملك نفسَه، ولا يَضبِط غضبه ، ومَنْ هو فى نهاية الطّيش والحِدّة والخُرْق والعَجَلة . ولا خِلافَ أنّ الإمام يجب أن يكون منزّها عن هذه الأوصاف ، غير حاصل عليها ، وليس يُشبِه قولُ أبى بكر ماتلاه من الآيات كلّها ، لأنّ أبا بكر خبّر عن نفسه بطاعة الشيطان عند الغضب ، وأنّ عادته بذلك جارية ، وليس هذا بمنزلة من يُوسوس إليه الشّيطان ولا يطيعُه ، ويزيّن له القبيح فلا يأتيه ، وليس وسوسة الشيطان بعيب على الموسوس له إذا لم يستزلّه ذلك عن الصواب ، بل هو زيادة فى التّكليف ، ووجه يتضاعف معه الثواب ؛ وقوله تعالى : ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قيل : معناه فى تلاوته ؛ وقيل : فى فكرته ، على سبيل الخاطر ، وأىّ الأمرين كان فلا عار فى ذلك على النبىّ صلّى الله عليه وآله ولا نقص ، وإنّما العار والنّقص على من يُطيع الشيطان ويتّبع ما يدعو إليه . وليس لأحد أن يقول : هذا إن سَلِم لكم فى جميع الآيات لم يَسلم فى قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ ﴾ لأنّه قد خبّر عن تأثير غوايته ووَسْوَسته بما كان منهما من الفعل . وذلك أنّ المعنى الصحيح فى هـذه الآية أنّ آدم وحوّاء كانا مندوبين إلى اجتناب الشّجرة وتركِ التّناول منها ، ولم يكن ذلك عليهما واجبا لازما ،

لأنّ الأنبياء لا يُخِلّون بالواجب ، فوسوس لهما الشيطان حتّى تَنَاوَلا من الشجرة ، فتركا مندوبا إليه ، وحَرَما بذلك أنفسَهما الثّواب ، وسمّاه إزلالا لأنّه حطٌّ لهما عن درجة الثواب وفعل الأفضل ؛ وقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾[1] لا ينافى هذا المعنى ، لأنّ المعصية قد يُسمّى بها من أخلّ بالواجب والندب معا . قوله : « فَغَوَى » أى خاب من حيث لم يستحقّ الثواب على ما نُدِب إليه . على أنّ صاحب الكتاب يقول : إنّ هذه المعصية من آدم كانت صغيرةً لا يستحقّ بها عقاباً ولا ذمّا ، فعلى مذهبه أيضا تكون المفارَقة بينه و بين أبى بكر ظاهرةً ، لأنّ أبا بكر خبّر عن نفسه أنّ الشيطان يعتريه حتّى يؤثّر فى الأشعار والأبْشار ، و يأتى ما يستحقّ به التقويم ، فأين هذا من ذَنْب صغير لاذمّ ولا عقابَ عليه ، وهو يَجرِى من وجه من الوجوه مجرى المباح ، لأنّه لا يؤثّر فى أحوال فاعله وحَطّ رتبته ؛ وليس يجوز أن يكون ذلك منه على سبيل الخَشْية والإشفاق على ما ظُنّ ، لأنّ مفهومَ خطابه يَقتضِى خلاف ذلك ، ألا ترى أنّه قال : « إنّ لى شيطاناً يعترينى » ، وهذا قولُ مَن قد عَرَف عادته ، ولو كان على سبيل الإشفاق والخوْف لخَرَج عن هذا المخرَج ، ولكان يقول : فإنّى لا آمَن مِنْ كذا و إنّى لمشْفِق منه . فأمّا ترْك أميرِ المؤمنين عليه السلام مخاصَمةَ النّاس فى حقوقه فكأنّه إنّما كان تنزّها وتكرّما ؛ وأىّ نسبة بين ذلك و بين من صَرّح وشَهِد على نفسه بما لا يليق بالأئمّة ! وأمّا خبر استقالة البيعة وتضعيف صاحب الكتاب له فهو أبدا يضعّف ما لا يُوافقه من غير حجّة يعتمِدها فى تضعيفه . وقوله : إنّه ما استقال على التّحقيق ، و إنّما نبّه على أنّه لا يبالى بخروج الأمر عنه ، وأنّه غير مُكرِه لهم عليه ؛ فبعيدٌ من الصواب لأنّ ظاهر قوله «أقيلونى» أمرٌ بالإقالة ، وأقل أحواله أن يكون عَرْضا لها وبَذْلا ، وكِلَا الأمرين قبيح . ولو أراد ما ظنّه لكان له

---

(١) سورة طه ١٢١

فى غير هذا القول مندوحة ، ولكان يقول : إنّى ما أكرهتُكم ولا حَملتُكم على مبايعتى، وما كنتُ أبالى ألّا يكون هذا الأمر فىّ ولا إلىّ ، و إنّ مفارقتَه لتسرّنى لولا ما ألزمنيه الدخولُ فيه من التمسّك به ، ومتى عَدَلنا عن ظواهر الكلام بلا دليل جرّ ذلك علينا مالا قِبَل لنا به . وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام فإنّه لم يُقل ابنَ عمر البَيْعة بعد دُخوله فيها و إنّما استعفاه من أن يُلزمه البَيْعة ابتداء فأعفاه قلّة فكر فيه ، وعلماً بأنّ إمامتَه لا تَثبتُ بمبايَعة من يُبايعه عليها ، فأين هذا من استقالة بَيْعة قد تقدّمت واستقرّت[1] !

***

قلت : أمّا قولُ أبى بكر: «وَلِيتُكم ولستُ بخيركم» فقد صَدَق عند كثير من أصحابنا؛ لأنّ خيرهم علىّ بنُ أبى طالب عليه السلام ، ومن لا يقول بذلك يقول بما قاله الحَسَن البَصْرىّ: واللهِ إنّه ليَعلَمَ أنّه خيرهم، ولكنّ المؤمن يَهْضِم نفسَه . ولم يطعن المرتضى فيه بهذه اللّفظة لنُطيلَ القولَ فيها . وأمّا قولُ المرتَضى عنه إنّه قال : « فإنّ لى شيطانا يعترينى عند غَضَبى » ، فالمشهور فى الرّواية : « فإنّ لى شيطانا يعترينى »[2] ، قال المفسّرون : أراد بالشّيطان الغضب وسمّاه شيطانا على طريق الاستعارة ، وكذا ذكَرَه شيخُنا أبو الحسين فى ”الغُرَر“ . قال معاوية لإنسان غَضِب فى حَضْرته فتكلّم بمالا يُتكلّم بمثله فى حضرة الخلفاء : ارْبَع على ظَلْعك[3] أيها الإنسان ، فإنّما الغَضَب شيطان ، و إنّا لم نقلْ إلّا خيراً .

وقد ذكر أبو جعفر محمّد بنُ جرير الطبرىّ فى ”كتاب التاريخ الكبير“ خطبتَىْ أبى بكر عقيبَ بَيعته بالسّقيفة ، ونحن نذكُرها نقلا من كتابه ، أمّا الخطبة الأولى فهى :

---

(١) الشافى ٤١٥ ، ٤١٦

(٢) أى من غير ذكر لفظ « عند الغضب » .

(١) اربع على نفسك ؛ أى توقف

أمّا بعد ، أيّها الناس ، فإنّى وَلِيتكم ولستُ بخيْركم ، فإن أحسَنْتُ فأعينونى ، و إن أسأتُ فقوِّمونى ، لأنّ الصدق أمانة ، والكذبَ خيانة ، الضعيفُ منكم قوىٌّ عندى حتّى أُريحَ عليه حَقّه ، والقوىّ منكم ضعيفٌ عندى حتّى آخذَ الحقّ منه ، لايدع قومٌ الجهاد فى سبيل الله إلّا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيعُ الفاحشةُ فى قوم إلّا عمّهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعتُ اللهَ ورسوله ، فإذا عصيتُ اللهَ ورسوله فلا طاعةَ لى عليكم . قومُوا إلى صلاتِكم رَحِمكم الله .

وأما الخُطْبة الثانيـة فهى : أيّها الناس إنّما أنا مثلكم ، و إنّى لا أدرى لعلّكم ستكلّفُوننى ما كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يُطيقه[1] . إن الله اُصطفى محمّدا صلّى الله عليه وآله على العالمين ، وعصَمه من الآفات ، و إنّما أنا متّبع ولستُ بمَتْبوع ، فإن استقمتُ فاتّبعونى ، وإن زُغْت فقوِّمونى ، وإنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قُبِض وليس أحد من هذه الأمّة يَطلبُه بمظلمة ضربة سَوْط فما دونَها . ألّا و إن لى شيطانا يعترينى، فإذا غضبتُ فاُجتَنِبونى لا أؤثّر فى أشعاركم وأبشاركم . ألا و إنّكم تَغْدُون وترُوحون فى أجَلٍ قد غُيِّب عنكم عِلمُه ، فإن استطعتم ألّا يمْضِىَ هذا الأجلُ إلّا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله . فسابقوا فى مَهَل آجالكم من قبل أن تُسلِمكم آجالُكم إلى انقطاع الأعمال ، فإنّ قوماً نَسُوا آجالَهم ، وجعلوا أعمالَهم لغيرهم ، فأنهاكم أن تكونوا أمثالَهم . الجدّ الجدّ ! الوحاَ الوحاَ ! فإنّ وراءَكم طالبا حَثِيثاً ، أجلٌ[2] مَرّه سريع ، احذَروا الموت ، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ، ولا تَغبِطُوا الأحياءَ إلّا بما يُغبَط به الأموات[3] .

إن الله لا يقبَل من الأعمال إلّا ما يُراد به وجْهُه، فأرِيدوا وجهَ الله بأعمالكم ،واعلموا

---

(١) الطبرى : « يطبق »

(٢) الطبرى : « أجلا »

(٣) إلى هنا فى الطبرى نهاية الخطبة ؛ وما بعدها من خطبة أخرى

أنّ ما أخلصتم لله من أعمالكم فلطاعةٍ أتيتمُوها ، وحظّ ظفرتُم به ، وضرائبَ أديتّموها ، وسلفٍ قدّمتموه من أيّام فانية ، لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتِكم . فاعتبروا عبادالله بمن ماتَ منكم ، وتفكّروا فيمن كان قبلكم ؛ أين كانوا أمس وأينَ هُم اليوم ! أين الجبّارون أين الّذين كان لهم ذكر القتال والغَلبة فى مَواطِن الحرب ! قد تضعضَع بهم الدّهر ، وصاروا رَميا قد تُركت عليهم القالات الخبيثات ، وإنّما الخبيثات للخَبيثِين والخبيثون للخبيثات . وأين الملوكُ الّذين أثاروا الأرض وعمروها ! قد بَعُدوا بسيّئ ذكرهم ، وبقِيَ ذكرُهم وصارُوا كلا شىء . ألا إنّ الله قد أبقَى عليهم التَّبعات ، وقَطَع عنهم الشّهَوات ومضَوا والأعمالُ أعمالُهم ، والدنيا دنيا غيرِهم ، وبقِينا خَلفًا مِن بَعدِهم ، فإن نحن اعتَبَرنا بهم نجَوْنا ، وإن اغتررنا كنّا مثِلْهم . أين الوضّاء[1] الحسَنة وجُوهُهم ، المعجَبون بشَبابهم ! صاروا تُرابا ، وصار ما فرّطوا فيه حسرةً عليهم ، أين الّذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها العجائب ، وتركوها لِمَن خَلفَهم ! فتلك مساكنُهم خاوية ، وهم فى ظُلَمَ القُبورِ ، ﴿ هَلْ تَحِسُّ منهمْ من أَحَدٍ أَوْ تسمعُ لهم رِكْزاً ﴾[2] . أين من تَعرِفون من آبائكم وإخوانكم ! قد انتهتْ بهم آجالُهم فَوَردوا على ما قَدِموا عليه ، وأقاموا للشِّقوة وللسّعادة . ألا إنّ الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خَلقه سبب يُعطِيه به خيرا ، ولا يَصرِف عنه به شرّا إلّا بِطاعته واتّباع أمْرِه ، واْعلموا أنّكم عبادٌ مدينون ، وأنّ ما عندَه لا يُدرَكُ إلّا بتقواه وعبادته . ألا وإنّه لا خيرَ بخير بعدَه النّار ولا شرّ بشَرّ بعدَه الجنّة[3] .

فهذه خُطْبتا أبى بكر يومَ السّقيفة ، واليوم الّذى يليه ، إنّما قال : « إنّ لى شيطانًا يَعتَرِينى » ، وأراد بالشّيطان الغضب ، ولم يُرِدْ أن له شيطانًا من مَرَدة الجنّ يَعترِيه إذا

---

(١) الوضاء : ذوو الوضاءة والحسن (٢) سورة مريم : ٩٨
(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٢٣ ، ٢٢٥

غضب فالزّيادة فيما ذكره المرتضى فى قوله : « إنّ لى شيطانا يَعتَرينى عند غضبى »، تحريف لا محالة ، ولو كان له شيطان من الجنّ يعتادُه وينوبُه لكانَ فى عِداد المصروعين من المجانين ، وما ادّعى أحدٌ على أبى بكر هذا لا مِن أوليائه ولا مِن أعدائه ؛ وإنّما ذكرنا خطبتَه على طولِها والمراد منها كلمةٌ واحدة ؛ لِمَا فيها من الفَصاحة والمَوعظة على عادتنا فى الاعتناء بإيداع هذا الكتاب ما كان ذاهباً هذا المذهب ، وسالكا هذا السبيل .

فأمّا قولُ المرتَضى : « فهذه صفة من ليسَ بمَعْصوم » ، فالأمرُ كذلك،والعصمةُ عندنا ليستْ شَرْطا فى الإمامة ولو لم يدلّ على عدم اشتراطها ؛ إلا إنّه قال على المِنْبر بحضور الصحابة هذا القول ، وأقرّوه على الإمامة لكَفَى فى عدم كون العِصْمة شرطا ، لأنّه قد حَصَل الإجماع على عدم اشتراط ذلك ، إذ لو كان شَرْطا لأنكر منكرٌ إمامتَه، كما لوقال: إنّى لا أصبرُ عن شُرْب الخَمْر وعن الزّنى .

فأمّا قولُه: « هذه صفة طائش لا يملِك نفسَه » ، فلعَمرى إنّ أبا بكر كان حديداً ، وقد ذكره عمرُ بذلك ، وذكَرَه غيرُه من الصّحابة بالحِدّة والسرعة ؛ ولكن لا بحيث أن تبطل به أهليّته للإمامة لأنّ الّذى يُبطل الإمامة من ذلك ما يخرج الإنسان عن العَقْل ، وأمّا ماهو دونَ ذلك فلا . وليس قوله: « فاجتنبونى لا أوثِر فى أشعاركم وأبشاركم » محمول على ظاهره ، وإنّما أراد به المبالغة فى وصف القوّة الغضبيّة عنده ، وإلّا فما سمعنا ولا نقَل ناقلٌ من الشّيعة ولا من غير الشّيعة أنّ أبا بكر فى أيّام رسول الله صلّى الله عليه وآله ولا فى الجاهليّة ولا فى أيّام خلافته احتدّ على إنسان فقام إليه فضَرَبه بيَدِه ومزّق شَعره .

فأما ماحكاه قاضى القضاة عن الشّيخ أبى علىّ من تشبيه هذه اللّفظة بما ورد فى القرآن ؛ فهو على تقدير أن يكون أبو بكر عَنَى الشيطانَ حقيقة . وما اعترض به المرتضى ثانيةً عليه غيرُ لازم ، لأنّ الله تعالى قال : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَانُ ﴾، وتعقب ذلك قبولهما

وسوسته، وأ كلهما من الشجرة ، فكيف يقول المرتضى : ليس قول أبى بكر بمنزلة مَن وَسْوَس له الشيطان فلم يُطِعه ! وكذلك قوله تعالى فى قصّة موسى لما قَتَل القبطىّ : ﴿ هَـذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدوٌّ مُضِلٌّ مُبِين ﴾ ،وكذلك قوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾، وقوله : ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾، وماذهب إليه المرتضى من التأويلات مبنىّ على مذهبه فى العصمة الكلّية، وهو مذهب يحتاج فى نُصْرته إلى تكلّف شديد وتعسّف عظيم فى تأويلِ الآيات ؛ على أنّه إذا سُلِّم أنّ الشيطانَ ألقَى فى تلاوة الرسول صلّى الله عليه وآله ماليسَ من القرآن حتَّى ظنّه السامعون كلاماً من كلام الرسول ، فقد نَقَض دلالة التنفير المقتضية عنده فى العِصْمة ، لأنّه لا تنفيرَ عنده أَبلَغ من تمكين اللهِ الشيطانَ أن يَخلِط كلامَه بكلامه ، ورسوله يؤدّيه إلى المكلّفين حتّى يعتقدَ السامعون كلّهم أنّ الكلامين كلامٌ واحد .

وأمّا قوله : إن آدمَ كان مندوباً إلى ألّا يأ كل من الشّجرة لا محرّم عليه أ كلُها ، ولفظة « عَصَى » إنّما المراد بهاخالف المندوب[1] ، ولفظة «غَوَى» ؛ إنّما المراد «خابَ» من حيثُ لم يستحقّ الثواب على اعتمادما نُدِب إليه؛ فقولٌ يدفعه ظاهر الآية ، لأنّ الصيغة صيغة النهى ، وهى قوله:﴿ ولاتَقربا هذه الشجرة ﴾، والنهى عند المرتضى يقتضى التحريم لامحالة ، وليس كالأمر الّذى قد يراد به النّدب ، وقد يراد به الوُجوب .

وأما قولُ شيخنا أبى علىّ : إنّ كلام أبى بكرخرج مخرج الإشفاق والحَذَر من المعصية عند الغضب فجيّد .

واُعتراض المرتضى عليه بأنه ليس ظاهر اللّفظ ذاك غيرُ لازم ، لأنّ هذه عادةُ العرب ، يعبّرون عن الأمر بما هو منه بسَبَب وسبيل ، كقولهم : لا تَدْنُ من الأسَد فيأ كُلك ، فليس أنّهم قطعوا على الأ كل عند الدنوّ ، وإنّما المراد الحَذَر والخوف والتوقّع للأ كل عند الدّنوّ .

(١) ا : « الندب » .

وأما الـكلام فى قوله : « أقيلونى » ، فلو صَحّ الخبرُ لم يكن فيه مطعن عليه ، لأنه إنما أراد فى اليوم الثانى اختبارَ حالهم فى البيعة التى وقعتْ فى اليوم الأول ليعلم وليَّه مِن عدوِّه منهم ؛ وقد رَوَى جميعُ أصحاب السِّيَر أنّ أميرَ المؤمنين خَطب فى اليوم الثانى من بيعته فقال : أيّها النّاس ؛ إنّكم بايعتمونى على السمع والطاعة ، وأنا أعرض اليوم عليكم ما دعوتمونى إليه أَمس ، فإن أجَبْتم قعدتُ لـكم ، وإلاّ فلا أجِد على أحد . وليس بجّيد قولُ المرتضى : إنه لو كان يريدُ العرْض والبذْل لـكان قد قال كذا وكذا ، فإنّ هـذه مُضايقة منه شديدةٌ للألفاظ ، ولو شرَعْنا فى مِثل هذا لفَسَد أكثرُ ما يتكلم به الناس . على أنّا لو سلمنا أنه استقالهم البَيْعة حقيقةً ، فلِمَ قال المرتضى : إنّ ذلك لا يجوز ؟ أليس يجوز للقاضى أن يستقيل من القضاء بعد توليته[1] إيّاه ، ودخوله فيه ! فكذلك يجوز للإمام أن يستقيل من الإمامة إذا أنس من نفسه ضَعْفا عنها ، أو أنس من رعيّته نبوَةً عنه ، أو أحَسّ بفساد ينشأ فى الأرض من جهة ولايته على الناس ؛ ومَن يذهب إلى أن الإمامة تكون بالاختيار كيف يمنع من جواز استقالة الإمام وطلبه إلى الأمة أن يختاروا غيره لعذْر يعلمه من حال نفسه ! وإنما يمنع من ذلك المرتضى وأصحابه القائلون بأنّ الإمامة بالنصّ ، وإنّ الإمام محرَّم عليه ألاّ يقوم بالإمامة ، لأنه مأمور بالقيام بها لتعينه خاصةً دون كلّ أحدٍ من المكلَّفين . وأصحاب الاختيار يقولون : إذا لم يكن زيد إماماً كان عمرٌو إماما عوضَه، لأنهم لا يعتبرون الشروط التى يعتبرها الإمامية من العِصْمة ، وأنه أفضل أهل عصره وأكثرُهم ثوابا وأعلمهم وأشجعهم ، وغير ذلك من الشروط التى تقتضى تفرّده وتوحّده بالأمر ، على أنه إذا جاز عندهم أن يترك الإمام الإمامة فى الظّاهر كما فَعَله الحسن ، وكما فعَله غيرُه من الأئمة بعد الحسين عليه السلام للتقيّة ، جاز للإمام

(١) كذا فى ا ، د ، وفى ب : « توليه » .

على مذهب أصحاب الاختيار أن يترُكَ الإمامة ظاهرا وباطناً لعُذْر يَعلمه من حال نفسه أو حالِ رعيّته .

***

الطعن الثانى

قال قاضى القضاةُ بعد أنْ ذكر قول عمرَ : « كانت بيعةُ أبى بكْر فَلْتة » ـ وقد تقدّم منا القولُ فى ذلك فى أوّل هذا الكتاب : ومما طعنوا به على[1] أبى بكر أنه قال عند موته : ليتنى كنتُ سألتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله عن ثلاثة ، فذكر فى أحدها : ليَتَنى كنتُ سألتُه : هل للأنصار فى هذا الأمر حقّ ؟ ، قالوا : وذلك يدُلّ على شكّه فى صحة بيعته ، وربما قالوا : قد رُوِى أنه قال فى مرَضه : ليتنى كنتُ تركتُ بيت فاطمة لم أكْشِفه ، وليتنى فى ظُلّة بنى ساعِدة كنتُ : ضربتُ على [يدِ][2] أحد الرّجلين ، فكان هو الأمير ، وكنتُ الوزير . قالوا : وذلك يدلّ على ما رُوِى من إقدامه على بيت فاطمة عليها السلام عند اجتماع علىٍّ عليه السلام والزّبير وغيرهما فيه ، ويدُلّ على أنه كان يرَى الفضل لغيره لا لنفسه .

قال قاضى القضاة : والجوابُ أنّ قوله : « ليتنى » لا يَدُلّ على الشكّ فيما تمنّاه ، وقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنى كيف تُحيي الموتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي[3] ﴾ أقوى من ذلك فى الشّبهة . ثمّ حمل تمنّيه على أنه أراد سماع شىء مفصَّل ، أو أراد : ليتنى سألتُه عند الموت ، لِقُرب العهد ، لأنّ ما قَرُب عهدُه لا يُنسى ويكونُ أردعَ للأنصار على ما حاولوه . ثم قال : على أنه ليس فى ظاهره أنه تمنّى أن

---

(١) ب : « فى » .

(٢) تكملة من كتاب الشافى

(١) سورة البقرة ٦٢

يسأل : هل لهم حقٌّ فى الإمامة أم لا ؟ لأنّ الإمامة قد يتعلق بها حقوقٌ سواها . ثم دَفع الرّواية المتعلقة ببيت فاطمة عليها السلام وقال : فأما تمنِّيه أن يبايع غيرَه ؛ فلو ثبت لم يكن ذمّا لأنّ من اشتدّ التكليفُ عليه فهو يتمنى خِلافه[١] .

***

اعترض المرتضى رحمه الله هذا الكلام فقال : ليس يجوز أن يقول أبو بكر : « ليتنى كنتُ سألتُ عن كذا » . إلا مع الشكِّ والشبهة ، لأنّ مع العلم واليقين[٢] لا يجوز مِثلُ هذا القول ، هكذا يقتضى الظاهر ، فأمّا قولُ إبراهيم عليه السلام ، فإنما سَاغ أن يُعدَل عن ظاهِره ، لأنّ الشكّ لا يجوز على الأنبياء ، ويجوز على غيرهم ؛ على أنه عليه السلام قد نفى عن نفسه الشكَّ بقوله : ﴿ بَلَى وَلَكِنْ لِيطَمَئِنّ قلبى ﴾ ، وقد قيل : إن نُمْروذَ قال له : إذا كنت تزعمُ أنّ لك ربًّا يُحيي الموتى فاسأله أن يُحيي لنا ميّتا إن كان على ذلك قادِراً ، فإن لم تفعل ذلك قتلتُك ، فأراد بقوله : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنّ قلبى ﴾ ، أى لآمَنَ توعُّدَ عدوّك لى بالقتل . وقد يجوز أن يكون طلب ذلك لقَوْمه وقد سألوه أن يرغَب إلى الله تعالى فيه فقال : ليطمئنّ قلبى إلى إجابتك لى ، وإلى إزاحةِ عِلّة قومى ، ولم يرد: ليطمئن قلبى إلى أنك تقدِر على أن تُحيىَ المَوْتى ؛ لأنّ قلبه قد كان بذلك مطمئنا ؛ وأىّ شىء يريد أبو بكر من التفضيل أكثر من قوله : « إنّ هذا الأمر لا يَصْلُح إلاّ لهذا الحىّ من قريش» ! وأىّ فرق بين ما يقال عندَ الموت وبين ما يقال قبله إذا كان محفوظا معلوما ، لم تُرفع كلمةٌ ولم تُنسَخ !

وبعد ، فظاهرُ الكلام لا يقتضى[٣] هذا التخصيصَ ، ونحن مع الإطلاق والظاهر . وأىّ حقّ يجوز أن يكون للأنصار فى الإمامة غير أن يتولّاها رجل منهم حتى يجوز أن يكون الحقّ الذى تمنَّى أن يَسأل عنه غير الإمامة ! وهل هذا إلاّ تَعَسُّفٌ وتكلُّفٌ !

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٤١٩ (٢) الشافى : « التيقن » (٣) ا : « يقتضى »

وأىّ شُبهة تبقى بعد قول أبى بكر : ليتنى كنتُ سألته : هل للأنصار فى هذا الأمر حقّ فكنا لا ننازعه أهله ؟ ومعلومٌ أنّ التنازع لم يقع بينهم إلا فى الإمامة نفسها ، لا فى حَقٍّ آخر من حقوقها .

فأما قوله : إنّا قد بينا أنه لم يكن منه فى بيت فاطمة ما يُوجب أن يتمنى أنه لم يفعله؛ فقد بينا فساد ما ظنّه فيما تقدم .

فأما قوله : إنّ من اشتدّ التكليفُ عليه قد يتمنّى خِلافه؛ فليس بصحيح؛ لأنّ ولاية أبى بكر إذا كانت هى التى اقتضاها الدين ، والنظر للمسلمين فى تلك الحال وما عداها كان مفسدة ، ومؤدّيا إلى الفتنة ، فالتمنّى لخلافها لا يكون إلاّ قبيحا [(١)] .

***

قلت : أما قول قاضى القضاة : إنّ هذا التمنّى لا يقتضى الشكّ فى أن الإمامة لا تكونُ إلاّ فى قريش، كما أن قول إبراهيم : ﴿ ولَكِنْ لِيَطْمَئِنّ قَلْبِى ﴾، لا يقتضى الشكّ فى أنه تعالى قادرٌ على ذلك فجيّد .

فأما قولُ المرتضى . إنما ساغَ أن يُعدَل عن الظاهر فى حقّ إبراهيم لأنه نبىٌّ معصوم لا يجوز عليه الشك ؛ فيقال له : وكذلك ينبغى أن يُعدَل عن ظاهر كلام أبى بكر ، لأنه رجل مُسلم عاقل ، فحسنُ الظنِّ به يقتضى صيانة أفعاله وأقواله عن التناقض . قوله : إنّ إبراهيم قد نفى عن نفسه الشك بقوله: « بلى ولكن ليطمئن قلبى » قلنا: إنّ أبا بكر قد نفى عن نفسه الشكّ بدَفع الأنصار عن الإمامة و إثباتها فى قرَيش خاصة ، فإن كانت لفظة « بلى » دافعةً لشك إبراهيم الذى يقتضيه قوله: ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنّ قَلْبِى ﴾، ففعل أبى بكر وقَوْله يومَ السَّقيفة

---

(١) الشافى ٤١٩ ، وفى د : « إلا نسخا » .

يَدفَع الشكّ الذى يقتضيه قوله : « ليتنى سألتُه » ، ولا فرق فى دفع الشكّ بين أن يتقدّم الدافعُ أو يتأخّر أو يقارن .

ثم يقال للمرتضَى : ألستَ فى هذا الكتاب ـ وهو « الشافى » ـ بيّنت[1] أنّ قصة السَّقيفة لم يجرِ فيها ذكرُ نصٍّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله بأن الأئمة من قريش ، وأنه لم يكن هناك إلاّ احتجاج أبى بكر وعمرَ بأنّ قريشاً أهلُ النبى صلى الله عليه وآله وعشيرتُه ، وأنّ العرب لا تُطيع غيرَ قريش ؛ وذكرتَ عن الزّهرىّ وغيره أن القول الصّادر عن أبى بكر : إن هذا الأمرَ لا يصلح إلا لهذا الحىِّ من قريش ، ليس نصًّا مَرْويًّا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنما هو قولٌ قاله أبو بكر من تلقاء نفسه ، ورَوَيتْ فى ذلك الروايات ، ونقلت من الكتب من تاريخ الطبرى وغيره صورة الكلام والجدال الدائر بينه وبين الأنصار ! فإذا كان هذا قولك فلِمَ تنكرُ على أبى بكر قوله : ليتنى كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه : هل للأنصار فى هذا الأمر حق ! لأنه لم يَسمع النصّ ولا رواه ولا روى له ؛ وإنما دفع الأنصارَ بنوع من الجدَل ؛ فلا جرَم بقىَ فى نفسه شىء من ذلك ، وقال عند موته : ليتنى كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله .
وليس ذلك مما يقتضى شكَّه فى بَيْعته كما زعم الطاعن ، لأنه إنما يشكّ فى بيعته لو كان قال قائل أو ذَهب ذاهب إلى أنّ الإمامةَ ليست إلا فى الأنصار ، ولم يقل أحدٌ ذلك ، بل النّزاع كان فى : هل الإمامة مقصورةٌ على قريش خاصةً ، أم هى فوضى بين الناس كلِّهم ؟ وإذا كانت الحالُ هذه لم يكن شاكًّا فى إمامته وبَيْعته بقوله : « ليتنى سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله : هل للأنصار فى هذا حقّ ؟ » لأنّ بَيْعته على كلا التقديرين تكون صحيحةً .

---

١ فى د « أثبت »

فأما قولُ قاضي القُضاة : لعله أراد حقّا للأنصار غير الإمامة نفسها ؛ فليس بجيّد ، والذى اعترضه به المرتضى جيّد ، فإن الكلام لا يدُلّ إلا على الإمامة نفسها، ولفظة المنازعة تؤكّد ذلك .

وأما حديث الهجوم على بيت فاطمة عليها السلام فقد تقدّم الكلام فيه ، والظاهرُ عندى صحة ما يَرْويه المرتضَى والشيعة ، ولكن لا كلّ ما يزعمونه ، بل كان بعض ذلك ، وحقٌّ لأبى بكر أن يندم ويتأسّف على ذلك ، وهذا يدلّ على قوة دينه وخوفه من الله تعالى ، فهو بأن يكون منقبةً[1] له أَولى من كونه طَعنا عليه .

فأمّا قولُ قاضي القُضاة : إنّ من اُشتدّ التكليفُ عليه فقد يتمنّى خلافه واعتراضُ المرتضَى عليه ، فكلام قاضى القضاة أصحّ وأصَوب ، لأنّ أبا بكر — وإن كانت ولايتُه مصلحةً وولايةُ غيرِه مفسَدة — فإنَّه ما يتمنّى أن يكون الإمامُ غيرَه ، مع استلزام ذلك للمفسَدة ، بل تمنَّى أن يلىَ الأمرَ غيرُه وتكون المصلحة بحالها ، ألا ترى أنّ خصالَ الكفّارة فى اليَمين كلّ واحدة منها مَصلَحة ، وما عَداها لا يقوم مَقامَها فى المصلحة ، وأَحدُها يقومُ مَقامَ الأخرى فى المَصلحة ، فأبو بكر تمنّى أن يلىَ الأمرَ عُمر أو أبو عُبَيدة بشَرْطِ أن تكونَ المصلحة الدّينيّة الّتى تحصُل من بَيعته حاصلةً من بَيْعة كلّ واحدٍ من الآخَرين .

***

الطعن الثالث

قالوا : إنّه ولّى عمرَ الخلافة ، ولم يولّه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله شيئاً

---

(١) منقبة : أى مفخرة .

من أعمالِه البتّةَ إلّا ماوَلّاه يومَ خَيْبَر ، فرَجع منهزما وولّاه الصـدقة ، فلمّا شـكاه العبّاس عزَلَه .

أجاب قاضى القُضاة بأنّ تركَه عليه السلام أن يولّيَه لا يَدُلّ عَلَى أنّه لا يَصلَح لذلك، وتوليتُه إيّاه لا يَدُلّ على صَلاحِيَته للإمامة ، فإنّه صلّى الله عليه وآله قد وَلّى خالدَ بنَ الوليد وعمرو بنَ العاص ، ولم يدلّ ذلك على صَلاحِيَتهما للإمامة، وكذلك تركُه أن يولّى لا يَدُلّ على أنّه غيرُ صالح ، بل المعتَبر بالصّفات الّتى تَصلُح للإمامة ، فإذا كَمُلتْ صَلَح لذلك ، وُلِّىَ من قبلُ أو لم يُوَلَّ ، وقد ثَبتَ أنّ النبىّ صلّى الله عليـه وآله ترَكَ أن يولّىَ أميرَ المؤمنين عليه السلام أموراً كثيرةً ولم يُجبْ إلّا من يَصلُح لها ، وثبت أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولِّ الحسين عليه السلام أبنَه ، ولم يَمنَع ذلك من أن يَصلُح للإمامة . وحُكِىَ عن أبى علىّ أنّ ذلك إنّما كان يَصحّ أن يتعلّق به لو ظَفِروا بتقصير من عمر فيما تولّاه ، فأمّا وأحوالُه معروفة فى قيامه بالأمر حِينَ يَعجَز غـيرُه ، فـكيف يصحّ ماقالوه ! و بعد فهلّا دَلّ مارُوِى من قوله : وإنْ تُولّوا عمر تجدُوه قويّا فى أمرِ الله ، قويًّا فى بدنه على جواز ذلك ! و إن ترَكَ النبىّ صلّى الله عليه وآله تَوليته لأنّ هذا القول أَقوَى من الفِعل[1] .

اعترَض المرتضَى رحمه الله فقـال : قد عَلِمنـا بالعادة أنّ من ترَشّحَ لـكبارَ الأمور لابدّ من أن يُدرَّج إليها بصِغارِها، لأنّ من يريد بعضُ الملُوك تأهيلَه للأمر من بَعدِه ،لابدّ من أن ينبّه عليه بكلّ قول وفعل يدلّ على ترشيحه لهذه المنزلة ، ويستـكفيه من أمور وِلاياته[2] مايعلَم عندَه أو يغلب على ظنّه صلاحُه لما يريدُه له . و إنّ من يرَى الملِك مع حضوره وأمتدادِ الزمان وتطاوُله لا يستـكفيه شيئا من الولايات ، وَمتَى ولّاه عزَله؛ وإنّما يولّى غـيرَه و يَستـكفى سواه، لابدّ أن يَغلِب فى الظّن أنه ليس بأهلٍ للولاية ، وإنْ جوّزنا أنّه لم يولّه لأسبابٍ كثيرة سِوَى أنّه لا يَصلُح للولاية ، إلّا أنّ مع هذا التجويز لابدّ أن

---

[1]) نقله المرتضى فى الشافى ٤١٩
[2]) الشافى : « من أموره وولاياته » .

يَغلب على الظنّ بماذكرناه . فأمّا خالد وعمْرو فإنّما لم يَصلُحا للإمامة لفَقْد شروط الإمامة فيهما ، وإن كانا يَصلُحان لمـا وَليِاه من الإمارة ، فترَكُ الولاية مع امتداد الزّمان وتَطاوُل الأيّام ، وجميع الشروط التى ذكَرْناها تقتضِى غَلَبة الظّن لفَقْد الصّلاح ، والوِلاية لشىء[1] لا تدلّ على الصّلاح لغيره إذا كانت الشرائطُ فى القيام بذلك الغير معلوما فقدُها . وقد نجد الملك يولّى بعضَ أموره من لا يَصلُح للمُلْك بعدَه لظهور فقْدِ الشرائط فيه ، ولا يجوز أن يـكون بحَضْرته من يُرَشّحه للمُلْك بعـدَه ثمّ لا يُوليّه على تَطاول الزمان شيئاً من الوِلايات . فبانَ الفرْق بين الولاية وترْكِها فيما ذكرناه .

فأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام وإن لم يتولّ جميعَ أمورِ النبىّ صلّى الله عليه وآله فى حياتِه ، فقد تولّى أكثرَها وأعظَمها وخَلَفَهفى المدينة ،وكان الأميرَ على الجيْش المبعوثِ إلى خَيْبَر ، وجرَى الفتحُ علىيديه بعد انهزامِ مَن انهزَمَ منها ، وكان المؤدّى عنه سورة براءة بعد عَزْل من عَزَل عنها وارتجاعها منه ؛ إلى غير ذلك من عظيم الوِلايات والمَقامات بمـا يَطُول شرحُه ، ولو لم يكن إلّا أنّه لم يُولَّ عليه والياً قطّ لـكفى .

فأمّا اعتراضُه بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يولِّ الحسينَ فبعيدٌ عن الصواب ، لأنّ أيّام أميرِ المؤمنين عليه السلام لم تَطُلْ فيتمكّن فيها من مراداته ، وكانت على قِصَرها منقسمةً بين قتال الأعداء ، لأنّه عليه السلام لمّا بُويع لم يَلبَث أن خرَج عليه أهلُ البَصْرة فاحتاج إلى قتالِهم ، ثمّ انـكفأ مِن قتالهم إلى قتالِ أهلِ الشام ، وتَعقّب ذلك قتالُ أهل النّهْروان،ولم تستقرّ به الدارُ ولا امتدّ به الزمان،وهذا بخلاف أيّام النبىّ صلّى الله عليه وآله الّتى تطاولتْ وامتدّت ، على أنه قد نَصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحَسَن ، وإنّمـا تُطلَب الولايات لغَلَبة الظنّ بالصّلاح للإمامة .

فإذا كان هناك وجهٌ يَقتضِى العلمَ بالصّلاح لها كان أَولَى من طريق الظنّ ؛ على أنّه

---

(١) الـكافى للشىء

لا خلافَ بين المسلمين أنّ الحسينَ عليه السلام كان يَصلُح للإمامة وإن لم يُولِّه أبُوه الولايات ، وفى مِثل ذلك خلافٌ من حالِ عمرَ، فافترق الأمران . فأمّا قوله : إنه لم يعثر على عمرَ بتقصير فى الولاية ، فمن سَلّم بذلك! أو ليسَ يَعلمَ أنّ مخالفتَه تُعَدّ تقصيرا كثيرا ، ولو لم يكن إلّا ما اتّفق عليه من خَطئه فى الأحكام ورجوعِه من قولٍ إلى غيره ، واستفتائِه النّاسَ فى الصغير والكبير ، وقوله : كلّ الناس أفقهُ من عمرَ، لكان فيه كفاية . وليس كلّ النهوض بالإمامة يَرجع إلى حُسْن التدبير والسّياسة الدنياوية وَرمّ الأعمال والاستظهار فى جِباية الأموال وتَمصِير الأمصار ووَضْع الأعشار بل حَظّ الإمامة من العِلم بالأحكام والفُتْيا بالحلال والحرام ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكَم والمتشابه أقوَى ، فمن قصّر فى هذا لم يَنفعْه أن يكون كامِلاً فى ذلك .

فأمّا قوله : فهلاّ دلّ مارُوِى من قوله عليه السلام : فإن « ولَّيتُم عمرَ وجدتموه قويّا فى أمرِ الله قويًّا فى بدَنه » ، فهذا لوثبتَ لدَلّ ، وقد تقدّم القولُ[1] عليه . وأقوَى مايُبطِله عدولُ أبى بكر عن ذكره ، والاحتجاجُ به لمّا أراد النصّ على عمرَ ، فعُوتبَ على ذلك وقيل له : ماتقول لربّك إذا وَلّيتَ علينا فَظّا غليظا! فلو كان صحيحا لكان يَحتجّ به ويقول: وَلّيتُ عليكم مَن شَهِد النبيُّ صلّى الله عليه وآله بأنّه قوىّ فى أمرِ الله ، قوىٌّ فى بدَنه . وقد قيل فى الطّعن على صحّة هذا الخبر : إنّ ظاهرَه يَقتضِى تفضيل عمرَ على أبى بكر ، والإجماع بخلافِ ذلك ، لأنّ القوّة فى الجسم فَضْل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾[2] .

وبعد ، فكيف يُعارض ما اعتمدْناه من عُدولِه عليه السلام عن ولايته ــ وهو أمرٌ معلومٌ ــ بهذا الخبرِ المردود المدفوع ! قلتُ : أمّا ما ادّعاه من عادة الملُوك ، فالأمر بخلافه، فإنّا قد وَقَفنا على سِيَر الأكاسِرة ومُلوك الرُّوم وغيرهم فما سَمِعنا أنّ أحدا منهم رَشّح ولدَه

---

(١) فى د « الكلام » (٢) سورة البقرة ٢٤٧

للملك بعده باستعماله على طرَف من الأطراف ، ولا جَيْش من الجيوش ، وإنّما كانوا يثقّفونهم بالآداب والفروسيّة فى مَقارِّ مُلْكهم لا غير ، والحالُ فى ملوكِ الإسلام كذلك ، فقد سَمِعنا بالدولة الأمويّة ، ورأينا الدّولةَ العبّاسيّة ، فلم نَعرِف الدولةَ التى ادّعاها المرتضَى ، وإنّما قد يقع فى الأقلّ النادر شىء ممّا أشار إليه ، والأغلب الأكثرُ خلاف ذلك . على أنّ أصحابَنا لا يقولون إنّ عمرَ كان مرشَّحا للخلافة بعدَ رسول الله صلّى الله عليه وآلِه لِيقالَ لهم : فلو كان قد رَشّحه للخلافة بعدَه لأستكفاه كثيرا مِن أمورِه ؛ وإنّما عمرُ مرشَّح عندَهم فى أيّام أبى بكر للخلافة بعدَ أبى بكر ، وقد كان أبو بكر استعمَله على القَضاء مدّةَ خلافته ، بل كان هو الخليفة فى المعنى ، لأنه فوّض إليه أكثرَ التدبير ، فعَلَى هذا يكون قد سَلّمنا أنّ تركَ استعمالِ النبيِّ صلّى الله عليه وآله لعمرَ يَدُلّ على أنّه غيرُ مرشَّح فى نظره للخلافة بعدَه ، وكذلك نقول . ولا يَلزَم مِن ذلك ألّا يكون خليفةً بعد أبى بكر ، على أنّا لا نُسلّم أنّه ما استعمَله ، فقد ذكر الواقدىُّ وابن إسحاق أنّه بعثه فى سَرِيّة فى سنة سبعٍ من الهجرة إلى الوادىِ المعروفِ ببُرَمة « بضم الباء وفتْح الراء » وبها جمعٌ من هَوازِن ، فخرج ومعه دليلٌ من بنى هلال ، وكانوا يسيرون اللّيلَ ويَكمُنون النّهار ، وأتى الخبرُ هَوازنَ فهرَبوا ، وجاء عُمَر محالَّهم ، فلم يَلقَ منهم أحدا ، فانصرَف إلى المدينة .

ثم يُعارض المرتضَى بما ذكره قاضى القُضاة من تَرْك تَوليةِ علىّ ابنه الحسين عليهما السلام ، وقوله فى العُذْر عن ذلك : إنّ عليًّا عليه السلام كان ممنوًّا بحَرْب البُغاة والخوارج لا يدفع المُعارضَة ؛ لأنّ تلك الأيّام التى هى أيام حروبه مع هؤلاء هى الأيام التى كان ينبغى أن يولّى الحسين عليه السلام بعضَ الأمور فيها ، كاستعماله على جَيْش ينفذه سَرِيّة إلى بعض الجهات ، وأستعماله على الكوفة بعد خروجه منها إلى حرب صِفِّين ، أو استعماله على القضاء ،

وليس أشتغالُه بالحرب بمانع له عن ولاية ولدِه ، وقد كان مشتغِلا بالحَرْب ، وهو يولّى بنى عمّه العبّاس الولايات والبلادَ الجليلة .

فأمّا قوله: على أنّه قدنصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحَسَن؛ فهذا يُغْنِى عن توليتِه شيئا من الأعمال ؛ فلِقائل أن يَمنَع ما ذَكره من حديث النصّ ، فإنّه أمرٌ تَنفرد به الشِّيعة وأكثرُ أرباب السِّيَر والتّواريخ لا يَذكُرون أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلامُ نَصّ على أحَدٍ . ثمّ إن ساغَ له ذلك ساغَ لقاضى القضاة أن يقول : إنّ قولَ النبىّ صلّى الله عليه وآله : « اقتدوا باللّذَيْن مِن بعدى : أبى بكر وعمر » ؛ يغنى عن توليةِ عمرَ شيئا من الولايات ، لأنّ هذا القول آكدُ من الولاية فى تَرَشُّحه للخلافة .

فأمّا قوله : على أنّه لا خلافَ بين المسلمين فى صَلاحِيَة الُحسين للخلافة وإن لم يولِّه أبوه الوِلايات ، وفى عمرَ خلافٌ ظاهرٌ بين المسلمين ؛ فلِقائلٍ أن يقول له : إجماعُ المسلمين على صلاحيةِ الُحسَين للخلافة لا يَدفَع المعارضة ، بل يؤكِّدها ، لأنّه إذا كان المسلمون قد أَجمَعوا على صَلاحِيَته للخلافة ولم يكن تَرْكُ تولِيَة أبيه إيّاه الولايات قادحاً فى صَلاحِيَتِه لها بعدَه ، جاز أيضا أن يكون تَرْكُ توليةِ رَسولِ الله صلّى الله عليه وآله عمر الوِلايات فى حَياته غيرَ قادحٍ فى صَلاحِيَته للخلافة بعدَه .

ثمّ ما ذكره من تقصير عمرَ فى الخلافة بطريق أختلافِ أحكامِه ، ورجوعه إلى فتاوى العلماء ، فقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم لمّا تكلّمنا فى مطاعن الشِّيعة على عمرَ وأَجبْنا عنه .

وأمّا قولُه: لا يُغنِى حُسْن التدبير والسّياسة ورمّ الأمور ، مع القُصور فى الفقه ، فأصحابُنا يذهبون إلى أنّه إذا تَساوَى أثنان فى خصال الإمامة إلّا أنّه كان أحدهما أَعلَمَ والآخر

أسوس ، فإن الأسوس أولى بالإمامة ، لأن حاجة الإمامة إلى السياسة وحسن التدبير آكد من حاجتها إلى العلم والفقه .

وأمّا الخبر المرويّ فى عمر — وهو قوله : وإن تولُّوها عمرَ — فيجوز ألّا يكون أبو بكر سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ويكون الرّاوى له غيره ، ويجوز أن يكون سمعه وشذّ عنه أن يحتجّ به على طلحة لمّا أنكر استخلافَ عمرَ ، ويجوز ألّا يكون شذّ عنه وترك الاحتجاجَ به استغناءً عنه لعلمه أنّ طلحةَ لا يُعتَدّ بقوله عند الناس إذا عارض قوله . ولعلّه كنى عن هذا النصّ بقوله : إذا سألنى ربّى قلتُ له: استخلفتُ عليهمْ خيرَ أهلِك ؛ على أنّا متى فتحنا باب « هلّا احتجّ فلان بكذا » جرّ علينا مالا قِبَل لنا به وقيل : هلا احتجّ علىّ عليه السلام على طلحةَ وعائشةَ والزبير بقول رسولِ الله صلّى الله عليه وآله : « مَن كنتُ مولاه فهذا علىٌّ مولاه » ، وهلّا احتجّ عليهم بقوله : «أنتَ منّى بمنزلةِ هارون من موسى» ،ولا يُمكن الشّيعة أن يعتذروا هاهنا بالتقيّة ،لأنّ السّيوف كانت قد سُلّت من الفريقين ، ولم يكن مقام تَقِيّة .

وأمّا قوله : هذا الخبر لو صحّ لاقتضى أن يكون عمرُ أفضلَ من أبى بكر ، وهو خلافُ إجماع المسلمين ؛ فلقائل أن يقول : لم قلتَ إنّ المسلمين أجمعوا على أنّ أبا بكر أفضلُ من عمرَ ، مع أنّ كُتُبَ الكلام والتصانيف المصنَّفة فى المقالات مشحونةٌ بذكر الفِرْقة العُمَريّة ، وهم القائلون إنّ عمر أفضلُ من أبى بكر ، وهى طائفةٌ عظيمةٌ من المسلمين ، يقال : إنّ عبدَ الله بن مسعود منهم ، وقد رأيتُ أنّ جماعةً من الفقهاء يَذهبون إلى هذا ، ويُناظرون عليه ؛ على أنّه لا يدلّ الخبرُ على ما ذكَره المرتَضى ، لأنّه وإن كان عمرُ أفضلَ منه باعتبار قوّة البدن ، فلا يدلّ على أنّه أفضلُ منه مطلقا ، فمن الجائز أن يكون بإزاء هذه الخصْلة خصالٌ كثيرة فى أبى بكر من خصالِ الخير يفُضَّل بها على عُمَر ،

ألاترَى أنَّا نقول: أبو دُجانة أفضل من أبى بكر بجهاده بالسّيف فى مَقام الحرب ،ولا يلزَم من ذلك أن يكون أفضل منه مطلقا ، لأنّ فى أبى بكر من خصال الفضْل ماإذا قيس بهذه الخصْلة أربى عليها أضعافا مضاعفة .

* * *

الطعن الرابع

قالوا : إنّ أبا بكر كان فى جَيْش أسامة ، و إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله كرّر حين موته الأمرَ بتنفيذ جيشِ أسامة،فتأخُّره يقتضى مخالفةَ الرسول صلى الله عليه و آله.فإن قلتم: إنَّه لم يكن فى الجيش،قيل لكم:لاشَكّ أنّ عمرَبنَ الخطّاب كان فى الجيش،وأنّه حَبَسه ومَنَعه من النّفوذ مع القوم . وهذا كالأوّل فى أنّه معصية ، ورّبما قالوا : إنّه صلّى الله عليه وآلِه جَعَل هؤلاء القوم فى جيش أسامة ليَبْعُدوا بعدَ وفاته عن المدينة ، فلا يقع منهم توثّبٌ على الإمامة ، ولذلك لم يَجعل أمير المؤمنين عليه السلام فى ذلك الجيش ، وجعل فيه أبا بكر وعمرَ وعثمانَ وغيرَهم ، وذلك من أوْكَد الدّلالة على أنّه لم يرد أن يُختاروا للإمامة [1] .

أجاب قاضى القُضاة بأنْ أنكَر أوّلا أن يكون أبو بكر فى جيش أسامةَ ، وأَحالَ على كُتُب المغازى ، ثم سلّم ذلك وقال : إنّ الأمرَ لا يقتضى الفوْر ، فلا يَلزَم من تأخر أبى بكر عن النّفوذ أن يكون عاصِياً . ثمّ قال: إنّ خطابه صلّى الله عليه وآله بتنفيذ الجيش يجب أن يكونَ متوجّها إلى القائم بعدَه ، لأنّه من خطاب الأئمّة ، وهذا يَقتضِى ألا يدخل المخاطَب بالتّنفيذ فى الجملة ؛ ثم قال : وهذا يدلّ على أنّه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه ، لأنّه لو كان لأَقبل بالخطاب عليه، وخصّه بالأمر بالتنفيذ دونَ الجميع .

---

(١) الشافى ٤٢٠

ثمّ ذَكَر أنّ أمر رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لابدّ أن يكون مشروطاً بالمصلحة وبأن لا يعرض بما هو أهمّ منه ، لأنّه لا يجوز أن يأمرهم بالنّفوذ ، وإن أعقَب ضرراً فى الدين ، ثمّ قوّى ذلك بأنّه لم يُنكر على أسامة تأخُّره، وقوله : « لم أكن لأَسأل عنك الرَّكْب» ؛ ثم قال : لو كان الإمامُ منصوصا عليه لجازَ أن يستردّ جيشَ أسامة أو بعضه لنُصْرته ، وكذلك إذا كان بالاْختيار ؛ ثمّ حكى عن الشيخ أبى علىّ اُستدلاله على أنّ أبا بكر لم يكن فى جيش أُسامةَ بأنّه وَلّاه الصلاة فى مَرَضه ، مع تكريره أمرَ الجيش بالنّفوذ والخروج .

ثمّ ذَكَر أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله إنّما يأمرُ بما يتعلّق بمصالح الدّنيا من الحروب ونحوها عن اجتهاده ، وليس بواجب أن يكون ذلك عن وَحْى ، كما يَجِب فى الأحكام الشرعيّة ، وأنّ اجتهادَه يجوز أن يخالف بعد وفاته ، وإن لم يَجُز فى حياته ، لأنّ اُجتهادَه فى الحياة أَولى من اُجتهاد غيره ، ثمّ ذَكَر أنّ العِلّة فى اُحتباس عمر عن الجيش حاجة أبى بكر إليه ، وقيامُه بما لا يَقُوم به غيرُه ، وأنّ ذلك أحوَطُ للدِّين من نُفوذِه .

ثمّ ذَكَر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام حارَبَ معاويةَ بأمر الله تعالى وأمرِ رسوله ، ومع هذا فقد ترك محاربته فى بعض الأوقات ، ولم يجب بذلك ألّا يكون ممتثِلا للأمر . وذَكَر توليتَه عليه السلام أبا موسى، وتوليَة الرّسول صلّى الله عليه وآله خالدَ بنَ الوليد مع ما جرَى [1] منهما وأن ذلك يقتضِى الشّرط .

ثم ذكر أنّ من يَصلُح للإمامة ممّن ضَمّه جيشُ أُسامةَ يجب تأخيرُه ليختار للإمامة أحدهم ، فإنّ ذلك أهمّ من نُفوذهم، فإذا جازَ لهذه العِلّة التأخير قبل العَقْد جازَ التأخير بعدَه للمعاضَدة وغيرها ، وطعن فى قولِ مَن جَعَل إنّ إخراجَهم فى الجيش على جهة الإبعاد لهم عن المدينة بأن قال : إنّ بُعدَهم عن المدينة لا يمنَع من أن يُختاروا للإمامة ،

(١) فى د « ظهر » .

ولأنّه عليه السلام لم يكن قاطعا على موته لا محالة ، لأنّه لم يرد : نفذّوا جيْش أُسامةَ فى حياتى . ثمّ ذكر أنّ ولاية أسامةَ عليهما لا تَقتضِى فضلَه وأنّهما دونَه ، وذَكَر ولاية عَمرو بن العاص عليهما وإن لم يكونا دونَه فى الفضل ، وأنّ أحدا لم يُفضِّل أسامةَ عليهما .

ثم ذكر أنّ السبب فى كون عمرَ من جملة جيشِ أسامة أنّ عبد الله بن أبى رَبيعةَ المخزومىّ قال عند ولاية أسامة : تولَّى علينا شابٌّ حَدَث ونحن مَشيَخة قُريش ! فقال عمر : يا رسولَ الله مُرْنى حتّى أضربَ عنقَه ، فقد طَعَن فى تأميرك إيّاه ؛ ثم قال : أنا أخرُج فى جيش أُسامةَ تواضُعا وتَعظيما لأمرِه عليه السلام .

اعترَض المرتضَى هذه الأجوبة ، فقال : أمّا كونُ أبى بكر فى جملة جيش أسامةَ فظاهر ، قد ذكره أصحابُ السِّيَر والتّواريخ ، وقد رَوَى البَلاذُرِىّ فى تاريخه وهو معروفٌ بالثقة والضّبط ؛ وبرىءٌ من مُمالأة الشِّيعة ومقارَبتها ، أنّ أبا بكر وعمرَ معا كانا فى جيشِ أسامة ، والإنكار لما يَجرى هذا المجرَى لايغنِى شيئا ، وقد كان يَجب على من أحالَ بذلك على كتُب المغَازى فى الجملة أن يومئ إلى الكتاب المتضمِّن لذلك بعينه ليرجعَ إليه ، فأمّا خطابُه عليه السلام بالتّنفيذ للجَيْش فالمقصودُ به الفور دونَ التّراخى، إمّا مِنْ حيث مُقتضَى الأمر على مذهب مَن يرَى ذلك لغةً ، وإمّا شرعا من حيثُ وجَدْنا جميع الأمّة من لدُن الصحابة إلى هذا الوقت يَحمِلون أوامِرَه على الفَوْر[1] ، ويَطلُبون فى تَراخِيها الأدلّة . ثمّ لو لم يثبتْ كلّ ذلك لكان قولُ أسامةَ : لم أكن لأسألَ عنك الرّكبَ ، أوضَحَ دليل على أنّه عقل من الأمرِ الفَوْرَ ، لأنّ سؤالَ الرّكب عنه عليه السلام بعدَ وفاته لا مَعنَى له .

---

(١) الشافى : « من حيث دل دليل الشرع عليه » .

وأمّا قولُ صاحب الكتاب : إنّه لم يُنكر على أُسامةَ تأخّره ، فليس بشىء ، وأىّ إنكارٍ أبلغ من تَكراره الأمر ، وترداده القَوْل فى حالٍ يُشغِل عن المهمّ ، ويقْطَع الفِكْرَ إلّا فيها ! وقد كرّر الأمرَ على المأمور تارةً بتكرار الأمر ، وأخرى بغيره . وإذا سلّمنا أنّ أمرَه عليه السلام كان متوجّها إلى القائم بعدَه بالأمر لتنفيذ الجيش بعد الوَفاة لم يلزَم ما ذَكَره من خروج المخاطب بالتنفيذ عن الجملة ؛ وكيف يصحّ ذلك وهو من جملة الجيش ، والأمر متضمّن تنفيذ الجيش ! فلا بدّ من نُفُوذ كلٍّ من كان فى جُملتِه ، لأنّ تأخّرَ بعضهم يَسلبُ النافذِين اسمَ الجيش على الإطلاق . أوَ ليس من مذهب صاحب الكتاب أنّ الأمرَ بالشىء أمرٌ بمالا يتمّ إلّا معه ! وقد اعتمدَ على هذا فى مَواضع كثيرة ، فإن كان خُرُوجُ الجيش ونفوذه لايتمّ إلّا بخروج أبى بكر ، فالأمر بخروج الجيش أمرٌ لأبى بكر بالنفوذ والخروج ، وكذلك لو أقبَل عليه على سَبيل التّخصيص ؛ وقال : نفّذوا جيشَ أُسامةَ ، وكان هو من جملة الجيش ، فلا بدّ أن يكون ذلك أمراً له بالخروج .

واستدلاله على أنّه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه بعموم الأمر بالتّنفيذ ، ليس بصحيح؛ لأنا قد بينّا أنّ الخطاب إنّما توجّه إلى الحاضِرين ، ولم يتوجّهْ إلى الإمام بعدَه ؛ على أنّ هذا لازمٌ له ، لأنّ الإمامَ بعدَه لا يكون إلّا واحدا ، فلَم عَمّم الخطابَ ولم يفرِد به الواحدَ فيقول : لينفذ القائم مِن بعدِى بالأمرِ جيشَ أسامة ، فإنّ الحال لا يختلف فى كون الإمام بعدَه واحدا بين أن يكون منصوصاً عليه أو مختارا .

وأمّا ما ادّعاه أنّ الشرط[1] فى أمره عليه السلام لهم بالنّفوذ فباطل ، لأنّ إطلاقَ الأمر يَمنع من إثبات الشرط ، وإنّما يَثبتُ من الشروط ما يَقتضِى الدليل إثباته من التّمكّن والقُدْرة ، لأنّ ذلك شرطٌ ثابت فى كلّ أمر ورد من حكيم ، والمصلحة بخلافِ ذلك ، لأنّ الحكيم لا يأمر بشَرْط المصلحة ، بل إطلاق الأمر منه يَقتضِى ثُبوتَ المصلحة ، وانتفاء المفْسَدة ، وليس كذلك التّمكّن ، وما يجرِى مَجراه ، ولهذا لا يَشْترط

(١) فى د « وأما ادعاؤه الشرط » .

أحدٌ فى أوامر اللهِ تعالى ورسوله صلّى الله عليه وآله بالشّرائع المصلحةَ وانتفاء المَفسَدة. وشَرَطوا فى ذلك التمكّن ورفع التعذّر ، ولوكان الإمام منصوصا عليه بعَيْنه وأسمه لمَا جاز أن يستردّ جيش أُسامةَ ؛ بخلاف ما ظنّه ولا يَعزِل مَنْ ولّاه عليه السلام ولا يولّى من عَزَله للعِلّة التّى ذكرناها .

فأمّا استدلال أبى علىّ على أنّ أبا بكر لم يكن فى الجيش بحديث الصلاة ، فأوّل مافيه أنه اعتراف بأن الأمر بتنفيذ الجيش كان فى الحياة دونَ بعدِ الوفاة ، وهذا ناقضٌ لما بنَى صاحبُ الكتاب عليه أمرَه عليه السلام .

ثمّ إنّا قد بيّنا أنه عليه السلام لم يُولّه الصلاةَ وذَكْرنا ما فى ذلك . ثمّ ما المانع من أن يولّيَه تلك الصلاة إن كان ولّاه إيّاها ، ثم يأمرُه بالنفوذ من بعد مع الجَيْش ! فإنّ الأمر بالصلاة فى تلك الحال لا يقتضى أمرَه بها على التأبيد .

وأمّا ادّعاؤه أنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله يأمرُ بالحرُوب وما يتّصل بها عن أجتهادٍ دون الوَحْى ، فمعاذَ الله أن يكون صحيحا ، لأنّ حروبَه عليه السلام لم تكن ممّا يختصّ بمَصالح أمور الدّنيا ، بل للدِّين فيها أقوى تعلّق ، لِما يعودُ على الإسلام وأهلِه بفُتوحه من العزّ والقوّة وعلوِّ الكلمة . وليس يَجرى ذلك مَجرَى أكلـه وشُربه ونومِه ؛ لأنّ ذلك لا تعلّق له بالدّين ، فيجوز أن يكون عن رأيه ، ولوجاز أن تكونَ مَغازيه وبعوثُه مع التعلّق القوىّ لها بالدّين عن أجتهاد لجازَ ذلك فى الأحكام .

ثم لو كان ذلك عن أجتهادٍ لما ساغَتْ مخالفتُه فيه بعدَ وفاته ، كما لا تَسوغُ فى حياته . فكلُّ علّة تمنَع من أحدِ الأمرين هى مانعةٌ من الآخر . فأمّا الاعتذار له عن حَبْس عمرَ عن الجيش بما ذَكَره فباطل ؛ لأنّا قدْ قلنا : إنّ ما يأمر به عليه السلامُ لا يسوغُ مخالفته مع الإمكان ، ولا مُراعاةَ لِما عَساه يَعرِض فيه مِنْ رأى غيره ، وأىّ حاجة إلى عمرَ بعد تَمامِ العَقْد ، واستقراره ورضا الأمّة به ، على طَريق[1] المخالف وإجماعها عليه ، ولم يكن

(١) فى د : « مذهب » .

هناك فتنة ولا تنازُع ولا اختلاف يُحتاجُ فيه إلى مُشاوَرته وتدبيره ! وكلّ هذا تعلُّلٌ باطل .

فأمّا محاربةُ أميرِ المؤمنين عليه السلام معاويةَ فإنّما كان مأمورا بها مع التمكّن ووجودِ الأنصار ، وقد فَعَل عليه السلام مِن ذلك ما وَجَب عليه لمّا تمكّن منه ، فأمّا مع التعذّر وفَقْدِ الأنصار فما كان مأمورا بها . وليس كذلك القولُ فى جيش أسامة ، لأنّ تأخّر من تأخر عنه كان مع القدرة والتمكّن . فأمّا تولية أبى مُوسَى فلا نَدرِى كيف يُشبِه مانحنُ فيه ، لأنّه إنّما ولّاه بأن يرجع إلى كتاب الله تعالى فيَحكم فيه وفى خَصْمه بما يقتضيه ، وأبو موسى فَعَل خلافَ ما جُعل إليه ، فلم يكن ممتثِلا لأمر من ولّاه ، وكذلك خالدُ بن الوليد إنّما خالَفَ ما أَمَره به الرسولُ صلّى الله عليه وآله فتبرّأ من فعله ، وكلّ هذا لا يُشبِه أمره عليه السلام بتنفيذ جيشِ أسامةَ أمراً مطلقا ، وتأكيدُه ذلك وتكرارُه له ، فأَمّا جيشُ أُسامةَ فإنّه لم يضمّ من يَصلح للإمامة، فيجوز تأخّرهم ليختار أحدهم على ما ظنّه صاحبُ الكتاب . على أنّ ذلك لو صحّ أيضاً لم يكن عُذْرا فى التأخّر لأنّ مَنْ خرج فى الجيش يُمكِن أن يختار وإن كان بعيداً ، ولا يَمنَع بُعده من صحّة الاختيار ، وقد صَرّح صاحبُ الكتاب بذلك . ثمّ لو صَحّ هذا العُذْر لكان عُذْرا فى التأخّر قبلَ العَقْد ، فأمّا بعد إبرامِه فلا عُذرَ فيه ، والمُعاضدة التى ادّعاها قد بيّنّا ما فيها .

فأمّا ادّعاء[1] صاحب الكتاب رادًّا على من جَعَل إخراجَ القوم فى الجيش ليتمّ أمرُ النصّ أن مَن أبعدَهم لا يَمنَع أن يختاروا للإمامة فيدلّ على أنه لم يتبيّن معنى هذا الطّعن على حقيقته ، لأنّ الطاعنَ به لا يقول إنّه أبعدَهم لئلاّ يُختاروا للإمامة ، وإنّما يقول : إنّه أبعدَهم حتّى يَنتصِب بعدَه فى الأرض مَن نصّ عليه ، ولا يكون هُناكَ من يُنازِعُه ويخالفُه .

(١) فى د : « قول » .

وأمّا قولُه : لم يكن قاطعا على مَوتِه فلا يضرّ تسليمه ، أليس كان مُشفِقاً وخائفا ! وعلى الخائف أن يتحرّز ممّن يخاف منه . فأمّا قولُه : فإنّه لم يرِد : نفّذوا الجيشَ فى حياتى فقد بيّنّا مافيه . فأمّا ولايةُ أسامةَ على من ولى عليه ، فلابدّ من اُقتضائِها لفَضْله على الجماعة فيما كان والياً فيه ، وقد دَلّلنا فيما تقدّم من الكتاب على أنّ ولايةَ المَفضول على الفاضِل فيما كان أفضَل منه فيه قبيحة ، فكذلك القولُ فى ولايةِ عَمرو بنِ العاص عليهما فيما تقدّم ، والقولُ فى الأمرَين واحد .

وقوله : إنّ أحدا لم يَدَّعِ فضلَ أسامةَ على أبى بكر وعمرَ ، فليس الأمرُ على ماظَنّه لأنّ من ذهب إلى فسادِ إمامةِ المَفْضول لابدّ من أن يُفضِّل أسامةَ عليهما فيما كان والياً فيه ، فأمّا ادّعاؤه ماذكَرَه من السّبب فى دخولِ عمرَ فى الجيش فما نعرفه ، ولا وقَفْنا عليه إلّا من كتابه ، ثمّ لو صحّ لم يُغنِ شيئا ، لأنّ عمرَ لو كان أفضل من أسامةَ لمَنَعه الرسولُ صلّى الله عليه وآله من الدّخول فى إمارته والمَسيرِ تحت لوائِه ؛ والتواضُع لا يَقتضِى فعلَ القبيح[1] .

***

قلتُ : إنّ الكلامَ فى هذا الفصل قد تشعّب شُعَبا كثيرة ، والمُرتضَى رحمه الله لا يُورِد كلامَ قاضى القُضاة بنصّه ، وإنما يَختصِره ويُورِدُه مبتورا ، ويُومِئُ إلى المعانى إيماءً لطيفا ، وغرضُه الإيجاز ، ولو أورَدَ كلامَ قاضى القضاة بنصّه لكان أليَق ، وكان أبعد عن الظِّنّة ، وأدفَعَ لقولِ قائلٍ من خصومه : إنّه يحرّف كلامَ قاضى القضاة ، ويذكُرُه على غير وَجْهه ، ألا ترَى أنّ من نَصَب نفسَه لاُختصار كلامٍ فقد ضمن على نفسه أنّه قد فَهِم معانىَ ذلك الكلام حتّى يصحّ منه اُختصاره ؛ ومن الجائز أن يظنّ أنّه قد فَهِم

---

١) الشافى ٤٢٠ ، ٤٢١

بعضَ المواضع ولم يكن قد فَهِمه على الحقيقة ، فيَختصِر مافى نفسه ؛ لا مافى تَصنِيف ذلك الشخص ، وأمّا من يُورِد كلامَ الناس بنصّه فقد أستَراحَ من هذه التَّبِعة ، وعَرَض عقلَ غيره وعقلَ نفسِه على الناظرين والسامعِين .

ثم نقول : إنّ هذا الفصل ينقسم أقساما :

منها قولُ قاضى القُضاة : لا نُسلّم أنّ أبا بكر كان فى جيش أُسامة .

وأمّا قولُ المرتَضَى : إنّه قد ذكره أربابُ السِّيَر والتواريخ ، وقولُه : إنّ البَلاذُرِىَّ ذكرَه فى تاريخه ، وقولُه: هلاّ عَيّنَ قاضى القُضاة الـكتابَ الّذى ذكر أنّه يتضمّن عدمَ كونِ أبى بكرٍ فى ذلك الجيش ! فإنّ الأمرَ عندى فى هـذا الموضع مشتبِه ، والتواريخ مختلِفة فى هذه القضيّة[1] ، فمنهم من يقول : إنّ أبا بكر كان فى جُملة الجيش ، ومنهم من يقول : إنّه لم يكن ، وما أشار إليه قاضى القُضاة بقوله فى كتب المغازِى لا ينتهى إلى أمر صحيح ، ولم يكن ممّن يَستحِلُّ القول بالباطلَ فى دينه ولا فى رئاسته. ذكرَ الواقدىّ فى كتاب المَغازِى أنّ أبا بكرٍ لم يكن فى جيش أُسامة ، وإنّما كان عمرُ ، وأبو عُبيدةَ ، وسعدُ بنُ أبى وَقّاص ، وسعيدُ بنُ زيد بنِ عمرو بنِ نُفَيل ، وقَتادة بنُ النُّعمان ، وسَلَمة بن أَسلَم ، ورجالٌ كثيرٌ من المهاجرين والأنصار ، قال : وكان المنـكِر لإمارة أُسامةَ عيّاشُ بنُ أبى رَبِيعة . وغيرُ الواقدىِّ يقول : عبدُ الله بنُ عَيّاش ؛ وقد قيل : عبدُ الله بنُ أبى ربيعة أخو عيّاش .

وقال الواقدىّ : وجاء عمرُ بن الخطّاب فَودّع رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ليسيرَ مع أُسامة ، قال : وجاء أبو بكر فقال : يارسول الله ، أصبحتَ مُفيقا بحَمْد الله ، واليومَ يومُ أُبنةِ حارجة ، فأْذَنْ لى ، فأذِن له ، فذهب إلى منزله بالسُّنْح[2] وسار أُسامةُ فى العسكر ، وهذا تصريح بأنّ أبا بكر لم يكن فى جيش أُسامة .

---

(١) فى د : « القصة » .

(٢) السنح: إحدى محال المدينة ؛ وكان بها منزل أبى بكر حين تزوج مليكة؛ وقيل: حبيبة بنت خارجة (ياقوت)

وذكر موسى بنُ عُقْبة فى كتاب "المغازى"، أنّ أبا بكر لم يكن فى جيشِ أسامة وكثير من المحدِّثين يقولون: بل كان فى جيشِه.

فأمّا أبو جعفر محمّد بنُ جَرير الطبرىّ فلم يذكر أنّه كان فى جيش أُسامَة إلّا عمر. وقال أبو جعفر: حدّثنى السُّدّىُّ بإسنادٍ ذَكَره أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ضَرَب قبل وفاتِه بَعْثا على أهل المدينة ومَن حولَهمْ وفيهم عمرُ بنُ الخطّاب، وأمّرَ عليهمْ أُسامَة ابنَ زيد، فلم يجاوِزْ آخرُهم الخنْدَق حتّى قُبِض رسولُ الله صلّى الله عليه وآله، فوقف أُسامةُ بالنـاس ثم قال لعمر: ارجِـع إلى خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه فاستأذِنْه يَأْذَن لى أرْجعْ بالناس، فإنّ معى وجوه الصّحابة، ولا آمَن على خليفة رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وثَقَل رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وأثقال المسلمين أن يتخطّفهم المُشرِكون حولَ المدينة؛ وقالت الأنصار لعمرَ سِرًّا: فإنْ أَبَى إلّا أن يَمضىَ فأَبلغه عنّا، واطلُب إليه أن يولّى أمرَنا رجلا أقدَمَ سِنّا من أُسامة، فخرج عمرُ بأمر أُسامة فأَتَى أبا بكر فأخبَره بما قال أُسامة، فقال أبو بكر: لو تَخطّفتْنى الـكلابُ والذئابُ لم أَرُدَّ قضاءً قَضَى به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله، قال: فإنّ الأنصارَ أَمَرونى أن أُبلغَك أنّهم يَطْلُبون إليك أن تولّىَ أمرَهم رجلا أَقدَم سِنًّا من أُسامة، فوَثَب أبو بكر ـ وكان جالسا ـ فأَخذَ بلحيةِ عمرَ وقال: ثَـكِلَتْك أُمّك يابنَ الخطّاب! أيَستعمِلُه رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله وتأمرُنى أن أَنزِعه! فخرج عمرُ إلى الناس، فقالوا له: ماصنعتَ؟ فقال: امضُوا ثَـكِلَتْـكم أمّهاتُـكم! مالقيتُ فى سبيلـكم اليومَ من خليفةِ رسول الله صلّى الله عليه وآله! ثمّ خرج أبو بـكر حتّى أتاهم فأشخَصَهم [1] وشيّعهم، وهو ماشٍ وأُسامة راكب، وعبد الرحمن ابن عوف يقودُ دابّةَ أبى بكر، فقال له أُسامةُ بنُ زيد: ياخليفةَ رسولِ الله، لتركَبَنّ أو لأنزِلَنّ، فقال: والله لا تَنزِل ولا أَركَب، وما علىّ أن أغبِّر قَدَمى فى سبيل الله ساعةً،

(١) أشخصهم: بعث بهم

فإنّ للغازى بكلّ خُطْوة يَخطوها سبعمائة حسنة تُـكتَب له ، وسبعمائة درجة تُرفَع له ، وسبعمائة خطيئة تُمحَى عنه ، حتّى إذا انتهى قال لأسامة : إنْ رأيتَ أن تُعينَنى بعمرَ فافعل ، فأذِن له ، ثم قال : أيّها النـاس ، قِفوا حتّى أوصيكم بعَشْر فاحفظوها عنّى : لا تخونُوا ولا تَغدِروا ولا تَغلُّوا ولا تُمثّلوا ولا تَقتُلوا طفْلا صغيرا ، ولا شيخاً كبيرا ، ولا امرأةً ، ولا تَعقِروا نخْلا ولا تُحرِّقوه ، ولا تقطَعوا شجرةً مُثمِرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بَعيراً ولا بقَرةً إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسَهم للعبادة فى الصّوامع، فدعُوهم فيما فرّغوا أنفسَهم له ، وسوف تَقدِمون على أقوام يأتونـكم بصِحافٍ فيها ألوانُ الطعام ، فلا تأكلوا من شىء حتّى تذكُروا اسمَ الله عليـه ، وسوف تَلقَوْن أقواما قد حَصّوا [1] أوساطَ رءوسهم وترَكُوا حولَها مِثلَ العصائب ، فاخفِقُوهم [2] بالسّيوف خَفْقا ؛ أفناهم اللهُ بالطعن والطاعون ، سِيرُوا على اسم الله .

وأمّا قولُ الشيخ أبى علىّ فإنه يدلّ على أنّه لم يكن فى جيشِ أسامة ، أمرُه إيّاه بالصّلاة . وقولُ المرتَضَى : هذَا اعترافٌ بأنّ الأمرَ بتنفيذ الجيش كان فى الحالِ دونَ مابعدَ الوفاة ، وهذا يَنقُض ما بَنَى عليه قاضى القُضاة أمرَه ؛ فلِقائلٍ أن يقول : إنّه لا يَنقُض مابناه ، لأنّ قاضىَ القُضاة ماقال : إنّ الأمرَ بتنفيذ الجيشِ ما كانَ إلّا بعدَ الوفاة ، بل قال : إنّه أمْر ، والأمْر على التّراخى ، فلو نفذ الجيشُ فى الحال لجاز ، ولو تأخّر إلى بعـد الوفاة لجاز .

فأمّا إنـكار المرتَضَى أن تـكون صَلاةُ أبى بكر بالنّاس كانت عن أمرِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه فقد ذكرْنا ماعندَنا فى هذا فيما تقدّم .

وأمّا قولُه : يجوز أنْ يكون أمرَه بصلاةٍ واحدةٍ أو صلاتين ، ثمّ أمرَه بالنّفوذ بعد

---

(١) حص شعره : حلقه (٢) اخفقوهم : اضربوهم .

ذلك ، فهذا لعَمْرى جائزٌ . وقد يُمكِن أن يقال : إنّه لمّا خرج متحامِلاً من شدّة المرض فتأخّر أبو بكر عن مُقامِه، وصلّى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بالنّاس ، أمَره بالنّفوذ مع الجيش ، وأسكتَ رسول الله صلّى الله عليه وآله فى أثْناء ذلك اليوم ، واستمرّ أبو بكر على الصّلاة بالناس ، إلى أن تُوفّىَ عليه السلام ، فقد جاء فى الحديث أنّه أسكت ، وأن أسامة دخل عليه فلم يَستطِع كلامَه لكنّه كانَ يرفَع يديه ويَضعُهُما[١] عليه كالدّاعى له . ويُمكن أن يكونَ زمان هذه السّكتة قد امتدّ يوما أو يومين ، وهذا الموضعُ مِن المَواضع المشتَبهة عندى .

ومنها قولُ قاضى القُضاة : إنّ الأمرَ على التّراخى ، فلَا يلزَم من تأخُّر أبى بكر عن النّفوذ أن يكون عاصياً .

فأمّا قولُ المرتضَى: الأمرُ على الفَوْر إمّا لغةً عند من قال به ، أو شَرْعا لإجماع الكلّ على أنّ الأوامر الشرعيّة على الفَوْر إلّا ماخرج بالدّليل ، فالظاهر فى هذا الموضع صحّة ماقاله المرتضَى ، لأنّ قرائنَ الأحوال عند من يقرأ السِّيَر ويَعرِف التواريخ تدُلّ على أنّ الرسولَ صلّى الله عليه وآله كان يَحُثُّهم على الخروج والمَسيرِ ، وهذا هو الفوْر .

وأمّا قولُ المرتضى وقولُ أسامة : لم أكن لأسأل عنك الرّكْب، فهوأوْضح دليل على أنه عَقَل من الأمر الفوْر ، لأنّ سؤال الرّكْب عنه بعد الوَفاة لا معنى له . فلقائلٍ أن يقول : إنّ ذلك لا يدُلّ على الفوْر ، بل يَدُلّ على أنه مأمور فى الجملة بالنّفوذ والمَسير ، فإنّ التعجيل والتأخير[٢] مفوّضان إلى رأيه ، فلّما قال له النبىّ صلّى الله عليه وآلِه : لم تأخّرت عن المَسِير ؟ قال: لم أكن لأسيرَ وأسألَ عنك الرّكْب ، إنى انتظرتُ عافيتك ، فإنى إذا سرتُ وأنت على هذه الحال لم يكن لى قلب للجِهاد ، بل أكون قَلِقا شديد الجزع ، أَسأل

(١) فى د « ويحطهما » .

(٢) فى د « والتأجيل » .

عنك الرُّكْبان ، وهذا الـكلامُ لا يدلّ على أنه عَقَل من الأمر الفَوْر لا مَحالة ، بل هو على أن يَدُلّ على التراخى أظهر ، وقولُ النبى صلّى الله عليه وآله : «لم تأخرّت عن المَسِير؟» لا يَدُلّ على الفَوْر ؛ لأنه قد يقال مثل ذلك لمن يؤمر بالشىء على جهة التراخى إذا لم يكن سؤال إنـكار.

وقول المرتضى : لأن سؤال الرَّكْب عنه بعـدَ الوفاة لا مَعْنى له ، قولُ مَن قد توَهم على قاضى القضاة أنه يقول : إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله ما أمرهم بالنّفوذ إلاّ بعد وفاتِه ، ولم يَقُل قاضى القضاة ذلك، وإنما ادّعى أنّ الأمر على التراخى لا غير ، وكيف يُظَنّ بقاضى القضاة أنّه حَمَل كلام أسامةَ على سؤال الرّكب بعد الموت ! وهل كان أسامةُ يعلم الغيب فيقول ذاك ! وهل سأل أحدٌ عن حال أحدٍ من المرضى بعد موته !

فأمّا قول المرتضى عَقِيبَ هذا الـكلام : لا مَعنَى لقول قاضى القُضاة إنه لم ينـكر على أسامة تأخّره ، فإن الإنـكار قد وَقع بتـكرار الأمر حالاً بعد حالٍ ، فلقائل أنْ يقول : إن قاضى القُضاة لم يجعل عدَم الإنـكار على أسامة حجّة على كون الأمر على التراخى ، وإنما جعـل ذلك دليلا على أنّ الأمر كان مَشْروطا بالمصلَحة ، ومَن تأمل كلام قاضى القُضاةِ الذى حكاه عنه المرتضى تحقق ذلك، فلا يجوز للمرتضى أن ينتزعه من الوضع الذى أَوردَه فيه ، فيَجعَلَه فى موضع آخر .

ومنها قولُ قاضى القضاة : الأمرُ بتنفيذ الجيش يجب أن يـكون متوجّها إلى الخليفة بعده ، والمخاطبُ لا يدخُل تحت الخطاب ، واعتراضُ المرتضى عليه بأن لفظة «الجيش» يدخل تحتها «أبو بكر» فلا بدّ من وجُوب النفوذ عليه ، لأنّ عـدم نُفوذه يَسلب الجماعة اسم «الجيش» ؛ فليس بجيّد ، لأنّ لفظة «الجيش» لفظةٌ موضوعة لجماعة من النّاس قد أُعدّت للحرب ، فإذا خرج منها واحدٌ أو اثنان لم يَزَل مسمًّى الجيش عن الباقين ، والمرتضى

اعتقد أنّ ذلك مِثل الماهِيّات المركّبة ، نحو العشرة إذا عُدِم منها واحد زال مسمى العَشَرة ، وليس الأمرُ كذلك ، يبين ذلك أنه لو قال بعضُ الملوك لمائة إنسان : أنتم جيشى ، ثم قال لواحد منهم : إذا متّ فأَعطِ كلّ واحدٍ من جيشى دِرْهما من خِزَانتى ، فقد جعلتك أميراً عليهم لم يكن له أن يأخذ لنفسه دِرْهما ، ويقول : أنا من جملة الجماعة الذين أطلق عليهم لَفْظة الجيش .

ومنها قولُ قاضى القضاة : هذه القضيّة تدلّ على أنه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه ؛ وأمّا قول المرتضى : فقد بينا أنّ الخطاب إنما توجَّه إلى الحاضرين لا إلى القائم بالأمر بعده ، فلم نجد فى كلامه فى هذا الفصل بطوله ما بيّن فيه ذلك ، ولا أعلم على ماذا أحال ! ولو كان قد بيّن -على ما زَعَم- أن الخِطَاب متوجِّه إلى الحاضرين، لكان الإشكالُ قائماً ، لأنه يقال له : إذا كان الإمام المنصوص عليه حاضراً عنده فلم وجّه الخطاب إلى الحاضرين ! ألا ترى أنه لا يجوز أن يقول الملكُ للرعيّة : اقضوا بين هذين الشخصين والقاضى حاضرٌ عندَه ، إلاّ إذا كان قد عَزَله عن القضاء فى تلك الواقعة عن الرعيّة !

فأمّا قول المرتضى : هذا ينقلب عليكم ، فليس ينقلب ؛ وإنما ينقلب لو كان يريد تنفيذ الجيش بعد موته فقط ، ولا يريدُه وهو حىّ ، فكان يجىء ما قاله المرتضى لينفذ القائم بالأمر بعدى جيش أسامة ، فأما إذا كان يريد نفوذ الجيش من حين ما أمر بنفوذه فقد سَقَط القَلب ، لأنّ الخليفة حينئذ لم يكن قد تعين ، لأن الاختيار ما وقع بعد ، وعلى مَذهب المرتضى الأمام متعيِّن حاضر عنده نصبَ عَيْنه ، فافترق الوَصْفان .

* * *

ومنها قول قاضى القضاة : إن مخالفة أمره صلّى الله عليه وآله فى النفوذ مع الجيش أو فى إنفاذ الجيش لا يكون معصيةً ، و بيّن ذلك مِن وجوه :

أحدُها : أنّ أمره عليه السلام بذلك لا بدّ أن يكون مشروطاً بالمصلحة ، وأن لا يعرض ما هو أهَمّ من نفوذ الجيش ، لأنه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ و إن أعقب ضرراً فى الدِّين ، فأما قول المرتضى : الأمر المطلق يدلّ على ثبوت المَصلحة ، ولا يجوز أن يَجعل الأمر المطلق، فقولٌ جيّد إذا اعترض به على الوَجْه الذى أورَدَه قاضى القضاة، فأمّا إذا أورده أصحابُنا على وجهٍ آخر فإنه يندفع كلام المرتضى ، وذلك أنه يجوز تخصيصُ عمومات النصوص بالقياس الجلىّ عند كثير من أصحابنا ، على ما هو مذكورٌ فى أصول الفِقْه ، فلم لا يجوز لأبى بكر أن يَخُصّ عموم قوله : «أنفذوا بعث أُسامة» لمصلحة غَلبتْ على ظنه فى عدم نفوذِه نفسه ، ولمفسدة غلبت على نفسه[1] فى نفوذه نفسه مع البعث !

***

وثانيها : أنه عليه السلام كان يبعث السّرايا عن اجتهاد لا عَنْ وَحْى يحرم مخالفته . فأمّا قولُ المرتضى : إنّ للدين تعلّقا قويا بأمثال ذلك[2] ، وإنها ليست من الأمور الدّنياويّة المحضة نحو أكله وشربه ونومه ، فإنّه يعود على الإسلام بفتوحه عزٌّ وقوّةٌ وعُلُوُّ كلمة فيقال له : وإذا أكل اللحم وقوى مِزاجُه بذلك ونام نوما طبيعيا يزول عنه به المرض والإعياء ، اقتضى ذلك أيضاً عزّ الإسلام وقوّتَه ، فقل إنّ ذلك أيضاً عن وَحْى .

ثم إنّ الذى يقتضيه فُتوحُه وغزَواته وحُروبه من العِزّ وعلو الكلمة لا ينافى كونَ تلك الغزَوات والحروب باجتهاده ،لأنه لا منافاة بين اجتِهاده و بين عِزّ الدّين وعلوِّ كلمته بحرُوبه وأن الذى يُنافى اجتهاده بالرأى هو مثل فرائض الصلوات ومقادِير الزّكَوات ومناسِك الحجّ ، ونحو ذلك من الأحكام التى تُشعر بأنها مُتلقّاة مِن محض الوَحى ، وليس للرأى والاجتهاد فيها مدخل ، وقد خرج بهذا الكلام الجواب عن قوله :

---

(١) فى د « ظنه ». (٢) ا : «هذا»

لو جاز أن تكون السرايا والحروب عن اجتهاده ، لجاز أن تكون الأحكامُ كلّها عن اجتهاده . وأيضا فإنّ الصحابة كانوا يراجِعونه فى الحروب وآرائه التى يدبرها بها ويرجع عليه السلام إليهم فى كثير منها بعد أن كان قد رأى غيره ، وأما الأحكام فلم يكن يُراجِع فيها أصلا ، فكيف يُحمل أحدُ البابين على الآخر .

فأمّا قوله : لو كانت عن اجتهاد لوجب أن يحرم مخالفته فيها وهو حىّ ، لا فرق بين الحالين ؛ فلقائلٍ أن يقول : القياس يقتضِى ما ذكرت ، إلا أنه وقع الإجماعُ على أنّه لو كان فى الأحكام أو فى الحرُوب والجهادِ ما هو باجتهادِه لما جازتْ مخالفتُه ، والعدولُ عن مذهبه وهو حىّ لم يَختلف أحدٌ من المسلمين فى ذلك ، وأجازُوا مخالفتَه بعد وفاتِه بتقدير أن يكونَ ما صار إليه عن اجتهاد ؛ والإجماعُ حُجة .

فأما قولُ قاضى القُضاة : لأنّ اجتهادَه وهو حىّ أَولَى من اجتهاد غيرِه ، فليس يكادُ يظهَر ، لأنّ اجتهادَه وهو ميّت أولى أيضاً من اجتهاد غيرِه ، ويَغلِب على ظَنّى أنّهم فرّقوا بين حالتَى الحيـاة والموتِ ، فإنّ فى مخالفته وهو حىّ نوعاً من أذًى له ، وأذاهُ محرّم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (١) ، والأذى بعد الموت لا يكون ، فافترَق الحالان .

وثالثُها : أنّه لو كان الإمامُ منصوصا عليه لجازَ أن يستردّ جيش أسامةَ أو بعضَه لنُصرته ؛ فكذلك إذا كان بالاختيار ، وهذا قد منع منه المرتضَى ، وقال : إنّه لا يجوز للمنصوص عليه ذلك ، ولا أنّ يولّى من عَزَله رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، ولا أن يَعزِل مَن ولّاه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله .

* * *

(١) سورة الأحزاب ٥٣

ورابعُها : أنّه عليه السلام تَرَكَ حربَ معاويةَ فى بعض الحالات ، ولم يُوجِب ذلك أن يكون عاصياً ، فكذلك أبو بكر فى ترك النّفوذ فى جيش أسامة .

فأما قول المرتضَى: إنّ عليًا عليه السلام كان مأموراً بحرب معاويةَ مع التمكّن ووجودِ الأنصار ، فإذا عَدِما لم يكن مأموراً بحربه ؛ فلقائلٍ أن يقول : وأبو بكر كان مأموراً بالنفوذ فى جيشِ أسامة مع التمكّن ووجودِ الأنصار ، وقد عُدِم التمكّن لمّا استُخلِف ، فإنّه قد تحمّل أعباءَ الإمامة ، وتعذر عليه الخروجُ عن المدينة، التى هى دارُ الإمامة ،فلم يكن مأموراً والحالُ هذه بالنفوذ فى جيش أسامة .

فإن قلتَ : الإشكال عليكم إنّما هو من قِبَل الأستخلاف ، كيف جاز لأبى بكر أن يتأخّر عن المسير؟ وكيف جاز له أن يَرجع إلى المدينة وهو مأمور بالمسير ؟ وهلّا نفذ لوجهه ولم يَرجع ، وإن بلغه موتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله !

قلت : لعلّ أسامةَ أَذِن له ، فهو مأمورٌ بطاعته ، ولأنّه رأى أسامةَ وقد عاد باللّواء فعاد هو لأنّه لم يكن يُمكِنه أن يسيرَ إلى الرُّوم وحدَه ، وأيضا فإنّ أصحابنا قالوا : إنّ وِلايةَ أسامةَ بَطلت بموت النبىّ صلّى الله عليه وآله ، وعاد الأمرُ إلى رأى مَن ينصَّب للأمر ، قالوا : لأنّ تصرُّف أسامة إنّما كان من جهة النبىّ صلّى الله عليه وآله ، ثمّ زال تَصرّف النبىّ صلّى الله عليه وآله بموتِه ، فوَجَب أن يزول تَصرُّف أسامة ، لأنّ تصرُّفَه تبعٌ لتَصرُّف الرسولِ صلّى الله عليه وآله . قالوا : وذلك كالوَكيل تبطُل وَكالته بموتِ المو كّل ، قالوا : ويفارق الوصىّ لأنّ ولايتَه لا تَثبتُ إلّا بعد موت المُوصِى ، فهو كعَهْد الإمام إلى غيره لا يَثبت إلّا بعد موتِ الإمام ، ثمّ فرّع أصحابُنا: على هذا الأصل مسألةً وهى الحاكم هل ينعزل بموتِ الإمام أم لا ؟ قال قوم من أصحابنا لا يَنعزل و بنوْه على أن التّولّىَ من غيرِ جهةِ الإمام يجوز ، فجعلوا الحاكم نائبا عن المسلمين أجمعين ، لا عن الإمام ،

و إن وقف تَصرُّفه على اُختياره ، وصار ذلك عندهم بمنزلة أن يَختارَ المسلمون واحدا يَحكُم بينهم ، ثمّ يموت مَن رضىَ بذلك ، فإنّ تَصرُّفه يبقَى على ما كان عليه ، وقال قوم من أصحابنا: ينعزل ، و إنّ هذا النوع من التصرّف لا يُستفاد إلّا من جهة الإمام ، ولا يقوم به غيرُه ، و إذا ثبت أنّ أسامةَ قد بطلتْ ولايتُه لم تبق تَبِعةٌ[1] على أبى بكر فى الرّجوع من بعض الطّريق إلى المدينة .

وخامسُها : أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام ولّى أبا موسى الحُكْم ، وولّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله خالدَ بنَ الوليد السَّرِيّة إلى الغُمَيْصاء[2]، وهذا الكلامُ إنّما ذكره قاضى القُضاة تتمّةً لقوله : إنّ أمرَه عليه السلام بنفوذ بعث أسامة كان مَشْروطا بالمصلحة ؛ قال : كما أنّ توليتَه عليه السلامُ أبا موسى كانت مشروطةً باتّباع القرآن، وكما أنّ تولية رسولِ الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد كانت مشروطة بأن يعمَل بما أوصاه به، فخالَفا ولم يَعْمَلا الحقّ ، فإذا كانت هذه الأوامرُ مشروطةً فكذلك أمرُه جيش أسامة بالنّفوذ كان مشروطا بالمَصلَحة وألّا يعرِضَ ما يَقتضِى رجوع الجيش أو بعضه إلى المدينة ، وقد سبق القولُ فى كون الأمر مشروطا .

وسادسُها : أنّ أبا بكر كان محتاجا إلى مُقامِ عمرَ عنده ليعاضِدَه[3] ويقومَ فى تمهيد أمرِ الإمامة مالا يقوم به غيرُه ، فكان ذلك أصلَح فى باب الدِّين من مَسيرِه[4] مع الجيش ، فجاز أن يَحبِسه عنده لذلك ؛ وهذا الوجه مختصّ بمن قال : إنّ أبا بكر لم يكن فى الجيش ، وإيضاح عذره فى حَبْس عمرَ عن النّفوذ[5] مع الجيش .

***

(١) ا : « شىء »
(٢) الغميصاء : موضع أوقع فيه خالد بن الوليد ببنى جذيمة .
(٣) بعدها فى ا : « ويعاونه » .
(٤) ا : « سيره » .
(٥) ا : « التنفيذ »

فأمّا قولُ المرتضَى فإنّ ذلك غيرُ جائز ، لأنّ مخالفَة النصّ حرام ، فقد قُلْنا : إنّ هذا مبنىٌّ على مسألة تخصِيص العمومات الواردةِ فى القرآن بالقياس .

وأمّا قوله : أىّ حاجة كانت لأبى بكر إلى عمرَ بعدَ وقوعِ البَيْعة ، ولم يكن هناكَ تنازُع ولا اختلاف! فعجيب ، وهل كان لولا مُقامُ عُمَر وحضورُه فى تلك المقامات يتمّ لأبى بكر أمرٌ أو يَنتظِم له حال ! ولولا عمرُ لما بايَع علىٌّ ولا الزّبيرُ ، ولا أكثرُ الأنصار ، والأمر فى هذا أظهَر من كلّ ظاهر .

وسابعُها : أنّ من يَصلُح للإمامة ممّن ضَمّه جيشُ أُسامَة يجب تأخّرهم ليُختارَ للإمامة أحدُهم ، فإنّ ذلك أهمّ من نفوذهم ، فإذا جاز لهذه العِلّة التأخّر قبل العقد جاز التأخر بَعده للمعاضَدة وغيرها .

فأما قول المرتضَى : إنّ ذلك الجيش لم يَضُمّ مَن يَصلح للإمامة ، فبناءً على مَذْهبه فى أنّ كلّ من ليس بمعصوم لا يَصلُح للإمامة . فأمّا قولُه : ولو صحّ ذلك لم يكن عذراً فى التأخّر ، لأنّ من خرج فى الجيش يُمكِن أن يختار ولو كان بعيدا ، ولا يُمكِن بعده من صحّة الاختيار ، فلقائلٍ أن يقول : دارُ الهِجرة هى التى فيها أهلُ الحلّ والعَقْد ، وأقاربُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله والقُرّاء وأصحابُ السّقيفة ، فلا يجوز العدولُ عن الاجتماع والمشاوَرة فيها إلى الاختيار على البُعد ، وعلى جناح السَّفَر من غير مشارَكة مَن ذَكَرْنا من أعيان المسلمين .

فأمّا قوله : ولو صحّ هذا العقد لكان عذرا فى التأخّر قبل العَقْد ، فأمّا بعد إبرامه فلا عذرَ فيه ؛ فلِقائلٍ أن يقول : إذا أجزْتَ التأخّرَ قبل العقد لنوعٍ من المصلحة فأجز التأخّر بعد العَقْد لنوعٍ آخَر من المصلحة ، وهو المعاضدة والمساعَدة .

هــذه الوجوهُ السّبعةُ كلّهـا لبيان قوله : تأخّر أبى بكر أو عمر عن النّفوذ فى جيش أسامة ، وإن كان مأمورا بالنفوذ .

***

ثمّ نعود إلى تمام أقسام الفَصْل .

ومنها[1] قولُ قاضِى القُضاة : لا معنى لقول مَن قال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قصَد إبعادهم عن المدينة ، لأن بُعْدَهم عنها لا يَمنَعهم من أن يَختارُوا واحداً منهم للإمامة ، ولأنّه عليه السلام لم يكن قاطعا على موتِه لا محـالة ، لأنّه لم يرِد : نفِّذوا جيش أسامة فى حياته .

وقد اُعترضَ المرتَضى هذا فقال : إنّه لم يتبيّن معنى الطّعن ، لأنّ الطاعن لا يقول : إنّهم أُبعِدوا عن المدينة كى لا يَختارُوا واحداً للإمامة ، بل يقول : إنّما أُبعِدوا لينتصبَ بعدَ موتِه صلّى الله عليه وآله فى المدينـة الشّخصُ الّذى نصّ عليه ، ولا يكون حاضراً بالمدينة من يخالفه ويُنازِعه ، وليس يضرّنا ألّا يـكون صلّى الله عليه وآله قاطعاً على موته ، لأنّه وإن لم يـكن قاطعا فهو لا محـالة يُشفِق ويَخافُ من الموت ، وعلى الخائف أن يَتحرّز مما يخاف منه ؛ وكلامُ المرتضَى فى هذا الموضع أظهَر من كلام قاضى القَضاة .

ومنها قولُ قاضى القُضاة : إنّ ولايةَ أسامةَ عليهما لا تَقتضى كونهما دونَه فى الفَضل، كما أنّ عمرَو بنَ العاص لمّا وُلّىَ عليهما لم يقتَض كونَه أفضل منهما . وقد اُعترض المرتضَى هذا بأنّه[2] يَقبحُ تقديمُ المفضول على الفاضل فيما هو أفضلُ منه ، وأنّ تقديم عمرَو بن العاص عليهما فى الإمْرة يَقتضِى أن يكون أفضلَ منهما فيما يَرجِع إلى الإمرة والسّياسة ، ولا يقتضى أفضليّته عليهما فى غير ذلك ، وكذلك القولُ فى أسامة .

---

(١) انظر ص ١٨٢ (٢) د : « فإنه » .

ولقائل أن يقول : إنّ الملوك قد يؤمِّرون الأمراء على الجيوش لوجهين : أحدهما أن يَقصِد الملك بتأمـير ذلك الشخص أن يَسُوسَ الجيشَ ويُدبّره بفضل رأيه وشَيْخُوخته وقديم تجربتِهِ وما عُرِف من يُمْن نَقِيبته فى الحرب وقوْد العساكر ، والثانى أن يؤمِّر على الجيش غلاماً حَدَثا من غلمانه أومن ولدِه أومن أهلِه ، ويأمر الأكابر من الجيش أن يثقِّفوه ويعلِّموه ، ويأمرُه أن يتدبّر بتدبيرهم ، ويرجع إلى رأيهم ؛ ويكونُ قصدُ الملك من ذلك تخريج ذلك الغلام وتمرينَهُ على الإمارة ، وأن يُثبِت له فى نفوس الناس منزلةً ، وأن يُرشِّحَه لجلائل[١] الأمور ومعاظم الشئون ، ففى الوجه الأوّل يَقبُح تقديم المَفضول على الفاضل ؛ وفى الوجه الثانى لا يَقبُح ، فلِم لا يجوز أن يكون تأمير أُسامةَ عليهما من قَبِيل الوجهِ الثانى ؟ والحالُ يَشهَد لذلك ، لأنّ أسامةَ كان غلاماً لم يَبلُغ ثمانىَ عشرة سنةً حين قُبِض النبىّ صلى الله عليه وآله ، فمن أين حصل له من تجربة الحرب ومُمارسة الوقائع وقَوْد الجيش ما يَـكُون به أعرفَ بالإمرة من أبى بـكر وعمر وأبى عبيدة وسعدِ بن أبى وَقّاص وغيرهم !

ومنها قولُ قاضى القُضاة : إنّ السبب فى كون عمرَ فى الجيش أنه أنـكر على عبد الله ابن عيّاش بن أبى رَبيعة تسَخُّطه إمْرة أسامة ، وقال : أنا أُخْرُجُ فى جيش أسامة ؛ فخرج من تلقاء نفسِه تعظيما لأمر رسولِ الله صلّى الله عليه وآله . وقد اعترَضه المرتَضى فقـال : هذا شيء لم نَسمعْه من راوٍ ، ولا قرأناه فى كتاب ؛ وصَدَق المرتضَى فيما قال ، فإنّ هـذا حديثٌ غريب لايُعرَف .

وأمّا قولُ عمرَ : دَعْنى أضربْ عُنقَه فقد نافَقَ ؛ فمنقولٌ مشهورٌ لا محالة ، وإنّما الغريب الّذى لم يُعرَف كونُ عمرَ خرج من تلقاء نفسِه فى الجيْش مُراغمةً لعبد الله بنعيّاش ابن أبى ربيعة ، حيث أَنـكَر ما أنـكَر ؛ ولعلّ قاضى القُضاة سمعه من راوٍ أو نقَـلَه من كتاب ، إلّا أنّا نحن ما وقَفنا على ذلك .

---

(١) ب : « بجلائل » ، وما أثبته من ا ، د (٢) ا : « سخطه »

الطعن الخامس

قالوا : إنّه صلّى الله عليه وآله لم يُوَلِّ أبا بكر الأعمال ووَلَّى غيرَه ، ولمّا ولّاه الحجّ بالناس وقراءةَ سُورة براءةَ على النّاس ،عزَلَه عن ذلك كلّه .وجعَلَ الأمرَ إلى أميرالمؤمنين عليه السلام ، وقال :« لا يؤدّى عنّى إلا أنا أو رجل منّى » ، حتّى يَرجِعَ أبو بكر إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله .

أجابَ قاضى القُضاةفقال : لو سلّمنا أنّه لم يُولّه ،لَمَا دلّ ذلك على نقص ، ولا عَلَى أنّه لم يَصلُح للإمارة والإمامة ، بل لو قيل: إنّه لم يُوَلِّه لحاجته إليه بحضرته ، وإنّ ذلك رفعةٌ له لـكان أقربَ ، لاسيّما وقد رُوِى عنه ما يدلّ على أنهما وَزيراه ، وأنّه كان صلّى الله عليه وآله محتاجا إليهما والى رأيهما ، فلذلك لم يولّهما ، ولو كان للعمل على تركه فضل لـكان عمرُو بنُ العاص وخالدُ بن الوليد وغيرُهما أفضلَ من أكابر الصّحابة ، لأنّه عليه السلام ولّاهما وقدّمهما ، وقد قدّمنا أنّ تولِيتَه هى بحَسَب الصّلاح ، وقد يولّى المفضولُ على الفاضل تارةً والفاضلُ أخرى ، وربّما وُلّى الواحدُ لاستغنائه عنه بحضرته ، وربّما ولّاه لاتّصالٍ بينه و بين من يُولّى عليه ، إلى غير ذلك . ثمّ ادّعى أنّه ولَّى أبا بكر على الموسم والحجّ قد ثبتتْ بلا خلاف بين أهل الأخبار ولم يَصحّ أنّه عزَله ، ولايدلّ رجوعُ أبى بكر إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله مستفِهما عن القِصّة على العَزْل ؛ ثمّ جعل إنكار من أنكَر حجّ أبى بكر فى تلك السنة بالناس كإنكار عَبّاد وطبقتِه أخذ أميرِ المؤمنين عليه السلامُ سورة براءة من أبى بكر . وحكى عن أبى علىّ أنّ المعنى كان فى أَخْذ السُّورة من أبى بكر أنّ من عادة العرب أنّ سيّدا من سادات قبائلهم إذا عقد عقد القوم ، فإنّ ذلك العقد لا ينحلّ إلّا أن يُحلّه هو أو بعضُ سادات قومِه ، فلمّا كان هذا عادتَهم وأراد النبيّ صلّى الله عليه وآله أن يَنبِذَ (١) إليهم عقدَهم ، و ينقُض ما كان بينه وبينهم ، عَلِم

(١) نبذ العقد : نقضه .

أنّه لا ينحلّ ذلك إلّا به أو بسيّد من سادات رَهْطه ، فعَدَل عن أبى بكر إلى أمير المؤمنين المقرَّب فى النّسب . ثمّ ادعى أنّه صلّى الله عليه وآله ولّى أبا بكر فى مَرَضه الصّلاةَ ، وذلك أشرفُ الولايات ، وقال فى ذلك : يأبَى اللهُ ورسولُه والمسلمُون إلّا أبا بكر .

ثمّ اعترَض نفسه بصلاتِه عليه السلام خلفَ عبدِ الرّحمن بنِ عوف . وأجاب بأنّه صلّى الله عليه وآله إنّما صلّى خلفَه ، لا أنّه ولّاه الصلاة وقدّمه فيها . قال : وإنّما قدّم عبد الرحمن عند غَيْبة النبىّ صلّى الله عليه وآله فصلّى بغير أمره ، وقد ضاق الوقتُ ، فجاء النبىّ صلّى الله عليه وآله فصلّى خَلْفه[1] .

اعترض المرتضَى فقال : قد بيّنا أنّ تركَه صلّى الله عليه وآله الولاية لبعض أصحابه مع حضوره وإمكان ولايته والعدول عنه إلى غيره ، مع تَطاوُل الزمان وامتدادِه ، لابدّ من أن تقتضِىَ غَلبةَ الظنّ بأنه لا يَصلُح للولاية ، فأمّا ادّعاؤه أنّه لم يولّه لافتقاره إليه بحضرته وحاجتِه إلى تدبيره ورأيِه ، فقد بيّنا أنه عليه السلام ما كان يَفتِقر إلى رأى أحدٍ لِكمالِه ورُجْحانه على كلّ أحد ، وإنّما كان يُشاوِر أصحابَه على سبيل التّعليم لهم والتأديب ، أو لغير ذلك ممّا قد ذُكِر . وبَعْد ، فكيف استمرّت هذه الحاجة ، واتّصلت منه إليهما حتّى لم يستغنِ فى زمانٍ من الأزمان عن حضورهما فيولّيهما ! وهل هذا إلّا قَدْحٌ فى رأىِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ونسبتهِ إلى أنه كان ممّن يُحتاج إلى أن يُلقّن ويُوقَف على كلّ شىء ، وقد نزّهه اللهُ تعالى عن ذلك ! فأمّا ادّعاؤه أنّ الرواية قد وردتْ بأنهما وَزيراه فقد كان يجب أن يصحّحَ ذلك قبل أن يَعتمده ويحتجّ به ، فإنّا ندفعه عنه أشدّ دفع . فأمّا ولاية عَمرو بن العاص وخالدِ بن الوليد فقد تكلّمنا عليها من قبلُ ، وبيّنا أنّ ولايتَهما تدُلّ على صلاحهما لِمَا وَلِيَاه ، ولا تدُلّ على صلاحهما للإمامة ، لأنّ شرائط الإمامة لم تتكامل فيهما ، وبيّنا أيضا أنّ ولايةَ المَفضول على الفاضل لا تجوز . فأمّا تعظيمه

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٤٢١

و إكباره قولَ مَن يَذهب إلى أنّ أبا بكر عُزِل عن أداءِ السُورة والموسِم جميعا ، وجمعه بين ذلك فى البعد و بين إنــكار عبّاد أن يكون أميرُ المؤمنين عليه السلام أرتجَع سورةَ براءةَ من أبى بكر ؛ فأوّل مافيه أنّا لا ننــكر أن يكون أكثرُ الأخبار واردة بأنّ أبا بكر حَجّ بالناس فى تلك السّنة ؛ إلّا أنّه قد رَوَى قومٌ من أصحابنا خلافَ ذلك ، وأنّ أمير المؤمنين عليــه السلام كان أميرَ المَوسم فى تلك السنة ، وأنّ عَزلَ الرجل كان عن الأمرين معاً . واستــكبار ذلك . وفيــه خلافٌ لا مَعنَى له فأمّا ماحكاه عن عبّاد فإنّا لا نعرفه ، وما نظنّ أحدا يَذهَب إلى مِثله ، وليس يُمــكِنه بإزاءِ ذلك جَحْد مذهب أصحابنا الّذى حكيناه ، وليس عبّاد لو صحّت الروايةُ عنه بإزاء من ذكرناه ، فهو ملئ بالجهالات ودَفْع الضَّرورات . و بعد ، فلو سلّمْنا أنّ ولايةَ الموسِم لم تفسَخ لــكان الــكلامُ باقيا ، لأنه إذا كان ماولى مع تطاوُل الزّمان إلّا هذه الولاية ، ثمّ سُلِب شَطرها ، والأفخم الأعظم منها ، فليس ذلك إلّا تنبيها على ماذكرناه .

فأمّا ماحكاه عن أبى علىّ من أنّ عادةَ العرب ألّا يحلّ ماعَقَده الرئيسُ منهم إلّا هو أو المتقدِّم من رَهْطه ؛ فمعاذَ الله أن يُجرِى النبىّ صلى الله عليه وآله سُنّتَه وأحكامَه على عادات الجاهليّة ، وقد بيّن عليه السلام لمّا رَجَع إليه أبو بكر يسأله عن أخذ السُّورة منــه الحال ، فقال : إنّه أوحِىَ إلىّ ألّا يؤدّىَ عنّى إلا أنا أو رَجــلٌ منّى ، ولم يذكرْ ما ادّعاه أبو علىّ ؛ على أنّ هذه العادَة قد كان يَعرِفها النبىّ صلّى الله عليه وآله قبلَ بَعثِه أبا بكر بسُورة براءة ، فما بالُه لم يَعتمِدْها فى الابتداء ويبعث من يجوز أن يحلّ عقدَه من قومِه !

فأمّا ادّعاؤه ولاية أبى بــكر الصّلاةَ فقــد ذكرْنا فيما تقدّم أنّه لم يُولِّه إيّاها . فأمّا فَصْلُه بين صلاتِه خلَف عبد الرحمن و بين صلاة أبى بــكر بالناس ، فليس بشىء ، لإنّا إذا كنّا قد دَللنا على أن الرسولَ صلّى الله عليه وآله ماقدّم أبا بكر إلى الصّلاة ، فقد

أُستوَى الأمران . و بعد ؛ فأىّ فَرق بين أن يُصلِّى خلفَه و بين أن يولِّيَه و يقدِّمَه ، ونحن نعلم أنّ صلاته خَلفه إقرارٌ لولايته ورضاً بها ، فقد عادَ الأمرُ إلى أنّ عبدَ الرحمن كأنّه قد صلّى بأمره و إذنه ! على أنّ قصّة عبد الرحمن أوكد ، لأنّه قد اُعترَف بأَنَّ الرسولَ صلى خلفَه ، ولم يصلّ خلف أبى بكر ، و إنْ ذهب كثيرٌ من الناس إلى أنّه قدّمه وأَمَره بالصّلاة قبل خُروجِه إلى المسجد وتحامُله .

ثم سأل المرتضَى رحمه الله نفسَه ؛ فقال : إنْ قيل : ليس يَخلُو النبيُّ صلّى الله عليه وآله من أن يكون سَلَّم فى الأبتداء سورةَ براءةَ إلى أبى بكر بأمر الله ، أو باُجتهاده ورأيِه ؛ فإن كان بأمرِ الله تعالى ، فكيف يجوزُ أن يَرتَجعَ منه السّورة قبلَ وقتِ الأداء ، وعندَكم أنّه لا يجوز نَسخُ الشىء قبلَ تَقضّى وقتِ فعلِه ! و إن كان باُجتهادِه صلّى الله عليه وآله ، فعندَكم أنّه لا يجوز أن يَجتهد فيما يجرى هذا المَجرَى !

وأجابَ فقال : إنّه ماسَلَّم السورةَ إلى أبى بكر إلّا بإذنه تعالى ، إلّا أنه لم يأمُرْه بأدائها ، ولا كلّفه قراءتَها على أهل الموسم ، لأنّ أحدا لم يُمكنه أن يَنقُل عنه عليه السلام فى ذلك لفظ الأمر والتّكليف ، فكأنّه سلّم سورةَ براءة إليه لتُقرأَ على أهل الموسم ، ولم يُصرِّح بذكر القارئ المُبلِّغ لها فى الحال ؛ ولو نُقِل عنه تصريحٌ لجاز أنْ يكون مَشروطاً بشَرْط لم يَظهَر .

فإن قيل : فأىّ فائدة فى دَفْع السورة إلى أبى بكر وهو لا يريد أن يؤدِّيَها ، ثمّ ارتجاعها منه ؟ وهلاّ دُفعتْ فى الأبتداء إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام ! قيل : الفائدة فى ذلك ظهورُ فضل أميرِ المؤمنين عليه السلام ومَرتبتِه ، وأنّ الرجلَ الّذى نُزِعت السُورة عنه لا يَصلُح لِمَا يصلُح له ، وهذا غَرضٌ قوىٌّ فى وُقوع الأمر على ماوَقَع عليه [1] .

* * *

(١) الشافى ٤٢١ ، ٤٢٢

قلت : قد ذكرنا فيما تقدّم القولَ فى تولية الملك بعض أصحابه ، وتركِ تولية بعضهم ، وكيفية الحال فى ذلك ؛ على أنه قد رَوَى أصحابُ المغازى أنه أمّر أبا بكر فى شعبان من سنة سبع على سَرِيّة بعثها إلى نجْد فلقوا جمعاً من هَوازن فبيّتوهم[1] ؛ فرَوَى إياسُ بنُ سَلمة عن أبيه ؛ قال : كُنت فى ذلك البعث ، فقتلتُ بيدى سبعةً منهم ، وكان شعارُنا : « أَمِتْ أَمِتْ » ، وقُتِل من أصحابِ النبى صلى الله عليه وآله قومٌ ، وجُرح أبو بكر وارتُثّ[2] وعاد إلى المدينة ؛ على أن أُمَراء السَّرايا الذين كان يبعثهم صلّى الله عليه وآله كانوا قوما مشهورين بالشجاعة ولقاء الحروب ، كمحمد بنِ مسلمة ، وأبى دُجَانة ، وزيد بن حارثة ونحوهم ، ولم يكن أبو بكر مشهوراً بالشجاعة ولقاء الحروب ، ولم يكن جَبانا ولا خوّارا[3] وإنما كان رجلا مجتمعَ القلب عاقلا ، ذا رأى وحُسْن تدبير ، وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يَترُكُ بعثه فى السرايا ، لأنّ غيره أنفع منه فيها ، ولا يدلّ ذلك على أنه لا يصلحُ للإمامة ، وأنّ الإمامة لا تحتاج أن يكونَ صاحبُها من المشهورين بالشجاعة ، وإنما يحتاج إلى ثبات القلب ، وألّا يكون هَلِعاً طائرَ[4] الجنانَ . وكيف يقول المرتضى : إنه صلّى الله عليه وآله لم يكن محتاجاً إلى رأى أحد ، وقد نقل الناسُ كلّهم رجوعَه من رأى إلى رأى عند المَشورة ، نحو ما جرى يومَ بدر من تغيُّر المنزل لما أشار عليه الُحبابُ بنُ المنذر ، ونحو ماجرى يوم الخنْدق من فَسْخ رأيه فى دفع ثُلثِ تمر المدينة إلى عُيَيْنة بنُ حِصْن ليَرجِع بالأحزاب عنهم ، لأجل ما رآه سعدُ بنُ معاذ وسعدُ بن عُبادة من الحرب ، والعدول عن الصّلح ، ونحو ما جرى فى تلقيح النخل بالمدينة وغير ذلك ! فأمّا ولايةُ أبى بكر الموسمَ فأكثرُ الأخبار على ذلك ، ولم يَروِ عزلَه عن الموسم إلّا قومٌ من الشيعة . وأمّا أنكره

---

(١) بيتوهم ؛ أى دبروا أمرهم

(٢) ارتث ، على البناء للمجهول : حمل من المعركة رثيثاً ؛ أى جريحاً وبه رمق .

(٣) الخوار : الضعيف . (٤) الهلع : أفحش الجزع .

المرتضى من حال عَبّاد بن سليمانَ ودفعِه أن يكون على أَخْذ براءة من أبى بكر واستغرابه ذلك عجَب ، فإنّ قولَ عَبّاد قد ذهب إليــه كثيرٌ من الناس ، ورَوَوْا أَنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لم يدفَع براءة إلى أبى بكر ، وأنه بعد أن نفذ أبو بكر بالحجيج أتبَعه عليّا ومعه تسعُ آياتٍ من براءة ، وقد أمره أن يقرأها على الناس ويؤذِنهم بنقْض العهد وقطع الدنيّة ، فانصرف أبو بكر إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فأعاده على الحجيج ، وقال له : أنت الأمير ، وعلىٌّ المبلِّغ ، فإنه لا يبلِّغ عنّى إلا أنا أو رَجلٌ منى ، ولم ينكِر عبّاد أمر براءة بالكلّيّة ، وإنما أنكر أن يكون النبيّ صلى الله عليه وآله دَفعها إلى أبى بكر ثم انتزَعها منه ، وطائفةٌ عظيمة من المحدّثين يَروُون ما ذكرْناه ، وإن كان الأكثر الأظهرُ أنه دفعها إليه ثم أتبَعه بعلىّ عليــه السلام فانتزعها منه ؛ والمقصود أنّ المرتضَى قد تعجّب مما لا يُتعجّب مِن مِثله ، فظنّ أن عبّادا أنكر حديث براءة بالكلّية ، وقد وقَفتُ أنا على ما ذكَرَه عبّاد فى هذه القضية فى كتابه المعروف بكتاب "الأبواب" ، وهو الكتابُ الذى نقَضَه شيخُنا أبو هاشم ،فأمّا عذر شيخنا أبى علىّ ، وقوله : إن عادة العرب ذلك ، واعتراض المرتضى عليه ، فالذى قاله المرتضى أصحّ وأظهر ، وما نُسِب إلى عادة العرب غيرُ معروف ، وإنمــا هو تأويلٌ تأوّل به متعصبو أبى بكر لانتزاع براءة منه ، وليس بشىء . ولستُ أقول ما قاله المرتضى من أنّ غرَض رسولِ الله صلى الله عليه وآله إظهارُ أنّ أبا بكر لا يصلح للأداء عنه ، بل أقول : فَعَل ذلك لمصلحة رآها ، ولعلّ السبب فى ذلك أن عليّا عليه السلام من بنى عبد مناف وهم جمرةُ قريش بمكة ، وعلىٌّ أيضا شجاع لا يُقام له [(١)] ، وقد حصل فى صُدورِ قريش منه الهيبــة الشديدة والمخافة العظيمة ، فإذا حصل مِثل هذا الشجاع البطل وحوله من بنى عمه وهم أهلُ العزّة والقوّة والحميّة ، كان

(١) ب : « لا يقام » تحريف .

أدعى إلى نجاته من قريش ، وسلامة نفسه وبلوغِ الغرض من نَبْذ العهد على يده ؛ ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وآله فى عمرة الحدَيبيَة بعث عثمان بن عفان إلى مكة يطلب منهم الإذن له فى الدخول ، وإنما بعثه لأنه من بنى عبد مناف ، ولم يكن بنو عبد مناف ـ وخصوصاً بنى عبد شمس ـ ليمكنوا من قتْله ، ولذلك حمله بنو سعيد بن العاص على بعير يوم دَخَل مكة وأحدَقُوا به مُسْتلئمين[١] بالسلاح ، وقالوا له : أقبل وأَدْبِر ، ولا تخَفْ أحداً ، بنو سعيد أعزّة الحرَم . وأما القول فى تولية رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر الصّلاة ، فقد تقدّم ، ومارامه قاضى القضاة من الفَرْق بين صلاة أبى بكر بالناس وصلاة عبد الرحمن بهم ، مع كون رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى خلفه ضعيفٌ ، وكلام المرتضى أقوى منه . فأما السؤال الذى سأله المرتضى من نفسه فقوىّ ، والجواب الصحيحُ أن بعث براءة مع أبى بكر كان باجتهاد من الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يكن عن وَحْى ولا من جملة الشرائع التى تُتَلقّى عن جبرائيل عليه السلام ، فلم يقبُح نَسخُ ذلك قبلَ تقضّى وقت فعله ، وجواب المرتضى ليس بقوىّ ، لأنه من البعيد أن يُسلِّم سورة براءة إلى أبى بكر ولا يقال له : ماذا تصنع بها ؟ بل يقال : خذْ هذه معك لا غير. والقولُ بأن الكلام مشروطٌ بشرط لم يظهر خلاف الظاهر ، وفتح هذا الباب يُفسِد كثيرا من القواعد .

* * *

الطعنُ السادس

إن أبا بكر لم يكن يعرف الفقه وأحكام الشريعة ، فقد قال فى الكَلَالة[٢] : أقول

---

(١) المستلئم : لابس اللأمة .

(٢) الكلالة : من لا ولد له ولا والد ، وما لم يكن من النسب لى .

فيها برأيى ، فإن يكنْ صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنّى[١] ، ولم يعرف ميراثَ الجد ، ومن حالُه هذه لا يَصلُح للامامة .

أجاب قاضى القضاة بأن الإمام لا يجب أن يعلم جميع الأحكام ، وأنَّ القَدْر الذى يَحتاج إليه هو القَدْر الذى يحتاج إليه الحاكمُ ، وأنّ القول بالرأى هو الواجبُ فيما لا نَصّ فيه ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام بالرأى فى مسائل كثيرة .

اعترض المرتضى فقال : قد دللنا على أنّ الإمام لا بدّ أن يكون عالما بجميع الشرعيّات ، وفرّقنا بينه وبين الحاكم ، ودللنا على فساد الرأى والاجتهاد . وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فلم يقل قطُّ بالرأى ، وما يُروَى من خبر بيع أمّهات الأولاد غيرُ صحيح ، ولو صح لجاز أن يكون أراد بالرأى الرجوع إلى النصوص والأدلة ، ولا شُبهة عندنا أنّ قوله كان واحدا فى الحالين[٢] ، وإن ظهر فى أحدهما خلاف مذهبه للتقيّة[٣] .

* * *

قلتُ : هذا الطعن مبنىٌّ على أمرين : أحدُهما هل من شرط الإمامة أن يعلم الإمامُ كلّ الأحكام الشرعية أم لا ؟ وهذا مذكورٌ فى كتبنا الكلامية ؛ والثانى هو القولُ فى الاجتهاد والرأى حق أم لا ؟ وهذا مذكور فى كتبنا الأصولية .

* * *

الطعن السابع

قصّة خالدِ بنِ الوليد وقتلِه مالكَ بن نوَيرة ومضاجَعتِه امرأته من ليلته ، وأنّ أبا بكر

---

(١) الشافى : « فمنى ومن الشيطان » ، ونحو قوله وقد سئل عن قوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ، فلم يعرف معناه ، والأب : المرعى فى اللغة ، لا يذهب على أحد له أدنى أنس بالعربية ، ونحو ميراث الجدة وأنه لم يعرف الحكم فيه ، ونظائر ذلك كثيرة معروفة . (٢) ب : « القولين » .

(٣) انظر الشافى ٤٢٢ .

تَرْكَ إقامةَ الحدّ عليه ، وزعم أنّه سيفٌ من سيوف الله سَلّه الله على أعدائه ، مع أنّ الله تعالى قد أوجَبَ القَوَد وحَدّ الزّنا عموما ، وأنّ عمرَ نبّهه وقال له : اقتُله ، فإنه قَتَل مُسلِما .

أجاب قاضِى القُضاة فقال : إنّ شيخنا أبا علىّ قال : إنّ الرِّدّة ظهرتْ من مالكِ بن نُوَيْرة ، لأنّه جاء فى الأخبار أنه ردّ صدقاتِ قومِه عليهم لمّا بلغه موتُ رسول الله صلى الله عليه وآله كما فَعَله سائرُ أهل الرّدّة فاستحقّ القتل . فإن قال قائل : فقد كان يصلّى ، قيل له : وكذلك سائرُ أهل الرّدة ، وإنما كَفَروا بالامتناع من الزكاة ، واعتقادِهم إسقاط وجوبها دونَ غيره . فإن قيل : فلِمَ أنكَرَ عمر ؟ قيل : كان الأمرُ إلى أبى بكر ، فلا وجهَ لإنكار عمرَ ، وقد يجوز أن يَعلَمَ أبو بكر من الحال مايَخفَى على عمر . فإن قيل : فما معنى مارُوِى عن أبى بكر من أنّ خالدا تأوّل فأخطأ ، قيل : أراد عجَلته عليه بالقَتْل ، وقد كان الواجب عندَه على خالد أن يَتوقّف للشّبهة . واستدلّ أبو علىّ على رِدّته بأنّ أخاه متمِّم بنَ نُويرة لمّا أنشد عمرَ مَرثِيَّته أخاه قال له : وَدِدتُ أنّى أقولُ الشعر فأرثى أخى زَيْدا بمثلِ مارَثيتَ به أخاك ! فقال متمّم : لو قُتِل أخى على مِثل ماقُتِل عليه أخوك مارَثَيْتُهُ ، فقال عمر : ماعزّانى أحدٌ بمِثل تَعزِيَتِك ، فدَلّ هذا على أنّ مالكا لم يُقتَل على الإسلام كما قُتِل زيد .

وأجاب عن تَزْويج خالدٍ بامرأته بأنّه إذا قُتِل على الردّة فى دار الكُفْر جاز تزويج امرأتِه عند كثيرٍ من أهل العلم ، وإن كان لا يجوز أن يَطَأَها إلّا بعد الاستبراء .

وحكَى عن أبى علىّ أنّه إنّما قَتَله لأنّه ذَكَر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : «صاحبك» ، وأَوهَم بذلك إنّه ليس بصاحب له ، وكان عندَه أنّ ذلك ردّة وعلم عند المشاهَدة

المَقصد ، وهو أميرُ القوم ، فجاز أن يَقتُله وإن كان الأولى ألّا يَستعجِل ، وأن يكشف الأمرَ فى رِدّته حتّى يتّضح ، فلهذا لم يقتله أبو بكر به . فأمّا وطؤه لأمرأته فلم يَثبُت ، فلا يصحّ أن يُجعل طَعناً فيه [1] .

اعتَرض المرتضَى فقال : أمّا منع خالدٍ فى قتل مالك بنِ نُوَيرَة واستباحةِ امرأته وأموالِه لنسبتِه إيّاه إلى ردّة لم تظهَر منه ، بل كان الظاهرُ خلافَها من الإسلام ، فعظيم. ويجرى مجراه فى العِظم تغافُل من تَغافَل عن أمره ، ولَم يقُم فيه حُكمَ الله تعالى ، وأقرّه على الخطأ الّذى شَهِد هو به على نفسه ، ويَجرِى مجراها مَن أمكَنَه أن يَعلَمَ الحال فأهمَلها ولم يتصفّح مارُوِى من الأخبار فى هذا الباب وتعصّب لأسلافِه ومذهبه . وكيف يجوز عند خصومِنا على مالك وأصحابِه جَحْد الزّكاة مع المقام على الصّلاة ، وهما جميعا فى قَرَن [2] ! لأنّ العِلمِ الضرورىّ بأنّهما من دينه عليه السلام وشريعتِه على حدّ واحد ، وهل نسبةُ مالكٍ إلى الرّدّة مع ماذكرناه إلّا قدحٌ فى الأصول ونقضٌ لما تضمّنَتْه من أن الزكاة معلومةٌ ضرورةً من دينه عليه السلام . وأعجَبُ من كلّ عجيب قولُه : وكذلك سائر أهل الرّدة ، يعنى أنهم كانوا يصلّون ويَجحَدون الزّكاة ، لأنّا قد بيّنا أنّ ذلك مستحيلٌ غيرُ ممكِن ! وكيف يصحّ ذلك ، وقد رَوَى جميعُ أهل النّقل أن أبا بكر لمّا وَصّى الجيشَ الّذين أنفذَهم بأن يؤذِّنوا ويُقيمُوا فإن أذّن القومُ كأذانهم وإقامتِهم كَفّوا عنهم ، وإن لم يَفعَلوا أغارُوا عليهم ، فجعل أَمارةَ الإسلام والبراءةَ من الرّدة الأذانَ والإقامة ! وكيف يُطلِق فى سائر أهل الرّدة ما أَطلَقه من أنّهم كانوا يصلّون ، وقد علِمنا أنّ أصحابَ مُسَيلِمة وطُلَيحة وغيرهما ممّن كان ادّعى النبوّة وخَلَع الشّريعة ما كانوا يرَوْن الصلاة ولاشيأ ممّا جاءت به شريعتُنا. وقصّة مالك معروفةٌ عند من تأمّل كتبَ السِّيَر والنَّقل ، لأنه كان على صَدَقات قومِه بنى

---

(١) نقله الشافى فى المرتضى ٤٢٢ ، ٤٢٣

(٢) القرن : الحبل ؛ والكلام على الاستعارة

يَرْبوع والياً من قِبَل رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ولمّا بلغته وفاةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه أمسَكَ عن أخذ الصدقة من قومه وقال لهم : تربّصوا بها حتّى يقومَ قائمٌ بعدَ النبيّ صلّى الله عليـه وسلم ، وننظرَ ما يـكون من أمرِه ، وقد صرّح بذلك فى شعره حيث يقول :

وقال رجالٌ سَـدّد اليومَ مالِكٌ	وقال رجالٌ : مالِكٌ لم يسَدّدِ
فقلتُ : دَعونى لا أبَا لأبيـكُمُ	فلم أُخطِ رأياً فى المُقام ولا النّدِى
وقلتُ : خذوا أموالَـكم غيرَخائف	ولا ناظرٍ فيما يجىء به غَـدِى
فدونَـكُموها إنّمـا هى مالُـكُمْ	مصوّرة أخـلاقها لم تُجدّدِ
سأجعلُ نَفْسى دونَ ماتَحْذَرونه	وأُرهِنُـكم يوماً بمـا قُلتُه يَدِى
فإن قامَ بالأمر المجـدّد قائمٌ	أَطعْنا وقلنـا : الدّينُ دينُ محمّدِ

فصرّح كما تَرَى أنّه أستبقى الصدقَة فى أيدِى قومِه رِفْقا بهم وتقرُّبا إليهم ، إلى أن يقومَ بالأمر مَنْ يدفعُ ذلك إليه . وقد رَوَى جماعةٌ من أهل السِّيَر ، وذكره الطبريّ فى تاريخه : أنّ مالـكا نَهَى قومَه عن الأجتماع على مَنْع الصـدقات وفرّقهم ، وقال : يابنى يَرْبوع ، إنّا كنّا قد عصَيْنا أمراءنا إذ دَعوْنا إلى هـذا الدّين ، و بطّأنا الناسَ عنه ، فلم نُفلِح ولم نَنْجَح ، و إنّى قد نظرتُ فى هذا الأمر فوجدتُ الأمرَ يتأتّى لهؤلاء القوم بغير سياسة ، و إذا أمر لا يسوسُه الناس ؛ فإيّاكم ومُعاداة قومٍ يُصنَع لهم . فتفرّقوا على ذلك إلى أموالهم ، ورجع مالكٌ إلى منزله ، فلمّا قَدِم خالدٌ البُطاح بَثّ السرايا وأمرَهم بداعِية الإسلام وأن يأتُوه بكلّ من لم يُجب ، وأمرَهم إن أمتَنَع أن يقاتلوه ، فجاءته الخيـلُ بمالك بن نُوَيرة فى نفرٍ من بَنى يَرْبوع ؛ وأُختَلفَ السريّةُ فى أمرهم ، وفى السرّية أبو قَتادة الحارثُ بن ربعىّ ، فـكان ممّن شهد أنّهم أذّنوا وأقاموا وصَلّوا ، فلمّا اختلفوا فيهم أمرَ

بهم خالد فحبِسُوا ، وكانت ليلةً باردة لايقوم لها شيء ، فأمر خالدٌ منادِياً يُنادِى: « أدفِئوا[1] أُسرَاءكم »[2] ، فظَنّوا أنّهم أمِرُوا بقَتْلهم ، لأنّ هذه اللّفظة تُستَعمل فى لغة كِنانَة للقَتْل ، فقَتلَ ضِرارُ بنُ الأزْوَر مالـكا ، وتزوّج خالدٌ زوجتَه أمّ تميم بنت المِنْهال[3] .

وفى خبر آخرَ أنّ السريّة التى بعث بها خالدٌ لمّا غشيت القوم تحتَ اللّيل راعُوهم ، فأَخذَ القومُ السلاح ؛ قال : فقلنا : إنا المسلمون ، فقالوا : ونحن المسلمون ، قلنا : فما بالُ السِّلاح معكم ! قلنا : فضعوا السلاح ؛ فلمّا وَضَعوا السلاح رَبَطوا أُسارى فأتَوْا بهم خالدا . فحدّث أبو قَتادَةَ خالدَ بن الوليد أنّ القوم نادَوْا بالإسلام ، وأنّ لهم أمانًا ، فلم يلتَفِت خالدٌ إلى قولهم وأمَرَ بقَتْلهم ، وقسم سَبْيَهم ، وحَلَف أبو قتادة ألّا يسير تحت لواء خالد فى جيشٍ أبداً ، وركِب فرسَه شاذّا إلى أبى بكر ، فأخبَره الخبر ، وقال له : إنى نَهيتُ خالدا عن قتله ، فلم يَقبَل قَوْلِى ، وأخذ بشهادة الأعراب الّذين غرضُهم الغنائم ، وإنّ عمر لمّا سمع ذلك تكلّم فيه عند أبى بكر فأكثَر وقال : إنّ القصاص قد وَجَب عليه .

ولمّا أقبل خالدُ بنُ الوليد قافلا دَخَل المسجدَ وعليه قَباء له عليه صَدَأ الحديد ، مُعْتجرا[4] بعِمامة له قد غرَز فى عمامته أسهُما ، فلمّا دخل المسجدَ قام إليه عمرُ فنزَع الأسهم عن رأسه فحطّمها ، ثم قال له : ياعدوَّ نفسِه ، أعدَوْتَ على امرئٍ مُسلم فقتلتـه ، ثمّ نزَوْتَ على امرأته ! واللهِ لنَرْجُمَنّك بأحجارك . وخالدٌ لا يكلّمه ، ولا يظنّ إلا أنّ رأىَ أبى بكر مثلُ رأيه حتّى دخل إلى أبى بكر واعتذر إليـه بعُذره وتجاوز عنـه ، فخرج خالدٌ وعمرُ جالسٌ فى المسجد فقال : هَلُمّ إلىّ يابن أمِّ شَمْلة ، فعرَف عمرُ أنّ أبا بكر قد رَضِىَ عنه ، فلم يكلّمه ، ودخل بيته[5] .

وقد رُوِى أيضا أنّ عمر لمّا وُلِّىَ جَمَع من عشيرةِ مالكِ بنِ نُوَيْرة مَنْ وَجَد منهم

---

(١) ب : « ادفوا » ، صوابه فى د والطبرى (٢) الطبرى : « أسراءكم »
(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٨ (المعارف) ، مع تصرف واختصار
(٤) اعتجر العمامة : لبسها (٥) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٩ ، ٢٨٠

وأُسترجِعَ ما وَجِد عند المسلمين من أموالِهم وأولادِهم ونسائهم ، فردّ ذلك عليهم جميعا مع نَصيبه كان منهم . وقيل : إنّه ارتجع بعض نسائِهم من نَواحى دِمَشقَ ، و بعضهنّ حوامل ، فردّهن على أزواجهنّ . فالأمر ظاهرٌ فى خطأ خالد ، وخطإ من تجاوَزَ عنه . وقول صاحب الكتاب : إنّه يجوز أن يَخفَى عن عُمرَ ما يظهر لأبى بكر ليس بشىء لأنّ الأمرَ فى قصّة خالد لم يكن مشتبها ، بل كان مُشاهَدا معلوما لكلّ من حَضَره؛ وما تأوّل به فى القَتْل لا يُعذَر لأجله ، وما رأَيْنا أبا بكر حَكَم فيه بُحكم المتأوّل ولا غيره ، ولا تلافَى خطأه وزَلَله ، وكونه سَيْفا من سُيوف الله على ما ادّعاه لا يسقط عنه الأحكام ، و يبرّئه من الآثام . وأمّا قول متمّم : لو قُتِل أخِى على ما قُتِل عليه أخوك لما رَثَيْتُه ، لا يدلّ على أنه كان مرتدّا ، فكيف يَظُنّ عاقلٌ أنّ متمّما يعترف بردّة أخيه وهو يطالب أبا بكر بدَمِه والاقتصاص من قاتليه ، وردّ سبيه ، وأنه أراد فى الجملة التقرّب إلى عمرَ بتقريظ أخيه ! ثمّ لو كان ظاهر هذا القول كباطنه لكان إنّما يقصد تفضيل قِتْلةِ زَيْد على قِتْلة مالك ، والحال فى ذلك أظهر ، لأنّ زيدا قُتِل فى بعث المسلمين ذابّا عن وجُوههم ، ومالكٌ قُتِل على شُبْهة ، و بين الأمرين فرْق .

وأمّا قولُه فى النبىّ صلّى الله عليه وآله : «صاحبُك» فقد قال أهل العلم : إنّه أراد القرشيّة ، لأنّ خالدا قرشىّ . و بعد ، فليس فى ظاهر إضافته إليه دلالة على نفيه له عن نفسه ، ولو كان علم من مَقصِده الأُستخفاف والإهانة على ما ادّعاه صاحبُ الكتاب لوَجَب أن يَعتذِر خالدٌ بذلك عند أبى بكر وعمرَ و يَعتذر به أبو بكر لمّا طالبه عمرُ بقَتْله ، فإنّ عمرَ ما كان يَمْنع من قتل قادح فى نبوّة النبىّ صلى الله عليه وآله ، وإنْ كان الأمر على ذلك فأىّ معنى لقول أبى بكر : تأوّل فأخطأ ! وإنّما تأوّل فأصاب إن كان الأمر على ما ذكر[1] .

***

(١) الشافى ٤٢٢ ، ٤٢٣

قلت : أمّا تعجّب المرتضى من كون قومٍ منعوا الزكاة وأقاموا على الصلاة ودعْواه أنّ هذا غير ممكن ولا صحيح ، فالعجب منه كيف يُنْكر وقوع ذلك ، وكيف ينكر إمكانه ! أما الإمكان فلأنه لا ملازمة بين العبادتين إلاّ من كونهما مقترنَتيْن فى بعض المواضع فى القرآن ، وذلك لا يُوجب تلازمهما فى الوجود ، أو من قوله : إنّ الناس يعلمون كون الزكاة واجبة فى دين الإسلام ضرورة ، كما يعلمون كون الصلاة فى دين الإسلام ضرورة ، وهذا لا يمنع اعتقادهم سُقوط وجوب الزكاة لشبهة دخلت عليهم . فإنهم قالوا : إن الله تعالى قال لرسوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ[٢] ﴾ قالوا : فوصف الصدقة المفروضة بأنها صدقة من شأنها أن يطهّر رسول الله صلى الله عليه وآله الناسَ ويزكّيهم بأخذِها منهم ، ثم عقب ذلك بأنْ فرض عليه مع أخْذ الزكاة منهم أن يصلّيَ عليهم صلاةً تكون سكنا لهم . قالوا : وهذه الصّفات لا تتحقق فى غيره لأن غيره لا يطهّر الناسَ ويزكّيهم بأخذ الصدقة ، ولا إذا صلى على الناس كانت صلاته سَكَنا لهم ، فلم يجب علينا دفعُ الزكاة إلى غيره . وهذه الشبهة لأننا فى كون الزكاة معلوما وجوبُها ضرورة من دين محمد صلى الله عليه وآله ، لأنهم ما جَحدوا وجوبها ، ولكنهم قالوا : إنه وجوبٌ مشروط ؛ وليس يُعلَم بالضرورة انتفاء كونها مشروطة ، وإنما يُعلَمَ ذلك بنظر وتأويل ، فقد بان أنّ ما ادّعاه من الضرورة ليس بدالّ على أنه لا يمكن أحدا اعتقاد نفى وجوب الزكاة بعد موت الرسول ، ولو عرِضَت مِثل هذه الشبهة فى صلاة لصحّ لذاهب أن يَذهب إلى أنها قد سقطت عن الناس ؛ فأمّا الوقوع فهو المعلوم ضرورة بالتواتر ، كالعِلْم بأن أبا بكر وَلِى الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله ضرورة بطريق التواتُر ، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر فى كُتب التواريخ

---

(١) سورة التوبة ١٠٣

فإنها تشتمل من ذلك على ما يشفى وَيكفى . وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى التاريخ الكبير بإسنادٍ ذكره: إنّ أبا بكر أقام بالمدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وتوجيهه أسامة فى جيشه إلى حيث قُتِل أبوه زيد بن حارثة لم يحدث شيئاً ، وجاءته وفود العَرَب مرتدّين يُقِرّون بالصلاة ويمنعون الصدقة ، فلم يقبل منهم وَردّهم ، وأقام حتى قدم أُسامة بعد أربعين يوما من شُخوصه ، ويقال : بعد سَبْعين يوما[1] .

وروى أبو جعفر قال : امتنعت العربُ قاطبة من أداءِ الزّكاة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله إلّا قريشا وثَقِيفا[2] .

وروى أبو جعفر، عن السّرىّ[3] عن شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عُرْوة ، عن أبيه، قال : ارتدّت العربُ وَمنَعت الزكاة إلّا قريشا وثقيفا ، فأما هوازن فقدّمتْ رِجْلا وأخّرتْ أخرى ، أمسكوا الصدقة[4] .

وروى أبو جعفر ، قال : لمـا مَنعت العربُ الزكاة كان أبو بكر ينتظر قدوم أُسامة بالجيش ، فلم يحارِب أحدًا قبل قدومِـه إلا عَبْسا وذُبْيان ، فإنه قاتلهم قبل رجوعِ أُسامة[5] .

وروى أبو جعفر؛ قال : قدِمتْ وفودٌ من قبائل العرب المدينة، فنزَلوا على وجوهِ الناس بها ، ويحمِّلونهم إلى إبى بكر أن يقيموا الصّلاة وألّا يُؤتوا الزّكاة ، فعزَم اللهُ لأبى بكر على الحقّ ، وقال : لو مَنَعونى عِقَال بعيرٍ لجاهدْتُهم عليه[6] .

وروى أبو جعفر شِعْرا للخطيل[7] بن أوْس، أخى الحُطَيْئة فى معنى مَنْع الزكاة ، وأن

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ١٧٠

(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٢

(٣) ب : « السدى »؛ صوابه فى ا ،د وتاريخ الطبرى

(٤) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٢

(٥) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٣

(٦) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٤ . والعقال : الحبل الذى كان يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى الصدقة .

(٧) فى الأصول : « الحطل » ، وصوابه من تاريخ الطبرى .

أبا بكر رَدّ سؤال العرب ولم يُجِبْهم ، من جُملتِه :

أطعْنَا رسولَ الله إذْ كان بيننَا ... فيا لَعِبادَ الله ما لأبى بكْرِ [١] !

أيُورِثُها بكرٌ إذا ماتَ بعدَه ... وتلك لعمرُ الله قاصمةُ الظَّهرِ

فهلاّ رددْتُم وفدنا بإجابةٍ ... وهلاّ حسِبْتم منه راعيةَ البِكْرِ

فإنّ الذى سالوكُم فمنعتمُ ... لكالتمرأوأحْلَى لحلف بنى فِهْرِ [٢]

وروى أبو جعفر قال : لما قَدِمت العربُ المدينة على أبى بكر فكلّموه فى إسقاط الزكاة ، نزلوا على وجوه الناس بالمدينة فلم يبق أحدٌ إلاّ وأنزل عليه ناساً منهم ، إلا العباس ابن عبد المطلب ، ثم اجتمع إلى أبى بكر المسلمون ، فخوّفوه بأس العَرَب واجتماعَها . قال ضِرار بنُ الأزور : فما رأيتُ أحداً — ليس رسول الله أملأ — بحَرْب شَعْواء من أبى بكر فجعلنا [٣] نخوفه [٤] ونروّعه ، وكأنما إنما نخبره بما له لا ما عليه ، واجتمعت كلمة المسلمين على إجابة العرب إلى ما طلبتْ ، وأبى أبو بكر أن يفعل إلاّ ما كان يفعله رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأن يأخذ إلا ما كان يأخذُ ، ثم أجّلهم يوماً وليلة ، ثم أمرَهم بالانصراف ، وطاروا إلى عشائرهم [٥] .

وروى أبو جعفر، قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم بعث عمرو بن العاص إلى عُمان قبل موته ، فماتَ وهو بعُمان فأقبل قافلاً إلى المدينة فوجد العرب قد منعت الزكاة ، فنزل فى بنى عامر على قُرّة بن هبيرة ، وقرّة يقدِّم رِجْلاً و يؤخر أخرى ، وعلى ذلك بنو عامر كلّهم ، إلا الخواصّ . ثم قَدِم المدينة ، فأطافت به قريش ، فأخبرهم أن العساكر مُعسكِرة حولهم ، فتفرّق المسلمون ، وتحلّقوا حَلَقا حَلقا ، وأقبل عمر بن الخطاب ، فمرّ بحَلْقة

(١) أورد صاحب الأغانى البيت الأول والثانى (٢ : ١٥٧ — طبعة دار الكتب) ونسبهما إلى الحطيئة
(٢) الطبرى ٣ : ٢٤٦ ، وفيه : « أو أحلى إلى من التمر » .
(٣) ب : « يجعلنا » ، وصوابه من الطبرى ، د (٤) الطبرى : « نخبره »
(٥) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٨

وهم يتحدثون فيما سَمِعوا من عمرو ، وفى تلك الحَلْقة علىّ وعثمانُ وطلحهُ والزبير وعبد الرحمن ابنُ عوف وسعد ، فلما دنا عمرُ منهم سَكَتوا ، فقال : فى أىّ شىء أنتم ؟ فلم يُخبروه ؛ فقال : ما أعلمنى بالذى خلَوْتم عليه ! فغضب طلحةُ وقال : الله يابن الخطاب ! إنّك لتعلم الغيب ! فقال : لا يعلم الغيب إلا الله ، ولكنْ أظُنّ قلتم : ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألّا يقرّوا بهذا الأمر . قالوا : صدقت ، فقال : فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا والله منكم على العرب أخوَفُ منّى عليكم من العرب (١) .

قال أبو جعفر : وحدّثنى السرّىّ ، قال : حدّثنا شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : نزل عَمرو بن العاص بمُنصَرَفه من عُمَانَ بعد وفاة رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم بقُرّة بن هبيرة بن سَلَمة بن يَسِير ، وحولَه عساكرُ من أفنائهم ، فذَبَح له ، وأكرَم منزلتَه ، فلمّا أراد الرِّحلة خلاَ به وقال : ياهذا ؛ إنّ العرب لا تَطِيب لكم أنفسا بالإتاوة ، فإن أنتم أعفَيْتموها مِنْ أخْذ أموالِها فستَسْمع وتُطِيع ، وإن أبَيْتم فإنّها تجتمع عليكم ؛ فقال عمرو : أتُوعِدنا بالعرب وتخوّفنا بها ! موعدُنا حِفْشُ أمّك ، أما والله لأوطئنّه عليك الخيل ، وقدم على أبى بكر والمسلمين فأخبَرَهم (٢) .

ورَوَى أبو جعفر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد فرّق عمّالَه فى بنى تميم على قَبْض الصدقات فجعل الزِّبرِقانَ بنَ بدر على عَوْف والرِّباب ، وقيس بن عاصم على مُقاعِس والبطون ، وصَفْوان بن صَفْوان وسَبْرة بن عمرو على بنى عمرو ، ومالك بنُ نُوَيرة على بنى حنظلة ، فلمّا تُوفّى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ضَرَب صفوانُ إلى أبى بكر حين وَقَع إليه الخبرُ بموت النبىّ صلّى الله عليه وسلم بصدَقات بنى عمر ، وبما وَلِىَ منها ، وما ولى سَبْرة ، وأقام سَبْرة فى قومه لحدَثٍ إن نابَ ، وأطرَق قيسُ بنُ عاصم ينظُر ما الزِّبرقان صانع ؟ فكان له عدوّا ، وقال : وهو يَنتظِرُه وينظر مايَصنع : وَيْلى عليه ! ماأدرِى ماأصنع إنْ أنا

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٨ ، ٢٥٩

(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٩

بايعتُ أبا بكر وأتيته بصَدَقات قومى خلّفنى فيهم فساءنى عندهم ، وإن رددتُها عليهم فليأتينّ أبا بكر فيسوءنى عندَه ، ثمّ عزم قيسٌ على قسمتِها فى مُقاعِس والبُطون ، ففعل وعَزَم الزّبرقان على الوَفاء ، فأتبع صَفْوان بصَدَقات عَوْف والرّباب حتى قَدِم بها المدينة وقال شعرا يُعرِّض فيه بقَيْس بن عاصم ، ومن جملتِه :

وفيتُ بأذْوَادِ الرّسول وقد أبَتْ سُعاةٌ فلم يَرْدُدْ بعيراً أميرُها

فلمّا أرسل أبو بكر إلى قيسٍ العلاءَ بنَ الحضرمىّ أخرَج الصدقَة ، فأتاه بها وقَدِم معه إلى المدينة [1] .

وفى تاريخ أبى جعفر الطّبرىّ من هذا الكثير الواسع ، وكذلك فى تاريخ غيره من التواريخ ، وهذا أمرٌ معلوم باضطرار ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يُخالِف فيه .

فأمّا قوله : كيف يصحّ ذلك ، وقد قال لهم أبو بكر : إذا أذّنوا وأقاموا كأذانكم وإقامَتِكم ، فكفّوا عنهم ، فجعل أمارةَ الإسلام والبراءة من الرّدّة الأذان والإقامة ، فإنّه قد أسقَط بعضَ الخبر ؛ قال أبو جعفر الطبرىّ فى كتابه : كانت وصيّتُه لهم : إذا نزَلتم فأذِّنوا وأقيموا ، فإن أذَّن القومُ وأَقاموا فكُفّوا عنهم ، فإن لم يَفعَلوا فلا شىءَ إلّا الغارة ، ثمّ اقتلوهم كلّ قتلة ؛ الحرْق فما سواه ، وإن أجابوا داعيةَ الإسلام فاسألوهم ، فإنْ أقرّوا بالزكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبَوْا فلا شىءَ إلّا الغارة ، ولا كَلِمة [2] .

فأما قولُه : وكيف يُطلق قاضِى القضاة فى سائر أهلِ الرّدّة ما أَطلقَه من أنّهم كانوا يصلّون ومن جُملتهم أصحابُ مُسيلمة وطليحة ! فإنّما أراد قاضى القُضاة بأهل الرّدّة هاهنا مانِعى الزّكاة لا غير ، ولم يُرِد مَن جَحَد الإسلام بالكلّية .

فأمّا قصّة مالكِ بن نُوَيرة وخالدِ بنِ الوليد فإنّها مشتبهة عندى ، ولا غرْوَ فقد اشتَبهتْ على الصّحابة ، وذلك أنّ مَنْ حضرها من العرَب اختلفوا فى حال القوم : هل كان

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٧ ، ٢٦٨ (٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٩

عليهمْ شِعارُ الإسلام أولا ؟ واُختلف أبو بكر وعمرُ فى خالدٍ مع شدّة اُتفاقهما ، فأما الشّعر الّذى رواه المرتَضى لمالكِ بنِ نُوَيرَة فهو معروف إلّا البيتَ الأخير ، فإنّه غيرُ معروف ، وعليه عُمدة المرتَضى فى هذا المقام ، وما ذَكَره بعدُ من قصّة القوم صحيح كلُّه مُطابِق لما فى التواريخ إلّا مُوَيْضعاتٍ يسيرة :

منها قولُه :

إنّ مالـكا نَهَى قومَه عن الاُجتماع على مَنْع الصدقات ، فإنّ ذلك غيرُ منقول وإنّما المنقولُ أنّه نَهَى قومَه عن الاُجتماع فى موضع واحد ، وأمرَهم أن يتفرّقوا فى مِياهِهم ؛ ذَكَر ذلك الطبرىّ ولم يذكر نَهْيَه إيّاهم عن الاُجتماع على مَنْع الصدقة ، وقال الطبرىّ : إنّ مالـكا تردّد فى أمرِه : هل يَحمِل الصّـدقات أم لا ؟ فجاءه خالد وهو متحيِّر سبِـح .

ومنها أنّ الطبرىّ ذَكَر أنّ ضِرار بنَ الأزْوَر قتَل مالـكا عن غيرِ أمْرِ خالد ، وأنّ خالدا لمّا سَمِـع الواعيةَ خرج وقد فرَغوا منهم ، فقال : إذا أراد اللهُ أمراً أصابه ؛ قال الطبرىّ : وغَضِب أبو قتادة لذلك ، وقال لخالد : هذا عَمَلُك ! وفارَقَه وأَتَى أبا بكر فأخبرَه فغَضِب عليه أبو بكر حتّى كلّمه فيه عُمَر ، فلم يَرْضَ إلّا أن يَرجع إلى خالد ، فرجع إليه حتّى قدم معه المدينة (١) .

ومنها أنّ الطبرىّ رَوَى أنّ خالدا لمّا تزوّج أمّ تميم بنتَ المِنهال اُمرأةَ مالك لم يَدخُل بها وترَكَها حتّى تقضىَ طُهرَها ، ولم يَذكُر المرتضَى ذلك .

ومنها أنّ الطبرىّ رَوَى أنّ متمِّما لمّا قَدِم المدينةَ طَلَب إلى أبى بكر فى سَبْيهم ، فـكتب له بردّ السَّبْى ؛ والمُرتَضى ذَكَرَ أنّه لم يَرِد إلّا فى خلافة عمرَ .

فأمّا قولُ المرتَضى : إنّ قولَ متمّم : لو قُتِل أخى على مِثل ما قُتِل عليه أخوك لَما رَثَيْتُه ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٨

لا يدلّ على ردّته ، فصحيح ، ولا رَيْب أنّه قَصَد تقريظَ زَيْد بن الخطّاب وأن يُرضِي عمرُ أخاه بذلك . ونعِمَّا قال المرتضى ! إنّ بين القِتْلَتين فرقا ظاهرا ، وإليه أشارَ متمّم لا محالةَ .

فأمّا قولُ مالك : صاحبُك يعنى النبيَّ صلى الله عليه وآله ، فقد رَوَى هذه اللفظة الطبريُّ فى التاريخ ، قال : كان خالدٌ يَعتذِر عن قَتْله ، فيقول : إنّه قال له وهو يراجعُه : ما إخالُ صاحبَكم إلّا قال كذا وكذا ، فقال له خالد : أوَما تعدّه لك صاحبا[1] ! وهذه لَعمرى كلمةٌ جافِية؛ وإن كان لها مَخرَج فى التأويل ، إلّا أنّه مُستكْرَه ، وقرائنُ الأحوال يَعرِفها مَن شاهدَها وسَمِعها ، فإذا كان خالدٌ قد كان يَعتذِر بذلك ، فقد اُندفعَ قولُ المرتَضى : هلاّ اعتذَر بذلك ! ولستُ أُنزّه خالدا عن الخطأ ، وأعلم أنّه كان جبّارا فاتِكاً لا يُراقِب الدّين فيما يَحمله عليه الغضب وهَوَى نفسِه ، ولقد وَقَع منه فى حياةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله مع بنى جذيمة بالغُمَيْصاء أعظمُ ممَّا وَقَع منه فى حقّ مالِك بنِ نُوَيرة ، وعَفَا عنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله بعدَ أن غَضِب عليه مُدّة وأعرَض عنه ، وذلك العفوُ هو الّذى أطمَعه حتّى فَعَل ببنى يَرْبوع ما فَعَل بالبُطاح .

***

الطعن الثامن

قولُهم : إنّ مما يُؤثَر فى حاله وحالِ عمَر دَفْنَهُما معَ رسول الله صلى الله عليه وآله فى بَيْتِه ، وقد منع الله تعالى الكلَّ من ذلك فى حال حياتِه ـ فكيف بعدَ الممات ـ بقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾[2] .

أجاب قاضى القضاة بأن الموضِعَ كان مِلْكا لعائشة ، وهى حُجْرتها التى كانت

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٨٠ (٢) سورة الأحزاب ٥٣

معروفةً بها ، والحجَرُ كلُّها كانت أملاكاً لأزواج النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وقد نطق القرآنُ بذلك فى قولِه : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ ﴾ (١) ، وذكر أنّ عمرَ استأذَنَ عائشةَ فى فى أن يُدفَن فى ذلك الموضع ، وحتّى قال : إن لم تأذَنْ لى فادفِنونى فى البَقيع ، وعلى هذا الوجهِ يُحمَل مارُوِى عن الحسَن عليه السلام أنه لمّا مات أَوصَى أن يُدفَن إلى جَنْب رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وإن لم يترك ففى البَقيع ، فلمّا كان مِن مَروانَ وسعيد بن العاص ما كان دُفِن بالبَقيع . وإنما أَوصَى بذلك بإذْن عائشةَ ؛ ويجوز أن يكون علم من عائشةأنّها جعَلتْ الموضعَ فى حُكم الوَقْف ، فاستباحوا ذلك لهذا الوجه ؛ قال : وفى دَفْنه عليه السلام فى ذلك الموضع مايدلّ على فَضْل أبى بكر ؛ لأنّه عليه السلام لمّا مات اُختلفوا فى موضع دَفْنه ؛ وكَثُر القولُ حتّى رَوَى أبو بكر عنه صلّى الله عليه وآله أنه قال مايدلّ على أنّ الأنبياء إذا ماتُوا دُفِنوا حيث ماتُوا ، فزال الخلافُ فى ذلك (٢) .

اعترضَ المرتضَى فقال : لا يخلو موضعُ قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله من أن يكون باقياً على مِلْكه عليه السلام ، أو يكون اُنتقل فى حياته إلى عائشةَ على ما ادّعاه ؛ فإن كان الأوّلُ لم يخلُ أن يكونَ ميراثا بعدَه أو صدقة ؛ فإن كان ميراثاً فما كان يحِلّ لأبى بكر ولا لعمَر من بعده أن يأمُرا بدفنهما فيه إلّا بعد إرضاء الوَرَثة الّذين هم على مَذْهبِنا فاطمة وجماعةُ الأزواج، وعلى مذهبهم هؤلاء والعبّاس ، ولم نَجِد واحدا منهما خاطب أحداً من هؤلاء الوَرَثة على ابتياع هذا المكان ولا استنزله عنه بثمن ولا غيره . وإن كان صدقة فقد كان يَجِب أن يَرضَى عنه جماعةُ المسلمين ويبتاعَه منهم ؛ هذا إن جاز الابتياع لما يَجرِى هذا المجرى ، وإن كان انتقل فى حياته فقد كان يجِب أن يظهر سبب اُنتقاله والحجّة فيه ، فإنّ فاطمة عليها السلام لم يَقنَع منها فى اُنتقال فَدَكَ إلى مِلْكها بقَوْلها ، ولا بشهادة من

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٣

(٢) نقله المرتضى فى الشافى ٤٢٤

شَهِد لها. فأمّا تعلقه بإضافة البيوت إليهن ّفى قوله : ﴿ وقَرْن فى بيوتكنّ ﴾ ؛ فمن ضعيف الشُبهة ، لأنّا قد بيّنا فيما مضى من هذا الكتاب أن هذه الإضافة لا تقتضى الملك ، وإنما تقتضى السُكْنى، والعادة فى استعمال هذه اللفظة فيما ذكرناه ظاهرة ، قال تعالى : ﴿ لا تُخْرِجُوهُنّ من بُيوتهن ﴾[1] ؛ ولم يُرِد اللهُ تعالى إلّا حيث يسكنّ وينزلنَ دون حيث يملكن وما أشبهه، وأظرف من كلّ شىء تقدّم قولُه : إنّ الحسن عليه السلام استأذن عائشة فى أن يُدفن فى البيت حتى مَنَعه مروانُ وسعيدُ بن العاص ؛ لأنّ هذه مكابرة منه ظاهرة ، فإنّ المانع للحَسَن عليه السلام من ذلك لم يكن إلّا عائشة ، ولعلّ من ذِكْره من مروانَ وسعيد وغيرهما أعانها واتّبع فى ذلك أمرَها ، وروى أنها خرجت فى ذلك اليوم على بغل حتى قال ابن عباس : يوماً على بَغلْ ويوماً على جمل ! فكيف تأذن عائشة فى ذلك ، وهى مالكةُ الموضع على قولهم ، ويمنع منه مروان وغيره ممّن لا ملكَ له فى الموضع ولا شَركة ولا يد ! وهذا من قبيح[2] ما يرتكب . وأىّ فضل لأبى بكر فى روايته عن النبىّ صلّى الله عليه وآله حديث الدّفن ! وعملهم بقوله إنّ صَحّ فمن مذهب صاحب الكتاب وأصحابه العمل بخبر الواحد العَدْل فى أحكام الدّين العظيمة ، فكيف لا يعمل بقول أبى بكر فى الدّفن وهم يعمَلون بقول مَن هُو دونه فيما هو أعظم من ذلك[3] !

***

قلت : أمّا أبو بكر ؛ فإنّه لا يلحقه بدَفْنِه مع الرّسول صلّى الله عليه وآله ذمٌّ ؛ لأنه ما دَفَن نفسَه ، وإنّما دفنه الناسُ وهو ميّت ، فإن كان ذلك خطأً فالإثم والذّمّ لاحقان بمن فعل به ذلك ، ولم يَثْبُت عنه بأنّه أوْصَى أن يُدفن مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وإنّما قد يُمكن أن يتوجّه هذا الطعن إلى عمر ، لأنه سأل عائشة أن يُدفَنَ فى الحُجْرة مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وأبى بكر . والقولُ عندى مشتبه فى أمر حُجَر الأزواج:

(١) سورة الطلاق ١ (٢) الشافى : « أقبح » . (٣) الشافى ٢٤٤

هل كانت على مِلْك رسولِ الله صلّى الله عليـه وآله إلى أن تُوفّى ، أم مَلَكها نساؤه ؟ والّذى تنطِقُ به التواريخُ أنّه لمّا خرج من قُباء ودخَلَ المدينـة وسكَن منزل أبى أيّوب ، اختطّ المسجد واختَطّ حُجَر نسائه و بناته ، وهـذا يدلّ على أنّه كان المالك للمواضع ، وأمّا خروجُها عن ملـكه إلى الأزواج والبنات فمّما لم أقِفْ عليـه . ويجوز أن تـكونَ الصحابةُ قد فهمت من قرائن الأحوال وممّا شاهدوه منه عليه السلام؛ أنّه قد أقرّ كلّ بيت منها فى يدِ زوجةٍ من الزّوجات على سبيل الهبة والعَطيّة ، و إن لم يُنقل عنه فى ذلك صيغةُ لفظ مُعيّن، والقولُ فى بيتِ فاطمةَ عليها السلام كذلك ، لأنّ فاطمة عليها السلام لم تـكن تملك مالًا ، وعلىّ عليه السلام بَعْلُها كان فقيراً فى حياةِ رسولِ الله صلّى الله عليـه وآله حتّى إنّه كان يَستَقى الماء ليَهُود بيَدِه ، يَسقِى بساتينَهم لقُوتٍ يدفعونَه إليـه ، فمن أين كان له ما يبتاعُ به حُجرةً يَسكُن فيها هو وزوجتهُ [1] ! والقولُ فى كثيرٍ من الزّوجات كذلك أنّهنّ كنّ فقيراتٍ مُدْقِمات ، نحو صفيّة بنت حُيَى بن أَخْطب ، وجُوَيْرِية بنت الحارث ، وميمونة ، وغيرهنّ ، فلا وجه يُمـكِن أن يتملّك منـه هؤلاء النّسوة والبنتُ الحُجَر ؛ إلّا أن يكون رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وَهبها لهنّ ؛ هذا إن ثبتَ أنّها خرجتْ عن مِلْـكيّته عليه السلام ، و إلّا فهى باقيةٌ على مِلْـكيّته باستصحاب الحال . والقولُ فى حُجْرة زينبَ بنتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله كذلك ، لأنّه أقدَمَها من مكّة مفارقةَ لبعلِها أبى العاص بنِ الرّبيع ، فأسكنها بالمدينة فى حُجْرة منفردة خاليةٍ عن بَعْل ، فلا بدّ أن تـكون تلك الحجرةُ بمقتضى ما يتغلّب على الظّنّ ملـكا له عليه السلام ، فيُستدام الحُـكم بملـكه لها إلى أن نجد دليلا يَنْقُلنا عن ذلك . وأمّا رقيّة وأمّ كُلثوم زوجتا عثمانَ ، فإن كان مُثْرِيا ذا مال فيجوز أن يكون أبتـاع حُجْرَةً سكنتْ فيهـا الأولى منهما ، ثمّ الثانيةُ بعدَها .

---

(١) ب : « زوجه » .

فأمّا احتجاجُ قاضى القضاة بقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِـكُنَّ ﴾ ؛ فاعتراضُ المرتضَى عليه قوىّ ، لأنّ هـذه الإضافة إنّما تقتضى التّخصيص فقط لا التّمليك ، كما قال : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ [1] ؛ ويجوز أن يكون أبو بكر لمّا روَى قوله : « نحن لا نُورَث » ترَكَ الُحجَر فى أيدى الزّوجات والبنت على سبيل الإقطاع لهنّ لا التّمليك ، أى أباحهنّ السُّكْنى لا التصرّف فى رقاب الأرض والأبنية والآلات ، لما رأى فى ذلك من المصلحة ، ولأنّه كان من المَهجَّن القبيح إخراجُهنّ من البُيوت وليس كذلك فَدَك فإنها قريةٌ كبيرةٌ ذاتُ نخل كثير خارجةٌ عن المدينة، ولم تـكن فاطمةُ مُتصرّفةً فيها من قِبَل نفسها ولا بوكيلها ، ولا رأتْهـا قطّ ، فلا تُشبِه حالُها حالَ الُحجَر . وأيضاً لإباحة هذه الحجَر ونزارة أثمانهنّ ، فإنّها كانت مبنيّةً من طين قصيرة الجدران ، فلعلّ أبا بكر والصّحابة استحقَروها ، فأقرّوا النِّساء فيها وعوّضوا المسلمين عنها بالشىء اليسير ممّا يقتضى الحساب أن يكون من سهْم الأزواج والبنت عند قسْمة الفَىْء .

وأمّا القولُ فى الحسَن وما جرَى من عائشة و بنى أميّة فقد تقدّم ؛ وكذلك القولُ فى الخبر المَروِىّ فى دَفْن الرسول صلّى الله عليه وآله ، فـكان أبو المظفّر هبةُ الله بن المُوسوِىّ صدر المخزن المعمور ، كان فى أيّام النـاصر لدين الله إذا حادثتُه حديثَ وَفاةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ورواية أبى بكر ما رواه من قوله عليـه السلام : « الأنبياء يُدفَنون حيث يمُوتون » ، يَحلِف أنّ أبا بكر افتعل هذا الحديثَ فى الحال والوقت ، ليُدفَن النبىّ صلّى الله عليه وآله فى حُجْرة ابنته ، ثم يُدفَن هو معه عند موته ، عِلْما منه أنّه لم يَبقَ من عمره إلّا مثل ظِمْء [2] الحمار ، وأنّه إذا دُفِن النبىّ صلى الله عليه وآله فى حُجْرة ابنته فإن ابنته تدْفِنه لا محالة فى حُجْرتها عند بَعْلها ، وأنّ دَفْن النبىّ صلى الله عليه وآله فى مَوضعٍ

(١) سورة الطلاق ١

(٢) يقال : ما بقى منه إلا ظمأ الحمار ؛ أى شىء يسير لأنه ليس شىء أقصر ظمئاً منه .

آخرَ فربّما لا يتهيّأ له أن يُدفَن عنده ، فرأى أنّ هذا الفوزَ بهذا الشّرف العظيم ، وهـذا المـكان الجليل ، ممّا لا يَقتضى حسن التّدبير يفوته ، وإن انتهاز الفرصة فيه واجب ،فروَى لهم الخبرَ ، فلا يُمكنهم بعدَ روايته ألّا يعمَلوا به ، لاسيّما وقد صار هو الخليفة ، وإليـه السلطان والنفع والضّرر ، وأدرَك ما كان فى نفسه ، ثمّ نَسَج عمرُ على منواله ، فرَغِب إلى عائشةَ فى مثل ذلك ، وقد كان يُكرِمها ويقدّمها على سائر الزّوجات فى العطاء وغيره ، فأجابته إلى ذلك ، وكان مُطاعاً فى حياته وبعد مماته ، وكان يقول : واعجباً للحَسَن عليـه السلام ! وطمَعِه فى أن يُدفَن فى حُجْرة عائشة ، والله لو كان أبوه الخليفةَ يومئذ لما تهيّأ له ذلك ! ولاتمّ لبُغض عائشةَ لهم ! وحسد الناس إيّاهم ، وتمالؤ بنى أميّة وغيرهم من قريش عليهم ، ولهذا قالوا : يُدفَن عثمانُ فى حَشّ كوكب[1] ، ويُدفَن الحسَن فى حُجْرة رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فـكيف والخليفةُ معاويةُ والأمراء بالمدينة بنو أميّة ، وعائشةُ صاحبة الموضع ، والناصرُ لبنى هاشم قليل ، والشانئ كثير . وأنا أستغفر اللهَ ممّا كان أبو المظفّر يَحلِف عليه ، وأعلَم وأظنّ ظنّا شبيها بالعلم أنّ أبا بكر ما رَوَى إلّا ما سَمِـع ، وأنه كان أتقى لله من ذلك .

***

الطعن التاسع

قولُهم : إنَّه نصّ على عمرَ بالخلافة ؛ فخالَف رسول الله صلّى الله عليـه وآله على زَعْمه ، لأنَّه كان يزعُم هو ومن قال بقوله أنّ رسولَ الله صلّى الله عليـه وآله لم يستخلِف .

---

(١) حش كوكب : موضع بالمدينة .

والجواب أن كونه لم يستخلف لا يدلّ على تحريم الاستخلاف ، كما أنه لم يركب الفيل لا يدلّ على تحريم رُكوب الفيل . فإن قالوا : ركوبُ الفيل فيه منفعة ولا مضرّة فيه ولم يردْ نصّ بتحريمه ، فوجب أن يحسن . قيل لهم : والاستخلاف مصلحة ، ولا مضرّة فيه ؛ وقد أجمع المسلمون أنه طريق إلى الإمامة ، فوجب كونه طريقاً إليها ، وقد رُوِى عن عمر أنه قال : إن أستخلِف فقد استخلف من هو خير منّى – يعنى أبا بكر – وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ منى – يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله . فأما الاجتماع المشار إليه فهو أنّ الصحابة أجمعوا على أنّ عمرَ إمامٌ بنصّ أبى بكر عليه ، وأنفذوا أحكامه ، وانقادوا إليه لأجل نصّ أبى بكر لا لشىء سواه ، فلو لم يكن ذلك طريقا إلى الإمامة لما أطبقوا عليه . وقد اختلف الشيخان أبو على وأبو هاشم فى أن نصّ الإمام على إمامٍ بعده : هل يكفى فى انعقاد إمامته ؟ فقال أبو علىٍّ : لا يكفى ، بل لا بدّ من أن يرضى به أربعةٌ حتى يجرى عهده إليه مجرى عقد الواحد برضا أربعة ؛ فإذا قارنه رضا أربعة صار بذلك إماما ، ويقول فى بيعة عمر : إن أبا بكر أحضر جماعة من الصحابة لما نصّ عليه ، ورجع إلى رضاهم بذلك ، وقال أبو هاشم : بل يكفى نصّه عليه ، ولا يُراعى فى ذلك رضا غيره به ، ولو ثبت أنّ أبا بكر فعله لكان على طريق التّبع للنصّ ، لا أنه يؤثر فى إمامته مع العهد ؛ ولعل أبا بكر إن كان فعل ذلك فقد استطاب به نفوسهم ، ولهذا لم يؤثر فيه كراهية طلحة حين قال : ولّيتَ علينا فَظًّا غليظا . ويبين ذلك أنه لم ينقل استئناف العقد من الصحابة لعمر بعد موت أبى بكر ولا اجتماع جماعة لعقد البَيْعة له ، والرضا به ، فدّل على أنهم اكتفوا بعهد أبى بكر إليه .

* * *

الطعن العاشر

قولهم : إنه سمّى نفسه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لاستخلافه إياه بعد موته ، مع اعترافه أنه لم يستخلفه .

والجواب أن الصحابة سمته خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله لاستخلافه إياه على الصلاة عند موته ، والاستخلاف على الصّلاة عند الموت له مزّية على الاستخلاف على الصلاة حال الحياة ، لأن حال الموت هى الحال التى تكون فيها العهودُ والوصايا وما يهتّم به الإنسان من أمور الدّنيا والدين ، لأنها حالُ المُفارقة. وأيضا فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مااستخلف أحدا على الصّلاة بالمدينة وهو حاضر ، وإنما كان يستخلف على الصلاة قوما أيّام غَيْبته عن المدينة ، فلم يحصل الاستخلاف المطلق على الصلاة بالناس كلهم ، وهو صلى الله عليه وآله حاضرٌ بين الناس حىّ إلّا لأبى بكر ، وهذه مزيةٌ ظاهرة على سائر الاستخلافات فى أمر الصلاة ، فلذلك سمّوْه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله . وبعد ، فإذا ثبت أنّ الاجماع على كون الاختيار طريقا[1] إلى الإمامة وحجّة ، وثبت أن قوما من أفاضل الصحابة اختاروه للخلافة ، فقد ثبت أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لا فرق بين أن ينصّ الرسولُ صلى الله عليه وآله على شخص معين ، وبين أن يشير إلى قوم فيقول : مَن اختار هؤلاء القوم فهو الإمام ؛ فى أنّ كلّ واحد منهما يصح أن يُطاق عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله[2] .

✡ ✡ ✡

---

(١) ا : « سبيلا »

الطعن الحادى عشر

قولهم : إنه حرق الفُجاءة السُّلَمِىّ بالنار ، وقد نهى النبىُّ صلى الله عليه وآله أن يُحرق أحد بالنار .

والجواب أن الفُجاءة جاء إلى أبى بكر كما ذكر أصحابُ التواريخ فطلب منه سلاحا يتقوّى به على الجهاد فى أهل الردّة ، فأعطاه ، فلما خرج قطع الطريق ونهب أموال المسلمين وأهل الرّدّة جميعا ، وقتل كلَّ من وَجَد ، كما فعلت الخوارجُ حيث خرجتْ ، فلما ظفر به أبو بكر رأى حَرْقه بالنار إرهابا لأمثاله من أهل الفساد ، ويجوز للإمام أن يخصّ النصّ العام بالقياس الجَلِىّ عندنا [1] .

***

الطعن الثانى عشر

قولهم : إنه تكلم فى الصلاة قبل التسليم ، فقال : لا يفعلنّ خالد ما أمرته ؛ قالوا : ولذلك جازَ عند أبى حنيفة أن يخرج الإنسانُ من الصلاة بالكلام وغيره من مفسدات الصلاة من دون تسليم ، وبهذا احتجّ أبو حنيفة .

والجواب أن هذا من الأخبار التى تتفرّد بها الإمامية ، ولم تثبت ؛ وأما أبو حنيفة فلم يذهب إلى ما ذَهب إليه لأجل هذا الحديث ، وإنما احتجّ بأن التسليم خطاب آدمىّ ، وليس هو من الصلاة وأذكارها ، ولا من أركانها ، بل هو ضدّها ، ولذلك يبطلها قبل التمام ، ولذلك لا يسلّم المسبوق تبعاً لسلام الإمام ، بل يقوم من غير تسليم ؛ فدلَّ على أنه ضدّ للصلاة ، وجميع الأضداد بالنسبة إلى رَفْع الضّدّ على وتيرة واحدة ، ولذلك استوى الكلّ فى

---

(١) الجلى : الواضح .

الإبطال قبل التمام ، فيستوى الكلّ فى الانتهاء بعد التمام . وما يذكره القوم من سبب كلام أبى بكر فى الصلاة أمرٌ بعيد ، ولو كان أبو بكر يريد ذلك لأمر خالدا أن يفعل ذلك الفعل بالشخص المعروف وهو نائم ليلاً فى بيته ، ولا يعلم أحد مَن الفاعل .

* * *

الطعن الثالث عشر

قولهم : إنه كتب إلى خالد بن الوليد وهو عَلَى الشام يأمره أن يقتل سعد بن عُبادة ، فكمن له هو وآخرُ معه ليلا ، فلما مرّ بهما رَمَياه فقتلاه ، وهتف صاحبُ خالد فى ظلام الليل بعد أن ألقيَا سعدا فى بئر هناك فيها ماء ببيتى :

نحن قتلْنا سيد الخز رج سعد بن عُبادة
ورمَيناه بسهمين فلم تُخْطِ فؤاده

يوهم أنّ ذلك شعر الجنّ ، وأن الجنّ قتلتْ سعدا ، فلما أصبح الناس فقدوا سعدا ، وقد سمِع قوم منهم ذلك الهاتف فطلبوه ، فوجدوه بعد ثلاثة أيام فى تلك البئر ، وقد اخضرّ ، فقالو : هذا مَسيس الجن ؛ وقال شيطانُ الطاق لسائل سأله : ما منع عليا أن يُخاصم أبا بكر فى الخلافة ؟ فقال : يابن أخى ، خاف أن تقتله الجنّ .

والجواب، أما أنافلا أعتقد أنّ الجن قتلتْ سعدا ، ولا أنّ هذا شعرُ الجنّ ،ولا أرتاب أن البشر قتلوه ،وأنّ هذا الشعر شعر البشر، ولكن لم يثبت عندى أن أبابكر أمّر خالدا ،ولا أستبعد أن يكون فعله من تلقاء نفسه ليرَضى بذلك أبا بكر ـ وحاشاه ـ فيكون الإثم على

خالد ، وأبو بكر برىء من إثمه ؛ وما ذلك من أفعال خالد ببعيد .

* * *

الطعن الرابع عشر

قولُهم : إنّه لمّا اُستخلف قطَعَ لنفسه على بيت المال أجرةً كلّ يوم ثلاثة دراهم ، قالوا : وذلِك لا يجوز ، لأنّ مَصارِف أموالِ بيتِ مال المسلمين لم يُذكَر فيها أُجرةٌ للإمام.

والجواب أنّه تعالى جعَلَ فى جملة مصرف أموالِ الصّدقات العامِلين عليها ، وأبو بكر من العاملين . واُعلم أنّ الإماميّة لو أنصفتْ لرأتْ أنّ هذا الطّعن بأن يكونَ من مَناقب أبى بكر أَولَى من أن يكون من مَساوِيه[1] ومَثالِبه ، ولـكنّ العَصَبيّة لا حِيلة فيها .

* * *

الطعن الخامس عشر

قولُهم : إنّه لمّااُستخلف صَرَخ منادِيه فى المدينة:من كان عنده شىء من كلام اللهفليأتِنا به ؛ فإنا عازِمون على جَمْع القرآن ، ولا يأتِنا بشىء منه إلّا ومعه شاهدَا عَدْل ؛قالوا : وهذا خطأٌ ، لأنّ القرآن قد بان بفصاحتِه عن فصاحة البَشَر ، فأىّ حاجةٍ إلى شاهدَىْ عَدْل !

والجواب ، أنّ المرتضَى ومَن تابعَه من الشِّيعة لا يصحّ لهم هـذا الطعن لأنّ القرآن عنـدهم ليس مُعجزا بفَصاحتِه ، على أنّ من جعل معجِزتَه للفصاحة لم يقُل : إنّ كلّ آية من القرآن هى مُعجِزة فى الفصاحة ، وأبو بكر إنّمـا طَلَب كلّ آية من القرآن لا السّورة بتمامها وكمالِها التى يَتحقّق الإعجاز من طريق الفَصاحة فيها . وأيضا فإنّه لو أحضَر إنسانٌ آيةً أو آيتين ولم يكن معه شاهد ، فربّما تَختلِف العربُ : هل هذه فىالفصاحة بالغةٌ

---

(١) ا : « عيوبه » .

مبلَغ الإعجاز الكلّىّ ، أم هى ثابتةٌ من كلام العرب بثبوته؛ غيرَ بالغة إلى حدّ الإعجاز ؟ فكان يلتبسُ الأمرُ ويَقع النّزاع ، فاستظهر أبو بكر بطلب الشّهود تأكيدا ، لأنّه إذا انضمّت الشهادةُ إلى الفصاحة الظاهرة ثَبتَ أنّ ذلك الكلامَ من القرآن .

***

الأصلُ :

ومن هذا الكتاب :

إنِّى وَاللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِدًا وَهُمْ طِلَاعُ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَلَا اسْتَوْحَشْتُ ؛ وَإِنِّى مِنْ ضَلَالِهِمُ الَّذِى هُمْ فِيهِ ، وَالْهُدَى الَّذِى أَنَا عَلَيْهِ ، لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِى ، وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّى . وَإِنِّى إِلَى لِقَاءِ اللهِ لَمُشْتَاقٌ ، وَلِحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ ؛ وَلٰكِنَّنِى آسَى أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هٰذِهِ الْأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا ، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلًا ، وَعِبَادَهُ خَوَلًا ، وَالصَّالِحِينَ حَرْبًا ، وَالْفَاسِقِينَ حِزْبًا ؛ فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِى شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ ، وَجُلِدَ حَدًّا فِى الْإِسْلَامِ . وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ الرَّضَائِخُ فَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَتَأْنِيبَكُمْ ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيضَكُمْ ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدِ انْتَقَصَتْ ، وَإِلَى أَمْصَارِكُمْ قَدِ افْتُتِحَتْ ، وَإِلَى مَمَالِكِكُمْ تُزْوَى ، وَإِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى !

انْفِرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَلَا تَثَّاقَلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَتُقِرُّوا بِالْخَسْفِ ، وَتَبُوءُوا بِالذُّلِّ ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمُ الْأَخَسَّ ؛ وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقُ وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ ؛ وَالسَّلَامُ .

الشَّــرْحُ :

طِلاع الأرض : ملؤُها ، ومنه قولُ عمر : لو أنّ لى طِلاعَ الأرض ذهبا لأُفتديتُ به من هَوْل المُطَّلَع .

وآسَى : أحزَن .

وأكثرت تأليبَكم : تحرِيضَكم وإغراءكم به . والتأنيب : أشدّ اللّوم .

ووَنَيْتم : ضَعُفتم وفَترتم . ومَمالِككم تزوَى ، أى تُقبَض .

ولا تثّاقلوا بالتّشديد ، أصلُه «تتَثَاقلوا». وتقرّوا بالخسف : تَعترفوا بالضّيم وتَصبروا له .

وتبوءوا بالذلّ : تَرجِعوا به . والأرِق : الّذى لا ينام . ومِثلُ قولِه عليه السلام : « من نام لم يُنَم عنه » قولُ الشاعر :

لله دَرُّكَ ما أردتَ بثـــائرٍ حرّانَ ليس عن التِّراتِ براقدِ[1]

أسهرْتَه ثمّ اضطجَعْت ولم يَنَم حَنَقا عليك وكيف نَوْمُ الحاقدِ !

فأمّا الذى رُضِخت له على الإسلام الرّضائخ ، فمعاوية ؛ والرّضِيخة : شىء قليلٌ يُعطاه الإنسان يُصانَع به عن شىء[2] يُطلَب منه كالأجر ، وذلك لأنّه من المؤلَّفة قلوبُهم الّذين رَغِبوا فى الإسلام والطاعة بجِمالٍ وشاء دُفِعتْ إليهم ، وهم قومٌ معروفون كمعاوية وأخيه يزيد ، وأبيهما أبى سُفْيان ، وحكيم بن حِزام ، وسُهَيل بن عمرو ، والحارث بن هشام بن المغيرة ، وحُوَيْطِب بن عبد العُزّى ، والأخنَس بن شَرِيق ، وصَفْوان بن أميّة ، وعمير بن وهب الجُمَحىّ ، وعُيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وعبّاس بن مِرْداس وغيرهم ، وكان إسلام هؤلاء للطّمع والأغراض الدنيـاويّة ، ولم يكن عن أصـل ولا عن يقين وعلم .

---

(١) التراث : جمع ترة ؛ وهى الأخذ بالثأر . (٢) فى د « أمر » .

وقال الراوندىّ: عَنَى بقوله : «رُضِخَت لهم الرضائخ» عمرَو بنَ العاص ، وليس بصحيح، لأنّ عمرا لم يُسلِم بعد الفتح ، وأصحاب الرضائخ كلّهم أسلَموا بعد الفتح، صُونِعوا على الإسلام بغنائم حُنَين . ولعَمرى إن إسلام عَمْرو كان مدخولا أيضا ؛ إلّا أنّه لم يكن عن رَضِيخة ، وإنّما كان لمعنًى آخر. فأما الذى شَرِب الحرام ، وجُلِد فى حدّ الإسلام ، فقد قال الراونديّ : هو المغيرةُ بنُ شُعْبة ، وأخطأ فيما قال ، لأنّ المغيرة إنّما اتُّهِم بالزنا ولم يُحَدّ ولم يَجرِ للمغيرة ذكرٌ فى شُرب الخمر ، وقد تقدّم خبرُ المغيرة مُستوفًى ، وأيضا فإنّ المغيرة لم يَشهَد صِفّين مع معاوية ولا مع علىّ عليه السلام ، وما للراوَنديّ ولهذا ! إنّما يَعرِف هذا الفنّ أربابُه . والّذى عَناه علىّ عليه السلام الوليدُ بنُ عُقْبة بن أبى مُعَيط ، وكان أشدّ الناس عليه وأبلَغهم تحريضا لمعاوية وأهل الشام على حَرْبه .

***

[أخبار الوليد بن عقبة]

ونحن نذكر خبرَ الوليد وشُرْبَه الخمرَ منقولاً من كتاب " الأغانى " لأبى الفَرَج علىّ بن الحسين الأصفِهانيّ ؛ قال أبو الفرج : كان سبب إمارة الوليدِ بن عُقْبة الكوفةَ لعثمانَ ماحدّثنى به أحمدُ بنُ عبد العزيز الجوهريّ ، قال : حدّثنا عمرُ بنُ شبّة ، قال : حدّثنى عبد العزيز بن محمّد بن حكيم ، عن خالد بنِ سعيد بن عمرِو بن سعيد ، عن أبيه قال : لم يكن يَجلِس مع عثمان على سريره إلّا العباس بن عبد المطّلب ، وأبو سُفْيان بن حرب ، والحَكَم بن أبى العاص ، والوليد بن عقبة ، ولم يكن سريرُه يَسَع إلّا عثمان وواحدا منهم، فأقبَل الوليدُ يوما فجلس ، فجاء الحَكَم بن أبى العاص فأومأ عثمانُ إلى الوليد ، فرَحل له عن مجلسه ، فلمّا قام الحكم قال الوليد : واللهِ ياأميرَ المؤمنين لقد تَلجْلَج فى صدرى بَيْتان قلتُهما حين رأيتُك آثرتَ ابنَ عمّك على ابن أمّك ـ وكان الحَكَم عمّ عثمان ، والوليد أخاه

لأمّه ـ فقال عثمان : إن الحكَم شيخُ قريش ؛ فما البيتان ؟ فقال :

رأيتُ لعَمٍّ المرءِ زُلفَى قرابةٍ   دُوَيْنَ أخيه حادثاً لم يكن قِدْما
فأمّلتُ عمرا أن يَشِبّ وخالدا   لكَىْ يَدعُوانى يومَ نائبةٍ عمّا

يعنى عَمراً وخالداً ابنَىْ عثمانَ . قال : فرقّ له عثمان وقال : قد ولّيتك الكوفة ، فأخرَجه إليها [١] .

قال أبو الفرَج : وأخبرَنى أحمد بنُ عبد العزيز قال : حدّثنى عمرُ بن شبّة قال : حدّثنى بعضُ أصحابنا ، عن ابن [٢] دأب قال : لمّا ولّى عثمانُ الوليدَ بنَ عقبة الكوفة قَدِمها وعليها سعدُ بن أبى وقّاص ، فأُخبر بقُدُومه ولم يَعلَم أنّه قد أُمِّر ، فقال : وما صنع ؟ قالوا : وقَفَ فى السّوق فهو يحدّث الناس هناك ، ولسنا ننكر شيئا من أمرِه ، فلم يَلبَثْ أن جاءه نصفَ النهار ، فاستأذن على سعد ، فأَذِن له ، فسلّم عليه بالإمْرة ، وجلس معه ، فقال له سعد : ما أقدَمك ياأبا وهب ؟ قال : أحببتُ زِيارتَك ؛ قال : وعلى ذاك أجئتَ بريدا ؟ قال : أنا أرزَن من ذلك ، ولكنّ القومَ احتاجوا إلى عَملهم فسرّحونى إليه ، وقد استعملنى أميرُ المؤمنين على الكوفة . فسكَتَ سعدٌ طويلا ، ثم قال : لا والله ما أدرِى أصلَحتَ بعدَنا أم فسَدْنا بعدَك ! ثم قال :

كِلِينى وجُرّينى ضِباعُ وأبشِرى   بلَحْم امرئٍ لم يَشهَد اليومَ ناصرُهْ

فقال الوليد : أما والله لأَنا أقوَلُ للشّعر منك ، وأَروَى له ، ولو شئتُ لأجبتُك ، ولكنّى أدَعُ ذاك لما تعلَمَ . نعَم واللهِ لقد أُمِرتُ بمحاسَبتك ، والنّظرِ فى أمر عُمّالك . ثمّ بعث إلى عمّال سعد فحبَسَهم وضيّق عليهم ، فكتبوا إلى سعد يستغيثون به ، فكلّمه فيهم فقال له : أوَ للمعروف عندَك مَوْضع ؟ قال : نعم ، فخلّى سبيلهم [٣] .

---

(١) الأغانى ٤ : ١٧٤ (ساسى) . وفى د « فأخرج » .
(٢) فى د «عن زاذان » .
(٣) الأغانى ٤ : ١٧٥ ، ١٧٦ (ساسى) .

قال أحمد [١] : وحدّثنى عمرُ ، عن أبى بكر الباهلىّ ، عن هُشَيم ، عن العوّام بن حَوْشَب . قال : لمّا قدم الوليدُ على سعد قال له سعد : واللهِ ما أدرِى كِسْتَ بعدَنا أم حمقْنا بعدَكَ ! فقال : لا تجزَعَنّ يا أبا إسحاق، فإنه المُلْك يتغدّاه قوم ويتعشّاه آخَرون . فقال سعد: أراكم واللهِ ستجعلونه مُلْكا [٢] .

قال أبو الفرَج : وحدّثنا أحمد قال : حدّثنى عمر قال : حدّثنى هارون بنُ معروف ، عن ضَمْرة بن ربيعة ، عن ابن شَوْذب قال : صلّى الوليدُ بأهل الكوفة الغداةَ أربعَ رَكَعات ، ثمّ التفت إليهم فقال : أزيدكم ؟ فقال عبدُ الله بنُ مسعود : مازِلْنا معك فى زيادةٍ منذ اليوم [٣] .

قال أبو الفرَج : وحدّثنى أحمد قال : حدّثنا عمر ، قال : حدّثنا محمّد بن حُمَيد ،قال حدّثنا جَريرٌ ، عن الأجْلح ، عن الشَّعْبىّ قال : قال الحُطَيئة يذكر الوليد :

شهدَ الحطيئةُ يوم يَلقَى ربَّهُ ... أنّ الوليدَ أحقُّ بالغَدْرِ [٤]
نادَى وقد تمّت صلاتُهمُ ... أأَزِيدُكمْ - سُكْراً - ولم يَدْرِ [٥]
فأبَوْا أبا وَهْب ولو أَذِنوا ... لقَرنتْ بين الشَّفْع والوَتْرِ [٦]
كَفّوا عنانَك إذ جَرَيتَ ولو ... ترَكُوا عنانَكَ لم تزَلْ تجرِى [٧]

---

(١) هو أحمد بن عبد العزيز الجوهرى
(٢) الأغانى ٤ : ١٧٦ .
(٣) الأغانى ٤ : ١٧٦
(٤) الأغانى ٤ : ١٧٦ وفى د « حين يذكر ربه » .
(٥) الديوان : « أأزيدكم ثملا » .
(٦) الديوان . « ليزيدهم خيرا ولو قبلوا » .
(٧) الديوان : « خلعوا عنانك » ؛ وبعده :

ورأَوْا شمائلَ ماجدٍ أنِفٍ ... يعطى على الميسور والعُسْرِ
فُزِّعت مكذوباً عليكَ ولم ... تُرِدَد إلى عُذرٍ وَلَا فقرِ

وقال الحُطيئة أيضاً :

تَكلّمَ فى الصلاة وزادَ فيها علانِيَةً وأعلَنَ بالنِّفَاقِ (١)

وَمَجّ الخمرَ فى سَنَنِ المصلّى ونادَى والجميعُ إلى افتراقِ

أزيدُكمُ على أن تحمَدونى فمالكمُ ومالى مِنْ خَلاقِ ! (٢)

قال أبو الفرَج : وأخبرَنا محمدُ بنُ خلف وكيع قال : حدّثنا حمّاد بن إسحاق ، قال: حدّثنى أبى قال : قال أبو عُبيدة وهشامُ بنُ الكلبيّ والأصمعيّ : كان الوليدُ زانياً يشرَب الخمر ، فَشرِب بالكوفة وقام ليصلّيَ بهم الصبحَ فى المسجد الجامع ، فصلّى بهمْ أربعَ رَكَعات ثمّ التفت إليهم فقال : أزيدُكمْ ؟ وتقَيّأ فى المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوتَه فى الصّلاة :

عَلِقَ القلبُ الرّبابَا بعدما شابَتْ وشابَا

فشَخص أهلُ الكوفة إلى عثمان فأخبروه بخبره ، وشَهِدوا عليه بشُرْب الخمر ، فأُتِى به ، فأمَر رجلا من المسلمين أن يَضربه الحدّ ، فلمّا دنا منه قال : نشَدْتُك الله وقرابتى من أمير المؤمنين ! فتركه ، فخاف علىّ بن أبى طالب عليه السلام أن يُعطّل الحدّ ، فقام إليه فحدّه بيدِه ، فقال الوليد : نشَدْتُك الله والقرابة ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام : اسكُت أبا وَهْب ، فإنّما هلك بنو إسرائيل لتَعطيلهم الحدود ؛ فلمّا ضرَبَه وفرغ منه قال : لتدعونى قريش بعدها جَلّادا ؛ قال إسحاق : وحدّثنى مصعبُ بنُ الزّبير قال : قال الوليدُ بعد ما شَهِدُوا عليه فجُلد : اللهم إنهم قد شهدوا علىّ بزُور ، فلا تُرضهم عن أمير ، ولا تُرضِ عنهم أميراً ، قال : وقد عكس الحطيئة أبياته فجعلها مَدْحا الوليد :

شَهِدَ الحطيئةُ حين يلقى ربّه أنّ الوليدَ أحقّ بالعُذْرِ

---

(١) ملحق ديوانه ١١٩ ، وفيه : « وجاهر بالنفاق » .
(٢) الأغانى ٤ : ١٧٦

كفّوا عنانَكَ إذ جريتَ ولوْ ... تركوا عنانَك لم تزَلْ تَجرِى
ورأوا شمائلَ ماجدٍ أنِفٍ ... يُعطى على المَيْسور والعُسْرِ
فنزعتَ مكذوباً عليك ولمْ ... تُنزَع على طمعٍ ولا ذُعْرِ [1]

قال أبو الفرج : ونسختُ من كتاب هارون بن الزّبّاب بخطّه ، عن عمرَ بن شبّة ؛ قال : شهد رجلُ عند أبى العجّاج — وكان على قضاء البصرة — على رَجل من المُعَيْطيّين بشهادة ، وكان الشاهد سَكران ، فقال المشهود عليه وهو المُعَيْطىّ : أعزّكَ الله أيّها القاضى ، إنّه لا يُحسِن من السُّكرِ أن يقرأ شيئاً من القرآن ، فقال الشاهد : بلى أُحسِن ، قال : فاقرأ ، فقال :

عَلِق القلبُ الرّبابا ... بعد ما شابتْ وشابا

يَمجُن [2] بذلك ، ويَحكِى ما قاله الوليدُ فى الصلاة ، وكان أبو العَجّاج أحمق [3] ، فظنّ أنّ هذا الكلام من القرآن ، فجعل يقول : صدَقَ اللهُ ورسولُه ، ويالكم ، كم تعلمون ولا تَعْملون !

قال أبو الفرج : وأخبَرنى أحمدُ بنُ عبد العزيز قال : حدّثنا عمرُ بنُ شبّة ، عن المَدائنىّ ، عن مبارك بن سلّام ، عن فُطْر بن خليفة ، عن أبى الضّحى قال : كان ناسٌ من أهل الكوفة يتطلّبون عَثْرة الوليد بن عقبة ، منهم أبو زَيْنب الأزْدىّ ، وأبو مورّع ، فجاءا يوما ولم يَحضُرِ الوليدُ الصّلاة ، فسألا عنه، فتلطّفا حتّى عَلِما أنّه يَشرَب ، فاقتحما الدارَ فوجَداه يقىء ، فاحتَملاه وهو سكرانُ حتّى وضعاه على سريره ، وأخَذا خاتمه من يده ، فأفاقَ ، فافتقد خاتمه ، فسأل عنه أهلَه ، فقالوا : لا ندرى ، وقد رأينا رجلين دَخَلا عليك

---

(١) الأغانى ٤ : ١٧٦ ، ١٧٧
(٢) يمجن : يقول قولا لايدرى ما عاقبته ؛ ومنه الماجن ؛ وفى الأغانى : « وإنما تماجن » .
(٣) الأغانى ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨

فاحتَمَلاك ذوَضَعاك على سريرك . فقال : صفوهما لى ، فقالوا : أحدُهما آدم[1] طُوالٌ حَسَن الوجه ، والآخر عريض مَرْبوع ، عليه خَمِيصة[2] ، فقال : هذا أبو زينب ، وهذا أبومورّع؛

قال : ولقِيَ أبو زينب وصاحبه عبدَ الله بن حُبَيش الأسدىّ وعَلْقمة بن يزيدالبَكْرىّ وغيرَهما فأخبروهم ، فقالوا : اشخصوا إلى أميرِ المؤمنين فأعلموه ، وقال بعضهم : إنَّه لا يَقبَل قولكم فى أخيه ، فشَخَصوا إليه ، فقالوا : إنّا جئناك فى أمر ، ونحن مُخرجوه إليك من أعناقنا ، وقد قيل : إنّك لا تقبله ، قال : وما هو ؟ قالوا : رأينا الوَليدَ وهو سَكرانُ من خَمْرٍ شَرِبَها ، وهذا خاتمُه أخذناه من يَدِه وهو لا يعقِل . فأرسل عثمان إلى علىّ عليه السلام فأخبره ، فقال : أرَى أن تُشخِصه ، فإذا شَهِدوا عليه بمحضر منه حَدَدْته. فكتب عثمانُ إلى الوليد ، فقَدِم عليه ، فشَهِد عليه أبو زينب وأبو مورّع وجُندَب الأزدىّ وسعد ابن مالك الأشعرىّ ، فقال عثمانُ لعلىّ عليه السلام : قم يا أبا الحَسَن فاَجْلِده ، فقال علىّ عليه السلام للحَسَن ابنه : قمْ فاضربْه ؛ فقال الحسن : مالك ولهذا ، يكفيك غيرك ؛ فقال علىّ لعبد الله بن جعفر : قم فاضرِبه ، فضَرَبه بمِخصرة[3] فيها سَيْر له رأسان ، فلمّا بلغ أربعين قال : حَسْبُك . قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد قال : حدّثنا عمر قال : حدّثنى المدائنىّ عن الوقاصىّ ، عن الزّهرىّ قال : خرج رَهْطٌ من أهل الكوفة إلى عثمانَ فى أمر الوليد، فقال : أكلما غَضِب رجل على أميرِه رماه بالباطل ! لئن أصبحتُ لكم لأنكّلنّ بكم ، فاستجاروا بعائشةَ ، وأصبح عثمانُ فسمعَ من حُجْرتها صوتاً وكلاما فيه بعضُ الغِلْظة ، فقال : أما يجد فُسّاقُ العراق ومُرّاقها ملجأً إلّا بيت عائشة ! فسمعتْ ، فرفَعتْ نعلَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وقالت : تركتَ سنّة صاحب هذا النعل . وتسامع الناس فجاءوا حتى ملئوا المسجد ، فمن قائل : قد أحسنتْ ، ومن قائل : ما للنساء ولهذا ! حتى تخاصموا

---

(١) الآدم : الأسمر . (٢) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

(٣) المخصرة : ما اختصره الإنسان بيده فأمسكه من عصا أو مقرعة أو عكازة وما أشبهها .

وتَضَارَبوا بالنّعال ، ودخل رهطٌ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على عثمانَ فقالوا له : اتّق الله ولا تُعطّل الحدود ، واعزل أخاك عنهم ؛ ففعل[١] .

قال أبو الفرج : حدّثنا أحمد قال : حدّثنى عمر ، عن المدائنىّ ، عن أبى محمّد النّاجى، عن مطر الورّاق ، قال قَدِم رجلٌ من أهل الكوفة إلى المدينة فقال لعثمان : إنّى صلّيتُ صلاة الغداة خلْف الوليد ، فالتفت فى الصّلاة إلى الناس ، فقال : أأزيدكُمْ، فإنى أجدُ اليومَ نشاطا ؟ وشمِمْنا منه رائحـةَ الخمر ، فضَرَب عثمانُ الرّجلَ ؛ فقال الناس : عَطّلت الحدود ، وضَربت الشهود[٢] .

قال أبو الفرج : وحدّثنا أحمد قال : حدثنا عمر قال : حدّثنا أبو بكر الباهلىّ ، عن بعض من حدّثه قال : لمّا شُهِد على الوليـد عند عثمانَ بشُرب الخمر كَتَب إليـه يأمره بالشّخوص ، فخرج وخرج معه قومٌ يعذِرونه ، منهم عَدِىّ بن حاتم الطائىّ ، فنزل الوليدُ يوماً يَسوقُ بهم ، فارتجز وقال :

لا تحسبنّا قد نسينا الأحقافْ[٣] والنَّشَواتِ من مُعتَّقٍ صـافْ

* وعَزْف قَيْناتٍ علينا عُزّافْ *

فقال عدىّ : فأين تذهب بنا إذَن ! فأقم[٤] .

قال أبو الفرج : وقد رَوَى أحمد عن عمرَ ، عن رجاله ، عن الشّعبىّ ، عن جُندَب الأزدىّ قال : كنتُ فيمن شَهِد على الوليد عند عثمان ، فلمّا استَتْمَمْنا عليه الشهادة حبَسَه عثمان . ثم ذكر باقى الخبر وضرْبَ علىّ عليه السلام إيّاه ، وقولَ الحسن ابنه : «مالك ولهذا» ، وزاد فيه ، وقال علىّ عليه السلام : لست إذنْ مُسلِما ؛ أو قال : من المسلمين .

---

(١) الأغانى ٤ : ١٧٨ (٢) الأغانى ٤ : ١٧٨

(٣) الأغانى : « الإيجاف » ؛ وهو ضرب من السير .

(٤) الأغانى ٤ : ١٧٨ ، ١٧٩ (٥) الأغانى ٤ : ١٧٩

قال أبو الفرج : وأخبَرَنى أحمد ، عن عمرَ عن رجاله أنّ الشهادة لمّا تمت قال عثمان لعلىّ عليه السلام : دونَكَ ابنَ عمّك فأَقِم عليه الحدّ . فأمر علىّ عليه السلام ابنَه الحسن عليه السلام ، فلم يفعل ، فقال : يكفيك غيرُك ! فقال علىّ عليه السلام : بل ضعفتَ ووَهَنتَ وعجَزْتَ ؛ قم يا عبدَ الله بنَ جعفر فاجلِدْه ، فقامَ فجلَدَه ، وعلىّ عليه السلام يعدّ حتّى بلغ أربعين ، فقال له علىّ عليه السلام : أمسِكْ حَسْبك ، جلَد رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ؛ وكمّلها عُمر ثمانين ؛ وكلٌّ سنّة(١) .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد ، عن عمر ، عن عبد الله بن محمد بن حكيم ، عن خالد بن سعيد ، قال : وأخبَرَنى بذلك أيضاً إبراهيمُ بنُ محمّد بن أيّوب ، عن عبد الله بن مسلم ، قالوا جميعا : لما ضرَب عثمانُ الوليدَ الحدّ ، قال : إنّك لتضربُنى اليومَ بشهادة قومٍ ليقتلُنّك عاماً قابلا(٢) .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد بنُ عبدِ العزيز الجوهرىّ ، عن عمرَ بنِ شَبّة ، عن عبد الله بن محمّد بن حَكيم ، عن خالد بن سعيد . وأخبَرَنى أيضاً إبراهيمُ ، عن عبد الله ، قالوا جميعا : كان أبو زُبَيد الطائىّ نديما للوَليد بن عُقْبة أيّامَ ولايتِه الكوفة، فلمّا شَهِدوا عليه بالسّكر من الخَمْر خرج عن الكوفة مَعْزولا ، فقال أبو زُبَيْد يتذكّر أيّامَه ونِدامته :

من يرَى العيرَ أين تمشى على ظهـ ... ـر المَرَوْرَى حُداتُهن عجالُ !
ناعجاتٍ والبيتُ بيتُ أبى وهـ ... ـب خـلاءٌ تحنُّ فيه الشّمالُ
يعرِفُ الجاهلُ المضلَّلُ أنّ الدَّهرَ ... فيه النّكراء والزلْزالُ
ليت شعرى كذا كم العهدُ أم كا ... نوا أناساً كمن يَزولُ فزالوا

(١) الأغانى ٤ : ١٧٩
(٢) الأغانى ٤ : ١٧٩
(٣) ابن أروى ، هو الوليد بن عقبة ؛ وأروى هى أم عثمان بن عفان .

بعـــد ما تعلمين يا أمّ عمرٍو   كان فيهمْ عِزٌّ لنا وجمـــالُ
ووجـــوهٌ تودُّنا مشرقاتٌ   ونوالٌ إذا أُريد النّوالُ
أصبح البيتُ قد تَبـدّل بالحَىّ وجوهاً كأنّهـا الأقيـال(١)
كلّ شىء يحتالُ فيـه الرجالُ   غـير أنْ ليس للمنـايا احتيالُ
ولعمـــرُ الإله لو كان للسيـ   ـف مضـاءٌ وللسان مقـال(٢)
ما تناسَيْتُك الصفـاءَ ولا الودَّ ولا حالَ دونك الإشـغال
ولحرّمت لحمـك المتعضِّى   ضَلّةً ضلّ حِلْمُهم ما اغتالوا(٣)
قولهم شُرْبك الحرام وقد كا   ن شرابٌ سوى الحرام حـلالُ
وأبى ظاهرُ العـداوة والشّنْـ   آنِ إلا مقال ما لا يُقـــال
من رجالٍ تقارضوا مُنْـكراتٍ   لينالوا الذى أرادُوا فنـــالوا
غير ما طالبين ذَحْلا ولـكن   مالَ دهرٌ على أناسٍ فمالوا
من يخُنْكَ الصفاءَ أو يتبـدّلْ   أو يزُل مِثلَ ما يزول الظِّلالُ
فاعلمنْ أننى أخـوكَ أخو الودّ حيـاتى حتى تزول الجبـــالُ
ليس يُخْـلى عليكَ يوماً بمال   أبداً ما أقـلّ نعـلاً قِبالُ(٤)
ولك النصرُ باللسانِ وبالـكف إذا كان لليدين مصـــالُ(٥)

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد قال : حدّثنى عمرُ قال : لما قدم الوليد بنُ عُقبة الـكوفة قدم عليه أبو زُبَيد فأنزله دار عَقِيل بن أبى طالب على باب المسجد ، وهى التى

---

(١) الأقيال : الملوك الحميريون . وفى الأغانى : « الأقتال » جمع قتل ؛ وهو العدو ؟
(٢) الأغانى : « مصال » ، يقال : صال على قرنه ، إذا وثب عليه واستطال .
(٣) المتعضى : المتقطع والمتفرق .   (٤) قبال النعل : زمام بين الإصبع والتى تليها .
(٥) الأغانى ٤ : ١٧٩ ، ١٨٠

تُعرف بدار القِبْطى ، فكان مما احتجّ به عليه أهل الكوفة أن أبا زبيد كان يَخرج إليه من داره وهو نصرانىّ يخترق المسجد فيجعله طريقا[1] .

قال أبو الفرج : وأخبرنى محمد بن العباس اليزيدىّ قال : حدثنى عمى عبيد الله ، عن ابن حبيب عن ابن الأعرابىّ أنّ أبا زُبيد وفد على الوليد حين استعمله عثمان على الكوفة فأنزله الوليد دار عَقِيل بن أبى طالب عند باب المسجد ،واستَوْهَبها منه ،فوَهبها له ، فكان ذلك أول الطعن عليه من أهل الكوفة ، لأنّ أبا زبيد كان يَخرُج من داره حتى يشقّ المسجد إلى الوليد فيسمُرَ عنده ، و يشرب معه ، ويخرُج فيشقّ المسجد وهو سكران ، فذاك نبّههم عليه . قال : وقد كان عثمان ولّى الوليدَ صدقاتِ بنى تغْلب ، فبلغه عنه شعرٌ فيه خلاعة ، فعزَله . قال : فلماولّاه الكوفة اختصّ أبازبيد الطائى وقرّبه،ومدحه أبو زُبيد بشعر كثير ، وقد كان الوليد استعمل الربيع بن مرىّ بن أوْس بن حارثة بن لأم الطائى على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة ، فأجدبت الجزيرة ؛ وكان أبو زبيد فى بنى تغلب نازلا ، فخرج بإبلهم ليُرعيهم ، فأبى عليهم الربيع بن مرىّ ومنعهم ، وقال لأبى زُبيد : إن شئت أُرْعيك وَحْدك فعلت ؛ فأتى أبو زُبَيد إلى الوليد فشكاه ، فأعطاه مابين القصور الحمر من الشام ، إلى القصور الحمر من الحيرة ، وجعلها له حمًى ، وأخذها من الربيع ابن مرىّ ، فقال أبو زبيد يمدحُ الوليد ، والشِّعر يدلّ على أن الحمى كان بيد مرىّ بن أوس ، لا بيد الربيع ابنه ، وهكذا هو فى رواية عمر بن شبة :

لعمرُ أبيك يابن أبى مُرىٍّ ‏ ‏ لغيرُك من أباح لنا الديارا[2]
أباح لنا أبارِق ذات قورٍ ‏ ‏ ونَرعى القفّ منها والقفارا[3]

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٠ ‏ (٢) الأغانى : « لها الديارا » .

(٣) الأبارق : جمع الأبرق ، وهو الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة . والقف ما يبس من البقول وتناثر حبه وورقه ؛ ترعاه الإبل وتسمن عليه .

بحمد الله ثمّ فتَى قريشٍ أبى وهب غدتْ بُدْنا غِزارا[١]

أباح لنا ولا نحمى عليكم إذا ما كنتم سنةً جزارا

قال : يقول : إذا أجدبتم فانا لا نحميها عليكم ، و إذا كنتم أسأتم وحميتموها علينا .

فتى طالتْ يداه إلى المعالى وطَحْطحت المجذَّمة القِصَارا[٢]

قال : ومن شعر أبى زبيد فيه يذكر نصره له على مرىّ بن أوس بن حارثة :

ياليت شعرى بأنباء أنبَّؤها قدكان يَعنَى بها صَدْرى وتقديرى

عن امرئ ما يزدْه الله من شَرَف أفرَحْ به ومرىّ غيرُ مسرور

إن الوليد له عندى وحقّ له ودّ الخليل ونصح غير مذخور

لقد دعانى وأدْنانى وأظهرَنى على الأعادى بنصر غير تغرير

وشذّبَ القومَ عنّى غير مكترثٍ حتى تناهوْا على رغْم وتَصْغير

نفسى فداء أبى وهْب وقلّ له ياأمَّ عمرو فحُلِّى اليوم أو سِيرى[٣]

وقال أبو زبيد يمدح الوليد و يتألم لفراقه حين عُزِل عن الكوفة :

لعَمْرى لئِنْ أَمْسى الوليد ببلدة سواى لقد أمسيتُ للدهر معورا[٤]

خلا أن رزق الله غادٍ ورائحٌ و إنى له راجٍ و إنْ سار أشهرا

وكان هو الحصن الذى ليس مسلمى إذا أنا بالنَّكْراء هيّجتُ معشرا

إذا صادَفُوا دونى الوليد فإنما يرَوْن بوادِى ذى حماس مُزَعْفرا[٥]

---

(١) غزاراً : جمع غزيرة ؛ وهى من الإبل الكثيرة اللبن .

(٢) طحطح الرجل ماله : فرّقه . (٣) الأغانى ٤ : ١٨٠

(٤) المعور : الذى لا حافظ له .

(٥) ذو حماس : موضع تلقاء عرعر ، أو مأسدة . والمزعفر : الأسد الورد ، وبعده فى الأغانى :

خضيبَ بنانٍ ما يزالُ براكبٍ يخبُّ وضاحِى جلدهِ قد تقشّرا

وهى طويلة يصفُ فيها الأسد [١]

قال أبو الفرج : وحدثنا أحمد بن عبد العزيز قال : حدثنا عمر عن رجاله ، عن الوليد
ال : لمـافتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم ، فيدْعو
لهم بالبركة ، ويمسح يده على رءوسهم ، فجىء بى إليـه وأنا مخلَّق ، فلم يمسَّنى وما منعه
إلا أنّ أمى خَلّقَتْنى بخَلوق ، فلم يمسنى من أجل الخلوق [٢]

قال أبو الفرج : وحدثنى إسحاق بن بنان الأنماطى . عن حُنيش بن ميسر ، عن
عبد الله بن موسى ، عن أبى ليلى ، عن الحـكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس
قال : قال الوليد بن عقبة لعلى بن أبى طالب عليه السلام : أنا أحدّ منك سِنانا ، وأبسط
منك لسانا، وأملأ للـكتيبة ؛ فقال علىّ عليه السلام : اسكُت يافاسق ، فنزل القرآن فيهما :
﴿ أفمن كان مُؤمنا كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [٣] .

قال أبو الفرج : وحدثنى أحمـد بن عبد العزيز ، عن عمر بن شبة ، عن محمـد
ابن حاتم ، عن يونس بن عمر ، عن شَيْبان ، عن يونس ، عن قتادة فى قوله تعـالى :
﴿ يَأَيُّهَا الذينَ آمنوا إنْ جاءكُم فَاسقٌ بنبَإٍ فتبيَّنوا ﴾ [٤] . قال : هو الوليـدُ بنُ عقْبة بعثه
النبىّ صلى الله عليه وآله مُصدِّقا إلى بنى المصطلق ، فلما رأوه أقبلوا نحوه ، فهابهم ، فرجع
إلى النبىِّ صلَّى الله عليه وآله فقال له : إنهم ارتدّوا عن الإسلام ، فبعث النبى صلى الله
عليه وسلم خالد بن الوليد ، فعلم علمهم ، وأمره أن يتثبّت ، وقال له : انطلق ولا تعجل ،
فانطلق حتى أتاهم ليلا ، وأنفذ عيونه نحوهم ، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام
وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبح أتاهم فرأى ما يعجبه ، فرجع إلى الرسول صلّى الله عليه
وآله فأخبره ، فنزلت هذه الآية [٥] .

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٢
(٢) الأغانى ٤ : ١٨٢
(٣) سورة السجدة : ١٨
(٤) سورة الحجرات ٦
(٥) الأغانى ٤ : ١٨٢

قلت: قد لمَح ابنُ عبد البرّ صاحبُ كتاب "الأستيعاب" فى هذا الموضع نكتةً حَسَنة، فقال فى حديث الخلوق: هذا حديثٌ مضطرب منكر، لا يصحّ، وليس يمكن أن يكون مَن بَعثه النبىّ صلّى الله عليه وآله مُصدّقا صبيًّا يومَ الفتْح؛ قال: ويدلّ أيضا على فَسادِه أنّ الزبير بنَ بكّار وغيرَه من أهل العلم بالسِّيَر والأخبار ذَكروا أنّ الوليدَ وأخاه عُمارة ابنىْ عُقْبة بن أبى مُعَيْط خرَجا من مكّة ليردّا أختَهما أمّ كلثوم عن الهِجْرة، وكانت هجرتُها فى الهُدْنة التى بين النبىّ صلّى الله عليه وآله و بين أهل مَكّة، ومَنْ كان غلاما مُخلَّقا بالخلوق يومَ الفتح ليس يجىء منه مِثلُ هذا. قال: ولا خلافَ بين أهل العِلم بتأويل القرآن أنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿إنْ جاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أُنزلت فى الوليد لمّا بعَثه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله مُصدّقا، فكَذَب على بَنى المُصْطلق وقال: إنّهم ارتدّوا وامتَنَعوا من أداء الصّدَقة. قال أبو عمر: وفيه وفى علىٍّ عليه السلام نزَل: ﴿أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُون﴾ [1] فى قصّتهما المشهورة. قال: ومن كان صبيا يومَ الفتح لا يَجىء منه مِثلُ هذا، فوجب أن يُنظَر فى حديث الخلوق، فإنّه رواية جعفر بن برقان، عن ثابت، عن الحجّاج، عن أبى موسى الهَمْدانىّ؛ وأبو موسى مجهولٌ لا يصحّ حديثه.

* * *

ثمّ نعود إلى كتاب أبى الفَرَج الأصبهانىّ؛ قال أبو الفرج: وأخبَرنى أحمدُ بنُ عبد العزيز، عن عمَر بن شبّة، عن عبد الله بن موسى، عن نعيم بن حكيم، عن أبى مريم، عن علىّ عليه السلام، أنّ امرأةَ الوليد بنِ عُقْبة جاءتْ إلى النبىّ صلّى الله عليه وآله تَشتكى إليه الوليدَ، وقالت: إنّه يَضربها، فقال لها: ارجعى إليه وقولى له: إنّ رسولَ الله قد أجارَنى، فانطلقتْ، فمكثتْ ساعةً، ثم رجعتْ فقالت: إنه

(١) سورة السجدة ١٨

ما أقلَع عنِّى ، فقطع رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم هُدْبة [(١)] من ثَوْبه وقال : اذهبى بها إليه وقولى له : إنّ رسولَ الله قد أجارَنى ، فانطلقتْ فمكثتْ ساعةً ثم رجعتْ فقالت : ما زادنى إلّا ضَرْبا ، فرفع رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يدَه ثم قال : «اللهمّ عليكَ بالوليد مرّتين أو ثلاثا » [(٢)] .

قال أبو الفرج : واختصّ الوليد لما كان واليا بالكوفة ساحراً كاد يَفتِن الناسَ ، كان يُرِيه كتيبتين تَقتتِلان فتَحمِل إحداهما على الأخرى فتَهزِمها ، ثم يقول له : أَيَسُرّكَ أن أُرِيَكَ المنهزمةَ تغلب الغالبة فتهزمها ؟ فيقول : نعم ، فجاء جُنْدُب الأزدىّ مشتِملا على سيفه ، فقال : أفرِجوا لى ، فأفرَجوا فضَرَبه حتّى قتله ، فحبسه الوليدُ قليلا ثم تركه [(٣)] .

قال أبو الفرج : وروى أحمدُ عن عمر ، عن رجاله ، أن جُندُبا لمّا قتل الساحَر حَبَسه الوليدُ ، فقال له دينار بن دينار : فيم حبستَ هذا ، وقد قَتَل من أَعلَن بالسحر فى دين محمّد صلّى الله عليه وسلم ؟ ثمّ مضى إليه فأخرَجَه من الحبس ، فأرسل الوليدُ إلى دينار ابن دينار فقتله [(٤)] .

قال أبو الفرج : حدّثنى عمّى الحسن بن محمّد قال : حدّثنى الخراز ، عن المدائنىّ ، عن علىّ بن مجاهد ، عن محمّد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان ، عن الزّهرىّ وغيره ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا انصرف عن غَزاة بنى المُصْطلق نزل رجلٌ من المسلمين فساق بالقوم ورَجَز ، ثم آخر فساق بهم ورَجَز ، ثم بدا لرسول الله صلّى الله عليه وآله أن يُواسِىَ أصحابه ، فنزل فساقَ بهم ورَجَز ، وجعل يقول فيما يقول :

جُندَب وما جُندَب والأقطع زيدُ الخيرْ

---

(١) الاستيعاب
(٢) الأغانى ٤ : ١٨٣
(٣) الأغانى ٤ : ١٨٣
(٤) الأغانى ٤ : ١٨٣

فدنا منه أصحابُه فقالوا : يا رسول الله ، ما ينفعُنا سيرنا مخافة أن تنهشك دابة ، أو تُصيبك نَكْبة ، فركِب ودَنَوا منه وقالوا : قلتَ قولا لا ندرى ماهو ؟ قال : وما ذاك؟ قالوا : كنتَ تقول :

جُندَب وما جُنْدَب والأَقطَع زيد الخير .

فقال : رجلان يكونان فى هذه الأمة يَضرِب أحدُهما ضربة يفرُق بين الحقّ والباطل، وتُقطَع يدُ الآخر فى سبيل الله ، ثم يُتبِع اللهُ آخرَ جسده بأوّله ، وكان زيد هو زيدُ بنُ صُوحان ، وقطِعتْ يدُه فى سبيل الله يوم جَلولاء ، وقُتلَ يومَ الجمل مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وأمّا جندَب هذا فدخَل على الوليد بن عُقْبة وعنده ساحر يقال له : أبو شَيْبان ، يأخذ أعين الناس ، فيُخرج مصارينَ بطنِهم ثم يرُدّها ، فجاء مِنْ خَلْفِه فضرَبه فقتَله ، وقال :

العنْ وليداً وأبا شَيْبانْ وابنَ حُبَيش راكبَ الشّيطانْ
* رسولَ فرعونَ إلى هامانْ [1] *

قال أبو الفرج : وقد رُوى أنّ هذا الساحر كان يدخُل عند الوليد فى جَوْف بقرة حيّة ، ثم يخرُج منها ؛ فرآه جُندَب فذهب إلى بيته ، فاشتمل على سيف ، فلمّا دخل الساحرُ فى البقرة قال جندب : ﴿ أَفَتأْتونَ السِّحرَ وأنتم تُبصِرونَ ﴾ [2]، ثم ضرب وَسَط البقرة فقطَعها وقطع الساحرَ معها ، فذُعر الناس ، فسجَنه الوليدُ ، وكتب بأمرِه إلى عثمان [3] .

* * *

قال أبو الفرج : فرَوى أحمدُ بن عبد العزيز ، عن حجّاج بن نصير ، عن قرّة ، عن

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤
(٢) سورة الأنبياء ٣
(٣) الأغانى ٤ : ١٨٤

محمّد بن سيرين ، قال : انطُلق بجُنْدَب بن كعب الأزدىّ قاتل الساحر بالكُوفة إلى السجن ، وعلى السّجن رجلٌ نَصْرانىٌّ من قِبَل الوليد ، وكان يرَى جندب بن كعب يقومُ بالليل ويُصبح صائماً ، فوَكّل بالسّجن رجلا ، ثم خرج فسأل الناس عن أفضل أهل الكوفة ؛ فقالوا : الأشعث بن قيس ، فاستضافه ، فجعل يراه ينام اللّيل ثم يُصبح فيدعو بغدَائه ، فخرج من عندهِ وسأل : أىُّ أهلِ الكوفة أفضل ؟ قالوا : جرير بنُ عبدِ الله، فذهب إليه فوَجَده ينام الليلَ ثمّ يُصبح فيدعو بغدَائه ، فاستقبل القبلة ، وقال : ربّى ربّ جُندَب ، ودِينى دِينُ جُندَب . ثمّ أسلم (١) .

قال أبو الفرج : فلمّا نزع عثمانُ الوليدَ عن الكوفة أمّر عليها سعيدَ بنَ العاص ، فلمّا قدِمَها قال :اغسلوا هذا المنبر ،فإنّ الوليد كان رجلا نجسا ، فلم يَصْعده حتّى غُسِل . قال أبو الفرج : وكان الوليدُ أسَنّ من سعيدِ بنِ العاص، وأَسْخَى نَفْساً، وألينَ جانبا، وأرضى عندَهم ، فقال بعضُ شعرائهم :

وجاءنا مِن بعدِه سعيدُ (٢) ينقُص فى الصاع ولا يزيدُ

وقال آخر منهم :

فرَرْنا من وليدَ إلى سعيدٍ كأهل الحِجْر إذْ فَزِعوا فبارُوا
يَلينا من قريشٍ كلّ عامٍ أميرٌ مُحدَثٌ أو مستَشارُ
لنا نارٌ تحرّقنا فنخشَى وليس لهم ـ ولا يخشَون ـ نارُ (٣)

قال أبو الفرج : وحدّثنا أحمد، قال: حدّثنا عمرُ ، عن المدائنىّ، قال : قَدِم الوليدُ بنُ

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٤

(٢) أول الرجز فى الأغانى :

* يا وَيْلَنَا قَدْ ذَهبَ الوليدُ *

(٣) الأغانى ٤ : ١٨٤

عقبة الكوفة فى أيّام معاوية زائرا للمغيرة بن شعبة ، فأتاه أشرافُ الكوفة فسلّموا عليه. وقالوا : واللهِ ما رأينا بعدَك مِثْلك ؛ فقال : أخَيْراً أم شرّا ! قالوا : بل خيراً ، قال : ولكنّى ما رأيتُ بعدَكم شرّا منكم . فأعادوا الثناء عليه ، فقال : بعض ما تأتُون به ! فوالله إنّ بُغضَكم لتَلَف ، وإن حبّكم لصَلَف[1] .

قال أبو الفرج : وَرَوى عمرُ بنُ شبّة ؛ أنّ قَبيصة بن جابر كان ممّن كثَّر[2] على الوليد ، فقال معاويةُ يوما والوليدُ وقبيصةُ عنده : يا قبيصة ، ما كان شأنُك وشأنُ الوليد ؟ قال : خيرٌ يا أميرَ المؤمنين ، إنّه فى أوّل الأمر وَصَل الرّحم ، وأحسَن الكلام ، فلا تسألْ عن شُكر وحُسن ثَناء ، ثم غَضِب على الناس وغَضِبوا عليه ، وكنّا معهم ، فإما ظالمون فنستغفِر الله ، و إمّا مظلومون فيَغفِر الله له ؛ فخُذْ فى غير هذا يا أميرَ المؤمنين ، فإنّ الحديث يُنسِى القديمَ . قال معاوية : ما أعلمُه إلّا قد أحسَن السّيرة ، و بَسَط الخير ، وقَبَض الشرّ. قال : فأنت يا أميرَ المؤمنين اليومَ أقدرُ على ذلك فافعله ، فقال : اسْكُتْ لا سَكَتَّ ، فسكَتَ وسكَتَ القومُ ، فقال معاوية بعد يسير : مالك لا تتكلّم ياقبيصة ، قال : نهيتَنى عمّا كنتُ أحبّ ، فسكتّ عمّا لا أحِبّ .

قال أبو الفرج : ومات الوليدُ بنُ عقبةَ فُوَيق الرّقة ، ومات أبو زُبيد هناك ، فدُفِنا جميعا فى موضع واحد ، فقال فى ذلك أشجَعُ السُّلَمىّ وقد مرّ بقبْرَيهما :

مَررتُ على عظام أبى زُبيدٍ — وقد لاحتْ ببلقعةٍ صَلُودِ
فكان له الوليدُ نديمَ صِدْقٍ — فنادَمَ قبرُه قبرَ الوليدِ
وما أدْرِى بمن تَبْدو المنايا — بحمْزَة أم بأشْجَعَ أم يزيدِ

قيل : هم إخوتُه ، وقيل : نُدَماؤه[3] .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمدُ بنُ عبد العزيز ، عن محمد بن زكريّا الغِلابىّ ،

(١) الأغانى ٤ : ١٨٤ (٢) كذا فى ا ، د ، وفى ب : « كبر » (٣) الأغانى ٤ : ١٨٥

عن عبد الله بن الضّحاك ، عن هشام بن محمّد،عن أبيه، قال : وفَد الوليدُ بنُ عقبة ـ وكان جواداً ـ إلى معاوية ، فقيل له : هذا الوليدُ بنُ عقبة بالباب ، فقال : والله ليرْجعنّ مغيظاً غـيرَ مُعطًى ، فإنّه الآن قد أتانا يقول : عليّ دينٌ وعليّ كذا ، ائْذَن له ، فأذن له ، فسأله وتحدّث معه، ثم قال له معاوية : أما والله إن كنّا لنُحِبّ إتيانَ مالك بالوادى ، ولقد كان يُعجب أميرَ المؤمنين ، فإن رأيتَ أن تهَبه ليزيدَ فافعل ، قال : هو ليزيدَ ، ثمّ خرج وجعل يختلف إلى معاوية ، فقال له يوما : انظُر يا أميرَ المؤمنين فى شأنى ، فإنّ عليّ مؤونة ، وقد أرهقَنى دَيْن ، فقـال له : ألا تَستحيي لنفسِك وحَسَبك ، تأخذ ما تأخُـذُه فتبذِّره ، ثم لا تنفكّ تَشـكُو دَيْناً ! فقال الوليد : أفعل، ثمّ انطلق من مكانه فسارَ إلى الجزيرة ،وقال يخاطب معاوية :

فإذا سئلتَ تقول : « لا » ... وإذا سألتَ تقول : هاتِ

تأبىَ فعالَ الخـيرِ لا ... تُروِى وأنتَ على الفُراتِ

أفلا تَميلُ إلى « نَعَمْ » ... أو ترْكِ « لا » حتّى المماتِ!

وبلغ معاويةَ شُخُوصُه إلى الجزيرة فخافه ، وكتب إليه : أقبِل ، فكَتَب :

أَعِفّ وأستعفِى كما قـد أمرتَنى ... فَأَعْطِ سِوَاىَ ما بدَا لكَ وابْخَلِ

سأحدُو رِكابى عنك إنّ عَزيمتى ... إذا نابَنِى أمرٌ كسلّة مُنصُـلِ

وإنّى امرؤٌ للنّأى مِنّى تَطرُّبٌ ... وليس شَباً قُفـلٍ عليّ بمُقْفَلِ

ثمّ رحل إلى الحجاز ، فبعث إليه معاويه بجائزة (١) .

***

وأمّا أبو عمر بنُ عبدالبرّ فإنّه ذَكَر فى " الأُستيعاب " فى باب الوليد،قال: إنّ له أخبارا فيها شَناعة تقطَع على سوء حاله ، وقُبح أفعاله ؛ غفَر الله لنا وله ؛ فلقد كان من رجال قُرَيش

(١) الأغانى ٤ : ١٨٧

ظَرْفا وحِلْما وشَجاعةً وجُوداً وأَدَبا ، وكان من الشّعراء المطبوعين . قال : وكان الأصمعىّ وأبو عُبيدة وابنُ الكَلْبىّ وغيرهم يقولون : إنه كان فاسقاً شِرِّيب خَمْر ، وكان شاعرا كريما . قال : وأخبارُه فى شُربِه الخمرَ ومنادَمَته أبا زُبَيد الطائىّ كثيرةٌ مشهورة ، ويَسُمج بنا ذِكرُها ، ولكنّا نذكر منها طرَفا . ثمّ ذَكَر ماذكره أبو الفرَج فى الأغانى ، وقال : إنّ خَبَر الصلاة وهو سَكْران ، وقوله : « أأزيدكم ؟ » خبرٌ مشهورٌ رَوَتْه الثّقات من نَقَلة الحديث .

قال أبو عمَر بنُ عبدِ البَرّ : وقد ذكر الطّبرىّ فى روايةٍ أنّه تغضّب عليه قومٌ من أهل الكوفة حسَدا وبَغْيا ، وشهدوا عليه بشُرب الخمر ، وقال : إنّ عثمانَ قال له : ياأخى اصْبِر ، فإن الله يأجُرُك ويبوء القومُ بإثمِك .

قال أبو عمر : هذا الحديث لا يَصِحّ عند أهل الأخبار ونَقَلَةِ الحديث ، ولا لَه عند أهلِ العِلم أصل ؛ والصحيحُ ثبوتُ الشهادةِ عليه عندَ عثمان ، وجلْدُه الحدّ ، وأنّ عليّا هو الّذى جَلَده . قال : ولم يَجلِده بيدِه ، وإنّما أمَر بجَلْده ، فنُسِب الجلدُ إليه .

قال أبو عمر : ولم يَروِ الوليدُ من السنّة مايحتاج فيها إليه ، ولكنّ حارثةَ بنَ مضرّب رَوَى عنه أنّه ما كانت نبوّة إلّا كان بعدَها مُلْك (١) .

(١) الاستيعاب ١٥٥٢ وما بعدها (طبعة نهضة مصر)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعريّ وهو عامله على الكوفة ، وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل :

من عبدِ الله عَلِيٍّ أميرِ المؤمنينَ إلى عبدِ اللهِ بن قيس : أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُولِي فَارْفَعْ ذَيْلَكَ ، وَاشْدُدْ مِئْزَرَكَ ، وَاُخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ ، وَانْدُبْ مَنْ مَعَكَ ، فَإِنْ تَحَقَّقْتَ فَانْفُذْ ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ ، وَايْمُ اللهِ لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، وَلَا تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قِعْدَتِكَ ، وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ ، كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو ، وَلٰكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى ، يُرْكَبُ جَمَلُهَا ، وَيُذَلَّلُ صَعْبُهَا ، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا . فَاعْقِلْ عَقْلَكَ ، وَامْلِكْ أَمْرَكَ ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ ، وَلَا فِي نَجَاةٍ ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نَائِمٌ حَتَّى لَا يُقَالُ : أَيْنَ فُلَانٌ ! وَاللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ مَا يُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ ! وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرحُ :

المراد بقوله : « قولٌ هوَ لك وعليك » ، أنّ أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة: إنّ عليًّا إمامُ هُدًى ، وبَيْعته صحيحة ، إلّا أنّه لا يجوز القِتال معه لأهل القِبْلة ، وهذا القولُ بعضُه حقٌ ، وبعضه باطل .

وقولُه : « فارفَع ذَيْلك » ، أى شمِّر للنّهوض معى واللّحاقِ بى ، لِتشهدَ حربَ أهلِ البصرة ، وكذلك قولُه : « وأشددْ مِئْزَرَك » ، وكلتاهما كنايتان عن الجِدّ والتشمير فى الأمر .

قال : « واخرج من جُحْرِك » ، أمرٌ له بالخروج من منزلِه للّحاق به ، وهى كِنايةٌ فيها غَضٌّ من أبى موسى واُستهانةٌ به لأنّه لو أراد إعظامَه لقال : واُخرج من خِيسِك[1] ، أو من غِيلِك[2] كما يقال للأسد ، ولكنّه جعله ثعلبا أو ضبّا .

قال : « واندُب مَنْ معك » ، أى واندُب رعيّتك من أهل الكوفة إلى الخروج معى واللّحاق بى .

ثم قال : « و إن تحقّقت فانفذ » ، أى أَمرُك مبنىٌّ على الشكّ ، وكلامك فى طاعتى كالمتناقض ، فإن حققّتَ لزومَ طاعتى لك فانفذ ، أى سِرْ حتى تَقدم علىّ ، و إن أقمتَ على الشكّ فاُعتزِل العمَل ، فقد عزلتُكَ .

قوله : « وأيمُ الله لتُؤتَينّ » ، معناه إن أقمتَ على الشكّ والاُستِرابة وتثبيطِ أهل الكوفة عن الخروج إلىّ وقولِك لهم : لا يحلّ لكم سَلّ السيف لا مع علىّ ولا مع طلحة، والزَموا بيوتَكم ، واكسِروا سيوفَكم، لتأتينّكم وأنتم فى منازلكم بالكوفة أهل البصرة مع طلحة ونأتينّكم نحن بأهل المدينة والحجاز ، فيجتمع عليكم سيفان من أمامكم ومن خلفِكم ، فتكونَ ذلك الداهيةُ الكبرى التى لا شَواةَ لها .

قولُه : « ولا تترك حتّى يخلط زُبْدُك بخاثِرك » تقول للرجل إذا ضربتَه حتى أثخنتَه : لقد ضربتُه حتّى خلطتُ زُبْدَه بخاثِرِه ، وكذلك حتّى خلطتُ ذائبه بجامِدِه ، والخاثِر : اللّبن الغليظ ، والزُّبد خلاصة اللبن وصَفوَته ، فإذا أثخنتَ الإنسانَ ضرْبا كنتَ كأنك

---

(١) الخيس : معرّس الأسد (٢) الغيل : الشجر الكثير الملتف

خلطتَ ما رَقّ ولَطُف من أخلاطه بما كَثُف وغَلُظ منها ، وهـذا مَثَل ، ومعناه لتَفسُدَنّ حالُك ولتُخَلَّطَنّ ، وليضطربنّ ما هو الآن منتظمٌ من أمرك .

قوله : « وحتى تَعجَل عن قِعدَتك » ، القِعدَة بالكسر هيئة القعود كالجلسة والرِّكبة أى وليعجلنّك الأمرُ عن هيئة قعودك ، يصف شدّة الأمر وصعوبته .

قوله : « وتحذر مَنْ أمامك كحَذَرك من خَلفَك » ، يعنى يأتيك مِن خلفِك إن أقمتَ على مَنْع النـاس عن الحرب معنا ومعهم أهل البصرة وأهل المدينة ، فتـكون كما قال الله تعالى ، ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ منـكم ﴾ [1] .

قوله : « وما هى بالهُوَينَى الّتى ترجو » الهُوَينَى تصغير « الهونى » التى هى أنثى « أهوَن » ، أى ليست هذه الداهية والجائحة التى أذكُرها لك بالشىء الهيّن التى ترجو اندفاعَه وسهولتَه .

ثم قال : بل هى الداهيَـة الـكبرى ستفعل لا مَحالة إن استمررتَ على ما أنت عليه ، وكنَى عن قوله : « ستفعل لا محالة » بقوله : « يركب جملها » وما بعده ، وذلك لأنّها إذا ركب جملُها ، وذلّل صعبُها وسهل وعرُها فقد فعلت ، أى لا تقل : هذا أمرٌ عظيم صعبُ المرام ، أى قصد الجيوش من كلا الجانبين الـكوفة ، فإنه إن دام الأمرُ على ما أشرتَ إلى أهل الـكوفة من التخاذُل والجلوس فى البيوت ، وقولك لهم : « كن عند الله المقتول» لتقعنّ بموجب ماذكرته لك، وليرتـكبنّ أهل الحجاز وأهـل البصرة هـذا الأمرَ المستصعب ، لأنّا نحن نطلب أن نَملك الـكوفة ، وأهـلُ البصرة كذلك ، فيجتمع عليها الفريقان .

ثم عاد إلى أمره بالخروج إليه فقال له : «فاعقِل عَقْلك ، وأملِك أمرَك ، وخذ نصيبَك

---

(٤) سورة الأحزاب ١٠ .

وحَظّك » ، أى من الطاعة ، واتّباع الإمام الّذى لزِمتْك بيعته ، فإن كرهتَ ذلك ، فتنحّ عن العمل فقد عزلتُك . وأبعُد عنّا لافى رحْبٍ أى لا فى سَعَة ، وهذا ضدّ قولهم : مَرْحبا .

ثم قال : فجديرٌ أن تكفى ما كُلّفته من حضور الحرْب وأنت نائم ، أى لست معدودا عندنا ولا عندَ الناس من الرّجال الّذين تَفتقر الحروب والتّدبيرات إليهم ، فسيُغنى اللهُ عنك ولا يقال : أين فلان .

ثم أَقسَم أنه لحقّ ، أى أنّى فى حرب هؤلاء لَعَلَى حقّ ، وإن من أطاعنى مع إمام مُحِقّ ليس يُبالى ماصنَع الملحدون ، وهذا إشارةٌ إلى قولِ النبىّ صلّى الله عليه وآله : « اللهمّ أدِرِ الحقّ معه حيثما دارَ » .

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتابه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ ، وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلا كَرْهًا ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه وآلهِ حَرْبًا .

وَذَكَرْتَ أَنِّى قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، وَذَلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ ، فَلَا عَلَيْكَ ، وَلَا الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ .

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِى فِى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ ، فَإِنِّى إِنْ أَزُرْكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِى إِلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْك ، وَإِنْ تَزُرْنِى فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِى أَسَدٍ :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

وعِنْدِى السَّيْفُ الَّذِى أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وخالِكَ وأَخِيكَ فى مَقامٍ واحِدٍ .

وإِنَّكَ واللهِ ما عَلِمتُ الأَغْلَفُ الْقَلْبِ ، الْمُقارِبُ الْعَقْلِ ، والأَوْلَى أَنْ يُقالَ لَكَ : إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لا لَكَ ، لِأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضالَّتِكَ ، ورَعَيْتَ غَيْرَ سائِمَتِكَ ، وطَلَبْتَ أَمراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ولا فى مَعْدِنِهِ ، فما أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ !

وقَرِيبٌ ما أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمامٍ وأخْوالٍ ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقاوَةُ وتَمَنِّى الْباطل عَلَى الجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ صلّى الله عليهِ وآلهِ ، فَصُرِعُوا مَصارِعَهُمْ ، حَيْثُ عَلِمْتَ لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً ، ولَمْ يَمْنعُوا حَرِيماً ، بِوقْعِ سُيُوفٍ ما خَلاَ مِنها الْوَغَى ، ولَمْ تُماشِها الْهُوَيْنى .

وقَدْ أكْثَرْتَ فى قَتَلَةِ عُثْمانَ ؛ فادْخُلْ فيما دَخَلَ فيه النَّاسُ ، ثُمَّ حاكِمِ القَوْمَ إلَىَّ أَحْمِلْكَ و إِيَّاهُمْ عَلَى كِتاب اللهِ تعالى ، وأَمَّا تِلْكَ الَّتى تُرِيدُ ؛ فإنَّها خُدْعَةُ الصَّبِىِّ عَنِ اللَّبَنِ فى أوَّلِ الْفِصالِ ، والسَّلامُ لأهْلِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

[كتاب معاوية إلى علىّ]

أمَّا الكتاب الذى كتبه إليه معاوية ، وهذا الكتاب جوابه ، فهو :

من معاوية بن أبى سفيان ، إلى علىّ بن أبى طالب :

أما بعد ، فإنّا بنِي عبد مناف لم نزل نَنْزعُ من قَلِيب واحد ، ونجرِى فى حَلْبة واحدة ، ليس لبَعْضنا على بعض فضل ، ولا لقائمنا على قاعدنا فخر ؛ كلمتنا مؤتلفة ، وألفتُنا جامعة ، ودارُنا واحدة ، يجمعنا كرم العِرْق ، ويَحوينا شرَفُ النِّجار ، ويحنُو قويُّنا على ضعيفنا ، ويواسي غنيُّنا فقيرَنا ، قد خَلصَتْ قلوبُنا من وَغَل الحسد ، وطَهُرتْ أنفسُنا من خُبْث النيّة ، فلم نزل كذلك حتى كان منك ما كان من الإدهان فى أمر ابن عمّك ، والحسد له ، ونُصرة الناس عليه ، حتى قُتِل بمشهدٍ منك ؛ لا تدفع عنه بلسان ولا يد . فليتك

أظهرت نصره، حيث أسررت خبره، فكنت كالمتعلق بين الناس بعدوٍ[1] وإن ضعف، والمتبرّئ من دمه بدفع وإن وَهن، ولكنك جلستَ فى دارك تدُسّ إليه الدّواهى، وترسل إليه الأفاعى؛ حتى إذا قضيتَ وَطرَك منه أظهرتَ شماتة، وأبديت طلاقة، وحسرت للأمر عن ساعدك، وشمّرت عن ساقك، ودَعوت الناس إلى نفسك، وأكْرهت أعيان المسلمين على بَيعتِك، ثم كان منك بعد ما كان من قتلك شيْخَى المسلمين أبى محمد طلحة وأبى عبد الله الزّبير، وهما من الموعُودين بالجنّة، والمبشَّر قاتل أحدِهما بالنَّار فى الآخرة، هذا إلى تشريدك بأمّ المؤمنين عائشة وإحلالها محل الهون، مبتذَلة بين أيدى الأعراب وفَسَقة أهل الكوفة، فمن بين مشهِّرٍ لها، وبين شامِت بها، وبين ساخر منها، ترى ابنَ عمّك كان بهذه لو رآه راضيا، أم كان يكون عليك ساخطا، ولك عنه زاجراً! أن تؤذى أهله وتُشَرّد بحليلته، وتسفك دماء أهل مِلّته، ثم تركك دار الهجرة التى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عنها: «إنّ المدينة لتنفى خَبثها كما ينفى الكير[2] خبثَ الحديد» فلعمْرى لقد صَحّ وعدُه وصدق قوله، ولقد نَفَتْ خَبَثَها، وطردتْ عنها من ليس بأهل أن يستوطِنها، فأقمت بين المِصرَين، وبَعُدْت عن بركة الحرميْن، ورضيتَ بالكوفة بدلا من المدينة، وبمجاورة الخورْنق والحيرة عوضا عن مجاورة خاتم النبوّة، ومن قبل ذلك ما عيبت خليفتىْ رسول الله صلّى الله عليه وسلم أيام حياتهما، فقعدتَ عنهما وألّبتَ عليهما، وامتنعتَ من بيعتهما، ورُمتَ أمرًا لم يرَكَ الله تعالى له أهلا، ورقيت سُلّماً وعراً، وحاولت مقاما دحْضا، وادّعيت ما لم تجد عليه ناصراً؛ ولعمرى لو وَليتها حينئذ لما ازدادت إلاّ فسادا واضطرابا، ولا أعقبتْ ولايتكها إلا انتشارا وارتدادا؛ لإنك الشامخ بأنفه، الذاهب بنفسه، المستطيلُ على الناس بلسانه ويده؛ وها أنا سائرٌ إليك فى جمع

---

(١) ب: «بعذر».

(٢) الكير: زق ينفخ فيه الحداد.

من المهاجرين والأنصار تحفُّهم سيوفٌ شاميّة ، ورماحٌ قَحْطَانيّة ، حتى يحا كموك إلى الله . فانظر لنفسك وللمسلمين ، وادفع إلىّ قَتَلةَ عثمان ؛ فإنهم خاصّتك وخلصاؤك والمحدِقون بك، فإن أبيت إلاّ سلوكَ سبيل اللَّجاج ، والإصرار على الغىّ والضلال ، فاعلم أنّ هذه الآية إنما نزلتْ فيك وفى أهل العراق معك : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتيها رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بأنْعُمِ اللهِ فأَذاقَهَا اللهُ لِباَسَ الْجُوعِ والْخوفِ بما كانُوا يَصْنَعُون (١) ﴾ .

* * *

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل ومعانيه ، قال عليه السلام : لعمرى إنّا كنا بَيْتاً واحدا فى الجاهلية ، لأنا بنو عبد مناف ، إلاّ أن الفرقة بيننا و بينكم حَصلتْ منذ بعث اللهُ محمداً صلّى الله عليه وآله ، فإنّا آمنا وكفرتم ، ثم تأكّدت الفُرقة اليومَ بأنّا استقمنا على منهاج الحق وفتِنتم .

ثم قال: «وما أسلم مَن أَسلمنكم إلا كَرْها »، كأبى سفيان وأولاده يزيد ومعاوية وغيرهم من بنى عبد شمس .

قال : « و بعد أن كان أَنْف الإسلام محارباً لرسول الله صلّى الله عليه وآله » أى فى أوّل الإسلام ، يقال : كان ذلك فى أَنْف دولة بنى فلان ، أى فى أوّلها ، وأَنْف كلّ شىء أوّله وطرَفه ، وكان أبو سُفْيانَ وأهله من بنى عبد شمس أشدَّ الناس عَلَى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فى أوّل الهجرة ، إلى أن فتح مكةَ . ثم أجابه عن قوله : « قتلتَ طلحة والزبير ، وشرّدت بعائشة ، ونزلتَ بين المصرين » بكلام مختصر أعرض فيه عنه

(١) سورة النحل ١١٢ .

هَواناً به ، فقال : هذا أمرٌ غبتَ عنه ، فليس عليك كان العدوان الذى تزْعُم ، ولا العذرُ إليك لو وجب علىّ العذرُ عنه .

فأما الجواب المفصّل فأن يقال : إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكثهما ، ولو استقاما على الطريقة لسلِما ، ومن قتله الحق فدمه هدَر ، وأما كونهما شيخين من شيوخ الإسلام فغيرُ مدفوع؛ ولكن العيب يَحدُث ، وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادمَيْن على ماصنعا ، وكذلك نقول نحن ؛ فإن الأخبار كثرت بذلك، فهما من أهل الجنّة لتوبتهما؛ ولولا توبتُهما لكانا هالكين كما هلك غيرُهما ، فإن الله تعالى لا يحابى أحدا فى الطاعة والتقوى ، ﴿ لِيَهلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بيّنة وَيَحْيَا مَن حَىَّ عن بينةٍ[1] ﴾ .

وأما الوعد لهما بالجنّة فمشروط بسلامة العاقبة ، والكلام فى سلامتهما ، وإذا ثبتتْ توبتهما فقد صحّ الوعد لهما وتحقق ؛ وقوله : « بشّر قاتل ابن صفية بالنار » ، فقد اختُلف فيه ،فقال قومٌ من أرباب السِّير وعلماء الحديث : هو كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام غيرَ مرفوع ، وقوم منهم جعلوه مرفوعا ، وعلى كلّ حال فهو حقّ لأن ابن جُرموز قتله مولِّيا خارجا من الصفّ ، مفارقا للحرب ؛ فقد قتله على توبةٍ وإنابةٍ ورجوع من الباطل ، وقاتلُ مَنْ هذه حاله فاسقٌ مستحقّ للنار ؛ وأما أمّ المؤمنين عائشة فقد صحّت توبتها، والأخبارُ الواردة فى توبتها أكثر من الأخبار الواردة فى توبة طلحة والزبير ، لأنها عاشتْ زمانا طويلا ، وهما لم يبقيا ، والذى جرَى لها كان خطأ منها ، فأىّ ذنب لأمير المؤمنين عليه السلام فى ذلك ! ولو أقامت فى منزلها لم تُبتذَل بين الأعراب وأهل الكوفة ؛ على أن أمير المؤمنين عليه السلام أكرَمها وصانَها وعظّم من شأنها ، ومَنْ أحب أن يقف على ما فعله معها فليطالع كتب السيرة . ولو كانت فعلتْ بعمر ما فعلتْ به ، وشقّت عصا الأمة عليه ، ثم ظفر بها، لقتلها ومزّقها إرَباً إرَباً ، ولكنّ عليّا كان حليما كريما .

---

(١) سورة الأنفال ٤٢ .

وأمّا قوله : « لو عاش رسول الله صلّى الله عليه وسلم فبرَبِّكَ هل كان يرضَى لك أن تؤذى حليلته ! » فلعلىّ عليه السلام أن يقلب الكلام عليه ، فيقول : أفتراه لو عاش أكان يرضى لحليلته أن تؤذى أخاه ووصيّه ! وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضى لك يابن أبى سُفيان أن تُنازع عليا الخلافة وتفرق جماعة هذه الأمة ! وأيضا أتراه لوعاش أكان يرضى لطلحة والزبير أن يبايعا ، ثم ينكُثا لا لسبب ، بل قالا : جئنا نطلبُ الدراهم ، فقد قيل لنا : إنّ بالبصرة أموالاً كثيرة ، هذا كلامٌ يقوله مثلهما !

فأما قولُه: « تركتَ دارَ الهجرة» ، فلا عيبَ عليه إذا انتقضتْ عليه أطرافُ الإسلام بالبَغْى والفَساد أن يَخرُج من المدينة إليها ، ويهذّب أهلها ؛ وليس كلُّ من خَرَج من المدينة كان خَبثًا ، فقد خَرَج عنها عمرُ مراراً إلى الشام . ثم لعلىّ عليه السلام أن يقلِب عليه الكلامَ فيقول له : وأنتَ يا معاوية قد نَفَتْكَ المدينةُ أيضا عنها ، فأنت إذاً خبث ، وكذلك طلحةُ والزبيرُ وعائشةُ الّذين تتعصّب لهم وتحتجُّ على النّاس بهم ، وقد خرج عن المدينة الصّالحون ، كابن مسعود وأبى ذَرٍّ وغيرهما ، وماتُوا فى بلادٍ نائيةٍ عنها .

وأمّا قوله : « بعدت عن حُرْمة الحرمين ، ومجاوَرة قبرِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم » ، فكلام إقْناعىٌّ ضَعيف ، والواجب على الإمام أن يقدّم الأهمّ فالأهمّ من مصالح الإسلام ، وتقديم قتال أهل البَغْى على المقام بين الحَرمين أَولَى . فأمّا ما ذَكَره من خِذْلانه عثمانَ وشماتتِه به ودعائه النـاسَ بعد قتلِه إلى نفسه وإكراهه طلحةَ والزّبير وغيرهما على بَيْعته فكلّه دعوى والأمرُ بخلافها ، ومن نَظَر كتب السّير عرَف أنَّه قد بَهَته وادّعى عليه مالم يقَع منه .

وأمَّا قوله : «التويتَ على أبى بكر وعمر ، وقعدت عنهما ، وحاولتَ الخلافة بعدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم » ، فإنَّ عليًّا عليه السلام لم يكن يَجحَد ذلك ولا يُنكِره ، ولا رَيْب

أنّه كان يدّعى الأمر بعد وفاةِ رسول الله صلّى الله عليه وآله لنفسه على الجملة ، إمّا لنص كما تقوله الشيعة أو لأمرٍ آخَرَ كما يقوله أصحابُنا . فأمّا قوله : « لو وليتها حينئذ لفسد الأمر واضطرب الإسلام » ، فهذا علمُ غيب لا يعلمه إلا الله ، ولعلّه لو وَلِيهَا حينئذ لاستقام الأمرُ وصَلُح الإسلام وتمهّد ، فإنّه ما وقع الاضطراب عند ولايته بعدَ عثمان إلّا لأنّ أمرَه هانَ عندَهم بتأخّره عن الخلافة ، وتقدّم غيره عليه ، فصغُر شأنه فى النفوس ، وقرّر من تقدّمه فى قلوب الناس أنّه لا يَصلُح لها كلّ الصلاحية ، والناسُ على مايحصُل فى نفوسهم ، ولو كان وَلِيَهَا ابتداء وهو على تلك الحالة التّى كان عليها أيّام حياة رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وتلك المنزلة الرفيعة والاختصاص الّذى كان له ، لكان الأمرُ غيرَ الّذى رأيناه عند ولايته بعد عثمان. وأمّا قوله : « لأنّك الشامخُ بأنفه ،الذاهبُ بنفسه» ، فقد أسرف فى وصفه بما وَصفه به ، ولا شكّ أنّ عليّا عليه السلام كان عندَه زَهْو لكن لا هكذا ، وكان عليه السلام مع زَهْوه ألطف الناس خُلُقا .

***

ثمّ نرجع إلى تفسير ألفاظه عليه السلام ؛ قوله : « وذكرت أنّك زائرِى فى جَمع من المهاجرين والأنصار ، وقد انقطعَت الهجرةُ يوم أُسِر أخوك » ، هذا الكلامُ تكذيبٌ له فى قوله : « فى جمعٍ من المهاجرين والأنصار » ، أى ليس معك مهاجر لأنّ أكثر من معك ممن رأى رسول الله صلى الله عليه وآله هم أبناء الطُّلَقاء ، ومن أسلَمَ بعد الفتح ، وقد قال النبىّ صلى الله عليه وآله : « لا هِجرةَ بعد الفتْح » .

وعبّر عن يوم الفَتْح بعبارة حَسَنة فيها تقريع لمعاوية وأهلِه بالكفر ، وأنّهم ليسوا من ذوى السّوابق ، فقال : « قد انقطعتْ الهجرةُ يومَ أُسِر أخوك » ، يعنى يزيد بن أبى سُفيان أُسِرَ يوم الفَتْح فى باب الخَنْدَمة ، وكان خرَج فى نفر من قريش يُحارِبون ويَمنَعون

من دخول مكّة ، فقُتِل منهم قومٌ وأُسِر يزيدُ بنُ أبى سفيان ، أَمَرَه خالدُ بنُ الوليد ، فخلّصه أبو سُفْيان منه ، وأدخَلَه دارَه ؛ فأَمِن لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يومئذ : « من دخل دارَ أبى سُفْيانَ فهو آمِن » .

***

[ذكر الخبر عن فتح مكة]

ويجب أن نذكر فى هذا الموضع ملخّصَ ماذَكَره الواقدىّ فى كتاب "المغازِى" فى فتح مكّة ، فإن الموضع يقتضيه ، لقوله عليه السلام : « ما أسلم مسلمُكم الا كَرْها » ، وقوله : « يومَ أُسِر أخوكَ » .

قال محمد بن عمر الواقدىّ فى كتاب "المَغازى" :

كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم قد هادن قريشاً فى عام الحُدَيْبيَة عشر سنين ، وجعل خزاعة داخلةً معه ، وجعلت قريشٌ بنى بكر بن عبد مناة من كنانة داخلةً معهم ، وكان بين بنى بكر و بين خُزاعة تِراتٌ فى الجاهليّة ودماء ، وقد كانت خُزاعةُ من قبلُ حالفتْ عبدَ المطّلب ابن هاشم ، وكان معها كتابٌ منه ، وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يَعرِف ذلك ، فلمّا تمّ صُلح الحُدَيْبيَة وأمِن الناسُ سَمِع غلامٌ من خُزاعة إنساناً من بنى كنانة يقال له : أَنَس بن زُنيم الدّؤلى[1] يُنشِد هجاء له فى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فضربه فشَجّه ، فخرج أنس إلى قومه فأراهم شجّته فثار بينهم الشرّ ، وتذاكروا أحقادَهم القديمة ، والقوم مجاورون بمكّة ، فاستنجدتْ بكر بن عبد مناة[2] قُرَيْشا على خُزاعة ، فمن قريشٍ مَنْ كره ذلك وقال : لا أنقُض عهدَ محمّد ، ومنهم من خفّ إليه . وكان أبو سُفْيان أحدَ من كَرِه ذلك ، وكان صَفْوان بن أميّة وحُوَيْطب بن عبد العُزّى ومُكْرَز بن حَفْص ممّن أعان بنى بكر ، ودَسّوا

---

(١) ا « الديلى » . (٢) ب : « مناف » ، وصوابه فى ا ، د .

إليهم الرجالَ بالسلاح سرّا ، و بيّتوا خُزاعة ليلا ، فأوقعوا بهم ، فقتلوا منهم عشرين رجلا ، فلمّا أصبحوا عاتبوا قريشاً ، فجحدتْ قريشٌ أنّها أعانت بكرا ، وكذّبت فى ذلك ، وتبرّأ أبو سُفْيانَ وقوم من قريش مما جرَى ، وشَخَص قومٌ من خُزاعةَ إلى المدينة مستصرِخِين برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فدَخلوا عليه وهو فى المسجد ، فقامَ عمرو بن سالم الُخزاعىّ فأنشده :

لاهُمَّ إنّى ناشـدٌ محمّدا ... حِلْفَ أبينا وأبيه الأتـلدَا[1]

لـكنتَ والداً وكنّا وَلَدا[2] ... ثمّتَ أسلَمْنـا ولم ننزع يَدَا

إنّ قريشاً أخلفوك المَوْعِـدا ... ونَقَضوا ميثـاقك المؤكَّدا

همْ بيتّونا بالوَتير هُجَّدا[3] ... نتـلو القُرانَ رُكّعا وسُجّدا

وَزَعموا أن لستَ تدْعُو أحدَا ... وهمْ أذلّ وأقـلّ عَـددَا

فانصرْ هَداكَ اللهُ نَصراً أيّدا[4] ... وادْعُ عبـاد الله يأتُوا مَدَدا[5]

فى فيلقٍ كالبَحْر يجرى مُزْبِدا[6] ... فيهمْ رسولُ الله قد تجـرّدا

* قرمٌ لقَومٍ من قُروم أصيَدَا *

ثمّ ذَكروا له ما أثار الشرّ ، وقالوا له : إنّ أنَس بنَ زُنَيم هجاك ، وإنّ صَفْوان ابن أميّة وفلانا وفلانا دَسُّوا إلينا رجالَ قريش مُستنصرين ، فبيَّتونا بمنزلنا بالوَتير فقتّلونا ، وجئناك مستصرخين بك ، فزَعموا أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قام مُغضَبا يجرّ رداءه ويقول : « لا نُصِرتُ إن لم أنصرْ خُزاعةَ فيما أنصرُ منه نفسى ! » .

---

(١) فى الأصول : « الأملدا » وصوابه من ابن هشام ٤ : ١٠ . والأتلد : القديم
(٢) ابن هشام : « قد كنتم ولدا » . (٣) الوتير : اسم ماء بعينه
(٤) أيداً : قوياً ؛ وفى ب : « أبداً » ؛ والصواب ما فى ا وابن هشام .
(٥) المدد : العون . (٦) الفيلق : العسكر .

قلتُ : فصادَفَ ذلك من رسول الله صلّى الله عليه وآله إيثارا وحُبّا لنقْض العهد ، لأنّه كان يريد أن يفتح مكّة وهمّ بها فى عام الُحدَيْبية فصُدّ ، ثمّ همّ بها فى عُمْرة القضيّة ، ثم وقف لأجل العهد والميثاق الّذى كان عَقَده معهم ، فلمّا جرى ما جرَى على خُزاعة أغتنَمَها .

قال الواقدىّ : فكتب إلى جميع الناس فى أقطار الحجاز وغيرها يأمُرهم أن يكونوا بالمدينة فى رمضان من سنة ثمانٍ للهجرة ، فوافَتْه الوُفُود والقبائل من كلّ جهة ، فخرج من المدينة بالناس يوم الأربعاء لعشرٍ خَلَون من رمضانَ فى عشرةِ آلاف ، فكان المهاجرُون سبعمائة ، ومعهم من الخيل ثلثمائة فرسٍ ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ، معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مُزَيْنَةُ ألفاً ، فيها من الخيل مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة ، فيها من الخيل ثلاثون فرسا ، وكانت جُهَينةُ ثمانمائة معها خمسون فرسا ، ومن سائر الناس تمامُ عشرة آلاف ، وهم بنو ضَمْرة وبنو غِفار وأشجَع وبنو سُلَيم وبنو كَعْب بن عمرو وغيرهم . وعَقَد للمهاجرين ، ثلاثة ألوية : لواء مع علىّ ، ولواء مع الزبير ، ولواء مع سعد بن أبى وقّاص ، وكانت الرّاياتُ فى الأنصار وغيرهم ، وكتم عن الناس الخبر ، فلم يعلم به إلّا خواصّه ، وأمّا قريش بمكّة فندِمتْ على ماصنعتْ بخُزاعة ، وعرَفَت أنّ ذلك انقضاء ما بينهم وبين النبىّ صلّى الله عليه وسلّم من العهد ، ومَشَى الحارثُ بنُ هشام وعبدُ الله بنُ أبى ربيعة إلى أبى سُفْيان فقالا له : إنّ هذا أمرٌ لا بدّ له أن يُصلَح ، والله إن لم يُصلَح لا يَرُوعكم إلّا محمّدٌ فى أصحابه . وقال أبو سُفْيان : قد رأتْ هندٌ بنتُ عُتْبة رؤيا كرهَتْها وأفظَعَتْها ، وخفتُ من شرّها ، قالوا : مارأت ؟ قال : رأت كأنّ دماً أقبل من الحَجُون يَسيل حتّى وقف بالخَندَمة مَلِيًّا ، ثمّ كأنّ ذلك الدم لم يكن ؛ فكَرِه القومُ ذلك وقالوا : هذا شرّ .

قال الواقدىّ : فلمّا رأى أبو سُفْيانَ ما رأى من الشرّ قال : هذا واللهِ أمرٌ لم أشهده

ولم أغِب عنه ، لا يُحمَل هذا إلّا علىّ ، ولا والله ما شُوورت ولا هوّنتَ[1] حيث بلغنى ، والله ليغزُونا محمّدٌ إنْ صدَق ظنّى وهو صادق ، ومالى بُدّ أن آتىَ محمّدا فأ كلّمه أن يزيد فى الهُدْنة ، ويجدّد العهد قبل أن يبلُغه هذا الأمر . قالت قريش : قد والله أصبتَ ؛ وندمتْ قريشٌ على ما صنعتْ بخُزاعة وعرفت أنّ رسولَ صلّى الله عليه وآله لابدّ أن يغزُوَها ؛ فخرج أبو سُفْيانَ وخرَج معه مولًى له على راحلتين ، وأسرَعَ السيرَ وهو يرى أنّه أوّل من خرج من مكّة إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم .

قال الواقدىّ : وقد رُوِىَ الخبر على وجهٍ آخر ، وهو إنّه لمّا قَدِم رَكْبُ خُزاعةَ على رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم فأخبَروه بمن قُتل منهم ، قال لهم : بمن تُهْمَتكم وطلبتكم ؟ قالوا : بنو بكر بن عبدِ مَناة ، قال : كلّها ؟ قالوا : لا ، ولكن تهمتنا بنو نُفاثة قَصْرةً[2] ، ورأسهم نَوْفل بن معاوية النُّفاثىّ ؛ فقال : هذا بطنٌ من بكر ، فأنا باعث إلى أهل مكة فسائلُهم عن هذا الأمر ، ومخيّرُهم فى خصال . فبعثَ إليهم ضَمْرة يُخيّرهم بين إحدى خلال ثلاث : بين أن يَدُوا خُزاعةَ ، أو يَبرءوا من حِلْف نُفاثة ، أو ينبِذ إليهم على سواء . فأتاهم ضَمْرة فخيّرهم بين الخلال الثلاث ، فقال قُرَيظة بن عبد عمرو الأعمى : أمّا أنْ نَدِىَ قتلى خُزاعة ، فإنا إنْ وَدَيْناهم لم يَبْق لنا سَبَد ولا لبَد[3] ، وأمّا أن نبرأ من حلف نُفاثَة ، فإنّه ليس قبيلة تحجّ هذا البيت أشدّ تعظيما له من نُفاثة ، وهم حُلَفاؤنا فلا نبرأ من حِلْفهم ؛ ولكنّا نَنْبِذ إليه على سواء. فعاد ضَمْرة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم بذلك ، وندمتْ قريشٌ أن ردّتْ ضَمْرة بما ردّتَه به .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى غيرُ ذلك ؛ رُوِى أنّ قريشاً لمّا ندمتْ على قتل خُزاعة وقالت : محمّد غازينا ، قال لهم عبدُ الله بن سعد بن أبى سَرْح ـ وهو يومئذ كافر مرتدّ

---

(١) ب : « هويت » ، وأثبت ما فى ا ، د . (٢) قصرة : أى هم دون غيرهم .
(٣) يقال : ما له سبد ولا لبد ؛ أى لا قليل ولا كثير .

عندهم : إنّ عندى رأياً ؛ إنّ محمدا ليس يَغْزوكم حتّى يُعْذِر إليكم ويُخيّركم فى خصال كلّها أهوَن عليكم من غَزْوه ، قالوا : ما هى ؟ قال: يرسل إليكم أن تَدُوا قَتْلى خُزاعة ، أو تبرّءوا من حِلْف من نَقَض العهد وهم بنو نُفاثة ، أو ينبذ إليكم العهد . فقال القومُ: أحْرِ بما قال ابنَ أبى سَرْح أن يكون ! فقال سُهَيل بنُ عمرو : ما خَصْلة أيسر علينا من أن نبرأ من حلف نُفاثة ، فقال شَيْبة بنُ عثمانَ العَبْدَرِىّ : حُطْتَ إخوالك[1] خُزاعة ، وغضبت لهم ! قال سهيل : وأىّ قريش لم تَلِد خُزاعة ! قال شيبة : لا ، ولكن نَدِى قَتلي خُزاعة فهو أهونُ علينا . فقال قُرَيظة بنُ عبد عمرو : لا والله لا نَدِيهم ولا نَبرأ عن نُفاثة أبرّ العَرَب بنا ، وأعمرهُم لبَيْت ربّنا ، ولكنْ نَنْبذ إليهم على سواء. فقال أبو سُفْيان : ماهذا بشىء، وما الرأىُ إلا جَحْد هذا الأمر أن تكون قريش دخلتْ فى نَقْض العهد ، أو قطع مدّة ، فإن قطعه قومٌ بغير هَوًى منّا ولا مَشُورة فما علينا ! قالوا : هـذا هو الرأى ، لا رأى إلّا الجحْد لكلّ ما كان من ذلك ؛ فقال : أنا أقسم أنّى لم أشهَد ولم أُوَامر ، وأنا صادق؛ لقد كرهتُ ما صَنَعتم ، وعرفتُ أن سيكون له يوم غماس[2] ، قالت قريش لأبى سُفْيان: فاُخرج أنتَ بذلك ؛ فخرج .

قال الواقدىّ : وحدثنى عبد الله بن عامر الأسلمىّ ، عن عطاء بن أبى مروان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لعائشة صبيحة الليلة التىأَوقعتْ فيها نُفاثة وقُرَيش بخُزاعة بالوتير : ياعائشة لقد حَدث الليلة فى خُزاعة أمر ؛ فقالت عائشة : يارسول الله ، أترى قريشا تجترئُ على نَقْض العهد بينك و بينهم ! أينقضون وقد أفناهم السيف ! فقال : العهد لأمر يريدُه الله بهم ، فقالت : خيرٌ أم شرٌّ يارسول الله ؟ فقال : خير .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عبدُ الحميد بن جعفر ، قال : حدّثنى عمْران بن أبى أَنس ، عن ابن عباس، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو يَجُرّ طَرَف رِدائه ويقول :

---

(١) ب : « إخوانك » ، وما أثبته من ا ، د (٢) يوم غموس ، أى شديد .

«لا نُصِرتُ إن لم أنصر بنى كَعب ـ يعنى خزاعة ـ فيما أنصرُ منه نفسى ! » .

قال الواقدىّ : وحدثنى حرام بن هشام ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكأنكم بأبى سُفْيان قد جاءكم يقول : جدِّد العهد وزِدْ فى المدنة وهو راجع بِسخْطه . وقال لبنى خُزاعة عمرُو بن سالم وأصحابه : ارجعوا وتفرّقوا فى الأوْدية ، وقام فدخل على عائشة وهو مُغضَب ، فدعا بماء ، فدخل يغتسل ؛ قالت عائشة : فأسمعُه يقول وهو يصُبّ الماء على رِجليه : « لا نُصِرْت إن لم أنْصُرْ بنى كعب » !

قال الواقدىّ : فأمّا أبو سفيان فخرج من مكة وهو متخوّف أن يكون عمرو بن سالم وَرَهْطه من خُزاعة سَبقوه إلى المدينة ، وكان القوم لمّا رَجعوا من المدينة وأتوا الأبواء تفرّقوا كما أوصاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهبت طائفةٌ إلى الساحل تعارض الطريق ، ولزم بُدَيل بن أمّ أصرَم الطريق فى نفر معه ، فلقيَهم أبو سُفيان ، فلما رآهم أشفق أن يكونوا لقُوا محمدا صلى الله عليه وسلم بل كان اليقينُ عنده ، فقال للقوم : منذُ كم عهدكم بيثرب ؟ قالوا : لا عهد لنا بها ، فعرَف أنهم كتموه ، فقال : أما معكم من تمرْ يثرب شىء تُطعِمونه ، فإن لتمر يثرب فَضْلا على تمر تِهامة ؟ قالوا : لا ، ثم أبت نفسه أن تقَرّ ، فقال : يا بُدَيل ، هل جئت محمدا ؟ قال : لا ولكنى سرتُ فى بلاد خُزاعة من هذا الساحل فى قتيل كان بينهم حتى أصلحتُ بينهم . قال : يقول أبو سفيان : إنك ـ والله ما علمتُ ـ برٌّ واصل . فلما راحَ بُدَيل وأصحابه جاء أبو سفيان إلى أبعار إبلهم ففتّها فإذا فيها النوى ، ووجد فى منزلهم نوى من تمر عجوة كأنه ألسنة العصافير ، فقال : أحلف بالله لقد جاء القومُ محمَّدا . وأقبل حتّى قَدِم المدينَة ، فدخل على النبىّ صلّى الله عليه وآله ، فقال : يامحمّد إنّى كنت غائبا فى صُلْح الحُدَيْبية ، فاُشدُد العهدَ وزِدْنا فى المدّة ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : ولذلك قدمتَ ياأبا سُفْيان ! قال : نعم ، قال : فهل كان قِبَلكم حَدَث ؟

فقال : مَعاذَ الله ! فقال رسولُ الله : فنحن على مَوثِقنا وصُلْحِنا يومَ الُحدَيْبية لا نغيّر ولا نبدّل . فقام مِن عنـدِه فدخل على ابنته أمّ حبيبة ، فلمّا ذهب ليجلسَ على فِراش رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم طَوَتْه دونَه ، فقال : أرغِبتِ بهذا الفراش عنّى ، أم رغبتِ بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراشُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأنت امرؤٌ نَجسٌ مُشرِك ، قال : يابنيّة ، لقد أصابَكِ بعدِى شرّ ، فقالت : إنّ الله هدانى للإسلام ، وأنتَ ياأبتِ سيّدُ قريش وكبيرُها ، كيف يَخفَى عنك فضلُ الإسلام ، وتَعبُد حَجَراً لايَسمَع ولا يُبصر ! فقال : ياعجباً ! وهذا منكِ أيضا ! أأترك ما كان يَعبُد آبائى وأتّبع دينَ محمّد ! ثمّ قام من عندِها فلقِىَ أبا بكر ، فـكلّمه ، وقال : تُـكلِّم أنتَ محمّدا ، وتجير أنتَ بين الناس . فقال أبو بكر : جِوارِى جوارُ رَسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، ثم لقِىَ عمرَ فـكلّمه بمثل ما كلّم به أبا بكر ، فقال عمر : واللهِ لو وجدتُ السِّنَّوْرَ تقاتِلـكم لأعنتُها عليكم . قال أبو سُفْيان: جُزِيت من ذِى رَحِم شرّا ! ثم دخل على عثمانَ بنِ عَفّان فقال له : إنه ليس فى القوم أحدٌ أمسّ بى رَحِماً منك ، فزِدْنى الهدنة وجَدِّد العهدَ ، فإنّ صاحبك لا يردّ عليك أبدا؛ والله مارأيتُ رجلا قطّ أشدّ إكراما لصاحبٍ من محمَّد لأصحابه ، فقال عثمان : جِوارِى جوارُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ فجاء أبو سُفْيان حتّى دخل على فاطمةَ بنتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فـكلّمها ، وقال : أجيرِى بين الناس ، فقالت : إنّما أنا امرأة ، قال: إنّ جِوارَكِ جائز ، وقد أجارت أختُكِ أبا العاص بنَ الرّبيع ، فأجازَ محمّد ذلك . فقالت فاطمة : ذلك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأبتْ عليه ، فقال : مُرِى أحدَ هذين ابنيك يُجيرُ بين الناس ، قالت : إنّهما صبيّان ، وليس يجيرُ الصبىّ ، فلمّا أبت عليه أتى عليّا عليه السلام فقال : ياأبا حَسَن ، أجِرْ بين الناس وكلِّم محمّداً لِيزيدَ فى الُمدّة ، فقال علىّ عليـه السلام : وَيْحك ياأبا سُفْيان ! إنّ رسولَ الله صلّى الله عليـه وسلم قد عَزَم

ألّا يفعَل ، وليس أحدٌ يستطيع أن يكلّمه فى شىء يكرَهه ، قال أبو سُفيان : فما الرأىُ عندكَ فتشير لأمرى ، فإنّه قد ضاقَ علىّ ؟ فمرنى بأمرٍ ترَى أنّه نافعى ، قال علىٌّ عليه السلام : واللهِ ما أَجِد لكَ شيئاً مِثل أن تقومَ فتُجيرَ بين الناس ، فإنّك سيّدُ كِنانة ، قال : أترى ذلك مُغنِيا عنّى شيئاً ؟ قال علىٌّ: إنّى لا أظنّ ذلك واللهِ ، ولكنّى لا أجدُ لكَ غيرَه . فقام أبو سُفْيانَ بين ظَهْرَى الناسِ فصاح : ألا إنّى قد أجرتُ بينَ الناس ، ولا أظنّ محمّدا[1] يحقِرنِى . ثمّ دخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال : يامحمّد ، ماأظنّ أن تردّ جِوارِى ! فقال عليه السلام : أنت تقول ذلك ياأبا سُفْيان ! ويقال : إنّه لمّا صاح لم يأتِ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وركِب راحِلَته وانطلَق إلى مكّة . ويُروَى أنه أيضا أَتَى سعدَ بنَ عُبادةَ فكلّمه فى ذلك ، وقال : ياأبا ثابت ، قد عرفتَ الذى كان بينى وبينَك ، وإنّى كنتُ لك فى حرَمِنا جاراً ، وكنتَ لى بيثربَ مِثلَ ذلك ، وأنت سيّدُ هذه المَدَرَة ، فأجِرْ بين الناس ، وزِدْنى فى المُدّة . فقال سعد : جِوارِى جِوارُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، مايُجير أحدٌ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فلمّا انطلق أبو سُفْيان إلى مكّة ، وقد كان طالتْ غَيبتُه عن قريش وأبطأ ، فاتّهموه وقالوا : نراه قد صَبَأ واتّبع محمّدا سِرّا ، وكَتَم إسلامَه ، فلمّا دخل على هندٍ ليلا قالت : قد احتُبستَ حتّى اتُّهمك قومُك ، فإن كنتَ جئتَهم بنُجْح فأنت الرجل ! وقد كان دنا منها ليغشاها ، فأخبرَها الخبر وقال : لم أجد إلّا ماقال لى علىّ ، فضربتْ برجِلها فى صدرِه وقالت : قُبّحتَ من رسولِ قَوْم !

قال الواقدىّ: فحدّثنى عبدُ الله بنُ عثمانَ ، عن أبى سليمان ، عن أبيه، قال : لمّا أصبح أبو سُفْيان حَلَق رأسَه عند الصّنَمين : أساف ونائلة ، وذَبَح لهما ، وجعل يَمسح بالدّم رءوسَهما ، ويقول : لا أفارق عبادَتَكما حتّى أموت على ماماتَ عليه أبى . قال : فعَل ذلك ليبرِّئَ نفسَه ممّا اتّهمتْه قريش به .

---

(١) د : « يجيرنى » .

قال الواقدىّ : وقالت قريش لأبى سُفْيان : ما صنعتَ ؟ وما وراءك ؟ وهل جئتَنا بكتاب من محمّد وزيادةٍ فى المُدّة؟ فإنّا لا نأمن من أن يَغزُوَنا ، فقال : واللهِ لقد أَبَى علىٌّ ، ولقد كلّمت عليه أصحابَه فما قَدَرتُ على شىء منهم ، ورَمَوْنى بكلمةٍ منهم واحدة ، إلّا أنّ عليًا قال لمّا ضاقت بىَ الأمور : أنت سيّد كِنانة ، فأجِرْ بين الناس ، فناديتُ بالجوار ، ثمّ دخلتُ على محمد فقلت : إنى قد أجرتُ بين الناس ، وما أظنّ محمّدا يردّ جِوارى ،فقال محمَّد: أنتَ تقول ذاك يا أبا سُفْيان ! لم يزِد على ذلك ، قالوا : مازاد علىّ على أن يَلعَب بك تلعّبا ؛ قال : فوالله ماوجدتُ غيرَ ذلك .

قال الواقدىّ : فحدّثنى محمّد بن عبد الله ، عن الزّهرىّ ، عن محمّد بن جُبَير بن مُطعِم ، قال : لمّا خرج أبو سُفْيان عن المدينة قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم لعائشة: جَهّزينا وأخفِى أمرَكِ . وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : اللهمّ خُذْ عن قريش الأخبارَ والعيونَ حتّى نأتيَهم بَغتةً ؛ ورُوِى أنه قال : اللّهمّ خُذْ على أبصارهم فلا يرَوْنى إلّا بغتة ، ولا يَسمَعون بى إلّا فجأة . قال : وأخذ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الأنْقابَ وجعل عليها الرجالَ ، ومَنعَ مَنْ يخرج من المدينة ، فدخل أبو بكر على عائشةَ وهى تجهّز رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم ، تَعمَل له قَمْحا سَوِيقا ودَقيقا و تمرْا، فقال لها : أهَمَّ رسولُ الله صلّى الله عايه وسلّم بغزْوٍ ؟ قالت : لا أدرى ؛ قال : إن كان هَمّ بسفَرٍ فآذِنينا نتهيّأْ له ؛ قالت : لا أدرى لعلّه أراد بنى سُلَيم ، لعلّه أراد ثَقِيفا أو هَوازِنَ ! فاستعْجَمَتْ [1] عليه ، فدَخَل على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فقال : يارسولَ الله ، أردتَ سَفَرا ؟ قال : نعم ، قال : أفأتجهّز ؟ قال : نعم ، قال : وأين تريد ؟ قال : قريشا ، وأَخْفِ ذلكَ ياأبا بكر ، وأَمَر رسولُ الله صلّى الله عليه وآله الناسَ فتجهّزوا ، وطَوَى عنهم الوجهَ الّذى يريد ، وقال له أبو بكر : يارسولَ الله ، أوَ ليسَ بيننا و بينهم مدّة ؟ فقال : إنّهم غدَروا ونقَضوا العهد ،

(١) يقال استعجم عليه ؛ إذا سكت ولم يحر جواباً .

فأنا غازيهم ، فاطوِ ماذكرتُ لك ، فكان الناسُ بين ظانٍّ يظُنّ أنّه يريد سُلَيما ، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد هَوازِنَ ، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد ثقيفا ، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد الشامَ ، وبعثَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أبا قَتادةَ بن رِبْعىّ فى نفر إلى بطنٍ ليظنّ الناسُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قدَّم أمامه أولئك الرجالَ لتوجّهه إلى تلك الجهة ، ولتذهب بذلك الأخبارُ .

قال الواقدىّ : حدّثنى المنذِر بنُ سعد ، عن يزيدَ بن رُومان ، قال : لمّا أجمَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله المسيرَ إلى قريش ، وعَلِم بذلك مَن عَلِم من الناس ، كتب حاطبُ ابنُ أبى بَلْتَعَةَ إلى قريش يُخبِرهم بالّذى أجمَعَ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى أمرِهم ، وأعطى الكتابَ امرأةً من مُزَينة ، وجعلَ لها على ذلك جُعْلا على أن تبلّغه قريشا ، فجعلتْ الكتابَ فى رأسِها ، ثمّ فَتَلتْ عليه قُرونَها وخرجتْ به ، وأتى الخبرُ إلى النبىّ صلى الله عليه وآله من السّماء بما صَنَع حاطب ، فبَعثَ عليًّا عليه السلام والزّبيرَ فقال : أَدرِكا امرأةً من مُزَينة قد كَتَب معها حاطبٌ كتابا يُحذّر قريشا ، فخرَجا وأدرَكاها بذى الحُلَيفة ، فاستنزَلاها والْتَمَسا الكتابَ فى رَحْلها فلم يَجدا شيئاً ، فقالا لها : نَحلِف بالله ما كَذَب رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم ولا كذَبنا ، ولتُخرِجِنّ الكتاب أو لنَكْشِفَنّكِ . فلمّا رأت منهما الجدّ حلّت قُرونَها ، واستخرجَتِ الكتابَ فدفعتْه إليهما ، فأقبلا به إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فدعا حاطباً وقال له : ماحمَلَك على هذا ؟ فقال : يارسول الله ، والله إنّى لَمُسلم مؤمنٌ بالله ورسوله ، ماغيّرتُ ولا بدّلتُ ، ولكنّى كنتُ امرأً ليس لى فى القوم أَصْل ولاعَشيرة ، وكان لى بين أظهُرِهم أهلٌ ووَلَد ، فصانعتُهم . فقال عمر : قاتلك الله ! ترى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يأخُذ بالأنقاب وتَكتب إلى قريش تحذّرهم ! دَعْنى يارسولَ الله أضرب عُنُقه ، فإنّه قد نافَق ، فقال رسولُ الله صلى الله

عليه وآله : وما يدريك ياعمر لعلّ الله قد أطّلع على أهلِ بَدْر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرتُ لكم ! قال الواقدىّ : فلما خرج رسولُ الله صلى الله عليه وآله من المدينة بالألْوية المعقودة والرّايات بعدَ العصر من يوم الأربعاء لعشرٍ خلوْنَ من شهر رَمضانَ لم يحلّ عقده حتّى أنتهى إلى الصّلصل (١) ، والمسلمون يَقُودون الخيلَ ، وقد امتَطوا الإبل ، وقدّم أمامَه الزبير بن العوّام فى مائتين ؛ قال : فلمّا كان بالبَيْداء نظر إلى عَنانِ السّماء، فقال : إنّى لأرَى السحابَ تستهِلّ (٢) بنصرِ بنى كعب — يعنى خُزاعة .

قال الواقدىّ : وجاء كعبُ بنُ مالك لِيَعلَمَ أىّ جهةٍ يقصد ؟ فبَرَك بين يديه على رُكبتيه ، ثمّ أنشده :

قَضَينا من تِهامةَ كلّ نَحْبٍ (٣) ... وخيبرَ ثمّ أجمَمْنا السُّيوفا
فسائِلْها ولو نَطقتْ لقالت ... قَواضِبُهن دَوْسا أو ثَقيفا
فلستُ بحاضرٍ إن لم ترَوْها ... بساحةِ دارِكم منها ألوفا
فننتزِع الخيام ببطْنِ وَجٍّ ... ونَتْرُك دُورَكم منها خُلُوفا

قال : فتبسّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ولم يَزِد على ذلك ، فجعل الناسُ يقولون : واللهِ ما بَيّنَ لكَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله شيئاً ، فلم تزَل الناسُ كذلك حتّى نزلوا بمَرّ الظَّهْران .

قال الواقدىّ : وخرج العبّاس بنُ عبدِ المطّلب ومَخرَمة بنُ نَوْفل من مَكّة يَطلُبان رسولَ الله صلى الله عليه وآله ظَنًّا منهما أنّه بالمدينة يريدان الإسلام ، فلَقِياه بالسُّقيا .

---

(١) صلصل : بنواحى المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح . ياقوت .

(٢) استهلّ السحاب ؛ إذا كثر انصبابه . (٣) النحب : النذر .

قال الواقدىّ : فلمّا كانت الليلة التى أصبحَ فيها بالُجحْفة رأى فيها أبو بكر فى مَنامِه أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله وأصحابَه قد دنَوْا من مكّة فخرجتْ عليهم كَلْبة تَهِرّ [1] فلما دَنَوا منها استلقَتْ على قفَاها ، و إذا أَطْباؤها [2] تَشخُب لبنا . فقصَّها على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ذهب كَلَبهم ، وأَقبَل دَرُّهم ، وهم سائلونا بأرحامِهم ، وأنتم لاقُون بعضَهم ، فإن لقيتم أبا سُفْيانَ فلا تقتلوه .

قال الواقدىّ : و إلى أن وَصَل مَرَّ الظَّهْران لم يَبلُغ قريشاً حرفٌ واحد من حاله ، فلمّا نزل بمَرّ الظَّهْران أمر أصحابه أن يُوقدِوا النار ، فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وأجمعتْ قريشٌ أن يَبعثُوا أبا سُفْيان يتجسّس لهم الأخبار، فخرج هو وحكيمُ بنُ حزام و بُدَيل بنُ وَرْقاء . قال: وقد كان العبّاس بنُ عبد المطّلب قال : واسوء صَباح قُرَيش !والله إنْ دَخَلها رسولُ اللهصلّى اللهعليه وآله عَنْوةً إنّهلهلاكُ قريش آخرَ الدهر ؛ قال العبّاس : فأخذتُ بغلة رسولالله صلّى الله عليهوآله الشّهباء فركبتها ، وقلتُ : أَلتمس حطّابا أو إنساناً أبعثه إلىقريش فيَاقَوا رسولَ اللهصلّى الله عليه وسلّم قبلَ أن يدخُلها عليهم عَنْوةً ؛ فوالله إنّى لفى الأراك لَيْلا أبتغىذلك إذ سمعتُ كلاما يقول: والله إنْ رأيتُ كاللّيلة نارا ، قال: يقول بُدَيل بنُ وَرْقاء : إنّها نيرانُ خُزاعةَ جاشها [3] الحرب. قال : يقول أبوسفيان: خُزاعة أذلّ من أن تكون هذه نيرانُهاوعسكرُها؛ فعرفتُصوته ، فقلتُ : أباحَنْظلة ! فعرَفصوتى، فقال: لبيّكأبا الفَضْل! فقلتُ :ويحْك ! هذا رسولُ اللهفى عشرة آلاف ، وهو مصبِّحكم؛ فقال : بأبىوأمّى ، فهل من حيلة ! فقلت : نَعم، تركَب عَجزُ هذه البغلة ، فأذهب بك إلىرسولاللهصلّى اللهعليه وسلم فإنّه إن ظَفِر بك دونَ ذلك ليقتلنّك ؛ قال : والله أنا أرى ذلك ، فركِب خلْفى ، ورحَل

---

(١) تهرّ : تنبح .

(٢) الأطباء : حلمات الضرع من ذات الخف والظلف والحافر .

(٣) جاشها الحرب : أفزعها .

بُدَيل وحكيم فتوجّهت به فلمّا مررتُ به على نار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوْنى قالوا : عمُّ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم على بَغْلة رسولِ الله ، حتّى مررتُ بنار عمرَ بن الخطّاب ، فلمّا رآنى قال : من هـذا ؟ قلت : العبّاس ، فذهب ينظُر فرأى أبا سُفْيان خَلْفى ، فقال : أبو سُفْيان عدوّ الله ! الحمـدُ لله الّذى أمكَن منك بغـير عَهْد ولا عَقْد ! ثمّ خرج يشتدّ نحو رسولِ صلّى الله عليه وآله ، ورَكَضتِ البغلة حتّى اجتمعنا جميعا على باب قُبّة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ، فدخلتُ ودخلَ عمرُ بنُ الخطّاب على أثرِى ، فقال عمر : يا رسول الله ، هذا أبو سُفْيان عدوّ الله قد أمـكَن الله منه بغـير عَقْد ولا عَهْد ، فدعْنى أضرب عنقه ، فقلت : يا رسول الله ، إنّى قد أَجرْته ، ثمّ لزمتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم فقلتُ : والله لا يُناجِيه الليلة أحدٌ دونى ، فلمّا أكثرَ عمرُ فيه قلت : مهلا يا عمر ! فإنّه لو كان رجلا من عدىّ بن كعب ما قلت هذا ، ولـكنّه أحدُ بنى عبدِ مناف . فقـال عمر : مَهْلا يا أبا الفَضْل ، فوالله لإسلامُك كان أحبّ إلىّ من إسلام الخطّاب ـ أو قال : من إسلام رجلٍ من وَلَد الخطّاب ـ لو أسلم ؛ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : اذهب به فقد أجرْناه ؛ فليَبِتْ عندكَ حتّى تغدوَ به علينا إذا أصبحتَ. فلمّا أصبحتُ غدوتُ به ، فلما رآه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله قال : وَيْحك يا أبا سُفْيان ! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إلٰه إلّا الله ! قال : بأبى أنتَ ما أحلمَك وأكرمك وأعظم عفوكَ! قد كان يَقع فى نفسى أن لو كان مَعَ الله إلٰه آخر لأغنى ؛ قال : يا أبا سُفْيان ألم يأنِ لكَ أن تعلم أنى رسول الله ! قال : بأبى أنتَ ما أحلمَك وأكرمَك وأعظمَ عفوكَ ! أمّا هذه فوالله إنّ فى النّفس منها لشيئاً بعدُ ، قال العبّاس : فقلتُ : وَيْحك ! تشهّد وقل لا إلٰه إلّا الله محمّد رسول الله قبل أن تُقتَل . فتَشهّد . وقال العبّاس : يا رسولَ الله ، إنّك قد عرفت أبا سُفْيان وفيه الشّرف والفَخْر ، فاجعل له شيئاً ، فقال : مَنْ دخل دارَ أبى سُفْيان فهو آمن ، ومن أغلق دارَه فهو آمن ، ثم قال : خذْه فاحبسه بمَضِيق الوادى إلى خَطْم الجبـل

حتّى تمرَّ عليـه جُنُود الله فيراها . قال العبّاس : فعدلتُ به فى مَضيق الوادى إلى خَطْم الجبل فحبسته هناك ، فقال : أغدراً يابنى هاشم ! فقلتُ له : إنّ أهل النّبوّة لا يَغدِرون ، و إنّما حبستُك لحاجةٍ ؛ قال : فهلّا بدأتَ بها أوّلا فأعْلَمْتَنيها ، فكان أفرخَ لرُوعى ! ثمّ مرّت به القبائل على قادَتِها ، والكتائبُ على راياتها ، فكان أوّل من مرّ به خالدُ بن الوليد فى بنى سُلَيم ، وهم ألف ، ولهم لواءان يَحمِل أحدَهما العبّاسُ بنُ مرْداس والآخر خُفاف بن نُدْبة، وراية يَحمِلها المقداد ، فقال أبو سُفْيان ، يا أبا الفَضْل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء بنو سُلَيم ، وعليهم خالدُ بنُ الوليد ، قال : الغلام ؟ قال : نعم ، فلمّا حاذى خالد العباسَ وأبا سُفْيان كبّر ثلاثاً وكبّروا معه ، ثمّ مضوا. ومرّ على أثره الزّبير بنُ العوّام فى خمسمائة ، فيهم جماعةٌ من المهاجرين وقومٌ من أفْناء الناس ، ومعه رايةٌ سوداء ، فلمّا حاذاهما كبّر ثلاثا ، وكبّر أصحابُه فقال : من هذا ؟ قال : هذا الزبير ، قال : ابن أختك ؟ قال : نعم، قال: ثمّ مرّت به بنو غِفار فى ثلثمائة يَحمِل رايتهم أبو ذَرّ — و يقال: إيماء بن رحضة — فلمّا حاذوهما كبّروا ثلاثا ، قال : يا أبا الفَضْل : مَنْ هؤلاء ؟ قال : بنو غِفار ؛ قال : مالى ولبنى غِفار ! ثمّ مَرّت به أسلم فى أربعمائة يَحمِـل لواءها يزيدُ بن الخصيب، ولواء آخر مع ناجية بن الأعجم ، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثاً ، فسأل عنهم فقال : هؤلاء أسلَمَ ، فقال : مالى ولأسلم ! ما كان بيننا وبينهم تِرَة قطّ ، ثم مرّت بنو كعب بن عمرو بن خُزاعةَ فى خمسمائة يَحمل رايتَهم بشرُ بنُ سُفْيان ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : كعب بن عمرو ، قال : نعم حلفاء محمّد ، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثا . ثمّ مرت مُزَينة فى ألفٍ فيها ثلاثةُ ألوِية مع النّعمان بن مقرّن ، و بلال بن الحارث ، وعبد الله بن عمرو ، فلمّا حاذوهما كبّروا ، قال : من هؤلاء ؟ قال: مُزَيْنة ، قال : ياأباالفَضْل ، مالى ولمُزَينة ، قد جاءتْنى تُقَعقع من شواهقها[1] .

---

(١) الشواهق : الجبال .

ثمّ مرّت جُهَينة فى ثمانمائة ، فيهـا أربعةُ ألْوِية مع معبد بن خالد ، وسوَيْد بن صخر ، ورافع بن مُـكَيث ، وعبـد الله بن بدر ، فلمّا حاذَوْه كـبّروا ثلاثا ، فسأل عنهم ، فقيل: جُهَينة . ثم مرّت بنو كنانة و بنو ليث وضَمْرة وسعد بنُ أبى بكر فى مائتين ، يَحمِل لواءهم أبو واقد الليثى؛ فلمّا حاذوه كـبّروا ثلاثا ، قال : من هؤلاء ؟ قال: بنو بكر . قال: نعم أهلُ شؤم، هؤلاء الّذين غزَانا محمّد لأجلهم! أما واللهِ ما شُوورت فيهم، ولا علمتُه ، ولقد كنتُ له كارها حيث بلغنى ، ولـكنّه أمرٌ حُمّ[1] ، قال العبّاس ، لقد خارَ اللهُ لك فى غزو محمّد إيّاكم ،ودخلتم فى الإسلام كافّة ، ثمّ مرّت أشجعُ ـوهم آخرُ من مَرّ به قبل أن تأتىَ كتيبةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ، وهم ثلاثمائة يحمـل لواءهم معقل بنُ سِنان ، ولواء آخر مع نعيم بن مَسْعود فـكبّروا ـ قال : من هؤلاء ؟ قال : أشجَع ، فقال : هؤلاء كانوا أشدَّ العرب على محمّـد ، قال العبّاس : نعم ؛ ولـكنّ الله أدخَل الإسلام قلوبَهم ؛ وذلك من فضل الله . فسكت وقال: أما مرّ محمّد بعدُ ؟ قال : لا ، ولو رأيتَ الـكتيبةَ الّتى هو فيها لرأيت الحديدَ والخيلَ والرّجال ، وما ليس لأحدٍ به طاقة ، فلمّا طلعتْ كتيبةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله الخضْراء ، طَلَع سوادٌ شديد وغُبْرة من سنابك الخيل ، وجعل الناسُ يمرّون ، كلّ ذلك يقول : أما مرّ محمّد بعدُ ؟ فيقول العبّاس : لا ، حتّى مرّ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يسيرُ على ناقته القَصْوى؛ بين أبى بكر وأُسَيْد بن حُضَير ،وهو يحدّثهما ، وقال له العبّاس : هذا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فى كتيبته الخضْراء ، فانظر ، قال : وكان فى تلك الـكتيبة وجوه المهاجرين والأنصار ، وفيها الألوية والرّايات،وكلّهم مُنغمسون فى الحديد ، لا يُرَى منهم إلّا الحـدق ، ولعمر بن الخطّاب فيها زَجَل[2] وعليه الحديد ، وصوتُه عال ، وهو يزَعُها ، فقال : يا أبا الفضل ، من هـذا المتـكلّم ؟ قال : هـذا

---

(١) حمّ ، أى وقع .

(٢) زجل ، أى صوت .

عمرُ بنُ الخطّاب ؛ قال: لقد أَمِر أمر بنى عَدِىّ بعدَ قلّة وذِلّة ! فقال : إنّ الله يرفع من يشاء بما يشاء ، وإنّ عمرَ ممّن رفعه الإسلام ، وكان فى الكتيبة ألفا دارع ، وراية رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم مع سعد بنِ عُبادة ، وهو أمام الكتيبة ، فلمّا حاذاهما سعد نادَى يا أبا سُفْيان :

اليومَ يومُ المَلحمَهْ اليومَ تُسبَى الحُرُمَهْ

اليومَ أذلّ الله قريشا ، فلمّا حاذاهما رسولُ الله صلى الله عليه وآله ناداه أبو سُفْيان : يارسولَ الله ، أمَرت بقتل قومك ؟ إنّ سعدا قال :

اليومَ يوم الملحمهْ اليومَ تُسبَى الحُرُمَهْ

اليومَ أذلّ الله قريشا ، وإنى أَنشُدكَ اللهَ فى قومِك فأنتَ أبرُّ الناس ، وأرحَم الناس ، وأوصَل الناس . فقال عثمان بنُ عفّان وعبدُ الرحمن بنُ عوف : يارسولَ الله ، إنّا لا نأمنُ سعدا أن يكون له فى قريش صَوْلة ، فوقَفَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وناداه ، ياأبا سُفْيان ، بل اليومَ يومُ المَرحَمة ، اليومَ أعزّ الله قريشا . وأرسل إلى سعدٍ فعزَلَه عن اللّواء . واختُلِف فيمن دَفَع إليه اللّواء فقيل : دَفَعه إلى علىّ بنِ أبى طالب عليه السلام ، فذهب به حتّى دخل مكّة ، فغرَزَه عند الرّكن ـ وهو قولُ ضِرار بنِ الخطّاب الفِهْرى ـ وقيل : دَفَعه إلى قيس بن سَعْد بن عُبادة ـ ورأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله أنّه لم يُخرِجه عن سعد حيث دَفَعه إلى ولدِه،فذهب به حتّى غرَزَه بالحَجون ؛ قال : وقال أبو سفيان للعبّاس ! ما رأيت مثل هذه الكتيبة قطّ ، ولا أخبرنيه مخبر ، سبحان الله ! مالأحد بهؤلاء طاقة ولا يدان ؛ لقد أصبح ملك ابن أخيك ياعباس عظيما ، قال : فقلت : وَيْحك ! إنّه ليس بمُلك ، وإنّها النبوّة ؛ قال : نعم .

قال الواقدىّ : قال العبّاس : فقلت له : أنجِ وَيْحك ، فأدرِك قومَك قبل أن يدخل

عليهم ؛ فخرج أبو سُفيانَ حتّى دخل من كَداء وهو يُنادِي : مَن دخَل دارَ أبى سُفيان فهو آمِن ، ومن أغلَق عليه بابَه فهو آمن ، حتّى أنتهى إلى هندِ بنتِ عُتْبة ، فقالت : ماوراءك؟ قال : هذا محمّد فى عَشْرة آلافٍ، عليهم الحديد ، وقد جَعَل لى أنّه من دَخَل دارى فهو آمِن، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمِن ، ومَن ألقَى سلاحَه فهو آمن ، فقالت : قبّحك الله من رسول قوم ! وجَعلتْ تقول : وَيْحَكم ! اقتلوا وافدَكم قبّحه الله مِن وافد قوم ! فيقول أبو سُفيان : وَيْحكم ! لا تغرّنكم هذه من أنفسكم ، فإنّى رأيتُ مالم ترَوْا : الرجالَ ، والكُراعَ ، والسّلاح ، ليس لأحد بهذا طاقة ، محمّد فى عَشْرة آلاف، فأسلِموا تَسلموا . وقال المبرّد فى " الكامل " : أمسكتْ هند برأس أبى سُفيان وقالت : بئس طليعةُ القوم ! والله ما خدشت خدشا ، يا أهلَ مكّة ، عليكم الحميت الدّسم فاقتلوه . قال : الحميت : الزّقّ المزفَّت .

قال الواقدىّ : وخرج أهلُ مكّة إلى ذى طُوًى ينظُرون إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وانضَوَى إلى صَفْوان بن أميّة وعِكْرمة بن جهل وسُهَيل بن عمرو ناسٌ من أهل مكّة ومن بنى بكر وهُذَيل ، فلَبِسوا السلاحَ ، وأقسموا لا يدخل محمّد مكّة عَنْوةً أبدا . وكان رجلٌ من بنى الدّؤل يقال له : حماس بنُ قيسِ بنِ خالد الدّؤلىّ لمّا سَمِع برسول الله صلّى الله عليه وآله جلَس يُصلِح سلاحَه ، فقالت له امرأته : لم تُعِدّ السّلاح ؟ قال : لمحمّد وأصحابه ، وإنى لأرجو أن أخدِمَك منهم خادما ، فإنّك إليه محتاجة ، قالت : وَيحك لا تفعل ! لا تُقاتل محمّدا ، والله ليضلّنّ هذا عنك لو رأيت محمّدا وأصحابه ؛ قال : ستَرَين ، وأقبل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وهو على ناقته القَصْوى معتجراً [1] ببُرْد حِبَرة ، وعليه عمامةٌ سوداء ، ورايتُه سوداء ، ولواؤه أسود ، حتّى وقف بذى طُوًى، وتوسّط الناسَ ، وإن عُثْنونه ليمسّ واسطة الرّحل ، أو يَقرُب منه تواضُعا لله حيث رأى مارأى من الفَتْح وكثرة المسلمين ، وقال : لاعيش إلّا عيشُ الآخرة .

(١) معتجراً : لابساً .

وجعلت الخيلُ تعجّ بذى طُوًى فى كل وَجْه ، ثم ثابَتْ وسكَنَتْ ، والتفت رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله إلى أُسَيد بن حُضَير ، فقال : كيف قال حسّان بنُ ثابت ؟ قال : فأنْشَده :

عَدِمْنـــا خَيْلَنا إنْ لم تَرَوْها ... تُثِـيرُ النَّقْعَ مَوعدُها كَدَاء[1]

تَظَلّ جيـــادُنا متمطّراتٍ ... تلطّمهُنّ بالخُمُرِ النّســاء[2]

فتبسّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وحَمِد الله ، وأمرَ الزبيرَ بنَ العوّام أن يدخُل من كَداءَ ، وأمر خالدَ بنَ الوليد أن يدخُل من اللِّيط ، وأمَر قَيس بنَ سعد أن يَدخُل من كَدَاء ، ودخل هو صلّى الله عليه وآله من أذاخر .

قال الواقدىّ : وحدّثنى مروان بنُ محمّد ، عن عيسى بن عميلة الفزارىّ ، قال : دخل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله مكّة بين الأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حِصْن .

قال الواقدىّ : ورَوَى عيسى بنُ مَعمَر ، عن عَباد بنِ عبد الله ، عن أسماء بنتِ أبى بكر ، قالت : صعد أبو قُحافة بصغْرى بناتِه وأسمهـا قريبة ، وهو يومئذٍ أعمى ، وهى تَقودُه حتّى ظهرتْ به إلى أبى قُبيس ، فلمّا أشرفَتْ به قال : يا بُنَيّـة ، ماذا تَرَيْن ؟ قالت : أرَى سواداً مجتمعا مقبلا كثيرا ! قال : يا بُنَيّة ، تلك الخيل ، فانظرى ماذا تَرَيْن؟ قالت : أرَى رجلا يَسعى بين ذلك السواد مُقبِلا ومدبرا ، قال : ذاك الوازع ، فانظرى ماذا تَرَيْن؟ قالت : قد تفرّق السواد ، قال : قد تفرّق الجيْش ، البيتَ البيتَ ؛ قالت : فنزلت الجارية به وهى تُرْعب لما ترى ، فقال : يا بُنيّة ، لا تخافى ، فوالله إن أخاك عتيقا لأثرُ أصحاب محمّد عند محمّد ؛ قالت : وعليهـا طَوْق من فضّة ، فاختَلَسه بعضُ من دخل ،

---

(١) ديوانه ٥ والنقع : الغبار .

(٢) متمطرات : مسرعات . والخمر : جمع خمار .

فلمّا دخل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله مكّة جعل أبو بكر يُنادِى : أَنشُدكم الله أيّها الناس طَوْقَ أختى ! فلم يردّ أحد عليه ، فقال : يا أُخَيّة احتسبى طَوْقَكِ ، فإنّ الأمانة فى الناس قليل .

قال الواقدىّ : ونَهَى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عن الحرب ، وأمرَ بقتل ستّة رجال وأربع نسوة : عِكْرمة بن أبى جهل ، وهبّار بن الأسود ، وعبد الله بن سعد بن أبى سَرْح ، ومقيَس بن صُبابة الليثى ، والحُوَيْرث بن نفيل ، وعبد الله بن هلال بن خَطَل الأدرمىّ ، وهند بنت عُتْبة ، وسارّة مولاةٌ لبنى هاشم ، وقَيْنَتَين لابن خَطَل: قريبا وقريبة ، ويقال : قرينا وأرنب .

قال الواقدىّ : ودخلت الجنودُ كلّها ، فلم تلقَ حَرْبا إلّا خالد بن الوليد فإنّه وَجَد جَمْعا من قريش وأحابيشها قد جمعوا له ، فيهم صَفْوان بن أميّة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، فمنعوه الدّخول ، وشَهَروا السلاح ، ورمَوْه بالنّبل ، وقالوا : لا تدخلها عَنْوةً أبداً ؛ فصاح خالد فى أصحابه ، وقاتَلَهم ، فقُتِل من قريش أربعةٌ وعشرون ، ومن هذيل أربعةٌ ، وانهزموا أقبحَ انهزام حتّى قُتِلوا بالحزْورة ، وهم مُوَلّون من كلّ وجه ، وانطلقتْ طائفةٌ منهم فوق رءوس الجبال ،واُتّبعهم المسلمون ، وجعل أبو سُفْيان بن حرب وحكيم بن حزام يناديان : يا معشرَ قريش ، عَلَام تقتُلون أنفسَكم؟ من دخل دارَه فهو آمن ، ومَن أغلَق عليه بابه فهو آمن ، ومن وضع السّلاحَ فهو آمن ، فجعل الناسُ يقتحِمون الدّور ويُغلقون عليهم الأبواب ، ويَطرَحون السّلاح فى الطّرق حتّى يأخذه المسلمون .

قال الواقدىّ : وأشْرَف رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من على ثَنِيّة أذاخر ، فنظر إلى البارِقَة ، فقال : ما هذه البارقة ؟ ألم أَنه عن القتال ؟ قيل : يارسولَ الله ، خالدُ بنُ الوليد

قُوتِل ، ولو لم يُقاتَل ما قاتَلَ ؛ فقال : قضاء الله خير ، وأقبل ابن خطل مدجّجا فى الحديد على فرس ذَنوب (١) بيَدِه قَنَاة يقول : لا والله لا يدْخُلها عَنوة حتّى يرى ضَرْبا كأفواه المزاد ، فلمّا أنتهى إلى الخَنْدَمَة ورأى القتال دخَله رُعْب حتّى ما يَستمسِك من الرِّعدة ، ومرّ هاربا حتّى أنتهى إلى الكعبة ، فدخل بين أستارها بعد أن طرح سلاحَه وترك فرسَه ، وأَقبَل حماس بن خالد الدؤلىّ منهزما حتّى أتى بيْتَه فدقّه ، ففتحتْ له امرأتُه فدخل ، وقد ذهبتْ رُوحُه ، فقالت : أين الخادم الّتى وعدتَنى ؟ مازلتُ مُنْتظِرتك منذُ اليوم ، تَسخر به ، فقال : دعى هذا وأغلِقى الباب ، فإنّه من أَغلَق بابَه فهو آمن ، قالت : وَيْحك ! ألم أنهك عن قتال محمّد ! وقلت لك : إنّى ما رأيته يقاتلكم مرّة إلّا وظَهَرَ عليكم ، وما بابُنا ؟ قال : إنّه لا يفتح على أحدٍ بابَه ، ثم أنشَدها (٢) :

إنك لو شَهِدْتنا بالخَنْدَمَهْ ... إذ فرّ صَفْوانُ وفرّ عِكْرِمَهْ
وابو يزيد كالعجوز المؤْتِمَهْ ... وضَرَبْتنا بالسُّيوف المُسلمهْ (٣)
لهم زَئيرٌ خلفنا وغَمْغَمَهْ ... لم تنطقى فى اللّوم أدنى كلمهْ (٤)

قال الواقدىّ : وحدثنى قُدامة بن موسى ، عن بشير مولى المازنيّين ، عن جابر بن عبد الله ، قال : كنتُ ممن لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ، فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر ، فلما أشرف نظر إلى بيوت مكة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ونظر إلى موضع قُبّة بالأبطح تُجاه شعب بنى هاشم حيث حُصر رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأهله ثلاث

(١) ذنوب : وافر الذنب بالتحريك .
(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٢٧
(٣) المؤتمة : التى قتل زوجها فبقى لها أولاد أيتام ، والمسلمة ، أراد المسلمين ، وبعده فى ابن هشام :

يَقْطَعْنَ كلّ ساعدٍ وجُمْجُمَهْ ... ضَرْبًا فلاَ يسمع إلّا غمغمهْ

(٤) ابن هشام : « لهم نهيت » .

سنين ؛ وقال : يا جابر ، إنّ منزلنا اليومَ حيث تقاسمتْ علينا قريش فى كُفْرها ؛ قال جابر : فذكرتُ كلاما كنتُ أسمعه منه فى المدينة قبل ذلك ، كان يقول : منزلُنا غداً إن شاء الله إذا فتَح علينا مكّة فى الخَيْف حيث تقاسموا على الكُفْر .

قال الواقدىّ : وكانت قبّته يومئذ بالأَدَم ضُرِبت له بالحجون ، فأقبل حتى انتهى إليها ومعه أمّ سَلَمة وميمونة .

قال الواقدىّ : وحدثنى معاوية بن عبد الله بن عبيد الله ، عن أبيه ، عن أبى رافع ، قال : قيل للنبىّ صلّى الله عليه وآله : ألا تنزل مَنزِلك من الشعب ؟ قال : وهل ترك لنا عَقِيل من منزل ؛ وكان عَقِيل قد باع منزل رسول الله صلّى الله عليه وآله ومنازل إخوته من الرجال والنّساء بمكّة ، فقيل لرسول الله صلّى الله عليه وآله : فانزل فى بعض بيوت مكة من غير منازلك . فأبى وقال : لا أدخُل البيوت ؛ فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتا ، وكان يأتى إلى المسجد من الحجون ، قال : وكذلك فعل فى عُمرة القضيّة وفى حجّته .

قال الواقدىّ : وكانت أمّ هانىء بنتُ أبى طالب تحت هُبيرة بن أبى وَهْب المخزومى فلما كان يوم الفتح دخل عليها حَموان لها : عبدُ الله بنُ أبى ربيعة والحارث بن هشام المخزوميّان ، فاستجارا بها ، وقالا : نحن فى جِوارك ؛ فقالت : نعم ، أنتما فى جوارى . قالت أمّ هانىء : فهما عندى إذ دخل علىّ فارسٌ مدجّج فى الحديد ولا أعرفه ، فقلت له : أنا بنت عمّ رسول الله ، فأسفر عن وجهه ، فإذا علىٌّ أخى ، فاعتنقته ، ونظر إليهما فشهر السيف عليهما ، فقلتُ : أخى من بين الناس تصنع بى هذا ؟ فألقيتُ عليهما ثوْبا ، فقال : أتُجيرين المشركين ؟ فحلْتُ دونهما ، وقلت : لا والله وابتدىء بى قبلهما ؛ قالت : فخرج ولم يكدْ ، فأغلقتُ عليهما بيتا ، وقلت : لا تخافا ، وذهبتُ إلى خِباء رسولِ الله صلّى الله

عليه وآله بالبطحاء فلم أجده ، ووجدتُ فيه فاطمة ، فقلت لها : ما لقيتُ من ابن أمى علىّ ! أجرت حَمَوَين لى من المشركين ، فتفلّتَ عليهما ليقتلهما ، قالت : وكانت أشدَّ علىَّ من زوجها ، وقالت : لِمَ تُجِيرين المشركين ! وَطَلع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه الغُبار ، فقال : مرحباً بفاخِتة ـ وهو اسمُ أم هانىء ـ فقلتُ : ماذا لقيت من ابن أمى علىّ ما كدتُ أفلت منه ! أجرت حَمَوَين لى من المشركين ، فتفلَّت عليهما ليقتلهما ، فقال : ما كان ذلك له ، قد أَجَرْنا من أجرتِ وَأَمّنّا من أَمَّنْتِ ، ثم أمر فاطمةَ فَسكَبت له غُسْلا فاغتسَل ، ثمّ صلى ثمانى رَكعات فى ثوب واحد ملتحفا به وقت الضُّحى ؛ قالت : فرجعتُ إليهما وأخبرتُهما ، وقلت : إن شئتما فأقيما ، و إن شئتما فارجعا إلى منازلكما ، فأقاما عندى فى منزلى يومين ، ثم انصرفا إلى منازلهما .

وأَتى آتٍ إلى النبى صلى الله عليه وآله فقال : إنّ الحارث بن هشام وعبد الله ابن أبى ربيعة جالسان فى ناديهما متفضّلان فى المُلاء المزَعْفر ، فقال : لا سبيل إليهما ، قد أجرناهما .

قال الواقدىّ : ومكث رسول الله صلى الله عليه وآله فى قبّته ساعةً من النهار ، ثمّ دعا براحلته بعد أن اغتسل وصلى ، فأدنيت إلى باب القبة ، وخرج وعليه السلاح والمِغفر على رأسه ، وقد صفّ له الناس ، فركبها والخيلُ تمعَج[1] ما بين الخندمة إلى الحَجون ، ثم مرَّ وأبو بكر إلى جانبه على راحلةٍ أخرى يسير ويُحادِثه ، وإذا بناتُ أبى أُحَيحة سعيد بن العاص بالبطحاء حذاء منزل أبى أحيحة وقد نَشَرن شعورهنّ ، فلطمن وجوه الخيل بالخمرُ ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبى بكر ، فتبسم وأنشده قولَ حسّان :

---

(١) تمعج : تسرع .

تظَلّ جيادُنا متمطِّراتٍ يلطِّمهن بالخُمُرِ النّساء

فلما انتهى إلى الكعبة تقدّم على راحلته ، فاستلم الركن بمِحْجنه ، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره ، وعجّوا بالتكبير حتى ارتجّت مكة ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يشير إليهم أن اسكتوا والمشركون فوق الجبال ينظرون ، ثم طاف بالبيت على راحلته ، ومحمد بن مَسلمة آخِذٌ بزمامها ، وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما مرصوصة بالرّصاص ، وكان هُبَلُ أعظمَها ، وهو تجاه الكعبة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينْحَرون ويذبحون الذبائح ، فجعل كلّما يمرّ بصنم منها يشير بقضيب فى يده ويقول : ﴿ جاءَ الحقُّ وزَهقَ الباطلُ ، إنَّ الباطلَ كان زَهوقا ﴾ ؛فيقع الصنم لوجهه ،ثم أمرَ بهُبَل فكسر وهو واقف عليه ، فقال الزبير لأبى سفيان : يا أبا سُفيان ، قد كُسِر هُبَل ، أما إنك قد كنت منه يوم أُحُد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعم ، فقال : دع هذا عنك يابن العوّام ، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان .

قال الواقدىّ : ثم انصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فجلس ناحيةً من المسجد وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بالمِفتاح ،مفتاح الكعبة ، فقال عثمان : نعم ،فخرج إلى أمّه وهى بنت شَيبة ، فقال لها والمفتاح عندها يومئذ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد طلب المفتاح ، فقالت : أعيذُكَ بالله أن يكون الذى يذهب مأثرة قومه على يده ! فقال : فوالله لتأتينّى به أو ليأتينّك غيرى فيأخذه منك ، فأدخلته فى حُجْرتها ، وقالت : أىّ رجل يدخِل يده هاهنا ! فبينما هما على ذلك وهو يكلّمها إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر فى الدّار ، وعمر رافع صوته حين رأى عثمان أبطأ : ياعثمان اخرج ، فقالت أمّه : خذ المفتاحَ فلأَنْ تأخذَه أنت أحبُّ إلىّ من أن يأخذه تيم وعدىّ ، فأخذه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما تناوَله بَسَط العباس بنُ عبدالمطلب يدَه وقال : يارسول الله ، بأبى أنت اجمع لنا بين السِّقاية والحجابة ؛ فقال : إنما أُعطيكم ما ترضوْن فيه ، ولا أعطيكم ما ترزَءون منه ،

قالوا : وكان عثمانُ بنُ طلحة قد قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص مسلما قبل الفَتح .

قال الواقديّ : وبعَثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب ومعه عثمان بن طلحة ، وأمره أن يفتح البيت فلا يَدَع فيه صورةً ولا تمثالا إلاّ صورة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فلما دخل الكعبة رأى صورة إبراهيم شيخا كبيراً يستقسم بالأزلام[1] .

قال الواقديّ : وقد روى أنه أمره بمحوِ الصور كلِّها لم يستثن ، فترك عمر صورة إبراهيم، فقال لعمر : ألم آمُرْك ألّا تدَع فيها صورةً ! فقال عمر : كانت صورة إبراهيم ، قال : فامحُها ، وقال : قاتلهم الله ، جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام !

قال : ومحا صورة مريم . قال : وقد رُوِى أن رسول الله صلى الله عليه وآله محا الصُّور بيده ، رَوَى ذلك ابن أبى ذئب ، عن عبد الرحمن بن مِهران ، عن عُمَير مولى ابن عباس ، عن أسامة بن زيد ، قال : دخلتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله الكعبة ، فرأى فيها صوراً ، فأمرنى أن آتيَه فى الدّلو بماء ، فجعل يبلُّ به الثوب ويضرب به الصّور ويقول : « قاتل الله قوماً يصوِّرون ما لا يخلقون ! » .

قال الواقديّ : وأمَرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بالكعبة فأُغلِقت عليه ، ومعه فيها أُسامةُ بن زيد ، وبلال بنُ رَباح ، وعثمانُ بنُ طلحة ، فمكث فيها ماشاء الله ، وخالد بنُ الوليد واقفٌ على الباب يَذُبّ الناس عنه ، حتّى خرج رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، فوَقَف وأخذ بعِضادَتَى[2] الباب ، وأشرَف على النّاس وفى يده المفتاح ، ثمّ جعله فى كمّه ، وأهلُ مكّة قيامٌ تحتَه ، وبعضُهم جلوس قد ليطَ بهم ؛ فقال : الحمد لله الّذى

---

(١) الأزلام : القداح .	(٢) عضادتا الباب : جانباه .

صدَقَ وعدَه ، ونصَرَ عَبدَه ، وهَزَم الأحزابَ وحدَه ، ماذا تقولون ؟ وماذا تَظنّون ؟ قالوا : نقول خيرا ، ونظنّ شرًّا ! أخٌ كريم ، وابنُ أخٍ كريم ، وقد قدرتَ ، فقال : إنّى أقول كما قال أخى يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ألا إنّ كل رِبًا فى الجاهليّة أو دَمٍ أو مأثُرةٍ فهو تحتَ قَدَمَىّ هاتين إلّا سِدانة الكعبة وسقاية الحاجّ . ألا وفى قَتيلِ شِبْه العَمْد ، قتيل العصا والسّوط الدية مغلّظة مائة ناقة ، منها أربعون فى بطونها أولادُها . إنّ الله قد أذهبَ نَخوَةَ الجاهليّة وتكبّرها بآبائها ، كلكم لآدَم ، وآدمُ من تُراب . وأكرمُكم عند الله أتقاكم . إلا أنّ الله حَرّم مكّة يومَ خَلَق السموات والأرض ، فهى حرام بحَرامِ الله ، لم تَحِلّ لأحد كان قبلُ ، ولا تحلّ لأحد يأتى بَعدِى ، وما أُحلّت لى إلّا ساعة من النّهار ــ قال : يقصدها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بيَدِه هكذا ــ لا ينفّر صَيدُها ، ولا يُعضَد عِضاهُها ، ولا تحلّ لقطتُها إلّا لمنشِد ، ولا يُختلَى خلاها . فقال العباس : إلا الإذْخِر يارسول الله ، فإنّه لابدّ منه للقبور والبيوت ، فسَكَت رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ساعةً ثمّ قال : إلّا الإذخر ، فإنّه حلال ، ولا وصيّة لوارث ، والوَلَد للفِراش ، وللعاهِر الحجَر ، ولا يحلّ لامرأةٍ أن تعطىَ مِن مالِها إلّا بإذنِ زَوْجها ، والمسلمُ أخو المسلِم ، والمسلمون إخوة ، يدٌ واحدةٌ على مَن سِواهم ، تتكافأُ دِماؤهم ، يَسعَى بذِمّتِهم أدناهم ، ويردّ عليهم أقصاهم ، ولا يُقتَل مسلم بكافر ، ولا ذو عَهْد فى عَهْده ، ولا يَتوارَث أهلُ ملّتين مختلفتين ، ولا تُنكَح المرأةُ على عمّتها ولا على خالتها ، والبيّنة على من ادّعى ، واليمين على من أنكَر ، ولا تسافر امرأةٌ مسيرة ثلاث إلّا مع ذى مَحرَم ، ولا صلاةَ بعد العصر ، ولا بعدَ الصُبح ، وأنهاكم عن صيام يومين : يومِ الأضحَى ويومِ الفِطْر . ثم قال : ادعُوا لى عثمانَ بنَ طلحة ، فجاء وقد كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله قال له يوما بمكّة قبل الهجرة ومع عثمانَ المِفتاح : لعلّك سَتَرى هذا المفتاحَ بيَدى يوما أضعُه حيث شئت ؛ فقال عثمان : لقد هلَكتْ قريش إذاً وذَلّت ! فقال عليه السلام : بل عَمرتْ وعَزّت ؛ قال عثمان : فلمّا دعانى يومئذ والمِفتاح بيَدِه ذكرتُ قولَه حين قال ؛ فاستقبلتُه

بِبِشْر ، فاستقبَلَنى بمِثله ، ثم قال : خذوها يابنى أبى طلحة خالدة تالدة ، لا يَنزِعها منكم إلّا ظالم . ياعثمان ، إنّ الله اُستأمَنَكم على بيته ، فكلوا بالمعروف ؛ قال عثمان : فلمّا ولّيت نادانى فرجعتُ ، فقال : ألم يكن الّذى قلتُ لك! يعنى ما كان قالَه بمكّة من قبلُ ، فقلتُ: بلى أَشهَد أنك رسولُ الله صلّى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : وأمر رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يومئذ برَفْع السلاح ، وقال : إلّا خُزاعة عن بنى بكر إلى صلاة العصر . فخبطوهم بالسّيف ساعةً ، وهى الساعةُ الّتى أُحِلّت لرسول الله صلّى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : وقد كان نوفل بن معاوية الدؤلىّ من بنى بكر استأمن رسول الله صلّى الله عليه وآله على نفسه ، فأمّنه ، وكانت خُزاعة تطلُبه بدماء من قتلتْ بكر وقريش منها بالوتير ، وقد كانت خُزاعةُ قالت أيضاً لرسول الله صلّى الله عليه وآله : إن أنسَ بن زُنَيم هجاك ، فهدَرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله دَمَه ، فلمّا فتح مكّة هرب والتحق بالجبال ، وقد كان قَبل أن يفتح رسولُ الله صلّى الله عليه وآله مكّة قال شعرا يَعتذِر فيه إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، من جُملتِه :

أنتَ الّذى تُهدَى مَعدٌّ بأمره	بكَ اللهُ يَهدِيها وقال لها اُرشُدِى
فما حملتْ من ناقةٍ فوقَ كورِها	أبرّ وأوفى ذِمّة من محمّدِ
أَحَثَّ على خيرٍ وأَوسَعَ نائلًا	إذا راحَ يهتزّ اهتزازَ المهنَّدِ
وأكسَى لبُرد الخالِ قبل اُرتدائِه	وأَعطى لرأس السابق المتجرِّدِ
تَعلَّمْ رسولَ الله أَنَّكَ مُدرِكى	وأنّ وَعيداً منكَ كالأخذ باليَدِ
تعلّم رسولَ الله أنك قادرٌ	على كلّ حىّ من تهام ومُنجدِ
ونُبِّى رسولُ الله أنّى هجوتُه	فلا رفعتْ سَوْطى إلىَّ إذَنْ يدى
سوَى أنّنى قد قلتُ ياوَيْحَ فتيةٍ	أصيبوا بنَحْس يومَ طلق وأسعُدِ !

أصابهمُ من لم يكن لدمائهمْ كِفاءً فعزّت عَـبْرتى وتلدُّدِى
ذُؤَيبا وكُلثوما وسلمى تتَابعوا جميعا فإلّا تدمَع العينُ أَكمَدِ
على أنّ سلمىَ ليس منهمْ كمثلِهِ وإخوتِه وهلْ مُلوكٌ كأعْبُـدِ!
فإنّى لا عرْضا خرَقتُ ولا دماً هرَقتُ ففكّر عالم الحقّ واقصِدِ

قال الواقدىّ : وكانت كلمته هذه قد بلغتْ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قبل أن يفتَح مكّة ، فنَهَنهَتْ عنه ، وكلّمه يوم الفتح نَوفلُ بنُ معاوية الدّؤلىّ ، فقال : يا رسولَ الله ، أنت أَولَى الناس بالعَفْو ، ومَنْ منّا لم يعادِك ولم يُؤذِك ، ونحنُ فى جاهليّة لا ندرى ما نأخذ وما ندَع ، حتّى هدانا الله بك ، وأنقذَنا بيُمْنِك من الهَلَكة ، وقد كَذَب عليه الركب ، وكثّروا فى أمره عندَك ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : دَع الركبَ عنك ، إنّا لم نجد بتِهامة أحداً من ذَوِى رَحِم ولا بعيد الرّحم كان أبرَّ بنا من خُزاعة، فاسكُت يا نوفل ؛ فلمّا سكت قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : قد عفوتُ عنه ، فقال نوفل : فداك أبى وأمّى .

قال الواقدىّ : وجاءت الظُّهر ، فأمَرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بلالا أن يؤذّن فوقَ ظَهر الكعبة وقريش فى رءوس الجبال ، ومنهم من قد تَغيّب وسَتَر وجهه خوفا من أن يُقتلوا، ومنهم من يَطلب الامان ، ومنهم من قد أُمِّن . فلمّا أذّن بلال و بلغ إلى قوله : «أشهد أن محمّدا رسولُ الله» صلّى الله عليه وآلِه رَفَع صوتَه كأشدِّ ما يكون ؛ قال : تقول جُوَيْرية بنت أبى جَهْل : قد لَعَمْرى رُفِع لك ذِكْرُك ، فأمّا الصلاة فسنصلّى ، ولكنْ والله لا نحبّ مَنْ قَتَل الأحبّة أبدا ، ولقد كان جاء أبى الّذى جاءمحمّدا من النبوّة ؛ فردّها ولم يُرِدْ خلاف قومه .

وقال خالدُ بن سعيدِ بنِ العاص : الحمد لله الّذى أكرم أبى فلم يُدرِك هذا اليوم ؛

وقال الحارث بنُ هشام : واثُــكْلاه ، ليتَنى مِتّ قبلَ هذا اليوم قبل أن أَسمع بلالا ينهق فوقَ الـكعبة ! وقال الحـكم بنُ أبى العاص : هذا واللهِ الحَدَث العظيم ، أن يَصيحَ عبدُ بنى جُمَح ، يَصِيحُ بما يَصيحُ به على بيت أبى طلحة ؛ وقال سُهَيل بنُ عمرو ، إن كان هـذا سُخْطا من الله تعـالى فسيغيّره ، و إن كان لِلّه رضاً فسيقرّه ؛ وقال أبو سُفْيان : أمّا أنا فلا أقول شيئاً ، لو قلتُ شيئاً لأخبرتْه هذه الحصباء ، قال : فأتى جبرائيلُ عليه السلام رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فأخبرَه مقالة القوم .

قال الواقدىّ : فـكان سهيلُ بنُ عمرو يحدّث فيقول : لمّا دخل محمّد مكّة انقمعتُ فدخلتُ بيتى وأَغلقتهُ علىّ ، وقلتُ لابنى عبدِ الله بنِ سُهَيل : اذهبْ فاُطلب لى جواراً من محمّد ، فإنّى لا آمن أن أُقتَل ، وجعلتُ أتذكّر أَثَرى عنـده وعند أصحابه فلا أَرَى أسوأ أثراً منّى ، فإنّى لقيتهُ يوم الحُدَيْبية بمالم يَلقه أحدٌ به ، وكنتُ الّذى كاتَبـه ، مع حضورى بدْرا وأُحُدا ، وكلّما تحرّكتْ قريش كنتُ فيها ، فذهب عبدُ الله بنُ سُهَيل إلى رسولِ الله صلّى الله عليـه وآله فقال : يا رسول الله ، أبى تؤمّنه ؟ قال : نعم ، هو آمن بأمان الله ، فلْيَظهر ، ثم التفت إلى من حَوْله فقال : من لقى سُهَيل بن عمرو فلا يُشدّنّ النظر إليه . ثم قال : قل له : فلْيَخْرج ، فلَعَمرى إنّ سهيلا له عقـلٌ وشَرَف ، وما مثلُ سُهَيل جَهِل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يُوضَع فيه إن لم يكن له تتابع ، فخرج عبدُ اللهِ إلى أبيه فأخبرَه بمقالةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فقال سهيل : كان واللهِ بَرًّا صغيراً وكبيراً ، وكان سُهَيل يُقبل و يُدبر غـيرَ خائف ، وخرج إلى خَيْبَر مع النبىّ صلّى الله عليـه وآلِه وهو على شِرْكه حتى أَسلَمَ بالجِعْرانة .

تم الجزء السابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الثامن عشر

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل ابراهيم

الجزء الثامن عشر

مؤسسة اسماعيليان
للطباعة والنشر والتوزيع
قم ايران . تلفون ٢٥٢٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان

يشتمل هذا الجزء على بقية المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله إلى أعدائه وأمراء بلاده ، ثم على طائفة من مختار حِكَمه ومواعظه ، وأجوبة مسائله ، والكلام القصير الخارج فى سائر أغراضه .

وقد روجع على الجزء الثالث من المجموعة الخامسة من النسخة المصورة عن أصلها المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ؛ وهى النسخة التى رمزت لها بالحرف (ا) . وأصل هذا الجزء مكتوب بخط نسخ حديث واضح ، يبدو أنه كتب فى القرن الثانى عشر ؛ و يكاد يكون خاليا من الشكل والضبط ؛ حتى فيما جاء فيه من أصل كلام الإمام . ويبدأ من الشرح ببقيّة الكلام على فتح مكة ؛ إلّا أن بآخره نقصا يبدأ فى أثناء الكلام على شرح قول أمير المؤمنين : « الإعجاب يمنع من الازدياد » ، إلى آخر الجزء . و يقع فى ٥٦ ورقة ، مسطرتها ٢٩ سطرا ، وفى كل سطر ١٥ كلمة تقريبا ، ولا يوجد فيه ذكر لاسم ناسخه ولا تاريخ نسخه .

كما روجع أيضا على الجزء الثانى من المجلد الأخير من مخطوطة دار الكتب برقم ١٨٦٨ـ أدب ، وهى التى رمزت لها بالحرف (د) ، وسبق وصفها فى مقدمة الجزء السادس عشر ، وعلى النسخة المطبوعة على الحجر فى طهران سنة ١٣٧١هـ ؛ وهى التى رمزت لها بالحرف (ب)

وأسأل الله أن يوفّق و يعين .

٢٤ رمضان سنة ١٣٨٢ هـ
١٨ فبراير سنة ١٩٦٣ م

محمد أبو الفضل إبراهيم

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ — ٦٥٦)

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل[1] .

[ذكر بقيّة الخبر عن فتح مكة]

قال الواقدىّ : وهرب هبيرةُ بن أبى وَهْب وعبدُ الله بن الزِّبعرَى جميعا حتّى انتهيا إلى نَجْران فلم يأمنَا الخوف حتى دخلا حِصْن نَجْران ؛ فقيل : ماشأنكما ؟ قالا : أمّا قريش فقد قتِلت ودخل محمد مكة ، ونحن والله نرى أن محمدا سائر إلى حصنكم هذا ، فجعلت بلْحارث بن كعب يصلحون مارثّ من حصنهم ، وجمعوا ماشيتَهم ؛ فأرسل حسان ابن ثابت إلى ابن الزّبعرَى :

لا تعدمَنْ رجلاً أحلّك بُغْضُهُ   نجرانَ فى عيشٍ أحَدَّ ذميمِ[2]

بليَتْ قناتُك فى الحرُوب فألفيتْ   جوفاءَ ذات معايِبٍ ووُصومِ[3]

غضب الإله على الزِّبَعْرى وابنه   بعذابِ سوءٍ فى الحياةِ مقيمِ

فلما جاء ابنَ الزّبَعْرى شعرُ حسان تهيّأ للخروج ، فقال هبيرة بن وهب : أين تريد يابن عمّ ؟ قال له : أريد والله محمدا ، قال : أتريد أن تتبعه؟ قال : أى والله ، قال هُبيرة : ياليت أنّى كنتُ رافقتُ غيرَك ، والله ماظننتُ أنّك تتْبع محمّدا أبدا . قال ابن الزِّبَعْرَى: هو ذاك ، فعَلى أىّ شىء أقيمُ مع بنى الحارث بنِ كعب وأترُك أبنَ عمّى وخيرَ الناس وأبرّهم ، و بين قومى ودارى! فانْحدر أبنُ الزّبعرَى حتّى جاء رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم

---

(١) د : « لطفك اللهم لإتمامه بالخير » .   (٢) ديوانه ٣٦٠

(٣) الوصوم : العيوب ؛ جم وصم ، ورواية الديوان : « خائنة جوفاء ذات وصوم » .

وهو جالس فى أصحابه ، فلمّا نظر إليه قال : هذا ابنُ الزِّبَعْرَى ومعه وجهٌ فيه نورُ الإسلام، فلمّا وقف على رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : السّلامُ عليك يارسولَ الله ، شهدتُ أن لا إله إلّا الله ، وأنّك عبدُه ورسوله ، والحمد لله الّذى هَدانى للإسلام ، لقد عاديتُك وأجلَبْتُ عليك ، وركِبتُ الفرس والبعيرَ ، ومَشَيتُ على قدمى فى عَداوتِك ، ثم هربتُ منك إلى نجرانَ وأنا أريدُ ألّا أقرب الإسلامَ أبدا ؛ ثم أرادنَى اللهُ منه بخير ، فألقاه فى قلبى ، وحبّبه إلىّ ، وذكرت ماكنتُ فيه من الضّلال واتّباع مالا ينفع ذا عقل ؛ من حَجَر يُعبَد ، ويُذبَح له لا يدرى من عَبَده ومن لا يَعبُده . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : الحمدُ لله الّذى هداك للإسلام ، احمَدِ الله ، إنّ الإسلام يَجُبّ ما كان قَبْلَه . وأقامَ هُبيرة بنَجْرانَ ، وأسلمتْ أمُّ هانئ ، فقال هُبيرة حين بلغه إسلامها يومَ الفتح يؤنّبها شِعرا ، من جُملته [1] :

وإن كنتِ قد تابعتِ دينَ محمّدٍ ... وقطّعتِ الأرحامَ منك حِبالُها [2]
فكونى على أعلى سَحُوقٍ بِهَضْبةٍ [3] ... مُلَملِمة حمراءَ يَبْسٍ بلالُها [4]

فأقام بنَجرانَ حتّى مات مُشركا .

قال الواقدىّ : وهرب حُوَيطِب بنُ عبدالعُزّى فدخل حائطا [5] بمكّة ، وجاءأبو ذَرّ لحاجته، فدخل الحائط فرآه ، فهَرَب حُوَيطب ، فقال أبو ذَرّ : تعالَ فأنتَ آمِن ،فرجع إليه فقال: أنت آمن؛فاذهب حيثُ شئتَ ، وإن شئتَ أدخلتُك على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وإن شئتَ فإلى منزلِك. قال : وهل من سبيل إلى منزلى ، ألقَى فأقتَل قبل أن أصِلَ إلى منزلى،

---

(١) من قصيدة له فى ابن هشام ٤ : ٤٢ ؛ وأولها :

أشَاقَتْكَ هِنْدٌ أَمْ أَتَاكَ سُؤَالُهَا ... كذاكَ النَّوَى أَسبابُهَا وَانْفِتَالُهَا

(٢) ابن هشام : « وعطفت الأرحام منك حبالها » .

(٣) كذا فى ا ، وفى ب « سخوف » ؛ وفى د : « سجوف » . وفى ابن هشام : « سحيق » .

(٤) الململة : المستديرة ، والغبراء : التى علاها الغبار . واليبس : المكان اليابس .

(٥) الحائط هنا : البستان .

أو يدخل عليّ منزلى فأقتَل ! قال : فأنا أبلُغ معك منزلَك ، فبلغ معه منزلَه ، ثمّ جعل يُنادى عَلَى بابه : إنّ حُوَيْطبا آمِن فلا يهيَّج . ثم انصَرَف إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخبرَه فقال : أوَ ليس قد أمّنّا الناس كلَّهم إلّا من أمَرْتَ بقتلِه !

قال الواقدىّ : وهربَ عكرمةُ بن أبى جهل إلى اليمن حتى ركب البحر ، قال : وجاءت زوجته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فى نِسوةٍ منهنّ هند بنت عُتبة ـ وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أمر بقتلِها ـ والبَغُوم(١) بنت المعدّل الكِنانيّة امرأة صفوان بن أميّة ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة امرأة الحارث بن هشام ، وهند بنت عتبة بن الحجاج أمّ عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورسول الله صلى الله عليه وآله بالأبطح ، فأسلَمن ، ولما دخلنَ عليه دخَلْن وعنده زَوْجتاه وابنته فاطمة ونساء من نساء بنى عبد المطّلب وسألنَ أن يُبايعهنّ ، فقال : إنى لا أُصافح النّساء ـ ويقال : إنه وَضع على يده ثوباً فمسَحْن عليه ، ويقال : كان يؤتَى بقَدَح من ماء فيدخِل يدَه فيه ثم يرفَعُه إليهنّ ، فيُدْخلن أيديهنّ فيه ـ فقالت أمّ حكيم امرأةُ عِكْرمة : يا رسول الله ، إنّ عِكْرمة هرَبَ منك إلى اليمن ، خاف أن تقتُله ، فأمِّنه ، فقال : هو آمن . فخرجتْ أمّ حكيم فى طلبه ، ومعها غلامٌ لها رُومىّ ، فراوَدَها عن نفسها ، فجعلتْ تمنّيه حتى قدِمتْ به على حىّ ، فاستغاثتْ بهم عليه ، فأوثَقُوه رباطا ، وأدركَتْ عِكْرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تِهامة ، فركب البحر ، فهاج بهم ، فجعل نُوتىُّ السفينة يقول له : أن أخلص ، قال : أىّ شىء أقول ؟ قال : قل لا إله إلا الله ، قال عكرمة : ما هرَبتُ إلاّ من هذا ، فجاءت أمّ حكيم على هذا من الأمر ، فجعلتْ تُلِحّ عليه وتقول : يابن عمّ ، جئتُك مِن عند خير الناس ، وأوصَل الناس ، وأبرّ الناس ، لا تُهلِك نفسك ، فوقف لها حتى أدركَتْه فقالت : إنّى قد استأمَنتُ لك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأمّنك ، قال :

(١) ا ، ب : « البعوم » . د : « النعوم » ، تحريف ، والصواب ما أثبته ، وانظر القاموس

أنتِ فعلتِ ؟ قالت : نعم أنا كلّمتُه ، فأمّنك ، فرجع معها ، فقالتْ : ما لقيت من غلامِك الرّوميّ ! وأخبرتْه خَبرَه ، فقتَله عكرمةُ ، فلما دنا من مكّة قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم لأصحابه : يأتيكم عِكرمة بنُ أبى جهل مؤمِنا ، فلا تَسُبّوا أباه ، فإنّ سبّ الميتّ يُؤذى الحيّ ، ولا يبلُغ الميت . فلما وَصل عِكرمة وَدخل على رَسولِ الله صلّى الله عليه وآله وثب إليه صلى الله عليه وسلم وليس عليه رداء فرحا به ، ثم جلس فوقف عِكرمة بين يديه ومعه زوجته منقّبة ، فقال : يا محمد ، إن هذه أخبرتْنى أنك أمّنتنى ؛ فقال : صدقت ، أنت آمِن ، فقال عكرمة : فإلامَ تَدْعُو ؟ فقال : إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّى رسولُ الله ، وأن تقُيِم الصلاة ، وتؤُتى الزّكاة . . وعدّ خصال الإسلام ، فقال عِكْرمة : ما دعوتَ إلاّ إلى حقّ ، وإلى حَسن جميل ، ولقد كنتَ فينا مِن قبل أنْ تدعوَ إلى ما دعوتَ إليه ، وأنت أصدقُنا حديثاً ، وأعظَمُنا برّا . ثم قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسولُ الله ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : لا تسألنى اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتُكه ، قال : فإنى أسألك أن تغفر لى كلّ عداوة عادَيْتُكَها أو مَسير أوضَعْتُ فيه ، أو مُقامٍ لقيتُك فيه ، أو كلام قُلتُه فى وجهك ، أو أنت غائبٌ عنه . فقال : اللهمّ اغفر له كلّ عداوة عادانيها ، وكلّ مَسير سار فيه إلىّ يريد بذلك إطفاء نُورك ، واغفر له ما نالَ منى ومن عِرْضى ؛ فى وَجهى أو أنا غائبٌ عنه . فقال عِكْرمة : رضيتُ بذلك يا رسول الله ، ثم قال : أما والله لا أدَع نفقةً كنت أنفِقُها فى صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقتُ ضعفها فى سبيل الإسلام وفى سبيل الله ، ولأجتهدنّ فى القتال بين يديك حتى أُقتلَ شهيدا ؛ قال : فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله امرأته بذلك النّكاح الأول .

قال الواقدىّ : وأما صَفْوان بن أميّة فهرب حتى أتى الشّعبة ، وجعل يقول لغلامه

يسار ـ وليس معه غيرُه : وَيْحك ، أُنظر من ترَى ! فقال : هذا عُمَير بن وهب ؛ قال صفوان : ما أصنع بعُمير ؟ والله ما جاء إلاّ يريد قتْلِي ، قد ظاهرَ محمدا علىّ ، فلحِقه فقال صفوان : يا عُمَير ، مالك ؟ ما كفاك ما صنعتَ ، حمّلتنى دَيْنَك وعيالك ، ثم جئت تريد قتْلى ! فقال : يا أبا وهب ، جُعِلت فِداك ، جئتُك من عند خير الناس ، وأبرّ الناس وأوصل الناس ، وقد كان عميرٌ قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله : يا رسول الله ، سيّد قومى صفوان بن أميّة خرج هارباً ليقذف نفسه فى البحر ؛ خاف ألاّ تؤمِّنه ، فأمِّنه فداك أبى وأمى ! فقال : قد أمّنتُه ، فخرج فى أثره ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمّنك ، قال صَفوان : لا والله حتى تأتِيَنى بعلامةٍ أعرفُها ، فرَجَع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره وقال : يا رسول الله ، جئته وهو يريدُ أنْ يقْتل نفسه ، فقال : لا أرجع إلاّ بعلامة أعرِفها ، فقال : خذ عمامتى ، فرجع عمير إليه بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وهى البرْدُ الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله مَكة معتجراً به ، برد حِبرة أحمر ـ فخرج عمير فى طلبه الثانية[1] حتى جاءه بالبُرْد فقال : يا أبا وَهب ، جئتك مِن عند خير الناس وأوصل الناس وأبرّ الناس وأحلم الناس ، مجدُه مجدُك ، وعِزّه عِزّك ، ومُلكه مُلكك ، ابنُ أبيك وأمّك ، أذكّرك الله فى نفسك ، فقال : أخافُ أن أقتَل ؛ قال : فإنه دَعاك إلى الإسلام فإن رضيتَ وإلاّ سيّرك شهرين فهو أوفى الناس وأبرّهم ، وقد بعث إليك ببردِه الذى دَخَل به معتجرا ، أتعرِفه ؟ قال : نعم ، فأخرجه ، فقال : نعم هو هو ، فرجع صفوانُ حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجَده يصلّى العصر بالناس ، فقال : كم يصلّون ؟ قالوا : خمس صلوات فى اليوم والليلة قال : أمحمدٌ يصلّى بهم ؟ قالوا : نعم ، فلما سلّم من صلاته صاح صفْوان : يامحمد ، إن عميرَ

---

(١) ا ، ب : « ثابتة » ؛ وأثبت ما فى د .

ابن وهب جاءنى ببُرْدك ، وزَعَم أنك دعوتنى إلى القدوم إليك ، فإن رضيت أمرا ، وإلا سيرتنى شهرين . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : انزل أبا وهب ، فقال : لا والله أو تبيّن لى ؛ قال : بل سِرْ أربعة أشهر . فنزل صفوانُ وخرج معه إلى حُنَين وهو كافر ، وأرسل إليه يستعير أدْراعه — وكانت مائة دِرْع — فقال : أطوْعا أم كَرْها ؟ فقال عليه السلام : بل طَوْعا عاريّةً مؤدّاة ، فأعاره إيّاها ، ثم أعادها إليه بعد انقضاء حُنين والطائف ، فلما كان رسول الله صلى الله عليه وآله بالجِعْرَانة يسير فى غنائم هوازن ينظر إليها ، فنظر صفوان إلى شِعب هناك مملوء نَعما وشاء ورعاء ، فأدام النظر إليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرْمُقه ، فقال : أبا وهب : يعجبك هذا الشِّعب ! قال : نعم ، قال : هو لك وما فيه . فقال صفوان : ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبىّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدىّ : فأمّا عبدُ الله بن سَعْد بن أبى سَرْح فكان قد أسلم ، وكان يكتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلم الوحى ، فربّما أملى عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله « سميعٌ عليم » فيكتُب « عزيزٌ حكيم » ونحو ذلك ، ويقرأ على رسول الله صلّى الله عليه وآله فيقول : كذلك الله ، ويقرأ ، فافتتن ؛ وقال : والله ما يَدْرِى ما يقول ! إنى لأكتب له ما شئتُ فلا يُنكر ، وإنّه ليوحَى إلىّ كما يوحَى إلى محمّد ، وخرج هاربا من المدينة إلى مكّة مرتّدا ، فأهْدَر رسولُ الله دمَه ، وأمر بقَتْله يوم الفتح ، فلمّا كان يومئذ جاء إلى عثمان — وكان أخاه من الرَّضاعة — فقال : يا أخى ، إنّى قد أجَرْتك فاحتَبِسْنى هاهنا واذهبْ إلى محمّد فكلّمه فىّ ، فإن محمدا إنْ رآنى ضَرَب عُنُقى ، إنّ جُرْمى أعظم الجُرْم ، وقد جئتُ تائبا ؛ فقال عثمان : قم فاذهب معى إليه ، قال : كلاّ ، والله إنه إنْ رآنى ضَرَبَ عنقى ولم يناظرْنى ، قد أهدَرَ دمى وأصحابُه يطلبُونَنى فى كلّ موضع ، فقال عثمان : انطلق معى فإنّه لا يقتلك إن شاء الله — فلم يُرَعْ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إلّا بعثمانَ

آخذا بيدِ عبدِ الله بن سعد واقفيْن بين يديه ، فقال عثمان : يارسولَ الله ، هذا أخى من الرّضاعة ، إنّ أمّه كانت تحملنى وتمشّيه وترضِعنى وتفطِمه وتُلْطِفنى وتترْكه ، فهَبْه لى ، فأعرض رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عنه ، وجعل عثمانُ كلّما أعرض رسولُ الله عنه استقبَلَه بوجهه ، وأعادَ عليه هذا الكلام ، وإنّما أعرض عليه السّلام عنه إرادةَ لأن يقوم رجلٌ فيضربَ عنُقَه ، فلمّا رأى ألّا يقوم أحدٌ وعثمان قد أنكبّ عليه يقبّل رأسه ويقول : يا رسولِ الله ، بايِعْه فِدَاك أبى وأمى على الإسلام ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : نعَمْ ، فبايعه .

قال الواقدىّ : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بعد ذلك للمسلمين : ما مَنَعكم أن يقومَ منكم واحدٌ إلى هذا الكلب فيقتله ! أو قال الفاسق . فقال عبّاد بن بشْر : والذّى بعَثك بالحقّ ، إنى لأتْبَع طرفَك من كلّ ناحية ، رجاء أن تشيرَ إلىّ فأضرِبَ عنقه . ويقال : إنّ أبا البشير هو الّذى قال هذا ؛ ويقال : بل قاله عمرُ بنُ الخطّاب ، فقال عليه السلام : إنّى لا أقتلُ بالإشارة ؛ وقيل : إنّه قال : إنّ النبىّ لا يكون له خائنةُ الأعين .

قال الواقدىّ : فجعل عبدُ الله بنُ سعد يفرّ من رسولِ الله صلّى الله عليه وآله كلّما رآه ، فقال له عثمان : بأبى أنتَ وأمّى ! لو ترى ابنَ أمّ عبدٍ يفرّ منك كلّما رآك ! فتبسّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ؛ فقال : أو لم أبايِعه وأؤْمنه ؟ قال : بلى ، ولكنّه يتذكّر عُظْمَ جُرْمه فى الإسلام ، فقال : إنّ الإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه .

قال الواقدىّ : وأمّا الُحوَيرث بنُ مَعْبد — وهو من وَلَد قصىّ بن كلاب — فإنّه كان يؤذِى رسولَ الله صلّى الله عليه وآلِه بمكّة فأهدرَ دَمَه ، فبينما هو فى منزله يوم الفتح وقد أغلق عليه بابه ، جاء علىٌّ عليه السلام يَسأل عنه ، فقيل له : هو فى البادية ، وأخبر الُحوَيرث أنّه جاء يطلبُه وتَنحَّى علىٌّ عليه السلام عن بابه ، فخرج الُحوَيْرث يريد أن

يَهرب من بيتٍ إلى بيتٍ آخر ، فتلقّاه علىّ عليه السلام فضرَب عنقه .

قال الواقدىّ : وأمّا هبّار بنُ الأسود ، فقدكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أمران يُحرِقَه بالنّار ، ثم قال : إنّما يعذّب بالنار ربّ النار ، اقطعوا يدَيْه ورجليه إن قدَرْتم عليه ، ثمّ اقتُلوه ، وكان جرمُه أن نَخَس زينبَ بنتَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لما هاجرتْ ، وضرَبَ ظهرها بالرّمح وهى حُبْلَى ، فأسقطتْ ، فلم يقدِر المسلمون عليه يومَ الفتح ، فلمّا رجع رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إلى المدينة طَلَع هَبّار بنُ الأسود قائلا : أشهَد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنّ محمّدا رسول الله ، فقبل النبىّ صلّى الله عليه وآله إسلامه ، فخرجتْ سَلْمَى مولاةُ النبىّ صلّى الله عليه وآله فقالت : لا أنعم الله بك عَيْنا ! أنتَ الّذى فعلت وفعلت ! فقال رسولُ صلّى الله عليه وآله وهبّار يعتذِر إليه : إن الإسلام محا ذلك . ونَهَى عن التّعرض له .

قال الواقدىّ : قال ابن عبّاس رضى الله عنه : رأيتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله وهبّار يعتذِر إليه وهو يُطأطئ رأسَه استحياءً ممّا يعتذِر هبّار ويقول له : قد عفوتُ عنك !

قال الواقدىّ : وأما ابن خَطَل فإنّه خرج حتّى دخل بين أستارِ الكعبة ، فأخرَجه أبو بَرْزة الأسلمىّ منها ، فضرَبَ عنقَه بين الرُكْن والمقام — ويقال : بل قَتَله عمّار بن ياسِر ، وقيل : سعدُ بن حُريث المخزومىّ ، وقيل : شُرَيك بن عَبدة العَجْلانىّ ؛ والأثبتُ أنّه أبو بَرْزة — قال : وكان جُرْمه أنّه أسلَم وهاجَر إلى المدينة وبعثَه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ساعِياً[1] ، وبعث معه رجلا من خُزاعةَ فقتَله ، وساق ماأَخَذ من مال الصّدقة ، ورجَع إلى مكّة ، فقالت له قريش : ماجاء بك ؟ قال : لم أَجِد دِينا خيْراً من دِينكم ، وكانت له قَيْنتان : إحداهما قرينى ، والأخرى قرينة — أو أرنب ، وكان ابن خَطَل يقول

---

(١) ساعيا ؛ أى جابيا للزكاة .

الشّعرَ يَهجُو به رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ويغنّيان به ، ويَدخُل عليه المشركون بيتَه فيَشرَبون عنده الخمر ، ويَسمَعون الغِناء بهِجاء رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

قال الواقديّ : وأما مِقْيس بن صُبابة فإنّ أمّه سهميّة ، وكان يومَ الفتح عند أخوالِه بنى سَهْم ، فاصطَبَح الخمرَ ذلك اليوم فى نَدامَى له ، وخرج ثَمِلاً يتغنّى ويتمثّل بأبياتٍ منها :

دَعِينى أَصطبِحْ يابَكْرُ إنّى رأيتُ الموتَ نَقّبَ عن هِشامِ
ونقّب عن أبيكِ أبى يزيدٍ أخِى القَيْنات والشَّربِ الكِرامِ
يخبّرنا ابنُ كَبْشَة أنْ سنَحْيَا وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ !
إذا ما الرأسُ زالَ بمنكِبَيه فقد شَبِع الأنيسُ من الطّعامِ
أتقتُلُنى إذا ماكنتُ حيًّا وتُحيينى إذا رَمّت عِظامِى !

فلقَيه نُمَيلة بنُ عبد الله اللّيثىّ وهو من رَهْطه ، فضَرَبه بالسيف حتّى قتَله ، فقالت أختُه ترثيه :

لَعَمرى لقد أخزَى نُميلةَ رهْطُه وفَجّع أصناف النساء بمِقيسِ
فللهِ عَيْنَا مَن رَأى مِثلَ مَقيسٍ إذا النُّفَساء أصبحتْ لم تخرّس[1]

وكان جُرْم مِقْيَس مِن قِبَل أنّ أخاه هاشم بن صُبابة أسلَمَ وشَهِدَ المُرَيْسِيعَ مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، فقتَله رجلٌ من رَهْط عُبادَة بن الصّامت،وقيل : مِن بنى عمرو بن عَوْف وهو لا يعرفه ، فظنّه من المشركين ، فقَضَى له رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بالدّية على العاقلة ، فقَدِم مِقْيَس أخوه المدينةَ فأخذ دِيَته ، وأسلَمَ ، ثمّ عدا على قاتِل أخيه ، فقتَله وهَرَب مرتدّا كافرا يَهجُو رسولَ الله صلّى الله عليه وآله بالشّعر ، فأهدَرَ دَمه .

(١) يقال : خرست المرأة تخريساً ؛ إذا أطعمت فى ولادتها ؛ والبيت فى اللسان (خرس) .

قال الواقدىّ : فأما سارّة مولاةُ بنى هاشم ـ وكانت مغنّيةً نوّاحة بمكّة ، وكانت قد قَدِمتْ على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله المدينَة تَطْلُب أن يَصِلَها ، وشكتْ إليه الحاجةَ وذلك بعدَ بَدْر وأُحُد ـ فقال لها : أما كانَ لكِ فى غِنائكِ ونياحِكِ ما يُغْنِيك ! قالت : يامحمّد ، إنّ قريشا منذ قُتِل مَن قُتِل منهم ببَدْر تركوا استماعَ الغِناء ، فوَصَلها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وأوقَر لها بعيراً طعاما ، فرجعتْ إلى قُريش وهى على دِينها ، وكانت يُلقَى عليها هِجاءُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فتُغنّى به ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وآله يومَ الفتح أن تُقتَل ، فقُتِلت ، وأما قَينتا ابن خَطَل فقَتَل يومَ الفتح إحدَاهما ، وهى أرنب ، أو قرينة ، وأمّا قرينى فاستؤمن لها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، فأمّنها وعاشت حتّى ماتت فى أيام عثمان .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآلِه أَمَر بقَتْل وَحْشِىّ يومَ الفَتْح ، فهَرَب إلى الطائف ، فلم يزل بها مقيما حتّى قَدِم مع وفد الطائف على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، فدخل عليه فقال : أشهَد أن لا إله إلّا الله ، وأنّك رسولُ الله ، فقال : أوحشىّ ؟ قال : نعم ، قال : اجلس وحدِّثْنى كيف قتلتَ حمزة ؟ فلمّا أخبرَه قال : قم وغَيِّبْ عنّى وجهَك ، فكان إذا رآه توَارَى عنه .

قال الواقدىّ : وحدّثنى ابن أبى ذئب ومَعمَر عن الزُّهرِىّ ، عن أبى سَلَمة بنِ عبدِ الرحمن بن عوف ، عن أبى عَمرو بن عَدِىّ بن أبى الحمراء ، قال : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول بعد فَراغِه من أمر الفَتْح وهو يريد الخروجَ من مكّة : أمَا واللهِ إنّكِ لخيرُ أرضِ الله ، وأحبُّ بلادِ الله إلىّ ، ولولا أنّ أهلَكِ أخرجونى ماخرجتُ .

***

وزاد محمّد بن إسحاق فى كتاب "المَغازى" أنّ هند بنت عُتْبة جاءت إلى رسول الله

صلّى الله عليه وآله مع نساءِ قريش متنكِّرة متنقبة لحدَثها الذى كان فى الإسلام ، وما صنعتْ بحمزة حين جدعته وبقرت بطنَه عن كبده؛ فهى تخاف أن يأخذها رسول الله صلّى الله عليه وآله بحدثها ذلك ، فلّما دنَتْ منه ، وقال حين بايعنه على ألّا يُشرِكن بالله شيئا قلن : نعم ؛ قال : ولا يَسرِقْن ، فقالت هند : والله أنا كنت لأصيب من مال أبى سُفيان الهَنَة والهُنَيْهة فما أعلم أَحَلالٌ ذلك أم لا ! فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : وأنّكِ لهند ! قالت : نعم ، أنا هند ، وأنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله ، فاعفُ عمّا سَلَف عفا الله عنك ؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : ولا يزنِينَ ، فقالت هند : وهل تزنى الحرّة ! فقال : لا ، ولا يقتُلْنَ أولادَهُنّ ، فقالت هند : قد لَعَمْرى ربّيناهم صغارا وقتلتَهم كبارا ببَدْر ، فأنت وهم أعرَفُ . فَضَحِك عمرُ بنُ الخطّاب من قولها حتى أسْفَرتْ نَواجِذه ، قال : ولا يأتِين ببهْتان [يَفْتَرِينَه[١]] ، فقالت هند : إنّ إتيان البُهْتان لَقَبيح ، فقال : ولا يَعْصِينك فى معروف ؛ فقالت : ما جلسْنا هذه الجلسة ونحن نريد أن نعصِيَك .

قال محمّد بن إسحاق : ومِن جيّد شعرِ عبدِ الله بن الزّبعرَى الذى اعتذَرَ به إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله حين قدِمَ عليه :

مَنَع الرُّقادَ بلابلٌ وهُمومُ ... فالليلُ ممتدُّ الرّواق بَهيمُ[٢]

ممّا أتانى أنّ أحمدَ لامَنِي ... فيه ، فبِتّ كأننى محمومُ

يا خيرَ من حملَتْ على أوْصالِها ... عَيرانَة سُرُح اليدَيْن سَعُومُ[٣]

---

(١) من د .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٣٩ . البلابل : الوساوس المختلطة . والبهيم : الذى لا ضياء فيه . وفى ابن هشام : « والليل معتلج الرواق » .

(٣) العيرانة : الناقة التى تشبه العير (حمار الوحش) فى شدته ونشاطه . سرح اليدين : خفيفتهما . وسعوم : سريعة . وفى ابن هشام : « غشوم » .

إنّى لمعتـذرٌ إليكَ من الّذِى ... أسديْتَ إذْ أنا فى الضلال أهيمُ[١]

أيّانَ[٢] تأمُرنى بأغْوَى خُطّةٍ ... سَهْمٌ ، وتأمُرنى به مخــزومُ

وأمدُّ أسبابَ الرّدى ويقودُنى ... أمرُ الغُواة وأمرُهم مشئوم

فاليومَ آمنَ بالنبىّ محمــدٍ ... قلبى ، ومُخطِئُ هــذه محرومُ

مضت العداوةُ وانقضَت أسبابُها ... ودَعَتْ أَواصرُ بيننا وحُلومُ[٣]

فاغفر فِدًى لك والدىَّ كلاهُما ... زَللى ، فإنك رَاحِمٌ مرْحُوم

وعليك مِن عَلَم المَلِيكِ عَلامةٌ ... نورٌ أغرُّ وخاتَمٌ مختــــومُ

أعطاكَ بعــد محبَّةٍ برهَانَهُ ... شرفًا وبُرْهان الإلٰه عظــيم

ولقد شَهِدْتُ بأنّ دينَك صادقٌ ... برٌّ وشأنُك فى العباد جسيمُ

والله يَشهد أنّ أحمدَ مصطفًى ... متقبَّــلٌ فى الصالحين كريمُ

فرعٌ عَلا بنيانُه مِن هاشِمٍ ... دَوْح تمَـكّنَ فى العُلا وأُرومُ[٤]

قال الواقدىّ : وفى يوم الفتْح سمىَّ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أهلَ مكة الذين دخلها عليهم الطُّلَقاءَ ، لمنّه عليهم بعد أن أظفرَهُ الله بهم ، فصاروا أرقّاءَ له . وقد قيل له يوم الفتح : قد أمكنك تعالى الله فخذ ما شئت من أقمارٍ على غصون — يعنُون النّساء ؛ فقال عليه السلام : يأبى ذلك إطعامُهم الضيف ، وإكرامُهم البيت ، ووَجْؤُهم مناحرَ الهَدْى .

***

ثم نعود إلى تفسير ما بقى من ألفاظ الفصل[٥] ؛ قوله : «فإن كان فيك عجل فاسترفِهِ»

---

(١) أسديت : صنعت (٢) فى د : « أيام »

(٣) الحلوم : جمع حلم ؛ وهو العقل . (٤) ابن هشام :

قرمٌ عَلَا بنيانُهُ من هاشمٍ ... فرعٌ تمَكّنَ فى الذُّرَا وأُرومُ

قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها » .

(٥) انظر ص ٢٥٠ من الجزء السابع عشر من هذا الكتاب

أى كن ذا رَفاهِية ، ولا تُرهِقَنّ نفسك بالعجل ، فلا بدّ من لِقاء بعضنا بعضا ، فأىّ حاجة بك إلى أن تعجل . ثمّ فسّر ذلك فقال : إن أَزُرْكَ فى بلادك ، أى إن غزَوتك فى بلادِك فخليق أن يكون الله بعثنى للانتقام منك ، وإن زُرْتَنى — أى إنْ غَزَوتنى فى بلادى وأقبلتَ بجموعك إلىّ . كنتم . كما قال أخو بنى[1] أسد ؛ كنت أسمعُ قديما أنّ هذا البيت من شِعْر بشر بن أبى خازم الأسَدىّ ؛ والآن فقد تصفّحتُ شعره فلم أجدْه ، ولا وقفتُ بعدُ على قائله ، وإن وَقَفْتُ فيما يُستقبل من الزّمان عليه ألحقته .

وريحٌ حاصِب ، تَحمل الحصْباء ، وهى صِغارُ الحصَى ، وإذا كانت بين أغْوار — وهى ما سَفُل من الأرض وكانت مع ذلك ريح صَيف — كانت أعظمَ مشقّة ، وأشدّ ضَرَرا على مَن تلاقيه . وجُلمود ، يمكن أن يكون عَطفْا على «حاصِب» ، ويمكن أن يكون عطفْا على «أغْوار» ، أى بين غَوْرٍ من الأرض وحَرّةٍ ، وذلك أشدّ لأذاها لما تكسِبُه الحرّة من لَفْح السَّموم وَوَهجِها . والوجه الأوّل أليَق .

وأعضضْته أى جَعلته مَعضوضا برءوس أهلك ، وأكثر ما يأتى « أَفعَلْته » أن تجعله « فاعلا » ، وهى هاهنا من المقلوب ، أى أعضَضْت رءوس أهلك به ، كقوله : « قد قطع الحبل بالمرْوَد » .

وجدُّه عُتبة بن ربيعة ، وخاله الوليدُ بنُ عتبة ، وأخوه حَنظلة بن أبى سفيان ، قتلهم علىّ عليه السلام يوم بدر .

والأغلَفَ القلب : الذى لا بصيرة له ، كأنّ قلبه فى غِلاف ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾[2] .

---

(١) وهو قوله :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تضربُهُمْ ... بحاصبٍ بينَ أغوارٍ وجلمُودِ

(٢) سورة البقرة .

والمقارِب العقل ، بالكسر : الذى ليس عَقْله بجيّد ؛ والعامَّة تقول فيما هـذا شأنه : مقارَب ، بفتح الراء .

ثم قال : والأوْلى أن يقال هذه الكلمة لك .

ونشدتُ الضّالّة : طَلبتُها ، وأَنشدتها : عَرّفتها ، أى طلبتَ ما ليس لك .

والسائمة : المال الراعى ؛ والكلامُ خارجٌ مخرج الاستعارة .

فإن قلت: كلّ هذا الكلام يطابق بعضه بعضا إلاّ قوله: « فما أبعد قولك من فِعلك » وكيف استبعد عليه السلام ذلك ولا بُعْدَ بينهما ، لأنه يَطلُب الخلافة قولا وفعلا ! فأىّ بُعد بين قوله وفعله !

قلت : لأنّ فعله البَغْى ، والخروج على الإمام الذى ثبتت إمامتُه وصحّت ، وتفريق جماعةِ المُسلمين ، وشقّ العَصا ، هذا مع الأمور الّتى كانت تَظهر عليه وتقتضى الفسق ؛ من لبس الحرير ، والمَنسوج بالذهب ، وما كان يتعاطاه فى حياةِ عثمان من المنكرات التى لم تثْبت توبته منها ، فهذا فعلُه .

وأما قوله ؛ فزعمه[1] أنه أميرُ المؤمنين ، وخليفةُ المسلمين ، وهذا القولُ بعيد من ذلك الفعل جدا .

و«ما» فى قوله : « وقريب ماأشبهت» مصدرية ، أى وقريب شبهك بأعمام وأخوال . وقد ذكرنا من قُتِل من بنى أميّة فى حرُوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تقدّم ، وإليهم الإشارة بالأعمام والأخوال، لأن أخوال معاوية من بنى عبد شمس ، كما أنَّ أعمامه من بنى عبد شمس .

قوله: « ولم تماشها الهوينى »أى لم تصحبها ، يصفها بالسرعةوالمضىّ فى الرءوس الأعناق

(١) ا : « لزعمه » .

وأمّا قوله : « ادخُل فيما دَخَل فيه الناسُ وحا كِم القومَ » ، فهى الحجّة التى يَحتجّ بها أصحابُنا له فى أنّه لم يُسلِّم قَتَلة عثمانَ إلى معاوية ، وهى حُجّة صحيحةٌ ، لأنّ الإمام يجب أن يُطاع ، ثمّ يتحا كَم إليه أولياء الدّم والمتّهمون ، فإنْ حَكَم بالحقّ اُستدِيمت حكومتُه ، وإلّا فَسق و بَطَلت [إمامَتُه [1]] .

قوله : « فأمّا تلك التى تُريدها »؛ قيل : إنّه يريد[2] التعلّق بهذه الشّبهة ، وهى قَتَلة عثمان ، وقيل : أراد به ما كان معاوية يكرّر طلبَه من أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو أن يُقِرّه على الشّام وحدَه ، ولا يكلّفه البَيْعة ، قال : إنّ ذلك كمُخادَعة الصبىّ فى أوّل فِطامه عن اللّبَن بما تَصنَعه النّساء له ممّا يكرِّه إليه الثّدىَ و يُسلِيه عنه ، ويُرغِّبه فى التعوّض بغيره، وكتابُ معاويةَ الّذى ذكرناه لم يتضمّن حديثَ الشام .

---

(١) من د

(٢) فى د « يعنى » .

(٦٥)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضا :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الْأُمُورِ ، فَلَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِادِّعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ ، وَاقْتِحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَالْأَكَاذِيبِ ؛ مِن انْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ ، وَابْتِزَازِكَ لِمَا قَدِ اخْتُزِنَ دُونَكَ ؛ فِرَارًا مِنَ الْحَقِّ ، وَجُحُودًا لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ ، مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ ، وَمُلِئَ بِهِ صَدْرُكَ ؛ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ !

فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَاشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلَابِيبَهَا ، وَأَعْشَتِ الْأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا . وَقَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السِّلْمِ ، وَأَسَاطِيرَ لَمْ يَحُكْهَا عَنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ ، أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ ، وَالْخَابِطِ فِي الدِّيمَاسِ ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ ، نَازِحَةِ الْأَعْلَامِ ، تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنُوقُ ، وَيُحَاذَى بِهَا الْعَيُّوقُ ؛ وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي صَدَرًا أَوْ وِرْدًا ، أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْدًا أَوْ عَهْدًا ؛ فَمِنَ الْآنَ فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ وَانْظُرْ لَهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ اللهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ ، وَمُنِعْتَ أَمْرًا هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ ، وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرح :

آنَ لك وأَنَى لكَ بمعنًى ، أى قَرُب وحَانَ ، تقول : آنَ لك أن تَفعَل كذا يَئِين أَيْنًا ، وقال :

أَلَم يأنِ لى أن تُجلَ عَنِّى عَمايَتِى   وأَقصُر عن لَيلَى، بَلَى قد أَنَى لِيَا

فَجَمع بين اللّغتين ، و« أنّى » مقلوبة عن « آنَ » ، ومِمّا يجرى مَجرَى المَثَل قولُهم لمن يُرُونه شيئًا شديدًا يُبصره ولا يشكّ فيه : قد رأيته لمحًا باصِرا ، قالوا : أى نظرا بتَحْدِيق شديد ، ومَخرَجه مَخرَج رجل لابنٍ وتامِر ، أى ذو لبَن وتَمْر ، فمعنَى «باصِر» ذو بَصَر . يقول ، عليه السلام لمعاوية : قد حانَ لك أن تَنتفِـع بما تَعلَمه من معايَنة الأمورِ والأحوالِ وتتحقّقه يقينا بقَلْبك كما يتحقّق ذو اللّمح الباصر مايُبصِره بحاسّة بصرِه ، وأراد ببَيان الأمور هاهنا معايَنتها ، وهو مايعرفه ضرورة من أستحقاق علىٍّ عليه السلام للخلافة دونَه، و براءتِه من كلّ شُبْهة يَنسُبها إليه .

ثم قال له : «فلقد سلَكتَ»أى اتّبعتَ طرائقَ أبى سُفْيان أبيكَ وعُتْبة جَدِّك وأمثالِهما من أهلِك ذَوِى الكُفْر والشّقاق .

والأباطيل : جمعُ باطل على غير قياس ، كأنّهم جَمَعوا إبطيلاً .

والأقتحام : إلقاء النّفس فى الأمْر من غير رَوِيّة .

والمَيْن : الكَذِب . والغُرور بالضم المصدَر ، و بالفَتْح الأسم .

وانتحلْتُ القصيدة ، أى ادّعيتَها كَذِبا .

قال : « ماقد علا عنك » ، أى أنتَ دونَ الخلافة ، ولستَ من أهلِها ؛ والأبتزاز : الأستِلاب .

قال : « لما قد أُخْتِزن دونَك » ، يعنى التسمّى بأمرة المؤمنين .

ثمّ قال : « فِرارا من الحقّ » ، أى فعلتَ ذلك كلّه هَرَبا من التمسّك بالحقّ والدّين ، وحبًّا للكُفْر والشّقاق والتغلّب .

قال : « وجُحوداً لما هو ألزَم » ، يعنى فرض طاعةِ علىٍّ عليه السلام ، لأنّه قد وَعَاها سَمْعُه ؛ لا رَيْب فى ذلك ، إمّا بالنّص فى أيّام رسولِ الله صلّى الله عليــه وآله كما تَذْكُره الشّيعة ـ فقد كان معاوية حاضراً يومَ الغَدِير لأنّه حجّ معهم حجّة الوَداع ، وقد كان أيضا حاضراً يومَ تَبُوكَ حين قال له بمَحضَر من الناس كافّة : « أنت منّى بمنزِلة هارُون مِن موسى » ، وقد سُمِــع غيرُ ذلك ـ وإمّا بالبَيْعة كما نَذْكره نحن فإنّه قد اتّصل به خبرُها ، وتواتَرَ عندَه وُقوعُها ، فصار وقوعُها عنده معلوما بالضّرورة كعِلمِه بأنّ فى الدّنيا بلدا اسمُها مِصر ، وإن كان مارآها .

والظاهِر من كلامِ أميرِ المؤمنين عليــه السّلام أنه يريد المعنى الأوّل ؛ ونحن نخرِّجه على وَجْهٍ لا يَلزَم منه ماتقوله الشِّيعة ، فنقول : لنَفرض أنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله مانصّ عليه بالخلافة بعدَه ، أليس يَعلَم معاوية وغيرُه من الصّحابة أنه قال له فى ألف مقام : « أنا حَرْبٌ لمن حارَبْتَ ، وسِلْمٌ لمن سالَمْت » ، ونحو ذلك من قوله : « اللّهمّ عادِ من عاداه ، ووالِ مَن وَالاه » ، وقوله : « حربُك حَرْبى وسِلْمُك سِلْمى » ، وقوله : « أنت مع الحقّ والحقّ معك » ، وقوله : « هذا منّى وأنا منه » ، وقوله : «هذا أخِى» ، وقوله : «يحبُّ الله ورسوله ، ويحبّه اللهُ ورسولُه» ، وقولُه : « اللّهمّ ائتنِى بأحبّ خَلقِك إليك» ، وقوله : « إنّه ولىّ كلّ مؤمن [ومؤمنة[1]] بعدى » ، وقوله : فى كلام قاله « خاصِف النّعل » ، وقوله : « لا يحبّه إلّا مؤمن ، ولا يبغضه إلا مُنافِق » ، وقوله : « إنّ الجنّة لتشتاق إلى أربعة » ، وجعله أوّلَهم ؛ وقوله لعمّار : « تقتُلك الفِئة الباغية » ؛ وقوله : « ستقاتل الناكِثين والقاسِطين

(١) من د

والمارِقين بعدِى » ، إلى غير ذلك ممّا يَطولُ تَعدادُه جدّا ، ويحتاج إلى كتابٍ مفرد يُوضَع له ، أفما كان ينبغى لمعاويةَ أن يفكّر فى هذا ويتأمّله ، ويَخشَى اللهَ ويتّقيه ! فلعلّه عليه السلام إلى هذا أشار بقوله : « وحُجوداً لما هو ألزَم لك من لَحمِك ودَمِك ممّا قد وَعاه سَمْعُك ، ومُلِئ به صَدْرُك » .

قولُه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ! ﴾ كلمةٌ من الكلام الإلهىّ[1] المقدّس .

قال : « وبعدَ البَيان إلّا اللّبس » ، يقال : لَبَست عليه الأمرَ لَبْسا ، أى خَلطتُه ، والمضارع يَلبِس بالكسر .

قال : « فاحذَر الشبهة وأشتمالها » على اللُّبْسة بالضمّ ، يقال فى الأمر لُبْسة أى أشتباه ، وليس بواضح ؛ ويجوز أن يكون «أشتمال» مصدراً مُضافا إلى معاوية ، أى أحذَر الشّبهة وأحذر أشتمالَك إيّاها على اللّبسة ، أى ادّراعَك بها ، وتقمُّصَك بها على ما فيها من الإبهام والأشتِباه ؛ ويجوز أن يكون مصدراً مضافا إلى ضمير الشّبهة فقط ، أى أحذر الشّبهة وأحتواءَها على اللّبسة الّتى فيها .

وتقول : أغدَفَت المرأةُ قِناعَها ، أى أرسلتْه على وجهها ، وأغدَف الليلُ أى أرخَى سُدولَه ، وأصلُ الكلمة التّغطِيَة .

والجلابيب : جمع جِلْباب ، وهو الثّوب .

قال : « وأعْشَت الأبصارَ : ظُلْمَتُها » ، أى اكتسبَتْها العَشا ، وهو ظُلْمة العَيْن .
ورُوِى : « وأغْشَت » بالغين المعجمة « ظُلمتَها » بالنّصب ، أى جعلت الفتنة ظُلمتها غِشاء للأبصار .

والأفانِين : الأساليب المختلِفة .

قوله : « ضعفت قُواها عن السِّلْم » ، أى عن الإسلام ، أى لا تَصدُر تلكَ الأفانينُ

---

(١) سورة يونس : ٣٢

المختلِطة عن مُسلِم ، وكان كَتَب إليه يَطلُب منه أن يُفرده بالشام ، وأن يولِّيَه العهدَ من بعدِه ، وألّا يكلِّفه الحضورَ عنده . وقرأ أبو عمرو : ﴿ ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً ﴾ [1] ؛ وقال : ليس المعنىّ بهذا الصّلح ، بل الإسلام والإيمان لا غير ، ومعنى « ضَعُفَتْ قُواها » ، أى ليس لتلك الطّلبات والدّعاوَى والشّبُهات الّتى تَضمّنها كتابُك من القوّة ما يَقتضِى أن يـكون المتمسّك به مُسلِما ، لأنه كلامٌ لا يَقولُه إلّا مَنْ هو ؛ إمّا كافرٌ مُنافق أو فاسق ، والـكافر ليس بمسلِم ، والفاسق أيضا ليس بمُسلِم ـ على قول أصحابِنا ـ ولا كافر .

ثم قال : « وأساطير لم يحـكها منكَ عِلْمٌ ولا حِلْم » ، الأساطير : الأباطيل ، واحدها أُسطورَة بالضم وإسْطارَة بالـكسر والألف .

وحَوْكُ الـكلام : صَنْعتُه ونَظْمُه . والحِلْم : العَقْل ، يقول له : ما صدر هذا الـكلام والهُجر الفاسد عن عالم ولا عاقل .

ومن رَواها « الدِّهاس » بالـكسر فهو جمع دَهْس ، ومَنْ قرأها بالفتح فهو مُفرَد ، يقول : هـذا دَهْس ودَهاس بالفتح مثل لَبْث ولبَاث للمكان السّهل الّذى لا يَبلغ أن يكون رملا ، وليس هو بتراب ولا طِين .

والدِّيماس بالـكَسْر : السَّرَب المُظلِم تحتَ الأرض ، وفى حديث المَسيح « إنّه سَبْط الشَّعر ، كثيرُ خِيلانِ الوَجْه ، كأنه خَرَج من دِيماس » ، يعنى فى نَضْرَته وكثرةِ ماءِ وَجهه كأنّه خرج من كِنّ لأنه قال فى وصفِه : كأنّ رأسَه يَقطرُ ماء ، وكان للحجّاج سِجنٌ اسمه الدِّيماس لظُلْمته ، وأصله من دَمَس الظلام يَدمُس أىّ اشتدّ ، وليل دامِسٌ وداموس ، أى مُظلم ، وجاءنا فلانٌ بأمور دُمْس ، أى مُظلِمة عظيمة ، يقول له : أنت فى كتابِك هذا كالخائض فى تِلكَ الأرض الرِّخْوة ، تقوم وتقع ولا تتخلّص ، وكالخابط فى اللّيل المُظلِم يَعثُر ويَنهَض ولا يَهتدِى الطريقَ .

---

(١) سورة البقرة ٢٠٨ وانظر تفسير القرطبى ٣ : ٢٣

والمَرْقَبَة : الموضعُ العالى . والأعلام : جمع عَلَم ، وهو ما يُهْتَدى به فى الطّرقات من المَنار ، يقول له : سمَتْ همّتك إلى دَعوَى الخلافة ، وهى منك كالمرقَبة الّتى لا تُرام بتعدّ على من يَطلُبها ، وليس فيها أعلامٌ تَهدِى إلى سلوك طريقِها ، أى الطرقُ إليها غامضة ، كالجَبَل الأملسِ الّذى ليس فيه دَرَج ومَراق يُسلَك منها إلى ذِروَته .

والأنُوق على « فَعُول » بالفتح كأَكُول وشَرُوب : طائر ، وهو الرَّخَمَة . وفى المثل «أعزّ من بَيْضِ الأنوق» لأنها تُحرِزه ، ولا يكاد أحدٌ يَظفَر به ، وذلك لأنّ أوكارَها فى رءوس الجبال والأماكن الصّعبة البعيدة .

والعَيّوق : كوكب معروف فوق زُحَل فى العُلوّ ، وهـذه أمثالٌ ضَرَبها فى بُعـدِ معاوية عن الخلافة .

ثم قال : « حاشَ لله أن أولّيك شيئاً من أمور المسلمين بَعدِى » ، أى مَعاذَ الله ، والأصلُ إثبات الألف فى « حاشا » ، وإنّما اتبع فيها المصحف .

والوِرْد والصَّدَر : الدّخول والخروجُ ، وأصلُه فى الإبل والماء . ويَنهَد إليك عباد الله ، أى يَنهَض . وأُرتِجَتْ عليكالأمورُ : أُغلِقت .

وهـذا الـكتابُ هو جواب كتابٍ وَصَل من معاوية إليه عليه السلام بعد قَتْل علىّ عليه السلام الخوارجَ ، وفيـه تلويحٌ بما كان يقوله من قبْل : إنّ رسولَ الله وَعَدنى بقتالِ طائفةٍ أخرى غيرِ أصحابِ الجَمَل وصِفّين ، وإنّه سمّاهم المارقين ، فلمّا واقعَهم عليه السلام بالنَّهرَوان وقَتَلهم كلّهم بيوم واحد وهم عَشَرة آلافِ فارسٍ أحبّ أن يُذكّر معاوية بمـا كان يقول من قبـلُ ، ويَعِدُ به أصحابَه وخواصّه ، فقال له : قد آن لك أن تَنتفِـع بما عايَنت وشاهَدْتَ معاينةً ومُشاهَدةً ، من صدق القول الّذى كنتُ أقولُه للنّاس ويَبلغك فتَستهزِئُ به .

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى عبد الله بن العباس ، وقد تقدم ذكره بخلاف هذه الرواية :

أَمَّا بَعْدُ ، فإنَّ العَبْدَ لَيَفْرَحُ بِالشَّىْءِ الَّذِى لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَحْزَنُ على الشَّىْءِ الَّذِى لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ ، فَلَا يَكُنْ أَفْضَلَ ما نِلْتَ فِى نَفْسِك من دُنْياكَ بُلُوغُ لَذةٍ ، أَوْ شِفاءُ غَيْظٍ ؛ ولَكِنْ إطْفاءُ باطِلٍ ، و إِحْياءُ حَقٍّ .

وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِما قَدَّمْتَ ، وأَسَفُكَ على ما خَلَّفْتَ ، وهَمُّكَ فِيما بَعْدَ المَوْتِ .

***

الشرح :

هذا الفَصْل قد تقدّم شرحُ نظيره ، وليس فى ألفاظه ولا معانيه ما يفتقر إلى تَفسير ، ولكنّا سنَذكُر مِن كلام الُحكماء والصالحين كلماتٍ تُناسبه .

[نبذ من كلام الحكماء]

فمن كلام بعضهم : ماقُدِّر لك أتاك ، وما لم يُقدَّر لك تَعدّاك ، فعَلامَ تَفرح بمالم يكن بدٌّ من وصُوله إليك ، وعلام تحزَن بمالم يكن ليقدم عليك !

ومن كلامهم: الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبِر إدبار الهارب ، وتَصِل وصالَ المتهالك، وتُفارق فراقَ المُبغض الفارك، فخَيرُها يَسير ، وعيشُها قصير ، وإقبالها خدعة ، و إدبارُها

فَجْعة ، ولذّاتُها فانية ، وتَبِعاتُها باقية ، فاْغتَنِمْ غفلة الزّمان ، وانتهزْ فرصَة الإمكان ، وخذْ من نفسِك لنفسِك ، وتزوّد من يوْمِك لغَدِك قبل نَفادِ المُدّة ، وزوال القُدْرَة ، فلكلّ امرئ من دنياه ما ينفعُه على عمارة أُخْراه .

ومن كلامهم : من نَكَد الدّنيا أنّها لا تَبقى على حالة ، ولا تخْلُو من استحالة ، تُصلِح جانبا بإفسادِ جانب ، وتسرّ صاحبا بمساءَةِ صاحب ؛ فالسّكون فيها خَطَر ، والثّقة إليها غَرَر ، والالتجاء إليها مُحال ، والاعتماد عليها ضلال .

ومن كلامهم : لا تَبتهجنّ لنفسك بما أدركتَ من لذّاتها الجُسْمانيّة ، وابتهج لها بما تناله من لذّاتها العقليّة .

ومن القول بالحقّ ، والعمل بالحقّ ، فإنّ اللّذّاتِ الحسّيّة خيالٌ ينفد ، والمعارفَ العقليّة باقيةٌ بقاء الأبد .

الأَصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فأَقِمْ لِلنَّاسِ الحَجَّ، وذَكِّرْهُمْ بأَيَّامِ اللهِ ، واجْلِسْ لَهُمْ الْعَصْرَيْنِ ، فأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ ، وعَلِّمِ الجَاهِلَ، وذَاكِرِ[1] الْعالِمَ ، ولَا يَكُنْ لَكَ إِلَى النَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسانُكَ ، ولَا حاجِبٌ إِلَّا وجْهُكَ .

وَلَا تَحْجُبَنَّ ذَا حاجَةٍ عَنْ لِقائِكَ بِها ، فإِنَّها إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوابِكَ فى أَوَّلِ وِرْدِها، لَمْ تُحْمَدْ فِيما بَعْدُ على قَضائِها .

وانْظُرْ إِلَى ماجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مالِ اللهِ فاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِى الْعِيالِ والمَجاعَةِ ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ المَفاقِرِ والخَلَّاتِ ، وما فَضَلَ عَنْ ذَلِكَ فاحْمِلْهُ إِلَيْنا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنا .

ومُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلّا يأْخُذُوا مِنْ ساكِنٍ أَجْراً ، فإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ يَقُولُ : ﴿ سَواءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾[2] فالْعاكِفُ : الْمُقِيمُ بِهِ ، والْبادِى : الَّذِى يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، وفَّقَنا اللهُ وإِيَّاكُمْ لَمحابِّهِ ؛ والسَّلَامُ .

☆☆☆

---

(١) فى د « وذكر » .

(٢) سورة الحج ٢٥.

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم ذكر قُثَمَ ونسبه . أَمَره أن يقيمَ للنّاس حجّهم ، وأن يذكّرهم بأيّام الله ، وهى أيّام الإنعام ، وأيّام الانتقام ، لتَحْصل الرغبة والرّهبة .

واجلس لهم العَصْرين : الغَداةَ والعَشىّ .

ثم قَسّم له ثمرةَ جلوسِه لهم ثلاثة أقسام : إمّا أن يفتىَ مُسْتفتيا من العامّة فى بعض الأحكام ، وإمّا أن يعلّم متعلّما يطلُب الفِقْـه ، وإمّا أن يُذاكر[1] عالما ويُباحِثه ويُفاوِضه ، ولم يَذكُر السّياسة والأمورَ السّلطانيّة لأنّ غَرضه متعلّق بالحجيج ، وهم أضيافه ، يقيمون ليالى يسيرةً ويقفِلون ؛ وإنّما يذكر السّياسة وما يتعلّق بهـا فيما يَرجع إلى أهل مَـكّة ، ومن يدخل تحت ولايتِه دائما ، ثمّ نهاه عن توسّط السُّفَراء والحُجّاب بينـه وبينهم ، بل ينبغى أن يكون سفيرَه لسانُه ، وحاجبَه وجُهه ، ورُوِى «ولا يكن إلّا لسانُك سفيراً لك إلى الناس» بجَعْل «لسانك» اسم كان مثل قوله : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾[2] ، والرواية الأولى هى المشهورة ، وهو أن يكون « سفيرا » اسم كان ، و « لك » خـبرُها ، ولا يصحّ ما قاله الراوندىّ : إنّ خبرَها «إلى الناس» ، لأنّ « إلى » هاهنا متعلّقة بنَفْس « سَفير » ، فلا يجوز أن تكون الخبر عن «سفير» ، تقول : سفرتُ إلى بنى فلان فى الصّلح ، وإذا تعلّق حرفُ الجرّ بالـكلمة صار كالشىء الواحد .

ثم قال : فإنّها إن ذيدت أى طُردَتْ ودُفعت .

كان أبو عبّاد ثابتُ بن يحيى كاتبُ المأمون إذا سئل الحاجَةَ يشتُمُ السائل ، ويسطُو عليه ويُخجله ، ويبَـكِّتُه ساعةً ثمّ يأمر له بها ؛ فيقوم وقد صارت إليه ، وهو يذمّه ويلعنه قال علىّ بنُ جَبَلة العَـكوّك :

---

(١) فى د « يذكر » .

(٢) سورة النمل .

لعنَ اللهُ أبا عَبّادَ لعناً يتوالَى
يُوسع السائلَ شتماً ثمّ يُعطيه السؤالا

وكان الناسُ يَقِفون لأبى عَبّاد وقتَ رُكوبه ، فيتقدّم الواحدُ منهم إليه بقصّته ليناوله إيّاها ، فيركُله برِجْله بالرّكاب ، ويَضربه بسَوطه ، ويطير غضباً ، ثمّ لا ينزل عن فرسه حتّى يقضيَ حاجَتَه ، ويأمُر له بطَلِبته ، فينصرف الرجلُ بها وهو ذامٌّ له ، ساخطٌ عليه ؛ فقال فيه دِعْبل :

أَوْلَى الأُمور بضَيْعةٍ وفسادِ مُلْكٌ يدبِّرُهُ أبو عَبّادِ [1]
متعمِّــدٌ بدواتِه جُلساءَه [2] فمضرَّجٌ ومخضَّبٌ بمِــدادِ
وكأنّه من دَيْرِ هِزْقلَ مُفلتٌ حرب يَجُرُّ سَلاسِل الأقيادِ [3]
فاُشدُدْ أمــيرَ المؤمنين صِفادَه بأشدّ منــه فى يدِ الحــدّادِ

وقال فيه بعضُ الشّعراء :

قل للخليفة يابنَ عمّ محمّــدٍ قَيِّدْ وزيرَكَ إنّه رَكّالُ
فلسَوطه بين الرءوس مَسالكٌ ولرِجْله بين الصّدور مجـــالُ

والمفاقر : الحاجات ؛ يقال : سدّ الله مَفاقره ، أى أغنَى الله فقْره ، ثمّ أمَرَه أن يأمر أهلَ مكّة ألّا يأخذوا من أَحَد من الحجيجِ أجرة مَسكَن ، واحتجّ على ذلك بالآية ، وأصحاب أبى حَنيفة يتمسّكون بها فى امتناع بيْع دُور مكّة وإجارتها ، وهذا بناءٌ على أنّ

---

(١) ديوانه ٧١ ، وروايته : « أمر يدبره أبو عباد » وبعده هناك :

خِرقٌ عَلَى جُلَسائِهِ فكأَنَّهُمْ حَضَرُوا للملحمةِ ويوم جِـلادِ

(٢) الديوان : « يسطو على كتابه بدواته » .

(٣) الديوان : «حرد» ودير هزقل : مجتمع المجانين كان .

المسجدَ الحرام هو مكّة كلّها ، والشافعيّ يَرَى خلافَ ذلك ، ويقول : إنّه الكعبة ، ولا يمنع من بَيْع دُورِ مَكّة ولا إجارتها ، ويَحتجّ بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِم ﴾ ، وأصحاب أبى حنيفة يقولون : إنّها إضافة اختصاص لا إضافة تمليك ، كما تقول : جلّ الدّابة ، وقرأ «سَواء» بالنصب على أن يكون أحد مفعولى « جعلْنا » أى جعلناه مُستوِياً فيه العاكف والباد ، ومن قرأ بالرّفع جعل الجُمْلة هى[1] المفعول الثانى .

---

(١) فى د « على » .

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى سلمان الفارسى رحمه الله قبل أيام خلافته :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ[1] الحَيَّةِ ، لَيِّنٌ مَسُّهَا ، قَاتِلٌ سَمُّهَا ، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا ، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا ، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا ، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا ، وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا ، أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ ، أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيحَاشٍ ؛ وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرح :

[سلمان الفارسى وخبر إسلامه]

سَلْمان : رجلٌ من فارِسَ من رَامَهُرْمُز ؛ وقيل : بل من أصبهانَ ، من قريةٍ يقال لها جَىّ ، وهو معدودٌ من مَوالِى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ؛ وكُنيتُه أبو عبد الله ، وكان إذا قيل : ابنُ مَن أنتَ ؟ يقول : أنا سَلْمان ، ابنُ الإسلام ، أنا مِن بنى آدم .

وقد رُوِى أنه قد تَداوَله أربابٌ كثيرة ، بضعةَ عشرَ ربًّا ؛ من واحد إلى آخَر حتّى أَفضَى إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله[2] .

وَروَى أبو عمَر بنُ عبد البرّ فى كتاب " الأستيعاب " أنّ سَلْمان أَتَى رسولَ الله

(١) فى د « كمثل » .

(٢) الاستيعاب ٦٣٤ ومابعدها (طبعة نهضة مصر) ،وبعدها هناك : « ومن الله عليه بالإسلام » .

صلّى الله عليه وآله بصَدَقة ، فقال : هذه صدقةٌ عليك وعلى أصحابك ، فلم يَقْبَلْها ، وقال : إنّه لا تَحِلّ لنا الصدقة ، فرفَعها ، ثمّ جاء من الغَدِ بمِثلِها وقال : هَدِيّة هذه ، فقال لأصحابه : كلوا ـ واشتراه من أربابِه ، وهم قومٌ يَهود بدَراهِمَ ، وعلى أن يَغرِس لهم من النّخيل كذا وكذا ، ويَعمَل فيها حتّى تُدرِك ، فغَرَس رسولُ الله صلى الله عليه وآله ذلك النخلَ كلّه بيَدِه إلّا نخلةً واحدةً غَرَسَها عمرُ بنُ الخطّاب ، فأطعَم النّخل كلُّه إلّا تلك النخلة ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « مَن غَرَسها » ؟ قيل : عمر ؛ فقَلَعها وغرَسَها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بيَدِه ، فأطعَمَت [١] .

قال أبو عمر : وكان سَلمانُ يَسِفُ [٢] الخُوص وهو أميرٌ على المدائن ويَبيعه ويأكُل منه ، ويقول : لا أُحِبّ أن آكُلَ إلّا من عَمَل يدى ، وكانَ قد تعلّم سَفّ الخُوصِ من المَدِينة .

وأوّل مَشاهِده الخندَق ، وهو الّذِى أشار بحَفره ، فقال أبو سُفيان وأصحابُه لمّا رأَوْه : هذه مَكيدَة ما كانت العرب تَكِيدها .

قال أبو عمر : وقد رُوِى أنّ سَلْمان شَهِد بَدْرا وأُحُدا ، وهو عبدٌ يومئذ ؛ والأكثر أنّ أوّل مَشاهِدِه الخَنْدق ، ولم يَفُتْه بعد ذلك مَشهَد .

قال : وكان سَلْمان خَيّرا ، فاضِلا ، حَبْرا ، عالما ، زاهدا ، متقشّفا .

قال : وذَكَر هشامُ بنُ حَسّان عن الحَسَن البَصْرىّ ، قال : كان عَطاء سَلمانَ خمسةَ آلاف ، وكان إذا خرج عطاؤه تَصدّق به ، ويأكُلُ من عَمَل يده ، وكانت له عَباءةٌ يَفرِش بعضَها ويَلبَس بعضها .

---

(١) بعدها فى الاستيعاب : « من عامها » .

(٢) يسف الخوص ، أى ينسجه ، وفى اللسان : « وفى حديث أبى ذر ، قالت له امرأة : ما فى بيتك سفة ولا هفة ؛ السفة : ما يسف من الخوص كالزبيل ونحوه » .

قال : وقد ذكر ابن وَهْب وابنُ نافع أنّ سلمان لم يكن له بيت ، إنّما كان يستظلّ بالجُدُر والشَّجَر ، وأنّ رجلا قال له : ألا أبنِي لك بيتا تسكُن فيه ؟ قال : لا حاجة لى فى ذلك ؛ فما زال به الرجلُ حتّى قال له : أنا أعرفُ البَيْت الّذى يوافقُك ؛ قال : فصِفْه لى ، قال : أبنِي لك بَيْتا إذا أنتَ قمتَ فيه أصابَ رأسَك سَقْفُه ، وإن أنتَ مَددتَ فيه رِجْلَيْك أصابَهما [الجِدار[1]] ؟ قال نعمْ : فَبنَى له .

قال أبو عمر : وقد رُوِى عن رَسولِ الله صلّى الله عليه وآله من وجوه أنّه قال : « لو كان الدّين فى الثّريّا لَناله سَلْمان » ، وفى روايةٍ أخرى « لَناله رجل من فارِس » .

قال : وقد رَوَيْنا عن عائشةَ قالت : كان لسَلْمان مَجلسٌ مِنْ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ينفرد به باللّيل حتّى كاد يَغلِبنا على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

قال : وقد رُوِى من حديثِ ابن بُرَيْدة ، عن أبيه أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال : « أمَرَنى ربى بحُبّ أربعة ، وأخبَرَنى أنّه يحبّهم : علىّ ، وأبو ذَرّ ، والمِقْداد ، وسَلْمان » .

قال : ورَوَى قَتادة عن أبى هُرَيرة ، قال : « سَلْمان صاحبُ الكِتابَيْن » يَعنى الإنجيلَ والقرآن .

وقد رَوَى الأعمش ، عن عَمْرو بن مرّة ، عن أبى البَخْتَرِى ، عن علىّ عليه السلام أنه سُئِل عن سَلْمان فقال : عَلِم العِلْمَ الأوّل ، والعِلْمَ الآخِر ، ذاكَ بحرٌ لا يُنزَف ، وهو منّا أهلَ البَيْت .

قال : وفى روايةِ زاذانَ ، عن علىٍّ عليه السلام : سَلْمانُ الفارسىّ كلُقمانَ الحكيم .

قال : وقال فيه كَعْب الأحبار : سَلْمانُ حُشِىَ عِلْما وحِكْمة .

---

(١) من « د »

قال: وفى الحديث المَرْوِىّ أنّ أبا سُفْيان مرّ على سَلْمان وصُهَيب و بلال فى نفرٍ من المسلمين فقالوا : ما أَخذتِ السيوفُ من عُنُق عدوّ الله مأخَذَها ـ وأبو سُفْيان يَسمَع قولَهم ـ فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لِشَيْخِ قريشٍ وسيّدِها ! وأتى النبىَّ صلّى الله عليه وآله وأخبَره فقال : ياأبا بكر ، لعلّك أغضبتَهم، لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ الله ، فأتاهم أبو بكر، فقال أبو بكر : ياإخوتاه ، لعلّى أغضبتُكم ؟ قالوا : لا ياأبا بكر ، يَغفِر الله لك .

قال : وآخَى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بينَه و بين أبى الدّرداء لمّا آخَى بين المسلمين .

قال : ولِسلمانَ فضائلُ جَمّة ، وأخبارٌ حِسان ؛ وتوفّى فى آخِرِ خلافةِ عُثمانَ سنة خمسٍ وثلاثين ؛ وقيل : توفّى فى أوّل سنة سِتّ وثلاثين . وقال قوم : توفّى فى خلافة عمرَ ، والأوّل أكثَر .

* * *

وأمّا حديثُ إسلام سَلمانَ فقد ذَكره كثيرٌ من المحدّثين[1] ورَووه عنه ، قال : كنتُ ابن دِهْقانِ[2] قَرْية جَىّ من أصبهان ، و بلغ من حُبّ أبى لى أنْ حبَسَنى فى البيت كما تُحبَس الجارية ، فاجتهدتُ فى المجوسيّة حتّى صرتُ قَطَنَ[3] بيت النار ، فأرسَلَنى أبى يوماً إلى ضَيْعة له، فمررتُ بكَنيسةِ النصارى ، فدخلتُ عليهم ، فأعجبَتْنى صَلاتُهم ، فقلت : دين هؤلاء خير من دِينى ؛ فسألتُهم : أين أصلُ هذا الدّين ؟ قالوا : بالشام ، فهرَبْتُ مِن والدى حتّى قدِمتُ الشام ، فدخلتُ على الأُسْقُفّ[4] فجعلتُ أخدُمه وأتعلّم منه ، حتّى حضرَتْه الوَفاة ، فقلتُ : إلى مَنْ تُوصِى بى ؟ فقال : قد هَلَك الناس وترَكوا دينَهم إلّا رجلا بالمَوْصل فالحَقْ به ، فلمَّا قَضَى نحْبَه لحقتُ بذلك الرّجل

---

(١) وقد ذكر خبر إسلامه أيضا ابن هشام ؛ أورده فى السيرة ١ : ٢٣٣ ـ ٢٤٢

(٢) الدهقان : شيخ القرية فى بلاد فارس .

(٣) قطن النار : خادمها .

(٤) الأسقف : من وظائف النصرانية ، وهو فوق القسيس ودون المطران .

فلم يَلبَث إلّا قليلا حتّى حضرتْه الوَفاة ، فقلتُ : إلى مَنْ تُوصِي بى ؟ فقال : ما أعلم رجلا بقِى على الطّريقة المستقيمة إلّا رجلا بنَصيبين ، فلحقتُ بصاحب نَصيبينَ ، قالوا : وتلك الصَّوْمَعة اليومَ باقية ، وهى التى تعبّد فيها سَلْمان قبلَ الإسلام ؛ قال : ثمّ احتُضِر صاحبُ نَصيبين ، فبعَثنى إلى رجل بعَمّوريّةَ من أرض الروم ، فأتيتُه وأقمتُ عنده ، واُكتسبتُ بُقَيْراتٍ وغُنَيْمات ، فلمّا نزَل به الموت قلتُ له : بمَن تُوصِي بى ؟ فقال : قد تركَ الناسُ دينَهم ، وما بقِىَ أحدٌ منهم على الحقّ ؛ وقد أظلّ زمانُ نبىّ مبعوث بدِينِ إبراهيمَ ، يَخرُج بأرض العرب مُهاجرا إلى أرض بين حَرّتين ، لها نخل ، قلت : فما علامَتُه ؟ قال : يأكل الهديّة ، ولا يَأكل الصّدقة ، بين كتِفَيه خاتَمُ النبوّة .

قال : ومرّ بى رَكب من كلْب ، فخرجتُ معهم ، فلمّا بلغوا بى وادى القُرَى ظَلَمونى وباعونى مِن يهودِىّ ، فكنتُ أعمل له فى زَرْعه ونخله ، فبيْنا أنا عنده إذ قدِم ابن عمٍّ له ، فابتاعنى منه ، وحملنى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُها ، وبعث اللهُ محمدا بمكة ، ولا أعلم بشىء من أمره ، فبينا أنا فى رأس نخلة إذ أقبلَ ابنُ عمٍّ لسيّدى ، فقال : قاتل الله بنى قَيْلة ، قد اجتمعوا على رَجُل بقُباءَ قدم عليهمْ من مَكة ، يزعمون أنه نبىّ ؛ قال : فأخذَنى القُرّ والانتفاض ، ونزلتُ عن[1] النّخلة ، وجعلتُ أستقصى فى السّؤال ، فما كلّمنى سيدى بكلمة ، بل قال : أَقْبِلْ على شأنك ، ودَعْ ما لا يَعْنيك . فلمّا أمسَيْت أخذتُ شيئاً كان عندى من التمر ، وأتيتُ به النبىّ صلّى الله عليه وآله ، فقلت له : بلغنى أنك رجلٌ صالح ، وأن لك أصحاباً غُرَباء ذَوى حاجة ، وهذا شىء عندى للصدقة ، فرأيتكم أحقّ به مِن غيركم ، فقال عليه السلام لأصحابه : كلوا ، وأمسك فلم يأكل ؛ فقلت فى نفسى : هذه واحدة ، وانصرفتُ ، فلما كان من الغد أخذتُ ما كان بقِىَ عندى وأتيته به ، فقلت له : إنى رأيتُك لا تأكل الصدقة ، وهذه هديّة ،

(١) ب « من »

فقال : كلوا وأ كل معهم ، فقلتُ إنه لهوَ ، فأ كببت عليه أقبِّله وأبكى ؛ فقال : مالك؟ فقَصَصْت عليه القصّة ؛ فأعجبه ، ثم قال : يا سَلْمان ، كاتِبْ صاحِبك ، فكاتبته على ثلثمائة نخلة وأربعين أوقية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصار : « أعينوا أخاكم » ، فأعانونى بالنخل حتى جمعت ثلثمائة ودِيَة ، فوضعها رسول الله صلى الله عليه وآله بيده ، فصحّت كلّها ، وأتاه مالٌ من بعض المَغازى ، فأعطانى منه ، وقال : أَدِّ كتابتَك ، فأَدَّيت وعَتَقت .

وكان سَلْمان مِن شيعة علىّ عليه السلام وخاصّته ، وتَزْعُم الإماميّة أنه أحدُ الأربعة الذّين حَلَقوا رءوسهم وأتوه متقلّدى سيوفِهم فى خبر يَطُول ؛ وليس هذا موضع ذكره ، وأصحابنا لا يخالفونهم فى أن سلمان كان من الشّيعة ، وإنما يخالفونهم فى أمرٍ أزيد من ذلك ؛ وما يذكره المحدثون من قوله للمسلمين يوم السقيفة : كرديد ونكرديد محمولٌ عند أصحابنا على أن المراد صنعتمْ شيئاً وما صنعتم ، أى استخلفتم خليفةً ونعم ما فعلتم ، إلا إنّكم عدَلْتم عن أهل البيت ، فلو كان الخليفة منهم كان أولى ؛ والإمامية تقول : معناه : «أسلمتم وما أسلمتم» ، واللفظة المذكورة فى الفارسية لا تُعطى هذا المعنى ، وإنما تدلّ على الفعل والعمل لا غير ، ويدل على صحّة قول أصحابنا أن سلمان عمِل لعمر على المدائن، فلو كان ما تنسبه الإماميَّة إليه حقّا لم يعمل له .

***

فأما ألفاظ الفَصْل ومعانِيه فظاهرة ، وممّا يُناسِب مضمونه قول بعض الحكماء : تَعزَّ عن الشىء إذا مُنِعْتَه ، بقلّة صحبته لك إذا أُعْطِيتَه .

وكان يقال : الهالِك على الدنيا رجلان : رجلٌ نافس فى عِزِّها ، ورجلٌ أَنِفَ مِن ذُلها .

ومرّ بعض الزهّاد بباب دارٍ وأهلُها يبكون مَيْتا لهم ؛ فقال : واعجبا لقومٍ مسافرين ! يبكون مسافرا قد بلغ مَنزله . وكان يقال : يابن آدم ، لاتأسف على مَفْقود لا يردُّه عليك الفَوْت ، ولا تَفْرح بمَوْجود لا يتركُه عليك الموت .

لقى عالمٌ من العُلَماء راهبا فقال : أيُّها الراهب ، كيف ترى الدنيا ؟ قال : تُخلِق الأبدان ، وتجدّد الآمال ، وتُباعِد الأمنيّة ، وتقرّب المنيّة ؛ قال : فما حالُ أهلها ؟ قال : مَن ظفر بها نَصَب ، ومن فاتَتْه أَسف ؛ قال : فكيف الغِنَى عنها ؟ قال : بقطع الرّجاء منها ؛ قال : فأىّ الأصحاب أبَرّ وأوفى ؟ قال : العمل الصالح ؛ قال : فأيّهم أضرّ وأنكى ؟ قال : النفسُ والهوى ؛ قال : فكيف المخرج ؟ قال : فى سلوك المنهج ، قال : و بماذا أسلكه ؟ قال : بأن تخلع لِباس الشَّهوات الفانية ، وتعمل للدّار الباقية .

(٦٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهمداني :

وتَمَسَّك بِحَبْلِ الْقُرْآنِ واسْتَنْصِحْهُ ، وأَحِلَّ حَلاَلَهُ ، وحَرِّمْ حَرَامَهُ ، وصَدِّقْ بِما سَلَفَ مِنَ الحَقِّ ، واعْتَبِرْ بِما مَضَى مِنَ الدُّنْيا لِما بَقِيَ مِنْها ، فإِنَّ بَعْضَها يُشْبِهُ بَعْضاً ، وآخِرَها لاحِقٌ بأَوَّلِها ، وكُلُّها حائِلٌ مُفارِقٌ .

وعَظِّمِ اسْمَ اللهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلاَّ عَلَى حَقٍّ ، وأَكْثِرْ ذِكْرَ المَوْتِ وما بَعْدَ المَوْتِ ، ولاَ تَتَمَنَّ المَوْتَ إِلاَّ بِشَرْطٍ وثِيقٍ .

واحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضاهُ صاحِبُهُ لِنَفْسِهِ ، ويَكْرَهُه لعامَّةِ المُسْلِمِينَ ، واحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بهِ فى السِّرِّ ، ويُسْتَحَى مِنْهُ فى العَلاَنِيَةِ ، واحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صاحِبُهُ أَنْكَرَهُ واعْتَذَرَ مِنْهُ . ولاَ تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبالِ القَوْمِ ، ولا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ ما سمِعْتَ به ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِباً ، ولا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ ما حَدَّثُوك به ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلاً .

واكْظِمِ الغَيْظَ ، واحْلُمْ عِنْدَ الغَضَبِ ، وَتَجاوَزْ عِنْدَ المَقْدِرَةِ ، واصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ العاقِبَةُ ، وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَها اللهُ عَلَيْكَ ، ولا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللهِ عِنْدَكَ ، ولْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ ما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْك .

واعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ المُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وأَهْلِهِ ومالِهِ ، وإِنَّكَ ما تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ ، وما تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ .

واحْـذَرْ صَحابَةَ مَنْ يفِيـلُ رَأْيُهُ ، ويُنْـكَرُ عَمـلُهُ ، فإنَّ الصَّاحِبَ مُعْتبَرٌ بِصاحِبِهِ .

واسْـكُنِ الأمْصارَ الْعِظامَ فإنَّها جِماعُ المُسْلِمِينَ ، واحْذَرْ مَنازِلَ الْغفْلَةِ والجَفاءِ، وقِلة الأعْوَانِ على طاعَةِ اللهِ ، واقْصِرْ رَأْيَكَ على مايَعْنِيكَ .

وإيَّاكَ ومَقاعِدَ الأسْوَاقِ فإنها مَحاضِرُ الشَّيْطانِ ، ومَعارِيضُ الْفِتَنِ . وأكْثِرْ أنْ تَنْظُرَ إلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ ، فإنَّ ذَلِكَ مِنْ أبْوَابِ الشُّكْرِ .

ولا تُسافِرْ فى يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إلَّا فاصِلًا فى سَبِيلِ اللهِ ، أوْ فِى أمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ . وأطِعِ اللهَ فى جُمَلِ أُمُورِكَ ، فإنَّ طاعَةَ اللهِ فاضِلَةٌ على ما سِوَاها . وخادِعْ نَفْسَكَ فى الْعِبادَةِ وارْفُقْ بِها ولا تَقْهَرْها ، وخُذْ عَفْوَها ونَشاطَها ، إلَّا ما كانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ، فإنَّهُ لا بُدَّ مِنْ قَضائِها ، وتَعاهُدِها عِنْدَ مَحَلِّها .

وإيَّاكَ أنْ يَنْزِلَ بِكَ المَوْتُ وأنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فى طَلَبِ الدُّنْيَا . وإيَّاكَ ومُصاحَبَةَ الْفُسَّاقِ ، فإنَّ الشَّرَّ بالشَّرِّ مُلْحَقٌ .

وَوَقِّرِ اللهَ ، وأحْبِبْ أحِبَّاءَهُ ، واحْذَرِ الْغَضَبَ ، فإنَّهُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ إبْلِيسَ ؛ والسلامُ .

***

الشرح :

[الحارث الأعور ونسبه]

هو الحارث الأعور صاحبُ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهو الحارث بنُ عبد الله بن كعب بن أسد بن نَخَـلة بن حرث بن سَبُع بن صَعْب بن معاوية الهمْدانىّ ، كان أحـد

الفُقهاء ، له قولٌ فى الفُتْيا ، وكان صاحب علىّ عليه السلام ، وإليه تنسب الشِّيعة الخطاب الذى خاطبه به فى قوله عليه السلام :

يا حارِ هَمْدان من يمتْ يرَنى   مِنْ مؤمنٍ أو منافقٍ قِبَــلَا

وهى أبياتٌ مشهورة قد ذكرْناها فيما تقدّم .

***

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

وقد اشتمل هذا الفصل على وصايا جليلة الموقع :

منها قوله : « وتمسكْ بِحَبْل القرآن » ، جاء فى الخبر المرفوع لما ذكر الثَّقَلَيْن فقال : أحدهما كتابُ الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض طرَف بيد الله وطرف بأيديكم » ؛

ومنها قوله : انتصحْه ، أى عُدَّه ناصحاً لك فيما أمرك به ونهاك عنه .

ومنها قوله : «وأَحِلَّ حلاله وحَرِّم حرامه» ، أى احكم بين الناس فى الحلال والحرام بما نص عليه القرآن .

ومنها قوله : « وصدِّق بما سلف من الحقّ » أى صدِّق بما تضمَّنه القرآنُ من أيام الله وَمَثُلاته فى الأمم السالفة لمـا عصوْا وكذّبوا .

ومنها قوله : «واعتبر بما مضى من الدّنيا لما بقى منها » ، وفى المثل : إذا شئت أن تنظر الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك ، وقال الشاعر :

وما نحنُ إلاّ مثلهم غير أننا   أقمنا قليلاً بعدهمْ ثمّ نرحَلُ[1]

ويناسب قوله : « وآخرُها لاحقٌ بأولها ، وكلها حائل مُفارق » .قوله أيضاعليه السلام

(١) فى د « وترحلوا » والمعنى عليه يستقيم أيضا .

فى غير هـذا الفصل الماضى : « للمقيم عِبرة ، والميتّ للحىّ عِظة ، وليس لأمس عودة ، ولا المرء من غدٍ على ثقة ، الأول للأوسط رائد ، والأوسط للأخيرقائد ؛ وكلٌّ بكلّ لاحق ، والـكلُّ للـكلِّ مُفارق » .

ومنها قوله : « وعَظِّم اسم الله أن تذكره إلاّ على حَقّ » ، قال الله سبحانه ﴿ ولا تجعلوا اللهَ عُرضةً لأيمانـكُمْ (١) ﴾، وقد نهى عن الحلف بالله فى الـكذب والصدق ، أمّا فى أحدهما فمحرّم وأما فى الآخر فمـكروه ، ولذلك لا يجوز ذكر اسمه تعالى فى لغْوِ القول والهزء والعبث .

ومنها قوله : « وأكثرْ ذكر الموت وما بعد الموت » ، جاء فى الخبر المرفوع : « أكثرُوا ذكر هاذم (٢) اللذَّات » ، وما بعد الموت : العقابُ والثوابُ فى القبر وفى الآخرة .

ومنها قوله : « ولا تتمنّ الموت إلا بشرط وثيق » ، هذه كلمةٌ شريفة عظيمة القدْر ، أى لا تتمنّ الموتَ إلا وأنت واثق من أعمالك الصالحة أنها تؤدّيك إلى الجنة ، وتُنقِذك من النار ؛ وهذا هو معنى قوله تعالى لليهود: ﴿ إنْ زعمتمْ أنـكم أَوْلياءُ للهِ مِنْ دُونِ الناسِ فتمنَّوُا الموتَ إنْ كُنتُمْ صادِقينَ ، ولاَ يَتمنَّوْنه أبداً بِما قدَّمتْ أيديهمْ واللهُ عليمٌ بالظَّـالمين (٣) ﴾ .

ومنها قوله : « واحذر كلّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه ، ويكرهه لعامة المسلمين ، واحذر كل عمل يُعمل فى الستر ، ويُستحيا منه فى العلانية ، واحذر كل عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه » ، وهذه الوصايا الثلاث متقاربةٌ فى المعنى ، ويشملها معنى قول الشاعر :

لا تنهَ عن خُلق وتأتىَ مثـــلهُ   عار عليك إذا فعلتَ عظيمُ (٤)

---

(١) سورة البقرة
(٢) هاذم اللذات ، من الهدم وهو القطع
(٣) سورة الجمعة ٦ ، ٧
(٤) لأبى الأسود الدؤلى ، ديوانه .

وقال الله تعالى حاكياً عن نبيٍّ من أنبيائه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ .

ومن كلام الجُنيد الصّوفى : لِيَكُن عَمَلُك من وراء سترك كعَمَلك من وراء الزّجاج الصافى . وفى المثل وهو منسوبٌ إلى علىّ عليه السلام : إيّاك وما يُعتذرُ منه .

ومنها قوله : « ولا تجعَل عِرْضك غَرَضا لنبال القوم » ، قال الشاعر :

لا تستترْ أبداً مالا تَقومُ له ... ولا تَهيجنّ من عِرِّيسهِ الأَسَدَا[1]

إنّ الزنّابيرَ إنْ حرّكتها سَفَهاً ... مِن كورها أوجعتْ مِن لَسْعِها الجَسَدا

وقال :

مَقالةُ السّوءِ إلى أهلها ... أسرَعُ من مُنحَدرٍ سائلِ

ومَنْ دَعَا الناسَ إلى ذَمّه ... ذَمُّوه بالحقّ وبالباطلِ

ومنها قوله : « ولا تُحَدِّث الناسَ بكلّ ما سمعتَ ، فكفى بذلك كَذِبا »، قد نهى أن يحدّث الإنسان بكلّ ما رأى من العَجائب فَضْلا عمّا سَمِع ، لأنّ الحديثَ الغريبَ المعجبَ تُسارِع النفسُ إلى تكذيبه ، وإلى أن تقوم الدّلالة على صِدْقه قد فرَط من سوء الظنّ فيه ما فرط .

ويقال : إنّ بعض العَلويّة قال فى حَضْرة عَضُد الدولة ببغداد: عندنا فى الكوفة نَبِقٌ وَزْنُ كلّ نَبِقةٍ مثقالان . فاستطرَف الملِك ذلك ، وكاد يكذّبه الحاضرون ، فلمّا قام ذكر ذلك لأبيه ، فأرسَل حَماماً كان عندَه فى الحال إلى الكوفة يأمر وكلاءه بإرسالِ مائةِ حمامةٍ ، فى رجلى كلّ واحدة نبقتان من ذلك النّبق ، فجاء النّبق فى بُكْرة الغَدِ وحُمل إلى عَضُد الدّولة ، فاستحسَنه وصدّقه حينئذ ، ثمّ قال له : لَعمرى لقد صدَقت ،

---

(١) العريسة : مأوى الأسد

ولكن لا تحدّث فيما بعدُ بكلّ ما رأيتَ من الغرائب ، فليس كلّ وقت يتهيّأ لك إرسال الحمام .

وكان يقال : الناس يَكتُبون أحسنَ ما يَسمعون ، ويحفَظون أحسنَ ما يَكتبون ، ويتحدّثون بأحسن ما يحفَظون ؛ والأصدق نوع تحت جنْس الأحْسن .

ومنها قوله : « ولا تردّ على الناس كلّ ما حدّثوك ، فكفى بذلك جَهْلا » ، من الجَهْل المبادرة بإنكار ما يَسمَعه ، وقال ابنُ سينا فى آخر ''الإشارات'' : إيّاك أن يكون تكيّسك وتبرّؤك من العامّة ، هو أن تنبرى منكِراً لكلّ شىء ، فذلك عَجْز وطَيْش ، وليس الخُرْق فى تكذيبك مالم يَستبْن لك بعد جليّته دون الخُرْق فى تصديقك بمالم تقُم بين يدَيْك بيّنةٌ ، بل عليك الاعتصام بحَبْل التوقّف وإن أزْعجك استنكار ما يُوعيه سَمْعك ممّا لم يبرهن على استحالته لك،فالصواب أن تسرّح أمثالَ ذلك إلى بُقْعة الإمكان ، مالم يَذُدك عنها قائمُ البُرْهان .

ومنها قوله : « واكظم الغَيْظ » قد مَدَح اللهُ تعالى ذلك فقال : ﴿ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾[1] ، ورُوِى أن عبداً لموسى بن جعفر عليه السلام قدم إليه صَحْفة فيها طعام حارّ ، فعجل فصبّها على رأسه ووجهه ، فغَضِب، فقال له : ﴿والكاظمين الغيظ﴾ ؛ قال:قد كظَمْت، قال : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : قد عفوتُ ، قال ﴿ وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال : أنت حرّ لوجه الله ، وقد نحلتُك ضَيْعتى الفلانيّة .

ومنها قوله : « وأحلم عند الغضَب » ، هذه مُناسَبة الأولى ، وقد تقدَّم منّا قولٌ كثيرٌ فى الحِلْم وفضله ؛ وكذلك القول فى قوله عليه السلام : « وتجاوَزْ عند القدرة » ، وكان يقال : القُدْرة تذهب الحَفِيظة .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٤

ومنها قوله : « وأصفحْ مع الدّولة تسكنْ لكَ العاقبة » ؛ هذه كانت شيمةُ رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وشيمة علىّ عليه السلام ؛ أمَّا شيمةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فظفِرَ بمشركى مَكّة وعفا عنهم ، كما سبق القولُ فيه فى عام الفَتْح ؛ وأمَّا علىّ عليه السلام فَظفِر بأصحاب الجمل وقد شَقّوا عصا الإسلام عليه ، وطَعَنوا فيه وفى خلافتِه ، فعفا عنهم ، مع علمِه بأنّهم يُفسدون عليه أمره فيما بعد ، ويَصِيرون إلى معاوية إمَّا بأنفسهم أو بآرائهم ومكتوباتهم ، وهذا أعظمُ من الصّفح عن أهل مكّة ، لأنّ أهل مكّة لم يَبقَ لهم لمّا فُتِحت فئةٌ يتحيّزون إليها ، ويُفسِدون الدّين عندها .

ومنها قوله : « وأستَصلح كلّ نعمةٍ أنعمها الله عليك » ، معنى أستَصلِحْها أستَدِمْها ، لأنَّه إذا أستدامها فقد أصلَحها ، فإنَّ بقاءها صلاحٌ لها ، واستدامتها بالشكر .

ومنها قوله : « ولا تضيّعنّ نعمة من نعم الله عندَك » ، أى واس النّاسَ منها ، وأَحسِن إليهم ، وأجعلْ بعضها لنَفْسك وبعضها للصّدقة والإيثار ، فإنَّك إن لم تفعلْ ذلك تكنْ قد أضَعْتَها .

ومنها قوله : « وليُرَ عليك أثرُ النّعمة » قد أَمَر بأنْ يُظهِر الإنسانُ على نفسه آثارَ نعمةِ الله عليه ، وقال سبحانه : ﴿ وأمَّا بنعمةِ رَبكَ فحدثْ ﴾ وقال الرشيد لجعفر : قمْ بنا لنمضى إلى منزل الأصمعىّ ، فمضيا إليه خِفْية ومعهما خادمٌ معه ألفُ دينار ليَدْفَع ذلك إليه ، فدَخَلا دارَه فوجدا كساء جَرْداء ، وبارية[1] سَمْلاء ، وحصيرا مقطوعا ، وخباء قديمة ، وأباريق من خزف ، ودَواةً من زُجاج ، ودَفاتِرَ عليها التراب ، وحيطانا مملوءةً من نَسْج العناكِب ، فوَجَم الرشيدُ ، وسأله مسائلَ غَثّةً لم تكن من غرَضه ، وإنّما قطع بها خجَله ؛ وقال الرشيد لجعفر : ألا ترى إلى نفْس هذا المهين ، قد بَرَرْناه بأكثر

(١) البارية : الحصيرة

من خمسين ألفَ دينار وهذه حالُه ، لم تَظهر عليه آثارُ نعمتنا ! واللهِ لا دفعتُ إليه شيئاً، وخرج ولم يُعطِه .

ومنها قوله : « واُعلم أنّ أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسِه وأهله وماله » ، أى أفضلهم إنفاقا فى البرّ والخير من مالِه ، وهى التّقدمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ (١) ﴾ ، فأمّا النفس والأهل ، فإنّ تقدِمتهما فى الجهاد ، وقد تكون التّقدمة فى النّفس بأن يَشفع شفاعةً حسنةً أو يحضر عند السّلطان بكلام طيّب ، وثناء حَسَن ، وأن يُصلِح بين المُتخاصِمين ، ونحو ذلك ، والتّقدِمة فى الأهل أن يحجّ بوَلَده وزَوْجته ويكلّفهما المشاقّ فى طاعة الله ، وأن يؤدِّب ولده إن أذنَب ، وأن يقيمَ عليه الحدّ ، ونحو ذلك .

ومنها قوله : « وما تقدّم من خير يَبق لك ذُخُره وما تؤخره يكنْ لغيرك خيرُه » ، قد سبق مثلُ هذا ، وأنّ ما يتركه الإنسانُ بعده فقد حُرِم نفعه ، وكأنّما كان يكدَح لغيره ، وذلك من الشّقاوة وقلّة التوفيق .

ومنها قولُه : « واُحذر صَحابَة مَن يَفِيلُ رأيه » ، الصَّحابة بفتح الصاد ، مَصدَر صحبت والصَّحابة بالفتح أيضا جَمعُ صاحب ، والمرادُ هاهنا الأوّل ، وفالَ رأيُه : فَسَد ؛ وهذا المعنى قد تَكرّر ، وقال طَرَفة :

عن المرءِ لَا تسأَلْ وسَلْ عن قَرِينِهِ فإنّ القَرِينَ بالمُقارن يَقتـــدِى

ومنها قوله : « واسكُن الأمْصار العظام » ، قد قيـل : لا تسكن إلّا فى مصرٍ فيه سوقٌ قائمة ، ونهرٌ جارٍ ، وطبيبٌ حاذق ، وسلطانٌ عادل ، فأما مَنازل الغَفْلة والجفاء ، فمِثلُ قُرَى السّواد الصغار ، فإنّ أهلها لا نورَ فيهم ، ولا ضوءَ عليهم ، وإنّما هم كالدّوابّ

---

(١) سورة البقرة ١١٠

والأنعام ، هَمُّهم الحَرْث والفِلاحة ، ولا يفقهون شيئاً أصْلاً ، فمجاوَرَتهم تُعمِى القلب ، وتُظلِم الحِسّ ، وإذا لم يَجِدِ الإنسانُ مَن يُعينه على طاعةِ الله وعلى تعلُّم العِلم قصَّر فيهما .

ومنها قوله : « واُقصر رأيَك على ما يَعْنيك » ؛ كان يقال : من دَخَل فيما لا يَعْنيه فاتَه مايَعْنيه .

ومنها نَهيُه إيّاه عن القُعود فى الأسْواق . قد جاء فى المَثَل ؛ السُّوق محلّ الفُسوق . وجاء فى الخبر المرفوع : « الأسواقُ مَواطنُ إبليس وجنده » ، وذلك لأنّها قلّما تخلو عن الأيْمان الكاذبة ، والبُيوع الفاسدة ، وهى أيضا مَجمَع النّساء المُومِسات ، وفجّار الرجال ، وفيها اُجتماعُ أرباب الأهواء والبِدَع ، فلا يخلُو أن يتجادَل اُثنان منهم فى المذاهب والنِّحَل فيُفضِى إلى الفِتَن .

ومنها قوله : «واُنظر إلى من فُضِّلْتَ عليه» ، كان يقال : اُنظُر إلى مَن دُونَك ، ولا تنظُر إلى مَنْ فَوْقَك . وقد بيّن عليه السلام السرّ فيه فقال : إنّ ذلك من أبواب الشكر ، وصَدَق عليه السلام ، لأنّك إذا رأيتَ جاهلا وأنتَ عالم ، أو عالماً وأنت أعلمُ منه ، أو فقيراً وأنتَ أغْنَى [منه] [1] ؛ أو مُبتلًى بسَقَم وأنتَ مُعافًى عنه ، كان ذلك باعثا وداعِياً لك إلى الشكر .

ومنها نهيُه عن السّفر يومَ الجمعة ، ينبغى أن يكون هذا النهىُ عن السَّفَر يومَ الجمعة قبلَ الصلاة ، وأمّا بعدَ الصلاة ، فلا بأس به ، واستَثْنَى فقال : إلّا فاصلا فى سبيل الله ، أى شاخِصاً إلى الجهاد .

قال : « أو فى أمرٍ تُعذَر به » ، أى لضرورة دَعَتْك إلى ذلك .

---

(١) تكملة من ا .

وقد وَرَد نهىٌ كثيرٌ عن السّفر يومَ الجمعة قبل أداء الفرض ، على أنّ من الناس من كَرِه ذلك بعد الصّلاة أيضا ، وهو قولٌ شاذّ .

ومنها قولُه : «وأطعِ اللهَ فى جُمَل أمورك» ، أى فى جُمْلَتها ، وفيها كلّها ، وليس يَعنِى فى جُمَلها دونَ تفاصيلها ، قال : فإنّ طاعةَ الله فاضلةٌ على غيرها ، وصدَق عليه السلام ، لأنّها توجب السعادةَ الدائمة ، والخلاصَ من الشّقاء الدائم ، ولا أفضلَ ممّا يؤدِّى إلى ذلك .

ومنها قوله : « وخادِعْ نفسَك فى العبادة » ، أمَرَه أن يَتلطّف بنفسه فى النّوافل ، وأن يُخادِعَها ولا يقْهرَها فتَملَّ وتَضجَر وتترُك[1] ، بل يَأخذ عفوَها ، ويتوخّى أوقات النشاط ، وانشراحَ الصّدر للعبادة .

قال : فأمّا الفرائض فحُكمُها غيرُ هذا الحكم ، عليك أن تقوم بها كرِهَتْها النفسُ أو لم تَكرَهْها . ثمّ أمَرَه أن يقوم بالفريضة فى وقتِها ، ولا يؤخّرها عنه فتصيرَ قضاءً .

ومنها قولُه : « وإيّاك أن يَنزِل بك المنون وأنتَ آبِقٌ من ربّك فى طَلب الدّنيا » . هذه وصيّة شريفة جدّا ، جَعَل طالبَ الدّنيا المُعرِضَ عن الله عند مَوْته كالعَبْد الآبِق يقدم به على مَوْلاه أسيراً مكتوفاً ناكِسَ الرأس ، فما ظنّك به حينئذ !

ومنها قولُه : « وإيّاك ومصاحَبَة الفُسّاق ، فإنّ الشرّ بالشرّ مُلحَق » ؛ يقول : إنّ الطباع يَنزِع بعضُها إلى بعض ، فلا تَصحَبنّ الفُسّاق فإنّه يَنزِع بك مافيك من طَبْع الشرّ إلى مساعَدَتهم على الفُسوق والمَعصِية ، وما هو إلّا كالنّار تقوَى بالنار ، فإذا لم تُجاوِرْها وتمازِجْها نارٌ كانت إلى الانطفاء والخمُود أقرب .

---

(١) د : « وتزل » .

ورُوِى « مُلحِق » بـكسر الحاء ، وقد جاء ذلك فى الخبر النبوىّ « فإن عذابك بالـكفّار مُلحِق » بالـكسر .

ومنها قولُه : « وأحِبّ أحبّاءه » ، قد جاء فى الخبر : « لا يَـكمُل إيمانُ أمرئٍ حتّى يُحبّ مَن أحَبّ الله ، ويُبغض من أبغَض الله » .

ومنها قولُه : « واحذَر الغَضَب » ، قد تقدّم لنا كلامٌ طويل فى الغَضَب . وقال إنسانٌ للنّبىّ صلّى الله عليـه وآله : أَوصِنى ؛ قال : « لا تَغْضب » ، فقال : زِدْنى ؛ فقـال : « لا تغضب » ؛ قال : زِدْنى : قال : « لا أجدُ لك مَزيداً » ، وإنّما جعلَه عليـه السلام جُنْدا عظيما من جُنودِ إبليس ، لأنّه أصلُ الظّلم والقَتْل وإفسادِ كلّ أمرٍ صالح ، وهو إحـدى القوّتين المشئومَتَيْن اللّتين لم يخلق أضرّ منهما على الإنسان ، وهما مَنبَع الشرّ : الغَضَب والشّهْوة .

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حنيف الأنصارى وهو عامله على المدينة ، فى معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية :

أَمَّا بعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ ، فَكَفَى لَهُمْ غَيًّا ، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا ، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا ، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقاً ، إِنَّهُمْ وَاللَّهِ لَمْ يَفِرُّوا مِنْ جَوْرٍ ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللَّهُ لَنَا صَعْبَهُ ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؛ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

* * *

الشرحُ :

قد تقدّم نسبُ سَهْل بن حُنيف وأخيه عثمانَ فيما مضى .

و يتسلّلون : يَخرُجون إلى معاويةَ هاربِين فى خِفْية واستتار .

قال : « فلا تأسَفْ » أى لا تحزن . والغَىّ : الضلال .

قال : « ولك منهم شافيا »، أى يكفيك فى الانتقام منهم وشفاء النّفس من عقوبَتِهم أنّهم يتسلّلون إلى معاوية .

قال : « ارض لمن غاب عنك غَيْبَتَه » ، فذاكَ ذَنْبُ عِقابِهِ فيه .

والإيضاع : الإسراع . وَضَعَ البعيرُ أى اسرَعَ ، وأَوْضَعَه صاحبُه ، قال :

رَأَى بَرْقا فَأَوْضَعَ فوقَ بَكْرٍ فلا يَكُ ما أَسالَ ولا أَعاما

ومُهْطِعون : مُسرعون[1] أيضا ، والأَثَرَة : الاستئثار ، يقول : قد عَرَفوا أَنّى لا أقسِم إلّا بالسّويّة ، وأنّى لا أنفّل قوما على قومٍ ، ولا أُعطِى على الأحْساب والأنْساب كما فعل غيرى ، فتَرَكونى وهَرَبوا إلى مَنْ يَستأثِر ويُؤْثِر .

قال : فبُعْدا لهم وسُحْقاً ، دعاء عليهم بالبُعْد والهلاك .

ورُوِى أنّهم لم « يَنْفروا » بالنّون ، من نَفَرَ ؛ ثمّ ذكر أنّه راجٍ من الله أن يذلّل له صَعْبَ هذا الأمْر ، ويُسهّل له حَزْنه ؛ والحَزْن : ما غَلُظ من الأرض ، وضِدّه السّهْل .

---

(١) فى ا : « مهطعين : مسرعين »

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدى وقد كان استعمله على بعض النواحى، فخان الأمانة فى بعض ماولاه من أعماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ صَلاَحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَاداً ، وَلَا تُبْقِي لآخِرَتِكَ عَتَاداً ، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ ؛ وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ . وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ ، أَوْ يُنَفَّذَ بِهِ أَمْرٌ ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ .

* * *

قال الرضى رحمه الله تعالى:

ٱلْمُنْذِرُ [بن الجارود] (١) هَذَا هُوَ ٱلَّذِى قَالَ فِيهِ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُ لَنَظَّارٌ فِي عِطْفَيْهِ مُخْتَالٌ فِي بُرْدَيْهِ ، تَفَّالٌ فِي شِرَاكَيْهِ .

* * *

---

(١) من ا

الشرح :

[ذكر المنذر وأبيه الجارود]

هو المُنذِر بنُ الجارود. واسم الجارود بشْرُ بنُ خُنَيس بن المعلّى، وهو الحارثُ بنُ زَيد بنِ حارثة بن معاوية بنِ ثعلبة بن جَذيمة بنِ عَوْف بن أنمار بن عَمْرو بن وديعة ابن لُكَيز بن أفصى بن عبد القَيْس بن أفصى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلة بن أَسَد بن رَبيعة بن نزار بن مَعَدّ بن عَدْنان، بيتُهم بيتُ الشّرف فى عَبْد القيس، وإنّما سُمّى الجارودُ لبيْتٍ قاله بعضُ الشّعراء فيه فى آخره :

* كما جردَ الجارودُ بكر بنَ وائل * (١)

ووفد الجارودُ على النبيّ صلى الله عليه وآله فى سنة تسع، وقيل : فى سنة عشرٍ.

وذكر أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ فى كتاب "الاستيعاب" (٢) أنه كان نصرانيّا فأسلم وحَسُن إسلامُه، وكان قد وَفَد مع المُنذِر بنِ ساوَى فى جماعةٍ من عبدِ القَيْس، وقال :

شهدتُ بأنّ اللهَ حقٌّ وسامَحَتْ ... بنَاتُ فؤادى بالشّهادة والنّهْضِ
فأَبْلِغ رسولَ الله منّى رسالةً ... بأنّى حَنيفٌ حيثُ كنتُ من الأرْضِ

قال : وقد اُختُلِف فى نسبه اختلافا كثيرا، فقيل : بشْر بن المعلّى بن خُنَيس؛ وقيل : بشْر بن خُنَيس بن المعلّىّ، وقيل : بشْر بن عَمْرو بن العَلاء، وقيل : بشْر بنُ عمرو بن المعلّى، وكنيته أبو عتّاب، ويكنى أيضاً أبا المُنذِر.

وسَكَن الجارودُ البَصْرة، وقُتِل بأرض فارسَ؛ وقيل : بل قُتِل بنهاوَنْد مع النّعمان ابن مُقرِّن. وقيل : إنّ عثمان بنَ العاص بعثَ الجارود فى بَعْثٍ نحو ساحل فارس، فقتِل

---

(١) صدره :

* وَدُسْنَاهُمُ بالخَيْلِ مِنْ كُلِّ جانب *

(٢) الاستيعاب (نهضة مصر) ٢٦٢ ـ ٢٦٤

بمَوْضع يُعرَف بعَقَبَة الجارود ، وكان قبلَ ذلك يُعرَف بعَقَبة الطِّين ؛ فلمّا قتِل الجارودُ فيه عرّفه الناسُ بعَقَبة الجارود ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين .

وقد رَوَى عن النبىّ صلّى الله عليه وآله أحاديث ورِوىَ عنه ، وأمّه دريمكة بنت رُوَيم الشّيبانية .

وقال أبو عُبَيدة معمر بنُ المثنّى فى كتـاب '' التّاج '' : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أكرم الجارود وعبدَ القيس حين وَفَدوا إليه ، وقال للأنصار : « قوموا إلى إخوانكم ، وأشبه الناس بكم » ؛ قال : لأنهم أصحـاب نَخْل ، كما أنّ الأوْس والخزْرج أصحابُ نخل ، ومسكنهم البَحْرين واليمامة . قال أبو عبيدة : وقال عمرُ بنُ الخطّاب : لولا أنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : إنّ هذا الأمر لا يـكون إلّا فى قريش لما عدلتُ بالخلافة عن الجارود بن بشر بن المعلّى ، ولا تُخالجنى فى ذلك الأمور .

قال أبو عبيدة : ولعبد القيس ستّ خصال فاقَ بها على العَرَب ؛ منها أسوَدُ العَرَب بَيْتاً ، وأشرَفُهم رَهْطا الجارود هو ووَلَدهُ .

ومنها أشجَع العَرَب حكيمُ بنُ جَبَلة ،قُطِعتْ رجله يومَ الجمل، فأخَذَها بيدِه وزَحَف على قاتله فضرَبَه بها حتّى قَتَله ، وهو يقول :

يا نفس لا تُراعى إن قُطعت كُراعِى

* إنّ معى ذراعى *

فلا يُعرَف فى العرب أحدٌ صَنَع صَنيعه .

ومنها أعبَدُ العَرَب هَرِم بن حَيّان صاحب أوَيْس القَرَنىّ .

ومنها أجود العَرَب عبدُ الله بن سواد بن همّام ، غزا السِّنْد فى أربعة آلاف ، ففتحَها وأَطْعم الجيش كلّه ذاهبا وقافلا ، فبلغه أنّ رجلا من الجيش مَرِض ، فاشتهى خَبيصا ،

فأمر باتّخاذ الخبيص لأربعة آلافِ إنسان ، فأطعَمَهم حتّى فضل ، وتقدّم إليهم ألّا يُوقِد أحدٌ منهم ناراً لطعام فى عَسكره مع ناره .

ومنها أخطب العرب مَصقَلة بن رقبة ، به يُضرَب المَثَل فيقال : أخطبُ من مَصْقلة .

ومنها أهدَى العَرَب فى الجاهليّة ، وأبعدُهم مغاراً وأثرًا فى الأرض فى عَدْوه ، وهو دُعَيْمِيص (١) الرّمل كان يُعرَف بالنجوم هدايةً ، وكان أهدى من القَطا ، يدفن بيضَ النّعام فى الرّمل مملوءًا ماءً ثمّ يعود إليه فيستخرجه .

فأمّا المُنذِر بنُ الجارُود فكان شريفا ، وابنُه الحكم بن المُنذِر يتلوه فى الشّرف ، والمنذِر غيرُ معدود فى الصّحابة ، ولا رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، ولا وُلِد له فى أيّامه ، وكان تائها مُعجَبا بنفسه ، وفى الحكم ابنِه يقول الراجز :

يا حَكَم بن المنذرِ بن الجارُودْ   أنتَ الجوادُ بن الجوادِ المحمودْ

٭ سُرادق المجدِ عليك ممدودْ ٭

وكان يقال : أطوعُ الناسِ فى قَوْمه الجارُودُ بن بِشْر بن المعلّى ، لمّا قُبِض رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فارتدّت العَرَب ، خَطَب قومَه فقال : أيّها الناس ، إن كان محمّد قد مات فإنّ الله حىّ لا يموت ، فاستمسِكوا بدينكم ، ومن ذهب له فى هذه الفتنة دينارٌ أو درهم أو بقرةٌ أو شاة فعلىّ مثلاه ، فما خالَفَه من عبد القيس أحد . قوله عليه السلام : « إنّ صلاح أبيك غرّنى منك » ، قد ذَكرنا حال الجارود وصحبتَه وصلاحه ، وكثيرا ما يغترّ الإنسان بحال الآباء فيظنّ أنّ الأبناء على منهاجهم ، فلا يكون الأمرُ كذلك ﴿ يُخْرِجُ الحىّ مِنَ الميّت ويُخْرِجُ الميّت من الحىّ ﴾ .

قوله « فيما رقّى » بالتشديد ، أى فيما رفع إلىّ ؛ وأصله أن يكون الإنسان فى موضعٍ عالٍ

---

(١) ب : « دعميص » ، وانظر القاموس .

فيرقى إليه شىء ، وكأنّ العلوّ هاهنا هو علوّ المرتبة بين الإمام والأمير ، ونحوه قولهم : تعالَ باعتبار علوّ رُتْبة الآمر على المأمور . واللّام فى « لهواك » متعلّقة بمحذوف دلّ عليه انقيادا، ولا يتعلّق بنفس « انقياد » ، لأنّ المتعلّق من حروف الجرّ بالمصدر لا يجوز أن يتقدّم على المصدر .

والعتاد : العُدّة .

قوله : « وتصل عشيرتك » كان فيما رقّى إليه عنه أنه يقتطع المال ويُفيضه على رَهْطه وقومه ويُخرِج بعضه فى لذّاته ومآربه .

قوله : « لجمل أهلكَ » العرَب تضرِب بالجمَل المَثل فى الهوان قال :

لقد عَظُم البعيرُ بغير لُبٍّ ولَمْ يَستغن بالعِظَم البعيرُ (١)
يُصرِّفه الصبىّ بكلّ وجهٍ ويحبسه على الخَسْف الجَريرُ
وتَضرِبه الوَليدةُ بالهراوَى فلا غِيرٌ لديه ولا نَكيرُ

فأمّا شِسْع النَّعل فضَرْب المثل بها فى الاستهانة مشهور ، لابتذالها ووطئها الأقدام فى التراب .

ثم ذكر أنّه من كان بصفته فليس بأهلٍ لكذا ولا كذا ، إلى أن قال : « أو يشرك فى أمانة » ؛ وقد جَعَل الله تعالى البلاد والرعايا أمانةً فى ذمّة الإمام ، فإذا استعمل العمّال على البلاد والرّعايا فقد شرَكهم فى تلك الأمانة .

قال : « أو يؤمن على جباية » ، أى على استِجْباء الخراج وجمعه ، وهذه الرّواية التى سمعناها ، ومن الناس من يَرْويها « على خيانة » ، وهكذا رواها الراوندىّ ، ولم يروالرواية الصّحيحة التى ذكرناها نحن ؛ وقال يكون «على» متعلّقة بمحذوف ، أو« بيؤمن » نفسها، وهو بعيدٌ ومتكلَّف .

(١) للعباس بن مرداس السلمى ، ديوان الحماسة ٤١٩ ـ بشرح المرزوقى

ثم أمَره أن يُقبل إليه ، وهذه كناية عن العَزْل .

فأمّا الكلمات التى ذكرها الرضىّ عنه عليه السلام فى أمر المُنذِر فهى دالّة على أنه نَسَبَه إلى التِّيه والعُجْب ، فقال : نظّار فى عِطْفيه ، أى جانبيه ، ينظر تارةً هكذا وتارة هكذا ، ينظُر لنفسه ، ويَستحسِن هَيْئَتَه ولِبْسَتَه ، وينظر هل عنده نَقْص فى ذلك أو عَيْب فيستدركُه بإزالته ، كما يفعل أربابُ الزّهْو ومن يدّعى لنفسه الحسن والملاحة .

قال : مُختالٌ فى بُرْدَيْه : يمشى الُخيلاء عُجْبا . قال محمّد بنُ واسع لابن له وقد رآه يختال فى بردٍ له : ادنُ ، فدنا ، فقال : من أين جاءتْك هذه الُخيَلاء وَيْلك ، أمّا أُمّك فأَمة ابتعتُها بمائتى درهم ، وأمّا أبوك فلا أكثَرَ الله فى النّاس أمثاله .

قوله : « تفّال فى شِراكيه » ، الشِّراك السَّيْر الّذى يكون فى النّعل على ظَهْر القدم .

والتَّفْل بالسكون : مصدر تَفَل أى بَصَق ، والتَّفَل محركا البُصاقُ نفسه ، وإنّما يفعله المُعجِب والتّائه فى شِراكَيْه ليذهب عنهما الغُبار والوسخ ، يَتْفُل فيهما ويمسحهما ليعودا كالجَدِيدين .

الأَصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رضى الله عنه :

أَمَّا بَعْدُ ، فإنَّكَ لَسْتَ بِسابِقٍ أجَلَكَ ، ولَا مَرْزُوقٍ ما لَيْسَ لَكَ ، واعْلَمْ بأنَّ الدَّهْرَ يَوْمانِ : يومٌ لك، ويَوْمٌ عَلَيْكَ ، وأنَّ الدُّنيا دَارُ دُوَلٍ ، فَما كانَ مِنْهَا لَكَ أتاكَ على ضَعْفِكَ، وما كانَ منها عليك لمْ تَدْفَعْهُ بقوَّتِكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم شرحُ مثل هذا الـكلام ، وهـذا معنًى مطروق ، قد قال الناس فيـه فأكثروا ، قال :

قد يُرزَق العاجزُ الضعيفُ وما شَدّ بكُورٍ رَحْلا ولا قَتَبَا [(١)]
ويُحرَم المرء ذو الجـلادة والرّأْى ومن لا يزال مُغـــتَرِبا

ومن جيّد ما قيل فى هذا المعنى قول أبى يعقوب الُخرِيمىّ [(٢)] :

هل الدهرُ إلّا صَرفُه ونوائبُـهْ وسَرّاء عيشٍ زائل ومصائبُـهْ
يقولُ الفَتَى ثمّرتُ مالى وإنّمـا لوارِثهِ ما ثمّرَ المـــالَ كاسِبُهْ

---

(١) من أبيات نسبها صاحب الأغانى (١٥ : ٢١ ــ ساسى) إلى ابن عبدل الأسدى برواية مخالفة.
(٢) ب : « الحرمى » تحريف

يُحَاسِبُ فيه نفسَه فى حياتِهِ ... ويتركه نَهْبًا لمن لا يحَاسِبهْ

فكُلْه وأطعِمْهُ وخالِسْـهُ وارثا ... شَحِيحًا ودهراً تعتريك نوائِبُهْ

أرى المـال والإنسان للدّهر نُهبةً ... فلا البخلُ مبقيه ولا الجود خارِبُهْ

لـكلِّ امرئٍ رزق وللرزق جالب ... وليسَ يفوت المرء ما خطَّ كاتبُهْ

يخيبُ الفتى من حَيثُ يُرْزَقُ غيره ... ويُعْطى الفتى مِنْ حَيثُ يحرَمُ صاحِبُهْ

يُســاق إلى ذا رِزقُه وهو وَادِعٌ ... ويُحَرمُ هذا الرزقَ وهو يغالِبُهْ

وإنّك لا تدرى : أرزقُك فى الذى ... تطالِبُه أم فى الذى لا تطالبُهْ !

تناسَ ذنوب الأقربينَ فإنه ... لـكل حميمٍ راكبٌ هو راكبُهْ

له هفوات فى الرّخاء يشوبُها ... بنصرة يومٍ لا توارَى كَوَاكِبُهْ

تراه عُـــدُوًّا ما أمِنْت وتتّقى ... بجبهته يوم الوَغَى مَنْ يحارِبُهْ

لـكلِّ امرئٍ إخوان بؤس ونعمة ... وأعظمهمْ فى النائبات أقاربُهْ

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ فإنى عَلَى التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ ، والاسْتِمَاعِ إِلَى كِتابِكَ ، لَمُوَهِّنٌ رَأْيِي ، ومُخَطِّئٌ فِرَاسَتِي ، وإنَّكَ إذْ تُحاوِلُنِي الأُمورَ ، وتُرَاجِعني السُّطُورَ ، كالمُسْتَثْقِلِ النَّائِمِ تُكَذِّبُهُ أَحْلامُهُ ، والمُتَحَيِّرِ الْقائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُه؛ لا يَدْرِي أَلَهُ ما يأْتِي أَمْ عَلَيْهِ ، ولَسْتَ به ، غَيْرَ أَنَّهُ بك شَبِيهٌ .

وأُقْسِمُ باللهِ أَنَّهُ لَوْلاَ بَعْضُ الاُسْتِبْقَاءِ ، لَوَصَلَتْ إِلَيْكَ مِنِّي قَوَارِعُ تَقْرَعُ الْعَظْمَ ، وَتَنْهَسُ اللَّحْمَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمورِكَ ، وتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ ، والسَّلاَمُ لِأَهْلِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

روى « نوازع » جمع نازعة ، أى جاذبة قالعة ، وروى « تهلِس اللحم » و« تلهس » بتقديم اللام ، وتهلِس بكسر اللام : تذيبه حتى يصير كبدن به الهُلاس ، وهو السلّ ؛ وأمّا تلهس فهو بمعنى تلحس ، أبدِلت الحاء هاء ؛ وهو من لحِست كذا بلسانى بالكسر، ألحسه ، أى تأتى على اللحم حتى تلحسه لحسا ، لأن الشيء إنما يلحس إذا ذهب و بقى أثره ، وأما « يَنْهس » وهى الرواية المشهورة ، فمعناه يعترق .

وتأذَن بفتح الذال ، أى تسمع .

قوله عليه السلام « إنى لموهِّن رأيى » بالتشديد ؛ أى إنى لألوم نفسى ، ومستضعف رأيى فى أن جعلتك نظيرا ، أكتُب وتجيبنى ، وتكتب وأجيبك ؛ وإنما كان ينبغى أن يكون جواب مثلك السكوت لهوانِك .

* * *

فإن قلت : فما معنى قوله : « على التردد ؟ » .

قلت : ليس معناه التوقّف، بل معناه الترداد والتكرار ؛ أى أنا لألوم نفسى على أنى أكرر تارة بعد تارة أجوبتك عمّا تكتبه .

* * *

ثم قال : وإنك فى مناظرتى ومقاومتى بالأمور التى تحاولها ، والكتب التى تكتبها كالنائم يرى أحلاما كاذبة ، أو كمن قام مقاما بين يدى سلطان ، أو بين قوم عقلاء ليعتذر عن أمر ، أو ليخطب بأمر فى نفسه ، قد بهظه مقامه ذلك ؛ أى أثقله فهو لا يدرى : هل ينطق بكلام هو له ، أم عليه ! فيتحيّر ويتبلّد ، ويدركه العىُّ والحَصَر .

قال : وإن كنتَ لستَ بذلك الرّجل فإنك شبيه به ؛ أمّا تشبيهه بالنائم ثم ذى الأحلام، فإن معاوية لو رأى فى المنام فى حياة رسولِ الله صلى الله عليه وآله أنه خليفةٌ يخاطب بإمرة المؤمنين ، ويحارب عليا على الخلافة ، ويقوم فى المسلمين مقامَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لما طلب لذلك المنام تأويلا ولا تعبيرا ، ولعدّه من وساوس الخيال وأضغاث الأحلام ؛ وكيف وأنّى له أن يخطر هذا بباله ، وهو أبعد الخلق منه ! وهذا كما يخطر للنفّاط[1] أن يكون مَلِكاً ، ولا تنظرنّ إلى نسبه فى المناقب[2] ، بل انظر إلى أن

(١) النفاط : مستخرج النفط ؛ وهو الزيت

(٢) حاشية ب : « قوله ولا تنظرن فى المناقب » ؛ قال فى القاموس : « النقاب ، بالكسر : الرجل العلامة والبطن ، ومنه: « فرخان فى نقاب » يضرب للمتشابهين ؛ فعلى هذا يريد بالمناقبة المشابهة بالنسب =

الإمامة هى نبوّة مختصرة ، وأن الطليق المعدود من المؤلفة قلوبهم المكذّب بقلبه و إن أقرّ بلسانه ، الناقص المنزلة عند المسلمين ، القاعد فى أخريات الصفّ ؛ إذا دخل إلى مجلس فيه أهل السوابق من المهاجرين ، كيف يخطر ببال أحد أنها تصير فيه و يملكها و يسمه الناس وسمَها ، و يكون للمؤمنين أميرا ، و يصير هو الحاكم فى رقاب أولئك العظماء من أهل الدّين والفَضْل ! وهذا أعجب من العَجب ، أن يجاهد النبىّ صلّى الله عليه وآله قوماً بسيفه ولسانه ثلاثا وعشرين سنة ، ويلعنهم ويبعدهم عنه ، و ينزل القرآن بذمهم ولعنهم ، والبراءة منهم ، فلما تمهدّت له الدولة ، وغلب الدّين على الدّنيا ، وصارت شريعة دينيةّ محكمة ، مات فشيِّد دينه الصالحون من أصحابه ، وأوسعوا رقعة ملَّته ، وعظم قدرُها فى النفوس ، فتسلمها منهم أولئك الأعداء ، الذين جاهدهم النبى صلّى الله عليه وآله فملكوها وحكموا فيها ، وقتلوا الصُّلحاء والأبرار وأقارب نبيّهم الذين يظهرون طاعته ، وآلت تلك الحركة الأولى وذلك الاجتهاد السابق إلى أن كان ثمرته لهم ؛ فليته كان يبعث فيرى معاوية الطّليق وابنه ، ومَرْوان وابنه خلفاء فى مقامه ، يحكمون على المسلمين ، فوضح أنّ معاوية فيما يراجعه و يكاتبه به ؛ كصاحب الأَحلام .

وأما تشبيهه إياه بالقائم مقاما قد بهظه ؛ فلأن الحجج والشّبه والمعاذير التى يذكرها معاوية فى كتبه أوهن من نسج العنكبوت ، فهو حال ما يكتب كالقائم ذلك المقام ، يخبط خبط العشواء ، و يكتب ما يعلم هو والعقلاء من النّاس أنه سفَه و باطل .

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « لولا بعض الاستبقاء » ؟ وهل كانت الحال تقتضى أن يستبقى ! وما تلك القوارع التى أشار اليها ؟

= يعنى أن معاوية وإن كان فى النسب له بعض المشابهة بنسبه عليه السلام من حيث القرشية والقرابة ، ولكنه إذا نظرت إلى أن الإمامة هى نبوة مختصرة لا يصلح لها إلا من اجتمعت فيه فضائل من النبوة ومناقب تضارعها وسوابق تتلوها ، وأما الطلقاء وأبناء الطلقاء فليس لهم أن يتعرضوا لأن يكونوا من أدنى موالى أربابها » .

قلت : قد قيل : إنّ النبي صلى الله عليه وآله فوّض إليه أمرَ نسائه بعدموته ، وجعل إليه أن يقطع عصمة أيّتهن شاء إذا رأى ذلك ، وله من الصحابة جماعةٌ يشهدون له بذلك، فقد كان قادراً على أن يقطع عصمة أمّ حبيبة ، و يبيح نكاحها الرّجال عقو بة لها ولمعاوية أخيها ، فإنها كانت تُبغض عليا كما يُبغضه أخوها ، ولو فعل ذلك لا نتهسَ لحمه ، وهذا قول الإماميّة وقد رووا عن رجالهم أنه عليه السلام تهدّد عائشة بضرب من ذلك ، وأما نحن فلا نصدّق هذا الخبر ، ونفسّر كلامه على معنى آخر ، وهو أنه قد كان معه من الصّحابة قوم كثيرون سمِعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله يلعن معاوية بعد إسلامه ، ويقول : إنّه منافق كافر ، وإنّه من أهل النار ، والأخبار فى ذلك مشهورة ؛ فلو شاء أن يحمل إلى أهل الشام خطوطهم وشهاداتهم بذلك ، ويسمعهم قولهم ملافظةً ومشافهة لفعل ، ولكنه رأى العدول عن ذلك ، مصلحةً لأمر يعلمه هو عليه السلام ، ولو فعل ذلك لانتهسَ لحمه ، وإنما أبقى عليه .

وقلت لأبى زيد البصرىّ : لِم أبقى عليه ؟ فقال : والله ما أبقَى عليه مراعاة له ، ولا رفقاً به ، ولكنه خاف أن يفعل كفعله ، فيقول لعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبُسْر بن أبى أرطاة وأبى الأعور وأمثالهم : ارووا أنتم عن النبي صلى الله عليه وآله أنّ عليًّا عليه السلام منافق من أهل النار ، ثم يُحمل ذلك إلى أهل العراق ؛ فلهذا السبب أبقَى عليه .

الأصل :

ومن حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن -ونقل من خط هشام بن الكلبي :

هَذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، وَرَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ اللهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلاً ، وَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَتَرَكَهُ ، وَأَنَّهُمْ أَنْصَارٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ ، لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عَاتِبٍ ، وَلَا لِغَضَبِ غَاضِبٍ ، وَلَا لِاسْتِذْلَالِ قَوْمٍ قَوْماً ، وَلَا لِمَسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْماً، عَلَى ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَسَفِيهُهُمْ وَعَالِمُهُمْ ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ ، إِنَّ عَهْدَ اللهِ كَانَ مَسْئُولاً .

وَكَتَبَ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ .

* * *

الشرح :

الحِلْف : العهد ، أى ومن كتاب حِلْف ؛ فحذف المضاف . واليمن : كلّ مَن ولده قحطان ؛ نحو حِمْيَر ، وعكّ ، وجُذام ، وكِنْدة ، والأزد ، وغيرهم .

وربيعة ، هو ربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان ؛ وهم بكر وتغلب ، وعبد القيس .

وهشام ، هو هشام بن محمّد بن السائب الكلبيّ ، نسّابة ابن نسّابة ؛ عالم بأيّام العرب وأخبارها ، وأبوه أعلم منه ، وهو يروى عن أبيه .

والحاضر : ساكنو الحَضَر ، والبادى : ساكنو البادية ؛ واللفظ لفظ المفرد والمعنى الجمع .

قوله : « إنهم على كتاب الله » حرف الجرّ يتعلّق بمحذوف ، أى مجتمعون .

قوله : « لا يشترونَ بهِ ثمناً قليلاً » ، أى لا يتعوّضون عنه بالثمن ، فسمّى التعوّض اشتراء ؛ والأصل هو أن يشترى الشىء بالثمن لا الثمن بالشىء ، لكنه من باب اتّساع العرب، وهو من ألفاظ القرآن العزيز[1] .

وإنّهم يدٌ واحدة ، أى لا خلف بينهم .

قوله : « لمعتبة عاتب » ، أى لا يؤثّر فى هذا العهد والحلف ولا ينقضه أن يعتب أحد منهم على بعضهم ؛ لأنه استجداه فلم يُجدِه ، أو طلب منه أمرا فلم يقم به ، ولا لأنّ أحداً منهم غضب من أمرٍ صدر من صاحبه ، ولا لأنّ عزيزاً منهم استذلّ ذليلا منهم ، ولا لأنّ إنساناً منهم سبّ أو هجا بعضهم ، فإنّ أمثال هذه الأمور يتعذّر ارتفاعها بين الناس ؛ ولو كانت تنقض الحِلْف لما كان حلف أصلا .

واعلم أنه قد ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله : « كلّ حِلْف كان فى الجاهليّة فلا يزيده الإسلام إلّا شدة » ؛ ولا حلف فى الإسلام ، لكن فِعْل أمير المؤمنين عليه السلام أولى بالاتّباع من خبر الواحد ؛ وقد تحالفت العرب فى الإسلام مرارا ، ومن أراد الوقوف على ذلك فليطلبه من كتب التواريخ .

---

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا ﴾ .

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية من المدينة فى أول ما بويع له بالخلافة ذكره الواقدى فى كتاب الجمل :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ :
أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ ، حَتَّى كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا دَفْعَ لَهُ ، وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ ، وَالْكَلَامُ كَثِيرٌ ، وَقَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ ، وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ ، فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكَ ، وَأَقْبِلْ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ . والسَّلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

كتابه إلى معاوية ومخاطبته لبنى أميّة جميعا ، قال : «وقد علمت إعذارى فيكم»، أى كونى ذا عذرٍ لو لُمْتُكُمْ أو ذممتكم ـ يعنى فى أيّام عثمان .

ثم قال : « وإعراضى عنكم » أى مع كونى ذا عذر لو فعلت ذلك فلم أفعله ، بل أعرضت عن إساءتكم إلىّ وضربت عنكم صفحا . حتى كان مالابدّ منه ـ يعنى قتل عثمان وما جرى من الرَّجَبَةِ بالمدينة .

ثم قاطعه الكلام مقاطعة وقال له : والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ذلك الزمان ، وأقبل زمان آخر ، فبايع وأَقدِم؛ فلم يبايع ولا قدم ، وكيف يبايع وعينه طامحة

إلى الملك والرياسة منذ أمّره عمر على الشام ؛ وكان عالىَ الهمّة ، توّاقاً إلى معالى الأمور ، وكيف يطيع عليًّا والمحرّضون له على حَرْبه عدد الحصا ، ولو لم يكن إلا الوليد بن عقبة لكفى ، وكيف يسمع قوله :

فوالله ماهندٌ بأمّك إن مضى النّهارُ ولم يثأر بعثمان ثائرُ
أَيقتل عبدُ القوم سيّدَ أهلِه ولم تقتلوه، ليت أمّك عاقرُ
ومن عجبٍ أنْ بتّ بالشام وادعاً قريرا وقد دارت عليه الدوائرُ !

و يطيع عليًّا ، و يبايع له ، و يُقدم عليه ، و يسلّم نفسه إليه ، وهو نازل بالشام فى وسط قَحْطان ودونه منهم حَرّة لا ترام ؛ وهم أطوع له من نعله ، والأمر قد أمكنه الشروع فيه ؛ وتالله لو سمع هذا التحريض أجبنُ الناس وأضعفهُم نفسا وأنقصُهم همّة لحرّكه وشحَذَ من عزمه ؛ فكيف معاوية ، وقد أيقظ الوليدُ بشِعره من لا ينام !

(٧٦)

الأصلُ :

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة :

سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ ، وإيَّاكَ والْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ .

واعْلَمْ أَنَّ ما قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ ، وما بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ .

***

الشرحُ :

روى : « وحلمك » . والقرب من الله ، هو القرب من ثوابه ؛ ولا شبهة أن ما قرّب من الثواب باعدَ من العقاب ، وبالعكس لتنافيهما .

فأما وصيّته له أن يسع الناس بوجهه ومجالسه وحكمه ، فقد تقدّم شرح مثله ، وكذلك القول فى الغضب .

وطَيْرة من الشيطان : بفتح الطاء وسكون الياء ، أى خفّة وطيش قال الكميت :

وحِلْمُكَ عِزٌّ إذا ما حَلُمْتَ ... وَطَيرتُك الصَّابُ والحنظلُ[1]

---

(١) الصحاح ٤ : ٧٢٨

الأصْلُ :

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس أيضا لما بعثه للاحتجاج على الخوارج

لا تُخاصِمْهُمْ بالْقُرْآنِ ؛ فإنّ الْقُرْآنَ حَمّالٌ ذُو وُجُوهٍ، تَقُولُ ويقُولونَ ، ولَكِنْ حاجِجْهُمْ بالسُّنَّةِ ، فَإنّهم لَنْ يَجِدُوا عَنها مَحِيصاً .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام لا نظير له فى شرفه وعلوّ معناه ، وذلك أنّ القرآن كثير الاشتباه ، فيه مواضع يُظنّ فى الظاهر أنها متناقضة متنافية ، نحو قوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ[1] ﴾ وقوله : ﴿ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ[2] ﴾ ، ونحو قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فأغْشَيناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ[3] ﴾ وقوله : ﴿ فَأَمّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى[4] ﴾ ، ونحو ذلك ، وهو كثير جدًّا ؛ وأما السنة فليست كذلك ، وذلك لأنّ الصحابة كانت تسأل رسول الله صلّى الله عليه وآله وتستوضح منه الأحكام فى الوقائع ، وما عساه يشتبه عليهم من كلامه ؛ يراجعونه فيه ؛ ولم يكونوا يراجعونه فى القرآن إلا فيما قلّ ؛ بل كانوا يأخذونه منه تلقّفاً ، وأكثرهم لا يفهم معناه ،

(١) سورة الأنعام ١٠٣
(٢) سورة القيامة ٢٣
(٣) سورة يس ٩
(٤) سورة فصلت ١٧

لا لأنه غير مفهوم ؛ بل لأنهم ما كانوا يتعاطوْن فهمه ؛ إما إجلالا له أو لرسول الله أن يسألوه عنه ، أو يجرونه مجرى الأسماء الشريفة التى إنما يراد منها بركتُها لا الإحاطة بمعناها؛ فلذلك كثر الاختلاف فى القرآن . وأيضا فإن ناسخه ومنسوخه أكثرُ من ناسخ السنّة ومنسوخها ؛ وقد كان فى الصحابة مَنْ يسأل الرّسول عن كلمة فى القرآن يفسرها له تفسيراً موجَزاً ، فلا يحصل له كلّ الفهم ، لما أنزلت آية الكلالَة [1] ، وقال فى آخرها : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا [2] ﴾ ، سأله عمر عن الكلالة ما هو ؟ فقال له : يكفيك آية الصيف ، لم يزد على ذلك ، فلم يراجعه عمر وانصرف عنه ، فلم يفهم مراده ، وبقى عمر على ذلك إلى أن مات ، وكان يقول بعد ذلك : اللهم مهما بَيَّنْتَ ، فإنّ عمر لم يتبيّن ، يشير إلى قوله : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ وكانوا فى السنّة ومخاطبة الرسول على خلاف هذه القاعدة ، فلذلك أوصاه علىٌّ عليه السلام أن يحاجّهم بالسنة لا بالقرآن .

فإن قلت : فهل حاجّهم بوصيّته ؟

قلت : لا ، بل حاجّهم بالقرآن ، مثل قوله : ﴿ فابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهلِهَا [3] ﴾ ومثل قوله فى صيد المحرم : ﴿ يَحْكُمُ به ذوا عَدْلٍ مِنكم [4] ﴾ ؛ ولذلك لم يرجعوا والتحمت الحرب ، وإنما رجع باحتجاجه نفر منهم .

فإن قلت : فما هى السنّة التى أمره أن يحاجّهم بها ؟

قلت : كان لأمير المؤمنين عليه السلام فى ذلك غرض صحيح ، وإليه أشار ، وحوله كان يطوف ويحوم ، وذلك أنه أراد أن يقول لهم : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « علىٌّ مع الحقّ والحق مع علىّ يدور معه حيثما دار » ، وقوله : « اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، ونحو ذلك من الأخبار التى

(١) يريد قوله تعالى فى آخر آية من سورة النساء : « يسألونك عن الكلالة » الخ .
(٢) سورة النساء ١٢ (٣) سورة النساء ٣٥
(٤) سورة المائدة ٩٥

كانت الصحابة قد سمعتها من فَلْقِ فيه صلوات الله عليه ، وقد بقى ممن سمعها جماعـة تقوم الحجّة وتثبت بنقلهم ، ولو احتجّ بهـا على الخوارج فى أنه لا يحلّ مخالفته والعدول عنه بحالٍ لحصل من ذلك غرض أمير المؤمنين فى محاجّتهم ، وأغراض أخرى أرفـع وأعلى منهم ؛ فلم يقع الأمر بموجب ما أراد ، وقُضى عليهم بالحرْب ؛ حتى أكلتهم عن آخرهم ، وكان أمر الله مفعولا .

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام أجاب به أبا موسى الأشعريّ عن كتاب كتبه إليه من المكان الذى اتعدوا فيه للحكومة – وذكر هذا الكتاب سعيد بن يحيى الأموى فى كتاب المغازى :

فإنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ ، فَمالُوا مَعَ الدُّنْيا ، ونَطَقُوا بالهَوَى ؛ وإِنِّى نَزَلْتُ مِنْ هَـذَا الأمْرِ مَنْزِلًا مُعْجِباً ؛ اجْتَمَعَ بِهِ أقْوَامٌ أعْجَبَتْهُمْ أنفُسُهُمْ ، وأنا أُدَاوِى مِنْهُمْ قَرْحاً أخافُ أنْ يَعُودَ عَلَقاً يعُودُ ، ولَيْسَ رَجُلٌ – فاعْلَمْ – أحْرَصَ النَّاسِ عَلَى جَماعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى اللهُ عليه وآلِه وأُلْفَتِها مِنِّى ، أبْتَغِى بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ ، وكَرَمَ المَآبِ .

وسَأفِى بالَّذِى وأيْتُ على نَفْسِى ، وإنْ تَغَيَّرْتَ عَنْ صالِحِ ما فارَقْتَنِى عَلَيْهِ ، فإنَّ الشَّقِىَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ ما أُوتِىَ مِنَ العَقْلِ والتَّجْرِبَةِ ، وإنِّى لَأعْبَدُ أنْ يَقُولَ قائِلٌ بباطِلٍ ، وأنْ أُفْسِدَ أمْراً قَدْ أصْلَحَهُ اللهُ ، فَدَعْ عَنْكَ مالَا تَعْرِفُ ، فإنَّ شِرَارَ النَّاسِ طائِرُونَ إلَيْكَ بِأقاوِيلِ السُّوءِ ، والسَّلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

روى : « ونطقوا معالهوى» ، أى مائلين مع الهوى .

وروى « وأنا أُدارى » بالراء ، من المداراة ، وهى الملاينة والمساهلة .

وروى « نفع ما أولى » باللام ؛ يقول : أوليته معروفا .

وروى « إن قال قائل بباطل و يفسد أمرا [قد أَصلَحَه الله [1]] » .

واعلم أنّ هذا الكتاب كتاب مَنْ شكّ فى أبى موسى واستوحش منه ؛ ومن قد نقل عنه إلى أبى موسى كلاماً إمّا صدقا وإمّا كذباً . [وقد نَقَل عن أبى موسى إليه كلاماً إمّا صدقا أيضاً وأمّا كذباً [2]] ، قال عليه السلام : إنّ الناس قد تغيّر كثير منهم عن حظّهم من الآخرة ، فمالوا مع الدنيا . وإنّى نزلت من هذا الأمر منزلا معجِبا ،بكسر الجيم ، أى يعجِب مَنْ رآه ، أى يجعله متعجّبا منه .

وهذا الكلام شكوى من أصحابه ونُصّاره من أهل العراق ؛ فإنهم كان اختلافهم عليه واضطرابهم شديدا جدّا . والمنزل والنّزول هاهنا مجاز واستعارة ، والمعنى أنّى حصلت فى هذا الأمر الذى حصلت فيه على حال معجبة لمن تأمّلها لأنّى حصلت بين قوم كلّ واحد منهم مستبدّ برأى يخالف فيه رأىَ صاحبه ؛ فلا تنتظم لهم كلمة ولا يستوثق لهم أمر ؛ وإن حكمت عليهم برأى أراه أنا خالفوه وعصوه ، ومن لا يطاع فلا رأى له ، وأنا معهم كالطبيب الذى يداوى قَرْحاً ، أى جراحة قد قاربتْ الاندمال ولم تندمِلْ بعدُ ؛ فهو يخاف أن يعود عَلَقاً ، أى دماً .

ثم قال له : ليس أحد — فاعلم — أحرصَ على ألفة الأمّة وضمّ نشْر المسلمين .

وأدخل قوله : « فاعلم » بين اسم ليس وخبرها فصاحة ، ويجوز رفع « أحرص » بجعله صفةً لاسم « ليس » ؛ ويكون الخبر محذوفا — أى ليس فى الوجود رجل .

وتقول : قد وأيتُ وأياً ، أى وعدت وعداً ، قال له : أمّا أنا فسوف أفى بما وعدت وما استقرّ بينى وبينك ؛ وإن كنت أنت قد تغيّرت عن صالح مافارقتنى عليه .

(١) من د

(٢) من د

فإن قلت : فهل يجوز أن يكون قوله : « وإن تغيّرت » من جملة قوله فيما بعد « فإنّ الشقيّ » كما تقول : إن خالفتنى فإنّ الشقيّ من يخالف الحق .

قلت : نعم ؛ والأوّل أحسن ؛ لأنه أدخلُ فى مدْح أمير المؤمنين عليه السلام كأنه يقول : أنا أفى وإن كنتَ لا تفى ، والإيجاب يحسّنه السلْب الواقع فى مقابلته :

* والضّدّ يظهر حسنَه الضّدُّ *

ثمّ قال : « وإنى لأعْبَد » أى آنَف ، من عبِد بالكسر أى أنِف ، وفسّروا قوله : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ[1] ﴾ بذلك ، يقول : إنّى لآنف من أن يقول غيرى قولا باطلا ، فكيف لا آنَف أنا من ذلك لنفسى ! ثم تختلف الرّوايات فى اللفظة بعدها كما ذكرنا .

ثم قال : « فدَعْ عنك مالا تعرف » أى لاتبْن أمرك إلّا على اليقين والعلم القطعىّ ، ولا تُصْغِ إلى أقوال الوشاة ونقَلَة الحديث ؛ فإنّ الكذب يخالط أقوالهم كثيرا ، فلا تصدِّق ما عساه يبلِّغك عنّى شرار الناس ؛ فإنّهم سراع إلى أقاويل السوء ؛ ولقد أحسن القائل فيهم :

إنْ يَسْمَعُوا الخيرَ يُخْفُوه وإنْ سَمِعُوا شرًّا أذاعوا وإن لم يسمعوا كَذَبُوا

ونحو قول الآخر :

إنْ يَسْمَعُوا رِيبةً طَارُوا بها فَرَحاً وإن ذُكِرْتُ بخيرٍ عندهمْ دَفَنُوا

---

(١) سورة الزخرف .

(٧٩)

الأصل :

ومن كتاب كتبه عليه السلام لما استخلف إلى أمراء الأجناد :

أَمَّا بَعْدُ ، فإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الحَقَّ فاشْتَرَوْهُ، وأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فاقْتَدَوْهُ .

* * *

الشرح :

أى منعوا الناس الحق فاشترى الناس الحق منهم بالرّشا والأموال، أى لم يضعوا الأمور مواضعَها ، ولا ولّوا الولايات مستحقِّيها ، وكانت أمورهم الدينية والدنياوية تجرى على وَفْق الهوى والغرض الفاسد ، فاشترى الناس منهم الميراث والحقوق كما تُشترى السلع بالمال .

ثم قال : « وأخذوهم بالباطل فاقتدوه » أى حملوهم على الباطل فجاء الخلَف من بعد السلف فاقتدَوا بآبائهم وأسلافهم فى ارتكاب ذلك الباطل ظنًّا أنّه حق لما قد ألفوه ونشئوا وربّوا عليه .

وروى « فاستروه » بالسين المهملة أى اختاروه ، يقال استريتُ خيار المال، أى اخترته ويكون الضمير عائدا إلى «الظلَمة» لا إلى «الناس» ،أى منعوا الناس حقّهم من المال واختاروه لأنفسهم واستأثروا به .

بابُ
الحِكَمِ والمواعِظ

باب المختار من حكم أمير المؤمنين ومواعظه

ويدخل فى ذلك المختار من أجوبة مسائله والكلام القصير الخارج فى سائر أغراضه

***

الشَّرْحُ :

اعلم أن هذا الباب من كتابنا كالرّوح من البدن ، والسواد من العين ؛ وهو الدرّة المكنونة التى سائر الكتاب صدَفها ؛ وربما وقع فيه تكرار لبعض ماتقدّم يسير جدًّا ؛ وسبب ذلك طول الكتاب وبعد أطرافه عن الذهن ، وإذا كان الرضىّ رحمه الله قد سَها فكرّر فى مواضع كثيرة فى " نهج البلاغة " على اختصاره كنّا نحن فى تكرار يسير فى كتابنا الطويل أعذر .

(١)

الأصلُ :

كُنْ فِي ٱلْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ ؛ لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ ، وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ .

***

الشرحُ :

ابن اللّبون : ولد النّاقة الذّكر إذا استكمل السّنة الثانية ودخل فى الثالثة ؛ ولا يقال للأنثى : ابنة اللّبون ؛ وذلك لأنّ أمّهما فى الأغلب ترضع غيرهما ، فتكون ذات لبَن ، واللّبون من الإبل والشاة : ذات اللّبَن ، غزيرة كانت أو بكِيئة [1] ، فإذا أرادوا الغزيرة قالوا : لَبِنة ، ويقال : ابن لَبُون وابن اللّبون ، منكّرا أو معرّفا ، قال الشاعر :

وابن اللّبُونِ إذَا مالُزَّ فى قرَنٍ لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ القناعِيسِ [2]

وابن اللّبون لا يكون قد كمل وقوىَ ظهره على أن يركب ، وليس بأنثى ذات ضرعٍ فيُحلب وهو مطّرح لا يُنتفع به .

وأيّام الفتنة هى أيّام الخصومة والحرب بين رئيسيْن ضالّين يدعوان كلاهما إلى ضلالة كفتنة عبد الملك وابن الزبير وفتنة مروان والضّحّاك وفتنة الحجّاج وابن الأشعث ونحو ذلك ، فأما إذا كان أحدهما صاحب حق فليست أيام فتنة كالجمل وصِفّين ونحوهما بل يجب الجهاد مع صاحب الحق وسلّ السّيف والنهى عن المنكر وبذل النّفس فى إعزاز الدين وإظهار الحق .

---

(١) البكيئة : قليلة اللبن

(٢) لجرير ، ديوانه ٣٢٣ . القرن : الحبل . والقناعيس : الشداد

قال عليه السلام : أخمِل نفسك أيام الفتنة ، وكن ضعيفا مغموراً بين النّاس لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء .

وقوله : « فيركَبَ » « فيُحلبَ » ، منصوبان لأنهما جواب النفى ، وفى الكلام محذوف تقديره : « له » ؛ وهو يستحق الرفع ، لأنه خبر المبتدأ ، مثل قولك : لا إله إلّا الله ، تقديره « لنا » ، أو « فى الوجود » .

(٢)

الأَصْـلُ :

أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اُسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ ، وَرَضِيَ بالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عن ضُرِّهُ ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُه مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ .

***

الشَّـرْحُ :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول فى الطمع : قوله عليه السلام « أزرى بنفسه » ، أى قصّر بها. مَن استشعر الطمع ، أى جعله شعاره أى لازمه .

وفى الحديث المرفوع : « إن الصّفا الزّلزال الذى لا تَثبت عليه أقدام العلماء الطمع » .

وفى الحديث أنه قال للأنصار : « إنّكم لتكثُرون عند الفَزَع وتقلّون عند الطمع » أى عند طمع الرزق .

وكان يقال : أكثر مصارع الألباب تحت ظلال الطمع .

وقال بعضهم : العبيد ثلاثة : عبد رقّ ، وعبد شهْوة ، وعبد طمع .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الغِنَى ، فقال : « اليأس عمّا فى أيدى الناس ، ومَنْ مشى منكم إلى طمع الدنيا فليمش رويداً » .

وقال أبو الأسوَد :

البَسْ عدوّك فى رِفْقٍ وفى دَعَـــةٍ ۝ طوبَى لذى إربةٍ للدّهر لبّاسِ
ولا تغرّنْك أحقَادٌ مزمّـــــلةٌ ۝ قد يركب الدبر الدامى بأجلاسِ
واستغنِ عن كل ذى قُربى وذى رَحِمٍ ۝ إن الغَنِيّ الذى استغنى عن الناس

قال عمر : ما الخمر صِرْفاً بأذهبَ لعقول الرّجال من الطمع.

وفى الحديث المرفوع : « الطمع الفقر الحاضر » .

قال الشاعر :

رأيت مخيلةً فطمِعْت فيهـا ۝ وفى الطّمَع المذلّةُ للرّقابِ

الفصل الثـانى فى الشـكوى : قال عليـه السلام : « من كشف للناس ضرّه » أى شـكى إليهم بؤسه وفقره ، « فقد رضى بالذل » .

كان يقال : لا تشكوَنّ إلى أحدٍ، فإنّه إن كان عدوًّا سرّه ، و إن كان صديقا ساءه ، وليست مسرّة العدوّ ولا مساءة الصديق بمحمودة .

سمع الأحنف رجلاً يقول : لم أنم الليلة من وجع ضِرْسى ؛ فجعل يكثر ، فقال : ياهذا لِمَ تـكثر ؟ فوالله لقد ذهبتْ عينى منذ ثلاثين سنة فما شـكوت ذلك إلى أحد ، ولا أعلمت بها أحدا .

الفصل الثالث فى حفظ اللسان : قد تقدّم لنا قول شافٍ فى ذلك ، وكان يقال : حفظ اللسان راحة الإنسان ، وكان يقال : ربّ كلمة سفـكت دماً ، وأورثت ندما .

وفى الأمثال العاميَّة ، قال اللسان للرأس : كيف أنت ؟ قال : بخير لو تركتَنى .

وفى وصية المهلّب لولده ، يا بَنِىّ تباذلوا تحابُّوا ، فإن بنى الأعيان يختلفون فـكيف ببنى العَلاّت ، إنّ البرّ ينسأُ فى الأجل ، ويزيد فى العدد ، وإنّ القطيعة تورِث القلّة ، وتعقب

النار بعد الذلّة . اتقوا زلة اللسان فإن الرجل تَزِلّ رجله فينتعِش ، ويزلّ لسانه فيهلك ، وعليكم فى الحرْب بالمكيدة ، فإنها أبلغ من النجْدة ، وإن القتال إذا وقع وقع القضاء ، فإن ظفر الرجل ذو الكيد والحزم سعد ، وإن ظُفِر به لم يقولوا : فرَّط .

وقال الشاعر فى هذا المعنى :

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموتُ المرء من عثرة الرجل

(٣)

الأَصْـلُ :

اَلْبُخْلُ عَارٌ ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حَاجَتِهِ ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول في البخل . وقد تقدّم لنا كلام مقنـع في ذلك .

ومن كلام بعض الحكماء في ذلك : ما أقلّ مَنْ يحمده الطالب ، وتستقلّ به العشائر ، ويرضى عنه السائل ،وما زالت أمّ الكرمَ نزُورا وأمّ اللؤم ذلولًا . وأكثر الواجدين مَنْ لا يجود ، وأكثر الأجواد من لا يَجِد .

وما أحسن قول القائل : كفى حزنًا أنّ الجواد مقتّر عليه، ولا معروف عند بخيل .

وكان يقال : البخل مهانة ، والجود مهابة .

ومن أحسن مانقل من جُود عبد الله المأمون أنّ عمر بن مسعدة كاتبه مات في سنة سبع عشرة ومائتين ، وخلّف تركة جليلة ، فبعث أخاه أبا إسحاق المعتصم وجماعة معه من الكتّاب ليحصروا مبلغها ، فجاء المعتصم إليه وهو في مجلس الخلافة ، ومعه الكتّاب، فقال: ما رأيتم ؟ فقال المعتصم معظّما لما رآه : وجدنا عَيْنًا ، وصامتا ، وضياعا ، قيمة ذلك أجمع ثمانية آلاف ألف دينار ؛ ومدّ صوته ، فقال المأمون : إنّا لله ! والله ما كنت أرضاها

لتابع من أتباعه ليوفّر هـذا على مخالفيه ؛ فخجل المعتصم حتى ظهر خجله للحاضرين .

* * *

الفصل الثانى فى الجبن ، وقد تقدم قولنا فى فضل الشجاعة .

وقال هشام بن عبد الملك لمسلمة أخيه : ياأبا سعيد ، هل دخلك ذُعْر فى حرب قطّ شهدتَها ؟ قال : ماسلمت فى ذلك عن ذعر ينبّه على حيلة ، ولا غشيَنى ذعر سلَبنى رأيى ، فقال له هشام : هذه والله البَسالة ، قال أبو دُلَامة ــ وكان جَبانا :

إنّى أعوذ برَوْح أن يقـــدّمَنِي إلى القتال فتشقى بى بنو أسـدِ

إنّ المهلّب حُبَّ الموت أورثـكُمْ ولم أرث رغبةً فى الموت عن أحدِ

قال المنصور لأبى دُلامة فى حرب إبراهيم : تقدّم ويلك ! قال : ياأميرَ المؤمنين ؛ شهدت مع مَرْوان بن محمد أربعة عساكر كلّها انهزمت وكسرت ؛ وإنى أعيذك بالله أن يكون عسكرك الخامس .

* * *

الفصل الثالث فى الفقر . وقد تقدّم القول فيه أيضا .

ومثل قوله : « الفقر يخرس الفَطِن عن حاجته » قولُ الشاعر :

سأعْمِلُ نَصَّ العيس حتى يكفّنى غِنَى المال يوماً أو غنَى الحـدَثَانِ

فَلَلمَوْتُ خيرٌ من حياة يرى لها على الحرّ بالإقلال وَسْمُ هَوانِ

متَى يتكلّمْ يُلْغَ حُـكْمُ كلامِه وإن لم يقُلْ قالوا عـــديم بيانِ

كأن الغِنَى عن أهله بورِكَ الْغِنَى بغـــير لسان ناطقٌ بلسان

ومثل قوله عليه السلام : « والمقلّ غَريب فى بلدته » قول خَلَف الأحمر :

لا تظنّى أنّ الغريب هو النّا ئِى ولـكنّما الغريب المقـــلُّ

وكان يقال : مالُك نورُك ، فإن أردت أن تنكسف ففرّقه وأتلفه .

قيل للإسكندر : لِمَ حفظت الفلاسفة المالَ مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا ؟ قال : لئلاّ تحوجهم الدّنيا إلى أن يقوموا مقاما لا يستحقونه .

وقال بعض الزّهاد : ابدأ برغيفيْك فاحزُزْهما ثم تعبّد .

وقال الحسن عليه السلام : مَنْ زعم أنّه لا يحبّ المال فهو عندى كاذِب ، فإن علمت صدقه فهو عندى أحمق .

الأصْلُ :

الْعَجْزُ آفَـةٌ ، والصَّبْرُ شَجاعَةٌ ، والزُّهْـدُ ثَرْوَةٌ ، والْوَرَعُ جُنَّةٌ ، ونِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَا .

* * *

الشَّـرْحُ :

فهذه فصول خمسة :

الفصل الأول : قوله عليه السلام « العجز آفة » ، وهذا حق لأن الآفة هى النقص أو ما أوجب النقص ، والعجز كذلك .

وكان يقال : العجز المفرط ترك التأهّب للمعاد .

وقالوا : العجز عجزان ، أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر ، والثانى الجدّ فى طلبه وقد فات .

وقالوا : العجز نائم ، والحزم يقظان .

* * *

الفصل الثانى فى الصبر والشجاعة : قد تقدّم قولنا فى الصبر .

وكان يقال : الصبر مرّ ، لا يتجرّعه إلا حرّ .

وكان يقال : إنّ للأزمان المحمودة والمذمومة أعماراً وآجالا كأعمار الناس وآجالهم ؛ فاصبروا لزمانِ السوء حتى يفنى عمره ، ويأتى أجله .

وكان يقال : إذا تضيّفتك نازلةٌ فاقرِها الصبر عليها، وأكرِم مثواها لديك بالتوكّل

والاحتساب لترحل عنك ، وقد أبقتْ عليك أكثر مما سلَبَتْ منك ، ولا تنسَها عند رخائك ، فإنّ تذكُّرك لها أوقات الرّخاء يبعد السوء عن فعلك ، و ينفى القساوة عن قلبك و يوزعك حَمْد الله وتقواه .

***

الفصل الثالث : قوله : « والزهد ثروة » ، وهذا حقّ ، لأن الثروة ما استغنى به الإنسان عن النّاس ، ولا غناء عنهم كالزّهد فى دنياهم ؛ فالزّهد على الحقيقة هو الغِنَى الأكبر .

وروى أنّ عليا عليه السلام قال لعمر بن الخطاب أوّل ما ولى الخلافة : إنْ سرّك أن تلحق بصاحبيك فقصّر الأمل ؛ وكُلْ دون الشِّبع ، وارقع القميص ، واخصف النّعْل ، واستغنِ عن الناس بفقرك تلحق بهما .

وقف ملك على سقراط وهو فى المشرفة قد أسند ظهره إلى جُبّ كان يأوى إليه ، فقال له : سل حاجتَك ، فقال : حاجتى أن تتنحّى عنى ، فقد منعنى ظلك المرفق بالشمس فسأله عن الجبّ ، قال : آوى إليه ، قال : فإن انكسر الجبّ لم ينكسر المكان .

وكان يقال : الزّهد فى الدنيا هو الزهد فى المحمدة والرياسة ، لا فى المطعم والمشرب ، وعند العارفين : الزهد تَرْك كل شىء يشغلك عن الله .

وكان يقال : العالم إذا لم يكن زاهدا لكان عقوبة لأهل زمانه ، لأنهم يقولون : لولا أنّ علمه لم يصوّب عنده الزهد لزَهِد ، فهم يقتدون بزهده فى الزهد .

***

الفصل الرابع : قوله : « والورعُ جُنّة » ؛ كان يقال : لا عصمة كعصمة الورع والعبادة ؛ أمّا الورع فيعصمك من المعاصى ، وأمّا العبادة فتعصمك من خصمك ؛ فإنّ عدوّك لو رآك قائما تصلّى وقد دخل ليقتلك لصدّ عنك وهابك .

وقال رجل من بنى هلال لبنيه : يا بَنِيّ أظهروا النُّسُك فإن الناس إن رأوْا مِنْ أحدٍ منكم بخلا ، قالوا : مقتصد لا يحبّ الإسراف ، وإن رأوْا عِيًّا ، قالوا : مُتوَقٍّ يكره الكلام، وإن رأوْا جُبْناً قالوا : متحرّج يكره الإقدام على الشبهات .

* * *

الفصل الخامس: قوله : « ونعم القرينُ الرضا » ، قد سبق منا قول مقنِــع فى الرضا .

وقال أبو عمرو بن العلاء : دفعت إلى أرض مجدبة بهـا نفرٌ من الأعراب ، فقلت لبعضهم : ما أرضـكم هذه ؟ قال : كما ترى ، لازرع ولا ضَرْع ، قلت : فـكيف تعيشون ؟ قالوا : نحترش[1] الضِّباب ، ونصيد الدّواب ، قلت : فـكيف صبركم على ذلك ؟ قالوا : يا هذا ، سلْ خالقَ الخلْق؛ هل سويت ؟ فقال : بل رضيتُ .

وكان يقال : مَنْ سخِط القضاء طاحَ ، ومن رضى به استراح .

وكان يقال : عليك بالرّضا ، ولو قُلّبْتَ على جَمْر الغَضا .

وفى الخـبر المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال عن الله تعالى : « من لم يرض بقضائى فليتخذ ربًّا سوائى » .

---

(١) فى اللسان : « حرش الضب يحرشه حرشاً،واحترشه وتحرشه وتحرش به : أتى قفا جحره فقعقع بعصاه عليه وأتلج طرفها فى جحره فإذا سمع الصوت حسبه دابة تريد أن تدخل عليه فجاء يزحل على رجليه وعجزه مقاتلا ويضرب بذنبه فناهزه الرجل فأخذ بذنبه فضبب عليه — أى شد القبض — فلم يقدر أن يفيصه — أى يفلت منه » .

(٥)

الأَصْلُ :

العِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ ، والآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ ، والْفِكْرُ مِرْآةٌ صافِيَةٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

إنما قال : « العلم وراثة » لأنّ كلّ عالم من البشر إنما يكتسب علمه من أستاذٍ يهذّبه وموقِّف يعلمه ؛ فكأنه ورث العلم عنه كما يرث الابنُ المال عن أبيه ، وقد سبق منا كلام شافٍ فى العلم والأدب .

وكان يقال : عطيّة العالم شبيهة بمواهب الله عزّ وجلّ ، لأنها لا تنفد عند الجود بها وتبقى بكمالها عند مفيدها .

وكان يقال : الفضائل العلميّة تشبه النخل ، بطىء الثمرة ، بعيد الفساد .

وكان يقال : ينبغى للعالم ألاّ يترفّع على الجاهل ، وأن يتطامَنَ له بمقدار ما رفعه الله عليه ، وينقله من الشكّ إلى اليقين ، ومن الحيرة إلى التبيين ، لأن مكافحته قسوة ، والصبر عليه وإرشاده سياسة .

ومثاله قول بعض الحكماء : الخيّر من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذى هو بالرحمة أحقّ منه بالغلظة ، ويعذره بنقصه فيما فرّط منه ولا يعذر نفسه فى التأخر عن هدايته .

وكان يقال : العلم فى الأرض بمنزلة الشمس فى الفَلَك ، لولا الشمس لأظلم الجوّ ، ولولا العلم لأظلم أهلُ الأرض .

وكان يقال : لا حُلّة أجمل من حلة الأدب ، لأنّ حُلل الثياب تبلى ، وحلل الأدب تبقى ، وحُلل الثياب قد يغتصبها الغاصب ، ويسرِقها السارق ، وحُلل الآداب باقية مع جوهر النفس .

وكان يقال : الفكرة الصحيحة إصطرلابٌ روحانى .

وقال أوس بن حجر يرثى :

إنّ الذى جَمَّع السَّماحة والنّـجْدَةَ والحزْم والنُّهَى جمعا (١)

الألمعىّ الذى يظن بك الظّـنَّ كأن قد رأى وقد سمعا

ومن كلام الحكماء : النار لا ينقصها ما أخذ منها ، ولكن يخمدُها ألاّ تجد حطباً ، وكذلك العلم لا يُفْنِيه الاقتباس ولكن فقد الحامِلين له سبب عدمه .

قيل لبعضهم : أىّ العلوم أفضل ؟ قال : ما العامّة فيه أزهد .

وقال أفلاطون : مَنْ جهل الشىء ولم يسأل عنه جمع على نفسه فضيحتين .

وكان يقال : ثلاثة لا تجربة معهن : أدب يزين ، ومجانبة الرّيبة ، وكف الأذى .

وكان يقال : عليكم بالأدب ؛ فإنه صاحبٌ فى السَفر ، ومؤنس فى الوحدة ، وجمال فى المحفِل ، وسبب إلى طلب الحاجة .

وكان عبد الملك أديبا فاضلا ، ولا يجالس إلا أديبا .

وروى الهيثم بن عدىّ عن مِسعر بن كدام ، قال : حدّثنى سعيد بن خالد الجَدَلىّ ،

---

(٢) ديوانه ٢٦

قال : لما قدم عبد الملك الكوفة بعد قتل مُصعب دَعا الناس يعرضهم على فرائضهم ، فحضرنا بين يديه ، فقال : من القوم ؟ قلنا : جَديلة ، فقال : جَديلةُ عَدْوان ؟ قلنا : نعم ، فأنشد :

عَذِيرَ الحيّ من عَدْوا ... نَ كانُوا حَيّة الأرْضِ [(١)]
بغىَ بعضُهمُ بعضاً ... فلم يرعَوا على بعضِ
ومنهم كانت السّادا ... تُ والموفُون بالقَرضِ
ومنهمْ حَكَمٌ يقضِى ... فلا يُنقَضُ ما يقضى
ومنهمْ مَنْ يجيز النّا ... س بالسّنّة والفرض

ثم أقبل على رجل منّا وسيم جَسِيم قدّمناه أمامنا ، فقال : أيّكم يقول هذا الشعر ؟ قال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : يقوله ذو الإصبع ، فتركنى وأقبل على ذلك الرّجل الجسيم ، فقال : ما كان اسم ذى الإصبع ؟ قال : لا أدرى ، فقلت أنا مِن خلفه : اسمه حُرثان ، فتركنى وأقبل عليه ، فقال له : ولِمَ سمّى ذَا الإصبع ؟ قال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : نهشتْه حيّة فى إصبعه ، فأقبل عليه وتركنى ، فقال مِن أيّكم كان ؟ فقال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : من بنى تاج الذّين يقول الشاعر فيهم :

فأمّا بنو تاج فلا تذكرنّهُمْ ... ولا تتبعنْ عيناكَ مَنْ كان هالكا

فأقبل على الجسيم ، فقال : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة درهم ، فأقبل علىّ ، وقال : وكم عطاؤك أنت ؟ قلت : أربعمائة ، فقال : يا أبا الزّعيزعة ، حطّ من عطاء هذا ثلثمائة ، وزدْها فى عطاء هذا ، فرحت وعطائى سبعمائة وعطاؤه أربعمائة [(٢)] .

وأنشد منشد بحضرة الواثق هارون بن المعتصم :

---

(١) يقال للرجل الصعب المنيع : حية الأرض .
(٢) الخبر فى الأغانى ٣ : ٩١ — ٩٢

أظلومُ أنَّ مُصابكم رَجُلًا أهدى السَّلام تحيةً ظُلْمُ[١]

فقال شخص : رجل هو خبر «إنّ» ، ووافقه على ذلك قوم وخالفه آخرون ، فقال الواثق : من بقَى من علماء النحويين ؟ قالوا : أبو عثمان المازنى بالبصرة ، فأمر بإشخاصه إلى سُرَّ مَنْ رأى بعد إزاحة علّته ، قال أبو عثمان : فأشخصت ، فلما أدخلت عليه قال : ممّن الرجل ؟ قلت : من مازن ، قال : من مازن تميم ، أم من مازن ربيعة ، أم مازن قيس ، أم مازن اليمن ؟ قلت : مِنْ مازن ربيعة ، قال : باسمك ؟ بالباء ؟ يريد : « ما اسمك » لأنّ لغة مازن ربيعة هكذا ، يبدلون الميم باء والباء ميا ، فقلت : مكر أى «بكر» ، فضحك وقال : اجلس ، واطمئنّ ، فجلست فسألنى عن البيت فأنشدته منصوبًا ، فقال : فأين خبر إنّ ؟ فقلت : «ظلم» قال : كيف هذا ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ألا ترى أنّ البيت إن لم يجعل « ظلم » خبر «إنّ» يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة ، فلما كررت القول عليه فهم ، وقال : قبح الله من لا أدب له ، ثم قال : ألك ولدٌ ؟ قلت : بنيّة ، قال : فما قالت لكَ حين ودّعتها ؟ قلت : ما قالت بنت الأعشى :

تقولُ ابنتِي حين جَدّ الرّحِيلُ أرانا سواءً ومن قد يَتِمْ[٢]

أبانا فلا رِمْتَ مِنْ عندنا فإنّا بخيرٍ إذا لم تَرِمْ

أبانا إذا أضمرتك البلا د نُجْفَى وتُقْطع منّا الرحِمْ

قال : فما قلت لها ؟ قال : قلت : أنشدتها بيت جرير :

ثِقِي بالله ليس له شريكٌ ومِنْ عند الخليفة بالنجاحِ[٣]

فقال : ثق بالنجاح إن شاء الله تعالى ، ثم أمر لى بألف دينار وكسوة ، وردنى إلى البصرة[٤].

---

(١) نسبه ابن خلكان والحريرى فى درة الغواص ٤٣ إلى العرجى ، ونسبه البغدادى فى الخزانة ١ : ٣١٧ إلى الحارث بن خالد المخزومى

(٢) ديوانه ٣٣ (٣) ديوانه ٣٦

(٤) الخبر فى طبقات الزبيدى ٩٣ ، ٩٤

(٦)

الأصْلُ :

صَدْرُ ٱلْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ ، وَٱلْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ ، وَالاِحْتِمَالُ قَبْرُ ٱلْعُيُوبِ .
وَرُوِىَ أَنَّهُ قَالَ فِى ٱلْعِبَارَةِ عَنْ هذَا الْمَعْنَى أَيْضاً : الْمُسَالَمَةُ خَبْءُ ٱلْعُيُوبِ .

***

الشَّرْحُ :

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قولُه : « صدر العاقل صندوق سرِّه » ، قد ذكرنا فيما تقدم طرَفا صالحا فى كتمان السر .

وكان يقال: لا تُنكِحْ خاطبَ سرّك .

قال معاوية للنجّار العذرىّ : ابغِ لى محدّثا ، قال : معى ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم، أستريح منك إليه ، ومنه إليك ، وأجعلُه كتوما ، فإنّ الرجل إذا اتّخذ جليسا ألقى إليه عُجَره و بُجَره .

وقال بعض الأعراب : لا تضع سرّك عند من لا سرّ له عندك .

وقالوا : إذا كان سرّ الملك عند اثنين دخلت على الملك الشّبهة، واتّسعت على الرّجُلين المعاذير ؛ فإنْ عاقبهما عند شياعه ، عاقب اثنين بذنب واحد ، و إن اتّهمهما اتّهم بريئا

بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجّة عليه .

الفصل الثانى : قوله « البشاشة حبالة المودّة » ، قد قلنا فى البِشْر والبشاشة فيما سبق قولا مقنعا .

وكان يقال : البِشْر دالّ على السخاء من ممدوحك ، وعَلَى الوُدّ من صديقك دلالةَ النَّوْر على الثّمَر (١) .

وكان يقال : ثلاث تُبين لك الودّ فى صدر أخيك : تلقاه ببشرك ، وتبدؤه بالسّلام ، وتوسّع له فى المجلس .

وقال الشاعر :

لا تدخلنّك ضَجْرَةٌ من سائلٍ ... فلَخيرُ دهرِك أن تُرى مسئولاَ
لا تجبهنْ بالردّ وجهَ مؤمِّلٍ ... قد رام غيرُك أن يُرَى مأمولا
تلقَى الكريم فتستدلّ ببشرِه ... وترى العُبوس على اللئيم دليلاَ
واعلم بأنّك عن قليلٍ صائرٌ ... خبَرا فكن خبَرا يروق جميلا

وقال البحترىّ :

لو انّ كفّك لم تجُدْ لمؤمّلٍ ... لكفاه عاجلُ بِشرِكَ المتهلّلِ (٢)
ولو أن مجدَك لم يكن متقادماً ... أغناك آخرُ سُودَدٍ عن أوّلِ
أدركت مافات الكهول من الحجا ... مِن عُنْفوان شبابك المستقبِلِ
فإذا أَمرت فما يقال لك اتّئدْ ... وإذا حكمتَ فما يقال لك : اعدِلِ

الفصل الثالث : قوله : « الاحتمال قبر العيوب » ، أى إذا احتملت صاحبك وحلمت

---

(١) فى د : « دلالة النور على القمر » .
(٢) ديوانه ٢ : ٢١٨

عنه ستَرَ هذا الخلق الحسَن منك عيوبك ، كما يستر القبرُ الميّت ، وهذا مثل قولهم في الجود: كلّ عيبٍ فالكرمُ يغطّيه .

فأما الخبْء فمصدر خبأته أخبؤه ، والمعنى في الروايتين واحد ، وقد ذكرْنا في فضل الاحتمال والمسالمة فيما تقدّم أشياء صالحة .

ومن كلامه عليه السلام : وجدت الاحتمال أنصرَ لي من الرجال .

ومن كلامه : مَنْ سالم النّاس سلم منهم ، ومن حارب الناس حاربوه ؛ فإنّ العثرة للكاثر .

وكان يقال : العاقل خادم الأحمق أبدا ، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتقرّب إليه بدًّا ؛ وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكفاف شره بدًّا .

وأسمع رجل يزيدَ بن عمر بن هُبيرة فأعرض عنه ، فقال الرجل : إيّاك أعنى ، قال : وعنك أعرض .

وقال الشاعر :

إذا نطقَ السفيهُ فلا تجبْهُ ... فخيرٌ من إجابته السُّكوتُ

سكتّ عن السفيه فظنّ أني ... عَيِيتُ عن الجواب وما عَيِيتُ

(٧)

الأصلُ :

مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ ، والصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نَصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجِلِهِمْ .

***

الشرحُ :

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قوله « من رضى عن نفسه كثر الساخط عليه » . قال بعض الفضلاء لرجل كان يرضى عن نفسه ويدّعى التميّز على الناس بالعلم : عليك بقوم تروقهم بزبرجك ، وتروعهم بزخرفك ، فإنّك لا تعدَم عزًّا ، ولا تفقد غمرا ، لا يبلغ مسبارُهما غورَك ، ولا تستغرق أقدارُهما طورَك .

وقال الشاعر :

أرَى كلَّ إنسان يرَى عَيْبَ غيرِه ... ويعمَى عن العيب الّذى هوَ فيهِ

وما خيرُ مَنْ تخفَى عليه عيوبُه ... ويبدو له العيبُ الّذى بأخيهِ

وقال بعضهم : دخلت على ابن منارة وبين يديه كتاب قد صنّفه ، فقلت : ماهذا ؟ قال : كتاب عملته مدخَلاً إلى التّورية ، فقلت : إنّ الناس ينكرون هذا ، فلو قطعت الوقت بغيره[1] ! قال : النّاس جُهّال ، قلت : وأنتَ ضدّهم ؟ قال : نعم ، قلت : فينبغى أن

(١) فى د : « بغير هذا » .

يكون ضدُّهم جاهلاً عندهم ، قال : كذاك هو ! قلت : فقد بقيتَ أنت جاهلا بإجماع الناس ، والناس جهّال بقولك وحدَك . ومثل هذا المعنى قول الشاعر :

إذا كنتَ تقضى أنّ عقلك كاملٌ ... وأنّ بنى حَوّاء غيرَك جاهلُ

وأن مفيضَ العلم صدرُك كلّه ... فمن ذا الذِى يدرِى بأنّك عاقل !

* * *

الفصل الثانى : قوله : « الصدقة دواء منجح » ، قد جاء فى الصّدقة فضل كثير وذكرنا بعض ذلك فيما تقدم . وفى الحديث المرفوع : « تاجروا الله بالصدقة تربحوا » . وقيل : الصدقة صَدَاق الجنّة .

وقيل للشِّبلىّ : مايجب فى مائتى درهم ؟ فقال : أمّا من جهة الشَّرْع فخمسة دراهم وأما من جهة الإخلاص فالكُلّ .

وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله أنه سئل فقيل : أىّ الصدقة أفضل ؟ فقال : أن تعطىَ وأنت صحيح شحيح ، تأمُل البقاء ، وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغتِ الحلقومَ قلت : لفلان كذا ولفلان كذا .

ومثل قوله عليه السلام « الصدقة دواء منجح » ، قول النّبىّ صلى الله عليه وآله : « داووا مَرْضاكم بالصدقة » .

* * *

الفصل الثالث : قوله : « أعمال العباد فى عاجلهم نصبَ أعينهم فى آجِلِهم » هذا من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ

لَوْ أَنَّ بينَها وَبينَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾[١]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرَّةٍ شَرًّا يرَهُ﴾[٢].

ومن كلام بعضهم: إنما تَقَـدم على ما قدّمت ، ولست تقدم على ما تركت ؛ فآثر ما تلقاه غدا على ما لا تراه أبدا .

ومن حكمة أفلاطون : اكتم حسنَ صنيعك عن أعين البَشَر ؛ فإنّ له ممن بيده ملكوت السماء أعيناً ترمُقه فتجازِى عليه .

---

(١) سورة آل عمران ٣٠ (٢) سورة الزلزلة ٧ ، ٨

(٨)

الأَصْلُ :

اعْجَبُوا لِهَذَا الإنْسانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ ، ويَتَكَلَّمُ بلَحْمٍ ، ويَسْمَعُ بِعَظْمٍ ، ويَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ .

***

الشَّرْحُ :

هذا كلام محمول بعضه على ظاهره ، لما تدعو إليه الضّرورة من مخاطبة العامّة بما يفهمونه ، والعدول عمّا لا تقبله عقولهم ، ولا تَعِيهِ قلوبُهم .

أما الإبصار ؛ فقد اختلف فيه ، فقيل : إنه بخروج شعاع من العين يتّصل بالمرئى . وقيل : إن القوة المبصرة التى فى العين تلاقى بذاتها المرئيات فتبصرها . وقال قوم : بل بتكيف الهواء بالشعاع البصرىّ من غير خروج فيصير الهواء باعتبار تكيّفه بالشّعاع به آلة العين فى الإدراك .

وقال المحقّقون من الحكماء : إنّ الإدراك البَصرِىّ هو بانطباع أشباح المرئيات فى الرطوبة الجلْديّة من العين عند توسط الهواء الشفاف المضىء ، كما تنطبع الصورة فى المرآة . قالوا : ولو كانت المرآة ذات قوّة مبصرة لأدركت الصُّوَر المنطبعة فيها . وعلى جميع الأقوال فلا بدّ من إثبات القوة المبصرة فى الرطوبة الجلْدية ، وإلى الرطوبة الجلدية وقعت إشارته عليه السلام بقوله : « ينظر بشَحْم » .

وأما الكلام فمحلّه اللسان عند قوم . وقال قوم : ليس اللّسان آلة ضرورية فى الكلام لأنّ من يقطع لسانه من أصله يتكلّم ، وأما إذا قطع رأسه لم يتكلّم . قالوا : وإنما الكلام

باللَّهوات ، وعلى كلا القولين فلا بدّ أن تكون آلة الكلام لحما ، وإليه وقعت إشارة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وليس هذه البنية المخصوصة شرطا فى الكلام على الإطلاق لجواز وجوده فى الشَّجَر والجماد عند أصحابنا ؛ وإنما هى شرط فى كلام الإنسان ، ولذا قال أمير المؤمنين : « اعجبوا لهذا الإنسان » .

فأما السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق ، وإنما هو بالقوّة المودَعة فى العصب المفروش فى الصّماخ كالغشاء ، فإذا حمل الهواء الصوت ودخل فى ثُقْب الأذن المنتهى إلى الصِّماخ بعد تعويجات فيه جعلت لتجرى مجرى اليراعة المصوتة ، وأفضى ذلك الصوت إلى ذلك العصَب الحامل للقوّة السامعة حصل الإدراك . وبالجملة فلا بدّ من عَظْم لأنّ الحامل اللحم والعَصَب إنما هو العظْم .

وأما التَّنفُّس فلا ريبَ أنه من خَرْم ؛ لأنه من الأنف ، وإن كان قد يمكن لو سدّ الأنف أن يتنفس الإنسان من الفم وهو خَرْم أيضاً ، والحاجة إلى التنفس إخراج الهواء الحارّ عن القلْب وإدخال النّسيم البارد إليه ، فجعلت الرئة كالمرْوحة تنبسط وتنقبض ، فيدخل الهواء بها ويخرج من قَصَبتها النافذة إلى المنخرين .

(٩)

الأصْـلُ :

إذا أَقْبَلَتِ الدُّنْيا على قَوْمٍ أعارَتْهُمْ مَحاسِنَ غَيْرِهِمْ ، و إذا أدْبَرَتْ عَنْهُمْ سَلَبَتْهُمْ مَحاسِنَ أنفُسِهِمْ .

* * *

الشَّـرْحُ :

كان الرّشيد أيّام كان حسنَ الرأْى فى جعفر بن يحيى ، يحلف بالله أنّ جعفرا أفصحُ من قُسِّ بن ساعدة ، وأشجعُ من عامر بن الطفَيل ، وأكتبُ من عبد الحميد بن يحيى ، وأسْوَس من عمر بن الخطاب ، وأحسنُ من مُصعب بن الزبير ـ وكان جعفر ليس بحَسَن الصورة ، وكان طويل الوجْه جدا ـ وأنْصح له من الحجاج لعبد الملك ، وأسمَحُ من عبد الله ابن جعفر ، وأعفّ من يوسف بن يعقوب ؛ فلما تغيّر رأيه فيه أنكر محاسنه الحقيقية التى لا يختلف اثنان أنها فيه ، نحو كياسته وسماحته . ولم يكن أحد يجسرُ أن يردّ على جعفر قولا ولا رأيا ، فيقال : إنّ أوّل ما ظهر من تغيّر الرشيد له أنه كلم الفضل بن الربيع بشىء فردّه عليه الفضل ، ولم تجرِ عادته من قبل أن يفتح فاه فى وجهه ، فأنكر سليمان بن أبى جعفر ذلك على الفَضْل ، فغضب الرشيد لإنكار سليمان ، وقال : ما دخولك بين أخى ومولاى ؛ كالرّاضى بما كان من الفضل، ثم تكلّم جعفر بشىء قاله للفضل ، فقال الفضل : اشهد عليه يا أمير المؤمنين ، فقال جعفر : فضّ الله فاك يا جاهل ! إذا كان أمير المؤمنين الشاهد، فمن الحاكم المشهود عنده ؟ فضحك الرشيد ، وقال : يا فَضْل، لا تمارِ جعفرا ؛ فإنك لا تقع منه موقعا .

واعلم أنا قد وجدنا تصديق ما قاله عليه السلام فى العلوم والفضائل والخصائص النفسانية ، دَعْ حديث الدنيا والسلطان والرياسة ، فإن المحظوظ من علم أو من فضيلة تضاف إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفنّ ؛ مثاله حظّ علىّ عليه السلام من الشجاعة ، ومن الأمثال الحكْميّة قلّ أن ترى مثلا شاردا أو كلمة حكمية إلا وتضيفها الناس إليه ، وكذلك ما يدّعى العامة له من الشجاعة وقتل الأبطال حتى يقال : إنه حمل على سبعين ألفا فهزمهم ، وقتل الجنّ فى البئر ، وفتل الطوق الحديد فى عُنق خالد بن الوليد . وكذلك حظّ عنترة بن شداد فى الشجاعة ، يُذْكَر له من الأخبار ما لم يكن ، وكذلك ما اشتهر به أبو نُواس فى وصف الخمر ، يضاف إليه من الشعر فى هذا الفنّ ما لم يكن قاله ، وكذلك جود حاتم وعبد الله بن جعفر ونحو ذلك ؛ و بالعكس من لا حظّ له ينفى عنه ما هو حقيقة له ، فقد رأينا كثيرا من الشعر الجيّد يُنفَى عن قائله استحقارا له ، لأنه خامل الذكر ، و ينسب إلى غيره ، بل رأينا كتبا مصنَّفة فى فنون من العلوم خَمَل ذكر مصنِّفيها ونسبت إلى غيرهم من ذوى النّباهة والصِّيت ، وكل ذلك منسوب إلى الجدّ والإقبال .

الأصْلُ :

خالِطُوا النَّــــاسَ مُخالَطَةً إنْ مُتم مَعَها بَــكَوْا عَلَيْــكُمْ ، و إنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إلَيْــكُمْ .

* * *

الشَّــرْحُ :

وقد روى : « خَنُّوا » بالخاء المعجمة ، من الخنين ؛ وهو صوت يخرج من الأنف عند البكاء . و إلى تتعلق بمحذوف ، أى حنُّوا شوقاً إليــكم .

وقد ورد فى الأمر بإحسان العشرة مع الناس الــكثير الواسع ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما تقدم .

وفى الخبر المرفوع : «إذا وسعتم النّاس ببسط الوجوه ، وحسن الخلق ، وحسن الجوار ، فــكأنما وسعتموهم بالمال » .

وقال أبوالدرداء: إنّا لنهَشّ فى وجوه أقوام و إنّ قلو بنا لتَقلِيهم .

وقال محمد بن الفضل الهاشمى لأبيه : لِمَ تجلسُ إلى فلان وقد عرفت عداوته ؟ قال : أخْبِئُ نارا ؛ وأقدح عن ودّ .

وقال المهاجر بن عبد الله :

و إنى لأُقصى المرءَ من غير بغضةٍ وأدنى أخا البغضاء منّى على عَمدِ
ليُحدِث وُدًّا بعد بغضاء أو أرَى له مصرَعاً يُردِى به الله مَنْ يُردِى

وقال عِقال بن شبّة التميمىّ : كنتُ رِدْف أبى ، فلقيه جرير بن الخطَفَى على بَغلَة ،

فحيّاه أبي وألطفه ، فلمّا مضى قلت له : أبَعْدَ أن قال لنا ما قال ؟ قال : يابنيّ أفأوسّع جرحي!

وقال محمد بن الحنفيّة عليه السلام : قد يُدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه .

وقال الحسن عليه السلام : حُسْن السؤال نصف العلم ، ومداراة الناس نصف العقل ، والقصد في المعيشة نصف المؤونة .

ومدح ابن شهاب شاعراً فأعطاه ؛ وقال : إنّ من ابتغاء الخير اتّقاء الشرّ .

وقال الشاعر :

وأنزلني طولُ النّوى دار غربةٍ　　متى شئت لاقيتُ امرأ لا أشاكُلهْ

أخا ثقةٍ حتى يقال سجيّة　　ولو كان ذا عَقْل لكنت أعاقلُهْ

وفي الحديث المرفوع : « للمسلم على المسلم ستّ : يسلّم عليه إذا لقيَه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويُشَمّته إذا عطس ، ويعودُه إذا مرض ، ويحبّ له ما يحب لنفسه ، ويشيّع جنازته إذا مات » .

ووقف صلى الله عليه وآله على عجوز ، فجعل يسألها ويتحفّاها ، وقال : « إنّ حُسن العهد من الإيمان ، إنّها كانت تأتينا أيّامَ خديجة » .

(١١)

الأصل :

إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ ٱلْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ .

* * *

الشرح :

قد أخذت أنا هذا المعنى ، فقلت فى قطعة لى :

إنّ الأمانىّ أكسابُ الجهول فلَا — تقنعْ بها واركب الأهوالَ والخطَرا

واجعل من العقل جهلًا واطّرِح نظراً — فى الموبقاتِ ولا تستشعِرِ الحذَرا

وإن قدرتَ على الأعداء منتصرًا — فاشكر بعفوك عن أعدائك الظَّفَرا

وقد تقدّم لنا كلام طويل فى الحِلْم والصفح والعفو .

ونحن نذكر ها هنا زيادة على ذلك : شَجَر بين أبى مسلم وبين صاحب مَرْو كلامٌ أرْبَى فيه صاحب مَرْوَ عليه ، وأغلظ له فى القول ، فاحتمله أبو مسلم ، وندم صاحب مَرْو ، وقام بين يدىْ أبى مسلم معتذرًا ، وكان قال له فى جملة ما قال : يا لَقِيط ! فقال أبو مسلم : مَهْ ! لسان سبقَ ، ووهم أخطأ ، والغضب شيطان وأنا جرّأتُك علىّ باحتمالك قديما ؛ فإن كنتَ للذنب معتذرا ، فقد شاركتك فيه ، وإن كنت مغلوبا فالعفو يسعُك . فقال صاحب مَرْو : أيّها الأمير ، إنّ عظَم ذنبى يمنعنى من الهدوء . فقال أبو مسلم : ياعجبا ! أقابلك بإحسان ، وأنت مسىء ، ثم أقابلك بإساءة وأنت محسن ! فقال : الآن وثقت بعفوك .

وأذنب بعضُ كتّاب المأمون ذنباً ، وتقدّم إليه ليحتجّ لنفسه ، فقال : يا هذا ، قِفْ

مكانَك؛ فإنّما هو عُذْر أو يمين ، فقد وهبتهما لك ، وقد تكرّر منك ذلك ، فلا تزال تسيء ونحسن ، وتذنب ونغفر ؛ حتى يكون العفو هو الذى يصلحك !

وكان يقال : أحسن أفعال القادر العفو ، وأقبحها الانتقام .

وكان يقال : ظَفَر الكريم عفو ؛ وعفو[1] اللئيم عقوبة .

وكان يقال : ربّ ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به ، ولا يجاوز به حدّ الارتفاع إلى الإيقاع .

وكان يقال : ما عفا عن الذّنْب من قُرّع به .

ومن الحلم الذى يتضمن كِبْراً مستحسنا ؛ ما روى أنّ مُصعب بن الزبير لمّا ولى العراق عرض النّاس ليدفع إليهم أرزاقهم ، فنادى مناديه : أين عمرو بن جُرموز ؟ فقيل له : أيّها الأمير ؛ إنه أبعد فى الأرض ؛ قال : أوَ ظَنّ الأحمق أنى أقتله بأبى عبد الله ! قولوا له : فليظهر آمنا ، وليأخذ عطاءه مسلّما .

وأكثر رجل من سبّ الأحنف وهو لا يجيبه ، فقال الرّجل : ويلى عليه ! والله ما منعه من جوابى إلا هوانى عنده !

وقال لَقِيط بن زرارة :

فقل لبنِى سعدٍ ومالى ومالكمْ	ترقّون منّى ما استطعتم وأعتقُ
أغرّكُمُ أنّى بأحسنِ شيمة	بصير وأنّى بالفواحش أخرقُ !
وإنّك قد ساببْتَنِى فقهرتنِى	هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذَقُ

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدى لما ظفرَ به : إنّى قد شاورت فى أمرك ؛ فأُشير علىّ بقتلك ؛ إلّا أنى وجدت قدرَك فوق ذنبك ؛ فكرهت قتلك للازم حرمتك . فقال إبراهيم : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ المشير أشار بما تقتضيه السياسة ، وتوجبه العادة ؛ إلا أنّك أبيت أن

---

(١) من د : « وظفر » .

تطلب النّصر إلا من حيث عُوِّدته من العفو ؛ فإن قتلتَ فلك نظراء ؛ وإن عفوت فلا نظير لك . قال : قد عفوت ، فاذهب آمنا .

ضلّ الأعشى فى طريقه ، فأصبح بأبيات علقمة بن عُلاَثة ، فقال قائده ، وقد نظر إلى قباب الأَدَم : واسوء صباحاه يا أبا بصير ! هذه والله أبيات علقمة ؛ فخرج فتيان الحىّ ، فقبضوا على الأعشى ، فأتوا به علقمة ، فمَثَل بين يديه ، فقال : الحمد لله الذى أظفرنِى بك من غير ذمّة ولا عَقْد ؛ قال الأعشى : أو تدرى لم ذلك جُعلت فداك ! قال : نعم ، لأنتقم اليوم منك بتقوالك علىّ الباطل مع إحسانى إليك ؛ قال: لا والله ، ولكن أظفرك الله بى ليبلُوَ قَدْرَ حلمكِ فىّ . فأطرَقَ علقمة ، فاندفع الأعشى فقال :

أعَلْقَمَ قد صَيَّرتْنى الأمورُ ... إليْكَ وما كان بى مَنْكَصُ[1]

كساكُمْ عُلاثة أثوابَهُ ... وورّثكم حِلْمَه الأحوصُ

فهبْ لىَ نفسى فدتك النُّفُوسُ ... فلا زلت تَنمِى ولا تنقصُ

فقال : قد فعلت ؛ أما والله لو قلت فىّ بعض ما قلتَه فى عامر بن عمر ، لأغنيتك طول حياتك ، ولو قلت فى عامر بعض ما قلته فىّ ما أذاقك بَرْد الحياة .

قال معاوية لخالد بن مَعمر السّدوسىّ . على ماذا أحببت عليًّا ؟ قال : على ثلاث : حلمه إذا غضب ، وصدقه إذا قال ، ووفاؤه إذا وَعَد .

---

(١) ديوانه ٢٣١

(١٢)

الأصلُ :

أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ .

* * *

الشَّرحُ :

قد ذكرنا قطعة صالحة من الإخوانيات فيما تقدم . وفى الحديث المرفوع أنّ النبى صلى الله عليه وآله بكَى لما قتِل جعفر بمؤتة ، وقال : « المرء كثير بأخيه » .

وقال جعفر بن محمد عليه السلام : لكلّ شيء حِلْيَة وحِلْيَةُ الرجل أودّاؤه .

وأنشد ابن الأعرابىّ :

لَعَمْرُكَ مامالُ الفتى بذخيرةٍ ... ولكنّ إخوان الصّفاء الذخائرُ

وكان أبو أيّوب السّختيانىّ [1] يقول : إذا بلغنى موت أخ كان لى ؛ فكأنما سقط عضوٌ منى .

وكان يقال : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنَى عنه ، وطبقة كالدّواء يُحتاج إليه عند المرض ، وطبقة كالداء لا يُحتاج إليه أبدا .

وكان يقال : صاحبك كرقعة فى قميصِك ، فانظر بما ترقع قميصك !

---

(١) ب : « السجستانى » ، والصواب ما أثبته من ا

وكان يونس بن عبيد يقول : اثنان مافى الأرض أقلّ منهما ، ولا يزدادان إلّا قلة : درهم يوضع فى حقّ ، وأخ يُسكَن إليه فى الله .

وقال الشاعر :

أخاكَ أخاكَ إنّ مَنْ لا أخالَهُ   كساعٍ إلى الهيجاَ بغير سلاحِ
وإنّ ابن عمّ المرء فاعلم جناحُهُ   وهلْ ينهض البازِى بغير جناح !

وقال آخر :

ولن تنفكّ تُحسَد أو تُعادَى   فأكثِرْ ما استطعت من الصّديقِ
وبغضك[1] للتقىّ أقل ضُرًّا   وأسلمُ من مودّة ذى الفسوقِ[1]

وأوصى بعضهم ابنَه ، فقال: يا بُنىّ إذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرّجال فاصحب مَن إذا صحبته زانك ، وإن خدمتَه صانك ، وإن عرضت لك مؤْنة أعانك ؛ وإن قلت صدّق قولك ، وإنْ صُلْتَ شدّ صوْلك ؛ وإنمددت يدك لأمر مدّها ، وإن بدت لك[2] عوْرة سدّها ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن سألتَه أعطاك ، وإن سكتّ ابتداك ، وإن نزلتْ بك ملمّة واساك ؛ من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تحتار[3] عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق .

ومن الشعر المنسوب إلى على عليه السلام :

إنّ أخاكَ الحقّ مَنْ كان معكْ   ومن يضرّ نفسه لينفعكْ
ومن إذا ريب الزّمان صدَعَكْ   شتّت فيك شملَه ليَجْمَعَكْ

---

(١) فى د « وبغضاء التقى » وهو وجه أيضا .   (٢) ا : « عنك » .
(٣) فى د « ولا تختلف » .

ومن الشعر المنسوب إليه عليه السلام أيضاً :

أخوكَ الّذى إن أجرضَتْكَ ملمّةٌ　　من الدّهر لم يبرح لها الدّهْر واجمَا

وليس أخوكَ بالّذى إن تشعَّبتْ　　عليكَ أمور ظَلّ يلحَاكَ لائما

وقال بعض الحكماء : ينبغى للإنسان أن يوكِّل بنفسه كالئين : أحدهما يكلؤه من أمامه ، والآخر يكلَؤه من ورائه ؛ وهما عقله الصحيح ، وأخوه النصيح ؛ فإن عقله و إن صحّ فلن يبصّره من عيبه إلا بمقدار ما يرى الرجل من وجهه فى المرآة ، و يخفى عليه ما خلفه ، وأما أخوه النصيح فيبصّره ما خلفه وما أمامه أيضاً .

وكتب ظريف إلى صديق له : إنى غير محمود على الانقياد إليك ، لأنّى صادقتك من جوهر نفسى ، والنفس يتبع بعضها بعضا .

وفى الحديث المرفوع : « إذا أحبّ أحدكم أخاه فليعلّمه » .

وقال الأحنف : خير الإخوان من إذا استغنيتَ عنه لم يزدْكَ وُدًّا ، و إن احتجت إليه لم ينقصْك .

وقال أعشى باهلة يرثى المنتشر بن وهب :

إمّا سَلَكْت سبيلًا كنتَ سالكها　　فاذهبْ فلا يَبْعَدَنْكَ الله منتشرُ[1]

مَنْ ليس فى خيره شرٌّ ينكّده　　على الصّديق ولا فى صفوِهِ كَدَرُ

وقال آخر يرثى صديقاً له :

أخٌ طالمَا سَرّنِى ذكرُه　　وأصبحت أشجى لدى ذكرِهِ

وقد كنتُ أغدُو إلى قصرِه　　فأصبحْتُ أغدو إلى قبرِهِ

وكنتُ أرانى غنيًّا بِهِ　　عن النّاس لو مُدّ فى عمرِهِ

إذا جئتُه طالبا حاجةً　　فأمرِى يجوزُ على أمره

رأى بعض الحكماء مصطحبيْن لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل : صديقان ، قال : فما بال أحدهما غنيا والآخر فقيرا ! .

(١) الكامل ٤ : ٦٦

(١٣)

وقال عليه السلام فى الذين اعتزلوا القتال معه :

خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ .

* * *

الشرح

قد سبق ذكر هؤلاء القوم فيما تقدّم ، وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل ، وأسامة بن زيد ، ومحمد بن مسلمة ، وأنس بن مالك ؛ وجماعة غيرهم .

وقد ذكر شيخنا أبو الحسين فى ''الغرر'' أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لما دعاهم إلى القتال معه . واعتذروا بما اعتذروا به ، قال لهم : أتنكرون هذه البيعة ؟ قالوا : لا ، لكنّا لا نقاتل؛ فقال : إذا بايعتم فقد قاتلتم ؛ قال: فسلموا بذلك من الذّم ؛ لأن إمامهم رضىَ عنهم .

ومعنى قوله : «خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل» ، أى خذلونى ولم يحاربوا معى معاوية ؛ وبعض أصحابنا البغداديين يتوقف فى هؤلاء ، وإلى هذا القول يميل شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ .

الأصْلُ :

إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاها بِقِلَّةِ الشُّكْرِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سبق القول فى الشكر ، ونحن نذكر هاهنا زيادة على ذلك .

قال بعضهم : ما شيّبتنى السّنون ، بل شكرى مَنْ احتاج أن أشكره .

وقالوا : العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى .

وقالوا : من سعادة المرء أن يضع معروفه عند من يشكره .

ومن جيّد ما قيل فى الشكر قول أبى نواس :

قدْ قلتُ للعبّاس معتذرا ... من ضعف شُكْرِيه ومعترفا[1]

أنت امرؤٌ حَمّلتَنِي نعماً[2] ... أوْهَتْ قوى شكرِى فقد ضعفا

فإليك منّى اليوم معذرةٌ[3] ... جاءتك بالتّصريح منكشِفا

لا تُسْدِيَنّ إلىّ عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقال البحترىّ :

فإن أنا لم أشكر لنعماك جاهداً ... فلا نلتُ نُعْمَى بعدها توجب الشُّكْرا[4]

---

(١) ديوانه ٧١ (٢) الديوان : « جللتنى » .

(٣) الديوان : « قبل اليوم تقدمة » .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٦

وقال أيضاً :

سأجهدُ في شكرِي لنعماك إنّني ... أرَى الكُفْر للنّعماء ضربا من الكفر

وقال ابن أبي طاهر :

شكرت عليّا برّه وبلاءه ... فقصّر بي شُكْري وإني لجاهدُ

وما أنا من شكرِي عليًّا بواحدٍ ... ولكنّه في الفَضْلِ والجودِ واحدُ

وقال أبو الفتح البستي :

لا تظنّن بي وبِرُّكَ حَيٌّ ... أنّ شكري وشكرَ غيرِي مَواتُ

أنا أرضٌ وراحتاك سحابٌ ... والأيادي وبلٌ وشكري نَباتُ

وقال أيضاً :

وخرّ لما أوليت شكريَ ساجدا ... ومثلُ الذي أوليت يعبدُه الشكرُ

البحتريّ :

أراك بعين المكتسي ورق الغِنَى ... بآلائك اللّاتِي يعدّدها الشُّكرُ

ويعجبني فقرِي إليك ولم يكُنْ ... ليعجبَني لولا محبّتُك الفقْرُ

آخر :

بدأتَ بمعروفٍ وثنّيت بالرضا ... وثلّثت بالحُسنى وربّعت بالكرَمْ

وباشرتَ أمرِي واعتنيتَ بحاجتي ... وأخّرت لا عَنّي وقدّمت لي نعَمْ

وصدّقت لي ظني ، وأنجزتَ موعدي ... وطبتَ به نفساً ولم تتبع النَّدَمْ

فإن نحن كافأنا بشكرٍ فواجب ... وإن نحنُ قصّرنا فما الودّ متّهَمْ

(١٥)

الأَصْلُ :

مَنْ ضَيَّعَهُ ٱلْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ ٱلْأَبْعَدُ .

* * *

الشَّرْحُ :

إنّ الإنسان قد ينصره مَنْ لا يرجو نصره وإن أهمله أقربوه وخذلوه ، فقد تقوم به الأجانب من الناس ، وقد وجدنا ذلك فى حقّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ضيّعه أهلُه ورهطه من قريش وخذلوه ، وتمالئوا عليه ، فقام بنصره الأوس والخزرج ، وهم أبعد الناس نسباً منه ، لأنه من عدنان وهم من قحطان ، وكلّ واحد من الفريقين لا يحبّ الآخر حتى تحبّ الأرض الدم . وقامت ربيعة بنصر علىّ عليه السلام فى صِفّين ، وهم أعداء مُضَر الذين هم أهله ورهطه ، وقامت اليمن بنصر معاوية فى صِفّين ، وهم أعداء مُضَر ، وقامت الُخراسانية وهم عَجَم بنصر الدولة العباسية ، وهى دولة العرب . وإذا تأملت السير وجدت هذا كثيرا شائعا .

(١٦)

الأصلُ :

مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ .

***

الشرحُ :

هذه الكلمة قالها علىٌّ عليه السلام لسعد بنِ أبى وَقّاص ومحمّدِ بنِ مَسلَمَةَ وعبدِ الله ابنِ عمرَ لمّا امتنعوا من الخروج معه لحرب أصحابِ الجَمَل ، ونظيرُها أو قريبٌ منها قولُ أبى الطيّب :

فَما كلُّ فعّالٍ يُجازَى بفِعلِهِ ... ولا كلُّ قَوّال لدىَّ يُجابُ
ورُبَّ كلامٍ مَرّ فوق مَسامِعى ... كما طَنَّ فى لَوْح الهَجير ذُبابُ

الأصل :

تَذِلُّ الْأُمورُ لِلْمَقَادِيرِ ، حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ .

* * *

الشرح :

إذا تأمّلتَ أحوالَ العالَمِ وجدت صِدقَ هـذه الكلمة ظاهرا ، ولو شئنا أن نَذكُر الكثيرَ من ذلك لذكرْنا مايَحتاج فى تقييده بالكتابة إلى مِثْل حَجْم كِتابنا هذا ، ولكنّا نذكر لمحاً ونُكتاً وأطرافا ودُرَرا من القول .

فَرَش مروانُ بنُ محمّد وقد لقيَ عبدَ الله بنَ علىّ أنطاعا و بَسَط عليها المال ، وقال : مَنْ جاءنى برأسٍ فله مائةُ درهم ، فعَجزت الحَفَظة والحُرّاس عن حمايته ، واشتغلتْ طائفةٌ من الجُنْد بِنَهْبه ، وتهافَتَ الجيشُ عليه لينتهبوه ، فغشيَهم عبدُ الله بنُ علىّ بعساكره ، فقَتَل منهم مالا يُحصَى ، وهُزِم الباقون .

وكَسَرَ إبراهيمُ بنُ عبدِ الله بنِ الحسن بن الحسن جيشَ أبى جعفر المنصور بباخَمْرَى وأمرَ أصحابه باتّباعهم ، فحال بينهم و بين أصحاب أبى جعفر ماء ضَحْضاح ، فكَرِه إبراهيمُ وجيشُه خوضَ ذلك الماء ، وكان واسعا ، فأمَرَ صاحبَ لوائه أنْ يتعرّج باللّواء على مسنّاةٍ [1] كانت على ذلك الماء يابسة ، فسَلَكها صاحبُ اللّواء وهى تقضى بانعراج وانعكاس إلى الأرض اليبس ، فلمّا رأى عسكرُ أبى جعفر أنّ لواء القوم قد تراجَعَ

---

(١) المسناة : ضفيرة تبنى للسيل لترد الماء .

القَهقَرَى ظنّوهم منهزمين ، فعَطفوا عليهم ، فقتَلوا منهم مَقتلةً عظيمة،وجاء سَهمُ غربٍ[١] فأصابَ إبراهيمَ فقتَله .

وقد دبرتْ من قبلُ قريشٌ فى حماية العِير بأن نفرتْ على الصَّعب والذَّلول لِتدفَع رسولَ الله صلّى الله عليه وآله عن اللَّطيمة[٢] ، فكان هلاكُها فى تدبيرِها .

وكُسِرت الأنصارُ يومَ أُحُد بأن أخرَجت النبيّ صلى الله عليه وآله عن المدينة ظنًّا منها أن الظفرِ والنُّصْرة كانت بذلك ، وكان سببُ عَطَبها وظَفر قريشٍ بها ، ولو أقامت بين جُدْران المدينة لم تَظفرْ قريشٌ منها بشىء .

ودَبَّر أبو مسلم أمرَ الدّولة الهاشميّة ، وقام بها حتّى كان حَتْفُه فى تدبيره .

وكذلك جَرَى لأبى عبدِ الله المحتسِب مع عبدِ الله المهدىّ بالمغرب .

ودبّر أبو القاسم بن المسلمة رئيسُ الرؤساء فى إخراج البَساسِيرِىّ عن العراق حتّى كان هلاكُه على يدِه ، وكذلك أيضا انعكس عليه تدبيرُه فى إزالة الدّولة البُوَيْهِيّة من الدّولة السَّلْجوقيّة ظنًّا منه أنّه يَدفَع الشرَّ ، بغير الشّرّ فدَفَع الشرَّ بما هو شرٌّ منه .

وأمثالُ هذا ونظائرُه أكثرُ من أن تُحصَى .

---

(١) سهم غرب : لايدرى راميه

(٢) اللطيمة : قافلة تحمل العطور

الأصْلُ :

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلامُ عَنْ قَوْلِ الرَّسُول صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ : غَيِّرُوا الشَّيْبَ ، وَلاَ تَشَبَّهُوا بالْيَهُود ؛ فقالَ عليهِ السلامُ : إنّما قالَ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ ذلكَ والدِّينُ قُلٌّ ، فأَمَّا الآن وقَدِ اتَّسعَ نِطَاقُهُ ، وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ ، فامْرُؤٌ وما اختارَ .

* * *

الشَّرحُ :

اليهودُ لا تَخضِب ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله أمر أصحابه بالخِضابِ ليكونوا فى مَرْأى العين شَبابا فيَجْبنَ المشركون عنهم حال الحرْب ، فإنّ الشيخَ مَظِنّة الضَّعف .

قال علىٌّ عليه السلام : « كان ذلك والإسلامُ قُلّ » ، أى قليل ؛ وأمّا الآن وقد اتّسع نطاقُه وضَرَب بجِرانه فقد سَقط ذلك الأمرُ وصار الخضاب مُباحاً غيرَ مندوب .

والنِّطاق : ثوبٌ تلبَسه المرأةُ لبسةً مخصوصة ، ليس بصُدرةٍ ولا سراويلَ ، وسُمِّيتْ أسماء بنتُ أبى بكر ذات النِّطاقين لأنها قَطَعتْ من ثوبها ذلك قطعةً شدّت بها سُفرة لها حملها أبو بكر معه حين خرج من مكة مع النبيّ صلى الله عليه وآله يومَ الهِجْرة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : « لقد أبدَلها اللهُ بها نِطاقين فى الجنّة » ، وكان نفر الشام يُنادون عبد الله ابنها حين حَصَره الحجّاج بمكة يشتمونه كما زَعموا : يابن ذاتِ النِّطاقين ، فيضحك عبدُ الله منهم ، وقالِ لابن أبى عَتيق : ألا تسمع ! يظنّونه ذَمًّا ثم يقول :

* وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها (١) *

واستعارَ أميرُ المؤمنين عليه السلام هـذه اللفظة لسَعة رُقْعة الإسـلام ، وكذلك استعار قوله : « وضَرَب بجِرانه » ، أى أقام وثبت، وذلك لأن البعير إذا ضَرَب بجِرانه الأرض ـ وجِرانه مُقدَّم عنقِه ـ فقد استناخ وبرك ، وامرؤ مبتَدَأ ، وإن كان نـكرَةً ، كقولهم : « شرٌّ أهَرَّ ذا ناب » ، لحصول الفائدة ، والواو بمعنى « مع » ، وهى وما بعدها الخبر ، وما مصدريّة ، أى امرؤ مع اختياره .

* * *

[نبذ مما قيل فى الشيب والخضاب]

فأمّا القول فى الخِضاب فقد رَوَى قومٌ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بدا شيبٌ يسيرٌ فى لحيته ، فغيّره بالخِضاب ، خَضَب بالحِنّاء والكَتَم ، وقال قومٌ : لم يَشِبْ أصلا .

ورُوِى أنّ عائشة قالت : ما كان الله ليَشِينه بالشيب ، فقيل : أوَشَيْنٌ هو ياأمّ المؤمنين ! قالت : كلّكم يكرهه . وأما أبو بكر فصحّ الخبرُ عنه بذلك ، وكذلك أمير المؤمنين ، وقيل : إنه لم يخضب . وقُتِل الحسينُ عليه السلام يومَ الطَّفّ وهو مَخْضوب . وفى الحديث المرفوع رواهُ عقْبة بنُ عامر : « عليكم بالحِنّاء ، فإنه خِضاب الإسـلام ، إنه يصفّى البَصَر ويَذهِب بالصُّداع ، ويزيد فى الباه ، وإيّاكم والسواد ، فإنه من سَوّد ، سَوّد الله وجهه يومَ القيامة » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « عليكم بالخِضاب ، فإنه أهيَبُ لعـدوّكم وأعجَبُ إلى نسائِكم » .

---

(١) لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* وعيرها الواشون أنى أحبها *

ديوان الهذليين ١ : ٢١

ويقال فى أبواب الكناية للمختضِب ، هو يسوّد وجهه النذير ، لأنّ النذير الشّيب ؛ قيل فى قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ[1] ﴾ : إنه الشيب ؛ وكان عبدُ الرحمن بنُ الأسود أبيض الرأس واللّحية ، فأصبح ذات يوم وقد حمّرها ؛ وقال : إنّ عائشة أرسلتْ إلىّ البارحة جاريتها فأقسمتْ علىّ لأغيّرن ، وقالت : إنّ أبا بكر كان يَصْبغ .

وروَى قيسُ بن أبى حازم قال : كان أبو بكر يخرُج إلينا وكأنّ لحيته ضِرامُ عَرْفَج .

وعن أبى عامر الأنصارىّ : رأيتُ أبا بكر يغيّر بالحنّاء والكَتَم ، ورأيت عمر لا يغيّر شيئاً من شَيْبه ، وقال : إنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : من شاب شَيبةً فى الإسلام كانت له نوراً يومَ القيامة ، ولا أحبّ أن أغيّر نُورى .

وكان أنسُ بنُ مالك يخضِب ويُنشِد :

نُسوِّد أعلاها وتأبَى أصولُها ... وليس إلى رَدّ الشّباب سبيلُ

ورُوى أنّ عبد المطّلب وَفد على سيف بن ذى يزَن ، فقال له : لو خضبتَ ، فلما عاد إلى مكّة خضب ، فقالت له امرأته نُتَيْلة أمّ العبّاس وضرار : ما أحسنَ هذا الخِضاب لو دام ! فقال :

فلو دامَ لى هذ الخضابُ حَمِدْتُهُ ... وكان بَدِيلاً من خليلٍ قد انصَرَمْ

تمتعتُ منه والحياةُ قصيرةٌ ... ولا بد من موتٍ نُتيلة أو هَرَمْ

وموتٍ جهيزٍ عاجلٍ لا شَوَى له ... أحبُّ إلينا من مقالِكُمُ حَكَمْ

قال : يعنى أنّه صار شيخاً ، فصار حَكما بين الناس ، من قوله :

لا تَغبِط المرءَ أن يقال له ... أَضحى فلانٌ لسنّه حَكَما

---

(١) سورة فاطر ٣٥

وقال أسماءُ بنُ خارجةَ لجاريته : اخضِبيني ، فقالت حتى متى أرقِّعك ! فقال :

عيَّرتِني خَلَقـــا أبليتِ جِدّتَه   وهلْ رأيتِ جديداً لم يَعُد خَلَقاَ !

وأمّا من يَروِى أنّ عليّا عليه السلام ماخَضَب ، فيحتجّ بقوله ، وقد قيل له : لو غيّرتَ شيبَك يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : الخضاب زينة ، ونحن فى مصيبة - يعنى برسول الله صلّى الله عليه وآله .

وسُئِل الحسنُ عليه السلام عن الخضاب ، فقال : هو جزَعٌ قبيح . وقال محمودِ الورّاق:

يا خاضبَ الشّيب الّذى   فى كلِّ ثالثةٍ يَعودُ

إنّ الخضابَ إذا مَضَى   فـكأنه شَيبٌ جديدُ

فدَعِ المشيبَ وما يُرِيدُ   فلن تعودَ كما تُريدُ

وقد رَوَى قومٌ عن النّبىّ صلّى الله عليه وآله كَراهيةَ الخضاب ، وأنّه قال : لو استقبلتم الشيبَ بالتّواضع لـكان خيرا لـكم .

قال الشاعر :

وصَبغتُ ما صَبَغ الزمانُ فلم يَدُمْ   صَبْغى ودامت صِبْغة الأيّامِ

وقال آخر :

يأيّها الرجــلُ المغيّر شَيبَه   كيما تُعَــدّ به من الشّبّانِ

اقصِر فلو سوّدت كلّ حمامةٍ   بيضاءَ ما عُدّت مِن الغِرْبانِ

ويقولون فى ديوان عَرْض الجَيش ببَغْدادَ لمن يَخضِب إذا ذَكَروا حِليته : مستعار ، وهى كنايةٌ لطيفة . وأنا أستحِسن قول البُحْترىّ : خَضَبتُ بالمِقراض : كناية عن قَصّ الشعر الأبيض ، فجعل ذلك خِضابه عِوَضا عن الصّبغ ، والأبياتُ هذه :

لا بسٌ من شبيبةٍ أم ناضٍ   ومليحٌ من شيبةٍ أم راضٍ(١)

---

(١) ديوانه ٢ : ٧٢ ، من قصيدة يمدح فيها ابن الفياض

وإذا ما امتَعضتُ مِن وَلع الشَّيْـ ـب برأسى لم يَثْنِ ذاكَ امتِعاضى

ليس يَرضى عن الزّمان امرُؤٌ فيـ ـه إلّا عن غَفْلَةٍ أو تَغاضِى

والبَواقِى مِن اللّيالى وإن خا لَفْنَ شيأً شَبيهةٌ بالمَواضِى[1]

وأبتْ تَزْكِى الغُدَيّاتِ والآ صالِ حتّى خَضبتُ بالمِقْراض

ودواءُ المَشيبِ كالبَخْصِ فى عَيْنِى فقل فيـه فى العيونِ المِراضِ

طال حُزْنى على الشّباب وما بَيَّضَ مِن لونِ صِبْغه الفَضْفاضِ

فهل الحـادِثاتُ يابنَ عُوَيْفٍ تارِكاتى ولُبسَ هـذا البَياضِ !

---

(١) الديوان : « فشبهات »

الأصْلُ :

مَنْ جرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ كثيرٌ فى الأمل ، ونذكر هاهنا زيادةً على ذلك :

قال الحسن عليه السلام : لو رأيتَ الأجلَ ومَسيرَه ، لنسيتَ الأملَ وغرورَه ، ويُقدِّر المقدِّرون والقضاء يَضحَك .

ورَوَى أبو سَعيد الخُدْرِىّ أنّ أسامةَ بنَ زيد اشتَرى وَليدةً بمائة دينار إلى شهر ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : ألا تَعجَبون من أُسامةَ يَشترِى إلى شَهْر ! إنّ أسامةَ لطويلُ الأَمَل .

أبو عثمان النَّهدىّ : قد بلغتُ نحوا من ثلاثين ومائةَ سنةٍ فما من شىء إلّا قد عرفتُ فيه النقصَ إلّا أَمَلى ، فإنّه كما كان .

قال الشاعر :

أَراكَ تَزيدُك الأيّامُ حِرْصاً ... على الدّنيا كأنّك لا تَموتُ
فهلْ لكَ غايةٌ إن صرتَ يوما ... إليها قلتَ حَسْبى قد رَضيتُ !

وقال آخر :

مَنْ تَمنّى المُنَى فأَغرَقَ فيها ... ماتَ من قبلِ أن ينالَ مُناهُ
ليس فى مالِ مَن تتابَع فى اللّذّاتِ فضلٌ عن نفسِه لِسواهُ

(٢٠)

الأصْـلُ :

أَقيلُوا ذَوِى المُرُوآتِ عَثَرَاتِهِمْ فَما يَعْثُرُ مِنْهُمْ عاثِرٌ إلّا و يَدُهُ بيَدِ اللهِ يَرْفَعهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

[ذكر نبذ مما قيل فى المروءة]

قد رُوِيَتْ هـذه الـكلمة مرفوعة ، ذكر ذلك ابنُ قُتيبة فى ''عيون الأخبار''
وأَحسَن ما قيل فى المُروءة قولُهم : اللّذه تركُ المروءة ، والمروءةُ تركُ اللّذة .

وفى الحديث أنّ رجلا قام إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقال : يا رسولَ الله ، ألستُ أفضلَ قومى ! فقال : إن كان لك عَقْل فلك فَضْل ، وإن كان لك خُلُق فلَكَ مُروءة ، وإن كان لك مال فلَكَ حَسَب ، وإن كان لك تُقًى فلك دِين .

وسئل الحسَن عن المروءة فقال : جاء فى الحديث المرفوع : « إنّ الله تعالى يحبّ معالىَ الأمورِ ويَـكرَه سَفْسافَها » .

وكان يقال : من مُروءة الرجلِ جلوسُه ببابِ داره .

وقال الحسن : لا دِين إلّا بمُروءة .

وقيل لابن هُبيرة : ما المُروءة ؟ فقال : إصلاحُ المال ، والرَّزانةُ فى المجلس ، والغَدَاء والعَشاء بالفِناء .

وجاء أيضا فى الحديث المرفوع : « حَسَبُ الرجُل مالُه ، وكَرَمُه دِينُه ، ومُرُوءته خُلُقه » . وكان يقال : ليس من المروءة كثرةُ الالتفات فى الطّريق .

ويقال : سُرعة المَشْى تذهب بمُروءة الرجل .

وقال معاوية لعمرو : ما ألذّ الأشياء ؟ قال : مُرْ فِتْيانَ قُرَيش أن يقوموا ؛ فلمّا قاموا قال : إسقاطُ المرُوءة .

وكان عُروةُ بنُ الزّبير يقول لبَنِيه . يابَنِيّ الْعَبوا ، فإنّ المروءة لا تكون إلّا بعد اللّعِب . وقيل للأحنف: ماالمرُوءة ؟ قال: العِفّة والحِرْفة ، تَعفّ عمّا حرّم الله ، وتحترَف فيما أحلَّ الله .

وقال محمّد بن عمران التيمىّ : لا أشدّ من المروءة ، وهى ألّا تعمل فى السرّ شيئا تَستحيِي منه فى العَلانيَة . وسئل النّظام عن المرُوءة ، فأنشد بيتَ زُهَير :

السترُ دونَ الفاحشـــاتِ ولا يَلقاكَ دُونَ الخيْرِ من سِتْرِ (١)

وقال عُمر : تعلموا العربيّة فإنّها تزيدُ فى المرُوءة ، وتعلّموا النَّسَبْ فرُبَّ رَحِمٍ مجهولةٍ قد وصلتْ به .

وقال ميمونُ بنُ مِهْران : أوّلُ المرُوءة طَلاقةُ الوَجْه ، والثانى التودُّد إلى النـاس ، والثالثُ قَضاء الحوائج .

وقال مَسلَمة بنُ عبدِ المَلِك : مُروءتان ظاهِرَتان : الرِّياش والفصاحة .

وكان يقال : تُعرَف مُروءةُ الرّجل بكثرة دُيونه .

وكان يقال : العقل يأمُرُك بالأنفع ، والمرُوءة تأمرك بالأجمَل .

(١) ديوانه ٩٥ .

لامَ معاويةُ يزيدَ ابنَه على سَماع الغِناء وحُبِّ القِيان ، وقال له : أَسقطْتَ مرُوءتَكَ ، فقال يزيد : أتــكلّم بلسانى كلمةً ! قال : نعم ، و بلسان أبى سفيانَ بن حَرْب وهند بنتِ عُتْبة مع لسانك ، قال : والله لقد حدّثنى عَمرو بنُ العاص ـ وأستَشهَد على ذلك ابنَه عبدَ الله ، بصدقه ـ أنَّ أباسفيانَ كان يَخلَع على المغنِّى الفاضل والمضاعف من ثِيابه ، ولقد حدّثنى أنّ جاريَتَىْ عبد الله بن جُدْعان غنّتاه يوما فأطرَبتاه ، فَجعَل يَخلع عليهما أثوابَه ثو با ثَوْبا حتّى تَجرَّد تجرُّد العَيْر ، ولقد كان هو وعفّان ابنُ أبى العاص ربّما حَملا جاريةَ العاص بن وائل على أعناقِهما ، فمرّا بها على الأبطح وجِلّة قريش ينظرون إليهما ؛ مرّة على ظهر أبيك ، ومرّةً على ظَهْر عَفّان ، فما الّذى تنكر منّى ! فقال معاوية : اسكُتْ لَحاكَ الله ! واللهِ ما أحدٌ أَلحَقَ بأبيك هذا إلا ليغُرّك و يَفضَحَك ، و إن كان أبو سفيان ماعلمت لَثقيلُ الحِلْم ، يَقْظان الرأى ، عازِبُ الهوَى ، طويلُ الأَناة ، بعيدُ القَعْر ، وما سوّدته قريشٌ إلّا لفَضْله .

الأصلُ :

قُرِنَتْ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ .

***

الشرحُ :

فى المَثَل : مَنْ أقْدَم لم يَنْدَم ، وقال الشاعر :

ليس للحاجات إلّا … من له وجهٌ وَقاحُ
ولسانٌ طِرْمِذِىٌّ (١) … وغُــدُوٌّ ورَواحُ
فعليه السعىُ فيهـــا … وعلى الله النّجاحُ

وكان يقال : الفرصة ما إذا حاولْتَه فأخطأك نفعُه لم يَصِلْ إليك ضرّه .

ومن كلام ابن المقفع : انتهز الفرصةَ فى إحراز المآثر ، واغتنِم الإمكان باصطناع الخير ، ولا تنتظِر ماتُعامل فتُجازِى عنه بمثله ، فإنّك إن عُوملتَ بمكروه واشتغلت برَصد المكافأة عنه قصّر العُمر بكَ عنْ اكتساب فائدة ، واقتناء مَنْقَبة ، وتصرّمَتْ أيّامُك بين تعدٍّ عليك ، وانتظارٍ للظّفَر بإدراك الثأرِ من خَصْمك ، ولا عيشةَ فى الحياة أكثرُ من ذلك .

كانت العربُ إذا أوفدَتْ وافدا قالت له : إيّاك والهَيْبة ؛ فإنها خَيْبة ؛ ولا تَبِتْ عند ذَنَب الأمر وبِتْ عند رأسه .

---

(١) طرمذى : يتمدح بما ليس فيه .

الأَصْـلُ :

لَنا حَقٌّ فإنْ أُعْطِيناهُ وإلاَّ رَكِبْنا أَعْجازَ الإبِلِ ، وإنْ طَالَ السُّرَى .

* * *

قالَ الرَّضِيُّ رَحِمهُ اللهُ تعالى : وهَـذَا الْقَولُ منْ لَطِيفِ الْـكلامِ وفَصِيحِهِ ، ومَعْناهُ أَنَّا إنْ لَمْ نُعْطَ حَقَّنا كُنَّا أَذِلاَّءَ ، وذلِكَ أَنَّ الرَّدِيفَ يرْكَبُ عَجُزَ الْبَعِيرِ ، كالْعَبْدِ والأَسِيرِ ومنْ يَجْرِى مَجْرَاها .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا الفصلُ قد ذكره أبو عبيد الهروىّ فى " الجمـع بين الغريبين " وصورته : إنّ لنا حقّا إن نعطَه نأخُذْه ، وإنْ نُمنَعه نركب أعجاز الإبل ، وإن طال السُّرَى . قال : قد فسرّوه على وجهين : أحدُهما أنّ راكبَ عَجزِ البعير يلحقه مشقة وضرر ، فأراد : أنّا إذا مُنِعْنا حَقَّنا صَبرنا على المَشقّة والمَضرّة ، كما يَصبر راكب عجُز البعير ؛ وهـذا التفسير قريبٌ مما فسّره الرضىّ . والوجه الثانى أنّ راكب عجزِ البعير إنما يكون إذا كان غيرُه قد رَكِب على ظَهْر البعير ، وراكبُ ظهر البعير متقدّم على راكب عَجزِ البعير ، فأراد أنّا إذا مُنِعْنا حَقَّنا تأخَّرْنا وتقدَّمَ غيرُنا علينا ، فـكُنّا كالراكب رَديفا لِغَيره ، وأكدّ المعنى على كلا التفسيرين[1] بقوله : « وإنْ طالَ السُّرَى » ، لأنه إذا طال السرى كانت المَشَقّة

(١) فى د : « التقديرين » .

على راكب عجُز البعير أعظم ، وكان الصبر على تأخّر راكب عجُزِ البعير عن الراكب على ظهره أشدّ وأصعب .

وهذا الكلام تزعم الإماميّة أنه قاله يومَ السَّقيفة أو فى تلك الأيام ، و يذهَب أصحابُنا إلى أنّه قاله يوم الشورى بعد وفاة عمر واجتماعِ الجماعةِ لاختيار واحد من الستّة ، وأكثر أرباب السِّير ينقُلونه على هذا الوجه .

الأصل :

مَنْ أَبْطَأَ به عَمَلُه ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ حَسَبُهُ .

***

الشرح :

هذا الكلام حَثٌّ وحَضٌّ وتحريض على العبادة ، وقد تقدّم أمثالُه[١] ، وسيأتى له نظائرُ كثيرة ، وهو مِثلُ قولِ النبيّ صلى الله عليه وآله : « يا فاطمة بنتَ محمّد ، إنى لا أُغنِي عنك من الله شيئاً ، يا عبّاس بنَ عبد المطلب ، إنى لا أُغنِي عَنكَ من الله شيئاً ، (إنّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم[٢]) .

---

(١) فى د « مثله »

(٢) سورة الحجرات ١٣

(٢٤)

الأصلُ :

مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوب العِظام إغاثَةَ المَلْهُوفِ ، والتَّنفِيسُ عَنِ المَكْرُوب .

***

الشَّرحُ :

قد جاء فى هذا المعنى آثارٌ كثيرة ، وأخبارٌ جميلة . كان العتّابىّ قد أَمْلَق ، فجاء فوقَف بباب المأمون يسترزق الله على يديه ، فوافى يَحيى بن أكثم ، فعرض له العتّابى ، فقال له : إن رأيتَ أيّها القاضى أن تُعلم أمير المؤمنين مَكانى فافعل ، فقال : لست بحاجب ؛ قال : قدعلمتُ ، ولكنك ذو فضل،وذو الفَضْل مِعوان ، فقال : سلكتَ بى غيرَ طريقى ؛ قال : إنّ الله أتحفَك منه بجاهٍ ونعمة ، وهو مقبل عليك بالزّيادة إن شكرتَ ، و بالتغيير إنْ كفرت ، وأنا لك اليوم خيرٌ منك لنفسك ، لأنّى أدْعوك إلى ما فيه ازدياد نعمتِك، وأنت تأبى علىّ ، ولكلّ شىء زكاة ، وزكاة الجاهِ رِفْد المستعين. فدخل يحيَى فأخبر المأمون به ، فأحضَره وحادثه ولاطَفه ووَصَله .

الأصلُ :

يابْنَ آدَم ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِـع عَلَيْكَ نِعَمَهُ وأَنْتَ تَعْصِيهِ فاحْـذَرْهُ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا الـكلام تخويف وتحذير من الاستدراج ؛ قال سبحانه : ﴿ سَنسْتَدْرِجُهُمْ من حيثُ لا يعلَمُون[1] ﴾ ؛ وذلك لأن العبد بغروره يعتقد أنّ موالاة النِّعَم عليه وهو عاص من باب الرِّضا عنه ، ولا يعلم أنه استدراج له ونقمةٌ عليه .

فإن قلت : كيف يصحّ القول بالاستدراج على أُصولكم فى العدل ، أَليس معنى الاستدراج إيهام العبد أَنه سبحانه غيرُ ساخط فعله ومعصيته ، فهل هذا الاستدراج إلاّ مفسدةٌ وسببٌ إلى الإصرار على القبيح

قلت : إذا كان المـكلَّف عالِماً بقبح القبيح ، أو متمكِّنا من العِلْم بقُبْحه ثم رأى النِّعَم تتوالى عليه وهو مُصِرٌ على المعصية ، كان تَرَادُف تلك النِّعَم كالمنبِّه له على وجوب الحذَر ، مِثالُ ذلك مَن هو فى خِدْمِة مَلِك ، وهو عونُ ذلك الملك فى دَوْلته ، و يعلم أنّ المَلِك قد عرف حالَه، ثم يرى نِعم الملك مترادفةً إليه ، فإنه يجب بمقتضى الاحتياط أن يشتدّ حذرُه ، لأنه يقول : ليست حالى مع المَلِك حالُ من يستحقّ هذه النعم ، وما هذه إلاّ مَـكِيدة وتحتها غائلة ، فيجب إذَنْ عليه أن يَحْذَر .

---

(١) سورة الأعراف ١٨٢

الأصلُ :

ما أضمرَ أحدٌ شيئاً إلاَّ ظهرَ فِي فلَتاتِ لِسانِهِ ، وصَفَحاتِ وَجْهِهِ .

* * *

الشرحُ :

قال زُهيرُ بنُ أبى سُلمَى :

ومَهماَ تـكن عند امرئٍ مِنْ خليقةٍ وإن خالَها تَخفَى على الناس تُعلَمِ (١)

وقال آخر :

تخبِّرنى العَيْنـانِ ما القلبُ كاتمٌ وما جنَّ بالبَغْضـاء والنظرِ الشَّزْرِ

وقال آخر :

وفى عينيكَ ترجمـةٌ أراها تَدُلُّ على الضّغـائن والحُقُود

وأخلاقٌ عهِدتُ اللِّيْن فيهـا غَدَتْ وكأنّهـا زُبَرُ الحديدِ

وقد عاهَدْتَنى بخلافِ هـذا وقال الله : « أوْفُوا بالعُقُـودِ »

وكان يقال : العين والوجه واللّسان أصحاب أخبار على القلب ، وقالوا : القلوب كالمرايا المتقابِلة ؛ إذا ارتسَمَتْ فى إحداهنّ صورةٌ ظهرتْ فى الأخرى .

---

(٢) ديوانه : ٢٥٧

(٢٧)

الأصلُ :

امْشِ بِدَأْبِكَ ما مَشَى بِكَ .

* * *

الشرح :

يقول : مهما وجدتَ سبيلًا إلى الصّبر على أمرٍ من الأمور التي قد دفعت إليها ، وفيها مشَقّة عليك ، وضرر لاحِقٌ بك ، فاصبر ولا تلتمسْ طريقاً إلى تغيير ما دفعت إليه أن تَسلُكها بالعُنْف ، ومُراغَمة الوقت ، ومعاناة الأَقْضية والأَقدار ؛ ومِثال ذلك من يَعرِض له مَرَض ما يُمكِنه أن يَحتمِله ويدافع الوقت ، فإنّه يجب عليه ألّا يَطرَح جانبَه إلى الأرض ، ويَخلُد إلى النوم على الفِراش ، ليعالج ذلك المرض قوّة وقهرا ؛ فربما أفضى به مقاهرة ذلك المرَض الصغير بالأدوية إلى أن يصير كبيرا مُعضِلاً .

(٢٨)

الأصلُ :

أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفاءُ الزُّهْدِ .

* * *

الشرحُ :

إنما كان كذلك لأنّ الجَهْر بالعبادة والزّهادة والإعلان بذلك قلّ أن يَسلم من مخالطة الرّياء ، وقد تقدم لنا فى الرياء أقوالٌ مُقنِعة .

رأى المنصورُ رجلا واقفاً ببابه ، فقال : مثل هذا الدرهمَ بين عينيك وأنتَ واقفٌ ببابنا ! فقال الربيع : نعم ، لأنه ضرِب على غير السِّكة .

شاعر :

معشرٌ أثبتَ الصلاةَ عليهمْ لِجبـــاهٍ يشقُّها المِحراب
عَمَرُوا مَوْضع التصنُّعِ منهمْ ومكانُ الإخلاص منهمْ خَرابُ

(٢٩)

الأصلُ :

إذَا كُنْتَ فِي إدْبارٍ والمَوْتُ فى إقْبالٍ، فَما أسْرَعَ المُلْتَقَى !

* * *

الشَّرحُ :

هذا ظاهر ، لأنّه إذا كان كلّما جاء ففى إدبار ، والموتُ كلّما جاء ففى إقبال ، فياسَرْعانَ ما يَلتَقيان ! وذلك لأنّ إدبارَه هو توجُّهه إلى الموت ، و إقبال الموت هو توجّه الموت إلى نحوَه ، فقد حُقّ إذَن الالتقاء سريعا ، ومثالُ ذلك سفينتان بدِجْلة أو غيرها ، تَصعَد إحداهما ، والأخرى تَنحدِر نحوَها ، فلا رَيْب أنّ الالتقاء يكون وَشِيكا .

(٣٠)

الأصلُ :

الحَذَرَ الحَذَرَ ، فَوَاللهِ لَقَدْ سَتَرَ ، حَتَّى كأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ .

* * *

الشرحُ :

قد تقدّم هذا المعنى وهو الأستدراج الذى ذكرْناه آنفاً .

الأصل :

وَسُئِل عليه السلام عن الإيمان فقال : الْإِيمَانُ على أَرْبَعِ دَعائِمَ : على الصَّبْرِ ، وَاليَقِينِ ، والعَدْلِ ، وَالجِهادِ .

وَالصَّبْرُ مِنْها على أَرْبَعِ شُعَبٍ : على الشَّوْقِ ، والشَّفَقِ ،وَالزُّهْدِ ، وَالتَّرَقُّبِ ؛ فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ ؛ وَمَنْ أَشفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّماتِ ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيا اسْتَهانَ بِالْمُصِيباتِ ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سارَعَ فى الخَيْرَاتِ .

وَالْيَقِينُ مِنْها على أَرْبَعِ شُعَبٍ : على تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ ، وَتأَوُّلِ الحِكْمَةِ ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ ، وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ ، تَبَيَّنَتْ لَهُ الحِكْمَةُ ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الحِكْمَةُ ، عَرَفَ الْعِبْرَةَ ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ ، فَكَأَنَّما كَانَ فى الأَوَّلِينَ .

وَالْعَدْلُ مِنْهَا على أَرْبَعِ شُعَبٍ : على غَائِصِ الْفَهْمِ ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ ، وَزَهْرَةِ الحِكَمِ ، وَرَسَاخَةِ الحِلْمِ ، فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الحُكْمِ ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيدًا .

وَالجِهَادُ مِنْها على أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ ؛ فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنافِقِينَ ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى ما عَلَيْهِ ، وَمَنْ شَنِئَ الْفاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلّهِ غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ .

وَالْكُفْرُ على أَرْبَعِ دَعائِمَ : عَلَى التَّعَمُّقِ ، والتَّنازُعِ ، وَالزَّيْغِ ، وَالشِّقاقِ ؛ فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الحَقِّ ، وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَماهُ عَنِ الحَقِّ ، وَمَنْ زَاغَ

ساءتْ عِنْدَهُ الحَسَنَةُ ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ ، وسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ ، ومَنْ شَاقَّ وَعَرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ .

والشَّكُّ على أَرْبَعِ شُعَبٍ : على التَّمَادِى ، والْهَوْلِ ، وَالتَّرَدُّدِ ، والاسْتِسْلَامِ ؛ فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ ، ومَنْ هَالَهُ ما بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، ومَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ ، وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ ، ومَنِ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا .

* * *

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى : وَبَعْدَ هَذَا كَلَامٌ تَرَكْنَا ذِكْرَهُ خَوْفَ الإِطَالَةِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فِي هَذَا الْكِتَابِ .

* * *

الشَّرْحُ :

من هـذا الفصل أخذَتِ الصّوفيّةُ وأصحابُ الطريقة والحقيقةِ كثيرا من فنونهم فى علومهم ؛ ومن تأمّل كلامَ سهلِ بنِ عبدِ الله التُّسْتَرِىّ وكلامَ الْجُنَيد والسّرىّ وغيرهم رأى هـذه الكلمات فى فَرْش كلامِهم تَلُوح كالكواكِب الزاهرة ، وكلّ المقامات والأحوال المذكورة فى هذا الفصل قد تقدّم قولُنا فيها .

* * *

[نُبَذٌ وحكايات مما وقع بين يدى الملوك]

ونذكر هاهنا الصدق فى المواطن ، وبين يدَى الملوك ومن يَغضَب لله ، ويَنهَى عن المنكر ، ويقوم بالحقّ ولا يُبالى بالسلطان ولا يُراقبه .

دخل عمرُ بنُ عبدالعزيز على سليمانَ بن عبد الملك وعنده أيّوب ابنه — وهو يومئذ وليّ عهدِه — قد عقد له من بعده ، فجاء إنسانٌ يَطلُب ميراثا من بعض نساءِ الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يَرِثن فى العَقار شيئا ، فقال عمر بنُ عبدالعزيز : سبحان الله ! وأين كتابُ الله ! فقال سليمان : يا غلام ، اذهَب فأْتنى بسِجِلّ عبدالملك الّذى كُتب فى ذلك ، فقال له عمر : لكأنّك أرسلتَ إلىّ المصحف ! فقال أيّوب بن سليمان : والله ليُوشِكَنّ الرجل يتكلّم بمِثل هذا عندَ أميرِ المؤمنين . فلا يشعر حتّى يفارقه رأسُه ؛ فقال عمر : إذا أَفضَى الأمرُ إليك و إلى أمثالك كان مايَدخُل على الإسلام أشدّ ممّا يخشى عليكم من هذا القَوْل ، ثمّ قام فخرج .

ورَوَى إبراهيمُ بنُ هشام بن يحيى ، قال : حدّثنى أبى ، عن جدّى ، قال : كان عمرُ بنُ عبد العزيز يَنهَى سليمانَ بنَ عبد الملك عن قَتْل الحَرُوريّة ، ويقول : ضَمِّنْهم الحُبوس حتّى يُحدثوا توبةً ، فأُتِىَ سليمان بحَرُورِىّ مستقتل ، وعنده عمرُ بنُ عبد العزيز ، فقال سليمان للحَرُورىّ : ماذا تقول ؟ قال : ماأقول يافاسق يابن الفاسق ، فقال سليمان لعمر : ماتَرَى ياأبا حفص ؟ فسَكَت ، فقال : أقسمتُ عليك لتخبرنّى ماذا ترى عليه ! فقال : أَرَى أن تَشتُمه كما شتَمك ، وتَشتُم أباه كما شتم أباك ، فقال سليمان : ليس إلّا؛ قال : ليس إلّا ؛ فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأَمَر بضَرْب عنق الحَرورىّ .

ورَوَى ابنُ قتيبة فى كتاب " عيون الأخبار " قال : بينما المنصور يطوف ليلا بالبَيْت سَمِع قائلا يقول : اللّهمّ إليك أشكو ظهورَ البَغْى والفساد ، وما يحول بين الحقّ وأهله من الطّمع . فخرج المنصورُ فجلس ناحيةً من المسجد ، وأرسَل إلى الرجل يدعوه ، فصلَّى ركعتين ، واستَلَمَ الرُّكْن ، وأقبل على المنصور فسلّم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ماالّذى سمعتُك تقوله من ظُهور البَغْى والفساد فى الأرض ، وما يَحول بين الحقّ

وأهله من الطمع ؟ فو الله لقد حشوتَ مسامعى ما أرْمضنى[١] فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ أمَّنتنى على نفسى أنبأتُك بالأمور من أصولها ، وإلاّ احتجزتُ منك ، واقتصرتُ على نفسى فلى فيها شاغل ؛ قال : أنت آمنٌ على نفسك ، فقل ؛ فقال : إنّ الذى دخله الطمع حتّى حال بينه وبين إصلاح ما ظَهر من البَغْى والفساد لأنت ، قال : وَيْحك ، وكيف يَدخُلنى الطمع والصّفراء والبيضاء فى قَبْضَتى ، والحُلْو والحامض عندى ! قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دَخَلَكَ ! إنّ الله عزّ وجلّ استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلتَ أمورهم ، واهتممتَ بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حُجُبا من الجصّ والآجُرّ ، وأبوابا من الحديد ، وحَجَبةً معهم السلاح ، ثمّ سجنتَ نفسك فيها منهم ، وبَعثت عمّالك فى جباية الأموال وجمعِها ، فقوّيتهم بالسِّلاح والرجال والكُراع ، وأمَرْت بألّا يدخُل عليك إلاّ فلان وفلان ، نفرٌ سمّيتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملْهوف ، ولا الجائع والفقير ، ولا الضعيف والعارى ، ولا أحد ممن له فى هذا المال حقّ ، فما زال هؤلاء النفرُ الذين استخلصتَهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيّتك ، وأمرت ألاّ يحجَبوا عنك ، يجبون الأموال ويَجْمعونها ويَحجُبونها ، وقالوا : هذا رجل قد خان الله ، فما لنا لا نخونه ، وقد سَخَّرنا ! فائتمروا على ألاّ يصل إليك مِن أخبار الناس شىء إلاّ ما أرادوا ، ولا يخرج لك عاملٌ فيخالف أمرهم إلّا بغّضوه[٢] عندك ، و بغَوْه الغوائل ، حتى تسقُط منزلتُه و يَصْغر قدرُه . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناسُ وهابوهم ، وكان أوّل من صانَعَهُم عمّالك بالهدايا والأموال ليقَوَوْا بها على ظلْم رعيّتك ، ثمّ فعل ذلك ذَوو القدرة والثروة من رعيّتك لينالوا به ظلم مَن دونَهم ، فامتلأت بلاد الله بالطّمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سَلْطنتك وأنت غافل ، فإن جاء متظلّم حِيلَ بينه وبين دخول

(١) ب : « أمرضى » ؛ والصواب ما أثبته من ا ، د وعيون الأخبار .

(٢) عيون الأخبار : « قصبوه » أى عابوه .

دارِك ، وإن أراد رَفع قصّته إليك عند ظهورك وجدك وقد نهيتَ عن ذلك ، ووقفت للنّاس رَجلا ينظر فى مظالمهم ، فإن جاء المتظلم إليه أَرسَلوا إلى صاحب المظالم ألاّ يرفع إليك قصّته ، ولا يكشف لك حاله ؛ فيجيبهم خوفاً منك ، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه ، ويلوذ به ، ويستغيثُ إليه وهو يدفعه ، ويعتلّ عليه ؛ وإذا أُجهِد وأُحرِج ،وظهرت أنت لبعض شأنك صَرَخ بين يديك ، فيُضرب ضربا مبرّحا ليكون نَكالا لغيره ، وأنت تَنظُر ولا تُنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا !

ولقد كنتُ أيّام شبيبتى أسافِر إلى الصّين فقدِمْتُها مرّة وقد أُصِيب مَلِكُها بسَمْعه ، فبَكَى بكاءً شديدا ، فحداه[1] جلساؤه على الصّبر ، فقال : أما إنّى لست أبكى للبليّة النازلة ، ولكن أبكى للمَظلوم بالباب يَصرُخ فلا أسمعُ صوتَه ، ثمّ قال : أمّا إذْ ذهب سمعى فإنّ بصرى لم يذهب ، نادُوا فى الناس ألّا يلبسَ ثوبا أحمرَ إلّا مظلوم[2] ، ثمّ كان يركب الفِيل طرَفَى نهاره ينظُر هل يرى مظلوما ! فهذا مُشرِك بالله غلبتْ رأفتُه بالمشركين على شُحّ نفسِه ، وأنتَ مؤمنٌ بالله من أهل بيتِ نبيّه لا تَغلِبُك رأفتُك بالمسلمين على شُحٍّ نفسِك ! فإن كنتَ إنّما تجمَع المال لوَلَدِك فقد أراك الله تعالى عِبَرا فى الطِّفل يَسقُط من بطن أمّه ، ماله على الأرض مال ، ومامن مال يومئذ إلّا ودونه يدٌ شَحيحة تحوِيه ، فلا يزال الله يَلطُف بذلك الطِّفْل حتّى تَعظُم رغبةُ النّاس إليه ، ولستَ بالّذى تُعطِى ، ولكنّ الله يُعطى من يشاء مايشاء . وإن قلتَ : إنّما أجمع المال لتشييد السلطان ، فقد أراك اللهُ عِبَراً فى بنى أميّة ، ماأَغنَى عنهم ماجَمعوا من الذّهب والفضة ، وأَعَدُّوا من الرجال والسّلاح والكُراع حين أراد الله بهم ماأراد ، وإن قلتَ : أجمع المالَ لطلب غاية هى أجسَم من الغاية الّتى أنا فيها ، فوالله مافوق ماأنتَ فيه إلّا منزلةٌ لا تُدرَك إلّا بخلاف ماأنت عليه . انظرْ هل تعاقِب من عصاك بأشدَّ من القَتْل ؟ قال : لا ، قال : فإنّ المَلِك الّذى خوَّلك ماخوَّلك

---

(١) عيون الأخبار : « فحثه » .   (٢) د : « متظلم » .

لا يُعاقِب مَن عصاه بالقتل ، بل بالخلود فى العذاب الأليم ! وقد رأى ماقد عقدت عليه قلبك ، وعمِلَته جوارحُك ، ونظر إليه بَصرُك ، واجترحتْه يداك ، ومشتْ إليه رجْلاك . وانظر هل يُغنِي عنك ماشححتَ عليه من أمرِ الدنيا إذا انتزَعَه من يَدِك ودعاك إلى الحساب على مامَنَحك !

فبكى المنصورُ وقال : ليتنى لم أُخلَقْ! وَيْحك ! فكيف أحتالُ لنفسى ؟ قال : إنّ للناس أعلاما يَفزَعون إليهم فى دِينهم ، ويَرْضَوْن بقوْلهم ، فاجعلْهم بِطانَتك يُرشِدُوك ، وشاوِرْهم فى أمركَ يُسدِّدوك ؛ قال : قد بعثتُ إليهم فهرَبوا منّى ؛ قال : نعم ، خافوا أن تَحمِلهم على طريقِك ، ولكن اُفتحْ بابَك ، وسَهِّل حِجابَك ، وانظر المظلومَ ، واقمَع الظالم ، وخذ الفَيْء والصَّدقات مِمّا حلّ وطاب ، واُقسِمه بالحقّ والعدل على أهله ، وأنا الضّامن عنهم أنْ يأتوك ويُسعِدوك على صَلاحِ الأمّة .

وجاء المؤذِّنون فسلّموا عليه ونادَوا بالصّلاة ، فقام وصلّى وعاد إلى مجلسه ، فطُلب الرّجل فلم يُوجَد [١] .

وروَى ابنُ قُتَيبَة أيضا فى الكتاب المذكور أنّ عَمرو بنَ عُبيد قال للمنصور : إنّ الله أعطاك الدّنيا بأسْرِها ، فاشترِ نفسَكَ منه ببعضها ، واُذكر ليلةً تتمخّض لَك صبيحتُها عن يوم القيامة — قال : يعنى ليلةَ موتِه — فوَجَم المنصورُ ، فقال الربيع : حَسْبُك ، فقد غَممتَ أميرَ المؤمنين ، فقال عَمرو بنُ عبيد : إنّ هذا صَحِبَك عشرين سنةً لم يرَ عليه أن ينصحَك يوما واحدا ، ولم يَعمَل وراء بابك بشىء ممّا فى كتاب الله ولا فى سنّة نبيّه ! قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلتُ لك : خاتَمِى فى يَدِك فهلمّ أنت وأصحابَك فاكفِنى ، فقال عمرو : دَعْنا بعَدْلك نَسْخُ بأنفسِنا بعوْنِك ، و ببابِك مَظالِم كثيرة [٢] ، فارْدُدها نَعلم أنّك صادق [٣] .

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ٣٣٣ — ٣٣٧ (٢) عيون الأخبار : « ألف مظلمة » .

وقال ابن قتيبة فى الكتاب المذكور : وقد قام أعرابىّ بين يدىْ سليمانَ بن عبد الملك بنحوِ هذا ، قال له : إنّى مكلّمك يا أميرَ المؤمنين بكلام [فيه بعض الغلظة](١) فاحتمِله إن كرهتَه ، فإنّ وراءه ماتحبّ ، قال : قل ، قال : إنّى سأطلِق لسانى بما خَرِستْ عنه الألسُن من عِظَتك تأديةً لحقِّ الله . إنّك قد تكنّفك رجالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم ، فابتاعوا دُنْياهم بدِينهم ، فهم حربُ الآخرة ، سِلْمُ الدّنيا ، فلا تأمنْهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنّهم لم يألوا الأمانة تَضييعاً ، والأمّة خَسْفا ، وأنت مسئول عما اجترَحوا ، وليسوا مسئولين عمّا اجترَحْتَ ، فلا تُصلِح دُنياهمْ بفسادِ آخرَتِك ، فإنّ أعظمَ الناس غَبْنا مَن باعَ آخرتَه بدُنْيا غيرِه . قال : فقال سليمان : أمّا أنت ياأعرابىّ ، فإنّك قد سَللتَ علينا عاجلاً لسانَك ، وهو أقطَعُ سَيْفَيْك ؛ فقال أجَل ، لقد سللتُه ، ولكن لك لا عليك(٢) .

(١) زيادة من عيون الأخبار

(٢) عيون الأخبار : ٢٣٧ ، ٢٣٨

(٣١)

الأَصْـلُ :

فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد نظمتُ أنا هذا اللفظ والمعنى ، فقلتُ فى جملةِ أبياتٍ لى :

خـــيرُ البضائِـعِ للإنسان مَـكرُمَةٌ   تَنمِى وتزْكو إذا بارَتْ بَضائِعُهُ

فالخيرُ خَيرٌ وخـــيرٌ منه فاعِلُه   والشرّ شرٌّ وشرٌّ منـــــــه صانعُهُ

فإن قلتَ : كيف يكون فاعلُ الخير خيرا من الخير ، وفاعلُ الشرّ شرّا من الشرّ ، مع أنّ فاعل الخير إنّما كان ممدوحا لأجل الخير ، وفاعل الشرّ إنما كان مذموما لأجل الشرّ ، فإذا كان الخير والشرّ هما سَبَبَا المَدْح والذّمّ ـ وهما الأصل فى ذلك ـ فكيف يكون فاعلاهما خيراً وشرّا منهما ؟

قلت : لأنّ الخير والشرّ ليسا عبارة عن ذات حيّة قادرة ، وإنّما هما فعلان ، أو فعل وعدم فعـل ، أو عَدَمان ، فلو قطع النظر عن الذّات الحيّة القادرة الّتى يَصدُران عنها ، لما انتَفَع أحدٌ بهما ولا استضرّ ، فالنّفع والضّرر إنّما حَصَلا من الحىّ الموصوف بهما لا منهما على انفرادهما ، فلذلك كان فاعلُ الخَيْر خيرا من الخير ، وفاعلُ الشرّ شرّا من الشرّ .

الأصل :

كُنْ سَمْحاً ، وَلَا تَكُنْ مُبَذِّراً ، وَكُنْ مُقَدِّراً ؛ وَلَا تَكُنْ مُقَتِّراً .

***

الشرح :

كلُّ كلامٍ جاء فى هذا فهو مأخوذٌ من قوله سبحانَه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ (١) .

ونحو قوله : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الإسراء ٢٩

(٢) سورة الإسراء ٢٧

(٣٣)

الأصلُ :

أشْرَفُ الغِنَى ، تَرْكُ المُنَى .

***

الشّرحُ :

قد سبق منا قولٌ كثيرٌ فى المُنى ، ونذكر هاهنا مالم نذكرْه هناك .

سئل عُبيدُ اللهِ ابنُ أبى بكر : أىّ شىء أدوَم متاعا ؟ فقال : المُنَى .

وقال بلال بن أبى بُرْدة : مايَسُرّنى بنصيبى من المُنى حُمْر النَّعم .

وكان يقال : الأمانىّ للنّفس كالرّوْنَق للبصَر .

ومن كلامِ بعضِ الحكماء : الأمانىّ تُعمِى أعيُنَ البصائر ، والحظّ يأتى من لا يأتيه، وربّما كان الطمع وِعاءً حشوُه المَتالف ، وسائقا يدعو إلى الندامة ، وأشقَى الناس بالسّلطان صاحبُه ، كما أنّ أقربَ الأشياء إلى النّار أسرَعُها إحْراقا ، ولا يُدْرِك الغِنَى بالسّلطان إلّا نفسٌ خائفة ، وجسمٌ تَعِب ، ودين منكتم ، وإن كان البحرُ كَدِرَ الماءِ ، فهوَ بَعيدُ الهَوَاء .

الأصلُ :

مَنْ أَسْرَعَ إلى النَّاسِ بِما يَكْرَهُونَ ، قالُوا فِيهِ ما لاَ يَعْلَمُونَ .

* * *

الشَّرحُ :

هذا المعنى كثيرٌ واسع ، ولنقتصرْ ها هنا فيه على حكاية ذكَرها المبرِّد في " الكامل " .

* * *

[في مجلس قتيبة بن مسلم الباهليّ]

قال : لما فتح قتيبةُ بنُ مُسلم سَمَرْقَند أَفضى [1] إلى أثاث لم يُرَ مِثله [2] ، وإلى آلاتٍ لم يُرَ مِثلها، فأراد أن يُرِيَ الناس عظيمَ ما أنعمَ الله به عليه ، ويعرّفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم ، فأمر بدارٍ ففُرِشت وفى صحنها قدُور يُرْتقى إليها بالسلالم ، فإذا الحُضَين ابنُ المُنذِر بن الحارث بن وَعْلة الرّقاشى قد أَقبَل والناسُ جلوسٌ على مراتبهم ، والحُضين شيخٌ كبير، فلما رآه عبدُ الله بن مُسلم قال لأخيه قُتَيبة : ائذنْ لى فى معاتَبَته ؛ قال لا تردْه لأنه خبيثُ الجواب ؛ فأبى عبدُ الله إلاّ أن يأذن له ـ وكان عبد الله يضعَّف ، وقد كان تسوّر حائطا إلى امرأةٍ قبل ذلك ـ فأقبل على الحُضين، فقال : أمن الباب دخلتَ يأبا ساسان ؟

---

(١) أفضى ؛ أي اتسع وصار عريضا

(٢) الكامل : « مثلها »

قال : أَجَلْ أَسَنَّ عمُّك عن تَسوُّر الحيطان . قال : أرأيتَ هذه القُدور ؟ قال : هى أعظم من ألّا تُرَى ؛ قال : ما أحسب بكر بن وائل رأى مِثلها ، قال : أجَـلْ ، ولا غَيلان ، ولو كان رآها سمّى شَبْعان ، ولم يسمَّ غَيْلان ، قال له عبدُ الله : يا أبا ساسان أتعرف الذى يقول :

عُزِلْنا وأُمِّرْنا وبكرُ بنُ وائلٍ ... تجُرّ خُصاها تبتغى مَن تُحالِفُهْ[1]

قال : أَجَل أعرفه ، وأعرِف الذى يقول :

بِأَذْنَى العَزْم قادَ بَنى قُشَـيرٍ ... ومن كانت له أسرَى كلابِ
وخَيْبة من يخيبُ عَلَى غَنِيٍّ ... وباهـلة بن يَعْصُرَ والرِّكابِ

يريد: ياخيبةَ من يَخيب . قال : أفتعرف الذى يقول :

كأنّ فِقاحَ الأَزْد حول ابن مِسمعٍ ... إذا عرِقتْ أفواهُ بكر بن وائلِ

قال : نَعم أعرفه وأعِرف الذى يقول :

قومٌ قتيبةُ أُمُّهم وأبوهمُ ... لولا قتيبةُ أصبَحوا فى مَجْهل

قال : أما الشِّعر فأراك ترْويه ، فهل تقْرأ من القرآن شيئاً ؟ قال : أقرأ منه الأكثر الأطيَب : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسان حينٌ مِنَ الدَّهْر لم يكُنْ شيئاً مذكوراً ﴾[2] فأغضبه ، فقال :والله لقد بلغنى أنّ امرأة الحضين حُمِلت إليه وهى حُبلى من غيره . قال: فما تحرّك الشيخُ

---

(١) هو حارثة بن بدر — رغبة الآمل .

(٢) سورة الإنسان ١

عن هيئته الأولى ، ثم قال على رسْله ، وما يكون تلد غلاما على فراشى ، فيقال : فلانُ ابنُ الحضين ، كما يقال : عبدُ الله بنُ مسلم . فأقبل قتيبةُ على عبد الله وقال : لا يبعد الله غيرك !

قلت : هو الحضين بالضاد المعجمة ، وليس فى العرب من اسمُه « الحضين » بالضاد المعجمة غيرُه (١) .

(١) الكامل ٣ : ١٣ ، ١٤ ؛ قال أبو العباس : « الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة . وكان الحضين بيده لواء على بن أبى طالب رحمه الله على ربيعة ؛ وله يقول القائل :

لِمَنْ رايةٌ سوداءُ يخفق ظِلُّها إذا قيلَ قدِّمْها حُضَيْنُ تقدَّمَا

(٣٥)

الأَصْلُ :

مَنْ أطَالَ الأمَلَ ، أساءَ الْعَمَلَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم منّا كلامٌ فى الأمل .

وقيل لبعض الصالحين: ألك حاجةٌ إلى بغداد ؟ قال :ما أحبّ أن أبسط أملى حتى تذهب إلى بغداد وتعود .

وقال أبو عثمان النَّهدىّ : قد أتت علىّ ثلاثون ومائة سنةً ما من شىء إلاّ وأجِد فيه النّقص إلا أَمَلى ، فإنى وجدتُه كما هو أو يزيد .

(٣٦)

الأصلُ :

وقال عليه السلام وقد لقيه عند مسيره الى الشام دهاقين الأنبار فترجلوا له واشتدوا بين يديه :

ما هذا الذى صَنَعْتُمُوهُ؟ فقالوا : خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا ؛فقال: واللهِ ما يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ ، وَإِنكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَى أَنفسِكُم فى دُنْيَاكُمْ ، وتَشْقَوْنَ بِهِ فى أُخرَاكُمْ؛ وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وراءها الْعِقَابُ ، وَأَرْبَح الدَّعَةَ مَعَها الأَمانُ مِنَ النَّارِ !

* * *

الشَّرحُ :

اشتدُّوا بين يديه: أسرعوا شيئاً ، فنهاهم عن ذلك وقال : إنكم تشقّون به على أنفسكم لما فيه من تَعَب الأبدان . وتَشْقَوْن به فى آخرتكم : تخضعون للولاة ، كما زعمتم أنه خُلُق وعادةٌ لكم ؛ خضوعا تطلُبون به الدنيا والمنافع العاجلة فيها ، وكلّ خضوع وتذلُّل لغير الله فهو معصية .

ثمّ ذكر أنّ الخسران المبين مَشقّة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة والرِّبح البين دعةٌ عاجلة يتبعها الأمانُ من النار .

(٣٧)

قال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام :

يا بُنَىَّ احفَظْ عنّى أربعاً وأربعاً ؛ لا يَضُرُّكَ ما عَمِلْتَ مَعَهُنَّ : إنَّ أغنَى الغِنَى العقلُ ، وأكبرَ الفقرِ الحمقُ ، وأوحَشَ الوحشةِ العُجبُ ، وأكرَمَ الحسَبِ حُسْنُ الخُلقُ .

يا بُنَىَّ إيّاكَ ومُصادقَةَ الأحمقِ ، فإنّهُ يُريدُ أنْ ينفعَكَ فيَضُرَّكَ ، وإيّاكَ ومُصادقَةَ البَخيلِ ، فإنّهُ يَقعُدُ عنكَ أحوجَ ما تكونُ إليهِ ، وإيّاكَ ومصادقةَ الفاجرِ ، فإنّهُ يَبيعُكَ بالتّافهِ ، وإيّاكَ ومُصادقَةَ الكذّابِ ، فإنّهُ كالسَّرابِ يُقرِّبُ عَليكَ البعيدَ ، ويُبعّدُ عليكَ القريبَ .

* * *

الشّرحُ :

هذا الفصل يتضمّن ذِكرَ العقلِ والحُمق ، والعُجب وحُسن الخُلق ، والبُخل والفُجور ، والكَذِب ، وقد تقدّم كلامُنا فى هذه الخصال أجمع ، وقد أخذتُ قولَه عليه السلام : « إيّاكَ ومصادقةَ الأحمقِ فإنّه يريد أن ينفعَك فيضرّك » فقلتُ فى أبياتٍ لى :

حَيَاتَكَ لا تَصْحَبَنَّ الجهولَ فلا خيرَ فى صُحبةِ الأخرَقِ
يَظُنُّ أخو الجهل أنَّ الضّلا لَ عينُ الرّشاد فلا يتّقِى
ويَكسَب صاحبُه حُمقَه فيَسرِق منه ولا يَسرِقِ
وأُقسِم أنَّ العدوَّ اللبيـ ـبَ خيرٌ مِن المشفِقِ الأحمَقِ

(٣٨)

الأصْـلُ :

لا قُرْبَةَ بالنّوَافِلِ إذَا أَضَرّتْ بالْفرَائِض .

***

الشّرح

هذا الـكلام يُمكن أن يُحمَل على حقيقته ، ويمكن أن يُحمَل على مَجازه ، فإنْ حُمِل على حقيقته فقد ذهب إلى هذا المذهب كثيرٌ من الفقهاء ، وهو مَذهَب الإماميّة ، وهو أنّه لا يصحّ التنفّل ممّن عليه قضاء فريضة فاتتْه لا فى الصلاة ولا فى غيرها ؛ فأمّا الحجّ فمُتّفَق عليـه بين المسلمين أنّه لا يصحّ الابتداء بنَفْلِه ، وإذا نوى نيّة النَّفل ، ولم يكن قد حَجّ حَجّة الإسلام وقع حَجُّه فرضاً ، فأمّا نوافل الزّكاة فما عرفتُ أحدا قال : إنه لا يثاب المتصدّق بها ، وإن كان لم يؤدّ الزكاة الواجبة . وأمّا إذا حُمِل على مَجازه ، فإنّ معناه يجب الابتداء بالأهمّ وتقديمُه على ما ليس بأهمّ ، فتَدخُل هذه الـكلمة فى الآداب السلطانيّـــة والإخوانيّة ، نحوَ أن تقول لمن تُوصِيه : لا تبدأْ بخِدمة حاجبِ المَلِك قبل أن تَبدأَ بخِدمة وَلَد المَلِك ، فإنّك إنّما تروم القُرْبة للمَلِك بالخِدمة ، ولا قربة إليه فى تأخير خِدْمة ولَدِه وتقديم خـدمةِ غلامِه ؛ وحَمْلُ الـكلمة على حقيقتها أولَى ، لأنّ اهتمام أميرِ المؤمنين عليه السلام بالأمور الدينيّة والشرعيّة فى وصاياه ومنثور كلامِه أعظمُ .

الأصل

لِسانُ العاقِلِ وَرَاءَ قَلبِهِ ، وَقَلْبُ ٱلْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسانِهِ .

* * *

قالَ الرضيُّ رَحمهُ اللهُ تعالى :

وَهذا مِنَ ٱلْمَعانِي ٱلْعَجِيبةِ الشَّرِيفَةِ ، والمُرَادُ بِهِ أَنَّ العَاقِلَ لا يُطْلِقُ لِسانَهُ إلا بعد مُشاوَرَةِ الرَّوِيَّةِ ، ومُؤامَرَةِ ٱلْفِكْرَةِ ، والأَحْمَقُ تَسْبِقُ حَذَفاتُ لسانِهِ ، وَفَلَتاتُ كَلامِهِ ، مُرَاجَعَةَ فِكْرِهِ ، وَمُماخَضَةَ رَأْيِهِ ، فَكأَنَّ لِسانَ ٱلْعاقِلِ تابِعٌ لِقَلْبِهِ ، وَكأَنَّ قَلْبَ ٱلْأَحْمَقِ تَابِعٌ لِلِسانِهِ .

قالَ : وقَدْ رُوِيَ عنهُ عليهِ السَّلامُ هَذَا المَعْنَى بلفْظٍ آخَرَ ، وهُو قَوْلُهُ : « قَلْبُ ٱلْأَحْمَقِ فى فِيهِ، ولِسَانُ العَاقِلِ فى قَلْبِهِ » وَمَعْناهُما واحِدٌ .

* * *

الشَّرح

قد تقدّم القولُ فى العَقل والحُمق ، و نذكر هاهنا زِيادات أخرى .

[أقوال وحكايات حول الحمق]

قالوا : كلّ شىء يَعِزّ إذا قَلّ ، والعقل كلّما كان أكثرَ كان أعزّ وأغلى .

وكان عبدُ الملك يقول : أنا للعاقل المدبِر أرجَى منّى للأحمَق المُقبِل .

قيل لبعضهم : ما جِماعُ العَقل ؟ فقال : ما رأيتُه مجتمِعا فى أحد فأصِفَه، وما لا يوجد كاملا فلا حَدّ له .

وقال الزُّهرى : إذا أنكرتَ عقلكَ فاقدَحه بعاقل .

وقيل : عَظمت المئونة فى عاقلٍ متجاهل ، وجاهل متعاقل .

وقيل : الأحمق يتحفظ من كل شىء إلاّ من نفسه .

وقيل لبعضهم : العقل أفضلُ أم الَجدّ ؟ فقال : العقل مِن الَجدّ .

وخطب رجلان إلى ديماوس الحكيم ابنته ، وكان أحدُهما فقيرا والآخر غنيا ، فزوجها من الفقير ، فسأله الإسكندر عن ذلك ، فقال : لأنّ الغنىّ كان أحمق ، فكنت أخاف عليه الفقر ، والفقير كان عاقلا ، فرجوتُ له الغنى .

وقال أرسطو : العاقل يوافق العاقل ، والأحمق لا يوافق العاقل ، ولا أحمق كالعُود المستقيم الذى ينطبق على المستقيم ؛ فأما المعوجّ فإنه لا ينطبق على المعوجّ ولا على المستقيم .

وقال بعضهم : لأنْ أزاول أحمقَ أحبُّ إلىّ من أن أزاول نصف أحمق — أعنى الجاهل المتعاقل .

***

واعلم أن أخبار الحمقى ونوادِرهم كثيرة ، إلا أنا نذكر منها هاهنا ما يليق بكتابنا ، فإنه كتاب نزهناه عن الخلاعة والفُحْش إجْلالا لمنصِب أمير المؤمنين .

قال هشام بنُ عبدِ الملك يوما لأصحابه : إنّ حُمقَ الرّجل يُعْرَف بخصال أربع : طول لِحيته ، وبشاعةِ كُنْيته ، ونَقْشِ خاتمه ، وإفراط نهمته . فدخل عليه شيخٌ طويلُ العُثْنون ، فقال هشام : أمّا هذا فقد جاء بواحدة ، فانظروا أين هو من الباقى ؛ قالواله : ما كنيةُ الشيخ ؟ قال : أبو الياقوت ، فسألوه عن نقش خاتمه ، فإذا هو :

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [١] فقيل له : أىّ الطعام تَشتهِى ؟ قال : الدُّبّاء [٢] بالزيت ؛ فقال هشام : إنّ صاحبكم قد كَمَل .

وسَمِع عمرُ بنُ عبدِ العزيز رجلا يُنادِى آخَرَ : ياأبا العُمَرَين ؛ فقال : لو كان له عقلٌ لَكفاه أحدُهما .

وأرسَل ابنٌ لعجل بن لجيم [٣] فرساً له فى حَلْبة ، فجاء سابِقا ، فقيل له : سمِّه باسم يُعرَف به ، فقام ففقأ عَيْنَه وقال : قد سمّيتُه الأعوَر ، فقال شاعر يَهجُوه :

رمتْنى بنو عِجْل بداءِ أبِيهمُ ... وأىّ عباد الله أنْوَكُ مِن عِجلِ !
أليسَ أبوهمْ عارَ عَيْنَ جوادِه ... فأضحَتْ بهِ الأمثالُ تُضرَب بالجهلِ

وقال أبو كعب القاصّ فى قصصه : إنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله قال فى كَبِد حمزةَ ماعلمتم ، فادعوا اللهَ أن يُطعِمنا من كَبِد حمزة !

وقال مرّة فى قَصصه : اسم الذئب الّذى أكَلَ يوسفَ كذا وكذا ، فقيل له : إنّ يوسف لم يأكله الذئب ؛ فقال : فهذا اسمُ الذئب الّذى لم يأكل يوسفَ .

ودخل كَعبُ البَقَر الهاشمىّ على محمّد بن عبدِ الله بنِ طاهر يعزّيه فى أخيه ، فقال له : أعظَمَ اللهُ مُصيبةَ الأمير ! فقال الأمير : أمّا فيك فقد فعَل ، واللهِ لقد همَمتُ أن أحلِقَ لحيتَك ؛ فقال : إنما هى لِحية الله ولِحْيةُ الأمير فليفعلْ ماأَحَبّ .

وكان عامرُ بن كُرَيز أبو عبد الله بن عامر ، مِن حَمْقَى قريش ، نظر إلى عبد الله وهو يَخطُب والناسُ يَستحسِنون كلامَه ، فقال لإنسانٍ إلى جانبِه : أنا أخرجتُه من هذا — وأشار إلى مَتاعِه .

---

(١) سورة يوسف ١٨ (٢) الدباء : القرع .
(٣) ورد الإسم محرفاً فى ا ، ب . وأصلحته من د ، والعقد ٦ : ١٥٦ .

ومن حَمَقى قُريش، العاصُ بنُ هشام المخزومىّ ، وكان أبو لهب قامَرَه فقمَره مالَه ثم دارَه ، ثمّ قليلَه وكثيرَه وأهلَه ونفسَه ، فاتّخذه عبدا ، وأَسلَمه قَيْنا ، فلمّا كان يومُ بَدْر بعث به بَديلا عن نفسه ، فقُتِل ببدر ، قَتَله عمرُ بنُ الخطّاب ، وكان اُبن عمّ أمّه .

ومِنَ الحَمْقى الأحوص بنُ جعفر بنِ عمرو بن حُرَيث ، قال له يوما مجالسوه : مابالُ وجهِك أصفر ! أتشتكى شيئاً ؟ فرجع إلى أهله ، وقال : يابنى الخَبيثة ، أنا شاكٍ ولا تُعلمونى! اطرَحوا علىّ الثيابَ وابعثوا إلىّ الطبيب .

ومِن حَمقَى بنى عجل حسّان بن الغَضْبان من أهل الكوفة ، ورِث نصفَ دارِ أبيه ، فقال : أريد أن أبيعَ حِصّتى من الدار ، وأشترىَ بالثمن النصفَ الباقى ، فتصيرَ الدّار كلّها لى .

ومِن حَمْقَى قريش بكّار بنُ عبدِ الملك بنِ مروان ، وكان أبوه ينهاه أن يُجالسَ خالدَ ابنَ يزيدَ بنِ معاوية لِما يَعرف من حُمقه ، فجلس يوما إلى خالد ، فقال خالد يعبث به : هذا والله المردّد فى بنى عبدِ مَناف ، فقال بكّار : أجَلْ ، أنا والله كما قال الأوّل :

* مردَّدٌ فى بنى اللَّخْناء ترديدا *

وطارَ لِبكّار هذا بازى ، فقال لصاحب الشُّرطة : أغلِق أبوابَ دِمَشق لئلاّ يَخرج البازىّ .

ومِن حَمْقَى قُريش معاوية بنُ مروانَ بنِ الحَكَم ، بينا هو واقفٌ ببابِ دمشق ينتظر أخاه عبدَ الملك على باب طحّان ، وحِمارُ الطّحّان يدور بالرّحا وفى عنقه جُلْجُل ، فقال للطّحانِ : لِمَ جعلتَ فى عنقِ هذا الحمار جُلجُلا ؟ فقال : ربّما أدركتْنى نَعْسة أو سآمةٌ ، فإذا لم أَسمع صوتَ الجُلجُل علمتُ أنه قد نام ، فصِحتُ به ، فقال : أرأيته إن قام وحرّك رأسَه ، ماعِلمُك به أنّه قائم ؟ فقال : ومَن لِحمارى بمِثل عَقْل الأمير !

وقال معاوية لِحَميه وقد دَخَل بابنتِه تلك اللّيلةَ فافتضّها : لقد ملأتْنا ابنتُك البارحة دماً ؛ فقال : إنّها من نِسوةٍ يَخبأن ذلك لأزواجِهنّ .

ومِن حَمْقَى قريش سليمانُ بنُ يزيدَ بنِ عبد الملك ، قال يوما : لعن اللهُ الوليدَ أخى ! فلقد كان فاجرا ، أرادَنى على الفاحشة ، فقال له قائل مِن أهلِه : اسكُت وَيْحَك ، فوالله إن كان هَمَّ لقد فَعَل !

وخطب سعيدُ بنُ العاص عائشةَ ابنةَ عثمانَ ، فقالت : هو أحمق ، لا أتزوّجه أبدا ، له بِرْذَوْنان لونُهما واحدٌ عند الناسِ ، ويَحمِل مؤنةَ اثنين .

وممّن كان يُحمَّق من قريش عُتبةُ بنُ أبى سُفيانَ بنِ حرب وعبدُ الله بنُ معاوية بنِ أبى سُفيان وعبدُ الله بنُ قيس بنِ مَخرَمة بن المطّلب وسهلُ بنُ عَمرو أخو سُهَيل بن عمرو بن العاص . وكان عبدُ الملك بنُ مروانَ يقول : أحمقُ بيتٍ فى قريشٍ آلُ قيسِ ابنِ مَخرَمة .

ومن القبائل المشهورة بالحُمْق الأَزْد ، كتب مَسلَمة بنُ عبدِ الملك إلى يزيدَ بنِ المهلّب لمّا خرج عليهم : إنّك لستَ بصاحبِ هذا الأمر ، إنّ صاحبَه مغمور موتور ، وأنت مشهور غير موتور . فقام إليه رجل من الأزْد ، فقال : قدِّم ابنك مَخلَدا حتّى يُقتل فتصيرَ موتورا .

وقام رجلٌ من الأزْد إلى عُبيد الله بنِ زياد فقال : أصلَح اللهُ الأمير ! إنّ امرأتى هلكتْ ، وقد أردت أن أتزوّج أمَّها ، وهذا عَريفى فأعِنّى فى الصَّداقِ ، فقال : فى كم أنتَ من العطاء ؟ فقال : فى سبعمائة ؛ فقال : حُطّوا من عَطائه أربعمائة ، يكفيك ثلثمائة .

ومَدَح رجلٌ منهم المهلّب ، فقال :

نعم أميرُ الرّفقــــة المهلّبْ ⁂ أبيضُ وَضّاح كتَيْس الحُلّبْ

فقال المهلّب : حَسْبُك يرحمك الله !

وكان عبدُ الملك بنُ هلالٍ عنده زِنْبيلٌ[١] مملوء حصاً للتسبيح ، فكان يسبّح بواحدة واحدة ، فإذا ملّ طرح اثنتين اثنتين ، ثمّ ثلاثا ثلاثا ، فإذا ازداد ملالُه قبض قبضةً وقال : سبحانَ اللهِ عَددَك ! فإذا ضَجِر أخذ بعُرَا الزّنبيل وقلّبه ، وقال : سبحان الله بعدَدِ هذا .

ودَخَل قومٌ منزلَ الحُرَيميّ لبعض الأمر ، فجاء وقتُ صلاة الظهر ، فسألوه عن القِبْلة ، فقال : إنما تركتُها منذ شهر .

وحَكَى بعضُهم ، قال : رأيت أعرابيّا يَبكِي ، فسألتُه عن سبب بكائه ، فقال : بلغني أنّ جالوتَ قُتِل مظلوما .

وَصَف بعضُهم أحمقَ ، فقال : يَسمَع غيرَ مايقال ، ويَحفَظ غيرَ مايَسمَع ، ويَكتُب غيرَ مايَحفَظ ، ويُحدِّث بغير مايَكتُب .

قال المأمونُ لثُمامة : ماجَهْد البَلاء ياأبا مَعْن ؟ قال : عالمٌ يَجرِي عليه حُكْم جاهل . قال: من أين قلتَ هذا ؟ قال : حبسَني الرّشيدُ عند مسرور الكبير ، فضيّق علىّ أنفاسى ، فسمعتُه يوما يقرأ : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذَّبِينَ ﴾[٢] بفتح الذال ؛ فقلت له : لا تقل أيها الأمير هكذا ، قل: ﴿للمكذِّبين﴾؛ وكسرتُ له الذال ، لأنّ المكذَّبين هم الأنبياء ، فقال : قد كان يقال لى عنك : إنك قَدَرِيّ ، فلا نجوتُ إن نجوتَ اللّيلةَ منّى ! فعاينتُ منه تلك الليلة الموتَ من شدّة ماعذّبنى .

قال أعرابىّ لابنه : يابنىّ ، كن سَبُعا خالصا ، أو ذئبا حائسا[٣] ، أو كلْبا حارِسا ، ولا تكن أحمقَ ناقصا .

---

(١) الزنبيل ، بالكسر وقد يفتح : القفة أو الجراب أو الوعاء .
(٢) سورة المرسلات ١٩
(٣) يقال : يحوس الذئب الغنم ؛ أى يتخللها ويفرقها .

وكان يقال : لولا ظُلْمة الخطأ ماأشرَق نورُ الصّواب .

وقال أبو سعيد السِّيرافىّ : رأيتُ متـكلِّما ببغدادَ بلغ به نقصُه فى العربيّة أنه قال فى مجلس مشهور : إنّ العبد « مضطَرّ » بفتح الطاء ، والله « مضطِرّ » بكسرها ؛ وزعم أنّ من قال: « اللهمضطَرّ عبده إلى كذا » ، بالفتح كافر ، فانظر أين بلغ به جهلُه ، وإلى أىّ رَذِيلة أدّاه نقصُه !

وصف بعضُهم إنسانا أحمقَ ، فقال : والله للحِكمة أزلّ عن قلبه من المداد عن الأدِيم الدَّهين

مرّ عمرُ بنُ الخطّاب على رُماةِ غَرَض ، فسمِع بعضَهم يقول : أخطيْتَ وأسبْتَ ؛ فقال له : مَهْ ، فإن سُوء اللّحن شرّ من سُوء الرّماية .

تضجّر عمرُ بنُ عبدالعزيز من كلام رجلٍ بين يديه ، فقال له صاحبُ شُرْطتِه : قم فقد أوذِيتَ أميرَ المؤمنين ! فقال عمر : والله إنّك لأشدّ أذًى لى بكلامِك هذا منه .

ومِن حَمْقَى العرب وجُهلائهم كلابُ بنُ صعصعة ، خرج إخوتُه يشترون خَيْلا ، فخرج معهم ، فجاء بعِجْل يقوده ، فقيل له : ماهـذا ؟ فقال : فرسٌ اشتريتُه ؛ قالوا : ياماثق [1] ! هذه بقرة ، أما ترى قرْنيْها ! فرجع إلى منزله فقطَع قرْنَيها ، ثم قادها ، فقال لهم : قد أعدْتُها فرسا كما تريدون ، فأولادُه يُدْعَوْن بنى فارس البَقَرة .

وكان شَذرة بن الزِّبرِقان بن بَدْر من الحَمْقى ، جاء يومَ الجمعة إلى المسجد الجامع فأخَذ بعِضادَتَى [2] الباب ، ثمّ رفع صوتَه : سلامٌ عليكم ، أيَلِـج شَذَرة ؟ فقيل له : هذا يومٌ لا يُستَأذَن فيه ، فقال : أوَ يَلِـج مِثلى على قَوْم ولم يُعرَف له مكانُه .

---

(١) المائق : الأحمق

(٢) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه .

واستعمل معاويةُ عاملا من كَلْب ، فَخطَب يوما ، فذكَرَ المجوسَ ، فقال : لعَنَهم الله ! يَنكِحون أمَّهاتِهم ، والله لو أُعطِيتُ عشرةَ آلافِ دِرْهم ما نكحتُ أمّى ، فبلغ ذلك معاوية ، فقال : قبّحه الله ! أترَوْنه لو زادوه فعَل ! وعزَله .

وشرَدَ بعيرٌ لِهَبَنّقة ـ واسمُه يزيدُ بن شَرْوان ـ فجعل يُنادِى : لمن أتى به بَعيرَان ، فقيل له : كيف تبذُل وَيْلك بَعيرَيْن فى بَعير ! فقال لِحَلاوةِ الوِجْدان .

وسُرِقَ من أعرابىٍّ حمارٌ ، فقيل له : أسُرِق حمارُك ؟ قال : نَعم ، وأحمَدَ اللهَ ، فقيل له : على ماذا تحمَده ؟ قال : كيف ! لم أكن عليه .

وخَطَب وكيعُ بنُ أبى سود[1] بخُراسانَ ، فقال : إنّ الله خَلَق السّموات والأرضَ فى ستّة أشهر ، فقيل له : إنّها ستّة أيّام ، فقال : والله لقد قلتُها وأنا أستَقِلّها !

وأُجرِيَتْ خيلٌ فطَلَع فيها فَرَس سابقٌ ، فجعل رجلٌ من النّظّارة يكبّر ويَثِب من الفرَح ، فقال له رجل إلى جانبه : يافتى ، أهذا الفرس السابق لك ؟ قال : لا ولكنّ اللّجامَ لى .

وقيل لأبى السّفّاح الأعرابىّ عند موته : أَوْصِ ، فقال : إنّا الكرام يوم طِخْفة[2] ، قالوا : قلْ : خيراً ياأبا السّفاح ، قال : إن أحبّت امرأتى فأعطُوها بعيراً ، قالوا : قل خيرا ، قال : إذا مات غلامى فهو حرٌّ .

وقيل لرجل عند موته : قل لا إله إلا الله ، فأَعرَض ، فأعادُوا عليه مرارا ، فقال لهم : أخبرونى عن أبى طالب ، قالَها عند موته ؟ قالوا : وما أنتَ وأبو طالب ! فقال : أَرغَب بنفسى عن ذلك الشريف .

---

(١) ب : « أسود » تصحيف صوابه فى د .

(٢) طخفة : موضع فى طريق البصرة إلى مكة ؛ ويوم طخفة من أيامهم ، لبنى يربوع على المنذر بن ماء السماء

وقيل لآخَرَ عند موته : ألا تُوصِى ؟ فقال : أنا مغفورٌ لى ، قالوا : قل : إن شاء الله ، قال : قد شاء الله ذلك ، قالوا : ياهذا لاتدَع الوصيّة ، فقال : لابنَىْ أخيه : يابْنَىْ حريثٍ، ارفعا وسادِى ، واحتَفِظا بالحلّة الجِياد [1] ، فإنّما حوْاَكما الأعادى .

وقيل : لمعلّم ابن معلّم : مالكَ أحمَق ؟ فقال : لو لم أكن أحمقَ ؛ لكنتُ ولدَ زِنا .

الأصلُ :

وقال عليه السلام لبعض أصحابه في علة اعتلها :

جَعَلَ ٱللهُ مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطًّا لِسَيِّئَاتِكَ ، فَإِنَّ ٱلْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ ، وَلَـكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ وَيَحُتُّهَا حَتَّ ٱلْأَوْرَاقِ ، وَإِنَّمَا ٱلْأَجْرُ فِي ٱلْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَٱلْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَٱلْأَقْدَامِ ، وَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّـةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْجَنَّةَ .

* * *

قال الرضي رحمه الله تعالى :

وأقولُ : صدَق عليه السلام ، إنَّ المَرَض لا أجرَ فيه ، لأنه من قَبيلِ ما يُستحَقُّ عليه العِوَضُ ؛ لأنَّ العِوَض يُستحَقُّ على ما كان فى مُقابلة فِعْل الله تعالى بالعَبد من الآلام والأمراض وما يَجرِى مَجرَى ذلك ، والأجرُ والثوابُ يُستحَقّان على ما كانَ فى مُقابِلِ فِعْل العبـد ، فبيْنَهما فَرقٌ قد بيَّنَهُ عليه السلام كما يَقتضيه عِلمُه الثَّاقِبُ ورأيُهُ الصَّائب .

* * *

الشَّـرحُ :

ينبغى أن يُحْمل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام فى هـذا الفصل على تأويلٍ يُطابق ما تدلّ عليه العقول وألاّ يُحْمل على ظاهرِه ، وذلك لأنّ المرض إذا استحقّ عليه الإنسان

العوض لم يجز أن يقال : إنّ العِوَض يَحُطّ السّيئات بنفسه ، لا على قول أصحابنا ، ولا على قول الإماميّة ، أمّا الإماميّة فإنهم مُرْجِئة ، لا يَذْهَبون إلى التحابُطِ ، وأما أصحابُنا فإنّهم لا تَحابط عنـدهم إلاّ فى الثّواب والعقـاب ؛ فأمّا العقاب والعِوَض فلا تَحابُط بينهما ، لأن التّحابُط بين الثواب والعقاب ، إنما كان باعتبار التنافى بينهما من حيثُ كان أحدُهما يتضمّن الإجلال والإعظام ، والآخر يتضمن الاستخفاف والإهانة ، ومحالٌ أن يكون الإنسانِ الواحد مُهاناً معظّما فى حالٍ واحدة ؛ ولما كان العِوَض لا يتضمّن إجلالا وإعظاما ، وإنما هو نفعٌ خالص فقط ، لم يكن منافيا للعِقاب ، وجاز أن يجتمع للإنسان الواحد فى الوقت الواحد كونه مستحقاً للعقاب والعوَض ، إمّا بأن يوفَّر العوض عليه فى دار الدنيا ، وإمّا بأن يوصَل إليه فى الآخرة قبل عِقابِهِ ، إن لم يمنع الإجماع من ذلك فى حقّ الـكافر ، وإمّا أن يُخَفَّف عنه بعضُ عقابه ، ويجعل ذلك بدلا من العوَض الذى كان سبيـلـه أن يُوَصل إليه ، وإذا ثبت ذلك وَجَب أن يُحمل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام على تأويل صحيح ، وهو الذى أراده عليه السلام ، لأنه كان أعرفَ الناس بهـذه المعانى ، ومنه تَعلّم المتـكلِّمون علم الـكلام ، وهو أن المرض والألم يَحُطّ الله تعالى عن الإنسان المبتلَى به ما يستحقّه من العقاب على معاصيه السالِفةِ تفضّلا منه سبحانه ، فلما كان إسقاط العقاب متعقّبا للمرض ، وواقعا بعده بلا فَصْل ، جاز أن يُطلق اللفظ بأنّ المرض يَحُطّ السيئات [1] ويحتّها حَتّ الوَرَق ، كما جاز أن يُطْلق اللفظ بأنّ الجماع يُحبل المرأة ، وبأن سَقْىَ البَذْر الماء يُنبتِه ، إن كان الولد والزرع عند المتكلمين وقعا من الله تعالى على سبيل الاختيار ، لا على الإيجاب ؛ ولـكنه أجرى العادة ؛ وأن يفعل ذلك عقيبَ الجماع وعقيب سَقى البَذْر الماء .

فإن قلت : أيجوز أن يقال : إنّ الله تعالى يمرض الإنسان المستحقّ للعقاب ، ويكون إنما أمرضه ليُسقط عنه العقاب لا غير ؟

---

(١) ا : « يحط عنه السيئات » .

قلت : لا ، لأنه قادر على أن يُسقِط عنه العقاب ابتداءً ، ولا يجوز إنزال الألم إلا حيث لا يمكن اقتناص العِوَض المجزى به إليه إلا بطريق الألم ، و إلّا كان فعلُ الألم عَبَثا، ألا تَرَى أنه لا يجوز أن يستحق زيدٌ على عمرٍ و ألف درهم فيضرِبَه و يقول : إنما أضربُه لأجعل ما يناله من أَلَم الضرب مُسقِطا لما أستحقّه من الدراهم عليه ! وتذمّه العقلاء و يسفهونه، ويقولون له : فهلاً وهبتَها له ، وأسقطتها عنه من غير حاجة إلى أن تضربه وتؤلمه ! والبحثُ المستقصى فى هذه المسائل مذكور فى كتبى الكلاميّة ، فليرجَع عليها . وأيضا فإن الآلام قد تنزل بالأنبياء وليسوا ذَوِى ذُنوب ومَعاصٍ ليقال : إنّها تحطها عنهم .

فأما قولُه عليه السلام : « و إنما الأجرُ فى القَوْل ... » إلى آخر الفَصْل ، فإنه عليه السلام قَسَم أسباب الثواب أقساما ؛ فقال : لمّا كان المَرَض لا يقتضى الثواب لأنه ليس فعل المكلّف — و إنما يستحق المكلف الثواب على ما كان من فِعله — وَجَب أن يبيّن ما الذى يستحق به المكلّف الثواب ، والذى يستحق المكلف به ذلك أن يفعل فعلا إما مِنْ أفعال الجوارح ، و إما من أفعال القلوب ، فأفعال الجوارح إمّا قولٌ باللسان أو عملٌ ببعض الجوارح ؛ وعبّر عن سائر الجوارح عدا اللسان بالأيدى والأقدام ، لأن أكثر ما يُفْعل بها ، و إن كان قد يُفْعل بغيرها ، نحو مجامِعَة الرجل زوجته إذا قُصِد به تحصينها وتحصينه عن الزّنا ، ونحو أن يُنحِّىَ حَجراً ثقيلا برأسه عند صَدْر إنسانٍ قد يقتُله ، وغير ذلك ، وأمّا أفعال القلوب فهى العزوم والإرادات والنظر والعلوم والظنون والندم ، فعبّر عليه السلام عن جميع ذلك بقوله: « بصدق النية والسريرة الصالحة» ، واكتفى بذلك عن تعديد هذه الأجناس .

فإن قلت : فإنّ الإنسان قد يستحق الثواب على ألاّ يفعل القبيح ، وهذا يخرم الحصر الذى حصره أمير المؤمنين ؟

قلت : يجوز أن يكون يذهب مذهب أبى علىّ فى أن القادر بقدرةٍ لا يخلو عن الأخذ والتَّرْك .

الأصلُ :

وقال عليه السلام فى ذكر خباب :

يَرْحَمُ ٱللهُ خَبَّابَ بْنِ ٱلْأَرَتّ ! فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِبًا ، وَهَاجَرَ طَائِعاً ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ ، وَرَضِىَ عَنِ ٱللهِ ، وَعَاشَ مُجَاهِدًا .

طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ ٱلْمَعَادَ ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ ، وَرَضِىَ عَنِ ٱللهِ !

* * *

الشَّرحُ :

[خبّاب بن الأرتّ]

هو خبّاب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سَعد بن زيدِ مناة ابن تميم ، يكنى أبا عبد الله ــ وقيل أبا محمد وقيل : أبا يحيى ــ أصابه سَبْىٌ فبيع بمكة[1] .

وكانت أمّه خَتّانة ، وخَبّاب من فقراء المسلمين وخيارهم ، وكان به مرض ، وكان فى الجاهليّة قَيْنا حدادا يَعْمل السيوف ، وهو قديمُ الإسلام ؛ قيل إنه كان سادس ستة ، وشهد بَدْرا وما بعدها مِن المشاهد ، وهو معدودٌ فى المعذَّبين فى الله ؛ سأله عمرُ بن الخطاب

(٢) الاستيعاب : « كان قينا يعمل السيوف فى الجاهلية ، فأصابه سباء فبيع بمكة ، فاشترته أم أنمار بنت سباع الخزاعية » .

أيام خلافته ما لقيت من أهل مكة ؟ فقال : انظُر إلى ظهرى ؛ فنظر فقال : ما رأيت كاليوم ظَهْرَ رَجل ! فقــال خبّاب : أوقَدوا لى نارا وسُحِبت[1] عليها ، فما أطفأها إلاّ وَدَكُ ظَهْرِى .

وجاء خبّاب إلى عمر ، فجعل يقول: ادنُهْ ، ادنُهْ ، ثم قال له : ما أحدٌ أحقّ بهذا المجلس منك ؛ إلاّ أن يكون عمّارَ بنَ ياسر . نزل خبّابٌ إلى الكوفة ، ومات بها فى سنة سبع وثلاثين ، وقيل : سنة تسع وثلاثين ، بعد أن شهد مع أمير المؤمنين علىّ عليه السلام صِفِّين ونَهْرَوان ، وصلّى عليه علىٌّ عليه السلام ، وكان سنُّه يومَ مات ثلاثا وسبعين سنة ، ودُفِن بظَهْر الكوفة[2] .

وهو أوّل من دُفِن بظَهْر الكوفة ، وعبدُ الله بن خَبَّاب هو الذى قتلته الخوارج ، فاحتجّ علىّ عليه السلام به وطلبهم بدَمِه ، وقد تقدّم ذكرُ ذلك .

(١) ب : « وسخنت » ، وأثبت ما فى ا ، د ، والاستيعاب .
(٢) انظر ترجمة خباب فى الاستيعاب ١ : ٤٣٨

الأصْلُ :

وقال عليه السلام :

لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي ، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ : « يَا عَلِيُّ ، لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ » .

* * *

الشَّرْحُ :

جَمّاتها بالفتح : جمعُ جَمّة ، وهى المكان يجتمع فيه الماء وهذه استعارة ، والخَيْشوم : أقصى الأنف .

ومرادُه عليه السلام من هذا الفصل إذكار الناس ما قاله فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو : «لا يُبغِضك مؤمن ، ولا يحبك منافق» ؛ وهى كلمةُ حقّ ، وذلك لأنّ الإيمان وبغضَه عليه السلام لا يَجتمعان ، لأن بغضه كبيرة ، وصاحب الكبيرة عندنا لا يسمّى مؤمنا ، وأمّا المنافق فهو الذى يُظْهر الإسلامَ ويُبْطن الكفر ، والكافرُ بعقيدته لا يحبّ عليًّا عليه السلام ، لأن المراد من الخبر المحبّة الدّينيّة ، ومن لا يعتقد الإسلام لا يحبّ أحداً من أهل الإسلام ، لإسلامه وجهاده فى الدّين ، فقدبان أنّ الكلمة حقّ ؛ وهذا الخبر مَرْوِىٌّ فى الصحاح بغير هذا اللفظ : « لا يحبُّك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلاّ منافق » ، وقد فسرناه فيما سبق .

الأصلُ :

سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ .

* * *

الشرحُ :

هذا حقّ ، لأن الإنسان إذا وقع منه القبيح ثمّ ساءه ذلك وندم عليه وتاب حقيقة التوبة كَفّرَتْ توبته معصيتَه ، فسقط ما كان يستحقّه من العقاب ، وحصل له ثوابُ التوبة ، وأمّا من فعل واجبا واستحقّ به ثوابا ثم خامره الإعجاب بنفسه والإدلال على الله تعالى بعلمه ، والتِّيه على الناس بعبادته واجتهاده ، فإنه يكون قد أَحْبط ثواب عِبادته بما شَفَعها من القبيح الذى أتاه ، وهو العُجْب والتِّيه والإدلال على الله تعالى ، فيعود لا مُثابا ولا مُعاقبا ، لأنه يتكافأ الاستحقاقان .

ولا ريب أنّ من حَصَل له ثواب التوبة ، وسَقط عنه عقاب المَعصية؛ خيرٌ ممن خرج من الأمْرَين كَفافا[1] لا عليه ولا له .

(١) الكفاف من الشىء، مثله

الأصلُ :

قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنفَتِهِ ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ .

***

الشرحُ :

قد تقدَّم الكلامُ فى كلّ هذه الشِّيَم والخصال ، ثم نقول هاهنا : إنّ كِبَر الهمّة خُلق مختصٌ بالإنسان فقط ، وأما سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك ، وإنما يتجرّأ كلّ نوع منها الفعل بقدر ما فى طبعه ، وعلوّ الهِمة حالٌ متوسِّطة محمودة بين حالتين طرفى رذِيلتين، وهما الندح، وتسميه الحكماء التفتُّح ــ وصغر الهمة ــ وتسميه الناس الدّناءة، فالتفتّح تأهل الإنسان لما لا يستحقه ، وصِغر الهمة تركه لما يستحقه لضعفٍ فى نفسه ، فهذان مَذْمومان ، والعدالة وهى الوَسَط بينهما محمودة ، وهى علوّ الهمة ، وينبغى أن يعلم أن المتفتح جاهلٌ أحمق ، وصغيرُ الهمة ليس بجاهل ولا أحمق ، ولكنه دنىء ضعيف قاصر ، وإذا أردت التحقيق، فالكبير الهمّة من لا يرضى بالهمم الحيوانيّة ، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند رعاية بطنه وفرجه ؛ بل يجتهد فى معرفة صانع العالم ومصنوعاته ، وفى اكتساب المكارم الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه فى الدّنيا ، ومجاور يه فى الآخرة . ولذلك قيل : مَن عظُمتْ همتُه لم يرض بقَيْنة مستردّة ، وحياةٍ مستعارة ، فإن أمكنك

أن تقتنى قنية [1] مؤبّدة ، وحياة مخلدة ، فافعل غير مكترث بقلّة مَن يَصحبك ويعينك على ذلك فإنه كما قيل : إذا عظم المطلوب قل المُساعد . وكما قيل :

* طرقُ العلاء قليـــلة الإِيناس *

وأما الـكلام فى الصدق والمروءة والشجاعة والأَنفَة والعفّة والغيرة ، فقد تقدّم كثيرٌ منه ، وسيأتى ما هو أكثر فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(١) ب : « قنية »

الأصْلُ

الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ ، وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ ، وَالرَّأْىُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى كتمان السرّ و إذاعته .

وقال الحكماء : السرّ ضربان : أحدُهما ما يُلقَى إلى الإنسان من حديثٍ ليُستَكتَم ، وذلك إمّا لفظا كقول القائل : اكتُم ما أقولُه لك ، و إمّا حالا وهو أن يَجْهر[1] بالقول حال انفراد صاحبه ، أو يخفّض صوتَه حيثُ يُخاطِبه ، أو يُخفِيه عن مُجالِسِيه ؛ ولهذا قيل : إذا حدّثك إنسانٌ والتَفَتَّ إليه فهو أمانة .

والضرب الثانى نوعان : أحدُهما أن يكون حديثاً فى نفسك تَستقبح إشاعتَه ، والثانى أن يكون أمرا تُرِيد أن تفعلَه .

و إلى الأوّل أشارَ النبىّ صلّى الله عليه وآله بقوله : « مَن أَتَى منكم شيئاً من هذه القاذُورات فليستَتِر بستْر الله عزّ وجلّ » ، و إلى الثانى أشار من قال: «مِنَ الوَهَن والضعْفِ إعلانُ الأمر قبل إحكامه » ، وكتمانُ الضّرب الأوّل من الوَفاء ، وهو مخصوص بعوامّ الناس ، وكتمان الضرب الثانى من الُمروءة والحَزْم ؛ والنوع الثانى من نَوْعيه أخصّ بالملوك وأصحاب السياسات .

قالوا : و إذاعة السرّ من قلّة الصبر ، وضِيق الصّدر ، ويُوصَف به ضَعَفة الرّجال

(١) ب : « يحدث » .

والنّساء والصّبيان . والسبب فى أنّه يَصعُب كتمانُ السرّ أنّ للإنسان قوّتين : إحداهما آخِذةٌ ، والأخرَى مُعطِيَة ، وكل واحدةٍ منهما تتشوّق إلى فعلِها الخاصّ بها ، ولولا أنّ الله تعالى وَكَل المعطية بإظهار ماعندها لما أتاك بالأخبار مَنْ لَمْ تُزَوّد ، فعَلَى الإنسان أن يُمسِك هذه القوّة ولا يُطلِقها إلّا حيث يَجِب إطلاقُها ، فإنها إنْ لم تُزَمّ وتُخطَم تقحّمت بصاحبها فى كلّ مَهلَكة .

احذرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ ، وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ .

* * *

الشَّرح :

ليس يعنى بالجوع والشِّبَع مايتعارَفُه الناس ، و إنما المراد : احْذَروا صَوْلة الكريم إذا ضِيمَ ، وامتُهِن ، واحذَرُوا صَوْلة اللئيم إذا أُكرِم . ومِثل المعنى الأوّل قولُ الشاعر :

لا يصبِر الُحرّ تحتَ ضَيْمٍ ... وإنّما يَصْبِر الحمارُ

ومِثلُ المعنى الثانى قولُ أبى الطيِّب :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ ... وإن أنتَ أكرمْتَ اللّئيم تمرّدَا [1]

---

(١) ديوانه ١ : ٢٨٨

الأصل

قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ .

* * *

الشرح

هذا مِثلُ قولهم : من لانَ اُستمالَ ، ومن قسا نفّر ، وما استُعبِد الُحرّ بمِثل الإحسان إليه . وقال الشاعر :

وإنّى لوَحْشِىٌّ إذا مازَجَرْتَنى ... وإنّى إذا أَلّفتَنى لألوفُ

فأمّا قولُ عُمارةَ بن عقيل :

تبحّثتُمُ سُخْطى فكدّر بحثُكمْ ... نَخِيلةَ نفس كان صفواً ضميرُها[1]

ولم يُلبِث التخشينُ نفساً كريمة ... على قومِها أن يَستمرّ مريرُها

وما النفسُ إلّا نطفةٌ بقرارةٍ ... إذا لم تكدّر كان صفواً غَدِيرها

فيكاد يُخالِف قولَ أمير المؤمنين عليه السلام فى الأصل ، لأنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام جَعَل أصلَ طبيعة القلوب التوحّش ، وإنّما تُستَمال لأمرٍ خارج[2] ، وهو التألّف والإحسان ؛ وعُمارة جَعَل أصلَ طبيعة النّفس الصفو والسلامة ، وإنّما تتكدّر وتجمَح لأمرٍ خارج[2] ، وهو الإساءة والإيحاش .

---

(١) الكامل للمبرد ١ : ٢٩ .

(٢) ا : « من خارج » .

الأصْلُ :

عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ .

***

الشَّرْحُ :

قد قال الناسُ فى الجدّ فأكثَروا ، وإلى الآن لم يتحقّق معناه ؛ ومن كلام بعضهم : إذا أقبل البَخْت باضَت الدَّجاجة على الوَتَد ، وإذا أدبرَ البَخْت أسعرَ الهاونُ فى الشّمس .

ومن كلام الحكماء : إنّ السعادةَ لتَلحظ الحجَر فيُدعَى ربّا .

وقال أبو حيّان : نوادر ابن الجصّاص الدالّة على تغفّله و بَلَهه كثيرة جدّا ، قد صُنّف فيها الكُتُب . مِنْ جُملتها أنّه سمع إنسانا يُنشِد نَسيباً فيه ذِكرُ هِند ، فأنكر ذلك ، وقال : لا تذكروا حماةَ النبىّ صلّى الله عليه وآله إلّا بخيرٍ ، وأشياء عجيبة أظرَف من هذا. وكانت سعادتُه تُضرَب بها الأمثال ، وكثرةُ أموالِه التّى لم يجتمِع لقارونَ مِثلها . قال أبو حيّان : فكان الناسُ يعجَبون من ذلك ، حتّى أنّ جماعةً من شُيوخ بَغداد كانوا يقولون : إنّ ابن الجصّاص أعقَلُ الناس ، وأحزَم الناس ، وإنّه هو الّذى ألحَم الحالَ بين المُعتضِد و بين خُمارَوَيْه بنِ أحمدَ بنِ طُولُون ، وسَفَر بينهما سِفارةً عجيبة ، و بَلَغ من الجِهَتين أحسنَ مَبلَغ ؛ وخَطَب قَطْر النّدَى بنت خُمارويه للمعتضِد ، وجهّزها من مصرَ

على أجمَلِ وَجْه وأعلى ترتيب ، ولـكنّه كان يَقصِد أن يتغافَل ويتجاهَل ويُظهِر البَلَه والنّقص ، يَستبقى بذلك مالَه ، ويَحرُس به نِعمتَه ، ويَدفَع عنه عينَ الكمال ، وحَسَد الأعداء .

قال أبو حيّان : قلتُ لأبى غسّانَ البَصْرىّ : أظنّ ماقاله هؤلاء صحيحا ، فإنّ المعتضِد مع حَزْمه وعقلِه وكمالِه وإصابةِ رأيِه مااختاره للسِّفارة والصّلح إلّا والمرجوُّ منه فيما يأتيه ويستقبِلُه من أيّامه نظير ماقد شُوهِد منه فيما مَضَى من زمانه ؛ وهل كان يجوز أن يصلُح أمرٌ قد تَفاقَم فسادُه وتَعاظَم واشتدّ برسالةِ أحمَقَ ، وسَفارةِ أخرَق ! فقال أبو غسّان : إنّ الجَدّ يَنسَخ حالَ الأخرق ، ويستُر عَيبَ الأحمَق ، ويَذُبّ عن عِرض المتلطِّخ ، ويقرِّب الصوابَ بمنطقه ، والصحّة برأيه ، والنجاحَ بسَعْيه ؛ والجَدّ يستخدم العقلاء لصاحبه ، ويَستعمِل آراءَهم وأفكارَهم فى مَطالبه ، وابنُ الجصّاص على ماقيل وروى وحدّث وحكى ، ولـكنْ جَدّه كفاه غائلَةَ الحُمْق ، وحَماه عَواقبَ الخُرْق ، ولو عرفت خَبْط العاقل وتعسّفه وسوءِ تأتّيه وانقطاعه إذا فارقه الجدّ ، لعَلِمت أنّ الجاهلَ قد يصيب بجهْله مالا يُصيبُ العالِم بعِلْمه مع حِرْمانه .

قال أبو حيّان : فقلت له : فما الجَدّ ؟ وما هذا المعنى الّذى علّقتْ عليه هذه الأحكامُ[1] كلّها ؟ فقال : ليس لى عنه عبارة معيَّنة ، ولـكن لى به عِلمٌ شافٍ ، استفدْته بالاعتبار والتّجربة والسّماع العريضِ من الصّغير والكبير ، ولهذا[2] سُمِع من امرأةٍ من الأعراب تُرقِص ابناً لها فتقول له : رزَقَك الله جَدًّا يَخدُمك عليه ذَوُو العقُول ، ولا رَزَقك عقْلا تَخدُم به ذوى الجدُود .

---

(١) د : « الأحوال » . (٢) ا : « وقد سمع » .

(٤٩)

الأصلُ :

أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقوبَةِ .

***

الشَّرحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقنِـع فى العَفْو والحِلْمْ .

وقال الأحنف : ما شىء أشدّ اتّصالا بشىءمن الحِلْم بالعِزّ .

وقالت الحُكماء : ينبغى للإنسان إذا عاقَبَ من يستحقّ العقوبة ، ألّا يكون سَبُعا فى انتقامه ، وألّا يُعاقِب حتّى يزول سلطانُ غضَبه ، لئلا يَقدَم على ما لا يجوز ، ولذلك جرَتْ سُـنّة السلطان بحَبْس المُجرم حتّى يَنظُر فى جُرْمه ، ويُعيدَ النّظر فيه .

وأُتِى الإسكندرُ بمُذنِبٍ فصَفَح عنه ؛ فقال له بعضُ جلسائه : لو كنتُ إياكَ أيُّها المَلك لقتلتُه ؛ قال : فإذا لم تكن إيّاى ولا كنتُ إيّاك لم يُقتَل .

وانتَهى إليه أنّ بعضَ أصحابه يَعيبه ، فقيل له : أيّهـا المَلِك ، لو نَهَـكْتَه عقوبةً ! فقال :يكون حِينئذٍ أبسَطَ لِساناً وعُذْرا فى اجتنابى .

وقالت الحـكماء أيضاً : لذّة العَفْوِ أطيَبُ من لَذّة التّشفّى والانتِقام ، لأنّ لذّة العَفْو يَشفَعها حميدُ العاقبة ، ولذّة الانتقام يَلحَقها ألمُ النّدم . وقالوا : والعقوبة ألأَمُ حالات ذِى القُدْرة وأدْناها ، وهى طرَفٌ من الجزَع ، ومَنْ رَضِىَ ألّا يكون بَينَه و بين الظالم إلّا سِترٌ رقيقٌ فلينتَصِف .

(٥٠)

الأَصْلُ :

السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً ، فَإِذَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

يُعجِبنى فى هذا المعنى قولُ ابنِ حَيُّوس :

إنِّى دعوتُ نَدَى الكِرامِ فلم يُجِبْ فلأَشْكُرَنَّ نَدًى أَجابَ وما دُعِى

ومن العجائِب والعَجائبُ جَمَّةٌ شكرٌ بَطِىءٌ عن نَدَى المتسرِّعِ

وقال آخَر :

ما اعتاضَ باذِلُ وجهِهِ بسؤالِهِ عِوَضا ولو نَال الغِنَى بسؤالِ

وإذا النَّوالُ إلى السؤالِ قَرَنْتَهُ رَجَحَ السؤالُ وخَفَّ كلُّ نَوالِ

الأصل :

لا غِنَى كالعَقْلِ ، ولا فَقْرَ كالجَهْلِ ، ولا مِيرَاثَ كالأدَبِ ، ولا ظَهِيرَ كالمُشَاوَرَةِ .

***

الشرح :

رَوَى أبو العبّاس فى " الكامل " عن أبى عبد الله عليه السلام أنه قال : خمسٌ من لم يكنّ فيه لم يكن فيه كثيرُ مستمتَع : العقلُ ، والدِّينُ ، والأدب ، والحياء ، وحُسن الخُلق .

وقال أيضا : لم يُقسم بين الناس شىء أقلّ من خمس : اليقين ، والقناعة ، والصبر ، والشكر ، والخامسة الّتى يكمُل بها هذا كلّه العقل .

وعنه عليه السلام : أوّل ما خَلَق اللهُ العقل ، قال له : أقبل ، فأقبل ؛ ثم قال له : أَدْبر ، فأَدبر ، فقال : ما خلقتُ خلقا أحبَّ إلىّ منك ، لك الثواب ، وعليك العقاب .

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : إن الله ليُبغِض الضعيف الذى لا زَبْرَ له ، قال : الزَّبْر : العقل .

وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما قسم اللهُ للعباد أفضلَ من العقل ، فنومُ العاقل أفضلُ من سَهَر الجاهل ، وفِطرُ العاقل أفضل من صَوْم الجاهل ، وإقامةُ العاقل أفضلُ من شخوص الجاهل ، وما بعث الله رسولاً حتى يَستكمل العقل ،

وحتى يكون عقله أفضل من عقُول جميع أمّته ، وما يُضْمره فى نفسه أفضلُ من اجتهاد جميع المجتهدين ، وما أدّى العبد فرائض الله تعالى حتى عقَل عنه ، ولا يبلُغ جميعُ العابدين فى عباداتهم ما يبلُغه العاقل ، والعقلاء هم أولُو الألباب، الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَمَا يَذَّكَّر إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ .

قال أبو العبّاس : وَقال رجل من أصحاب أبى عبد الله عليه السلام له وقد سمعه يقول ، بل يروى[1] مرفوعا : إذا بلغكم عن رجلٍ حُسن الحال فانظروا فى حُسْنِ عقله ، فإنما يُجازى بعقله : يابن رسولِ الله ، إن لى جارا كثيرُ الصّدَقة ، كثيرُ الصلاة ، كثير الحجّ ، لا بأس به ! فقال : كيف عقله ؟ فقال : ليس له عَقْل ؛ فقال : لا يرتفع بذاك منه .

وعنه عليه السلام : ما بعثَ الله نبيّا إلاّ عاقلا ، وبعضُ النبيّين أرجَحُ من بعض ، وما استخلف داودُ سليمان عليه السلام حتى اختبر عَقْله ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فمكث فى مُلكه ثلاثين سنة .

وعنه مرفوعا : صديقُ كلِّ امرئٍ عقله ، وعدوّه جهله .

وعنه مرفوعا : إنا معاشرَ الأنبياء نكلّمُ الناسَ على قَدْر عقولهم .

قال أبو العباس : وسئل أبو عبد الله عليه السلام : ما العقل ؟ فقال : ما عُبِد به الرّحمٰن ، واكتُسبت به الجنان .

قال : وقال أبو عبد الله : سُئل الحسن بنُ علىّ عليه السلام عن العقل ، فقال : التجرُّع للغُصّة ، ومداهنة الأعداء .

قلت : هذا كلامُ الحسن عليه السلام ، وأنا أقطع بذلك ،

---

(١) ا : « ويروى » .

قال أبو العبّاس : وقال أبو عبد الله : العاقل لا يُحدِّث من يخافُ تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف مَنعه ، ولا يثق بمن يخاف عذره ، ولا يرجو من لا يوثق برجائه .

قال أبو العبّاس : ورُوِى عن أبى جعفرٍ عليه السلام ، قال : كان موسى عليه السلام يُدنِى رجلا من بنى إسرائيل لطول سجوده ، وطُولِ صَمْتِه ، فلا يكاد يذهب إلى موضعٍ إلا وهو معه ، فبينا هو يوما من الأيام إذ مرّ على أرض مُعشبة تهتزّ ، فتأوّه الرجلُ ، فقال له موسى : على ماذا تأوّهتَ ؟ قال : تمنيت أن يكون لربى حمارٌ وأرعاه[1] ها هنا ، فأكبّ موسى طويلاً ببَصَره إلى الأرض اغتماما بما سمِع منه ، فانحطّ عليه الوَحْى ، فقال : ما الذى أنكرت من مقالة عبدى ! إنما آخُذ عِبادى على قَدْر ما آتيتُهم .

قال أبو العبّاس : ورُوِى عن على عليه السلام : هبَط جبرئيلُ عليه السلام على آدم عليه السلام بثلاث ليختار منها واحدة ويدَع اثنتين ، وهى : العقل ، والحياء ، والدين ؛ فاختار العقل ، فقال جبرائيل للحياء والدين : انصرفا ؛ فقالا : إنّا أُمِرْنا أن نكون مع العقل حيث كان ، فقال : فشأنكما ! ففازَ بالثلاث .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « ولا ميراثَ كالأدب » فإنى قرأتُ فى حِكَم الفُرس عن بزُرجُمِهر : ما ورّثت الآباء أبناءها شيئا أفضل مِن الأدب ، لأنها إذا ورّثتها الأدبا كتسبَتْ بالأدب المال ، فإذا ورّثتها المال بلا أدب أتلفته بالجهل ، وقَعَدَتْ صِفرا من المال والأدب .

قال بعض الحكماء : من أدّب ولدَه صغيرا ، سُرَّ به كبيرا .

وكان يقال : مَن أدّب ولده أرغم حاسِدَه .

وكان يقال : ثلاثةٌ لا غُرْبةَ معهنّ : مجانبة الرِّيَب ، وحُسن الأدب ، وكفُّ الأذى .

---

(١) د : « أرعاه » .

وكان يقال: عليكم بالأدب ، فإنه صاحبٌ فى السفر ، ومؤنسٌ فى الوَحدة ، وجمالٌ فى المحفل ، وسببٌ إلى طلب الحاجة .

وقال بُزُرْجِمْهر : مَن كثُر أدبُه كثُر شرَفُه وإن كان قبلُ وَضيعا ، وبَعُد صِيتُه وإن كان خاملا ، وساد وإن كان غريبا ، وكثرت الحاجةُ إليه وإن كان مُقِلاًّ .

وقال بعض الملوك لبعض وزرائِه : ما خيرُ ما يُرزقه العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ؛ قال : فإن عَدِمَه ؛ قال : أدبٌ يتحلّى به ، قال : فإن عَدِمَه ؛ قال : مالٌ يَستتِر به ؛ قال : فإن عَدِمه ؛ قال : صاعقة تُحْرِقه فتُريحُ منه العباد والبلاد .

وقيل لبعض الحكماء : متى يكون العلم شرًّا من عَدمه ؟ قال : إذا كثُر الأدب ونَقَصت القريحة — يعنى بالقريحة العقل .

فأما القول فى المَشُورة فقد تقدّم ، وربُما ذكرْنامنه نُبذاً فيما بعد .

الأصلُ :

الصَّبْرُ صَبْرَان : صَبْرٌ على ما تَكْرَهُ ، وصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ .

* * *

الشرح :

النوع الأول أشقّ من النوع الثانى ، لأن الأول صبرٌ على مَضَرّة نازلة ، والثانى صبرٌ على محبوب متوقَّع لم يحصل ، وقد تقدم لنا قول طويل فى الصبر .

سُئل بُزُرْجمهر فى بليّته [1] عن حاله ، فقال : هوّن علىّ ما أنا فيه فِكْرى فى أربعة أشياء : أولها أنّى قلت : القضاء والقَدَر لا بدّ من جريانهما ، والثانى أنّى قلت : إن لم أصبر فما أصنع ! والثالث أنّى قلتُ : قد كان يجوز أن تكون المِحْنة أشدّ من هذه ! والرابع أنى قلت : لعلّ الفرج قريب !

وقال أنو شرْوان : جميعُ أمر الدنيا منقسم إلى ضربين لا ثالث لهما : أمّا ما فى دفعه حيلة فالإضطراب دواؤه ، وأما ما لا حيلة فيه فالصبر شفاؤه .

---

(١) د : « بلواه »

الأصل :

اَلْغِنَى فِي الغُرْبَةِ وَطَنٌ ، والفَقْرُ فِي اَلْوَطَنِ غُرْبَةٌ .

***

الشرح :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقنع فى الفَقْر والغنى ومدحِهما وذمّهما على عادتنا فى ذِكْر الشىء ونقيضِه ، ونحن نذكرُ هاهنا زيادةً على ذلك .

قال رجلٌ لبقراط[1] : ما أشدّ فقرَكَ أيّها الحكيم ؟ قال : لو عرفتَ راحةَ الفَقْر لشَغَلَك التوجّع لنفسك عن التوجّع لى ؛ الفَقْر مَلِك ليس عليه مُحاسَبَة .

وكان يقال : أضعفُ الناس من لا يحتمِل الغنى .

وقيل للكِنْدِى : فلانٌ غنّى ؛ فقال : أنا أعلم أنّ له مالا ، ولكنى لا أعلم : أغنىٌّ هو أم لا ! لأننى لا أدرى كيف يعمل فى ماله !

قيل لا بن عمر : توفى زيد بن ثابت وترك مائتى ألف درهم ، قال : هو تركها لكنّها لم تتركه .

وقالوا : حسبك من شرف الفقر أنك لا ترَى أحدا يعصى الله ليفتقر ؛ أخذه الشاعرُ فقال :

يا عائبَ الفقرِ ألا تَزْدَجِرْ ... عَيبُ الغِنَى أكبرُ لو تعتبِرْ
إنّك تَعصِى اللهَ تبغِى الغِنَى ... وليس تَعصِى اللهَ كى تفتقِرْ

وكان يقال : الحلال يَقْطُر ، والحرام يَسِيل .

---

(١) ا : « سقراط » .

وقال بعض الحكماء : ألا ترَون ذا الغِنَى ما أدوَمَ نَصَبه ، وأقلَّ راحتَه ، وأخسَّ من ماله حظَّه ، وأشدَّ من الأيام حذَره ، وأغرَى الدهر بنقصه وثَلْمه ! ثمَّ هو بين سلطان يرعاه ، وحقوقٍ تسترعيه ، وأكفاء يُنافِسونه ، ووَلَدٍ يودّون موتَه ، قد بعث الغنى عليه من سلطانه العناء ، ومن أكفائه الحسَد ، ومن أعدائه البَغى ، ومن ذَوِى الحقوق الذّم ، ومن الوَلَد المَلالَة وتمنّى الفَقْد ، لا كَذِى البُلْغة قَنع فدامَ له السرور ، ورَفَض الدنيا فسَلِم من الحسَد ، ورَضِىَ بالكَفافِ فكُفِىَ الحقوق .

الأصْلُ :

القَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

قال الرضى رحمه الله تعالى : وقد روى هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وآله :

* * *

الشَّرْحُ :

قد ذكَرْنا نُكتًا جليلةَ المَوْقع فى القَناعة فيما تقدّم ونَذكُرها هنا زيادةً على ذلك .

فمن كلام الحكماء : قاوم الفقرَ بالقناعة ، وقاهِرِ الغِنَى بالتعفّف ، وطاولْ عَناءَ الحاسِد بحُسْن الصُّنع ، وغالِب الموتَ بالذّكر الجميل .

وكان يقال : الناسُ رجلان واجِدٌ لا يَكتفِى، وطالبٌ لا يجِد، أخَذَه الشاعر فقال :

وما الناسُ إلا واجدٌ غيرُ قانعٍ ... بأرزاقِه أو طالبٌ غيرُ واجِدِ

قال رجل لبقراطِ[1] ورآه يأكُل العُشْب[2] : لو خدمتَ المَلِك لم تحتجْ إلى أن تأكل الحشيشَ ، فقال له : وأنتَ إنْ أكلتَ الحشيشَ لم تَحتجْ أن تَخدِم المَلِك !

---

(١) ا ، ب : « سقراط » . (٢) د : « عشبا » .

الأصْلُ :

المَالُ مادَّةُ الشَّهَوَاتِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم لنا كلامٌ فى المال مَدْحا وذَمّا .

وقال أعرابىّ لبَنيهِ : اجمعوا الدراهم فإنّها تُلبِس اليَلْمَقَ ، وتطعِم الجَرْدَق[1] .

وقال أعرابىّ وقد نَظَر إلى دينار : قاتَلَك! اللهُ ما أصغَر قمَّتَك ، وأكبَر هِمّتك !

ومن كلام الحكماء : ما اخترتَ أن تَحيَا به فمت دونَهُ .

سئل أفلاطونُ عن المال ، فقال : ما أقولُ فى شىء يُعطِيه الحظّ ويَحفَظه اللّؤمُ ، ويبلغُه الكَرَمُ !

وكان يقال : ثلاثة يؤثرون المالَ على أنفُسِهم : تاجرُ البَحْر ، والمقاتِل بالأجْرة ، والمرتَشِى فى الحُكْم ، وهو شرّهم لأنّ الأوّلَين ربّما سَلِما ، ولا سلامةَ للثالث من الإثْم .

ثم قالوا : وقد سمّى الله تعالى المالَ خَيْرا فى قوله : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾[2] ، وفى قوله : ﴿ وإنّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[3] .

كان عبدُالرحمن بنُ عَوْف يقول : حبّذا المال ، أصُون به عِرْضى ، وأقرضُه ربّى

---

(١) اليلمق : القباء المحشو ؛ وهو بالفارسية : « يلمه » والجردق : الرغيف ؛ فارسية أيضا .

(٢) سورة البقرة ١٨٠ (٣) سورة العاديات ٨

فيضاعفَه لى . وقالوا فى ذمّ المال : المالُ مِثلُ الماءِ غادٍ ورائح ، طبعُه كطَبْع الصّبى لايُوقَف على سببِ رضاه ولا سُخْطه . المالُ لاينفعك مالم تُفارِقه .

وفيه قال الشاعر :

وصاحبِ صِدقٍ ليس يَنفَع قربُه   ولا وُدُّه حتّى تُفارِقَه عَمْـدا

وأَخَذ هذا المعنى الحريرىّ فقال :

وليس يُغنِى عنك فى المَضايِقِ   إلا إذا فَرّ فِرَارَ الآبِقِ

وقال الشاعر :

ألم ترَ أنّ المـالَ يُهلِكُ رَبَّه   إذا جَمّ آتِيه وسُدَّ طرِيقُه

ومَن جاوزَ البَحْر الغَزِيرَ بقَحْمَةٍ   وسَدّ طريقَ الماءِ فهو غَرِيقُه

الأصل :

مَنْ حَذَّرَكَ ، كَمَنْ بَشَّرَكَ .

***

الشرح :

هذا مِثلُ قولِهم : اتَّبِع أمرَ مُبْكيانِك ، لا أمرَ مُضْحِكاتك[١] . ومِثْلُه : صديقك من نهاك ، لا من أغراك . ومثله : رَحِم الله امرأً أهدَى إلىّ عيوبى .

والتحذير هو النّصح ، والنّصح واجب ، وهو تعريفُ الإنسان ما فيه صَلاحُه ، ودفع المَضَرّة عنه ، وقد جاء فى الخبر الصّحيح : « الدِّين النصيحة » ، فقيل : يا رسول الله ، لمن ؟ فقال : « لعامّة المسلمين » . وأوّل ما يجب على الإنسان أن يُحذِّر نفسَه و ينصَحها ، فمن غَشّ نفسَه فقلّما يُحذِّر غيرَه و ينصَحُه ، وحَقّ من اُستُنصِح أن يَبذُل غايةَ النُّصح ولو كان فى أمرٍ يضرّه ، و إلى ذلك وقعَتِ الإشارة فى الكتاب العزيز بقوله سبحانه : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾[٢]، وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾[٣] .

ومعنى قوله عليه السلام « كَمن بشّرك » ، أى يَنبغى لك أن تُسَرّ بتحذيره لك ، كما تُسَرّ لو بشّرَك بأمرٍ تحبّه ، وأن تَشكُرَه على ذلك كما تَشكُر لو بشّرك بأمرٍ تحبّه ، لأنّه لو لم يكن يُريدُ بك الخير لما حَذّرك من الوُقوع فى الشرّ .

---

(١) الميدانى ١ : ٣٠ ، ولفظه هناك : « أمر مبكيانك لا أمر مضحكاتك »

(٢) سورة النساء ١٣٥ (٣) سورة الأنعام ١٥٢

الأَصْلُ :

اللِّسانُ سَبُعٌ ، إن خُلِّيَ عَنْهُ عَقَرَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم لنا كلامٌ طويل فى هذا المعنى .

وكان يقال : إن كان فى الكلام دَرَكٌ ففى الصّمت عافية .

وقالت الحكماء : النّطق أشرف ما خُصّ به الإنسان ، لأنّه صورتُه المعقولة التى بايَنَ بها سائرَ الحيوانات ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1]، ولم يقل : « وعلّمه » بالواو ، لأنّه سبحانه جَعَل قوله : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ تفسيراً لقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ؛ لا عطفاً عليه ؛ تنبيهاً على أنّ خلقَه له وتخصيصَه بالبيان الذى لو توهّم مرتفِعا لارتفَعَتْ إنسانيّته ؛ ولذلك قيل : ما الإنسانُ لولا اللّسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة ، أو صورةٌ ممثَّلة .

وقال الشاعر :

لسانُ الفَتَى نصفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ ... فلم يبقَ إلّا صورة اللّحمِ والدّمِ[2]

قالوا : والصّمت من حيثُ هو صَمْتٌ مَذْموم ، وهو من صفات الجمادات ، فَضْلا

---

(١) سورة الرحمن

(٢) ينسب لزهير ، من معلقته بشرح الزوزنى ٩٤ .

عن الحيوانات ، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وغيرِه من العُلَماء فى مَدْح الصّمت محمول على مَنْ يسىء الـكلامَ فيقَعُ منه جِنايات عظيمة فى أمور الدِّين والدّنيا ، كما رُوِى فى الخبر : إنّ الإنسان إذا أصبَح قالت أعضاؤه للسانه : اتّق اللهَ فينا ، فإنّك إن استقَمتَ نجوْنا ، وإن زُغْت هَلَـكْنا » ، فأما إذا اعتُبر النُّطقُ والصّمتُ بذاتَيْهما فقط ، فمُحالٌ أن يقال فى الصمت فضلٌ ، فضلا عن أن يخايَرَ و يقايَسَ بينه و بين الـكلام .

الأصل :

المَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّسْبَةِ .

***

الشرح :

اللَّسْبة : اللّسعة ، لَسَبْته العقْرب بالفتح ، ولَسِبْت العسل بالكسر ، أى لعقْتُه .

وقيل لِسُقراط ؛ أىُّ السِّباع أجسر ؟ قال : المرأة .

ونظرَ حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة على شجرةٍ ، فقال : ليتَ كلَّ شجرةٍ تحمل مِثل هذه الثّمرة .

مرّت بسقراط امرأةٌ وهى تتشوّف[1] ، فقالت : ياشيخ ، ما أقبحَك ؟ فقال : لولا أنّكِ من المرايا الصَّدِئة لغَمّنى مابان مِن قُبْح صورتى فيكِ .

ورأى بعضهم مؤدّبا يعلِّم جاريةً الكتابة ، فقال : لا تَزِد الشرّ شرّا ، إنما تسقى سَهْما سمّا لترمِى به يوماً ما .

ورأى بعضهم جاريةً تحمل نارا ، فقال : نارٌ على نار ، والحامل شرٌّ من المحمول .

وتزوّج بعضهم امرأةً نحيفة ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : اخترتُ من الشرّ أقلّه .

كتب فيلسوفٌ على بابه : ما دَخَل هذا المنزل شرٌّ قطّ ، فقال له بعضهم : اكتُب : « إلاّ المرأةَ » .

---

(١) د : « تتشرف » .

ورأى بعضُهم امرأةً غريقة فى المـاء ، فقال : زادت الـكَدَرَ كَدَرًا ، والشرّ بالشرّ يهلِك.

وفى الحديث المرفوع : « استعيذوا بالله من شِرار النِّساء ، وكونوا من خيارهنّ على حَـذَر » .

وفى كلام الحكماء : اعص هَواكَ والنساء ، وافعلْ ما شئت .

دعا بعضهم لصاحبه ، فقال : أماتَ اللهُ عدوّك ؟ فقال : لو قلت : زوّج الله عدوّك، لـكان أبلغ فى الانتقام !

ومن الـكنايات المشهورة عنهنّ : « سِلاحُ إبليس » .

وفى الحديث المرفوع : « إنهنّ ناقصاتُ عَقْلٍ ودِين » .

وقد تقدّم مِن كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الـكتاب ما هو شرحٌ وإيضاح لهـذا المعنى .

وجاء فى الحديث أيضا : « شاوروهنّ وخالِفوهنّ » .

وفى الحديث أيضاً : « النساء حبائلُ الشيطان » .

وفى الحديث أيضاً : « ما تركتُ بعدى فتنةً أضرّ من النِّساء على الرّجال » .

وفى الحديث أيضاً : « المرأةُ ضِلَع عَوْجاء إنْ دارَيْتَها استمتعتَ بها ، وإن رُمْت تقويمها كسَرْتَها » . وقال الشاعر فى هذا المعنى :

هى الضِّلَع العَوْجاء لستَ تقيمُها ... ألَا إنّ تقويمَ الضّلوع انكِسارُها
أيجمعن ضَعفاً واقتدارًا على الفتى ... أليسَ عجيباً ضَعفُها واقتِدارُها !

ومن كلام بعض الحـكماء : ليس ينبغى للعاقل أن يمدح امرأةً إلّا بعد موتها .

وفى الأمثال : لا تحمَدنّ أَمةً عامَ شِرائها ، ولا حُرّةً عام بنائها .

ومن كلام عبد الله المأمون : إنهن شرٌّ كلُّهن ، وشرّ ما فيهن أن لا غِنًى عنهن .

وقال بعضُ السّلف : إنّ كيدَ النّساء أَعْظمُ من كيد الشيطان ، لأن الله تعالى ذكر الشيطان ، فقال : ﴿ إنّ كيدَ الشّيطان كان ضعيفا[1] ﴾ .

وذكر النساء فقال : ﴿ إنه من كَيدكُنّ إنّ كيدكنّ عظيم ﴾[2] .

وكان يقال : من الفواقِرامرأة سَوْء إن حَضَرْتَها لسَبَتْك ، وإن غِبتَ عنها لم تأمَنْها .

وقال حكيم : أضرّ الأشياء بالمال والنفس والدّين والعقل والعِرض شِدّة الإغرام بالنساء ؛ ومِن أعظم ما يبتلى به المغرَم بهن أنه لا يقتصر على ما عنده منهن ولو كنّ أُلفا ، و يَطْمَح إلى ما ليس له منهن .

وقال بعض الحُكماء : مَن يُحصى مساوئَ النساء ! اجتمع فيهن نَجاسة الحَيض والاستحاضة ، ودم النِّفاس ، ونَقْص العقل والدين ، وتَرْك الصوم والصلاة فى كثير من أيّام العمر ، ليست عليهن جماعة ولا جُمُعة ، ولا يسلَّم عليهن ، ولا يكون منهن إمامٌ ولا قاضٍ ولا أمير ولا يسافرن إلاّ بوَليّ .

وكان يقال : ما نهِيت امرأةٌ عن أمر إلاّ أتته .

وفى هذا المعنى يقولُ طُفَيل الغَنَوىّ :

إنّ النساءَ كأشجارٍ نَبَتْنَ معًا ... هُنّ المُرَارُ و بعضُ المُرّ مأكولُ

إنّ النساء مَتى يُنْهَيْن عن خُلقٍ ... فإنه واجبٌ لا بدّ مفعولُ

---

(١) سورة النساء ٧٦ (٢) سورة يوسف ٢٨

الأَصْلُ :

إذَا حُيِّيتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيِّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَإذَا أُسْدِيَتْ إلَيْكَ يَدٌ فَكَافِئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا ، وَالفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِئِ .

***

الشَّرْحُ :

اللفظة الأولى من القرآن [1] العزيز ، والثانية تتضمّن معنًى مشهورا .

وقولُه : « والفَضْل مع ذلك للبادئ » ، يقال في الكَرَم والحثّ على فِعلِ الخير .

ورَوَى المدائنيّ ، قال : قَدِم على أسدِ بنِ عبدِ الله القُشَيْرِيّ بخراسانَ رجلٌ ، فدخلَ مع الناس ، فقال أصلَح الله الأمير ! إنّ لى عندك يداً ؛ قال : وما يَدُك ؟ قال : أخذتُ بركابِك يومَ كذا ؛ قال : صدَقْتَ ؛ حاجَتَك ؛ قال : تولّينى أَبِيوَرْد ؛ قال : لِمَ ؟ قال : لأكسَب مائةَ ألف دِرْهم ؛ قال : فإنّا قد أَمَرْنا لك بها السّاعة ، فتكون قد بلّغناك ماتحِبّ ، وأقرَرْنا صاحبَنا على عَمَله ، قال : أصلَح اللهُ الأميرَ ! إنّك لم تقضِ ذِمامى ؛ قال : ولِمَ ؛ وقد أعطيتُك ماأمّلت ؟ قال : فأين الإمارة ؟ وأين حُبّ الأمرِ والنّهى ! قال : قد ولّيتُك أبيوَرْد ، وسَوّغتُ لك ما أَمرتُ لك به ، وأعفَيْتُك من المحاسَبة إن صرفتُك عنها ؛ قال : ولِمَ تَصرِفُنى عنها ولا يكون الصّرف إلّا مِنْ عَجْز أو خِيانة ،

(١) وهو قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ وَإذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾

وأنا برىء منهما ؟ قال : اذهبْ فأنتَ أميرُها مادامتْ لنا خُراسان ؛ فلم يزَل أميرا على أبِيوَرْدَ حتّى عُزِل أسد .

قال المدائنىّ : وجاء رجلٌ إلى نَصْر بنِ سَيّار يَذكُر قرابةً[(١)]، قال : وما قَرابتُك؟ قال : ولّدتْنى و إيّاكَ فُلانة ! قال نصر : قرابة عَوْرة ، قال : إنّ العَوْرة كالشَّنّ البالى ، يَرْقَعه أهله فينتفِعون به ؛ قال : حاجَتَك ؛ قال : مائة ناقة لاقِح ، ومائة نَعْجة رُبَّى — أى معها أولادُها — قال : أمّا النِّعاج فخُذْها ؛ وأمّا النُّوق فنأمرُ لك بأثمانها .

وروَى الشَّعبىُّ ، قال : حضرتُ مجلسَ زِياد وحضرَه رجلٌ فقال : أيّها الأمير ، إنّ لى حُرْمةً أفأذكرها ؟ قال : هاتِها ، قال : رأيتُك بالطائف وأنتَ غُلَيِّم ذو ذُؤابة ، وقد أحاطت بك جماعةٌ من الغِلْمان ، وأنت تَركُض هذا مَرّةً بِرجْلِك ، وتَنطَح هذا مرّةً برأسك ، وتَكدِم مرّةً بأنيابك ، فكانوا مرّة ينثالون عليك ، وهذه حالُهم ؛ ومرّة ينِدّون عنك وأنت تَتْبَعُهم ؛ حتّى كاثَروك واستقوَوْا عليك ، فجئتُ حتّى أخرجْتُك من بينهم وأنت سَليم وكلُّهم جريح ؛ قال : صدقت ، أنت ذاك الرجل ! قال : أنا ذاك ؛ قال حاجَتَك ، قال : الغِنَى عن الطّلَب ؛ قال : ياغلام ، أعطِه كلّ صَفْراء و بَيْضاء عندَك ، فنظر فإذا قِيمةُ كلّ ما يَملِك ذلك اليوم من الذّهب والفضّة أربعةٌ وخمسون ألف دِرْهَم . فأخَذها وانصرَف ، فقيل له بعد ذلك : أنتَ رأيت زِيادا وهو غلام بذلك الحال ؟ قال : إى واللهِ ، لقد رأيته وقد اُكتَنَفَه صبيّان صغيران كأنّهما من سِخالِ المَعِز ، فلولا أنّى أدركتُه لظننتُ أنهما يأتيان على نفسه .

وجاء رجلٌ إلى معاوية وهو فى مجلس العامّة ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنّ لى حُرمةً[(٢)]، قال : وما هى ؟ قال : دنوتُ مِن ركابِك يومَ صِفِّين ، وقد قربت فرسُك لتفرّ ، وأهلُ

---

(١) د : « قرابته » .

(٢) د : « حرمة وذماما » .

العراق قد رأَوا الفتحَ والظَّفَر ، فقلتُ لك : واللهِ لو كانت هندُ بنتُ عُتبةَ مكانَكَ مافرّت ولا اُختارت إلّا أن تموت كريمةً أو تعيشَ حميدة ، أين تفِرّ وقد قلّدتْكَ العربُ أزِمّة أمورِها ، وأعطتْكَ قِيادَ أعِنّتها ! فقلتَ لى : اخفِض صوتَك لا أمّ لك ! ثمّ تماسَكْتَ وثُبْتَ وثابَتْ إليكَ حماتك ، وتمثّلتَ حينئذٍ بشِعر أحفَظ منه :

وقَوْلِي كلَّما جَشَأَتْ وجاشَتْ مكانَكِ تُحمَدِى أو تَسْتَرِيحِى [١]

فقال معاوية : صدقتَ ، وَدِدْتُ أنك الآن أيضا خفّضتَ من صوتِك ؛ ياغلام أعطِه خمسين ألفَ دِرهم ، فلو كنتَ أحسنتَ فى الأدب لا حسنّا لك فى الزيادة .

---

(١) لابن الإطنابة ؛ الكامل ٤ : ٦٨ ، وقبله :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلَائِى وأخذِى الحمدَ بالثَّمَنِ الرَّبيحِ

وإجشامِى على المكروه نَفْسِى وَضَرْبِى هامةَ البطلِ المشيحِ

الأَصْـلُ :

الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ .

***

الشَّـرْحُ :

جاء في الحديث مرفوعاً : « اشفَعوا إلىَّ تؤْجَروا ، ويَقضِي اللهُ على لسان نبيّه ما شاء الله » .

وقال : المأمونُ لابراهيمَ بن المهديّ لمّا عفا عنـه : إنّ أعظمَ يداً عندَك مِن عَفْوى منك أنّى لم أجرِّعك مَرارةَ امتنانِ الشافعين .

ومن كلامِ قابوسَ بنِ وَشْمَـكِير : بزَنْد الشفِيع تُورَى نارُ النّجـاح ، مِنْ كَفّ المُفيضُ يُنتَظَر فَوزُ القِداح .

قال المبرّد : أتانى رجل يَستشفِع لى فى حاجة ، فأنشَدنى لنفسه :

إنِّى قصدتُك لا أُدلِى بمَعرفـةٍ ... ولا بقُربَى ، ولـكنْ قد فَشَتْ نِعَمُكْ

فبتُّ حَـيْرانَ مَـكْروبا يؤرِّقُنِى ... ذُلُّ الغَريب و يُغشِينى الـكَرَى كَرَمُكْ

ولو هَمَمْتَ بِغير العُرْف ما عَلِقَتْ ... به يَدَاك ولا انقادَتْ له شِيَمُكْ

ما زِلتُ أنـكَبُ حتّى زُلزِلتْ قَدَمى ... فاحتَلْ لتَثْبِيتها لا زُلزِلَتْ قَدَمُكْ

قال : فشفعتُ له وقمتُ بأمره حتّى بلغتُ له ما أحبّ .

بُزُرْجِمِهر : مَن لم يستغنِ بنفسِه عن شفيعِهِ ووسائِله وَهَتْ قُوَى أسبابِه ؛ وكان إلى

الحرمان أقربَ منه إلى بلوغ المراد . ومِثله : من لم يرغب أودّاؤه فى اجتنابه ، لم يَحظَ بمَدْح شُفَعائه . ومِثله : إذا زرتُ الملوكَ فإنّ حَسْبى شفيعاً عندَهم أن يَعرِفونى .

كلّم الأحنفُ مصعبَ بنَ الزّبير فى قومٍ حَبَسهم ، فقال : أصلَحَ اللهُ الأمير ! إن كان هؤلاء حُبِسوا فى باطلٍ فالحقّ يُخرجهم ، وإن كانوا حُبِسوا فى حَقٍّ فالعفو يَسَعُهم ، فأمَر بإخراجِهم .

آخر :

إذا أنتَ لم تَعطِفْكَ إلّا شفاعةٌ　　　فلا خيرَ فى وُدٍّ يكونُ بشافِـعِ

خرج العطاء فى أيّام المنصور ، وأقام الشّقرانىّ – من وَلَد شُقْرانَ مولَى رسول الله صلّى الله عليه وآلِه – ببابه أيّاما لا يَصل إليه عطاؤه ؛ فخرَج جعفرُ بنُ محمّد من عندالمنصور ، فقام الشّقرانىّ إليه ، فذكر له حاجتَه ، فرَحّب به ، ثمّ دخل ثانيا إلى المنصور ، وخرج عطاء الشّقرانىّ فى كمّه فصَبّه فى كُمّه ثم قال : يا شُقْران ، إنّ الحسَن من كلّ أحدٍ حَسَنٌ ، وإنّه منك أحسَنُ لِمكانك مِنّا ، وإن القبيحَ من كلّ أحدٍ قبيحٌ ، وهو منكَ أقبحُ لِمكانِك منّا . فاستحسَن الناسُ ما قالَه ، وذلك لأنّ الشّقرانىّ كان صاحبَ شراب . قالوا : فانظر كيف أحسَنَ السعىَ فى استنجاز طَلِبته ، وكيف رَحّب به وأكرَمَه مع معرفته بحاله ، وكيف وَعَظه ونَهاه عن المُنكَر على وجه التّعريض ! قال الزّمَخشَرِىّ : وما هوَ إلّا من أخلاق الأنبياء . كتَبَ سعيدُ بنُ حُميد شفاعةً لرجل : كتابى هذا كتابُ مُعْتَنٍ بمن كتِب له ، واثقٍ بمن كتِب إليه ، ولن يضيعَ حامِلُه بين الثّقة والعناية إن شاء الله .

أبو الطّيب :

إذا عرَضَتْ حاجٌ إليه فنَفْسُـه　　　إلى نفسِه فيها شفيعٌ مشفَّعُ [1]

---

(١) ديوانه ٢ : ٢٤٣ .

[محمد بن جعفر والمنصور]

كان المنصورُ مُعجَبا بمحادثة محمّد بنِ جعفر بنِ عُبيد الله بنِ العبّاس ، وكان الناسُ لعظم قدرِه عندَ المنصور يَفزَعون إليه فى الشّفاعات وقضاءِ الحاجات ، فثَقُل ذلك على المنصور ، فحَجبَه مدّة ، ثمّ تتبّعَتْه نفسُه، فحادَثَ الرّبيعَ فيه ، وقال : إنّه لا صبرَ لى عنه ، لكنّى قد ذكرتُ شفاعاتِه ، فقال الربيع : أنا أشترط عليه ألّا يعودَ ، فكلّمَه الربيع ، فقال : نعَم ، فمَكَث أيّاما لا يشفع ، ثمّ وقف له قومٌ من قُرَيش وغيرِهم برِقاع وهو يريدُ دارَ المنصور ، فسألوه أن يأخذَ رِقاعَهم ، فقصّ عليهم القصّة ، فضرَعوا إليه وسألوه ، فقال : أمّا إذ أبَيْتم قبول العُذْر فإنّى لا أَقبِضها منكم ، ولكنْ هلمّوا فاجعلوها فى كُمّى؛ فقَذَفوها فى كُمِّه ، ودَخَل على المنصور وهو فى الخَضْراء يُشرِف على مدينة السلام وماحولَها بين البساتين والضِّياع ، فقال له : أما ترَى إلى حُسْنها ! قال : بلى ياأميرَ المؤمنين ، فبارَكَ اللهُ لك فيما آتاك ، وهنّأك بإتمامِ نِعمتِه عليك فيما أعطاك ! فما بَنَت العربُ فى دولة الإسلام ، ولا العَجَمُ فى سالفِ الأيّام ؛ أحصَنَ ولا أحسَنَ من مدينتك ، ولكن سمّجَتْها فى عينى خَصْلةٌ ، قال : ماهى ؟ قال : ليس لى فيها ضَيْعة ، فضَحِك وقال : نحسِّنها فى عينِكَ، ثلاثُ ضِياع قد أقطعْتُكها ؛ فقال : أنتَ واللهِ ياأميرَ المؤمنين شريفُ الموارِد ، كريمُ المَصادِر ، فجعل الله باقِيَ عمرِك أكثرَ مِنْ ماضِيه؛ وجعلَتِ الرِّقاعُ تبدُر من كُمّيه فى أثناء كلامِه وخطابه للمنصور ، وهو يَلتفِت إليها ويقول : ارجِعْن خاسئاتٍ ، ثمّ يعود إلى حديثه ، فقال المنصور : ماهذه بحقّى عليكَ ؟ ألا أعلمْتَنى خبرَها ! فأعلَمه ، فضَحِك فقال : أبَيْتَ يابنَ معلّم الخيرِ إلّا كَرَما ! ثمّ تمثّل بقول عبدِ الله بنِ معاويةَ بنِ عبد الله بنِ جعفر بن أبى طالب :

لَسْنا وإنْ أحسابُنا كَمُلتْ ... يوماً على الأحسابِ نَتّكِلُ[1]
نَبْنِي كما كانت أوائلُنــا ... تَبْنِى ونفْعَــل مِثــلَ مافَعَلوا

ثمّ أخذها وتصفّحها ووقّع فيها كلّها بما طلب أصحابُها .

قال محمد بنُ جعفر : فخرجتُ من عنده وقد رَبِحْتُ وأرْبحتُ .

* * *

قال المبرّد لعبد الله بن يحيى بن خاقان : أنا أشفع إليك أصلحَك الله فى أمر فلان ، فقال له : قد سمعتُ وأطعتُ ، وسأفعل فى أمره كذا ، فما كان مِن نقصٍ فعلىّ ، وما كان من زيادة فله ؛ قال المبرّد : أنت أطال الله بقاءك كما قال زُهَير :

وجارٍ سارَ معتمداً إليـنــا ... أجاءتْه المخافةُ والرّجاء[2]
ضمنّا مالَه فغَدَا سَليماً ... علينا نَقْصُه وله النّمــاء

وقال دِعْبِل :

وإنّ امرأً أسْدَى إلىّ بشافع ... إليه ويرْجُو الشكر مِنّى لأحمقُ[3]
شفيعُك يا شكر الحوائج إنه ... يَصونك عن مكروهها وهو يخلق

آخر :

مَضى زَمنى والناسُ يستشْفعون بى ... فهل لى إلى ليلى الغَداةَ شفيعُ !

آخر :

ونبئتُ لَيلى أرسلتْ بشفاعةٍ ... إلىّ ،فهلا نفسُ ليلى شفيعُها ![4]
أأكرَمُ من ليلَى علىّ فتبتغى ... به الجاهَ،أم كنتُ امرأً لا أطيعُها !

---

(١) فى د : « كرمت »
(٢) ديوانه ٧٧
(٣) ديوانه ١١٢
(٤) للمجنون ، ديوانه ١٩٥

آخر

ومَن يكُن الفَضْلُ بنُ يحيى بن خالدٍ شفيعاً له عنــد الخليفة يَنْجَحُ

آخر

وإذا امرؤ أسْدَى إليك صنيعةً مِن جاهِهِ ، فكأنَّها من مالِهِ

وهذا مِثلُ قولِ الآخر :

وعطاء غــيرِكَ إنْ بَذَلْـ ـتَ عنايةً فيـــه عطاؤُكْ

ابن الرومىّ :

يَنامُ الذى استنْماكَ فى الأمر إنه إذا أيقظ الملهوف مثلك ناما

كفَى العَوْدُ مِنك البَدء فى كلّ موقفٍ وجُرِّدتَ للجُلّى فكنتَ حُساما

فما لك تَنبُو فى يدِى عَنْ ضرِيبتى ولم أرث مِنْ هَزّ وكنت كهاما !

الأَصْلُ :

أَهْلُ ٱلدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا التشبيه واقعٌ وهو صورة الحالِ لا مَحالة .

وقد أتيتُ بهـذا المعنى فى رسالةٍ لى كتبتُها إلى بعض الأصدقاء تعزيةً ، فقلت : « ولو تأمّل الناسُ أحوالَهم [1] ، وتبيّنوا مآلَهم ، لعَلِموا أنّ المقيم منهم بوَطَنِه ، والساكنَ إلى سَكَنِه ، أخو سَفَرٍ يُسرَى به وهو لا يَسْرِى ، وراكبُ بحرٍ يُجرَى به وهو لا يَدْرِى .

(١) ا : « فى أحوالهم »

الأصلُ :

فَقْدُ ٱلْأَحِبَّةِ غُرْبَةٌ .

* * *

الشرحُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر :

فلا تَحسَبِي أنّ الغريبَ الّذى نَأَى ولـكنّ مَن تَنأَيْنَ عنه غَرِيبُ [1]

ومِثلُه قولُه عليه السلام : « الغريبُ من ليس له حبيب » .

وقال الشاعر :

أُسْرَةُ المـــرءِ والِداهُ وفيما بين حِضْنَيْهما الحياةُ تَطِيبُ [2]

وإذا وَلّيـــا عن المرءِ يَوماً فهْوَ فى النـاس أجنَبِيٌّ غَرِيبُ

وقال آخَر :

إذا مامَضَى القَرْنُ الّذِى كُنتَ فيهمُ وخُلّفتَ فى قَرْنٍ فأنتَ غَرِيبُ [3]

---

(١) نأى : بعد .

(٢) الحضن : ما دون الإبط إلى الـكشح

(٣) القرن : الجيل من الناس .

(٦٤)

الأَصْلُ :

فَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سَبَق هذا المعنى ، وذَكرْنا كثيرا ممّا قيل فيه .

وكان يقال : لا تطلُبوا الحوائج إلى ثلاثة : إلى عَبْد يقول : الأمْر إلى غيرى ، وإلى رجل حديثِ الغِنَى ، وإلى تاجرٍ هِمّته أن يستَرْبِحَ فى كلّ عشرين دينارا حبّة واحدة [(١)] .

(١) ساقطة من ا

(٦٥)

الأَصْـلُ :

لَا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ القَلِيلِ ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ .

***

الشَّــرْحُ :

هذا نوعٌ من الحثّ على الإفضال والجود لطيف ، وقد أُستعمِل كثيرا فى الهديّة والاعتذار لقِلّتها ؛ وقد تقدّم منّا قولٌ شافٍ فى مَدح السّخاء والجودِ .

وكان يقال : أفضِلْ على مَن شِئتَ تَكنْ أميرَه ، واحتَجْ إلى مَن شئتَ تكن أَسِيرَه ، واستغْنِ عمّن شئتَ تكن نَظِيرَه .

وسُئِل أرِسْطو : هل من جُودٍ يستطاع أن يُتناول به كلُّ أحد ؟ قال : نَعَم ، أنْ تَنوِىَ الخيرَ لكلّ أحد .

الأصلُ :

العَفَافُ زِينَةُ ٱلْفقْرِ ، والشُّكْرُ زِينَةُ ٱلْغِنَى .

* * *

الشَّرحُ :

من الأبيات المشهورة :

فإذا افتقرتَ فلا تكن متخشِّعاً وتجمَّلِ

ومن أمثالهم المشهورة : « تجوعُ الحرّة ولا تأكلُ بثدييها »[1] .

وأنشد الأصمعىّ لبعضهم :

أُقسِم بالله لَمَصُّ النوَى وشربُ ماءِ القُلُبِ المالِحَهْ
أحسنُ بالإنسان مِن ذُلِّهِ ومن سؤالِ الأوجُهِ الكالِحَهْ
فاستغنِ باللهِ تكنْ ذا غِنًى مُغْتَبِطاً بالصَّفْقة الرّابحه[2]
طُوبَى لمن تُصبح مِيزانُه يومَ يُلاقِي رَبَّه راجحَهْ

وقال بعضُهم : وقفتُ على كَنِيفٍ وفى أسفلِه كنّاف ؛ وهو يُنشِد :

وأُكرِمُ نفسى عن أمورٍ كثيرة ألا إنّ إكرامَ النّفوس من العَقْلِ

---

(١) الميدانى ١ : ٨١ ؛ قال : أى لا تكون ظئراً وإن آذاها الجوع . ويروى : « ولا تأكل ثدييها » قال : « وأول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسدى » فى خبر معروف ذكره هناك .

(٢) ب : « مغبطا » تحريف .

وأبخلُ بالفَضْلِ المبين على الأولَى ... رأيتُهمُ لا يُكرِمون ذَوِى الفَضْلِ
وما شانَنِي كَنْس الكَنِيف وإنّما ... يَشينُ الفَتَى أن يَجتدِى نائلَ النَّذْلِ (١)
وأقبَحُ مِمّا بى وُقوفِى مؤمِّلاً ... نَوالَ فتًى مِثلِى ، وأىّ فتًى مِثلِى !

وأمّا كون الشّكر زِينة الغنى ، فقد تقدّم من القول ماهو كافٍ .

وكان يقال : العِلْم بغير عملٍ قولٌ باطل ، والنّعمة بغيرِ شُكْرٍ جِيدٌ عاطِل .

(١) النذل : المحتقر من الناس فى جميع أحواله .

الأَصْلُ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَاتُرِيدُ ، فَلَا تُبَلْ كَيْفَ كُنْتَ !

* * *

الشَّرْحُ :

قد أُعجم تفسيرُ هذه الكلمة على جماعةٍ من الناس ، وقالوا : المشهورُ فى كلام الحكماء : إذا لم يكن ماتُريد فأرِدْ مايكون ، ولا مَعنَى لقوله : «فلا تُبَلْ كيف كُنتَ»! وجَهلوا مُرادَه عليه السلام .

ومُرادُه : إذا لم يكن ماتُريد فلا تُبَلْ بذلك ، أى لا تَكْتَرِثْ بفَوْت مُرادِك ولا تَبْتَئِسْ بالحِرْمان ، ولو وَقَف على هذا لتمّ الكلام وكَمَل المعنى ، وصار هذا مِثل قوله : « فلا تُكثِر على مافاتَكَ منها أَسَفا » ، ومثل قولِ الله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ ﴾[1]؛ لكنّه تمّم وأكّد فقال : «كيف كنت»، أى لا تُبَل بفَوْتِ ما كنتَ أمّلته ، ولا تَحمِل لذلك همّا كيف كنت ، وعلى أىّ حال كنتَ، من حَبْسٍ أو مرضٍ أو فقر أو فقدِ حبيب ؛ وعلى الجملة ، لا تُبالِ الدّهر ، ولا تَكتَرِث بما يَعكِس عليكَ من غَرَضِك ، ويَحرِمك من أَمَلك ؛ وليكن هذا الإهْوانُ به والاُحتقارُ له ممّا تعتَمِده دائما على أىّ حال أفضَى بك الدهر إليها . وهذا واضح .

---

(١) سورة الحديد ٢٣

الأصل :

لَا يُرَى الجَاهِلُ إِلاَّ مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً .

***

الشرح :

العدالة هى الخُلق المتوسّط ، وهو محمود بين مَذْمُومين ، فالشجاعة محفوفة بالتهوّر والجُبْن ، والذّكاء بالغباوة والجربزة[1] ، والجود بالشحّ والتبذير ، والحلم بالجادية والاستشاطة ، وعلى هذا كلّ ضدّين من الأخلاق فبينهما خُلُق متوسّط ، وهو المسمّى بالعدالة ، فلذلك لا يُرَى الجاهلُ إلّا مُفرِطا أو مفرِّطا ، كصاحب الغَيْرة ، فهو إمّا أن يُفرِط فيها ، فيَخرُج عن القانون الصّحيح فيَغار لا مِنْ مُوجب ، بل بالوَهْم و بالخيال و بالوَسْواس ، و إمّا أن يُفرِّط فلا يَبحَث عن حالِ نسائِه ولا يُبَالى ماصنَعْن ، وكلا الأمْرَين مذموم ، والمحمودُ الاعتدال .

ومن كلامِ بعضِ الحكماء[2] : إذا صحّ العقل الْتَحَم[3] بالأدَب كالْتِحام[4] الطعامِ بالجسَد الصحيح ، و إذا مرضَ العَقْل نَبا عنه مايَستَمع من الأدب كما يَقِئُ المَمْعود ما أَكلَ من الطّعام ، فلو آثر الجاهلُ أن يتعلّم شيئاً من الأدَب لَتحوّل ذلك الأدبُ جَهْلا ، كما يتحوّل ماخالَطَ جوفَ المَريضِ من طِيب الطّعام داءً .

---

(١) الجربزة : الخب والمكر

(٢) ا : « ومن كلام الحكماء »

(٣) ا « التأم » .

(٤) ا : « كالتئام »

الأصْلُ :

إِذَا تَمَّ ٱلْعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سبق القولُ فى هذا المعنى .

وكان يقال : إذا رأيتم الرجلَ[1] يُطِيل الصمتَ ويَهرُب من النّاس، فاُقرُبوا منه فإنه يلقَّى الحِكْمة .

---

(١) ا : « رجلا » .

الأصلُ :

الدَّهْرُ يُخْلِقُ الأَبْدَانَ ، ويُجَدِّدُ الآمالَ ، ويُقَرِّبُ المَنِيَّةَ ، ويُبَاعِدُ الأُمْنِيَّةَ . مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصَبَ ، ومَنْ فاتَهُ تَعِبَ

***

الشرح :

قد سبق لنا قول طويل عريض فى ذكر الدهر والدنيا ، ونذكر الآن شيئاً آخر ، قال بعضُ الحكماء : الدنيا تَسُرّ لِتَغُرّ ، وتُفِيد لتَكِيد ، كم راقدٍ فى ظلّها قد أيقظتْه ، وواثقٍ بها قد خذَلَتْه ، بهذا الخُلُق عُرِفَتْ ، وعلى هذا الشرْط صُوحِبَتْ .

وكتب الاسكندرُ إلى أَرِسْطوطاليس : عِظْنى ، فكتب إليه : إذا صَفَتْ لك السلامة فجدّد ذِكرَ العَطَب ، وإذا اطمأنّ بك الأَمْن فاستشْعر الخوف ، فإذا بلغتَ نهايةَ الأمل فاذكر الموتَ ، وإذا أحببت نفسك فلا تجعل لها نصيباً فى الإساءة ، وقال شاعر فأَحسَن :

كأنّك لم تَسْمَعْ بأخبارِ مَن مَضى	ولم تر بالباقين ما صنع الدهرُ
فإن كنتَ لا تدرى فتلك دِيارُهمْ	عَفاها مَحال الرّيح بعدكَ والقَطْرُ
وهل أبصرَتْ عيناكَ حيًّا بمَنزلٍ	على الدهر إلاّ بالعراءِ له قَبْرُ
فلا تحسبنّ الوَفْر مالاً جمعتَه	ولكنّ ما قدمْتَ من صالحٍ وَفْرُ

مَضَى جامعُو الأمـوال لم يتزّودوا سوى الفقْر يابُؤسَى لمن زادُه الفقْرُ!

فحتّامَ لا تَصحُو وقد قربَ المدى وحَتّام لا يَنجابُ عن قَلْبِك السُّكْرُ!

بلى سَوْف تَصحُو حين ينكشِف الغِطا وتذ كرُ قولى حين لا ينفع الذّ كرُ

وما بين ميـــلاد الفتى ووفاته إذا انتصح الأقوامُ أنفسهم عُمْرُ(١)

لأنّ الذى يأتيه شِبْهُ الذى مَضى وماهوَ إلاّ وقتك الضّيّقُ النّزْرُ

فصبراً على الأيَّام حتَّى تَجُوزَها فعَمّا قليل بعدها يُحمَدَ الصّبرُ

---

(١) د : « غمر » .

الأصْلُ

مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إماماً فعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيم غَيْرِهِ ؛ ولْيَكنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسانِهِ ، ومُعَلِّمُ نَفْسِه ومُؤَدِّبُها أَحَقُّ بالإجْلالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ ومُؤَدِّبِهِمْ .

***

الشَّرْحُ :

الفروع تابعة للأُصول ، فإذا كان الأصل معوجّا استحالَ أن يكون الفرعُ مستقيما ، كما قال صاحبُ المَثَل : « وهل يستقيمُ الظِّلّ والعُود أعوج » ، فمن نَصَب نفسه للناس إماما ، ولم يكن قد علّم نفسه ما انتصب ليعلمه الناس ، كان مِثل من نصب نفسه ليُعلِّم النّاس الصِّياغة ، والنجارة ، وهو لا يُحْسِن أن يصوغَ خاتما ، ولا ينجُر لوحا ، وهذا نوعٌ السَّفَه ، بل هو السَّفَهُ كلُّه ؛ ثم قال عليه السلام : وينبغى أن يكون تأديبُه لهم بفعلهوسيرته قبل تأديبه لهم بلسانه ، وذلك لأنّ الفِعْل أدلّ على حال الإنسان من القول .

ثم قال : ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقُّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم . وهذا حق ، لأنّ من علم نفسه محاسن الأخلاق أعظمُ قَدْرا ممن تعاطى تعليم الناس ذلك وهو غيرُ عامل بشىء منه ، فأما من عَلم نفسه وعلّم الناس فهو أفضل [1] وأجَلّ ممن اقتصر على تعليم نفسه فقط لا شُبْهَةَ فى ذلك .

---

(١) ا : « وأعظم » .

(٧٢)

الأصْلُ :

نَفَسُ المَرْءِ خُطاهُ إلى أجَلِهِ .

***

الشَّرْحُ :

وجدتُ هذه الكلمةَ منسوبةً إلى عبد الله بن المعتز فى فصلٍ أوّله : « الناس وفْد البلاء ، وسُكان الثرى ، وأنفاس الحىّ خُطاه إلى أجله ، وأمله خادعٌ له عن عَمَله ، والدنيا أكذب واعِدِيه ، والنفس أقرَب أعادِيه ، والموتُ ناظرٌ إليه ، ومنتظر فيه أمراً يُمْضيه » فلا أدرى هل هى لابن المعتز ، أم أخَذَها من أمير المؤمنين عليه السلام !

والظاهر [1] أنها لأمير المؤمنين عليه السلام ، فإنها بكلامه أشبه ، ولأنّ الرضىّ قد رواها عنه ، وخبرُ العَدْل معمولٌ به .

---

(١) ا : « ويظهر » .

الأصلُ :

كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ .

* * *

الشرحُ :

الكلمة الأُولى تؤكِّد مذهب جمهور المتكلّمين فى أنّ العالم كلّه لا بدّ أن ينقضىَ ويَفْنَى ، ولكنّ المتكلمين الذاهبين إلى هذا القَوْل لا يقولون : يجب أن يكون فانيا ومنقضيا لأنه معدود ، فإن ذلك لا يلزم ؛ ومن الجائز أن يكون معدودا ولا يجب فناؤه ، ولهذا قال أصحابنا : إنما علمنا أن العالم يفنى عن طريق السمع لا مِن طريق العقل ، فيجب أن يُحمل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام على ما يُطابق ذلك ، وهو أنه ليس يعنى أن العدَدَ علّةٌ فى وجوب الانقضاء ، كما يُشعِر به ظاهرُ لفظِه ، وهو الذى يسمِّيه أصحابُ أصول الفقه إيماء ، وإنما مُراده[1] كلّ معدود فاعلموا أنه فانٍ ومنقضٍ ، فقد حكم على كلّ معدود بالانقضاء حُكما مجرّداً عن العلّة ، كما لو قيل : زيد قائمٌ ، ليس يعنى أنه قائم ، لأنه يسمّى زيد .

فأما قوله : « وكلّ متوقع آتٍ » فيماثلُه قول العامة فى أمثالها : « لو انتُظِرَت القيامةُ لقامت » ؛ والقولُ فى نفسه حق ، لأنّ العُقلاء لا ينتظرون ما يَستحيل وقوعه ، وإنما ينتظرون ما يمكن وقوعه ، وما لا بدّ من وقوعه ، فقد صَحّ أنّ كلّ منتظَر فسيأتى .

---

(١) ا : « ومراده »

الأصل :

إنَّ الأُمورَ إذَا اشْتَبَهَتِ اعْتُبِرَ آخِرُها بأوَّلِها .

* * *

الشرح

روى : « إذا استبهمت » ، والمعنى واحد وهو حقّ ، وذلك أن المقدّمات تدلّ على النتائج ، والأسباب تدلّ على المسبّبات ، وطالما كان الشيئان ليسا عِلّةً ومعلولا ، وإنما بينهما أدنى [(١)] تناسبُ ، فيُستدَلّ بحالِ أحدهما على حال الآخر ، وإذا كان كذلك واشتبهَتْ أمورٌ على العاقلِ الفَطِنِ ولم يعلم إلى ماذا تئُول ، فإنه يُسْتَدَلّ على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفوَاتحِها ، كالرّعيّة ذاتِ السلطان الرّكيك الضعيف السياسة ، إذا ابتدأت أمورُ مملكتِه تضطرِب ، واستَبْهَم على العاقل كيف يكون الحالُ في المستقبل ، فإنه يجب عليه أن يعتبر أواخرها بأوائلها ، ويَعلم أنه سيفضى أمرُ ذلك المُلْك إلى انتشار وانحلال في مُستقبل الوقت ، لأنّ الحركات الأولى مُنذرة بذلك ، وواعدة بوقوعه ، وهذا واضح [(٢)] .

---

(١) ا : « أقرب » .

الأصْلُ :

ومنْ خبرِ ضِرارِ بنِ حمزَةَ الضِّبابيّ عندَ دخولهِ على معاويةَ ، ومسألتِه لهُ عنْ أميرِ المؤمنينَ عليهِ السلامُ ، قالَ : فأشهد لقدْ رأيتهُ فى بعضِ مواقفهِ وقدْ أرْخى الليلُ سُدوله وهو قائم فى محرابهِ قابض على لحيته ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السليم ، ويبكى بُكاءَ الحزينِ ، وهوَ يقولُ :

يا دُنْيا إليْكِ عَنِّى ، أبِى تعرّضْتِ ، أمْ إلَيَّ تَشَوَّفْتِ ! لا حانَ حَيِنُك ، هَيْهاتَ ، غُرِّى غَيْرِى ، لا حاجَةَ لِى فيكِ ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثلاثاً ، لا رَجْعَةَ فيها ، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ ، وخَطَرُكِ يَسِيرٌ ، وأمَلُكِ حَقِيرٌ . آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ ، وطُولِ الطَّرِيقِ ، وبُعْدِ السَّفَرِ ، وعَظِيمِ الْمَوْرِدِ !

* * *

الشَّرْحُ :

السُّدُول : جمعُ سَدِيل ، وهو ما أسدل على الهَوْدَج ، ويجوز فى جَمْعه أيضا أَسْدال وسدائل ، وهو ها هنا استعارة . والتّملْمُل والتّملّل أيضا: عدمُ الاستقرار من المرض ، كأنه على مَلّة ، وهى الرّماد الحارّ .

والسليم : الملسوع .

ويروَى « تشوّقت » بالقاف .

وقوله : « لا حان حَيْنُك » ، دعاء عليها، أى لا حَضَر وَقْتُك، كما تقول : لا كنت .

فأما ضِرارُ بن ضَمْرة ، فإنّ الرِّياشيّ رَوَى خبرَه ، ونقلتُه أنا من كتاب عبدِ الله بنِ إسماعيلَ بن أحمَد الحلبي فى " التّذييل على نَهج البلاغة " ، قال : دخل ضِرارٌ على معاويةَ — وكان ضِرارٌ من صحابةِ علىٍّ عليه السلام — فقال له معاوية : ياضرار ، صف لى عليّا ، قال: أوَ تُعفِينى! قال : لا أُعْفيك ، قال : ماأصف منه ! كان[1] واللهِ شديدَ القُوَى، بعيد المَدى ، يتفجّر العِلْم من أنحائه ، والحِكمةُ من أرْجائِه ، حَسَن المُعاشَرة ، سَهْل المباشرة ، خَشِن المأكَل ، قصير الملبَس ، غَزير العَبْرة ، طويل الفِكْرة ، يقلّب كَفّه ، ويخاطِب نفسَه ، وكان فينا كأحدِنا ، يُجيبنا إذا سألنا ، و يبتدِئُنا إذا سكَتْنا ، ونحن مع تقريبه لنا أشَدّ ما يكون صاحبٌ لصاحبٍ هيبةً ، لا نبتدئه الكلام لعظَمَتِه، يحبّ المساكين ، و يقرِّب أهلَ الدّين ، وأَشهَد لقد رأيتُه فى بعض مَواقِفه ... وتمامُ الكلامِ مذكورٌ فى الكتاب .

وذَكَر أبو عمرَ بنُ عبد البرّ فى كتاب " الأستيعاب " هذا الخبرَ ، فقال : حدّثنا عبدُ الله بنُ محمّد بن يوسفَ ، قال : حدّثنا يحيي بنُ مالك بن عائذ ، قال : حدّثنا أبو الحسن محمّد بنُ محمّدِ بن مُقْلة البَغْداديّ بمصرَ . وحدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بن دُرَيد ، قال : حدّثنا العُكْلِيّ ، عن الحِرْمازِيّ، عن رجل من هَمْدان ، قال: قال معاويةُ لضِرار الضّبابيّ[2] : ياضرار صِفْ لى عَلِيًّا ، قال : اعفِنى ياأميرَ المؤمنين ؛ قال : لتَصِفَنّه ؛ قال : أمّا إذ لابدّ من وَصْفِه، فكان واللهِ بعيدَ المَدَى، شديدَ القُوَى ، يقول فَصْلا ، و يحكُم عَدْلا ، يتفجّر العِلم من جَوانبه ، وتَنطِق الحِكمة من نَواحيه ، يَستوحِش من الدنيا وزَهرتِها ، و يأنَس باللّيل ووَحْشَتِه ، [وكان][3] غزيرَ العَبْرة ، طويلَ الفِكْرة ، يُعجبه من اللّباس ماقصُر ، ومن الطعام ماخَشُن . كان فينا كأحدِنا ، يجيبُنا إذا سألناه ، ويُنبئنا إذا استَفْتَيْناه ؛ ونحن واللهِ

---

(١) ب : « وكان » ، والصواب ما أثبته (٢) فى الاستيعاب : « الصدائى » .
(٣) من الاستيعاب

مع تقريبه إيّانا ، وقربِهِ منّا ، لا نـكاد نـكلّمه هيبةً له . يعظِّم أهلَ الدّين ، ويقرِّب المساكينَ . لا يَطمَع القويُّ فى باطله ، ولا ييئس الضعيفُ من عَدلِهِ ؛ وأشهَد لقد رأيتُه فى بعض مَواقِفه وقد أَرخَى الليلُ سُدولَه ، وغارَتْ نجومُه ، قابضاً على لِحيته ، يتَملْمَل تَملْمُلَ السَّليم[1] ، ويبَكِي بكاءَ الحزين ، ويقول : يادُنْيا غُرِّى غَيْرِى ، أبى[2] تعرّضتِ ! أم إلىّ تشوّقْتِ ! هيهاتَ هيهاتَ ! قد باينتُكِ ثلاثا لا رجعةَ لى فيها ، فعُمرُكِ قصير ، وخطرُكِ حقير ! آهِ منْ قِلّة الزاد ، وبُعد السّفر ، ووَحشةِ الطريق ! فبكى معاويةُ وقال : رَحِمَ اللهُ أبا حسن ، كان واللهِ كذلك ؛ فـكيف حُزْنُك عليه ياضِرار ؟ قال : حزنُ مَن ذُبِـح ولدُها فى حِجْرها[3] .

(١) السليم : اللديغ (٢) الاستيعاب : « ألى » .
(٣) الاستيعاب ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، وهو أيضا فى أمالى القالى ٢ : ١٤٧

الأصلُ

ومن كلام له عليه السلام للسائل الشامي لما سأله : أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ بعد كلام طويل هذا مختاره :

وَيْحَكَ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَازِماً ، وَقَدَراً حَاتِماً ! لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ؛ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً ، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيراً ، وَكَلَّفَ يَسِيراً ، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً ، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً ، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً ، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً ، وَلَمْ يُرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لَعِباً ، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً ، وَلَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ؛ ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ .

* * *

الشرحُ :

قد ذكر شيخُنا أبو الحسين رحمه الله هذا الخبرَ في كتاب " الغُرَر " ورواه عن الأصبغ بنِ نُباتة ، قال : قام شيخٌ إلى عليّ عليه السلام فقال : أخبِرْنا عن مَسيرنا إلى الشام ، أكانَ بقضاء الله وقدَرِه ؟ فقال : والّذى فلَق الحبّة ، وبرَأ النّسَمة ، ماوَطِئْنا مَوْطِئا ، ولا هَبطنا وادياً إلّا بقضاء الله وقَدَرِه . فقال الشيخ ! فعندَ الله أحتَسِب عَنائى ! ماأرَى لى من الأجْر شيئاً ! فقال : مَهْ أيّها الشيخ ، لقد عَظّم اللهُ أجرَكم فى مَسيرِكم وأنتم سائرون ، وفى مُنصرَفكم وأنتم منصرِفون، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرَهين،

ولا إليها مضطرِّين . فقال الشيخ : وكيف القضاء والقَدَر ساقَانا ؟ فقال : وَيْحَك ! لعلّك ظننتَ قَضاءً لازما ، وقَدَراً حَتْماً ! لو كان ذلك كذلك لبَطَل الثواب والعِقاب ، والوَعْد والوَعِيد ، والأمرُ والنّهى ، ولم تأتِ لائمةٌ مِن الله لمُذنِب ، ولا مَحْمَدة لمُحسِن ، ولم يكن المُحسِن أَولَى بالمدح من المسىء ، ولا المسىء أَولَى بالذّم من المُحسِن ؛ تلك مقالةُ عُبّاد الأوثان ، وجنودِ الشّيطان ، وشهودِ الزور ، وأهلِ العَمَى عن الصواب ، وهم قَدَريّةُ هذه الأمّة ومجوسُها ؛ إنّ الله سبحانه أَمَر تخييرا ، ونَهَى تحذيرا ، وكَلّف يسيرا ، ولم يُعصَ مغلوبا ، ولم يُطَع مُكرِها ، ولم يُرسِل الرسلَ إلى خلقه عَبَثا ، ولم يَخلُق السموات والأرض وما بينهما باطلا ﴿ ذلك ظنّ الّذين كَفروا فوَيلٌ للّذين كفروا من النار ﴾[1] فقال الشيخ : فما القضَاء والقدَر اللّذان ساقانا إلّا بهما ؟ فقال : هو الأمرُ من الله والحُكم ، ثمّ تلا قولَه سبحانه : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعبُدُوا إلّا إيّاه ﴾[2] ، فنَهضَ الشيخُ مسرورا وهو يقول :

أنتَ الإمامُ الّذى نَرجُو بطاعتِه ... يومَ النشورِ من الرّحمن رِضْوانَا

أَوْضحتَ مِن دِينِنا ما كان مُلتَبِساً ... جزاكَ رَبُّك عنّا فيه إحسانا

ذَكَر ذلك أبو الحسين فى بيانِ أنّ القضاء والقدَر قد يكون بمعنى الحُكم والأمر ، وأنّه من الألفاظ المشترَكة .

(١) سورة ص ٢٧ . (٢) سورة الإسراء : ٢٣ .

الأصْـلُ :

خُذِ الْحِـكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ ، فَإِنَّ الْحِـكْمَةَ تَـكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ ، حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْـكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ .

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلام فِي مِثْل ذلِكَ : الْحِـكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ، فَخُذِ الْحِـكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

خَطَب الحجّاج فقال : إنّ الله أمَرَنا بطلب الآخرة ، وكفانا مئونة الدّنيا ، فليْتَنا كُفِينا مئونةَ الآخرة ، وأُمِرْنا بطلب الدنيا !

فسمعها الحسن فقال : هذه ضالّة المؤمن خرجت من قلب المنافق .

وكان سُفيانُ الثّورىّ يُعجِبه كلامُ أبى حَمزة الخارجىّ ويقول : ضالّة المؤمن على لسان المنافق . تَقوَى الله أكرَمُ سَرِيرة ، وأفضَلُ ذخيرة ، منها ثقةُ الواثق ، وعليها مِقَة الوامق . لِيعمَل كلّ امرئٍ فى مكان نفسه وهو رَخِيّ اللَّبَب ، طويلُ السَّبَب ، ليَعرِفَ مَمدّ يَدِه ، وموضعَ قَدَمِه ، وليَحذَر الزَّلَل ، والعِلَل المانعةَ من العمل . رَحِم الله عبداً آثَرَ التقوَى ، واستَشْعَرَ شِعارها ، واجتنى ثِمارَها ، باعَ دارَ البقاء بدارِ الآباد ، الدّنيا كرَوْضة يونق مَرْعاها ، وتُعجِب من رآها ، تَمُجّ عرُوقُها الثّرى ، وتنطف فروعُها بالنّدى ، حتّى إذا بلغ العُشْب إناه ، وانتهى الزِّبْرِج مُنْتهاه ، ضَعُف العمود ، وذوى العُود ، وتولّى من الزمان مالا يعود ؛ فحتّت الرياحُ الوَرَق ، وفرّقتْ ما كان اتّسق ، فأصبحْتَ هشِيما ، وأمْست رَمِيما .

الأصْلُ :

قِيمَةُ كُلِّ امْرِىءٍ مَا يُحْسِنُهُ .

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى : وَهَذه الْكَلمَةُ الَّتى لا تُصَابُ لها قِيمَةٌ ، وَلَا تُوزَنُ بِهَا حِكْمَةٌ ، وَلَا تُقْرَنُ إِلَيْهَا كَلِمَةٌ .

***

الشَّرْحُ :

قد سَلَف لنا فى فَضْل العلم أقوالٌ شافية ، ونحن نذكر هاهنا نُكتا أخرى .

يقال : إنّ من كلام أَرْدَشير بن بابك فى رسالته إلى أبناءِ الملوك : بحَسْبِكم دلالةً على فَضْل العلم أنّه ممدوح بكلّ لسان ، يتزيّن به غير أهله ، ويدّعيه من لا يلصقُ به . قال : وبحَسْبكم دَلالةً على عَيْب الجهل أنّ كل أحد يَنتفِى منه ، ويَغضَب أن يسمَّى به .

وقيل لأنُوشَرْوانَ : ما بالُكمْ لا تستفيدون من العلم شيئاً إلّا زادكم ذلك عليه حِرْصا ؟ قال : لأنّا لا نستفيد منه شيئاً إلا ازدَدْنا به رِفعةً وعِزّا . وقيل له : ما بالُكمْ لا تأنفون من التعلّم من كلّ أحد ؟ قال : لعلمِنا بأنّ العلم نافع من حيث أُخذ .

وقيل لبُزُرْجمهر : بِمَ أدركتَ ما أدركتَ من العِلم ؟ قال : ببكُورٍ كبُكورِ الغُراب ، وحِرْصٍ كحرصِ الخنزير ، وصبرٍ كصبرِ الحمار .

وقيل له : العِلم أفضلُ أم المال ؟ فقال : العِلم ، قيل : فما بالُنا نرَى أَهلَ العِلم على

أبواب أهلِ المال أكثر ممّا نرى أصحابَ الأموالِ على أبواب العُلَماء ! قال : ذاك أيضا عائد إلى العِلم والجَهْل ، و إنما كان كما رأيتم ، لعلم العلماء بالحاجة إلى المال ، وجَهْلِ أصحابِ المال بفَضيلةِ العِلم .

وقال الشاعر :

تَعلَّم فليس المرء يُخلَقُ عالمـــا ... وليس أخو علمٍ كمن هوَ جاهلُ
و إن كبيرَ القَوْمِ لا عِلمَ عندَه ... صغيرٌ إذا التفّتْ عليــه المَحافلُ

الأَصْلُ :

أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الإِبِلِ لَكَانَتْ لِذَلِكَ أَهْلاً : لَا يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلاَّ رَبَّهُ ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلاَّ ذَنْبَهُ ، وَلَا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنكم إِذَا سُئِلَ عَمَّا لا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَعْلَمُ ، ولا يَسْتَحْيِيَنَّ أَحَدٌ إِذا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ ، وعَلَيكُم بالصَّبْرِ ، فإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمانِ كالرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ ، ولا خَيْرَ فى جَسَدٍ لا رَأسَ مَعَهُ ، ولا خيرَ فى إِيمانٍ لا صَبْرَ مَعَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى جميع الحكم المنطوى عليها هذا الفَصْل ؛ وقال أبو العَتَاهِيَة :

والله لا أرجو سِوا كَ ولا أخافُ سِوَى ذنوبى
فاغفرْ ذنوبى يا رَحِيمُ فأنتَ سَتّارُ العيوبِ

وكان يقال: من استَحْيا من قولِ : «لا أَدْرِى» كان كمن يَستحْيِى من كَشْفِ رُكْبته ، ثم يكشف سَوْءته ، وذلك لأنّ من امتنعَ من قول : «لا أَدْرِى» وأَجابَ بالجَهْل والخطأ فقد واقَعَ ما يجبُ فى الحقيقة أن يُستحيا منه ، وكَفَّ عمّا ليس بواجب أن يُسْتَحْيَا منه ، فكان شبيها بما ذكَرْناه فى الرُّكبة والعَوْرة .

وكان يقال : يحسُن بالإنسان التعلّم ما دامَ يقبح منه الجهل ، وكما يقبح منه الجهل ما دام حيّا كذلك يحسُن به التعلم ما دام حيّا .

وأمّا الصبر فقد سبق فيه كلامٌ مُقنع ، وسيأتى فيما بعدُ جملة من ذلك .

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلاَمُ لرَجلٍ أفرَطَ فى الثَّناءِ عليهِ ـ وكانَ لهُ مُتَّهِما : أنا دُونَ ما تَقُولُ ، وفَوْقَ ما فى نَفْسِكَ .

* * *

الشَّرحُ :

قد سَبَق منّا قولٌ مُقنِعٌ فى كراهية مدح الإنسان فى وجهه .

وكان عمرُ جالساً وعنده الدِّرّةُ ، إذ أقبل الجارُود العَبْدِىّ ، فقال رجل : هذا الجارود سيّدُ ربيعة ؛ فسَمِعها عمرُ ومن حَوله ، وسَمِعها الجارود ، فلمّا دنا منه خَفَقَه بالدِّرّة فقال : ما لِى ولك يا أمير المؤمنين ! قال : ما لى ولك ! أما لقد سمعتَها ؛ قال : وما سمعتها فه ! قال : ليخالطنّ قلبك منها شىء ، وأنا أحبّ أن أطأطئ منك .

وقالت الحكماء : إنّه يَحدُث للممدوح فى وجهه أمرانِ مُهلِكان : أحدُهما الإعجاب بنفسه ، والثانى إذا أثنى عليه بالدِّين أو العلم فَترَ وقَلّ إجتهادُه ، ورضىَ عن نفسه ، ونَقَصَ تشميرُه وجِدُّه فى طلب العلم والدّين ، فإنه إنما يتشمّر من رأى نفسَه مقصِّرا فأمّا مَنْ أطلِقتِ الألسُنُ بالثناء عليه، فإنّه يظنّ أنه قد وصل وأدرك ، فيقلّ اجتهاده ، ويتّكل على ما قد حَصَل له عند الناس ؛ ولهذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لمن مَدَح إنسانا كاد

يَسمَعه : « وَيحك ! قطعتَ عُنُق صاحبك ، لوسمِعها لما أفلَح » .

فأمّا قوله عليه السلام له : « وفوقَ ما فى نفسك » ، فإنه إنما أراد أن ينبهّه على أنه قد عرَف أنه كان يقَع فيه ، وينحرف عنه ، وإنما أراد تعريفه ذلك لِما رآه من المَصلحةِ ، إمّا لظنّه أنه يُقلع عمّا كان يذمّه به ، أو ليُعلِمَه بتعريفه أنه قد عرَف ذلك ، أو ليخوّفه ويزجُرَه ، أو لغير ذلك .

الأصْلُ :

بَقِيَّةُ السَّيْف أَنْمَى عَدَدًا ، وأَكْثَرُ وَلَداً .

* * *

الشَّرْحُ :

قال شيخنا أبو عثمان : ليته لما ذَكَر الحكم ذكر العِلّة !

ثم قال : قد وجدْنا مِصداق قوله فى أولاده وأولاد الزبير وبنى المهلّب وأمثالهم ممن أسرعَ القتلُ فيهم .

وأُتِيَ زيادٌ بامرأة من الخوارج فقال لها : أما والله لأحْصِدنّكم حَصْداً ، ولأفنِينّكم عَدًّا ، فقالت : كلاّ إنّ القتل ليزْرَعُنا ، فلما همّ بقتلها تستّرت بثوبها ، فقال : اهتكوا سترها لَحَاها الله[1] ! فقالت : إنّ الله لا يَهتِك سترَ أوليائه ، ولكن التى هُتك[2] سترُها على يد ابنها سُمَيّة ، فقال : عجِّلوا قتلَها أَبعدَها الله ! فقُتلتْ .

---

(١) لحاه الله ، أى قبحه ولعنه (٢) ا : « هتكت » .

الأصلُ :

مَنْ تَرَكَ قَوْلَ : « لا أَدْرِى » أُصِيبَتْ مَقاتِلُهُ .

* * *

الشرحُ :

جاءت امرأة إلى بُزُرْجمهر ، فسألته عن مسألة فقال : لا أدرى ، فقالت : أيعطِيكَ المَلِكُ كلَّ سنةٍ كذا كذا وتقول : لا أدرى ؛ فقال : إنما يعطينى الملك على ما أَدْرِى ، ولو أعطانى على ما لا أَدْرِى لما كفانى بيت ماله .

وكان يقول : قولُ « لا أَعْلَمَ » نِصفُ العِلم .

وقال بعضُ الفُضَلاء : إذا قال لنا إنسانٌ : « لا أَدرِى » عَلَّمناه حتى يَدرى ، وإن قال : أدرى ، امتحنّاه حتى لا يدرى .

الأَصْلُ :

رَأْيُ الشَّيْخ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ الْغُلَامِ .

ويُرْوَى : « مِنْ مَشْهَدِ الغُلَامِ » .

* * *

الشَّرْحُ :

إنما قال كذلك لأنّ الشيخ كثيرُ التَّجربة ، فيبلغ من العَدُوّ برأيه ما لا يبلُغ بشجاعته الغلام الحدَث غير المجرِّب ، لأنه قد يغرِّر بنفسِهِ فيَهلك ويُهلِكُ أصحابَه ، ولا رَيبَ أنّ الرأى مقدَّم على الشجاعة ، ولذلك قال أبو الطيِّب :

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجْعانِ	هو أوّلٌ وهى المحلُّ الثانى [1]
فإذا همـا اجتَمَعا لنفسٍ مِرّةٍ	بلغتْ من العَلْيَاء كلَّ مكانِ [2]
ولرُبمـا طَعن الفتى أقرانه	بالرّأى قبـلَ تطاعُن الأقران
لولا العقولُ لـكانَ أَدنَى ضَيغمٍ	أدنى إلى شَرفٍ من الإنسان
ولَمَـا تفَاضلت الرجالُ ودَبَّرتْ	أيدِى الـكُماة عَوالىَ المُرّان

ومِن وَصايا أَبرَويز إلى ابنهِ شيرويه : لا تستعمل على جيشك غلاما غمرا ترِفا ، قد كثر إعجابه بنفسه ، وقلّت تجاربه فى غـيره ، ولا هَرِما كبيرا مدبِرا قد أَخَـذ الدهرُ من عقـله ، كما أخذَتِ السنُّ من جِسمه ؛ وعليـك بالـكُهول ذَوِى الرأى !

---

(١) ديوانه ٤ : ١٧٤، ١٧٥ (٢) النفس المرة : القوية الشديدة . من قوله تعالى «ذو مرة فاستوى»

وقال لَقيط بن يَعْمَر الإيادىّ فى هذا المعنى :

وقَــلِّدوا أمركم لله دَرُّكُمُ رحْبَ الذِّراع بأمر الحرب مِضطلِعا[١]

لا مُترَفا إن رَخاء العيش ساعدَه ولا إذا عَضّ مــكروهٌ به خَشَعا[٢]

ما زال يحلُب هــذا الدهرُ أشطُرَه يــكون متبِعا طــورا ومُتَّبَعا[٣]

حتّى استمرّ على شَزْرٍ مَرِيرته مستحكم الرأى لا قَحْمٌ ولا ضرَعا[٤]

---

(١) مختارات ابن الشجرى ١ : ٥ : مضطلعا ، من الضلاعة ؛ وهى القوة .
(٢) خشع ، أى خضع للأمر .
(٣) ابن الشجرى : « ما انفك يحلب » .
(٤) الشزر : فتل الحبل مما يلى اليسار والقحم : الشيخ الكبير السن المهم . والضرع : الرجل الضعيف .

الأصلُ :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ ومَعَهُ الاسْتِغْفارُ .

* * *

الشرحُ :

قالوا : الاستغفار حَوارسُ الذّنوب .

وقال بعضهم : العبدُ بين ذَنْب ونِعْمة لا يُصْلِحهما إلاّ الشكر والاستغفار .

وقال الربيع بن خثيم[1] : « لا يقولَن أحدكم أستغفِر الله وأَتوبُ إليه » فيكون ذَنْبا وكذبا إن لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهمّ اغفر لى وَتُب علىّ .

وقال الفُضَيل : الاستغفار بلا إقلاع[2] توبةُ الكذّابين .

وقيل : من قَدّم الاستغفار على النّدم ، كان مستهزئاً بالله وهو لا يعلم .

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « خثيم » . (٢) الإقلاع : ترك الذنوب

الأصْـلُ :

وحكى عنه أبو جعفر محمد بن على الباقر عليهما السلام أنه كان عليه السلام قال :

كانَ فى الأرْضِ أمانانِ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وقَدْ رُفِـعَ أحَدُهُما ، فَدُونَـكُمْ الآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ ، أما الأمانُ الذِى رُفِـعَ فَهُوَ رَسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم ، وأمَّا الأمانُ الْباقِى فالاسْتِغفارُ ، قال اللهُ تعالى : ﴿وما كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنْتَ فِيهِمْ وما كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1] .

قال الرَّضِىَّ رَحِمَـه اللهُ تعالى : وهـــذا مِنْ مَحاسِنِ الاسْتِخرَاج ، ولَطَائِفِ الاسْتِنْبَاطِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قال قومٌ من المفسِّرين : قوله : ﴿وهم يستغفِرُونَ﴾ ، فى موضـع الحال ، والمرادُ نفى الاستغفار عنهم ، أى لو كانوا ممّن يستغفرون لمـا عذّبهم ، وهذا مثلُ قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بظلم وأهلُها مُصلحون[2] ﴾؛ فـكأنه قال : لـكنهم لا يَستغفرون فلا انتفاءَ للعذاب عنهم .

وقال قوم : معناه ، وما كان الله معذِّبهم وفيهم مَنْ يستغفروهم المسلمون بين أظهُرِهم ممن تَخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [3]من المستضعفين[3] .

(١) سورة الأنفال ٣٣

(٢) سورة هود ١١٧ .

(٣ ـ ٣) ساقط من ا

ثم قال : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ [1] ، أى ولأىّ سَبَب لا يعذّبهم الله مع وجود ما يَقتضِى العذاب ، وهو صَدّهم المسلمين والرّسول عن البيت فى عام الْحُدَيْبية ! وهذا يدلّ على أنّ ترتيبَ القرآن ليس على ترتيب الوقائع والحوادث ، لأنّ سُورة الأنفال نزلتْ عقيبَ وَقْعة بَدْرٍ فى السّنة الثانية من الهجرة ، وصدّ الرسول صلّى الله عليه وآله عن البيت كان فى السّنة السادسة ، فكيف يجعل آيةً نزلتْ فى السنة السادسة فى سورةٍ نزلتْ فى السنة الثانية !

وفى القرآن كثيرٌ من ذلك ، وإنّما رتّبه قومٌ مِن الصّحابة فى أيّام عثمان .

(١) سورة الأنفال ٣٤ .

الأصلُ :

مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَصْلَحَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .
وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ .
وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ .

***

الشرحُ :

مِثلُ الكلمة الأولى قولُهم : رِضا المَخلوقِين عُنوانُ رِضا الخالق ؛ وجاء في الحديث المرفوع : « مامِنْ والٍ رَضِيَ الله عنه إلّا أرضَى عنه رعيّتَه » .

ومِثلُ الكلمة الثانية دُعاء بعضهم في قوله :

أنا شاكرٌ أنا مادحٌ أنا حامِدٌ　　أنا خائفٌ أنا جائعٌ أنا عارِ
هي ستّةٌ وأنا الضّمِينُ بنِصْفها　　فكُنِ الضمينَ بنِصْفها يابارِي

ومِثلُ الكلمة الثالثة قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل ١٢٨

(٨٧)

الأَصْلُ :

اَلْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللهِ .

***

الشَّرْحُ :

قَلَّ موضعٌ من الكتاب العزيز يَذكُر فيه الوعيد إلّا ويَمزُجه بالوعد ، مِثل أن يقول : « إنّه لشديد العقاب » ثم يقول : « وإنه لغَفور رحيم » ، والحكمة تقتضى هذا ليكون المكلَّف متردِّدا بين الرّغبة والرّهبة .

ويقولون فى الأمثال المرموزة : لقِيَ موسَى وهو ضاحكٌ مستبشرٌ عيسَى وهو كالِحٌ قاطِب ، فقال عيسى : مالَكَ كأنّكَ آمِنٌ من عذاب الله ؟ فقال موسى عليه السلام : مالَكَ كأنّك آيِسٌ من رَوْح الله ! فأوحَى الله إليهما : موسى أحبُّكما إلىّ شِعارا ، فإنّى عِنْدَ حُسْن ظَنِّ عبدى بى .

واعلم أنّ أصحابَنا وإن قالوا بالوعيد ؛ فإنّهم لا يؤيسون أحداً ولا يقنِّطونه من رحمة الله ، وإنما يَحُثّونه على التوبة ، ويخوِّفونه إن ماتَ من غير توبة ، وبحقٍّ ماقال شيخُنا أبو الهُذَيل : لولا مَذهَب الإرْجاء لَمَا عُصِى الله فى الأرض ؛ وهذا لا رَيبَ فيه ، فإنّ أكثرَ العُصاة إنّما يُعوِّلون على الرحمة ، وقد اُشتَهَر

وأستفاض بينَ الناس أنّ الله تعالى يَرحَم المذنِبين ، فإنّه وإن كان هُناك عِقاب فأوقاتا معدودة ، ثمّ يخرجون إلى الجنّـة ، والنفوس تُحِبّ الشهوات العاجـلة ، فتتهافَتُ النـاس على المَعـاصِي وبلوغِ الشَّهَوات والمآرب ، معوِّلين على ذلك ، فلولا قولُ المرجِئـة وظهـورُه بـين النـاس لـكانَ العصيـانُ إمّا معـدوما ، أو قليلاً جِدّا .

(٨٨)

الأصل :

أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ .

* * *

الشرح :

هذا حقّ ، لأنّ العالِمَ إذا لم يَظهَر من عِلمِهِ إلّا لَقْلَقَةُ لسانِه من غيرِ أن تَظهرَ منه العبادات ، كان عالمًا ناقصاً ، فأمّا إذا كان يُفيدُ الناسَ بألفاظِه ومنطقِه ، ثمّ يشاهِدُهُ النّاسُ على قَدَمٍ عظيمةٍ من العبادةِ ، فإنَّ النفعَ يكون به عامّا تامّا ، وذلك لأنّ الناس يقولون : لو لم يكن يَعتقِد حقيقةَ ما يقوله ، لما أدْأَبَ نَفسَه هذا الدَّأب .

وأمّا الأوّل فيقولون فيه : كُلّ ما يقوله نفاق وباطل ، لأنه لو كان يعتقد حقيقةَ[1] ما يقول لأَخَذَ به ، ولظَهرَ ذلك فى حرَكاته ، فيَقْتَدون بفِعله لا بقَوْله ، فلا يَشتغِل[2] أحدٌ منهم بالعبادة ولا يهتمّ بها .

---

(١) د : « أحقية » . (٢) ا : « يشتغلون » .

الأَصْلُ :

إِنَّ هَذِهِ ٱلْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

لو قال : إنّها تَمَلّ كما تَمَلّ الأبدان ، فأحمِضُوا[١] كما نقل عن غيره لُحمِل ذلك على أنّه أراد نَقلَها إلى الفُكاهات والأخبار والأشعار ، ولكنّه لم يقل ذلك ، ولكن قال : «فابتَغوا لها طرائفَ الحِكمة» ، فوَجَبَ أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على أنّه أراد أنّ القُلوبَ تَمَلّ من الأنظار العقليّة ، فى البراهين الكلاميّة على التوحيد والعدل ، فابتغوا لها عندَ مَلالِها طرائفَ الحِكمة ، أى الأمثال الحِكَمية الراجعة إلى الحِكمة الخلقية ، كما نحن ذاكرُوه فى كثيرٍ من فصولِ هذا الباب ، مِثل مدح الصبر ، والشجاعة ، والزهد ، والعِفّة ، وذمّ الغضب ، والشهوة ، والهوى ، وما يَرجِع إلى سياسة الإنسان نفسه ، وولده ، ومنزله ، وصديقه ، وسلطانه ، ونحو ذلك؛ فإنّ هذا عِلمٌ آخَر وفَنّ آخر، لا تَحتاجُ القلوب فيه إلى فِكْر واُستنباط ، فتَتعَب وتَكِلّ بترادُف النّظر والتأمّل عليها ، وفيه أيضاً لذّةٌ عظيمةٌ للنفس .

وقد جاء فى إجمامِ النّفس كثيرٌ .

قال بعضهم : رَوِّحوا القلوب برَواتِع[٢] الذّكر .

---

(١) يقال : أحمض القوم إحماضا ؛ إذا أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث والكلام ، كما يقال : فكه ومتفكه.
(٢) د : « تعى » .

وعن سَلْمانَ الفارسىّ : أنا أحتسِب نَوْمَتى كما أحتَسِب قَوْمَتى .

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : إنّ نفسى راحِلتى ، إن كلّفتُها فوقَ طاقتِها انقطعتْ بى .

وقال بعضهم : روِّحوا الأذهان ، كما تروِّحوا الأبدان .

وقال أردشيرُ بنُ بابك : إنّ للآذان مَجّة ، وللقلوب مَلّة ؛ ففرِّقوا بين الحكمتين[1] بلَهْوٍ يَكُنْ ذلك استِجْماماً .

---

(١) د : « الحكمين » .

الأصل :

لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ وَلَكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ ، وَالرَّاضِيَ بِقَسْمِهِ ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنْ لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنَاثَ ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ ، وَيَكْرَهُ انْثِلَامَ الْحَالِ .

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى : وهَذَا مِنْ غَرِيبِ ما سُمِعَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فى التَّفْسِير .

***

الشرح

الفتنة لفظٌ مشترَك ؛ فتارةً تُطْلَق على الجائحة والبليّة تصيبُ الإنسان ، تقول : قد افتُتِن زيد وفُتِن فهو مفتون إذا أصابتْه مُصيبة فذهَب مالُه أو عقلُه ، أو نحوُ ذلك ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ[1] ﴾ يَعنِى الّذين عذّبوهم بمكّة ليرتدّوا عن الإسلام ، وتارةً تُطلَق على الاختبار والامتِحان ، يقال : فتنتُ الذهبَ إذا أدخلتَه النار لتَنظرَ ما جَوْدَته ، ودينارٌ مَفْتون ، وتارةً تُطلَق على الإحراق ؛ قال تعالى :

---

(١) سورة البروج ١٠

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ[1] ﴾ وورق مَفْتون ، أى فضة مُحرَقة، ويقال للحرّة : فَتِين كأنّ حجارتَها مُحرَقة ، وتارةً تُطلَق على الضّلال ، يقال رجلٌ فاتن ومُفتن ، أى مُضِلّ عن الحقّ جاء ثُلاثيا ورُباعيّا ؛ قال تعالى : ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ[2] ﴾ أى بمضلّين ، وقرأ قومٌ « مفتنين » ، فمن قال : إنّى أعوذُ بك من الفِتْنة ، وأرادَ الجائحة ، أو الإحراق أو الضلال ، فلا بأس بذلك ، وإنْ أراد الاختبار والامتحانَ فغيرُ جائز ، لأنّ الله تعالى أعلمُ بالمَصلَحة ، وله أن يَختبِر عبادَه لا ليَعلَمَ حالَهم ، بل ليَعلم بعضُ عبادِه حالَ بعض ، وعندى أنّ أصلَ اللّفظة هو الاختبار والامتحان ، وأنّ الاعتبارات الأخرى راجعة إليها ، وإذا تأمّلْتَ علمتَ صحّةَ ما ذكرناه .

---

(١) سورة الذاريات ١٣ (٢) سورة الصافات ١٦٢ ، ١٦٣

الأصلُ :

وسُئِلَ عنِ الخيْرِ ما هُوَ ؟

فقَالَ : لَيْسَ الخيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مالُكَ وَوَلَدُكَ ، ولَكِنِ الخيْرُ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ ، وأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ ، وأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبادةِ رَبِّكَ ، فإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللهَ ، وإِنْ أَسأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللهَ . ولا خَيْرَ فى الدُّنْيا إلاَّ لِرَجُلَيْنِ : رَجُلٍ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُها بالتَّوْبَةِ ، ورَجُلٍ يُسَارِعُ فى الخيراتِ ؛ ولا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التقْوَى ، وكَيْفَ يَقِلُّ ما يُقبلُ !

* * *

الشرحُ

قد قال الشاعر لهذا المعنى :

ليس السّعيدُ الذى دُنْياه تُسعِدُه بل السعيد الذى ينجُو من النارِ

قوله عليه السلام : « ولا يَقِلّ عملٌ مع التقوى » ، أى مع اجتناب الكبائر ، لأنه لو كان مُوقِعاً لِكبيرة لما تُقُبِّل منه عملٌ أَصلا على قول أصحابنا ، فوجب أن يكون المراد بالتقوى اجتنابَ الكبائر ؛ فأمّا مذهبُ المرجئة فإنهم يحملون التّقوى ها هنا على الإسلام ، لأنّ المسلم عندهم تتقبّل أعماله ، وإن كان مُواقعا للكبائر .

فإن قلت : فهل يجوز حملُ لفظة « التقوى » على حقيقتها ، وهى الخوف ؟

قلت : لا . أما على مَذهبنا فلأن من يخافُ الله ويواقع الكبائرَ لا تتقبل أعمالُه ،

وأمّا مذهب المرجئة فلأن من يخاف الله مِن مخالفى مِلّة الإسلام لا تتقبل أعمالُه ، فثبت أنه لا يجوز حملُ التقوى ها هنا على الخوف .

فإن قلت : مَنْ هو مخالفٌ لمِلة الإسلام لا يخافُ الله لأنه لا يعرفه .

قلت : لا نسلّم ، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصِفاته ، كما نعرفه نحن ، و يجحد النبوّة لشُبْهة وقعت له فيها ، فلا يلزم من جَحْد النبوة عدمُ معرفة الله تعالى .

الأصلُ :

إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بالأنْبِياءِ أَعْلَمُهُمْ بِما جاءوا بِهِ ، ثُمَّ تَلا عَلَيْهِ السَّلامُ : ﴿ إنَّ أوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِين اتَّبَعُوهُ وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ الآيَة .

ثُمَّ قالَ عَلَيْهِ السَّلاَم : إنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطاعَ اللهَ و إن بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ ، و إنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللهَ و إن قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ .

***

الشَّرْحُ :

هكذا الرواية « أَعلمهم » ، والصحيح «أعملهم» ، لأن استدلاله بالآية يقتضى ذلك ، وكذا قوله فيما بعدُ . « إنّ وَلِيَّ محمد من أطاع الله ...» إلى آخر الفصل ، فلم يذكر العلم ، وإنما ذكر العمل . واللُّحْمة بالضم : النسب والقرابة ، وهذا مثلُ الحديث المرفوع : « ائتونى بأعمالكم ، ولا تأتونى بأنسابكم ، إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكم» ؛ وفى الحديث الصحيح: « يا فاطمة بنت محمد ، إنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

وقال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام : أرأيت قوله صلى اللهُ عليهِ وسلّم : « إن فاطمةَ أحصنتْ فرجها فحرّم اللهُ ذرّيتها على النار» ، أليس هذا أمانا لكل فاطمى فى الدنيا ؟ فقال : إنك لأحمق ، إنما أراد حسناً و حسَينا ، لأنهما من لحمة أهل البيت ، فأما مَن عداهما فمن قَعد به عملُه لم يَنهَضْ به نَسَبُه .

الأصْلُ

وسَمِعَ عَلَيْهِ السَّلامُ رَجُلاً مِنَ الحَرُورِيَّةِ يَتَهَجَّدُ ويَقْرَأُ ، فقَالَ : نَوْمٌ على يقِين ، خَيْرٌ مِنْ صَلاَةٍ عَلَى شَكٍّ .

***

الشَّرْحُ :

هذا نهيٌ عن التعرّض للعبادة مع الجهل بالمعْبود ، كما يصنع اليوم كثيرٌ من الناس ، ويظنون أنّهم خير الناس ، والعقلاء الألبّاء من الناس يضحكون منهم ، ويستهزئون بهم ، والحَرُورِيّة : الخوارج ، وقد سَبق القول فيهم . وفى نِسبتهم إلى حَروراء(١) .

يقول عليهِ السلام : تَرْكُ التنفُّل بالعبادات مع سلامة العقيدة الأصلية ، خيرٌ من الاشتغال بالنوافل وأورادِ الصّلاة مع عدم العلم ؛ وهو المعنيُّ بقوله : « فى شَكّ » ، فإذا كان عدمُ التنفّل خيرا من التنفّل مع الشكّ فهو مع الجهل المحض وهو الاعتقاد الفاسِد أَوْلى بأنْ يكون .

---

(١) حروراء : قرية بظاهر الكوفة ، نزل بها الخوارج الذين خالفوا على بن أبى طالب ؛ وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوا عليه » .

الأَصْـلُ :

اعْقِلُوا الْخَبَرَ إذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعايَةٍ ؛ لا عَقْلَ رِوَايَةٍ ، فإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ، وَرُعاتَهُ قَلِيلٌ .

* * *

الشَّـرحُ :

نهاهم عليه السلام عن أن يقتصروا إذا سمِعوا منه أو من غيره أطرافا [1] من العِلْم والحكمة ، على أن يَرووا ذلك رواية كما يفعله اليومَ المحدثون ، وكما يقرأ أكثرُ الناس القرآن دراسةً ولا يَدْرِى من معانيه إلاّ اليسير .

وأمرَهم أن يعقِلوا ما يَسمَعونه عقلَ رِعاية أى مَعرفة وفَهْم .

ثم قال لهم : « إنّ رُواة العلم كثير ، ورُعاته قليل » ، أى من يُراعِيه ويتدبّره ؛ وصَدَق عليه السلام !

---

(١) ا : « طرفا » .

الأصْلُ :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَقَدْ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، فَقَالَ : إِنَّ قَوْلَنَا «إِنَّا لِلَّهِ» إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ ، وَقَوْلَنَا : «وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قوله إنّا لِلَّهِ اعترافٌ بأنّا مملوكون لله وعبيدٌ له ، لأنّ هذه اللامَ لامُ التمليك ، كما تقول : الدارُ لِزَيد ؛ فأمّا قولُه : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[1] ؛ فهو إقرار واعترافٌ بالنّشور والقيامة ، لأنّ هذا هو معنى الرّجوع إليه سبحانه ، واقتنَع أميرُ المؤمنين عن التصريح بذلك ، فذَكَر الهُلْك ، فقال : إنّه إقرارٌ على أنفُسنا بالهُلْك ، لأنّ هُلْكنا مُفضٍ إلى رجوعِنا يومَ القيامة إليه سبحانه ، فعبّر بمقدّمة الشيء عن الشيء نفسه ، كما يقال: الفقرُ المَوْت ،والحمّى الموت، ونحو ذلك .

ويُمكِن أن يفسّر ذلك على قول مُثبِتى النّفس الناطقة بتفسيرٍ آخر فيقال : إنّ النفس مادامت فى أسْرِ تدابير البَدَن فهى بمَعزِل عن مبادئها ، لأنّها مشتغِلةٌ مستغرقة بغير ذلك ، فإذا مات البدَنُ رجعت النفسُ إلى مَبادِئها ، فقوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[1] إقرارٌ بما لا يصحّ الرجوع بهذا التفسير إلّا مَعَه ، وهو الموت المعبّر عنه بالهُلْك .

---

(١) سورة البقرة ١٥٦ .

الأَصْلُ :

وقال عليه السلام ومدحه قوم فى وجهه:

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ . اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَاغْفِرْ لِي مَالَا يَعْلَمُونَ !

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى كراهِيَة مَدْح الإنسان فى وجهه . وفى الحديثِ المرفوعِ : « إذا مدحْتَ أخاكَ فى وجهِه، فكأنّما أمرَرْتَ على حَلْقِه مُوسَى وَمِيضه» .

وقال أيضا لرجلٍ مَدَح رجلا فى وجهه : « عَقَرْتَ الرجلَ عَقَركَ الله ! » .

وقال أيضا : « لو مَشَى رجلٌ إلى رجل بسَيْف مرهَفٍ كان خيرا له من أن يُثنِيَ عليه فى وجهه » .

ومن كلامِ عمرَ : المَدْحهو الذَّبْح ؛ قالوا : لأنّ المذبوحَ يَنْقَطِع عن الحركة والأعمال، وكذلك المَمْدوح يَفتُر عن العمل .

ويقول : قد حَصَل فى القلوب والنفوس ما أُستَغنَى به عن الحركة والجدّ .

ومن أمثال الفلاّحين : إذا طارَ لك صيتٌ بين الحصّادة ، فاُكسِر مِنْجَلَك .

وقال مُطرف بنُ الشِّخِّير : ماسمعتُ من ثناءِ أحدٍ عليّ ، أو مِدحةِ أحدٍ لى، إلّا وتصاغرتْ إلىّ نفسى . وقال زياد بنُ أبى مسلِم : ليس أحد سَمِع ثناء أحدٍ عليه إلّا وتراءى له شيطان ،ولكنّ المؤمن يراجع .

فلمّا ذُكِر كلامُهما لابن المبارك قال : صَدَقا؛ أمّا قول زياد فتلك قُلوبُ العوامّ ، وأمّا قولُ مطرِّف فتلك قلوب الخواصّ .

الأَصْلُ :

وقال عليه السلام :

لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ : بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تَقدَّم لنا قَوْلٌ مستقصًى فى هذا النحو ، وفى الحوائج وقضائِها وأُستنجاحِها .

وقد جاء فى الحديث المرفوع : « استعِينوا على حاجاتكم بالكِتمان ، فإنّ كلّ ذى نِعْمة محسود » .

وقال خالدُ بنُ صَفْوان : لا تطلُبوا الحوائجَ فى غير حِينِها ، ولا تَطلُبوها إلى غيرِ أهلِها ، ولا تَطلُبوا مالستم له بأهل فتكونوا للمَنْع خُلَقاء .

وكان يقال : لكلّ شىء أسٌّ ، وأُسُّ الحاجة تعجيلٌ أروَحُ من التأخير .

وقال رجلٌ لمحمّد بن الحنفيّة : جئتُك فى حُوَيْجة ، قال : فاْطلب لها رُجَيْلا !

وقال شَبيبُ بن شَبّة بن عِقال : أمران لا يَجتمِعان إلّا وَجَب النُّجْح ، وهما العاقل لا يَسأَل إلّا مايجوز ، والعاقل لا يرُدُّ سائلَه عمّا يُمكِن .

وكان يقال : من استَعظَم حاجَة أخِيه إليه بعد قضائها أمتننانا بها فقد أستَصْغَر نفسَه .

وقال أبو تمّام فى المَطْل (١) .

وكان المَطْــلُ فى بَدْءٍ وعَوْدٍ دُخاناً للصّنيعــة وهى نارُ (٢)
نسيبَ البُخْــل مُذْ كانا وإلّا يكنْ نَسَبٌ فبينَهما جِــوارُ
لذلك قيــل : بعضُ المَنع أَدنَى إلى جُودٍ ، وبعضُ الجودِ عارُ

(١) ديوانه ٢ : ١٥٩ — بشرح التبريزى

(٢) قال شارح ديوانه : « أى يتأذى بالمطل كما يتأذى بالدخان ؛ فكما أن المحمود من النار أن تخلص من الدخان ؛ كذلك المحمود من العطاء خلوصه من المطل » .

الأصلُ :

يأتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يُقَرَّبُ فيهِ إلاَّ المَاحِلُ ، ولا يُظَرَّفُ فيهِ إلاَّ الفَاجِرُ ، ولاَ يُضَعَّفُ فيهِ إلاَّ المُنْصِفُ ؛ يَعُدُّون الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْماً ، وصِلَةَ الرَّحِمِ مَنًّا ، والعِبادَةَ اسْتِطالةً عَلَى النَّاسِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ الإماءِ ، وإمارَةِ الصِّبْيَانِ ، وتَدْبِيرِ الخِصْيانِ .

* * *

الشرحُ :

المَحْل : المكر والكَيْد ؛ يقال مَحَل به إذا سَعَى به إلى السلطان ، فهو ماحِلٌ ومَحُول ؛ والمُماحَلة المماكَرة والمكايدة .

قوله : « وَلَا يُظَرَّف فيه إلاَّ الفاجر » ، لا يَعُدّ الناسُ الإنسانَ ظريفاً إلا إذا كان خليعاً ماجناً متظاهرا بالفِسق .

وقولُه : « ولا يضعَّف فيه إلا المنصِف » ، أى إذا رأَوا إنسانا عنده وَرَع و إنصاف فى معاملتهِ الناسَ عدُّوه ضعيفاً ، ونَسَبوه إلى الرِّكّة والرَّخاوة ، وليس الشَّهم عندهم إلا الظالم .

ثم قال : « يعدّون الصدقة غُرْما » ، أى خسارة[1] ، ويَمُنُّون إذا وَصَلوا الرَّحِم

---

(١) ا : « غرما وخسارة » .

وإذا كانوا ذوى عِبادة استطالوا بها على الناس وتبجّحوا بها ، وأعجبتهم أنفسهم ، واحتقروا غيرهم .

قال : فعند ذلك يكون السلطان والُحكم بين الرعايا بمشورة الإماء . . . إلى آخر الفصل ، وهو من باب الإخبار عن الغيوب وهى إحدى[1] آياته ، والمُعجِزات المختصّ بها دون الصّحابة .

(١) د : « وهى إحدى » .

الأصْلُ :

وقال عليه السلام :

وقدْ رُئِيَ عَلَيْهِ إزَارٌ خَلَقٌ مَرْقُوعٌ ، فَقِيل لَهُ فِي ذلك ، فقَال : يَخْشَعُ لَهُ القَلْبُ ، وتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ ، ويَقْتَدِى بِهِ المُؤْمِنُونَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدم القولُ فى هذا الباب ، وذكَرْنا أنّ الحكماء والعارفين فيه على قسمين : منهم من آثر لبسَ الأدْنى على الأعلى ، ومنهم من عكس الحال ، وكان عمرُ بنُ الخطاب من أصحاب المذهب الأوّل ، وكذلك أميرُ المؤمنين ، وهو شِعار عيسى بن مريَمَ عليه السلام ، كان يلبسُ الصوف وغليظ الثياب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النَّوعين جميعا ، وأكثر لُبسِه كان الجيّد من الثياب مِثل أَبراد اليمن ، وما شاكل ذلك ، وكانت مِلحفتُه مورَّسَةً [1] حتى إنها لتردِع [2] على جِلده كما جاء فى الحديث . ورُئِيَ محمّد بن الحنفية عليه السلام واقفا بعرفات على بِرذَون أصفر ، وعليه مُطْرَف خزٍ أَصْفر ، وجاء فَرْقَد السَّبَخِيّ [3] إلى الحسن وعلى الحسَن مُطرف خَزٍّ ، فجعل يَنظُر إليه وعلى فَرْقد ثيابُ صوف ، فقال الحسن : ما بالُك تنظُر إلىّ وعلىّ ثيابُ أهلِ الجنّة ،

---

(١) مورسة ، أى مصبوغة بالورس ؛ وهو نبت أصفر يكون باليمن ؛ تصبغ به الثياب .

(٢) فى اللسان عن ابن عباس : « لم ينه عن شيء من الأردية إلا عن المزعفرة التى تردع على الجلد » ، قال : أى تنفض صبغها عليه ، وثوب رديع ؛ مصبوغ بالزعفران .

(٣) ب : « السنجى » ، والصواب ما أثبته ، منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، ذكره ياقوت ؛ وذكر بنسبة فرقد إليه

وعليك ثيابُ أهلِ النار ! إن أحَدَكم ليَجْعل الزهد فى ثيابه والكِبْرَ فى صَدْره ، فلَهُو أشدُّ عجباً بصوفه من صاحبِ المُطَرَّف .

وقال ابن السَّمّاكُ لأصحاب الصّوف : إن كان لباسُكم هذا مُوافِقا لسرائِركم فلقد أحببتم أن يطّلع الناسُ عليها ، ولئن كان مخالفا لها لقد هَلَكتم .

وكان عمر بن عبد العزيز على قاعدة عمر بن الخطاب فى مَلْبوسه ، وكان قَبلَ الخلافة يلبس الثياب المثمَّنة جدّا ، كان يقول : لقد خِفْتُ أن يَعْجَز ما قَسم الله لى من الرّزق عمّا أريده من الكسوة ، وما لبستُ ثوبا جديدا قطّ إلاّ وخُيِّل لى حين يراه الناس أنه سَمِلٌ أو بالٍ ، فلما ولىَ الخلافة ترَكَ ذلك كلَّه .

وروى سعيدُ بنُ سُويد ؛ قال : صلَّى بنا عمرُ بنُ عبد العزيز الجمعة ، ثمّ جلس وعليه قميص مرقوع الجَيْب من بين يديه ومن خَلْفه ، فقال له رجل : إنّ الله أعطاك يا أمير المؤمنين ؛ فلو لبستَ ! فنكّس مَليّا ثمّ رفع رأسه فقال : إنّ أفضل القصْد ما كان عند الجِدَة ، وأفضلُ العفْو ما كان عند المَقْدرة .

وروى عاصمُ بن مَعدلة : كنت أَرى عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة فأَعجب من حُسن لونه وجودة ثِيابِه وبزّته ، ثم دخلت عليه بعد أنْ وَلى ، وإذا هو قد احترق واسودّ ولَصِق جِلْدُه بعَظْمِه ؛ حتى ليس بين الجلد والعظم لحم ، وإذا عليه قلنسُوَة بيضاء قد اجتمع قطنُها ويعلم أنها قد غسلتْ ، وعليه سُحُقٌ[1] انبَجانيّة قد خرج سَدَاها ، وهو على شاذكونة[2] ؛ قد لَصِقت بالأرض تحت الشاذكونة عباءةٌ قَطَوانيّة[3] من مُشاقة الصوف ، وعنده رجلٌ يتكلم ، فرفع صَوْته ، فقال له عمر : اخفِض قليلا من صوتِك ، فإنما يكفى الرجل من الكلام قدرَ ما يُسمِعَ صاحبَه .

وروى عبيد بنُ يعقوبَ أن عمرَ بنَ عبد العزيز كان يَلبس الفَرْوَ الغليظ من الثياب ، وكان سِراجه على ثلاث قَصَبات فوقهنّ طِين .

---

(١) جمع سحق ؛ وهو الثوب البالى . (٢) الشاذكونة : ثياب غلاظ تعمل باليمن .
(٣) قطوانية : منسوبة إلى قطوان ، موضع بالكوفة .

الأَصْلُ :

إنَّ الدُّنيا والآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفاوتانِ ، وسَبِيلانِ مُخْتَلِفانِ ، فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنيا وتَوَلَّاها أبغَضَ الآخِرَةَ وعادَاها ، وهما بِمَنْزِلَةِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، وماشٍ بَيْنَهُما كُلَّما قَرُبَ مِن واحدٍ بَعُدَ مِنَ الآخَرِ ، وهُما بَعْدُ ضَرَّتان .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الفصل بَيِّنٌ فى نفسِه لا يَحتاج إلى شَرْح ، وذلك لأنَّ عَمَل كلّ واحدة من الدارين مُضادٌّ لِعَمَل الأخرى ، فعَمَل هـذا : الاكتساب ، والاضطراب[1] فى الرزق ، والاهتمام بأمر المعاش ، والولد والزوجة ، وما ناسَبَ ذلك . وعمل هذه : قَطْعُ العلائق ، ورفض الشهوات ، والانتصاب للعبادة ، وصَرْف الوجه عن كلّ ما يصدّ عن ذِكرِ الله تعالى ؛ ومعلومٌ أنّ هذين العَمَلين متضادّان ، فلا جَرَم كانت الدّنيا والآخرة ضرّتين لا يجتمعان !

---

(١) ا : « والضرب فى سبيل الرزق »

الأَصْلُ :

وَعَنْ نَوْفٍ الْبَكَّائِي - وَقِيلَ الْبَكَالِيّ بِاللَّامِ ؛ وَهُوَ الأَصَح - قَالَ :
رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَام ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنَظَرَ إِلَى النُّجُومِ ، فَقَالَ : يَانَوْفُ ، أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ ؟ فَقُلْتُ : بَلْ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ قَالَ : يَانَوْفُ ، طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا ، الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ ! أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الأَرْضَ بِسَاطاً ، وتُرَابَهَا فِرَاشاً ، وماءَهَا طِيباً ، والْقُرْآنَ شِعَاراً ، والدُّعَاءَ دِثَاراً ، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضاً عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ . يَانَوْفُ ، إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَقَالَ : إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشَّاراً ، أَوْ عَرِيفاً ، أَوْ شُرْطِيًّا ، أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ - وَهِيَ الطُّنْبُورُ - أَوْ صَاحِبَ كَوْبَةٍ ، وَهِيَ الطَّبْلُ .

وَقَدْ قِيلَ أَيْضاً : إِنَّ الْعَرْطَبَةَ الطَّبْلُ ، والْكَوْبَةَ الطُّنْبُورُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قال صاحبُ الصّحاح : نَوْفُ البَكَالىّ كان صاحبَ علىّ عليه السلام .

وقال ثعلب : هو منسوبٌ إلى قبيلة تُدعَى بَكالة ، ولم يذكر من أىّ العرب هى ، والظاهر أنها من اليَمَن ، وأمّا بكيل فحىّ من هَمْدان ، وإليهمْ أشارَ الكُميت بقوله :

* فقد شركتْ فيه بكيلٌ وأَرْحَبُ *[1]

---

(١) صدره : * يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تُرَاثُهُ *

فأمّا البَكالىّ فى نسب نوف فلا أعرِفه .

قوله : أم رامق ، أى أم مستيقِظٌ ترمُق السماءَ والنجومَ ببصَرِك .

قوله : قرَضوا الدّنيا، أى ترَكوها وخلّفوها وراءَ ظهورِهم، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾[1] أى تترُكهم وتخلفُهم شمالا ، ويقول الرجل لصاحبه : هل مَررتَ بمكانِ كذا ، يقول : نعَم قرَضْته ليلاً ذاتَ اليَمين ،وأنشدَ لذى الرمّة :

إلى ظُعُنٍ يَقرِضْن أجوازَ مُشْرفٍ شمالا وعن أيمانهنّ الفَوارسُ[2]

قالوا : مسرف والفَوارس : موضعان ، يقول : نظرتُ إلى ظُعُن يَجُزْن بين هَذين الموضعين .

---

(١) سورة الكهف ١٧

(٢) الصحاح (قرض) .

(١٠٢)

الأصل :

إِنَّ اللهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً فَلاَ تَعْتَدُوهَا ، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَاناً فَلاَ تَتَكَلَّفُوهَا .

٭٭٭

الشرح :

قال الله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [١] .

وجاء فى الأثر : أبهِموا ما أبهَم الله .

وقال بعضُ الصالحين لبعض الفقهاء : لِمَ تفرض مسائل لَمْ تَقَع وأتعبت فيها فكرَك ! حَسْبُك بالمتداوَل بين الناس .

قالوا : هذا مِثلُ قولِهم فى باب المَسْح على الخُفّين : فإنْ مَسَح على خفٍّ من زُجاج؛ ونحو ذلك من النّوادر الغريبة .

وقال شريك فى أبى حنيفة : أجهَلُ الناسِ بما كان ، وأعلَمُهم بما لم يكن .

وقال عمر : لا تتنازعوا فيما لم يكن فتختلفوا ، فإنّ الأمر إذا كان أعانَ الله عليه ، وانتهاك الحُرْمة تناوُلُها بما لا يَحِلّ ، إمّا بارتكاب ما نهى عنه ، أو بالإخلال بما أمر به .

---

(١) سورة المائدة ١٠١

(١٠٣)

الأَصْلُ :

لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَاهُوَ أَضَرُّ مِنْهُ .

***

الشَّرْحُ :

مثالُ ذلك إنسان يضيِّع وقتَ صلاةِ الفريضة عليه ، وهو مشتغِل بمحاسَبةِ وَكيله ومخافته على مالِه ، خوفا أن يكون خانَه فى شىء منه ، فهو يَحرِص على مناقَشته عليه ، فتفوته الصّلاة .

قال عليه السلام : مَن فَعَلَ مِثلَ هذا فتَحَ الله عليه فى أمرِ دُنْياه ومالِه ماهو أضرّ عليه ممّا رام أن يَستدرِكه بإهماله الفريضة .

الأصلُ :

رُبَّ عالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ ، وعِلْمُهُ مَعَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ .

* * *

الشرحُ :

قد وَقع مِثلُ هذا كثيرا ، كما جَرَى لعبد الله بن المقفَّع ، وفضلُه مشهور ، وحِكمتُه أشهر من أن تذكر ، ولو لم يكن له إلا كتاب "اليتيمة" لَكَفَى .

* * *

[محنة المقفّع]

واجتمع ابنُ المقفَّع بالخليل بن أحمد ، وسمع كلّ منهما كلام الآخر ، فسئل الخليلُ عنه فقال : وجدتُ علمَه أكثر مِن عقله ؛ وهكذا كان ، فإنه كان مع حكمته متهوِّرا ، لا جرَم تهوُّره قتَلَه ! كتب كتابَ أمان لعبد الله بن علىّ عمّ المنصور ويوجد فيه خطّه ، فكان من جملته : ومَتى غَدَرَ أميرُ المؤمنين بعمّه عبدالله ، أو أبطن غير ما أظهر أو تأوّل فى شىء من شروط هذا الأمان فنساؤه طوالقُ ، ودوابّه حُبُس ، وعبيدُه وإماؤه أحرار ، والمسلمون فى حِلٍّ من بَيْعته . فاشتدّ ذلك على المنصور لمّا وقف عليه ، وسأل : مَن الذى كتَب له الأمان ؟ فقيل له : عبد الله بنُ المقفع كاتبُ عمّيك عيسى وسليمان ، ابنى علىّ بالبصرة ، فكتب المنصور إلى عامله بالبصرة سُفيان بن معاوية يأمره بقتله .

وقيل : بل قال : أمَا أحدٌ يكفينى ابنَ المقفع ! فكتب أبو الخصيب بها إلى

سفيان بن معاوية المهلّبي أمير البصرة يومئذ ـ وكان سُفْيان واجداً على ابن المقفّع لأنه كان يعبث به ويَضحَك منه دائما ، فغضِب سفيانُ يوما من كلامه ، وافترَى عليه ، فردّ ابن المقفّع عليه رَدّا فاحشا ، وقال له : يابن المُغتلِمة ! وكان يمتنع ويعتصم بعيسى وسليمان ابنَيْ عليّ بن عبد الله بن العباس ، فحقدها سُفيان عليه ـ فلما كوتب فى أمره بما كوتِب اعتزمَ قتله ، فاستأذن عليه جماعةٌ من أهل البصرة ، منهم ابن المقفع ، فأدخل ابن المقفع قبلهم ، وعدَل به إلى حجرة فى دِهليزه ، وجلس غلامُه بدابّته ينتظره على باب سفيان ، فصادف ابنُ المقفع فى تلك الحجْرة سُفْيان بن معاوية ، وعنده غلمانه وتنُّور نارٍ يُسجر ، فقال له سفيان : أتذكر يوم قلتَ لى كذا ! أمى مغتلِمةٌ إن لم أقتلْك قِتلة لم يُقتل بها أحد ؛ ثم قطع أعضاءه عُضوا عُضْوا ، وألقاها فى النار وهو ينظر إليها ، حتى أَتَى على جميع جسده ، ثم أطبق التنوّر عليه ، وخرج إلى الناس فكلّمهم ، فلما خرجوا من عنده تخلّف غلام ابن المقفع ينتظره فلم يخرُج ، فمضى وأخبَرَ عيسى بن عليّ وأخاه سليمان بحاله ، فخاصما سفيان بن معاوية فى أمره ، فجحد دُخوله إليه ، فأشْخَصاه إلى المنصور : ، وقامت البينة العادلة أن ابنَ المقفّع دخل دار سفيان حيا سليما ولم يخرج منها . فقال المنصور: أنا أنظر فى هذا الأمر إن شاء الله غداً ؛ فجاء سُفيان ليلاً إلى المنصور فقال : ياأمير المؤمنين ، اتّق الله فى صَنيعتك ومتّبع أمرك ، قال : لا ترُع ، وأحضَرَهم فى غد ، وقامت الشهادة ، وطلب سليمان وعيسى القصاص ، فقال المنصور : أرأيتم إن قتلتُ سفيان بابن المقفع ، ثم خرج ابن المقفَّع عليكم من هذا الباب ـ وأومأ إلى باب خَلفه ـ من ينصّب لى نفسه حتى أقتله بسُفْيان ؟ فسكتوا ، واندفع الأمرُ ، وأضرَب عيسى وسليمانُ عن ذكر ابن المقفع بعدها ، وذَهب دمُه هدَرا .

قيل للأصمعىّ : أيّما كان أعظم ذَكاءً وفِطنةً الخليلُ أمْ ابن المقفع ؟ فقال : كان ابن المقفع أفصح وأحكم ، والخليلُ آدب وأعقل ؛ ثم قال : شتانّ ما بين فِطْنة أفْضَتْ بصاحبها إلى القتل ، وفطنة أفضَتْ بصاحبها إلى النُّسك والزهد فى الدنيا ! وكان الخليلُ قد نَسك قبل أن يموت .

الأصْلُ :

لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاطِ هَذَا ٱلْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَهُوَ ٱلْقَلْبُ ، وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ مَوَادَّ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَأَضْدَاداً مِنْ خِلَافِهَا ، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ ، وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ ٱلْحِرْصُ ، وَإِنْ مَلَكَهُ ٱلْيَأْسُ قَتَلَهُ ٱلْأَسَفُ ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ ٱلْغَضَبُ ٱشْتَدَّ بِهِ ٱلْغَيْظُ ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَا نَسِيَ التَّحَفُّظَ ، وَإِنْ غَالَهُ ٱلْخَوْفُ شَغَلَهُ ٱلْحَذَرُ ، وَإِنِ ٱتَّسَعَ لَهُ ٱلْأَمْرُ ٱسْتَلَبَتْهُ العِزَّةُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ ٱلْجَزَعُ ، وَإِنْ أَفَادَ مَالًا أَطْغَاهُ ٱلْغِنَى ، وَإِنْ عَضَّتْهُ الفَاقَةُ شَغَلَهُ البَلَاءُ ، وَإِنْ جَهَدَهُ ٱلْجُوعُ قَعَدَتْ بِهِ الضَّعَةُ ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ البِطْنَةُ ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ .

* * *

الشَّرْحُ :

رُوِى : « قَعَدَ به الضّعف » . والنِّياط : عِرْق عُلّق به القلب من الوتين ، فإذا قُطِع مات صاحبُه ، ويقال له : النّيط أيضا . والبَضْعَة بفتح الباء : القِطْعة من اللّحم ، والمراد بها هاهنا القلب ؛ قال : يعتوِر القلبَ حالاتٌ مختلفاتٌ متضادّات ، فبعضُها من الحِكْمة ، وبعضُها — وهو المضادّ لها — منافٍ للحكمة ، ولم يذكُرْها عليه السلام ، وليست الأمورُ التى عدّدها شرحا لِما قدّمه من هذا الكلام المُجمَل ، وإن ظَنّ قومٌ أنه أراد ذلك ، ألا تَرَى أنّ الأمورَ التى عدّدها ليس فيها شىء من باب الحِكْمة وخلافِها !

فإن قلت : فما مِثالُ الحِكمة وخلافها ، وإن لم يذكر عليه السلام مثاله ؟

قلت : كالشجاعة فى القَلْب وضِدّها الجُبْن ، وكالجود وضدّه البُخْل ، وكالعِفّة وضدّها الفجُور ، ونحو ذلك .

فأمّا الأمور التى عدّدها عليه السلام فكلامٌ مستأنَف ، إنّما هو بيانُ أنّ كلّ شىء ممّا يتعلّق بالقلب يَلزَمه لازمٌ آخر نحوُ الرجاء ، فإنّ الإنسان إذا اشتدّ رجاؤه أذلّه الطمع ، والطّمع يَتْبع الرّجاء ، والفرْق بين الطمع والرّجاء أنّ الرّجاء توقُّع منفعَة ممّن سبيلُه أن تَصدُر تلك المَنفعَة عنه ، والطمع توقُّعُ منفَعةٍ ممّن يُستبعَد وُقوعُ تلك المنفعة منه ؛ ثم قال : وإن هاج به الطمع قَتَله الحِرْص ، وذلك لأنّ الحرْص يَتْبع الطّمع ، إذا لم يَعلَم الطامعُ أنّه طامع ، وإنّما يَظُن أنّه راج .

ثم قال : وإن مَلَكه اليأس ، قتَله الأسَف ، أكثَرُ الناسِ إذا يَئِسوا أسِفوا .

ثم عدّد الأخلاقَ وغيرَها من الأمور الواردة فى الفَصْل إلى آخره ، ثمّ خَتَمه بأن قال : «فكلُّ تقصيرٍ به مُضِرّ ، وكلّ إفراطٍ له مفسِد» ؛ وقد سَبَق كلامُنا فى العدَالة ، وإنّها الدّرجة الوسطى بينَ طرَفين هما رَذِيلتان ، والعَدالة هى الفضيلة ، كالجود الذى يكتنفه التّبذير والإمساك ، والذّكاء الّذى يَكتنفِه الغباَوة . والجُرْبزة[1] ، والشجاعة الّتى يَكتنفِها الهوَج والجُبْن ، وشَرَحْنا ماقالَه الحكَماء فى ذلك شرحا كافياً ، فلا معْنَى لإعادته .

---

(١) الجربزة : الخب والخديعة .

الأصْلُ :

نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى الَّتِي يَلْحَقُ بِهَا التَّالِي ، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي .

***

الشَّرْحُ

النُّمرُق والنُّمرُقة بالضم فيهما : وِسادةٌ صغيرةٌ ، ويجوز النِّمرِقة بالكسر فيهما ؛ ويقال للطِّنفِسة فوقَ الرَّحل نُمْرقة . والمعنى أنّ كلّ فضيلة فإنّها مجنّحة بطرَفَين معدُودَين من الرّذائل كما أوضحناه آنفا ، والمراد أنَّ آل محمد عليه وعليهم السلام هم الأمرُ المتوسّط بين الطّرفين المذمومين ، فكلُّ مَن جاوَزَهم فالواجب أن يَرجِع إليهم ، وكلّ من قَصّر عنهم فالواجبُ أن يَلحَق بهم .

فإن قلت : فلِمَ أُستعار لفظَ النّمرقة لهذا المعنى ؟

قلت : لمّا كانوا يقولون : قد رَكِب فلانٌ من الأمر مُنكَرا وقد أُرتكَب الرأىَ الفلانىّ ، وكانت الطِّنفِسة فوق الرّحل ممّا يُركَب ، استعارَ لَفظَ النّمرقة لما يراه الإنسانُ مَذهَبا يَرجِع إليه ويكون كالرّاكب له ، والجالِس عليه ، والمتورِّك فوقَه .

ويجوز أيضاً أن تكون لفظة «الوُسْطَى» يراد بها الفُضْلى ؛ يقال : هذه هى الطريقةُ الوُسْطى ، والخليقةُ الوسطى ، أى الفضلى ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ[1] ﴾ أى أفضلُهم ، ومنه : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً[2] ﴾ .

---

(١) سورة القلم ٢٨ (٢) سورة البقرة ١٤٣

(١٠٧)

الأَصْلُ :

لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ، وَلَا يُضَارِعُ ، وَلَا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سبق من كلام عمرَ شىء يُناسِب هـذا إن لم يكن هو بعَينه ؛ والمُصانَعة : بَذْل الرِّشْوة . وفى المَثَل : مَن صَانَع بالمال ، لم يَحتشِم مِن طَلَب الحاجة .

فإن قلت : كان ينبغى أن يقول : « من لا يصانَع » بالفتح .

قلتُ : المُفاعَلة تدلّ عَلَى كون الفعل بين الاثنين كالمُضارَبة والمُقاتَلة .

ويضارع : يتعرّض لطَلَب الحاجَة ؛ ويجوز أن يكون من الضّراعة وهى الخضوع أى يخضعُ لزَيدٍ ليَخضَع زيدٌ له ؛ ويجوز أن يكون من المضارَعة بمعنى المشابَهة ، أى لا يتشبّه بأئمّة الحقّ أو وُلاة الحقّ ، وليس منهم .

وأمّا اتّباع المَطامِع فمعروف .

الأصْلُ :

وقال عليه السلام ، وَقد تُوُفِّىَ سَهْلُ بنُ حُنَيْفٍ ٱلْأَنْصارىُّ بِالْكُوفَةِ بَعْدَ مَرْجِعِهِ مِنْ صِفِّينَ مَعه ، وَكَانَ أَحَبَّ النَّاس إليه :

لَوْ أَحَبَّنِى جَبَلٌ لَتَهَافَتَ .

قال الرَّضىُّ رحمه اللهُ تعالى :

وَمَعْنى ذَلِكَ أَنَّ ٱلْمِحْنَةَ تَغْلُظُ عَلَيْهِ ، فَتُسْرِعُ ٱلْمَصَائِبُ إِلَيْهِ ، وَلَا يُفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْأَتْقِيَاءِ ٱلْأَبْرَارِ ، ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ . وَهَـذَا مِثْلُ قَوْلِهِ عليه السَّلامُ : « مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ ٱلبَيْتِ فَلْيَسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْبَاباً » وَقَدْ يُؤَوَّلُ ذَلِكَ عَلَى مَعْنًى آخَرَ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قد ثبت أنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله قال له : «لا يُحبّك إلّا مؤمن ؛ ولَا يبغضكَ إلّا مُنافق » .

وقد ثبَتَ أنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ البَلوَى أسرَعُ إلى المؤمن من الماء إلى الحدُور » :

وفى حَديثٍ آخَر : « المؤمنُ مُلَقًّى ، والكافرُ مُوَقًّى » .

وفى حديثٍ آخر : « خيرُكم عند الله أعظمُكم مصائبَ فى نفسِه ومالِه وولدِه » .

وهاتان المقدّمتان يَلزَمهما نتيجة صادقة ، وهى أنه عليه السلام لو أحبّه جبلٌ لتهافَت ولعلّ هذا هو مرادُ الرضىّ بقوله: « وقد يؤوّل ذلك على معنًى آخَر ليس هذا موضع ذِكره».

الأَصْلُ :

لا مالَ أَعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ ، ولا عَقْلَ كالتَّدْبِيرِ ، ولا كَرَمَ كالتَّقْوَى ، ولا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ ، ولا مِيرَاثَ كالأَدَبِ ، ولا قائِدَ كالتَّوفِيقِ ، ولا تِجارَةَ كالْعَمَلِ الصَّالحِ ، ولا زَرْعَ كالثَّوَابِ ، ولا وَرَعَ كالوُقُوف عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، ولا زُهْدَ كالزُّهْدِ فى الحَرَامِ ، ولا عِلْمَ كالتَّفَكرِ ، ولا عِبادَةَ كأَدَاء الْفرَائِضِ .

ولا إيمانَ كالحياء والصَّبْرِ ، ولا حَسَبَ كالتَّوَاضُعِ ، ولا شَرَفَ كالْعِلْمِ ، ولا عِزَّ كالْحِلْمِ ، ولا مُظاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمُشاوَرَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى جميع هذه الحكم .

أما المال فإنّ العقل أعوَدُ منه ، لأن الأحمق ذا المال طالما ذهب مالُه بحمْقه ، فعادَ أَحمقَ فقيرا ، والعاقل الذى لا مال له طالما اكتسب المال بعقله ، وبقى عقلُه عليه .

وأما العُجْب فيوجب المَقْت ، ومن مُقِت أُفرد عن المخالطة واستوحِش منه ، ولا رَيْب أن التدبير هو أفضلُ العقل ، لأنّ العيش كله فى التدبير .

وأما التقوى فقد قال الله : ﴿ إنّ أكرمَكُمْ عندَ الله أتْقاكُمْ ﴾[1] .

---

(١) سورة الحجرات ١٣

وأما الأدب فقالت الحكماء : ما ورّثت الآباء أبناءها كالأدب .

وأما التوفيق فمن لم يكن قائده ضلّ .

وأما العمل الصالح ، فإنه أشرفُ التجارات ، فقد قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارةٍ تُنْجِيكم مِن عذاب أليمٍ [1] ﴾ .

ثم عدّ الأعمال الصالحة .

وأما الثواب فهو الربح الحقيقى ، وأما ربح الدنيا فشبيهٌ بحلم النائم .

وأما الوقوف عند الشُّبُهات فهو حقيقةُ الوَرَع ، ولا رَيْب أنّ من يزْهد فى الحرام أفضل ممن يزهد فى المباحات ، كالمآكل اللذيذة ، والملابس الناعمة ، وقد وَصَف الله تعالى أرباب التفكّر فقال : ﴿ ويتفكّرُونَ فى خَلْقِ السَّموات وَالأَرْض [2] ﴾ . وقال : ﴿ أوَ لَمْ يَنْظُرُوا ﴾ ولا ريبَ أن العبادة بأداء الفرائض فوق العبادة بالنوافل ، والحياء مخّ الإيمان ، وكذلك الصبر والتواضُع مَصْيدة الشرف ، وذلك هو الحسب ، وأشرف الأشياء العلم ، لأنه خاصّة الإنسان ، و به يقَع الفَضْل بينه و بين سائر الحيوان .

والمشورةمن الحَزْم فإنّ عقل غيرك تستضيفُه إلى عقلك . ومن كلام بعض الحكماء : إذا استشارَك عدوُّك فى الأمر فامحَضْه النصيحة فى الرأى، فإنه إنْ عمل برأيك وانتفع نَدِم على إفراطه فى مُناوأتك ، وأفضَتْ عداوتُه إلى المودّة ، وإن خالفَك واستضرّ عرف قدر أمانتك بنُصْحه ، وبَلغْت مُناك فى مَكروهه .

---

(١) سورة الصف ١٠ — (٢) سورة آل عمران ١٩١

(١١٠)

الأصلُ :

إذَا اسْتَوْلَى الصَّلاَحُ على الزّمان وأهْلِهِ ثُمَّ أساء رَجُلٌ الظَّنَّ برَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ حَوْبَةٌ ، فَقَدْ ظَلَمَ ، وإذا اسْتَوْلَى الْفَسادُ على الزّمانِ وأهْلِهِ ، فأَحْسَنَ رَجُلٌ الظّنَّ برَجُلٍ ، فَقَدْ غَرَّرَ .

***

الشرحُ :

يريد أنّه يتعيّن على العاقل سوء الظّنّ حيث الزمان فاسد ، ولا ينبغى له سوء الظّن حيثُ الزمان صالح ، وقد جاء فى الخبر المرفوع النهى عن أن يظنّ المسلم بالمسلم ظَنَّ السوْء ، وذلك محمولٌ على المسلم الذى لم تظهر منه حَوْبة ، كما أشار إليه علىٌّ عليه السلام ؛ والحوْبة : المعصية ، والخبر هو ما رواه جابر قال : نظر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة فقال : « مرحباً بكِ من بيتٍ ! ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك ! والله إن المؤمن أعظمُ حرمةً منكِ عند الله عزّ وجلّ ، لأنّ الله حَرّم منكِ واحدةً ، ومن المؤمن ثلاثة : دمه وماله وأن يظن به ظنّ السوء » .

ومن كلام عمر : ضَعْ أمر أخِيك على أحْسَنِه حتى يجىء ما يغلبك منه ، ولا تُظَنّنَّ بكلمةخرجتْ من فى أخيك المسلم سوءا وأنت تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرَّض نفسه للتّهم فلا يلومَنّ من أساءَ به الظنّ .

شاعر :

قيل لعالِمٍ : من أَسوأُ الناس حالاً ؟ قال : من لا يثق بأحدٍ لسوء ظَنّه ، ولا يثق به أحد لسُوء فعله .

شاعر :

وقد كان حُسْن الظّنّ بعضَ مَذَاهِبي ... فأدّبني هــذا الزمانُ وأهلُهُ

قيل لصوفيّ : ما صناعتك ؟ قال : حُسنُ الظنّ بالله ، وسوء الظنّ بالنــاس . وكان يقال : ما أحسنَ حُسن الظنّ إلاّ أنّ فيه العجز ، وما أقبــح سوء الظن إلاّ أن فيــهِ الحَزْم .

ابن المعتزّ :

تَفَقّدْ مَساقِطَ لَحظِ المُريبِ ... فإنّ العيونَ وجوهُ القلوبِ[1]

وطالِعْ بوَادِرَه في الـكلام ... فإنّك تجني ثمارَ العُيوبِ

(١) ديوانه

(١١١)

الأصْـلُ :

وَ قِيلَ لَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَام : كَيْفَ تَجِدُكَ يا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ :
كَيْفَ يَـكُونُ حَالُ مَنْ يَفْنَى بِبَقَائِهِ ، وَيَسْقَمُ بِصِحَّتِهِ ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا مِثلُ قَوْلِ عَبْدَة بن الطّبيب :

أَرَى بَصرِى قد رَابَنِي بعد صِحّةٍ   وحَسْبُكَ داءً أن تَصِحّ وَتَسلَمَا
ولن يَلبثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ   إذا طَلَبا أن يُدرِكا ما تيمّما

وقال آخَر :

كانت قَناتِى لا تَلينُ لِغامزٍ   فألانَها الإصْباحُ والإمْساء
ودعوتُ ربّى بالسلامةِ جاهداً   ليُصِحّنى فإذا السّلامةُ داء

(١١٢)

الأصْلُ :

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ ! وَمَا ابْتَلَى اللهُ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الأستدراج والإملاء .

فأمّا القولُ فى فِتنة الإنسان بحُسْن القولِ فيه فقد ذَكَرْنا أيضا طَرَفا صالحا يتعلّق بها.

وقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله لرجلٍ مَدَح رجلا وقد مَرّ بمجلس رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فلم يسمع ، ولكن قال : « وَيحَك لكدتَ تَضرِب عنقَه ، لو سَمِعها لما أفلح » .

(١١٣)

الأصلُ :

هَلَكَ فِيَّ رَجُلَانِ : مُحِبٌّ غَالٍ ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى مِثل هذا ، وقد قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « والله لولا أنّى أُشفِق أن تقولَ طوائفُ من أمّتى فيكَ ما قالت النصارى فى ابنِ مريَم، لقلتُ فيك اليومَ مقالا لا تمرّ بأحدٍ من الناس إلا أَخَذوا التّرابَ من تحتِ قَدَميك للبَرَكة » .

ومع كَونِه صلّى الله عليه وآله لَم يُقل فيه ذلك المَقَال فقد غَلَت فيه غُلاةٌ كثيرةُ العَدَد منتشِرة فى الدنيا ، يعتقِدون فيه ما يَعتقِد النصارى فى ابن مريم ، وأَشنَع من ذلك الاعتقاد .

فأمّا المُبغض القالى فقد رأينا مَنْ يبغضه ، ولكن ما رأينا من يَلعَنه ويصرّح بالبراءة منه ، ويقال : إنّ فى عُمَان وما والاها من صَحارِى وما يَجرِى مَجرَاها قوماً يعتقدون فيه ما كانت الخوارجُ تعتقِده فيه ، وأنا أبرأ[1] إلى الله منهما .

(١١٤)

الأصل :

إِضَاعَةُ ٱلْفُرْصَةِ غُصَّةٌ .

* * *

الشرح :

فِي المَثَل : انتهِزوا الفُرَص ، فإنّها تمرّ مَرّ السّحاب .

وقال الشاعر :

وإن أمكنتْ فرصةٌ فى العدوّ فلا يَكُ هَمُّك إلّا بِها

فإن تَكُ لم تأتِ مِنْ بابِها أتاك عدوُّك من بابِها

وإيّاك مِن نَدمٍ بعدَها وتأْميل أخرى ، وأنّى بِها

(١١٥)

الأصلُ :

مَثَلُ ٱلدُّنيا كَمَثَلِ ٱلْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا ، وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا ؛ يَهْوِى إِلَيْهَا ٱلْغِرُّ ٱلْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا ذُو ٱللُّبِّ العَاقِلُ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى الدنيا مِرارا ، وقد أَخَذ أبو العَتاهِيَة هذا المعنى فقال :

إنّمـــا الدهرُ أرقَمٌ ليّنُ المَـس ّ وفى نابِه السِّقامُ العُقامُ

الأصل :

وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ :
أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرَيْحَانَةُ قُرَيْشٍ ، تُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ.
وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ فَأَبْعَدُهَا رَأْياً ، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا ، وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا ، وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا ، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ .

***

الشَّرْحُ :

[فصل فى نسب بنى مخزوم وطرَف من أخبارهم]

قد تقدّم القولُ فى مُفاخَرة هاشم وعبدِ شمس ، فأمّا بنو مخزوم فإنّهم بعد هذين البيتين أفخرُ قُرَيش وأعظمُها شرفا .

قال شيخنا أبو عثمانَ : حظيتْ مخزومُ بالأشْعار ، فانتشر لهم صيتٌ عظيم بها ، واتّفق لهم فيها مالم يتّفقْ لأحد ، وذلك أنّه يُضرَب بهم المثل فى العِزّ والمَنَعة والُجود والشّرف وأوضَعُوا فى كلّ غاية ، فمن ذلك قول سيحان الحسرى حليف بنى أميّة فى كلمةٍ له :

* وحين يُناغى الرَّكبُ موتَ هِشام *

فدلّ ذلك على أنّ ماتقوله مخزوم فى التاريخ حقّ ، وذلك أنّهم قالوا : كانت قريش وكِنانة ومن والاهم من النّاس يؤرّخون بثلاثة أشياء : كانوا يقولون : كان ذلك زمنَ

مَبنَى الكعبة ، وكان ذلك من مجىء الفِيل ، وكان ذلك عامَ ماتَ هشامُ بنُ المغيرة كما كانت العرب تؤرِّخ فتقول : كان ذلك زمَن الفِطْحِل ، وكان ذلك زَمَن الحيّان ، وكان ذلك زَمَن الحِجارة ، وكان ذلك عامَ الحجّاف ، والرُّواة تجعَل ضرب المَثل من أعظم المَفاخر ، وأظهرِ الدلائل ، والشِّعر ــ كما علمت ــ كما يرفَع يَضَع ، كما رفَع من بنى أنْف الناقة قول الحُطَيئة :

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرُهمُ ومن يسوِّى بأنفِ الناقةِ الذَّنبَا

وكما وَضَع من بنى نُمَيرٍ قولُ جَرير :

فغُضَّ الطَّرفَ إنّك من نُمَيرٍ فلا كَعْبا بلغتَ ولا كِلاَبَا

فلقيتْ نُمير من هذا البيت مالقيتْ .

وجعلهم الشاعرُ مَثَلا فيمن وَضَعه الهجاء ، وهو يَهْجو قوماً من العرب :

وسوف يزيدُ كمْ ضَعَةً هجائى كما وَضَعَ الهجاءُ بنى نُمَيرِ

ونُمَيْر : قَبِيل شريف ، وقد ثَلَمَ فى شرفِهم هذا البيت .

وقال ابنُ غزالة الكِندىّ ، وهو يَمدَح بنى شَيْبان ولم يكن فى موضع رَغْبة إلى بنى مخزوم ، ولا فى موضع رَهْبة :

كأنّى إذ حطَطتُ الرحلَ فيهمْ بمكّةَ حين حَلَّ بها هِشامُ

فضَرَب بهِشام المَثل .

وقال : رجلٌ من بنى حزْم أحد بنى سَلْمى ، وهو يَمدَح حربَ بنَ معاوية الخفّاجىّ وخفاجة من بنى عُقَيل :

إلى حَزْن الحُزونِ سَمتْ رِكابى بوابل خلفها عَسَلانُ جَيْشِ

فلمّا أن أنختُ إلى ذُراهُ ... أمِنتُ فراشَني منــه بريْشِ
توسّط بيتُــه فى آلِ كعبٍ ... كبيتِ بنى مغـيرة فى قُرَيْشِ

فضَرَب المَثَل ببيتهم فى قريش .

وقال عبد الرحمن بنُ حسّانَ لعبد الرحمن بن الحـكَم :

مارَسْتُ أكيَسَ من بنى قَحْطانِ ... صعبَ الذّرا متمنّعِ الأركانِ
إنّى طمعتُ بفخرِ من لو رامَه ... آلُ المُغــيرة أو بنو ذَكْوانِ
لملأتُها خيــلاً تضبّ لثاتُها ... مثــل الدّبَا وكواسِرِ العِقْبانِ
منهمْ هِشامٌ والوَليد وعِــدْلهم ... وأبو أميّـــةَ مَفزَعَ الرُّكْبان

فضرب المثل بآل المغيرة .

وأمّا بنو ذَكْوان فبنو بَدْر بن عمرو بن حوبّة بن ذَكْوان أحد بنى عدىّ بن فَزَارة منهم حُذَيفة وحَمَل ورهْطُهما ؛ وقال مالكُ بن نُوَيْرة :

ألم يَنْــه عنّا فخرَ بكرِ بنِ وائلٍ ... هَزِيمَتهم فى كلّ يوم لزامِ
فمنهنّ يومُ الشرّ أو يومُ مَنعِجٍ ... وبالجزْعِ إذ قسّمن حىَّ عِصامِ
أحاديثُ شاعتْ فى مَعَدٍّ وغيرِها ... وخــبّرها الركبانُ حَىّ هِشامِ

فجعل قريشا كلّها حيًّا لهشام :

وقال عبد الله بن ثور الخفاجىّ :

وأصبحَ بطنُ مَــكة مقشعِرًّا ... كأنّ الأرضَ ليس بها هِشامُ (١)

وهذا مَثل وفوق المثل .

قالوا : وقال الحروف الـكلبىّ وقد مرّ به ناس من تجّار قريش يريدون الشام بادين

---

(١) الـكامل للمبرد ٢ : ١٤٢ من غير نسبة . قال فى شرحه : « يقول : هو وإن كان مات فهو مدفون فى الأرض ؛ فقد كان يجب من أجله ألا ينالها جدب » .

قشفين : ما لكم معاشرَ قريش هكذا أجدبتم أم ماتَ هشام ، فجعل موت هشام بإزاء الجدب والمحل ، وفى هذا المعنى قال مُسافرُ بنُ أبى عمرو :

تقول لنا الرُّكبانُ فى كلّ منزلٍ : أماتَ هشامٌ أم أصابكُمُ جَدْبُ ؟

فجعل موتَ هشام وفقْدَ الغيث سواء .

وقال عبدُ الله بنُ سلمة بن قشير :

دَعِينى أصطبح يابكْر إنّى رأيتُ الموتَ نقَّبَ عنْ هشامِ [1]

وقال أبو الطَّمَحان القينىّ ــ أو أخوه :

وكانت قريشٌ لا تخون حريمَها من الخوفِ حتى ناهضتْ بهشامِ

وقال أبو بكر بن شعوب لقومه كنانة :

يا قومَنا لا تهلكوا إخفاتَا إنّ هشامَ القرشىَّ مـاتَا

وقال خِداشُ بنُ زهير :

وقد كنتُ هجّاءً لهمْ ثمّ كفكفوا نوافذَ قوْلى بالهمامِ هِشامِ

وقال علىّ بن هرْمة ؛ عمّ إبراهيم بن هرْمة :

ومن يرتَئى مدحِى فإنّ مدائحى نوافقُ عند الأكرمين سَوامِ

نوافِق عند المشترِى الحمد بالنَّدى نَفاقَ بناتِ الحارثِ بنِ هِشامِ

وقال الشاعر وهو يهجو رجلا :

أحَسِبْتَ أنّ أباك يوم نَسبْتَنِى فى المجد كان الحارثَ بنَ هِشامِ

أولَى قريش بالمكارِم كلِّها فى الجاهليّة كان والإسلامِ

(١) الكامل ٢ : ١٤٣ من غير نسبة ؛ ونقب ، أى طوف حتى أصاب هشاماً . وانظر نسب قريش ٣٠١

وقال الأسود بنُ يعفر النَّهشَلىّ :

إنّ الأكارمَ من قريشٍ كلِّها شهِدوا فرامُوا الأمرَ كلَّ مَرامِ
حتى إذا كَثُر التجادُل بينهمْ حزَم الأمورَ الحارثُ بن هِشامِ

وقال ثابت قطنة ـ أو كعب الأشقرىّ لمحمد بن الأشعث بن قيس :

أتوعِـــدنى بالأشْعَثىّ ومالِكٍ وتَفخر جَهلاً بالوَسيط الطُّماطِمِ !
كأنك بالبَطْحاء تذمُر حارِثاً وخالد سيف الدّين بين المَلاحِمِ

وقال الخُزاعىّ فى كلمته التى يذكُر فيها أبا أُحَيْحة :

له سُرَّة البَطْحاء والعدّ والثرى ولا كَهِشامِ الخير والقلب مردِفُ

وسأل معاويةُ صعصعة بن صُوحَان العبدىّ عن قبائل قريش ، فقال : إن قلنا : غضبتم ، وإن سكتْنا غضِبتم ، فقال : أقسمتُ عليك ، قال : فيمَن يقولُ شاعرُكم :

وعَشْرَةٍ كلّهمُ سيّدٌ آباء ساداتٍ وأبناؤهـــا
إن يُسألوا يُعطُوا وإن يُعدموا يبيَضّ من مكة بَطْحاؤها

وقال عبد الرحمن بن سَيْحان الجُسْرىّ حليف بنى أميَّة وهو يهجو عبد الله بن مطيع من بنى عدىّ :

حرامٌ كِنتى مِنّى بسوْء وأذكرصاحِبي أبدا بذامِ [1]
لقد أصرمتُ ود بنى مُطيعٍ حرام الدهر للرجل الحرامِ
وَإن خِيفَ الزمانُ مددتُ حَبْلًا مَتِينا من حِبال بنى هِشامِ
وَريقٌ عُودُهم أبدا رطِيبٌ إذا ما اهتزّ عيدانُ الـكرامِ

---

(١) الأغانى ٢ : ٢٥٥ مع اختلاف فى الرواية

وقال أبو طالب بنُ عبد المطلب وهو يفخَر بخاليه : هشام والوليد على أبي سُفيان ابن حرب [1] :

وخالى هشامُ بنُ المغيرة ثاقبٌ ... إذا همَّ يوما كالحسامِ المهنَّدِ
وخالى الوليدُ العدْل عالٍ مكانُه ... وخالُ أبى سفيان عمْرُو بنُ مَرْثَدِ

وقال ابن الزِّبَعْرَى فيهم :

لهم مِشيةٌ ليستْ تَليقُ بغيرِهمْ ... إذا احْدَودَب المثرون فى السَّنَة الجَدْبِ

وقال شاعر من بنى هَوازِن ، أحد بنى أَنف الناقة حين سَقَى إبله عبد الله بن أبى أمية المخزومى بعد أن مَنَعه الزِّبرقان بن بدر .

أتَدرى من منعت سِيالَ حَوْضٍ ... سليل خَضارمٍ منعوا البِطاحا
أزادَ الركب تمنع أم هِشاماً ... وذا الرّمحين أمنعهمْ سِلاحا
همُ مَنَعوا الأباطح دون فِهرٍ ... ومَن بالخَيْف والبلد الكفاحا
بضربٍ دونَ بيضهم طِلَخْفٍ [2] ... إذا الملهوف لاذ بهم وَصاحا
وما تدرِى بأيّهمُ تُلاقى ... صدور المشْرَفيّة والرّماحا

فقال عبدُ الله بنُ أبى أميّة مجيبا له :

لَعمرِى لأنت المرء يَحسُن باديًا ... وتَحسُن عودا شيمةً وتَصَنُّعَا
عرفتَ لقوم مجدَهم وقديمَهم ... وكنت لما أسديت أهلاً وموضِعا

قالوا : وكان الوليدُ بن المغيرة يجلس بذى المجاز فيحكم بين العرب أيّام عُكاظ وقد كان رجل من بنى عامر بن لؤىّ رافق رجلاً من بنى عبد مناف بن قصىّ، فجرى بينهما كلام فى حبل ، فعلاهُ بالعصا حتى قتله ، فكاد دمه يُطَلّ ، فقام دونه أبو طالب

---

(١) ديوانه ٧٦ — (٢) الطلخف : الضرب الشديد .

ابن عبد المطلب وقدّمه إلى الوليد ، فاستحلفه خمسين يمينا إنه ما قتله ، ففى ذلك يقول أبو طالب :

أمِنْ أجل حَبلٍ ذى رِمامٍ علوتَه ... بمنسَأةٍ قد جاء حبلٌ وأحبُلُ[1]

هلمّ إلى حُكم ابن صخرةَ إنّه ... سيحكم فيما بيننا ثمّ يعدِلُ

وقال أبو طالب أيضا فى كلمة له :

وحُكمك يُبقى الخير إنْ عزّ أمرُه ... تَخمَّطَ واستعْلى على الأضعف الفرْدِ

وقال أبو طالب أيضا يرثى أبا أميّة زاد الرّكب وهو خاله :

كأنّ على رَضْراضِ قَصٍّ وجَندلٍ ... من اليبس أو تحتَ الفراشِ المجامر[2]

على خير حافٍ من معَدّ وناعِلٍ ... إذا الخيرُ يُرجى أو إذا الشرّ حاضِرُ

ألَا إنّ زادَ الركب غيرُ مدافع ... بِسَرْوِ سُحَيمٍ غيّبته المقابرُ

تنادَوا بأن لا سيّد اليومَ فيهمُ ... وقد فجع الحيّان كعبٌ وعامرُ

وكان إذا يأتى من الشام قافِلاً ... تَقدّمُه قبل الدنوّ البشائرُ

فيصبح آل الله بيضاً ثيابهمْ[4] ... وقدْماً حَباهمْ والعيون كَواسرُ

أخو جَفْنةٍ لا يبرَح الدهر عندها ... مُجَعْجعة تَدْمى وشاءٌ و باقِرُ

ضَرُوبٌ بنصْل السيفِ سوقَ سمانها ... إذا أرسلوا يوماً فإنك عاقِرُ

فيالكَ من راعٍ رميت بآلة ... شراعية تَخضرّ منه الأظافرُ

وقال أبو طالب أيضاً يرثى خاله هشام بن المغيرة :

---

(١) ديوانه ١٤٢ (٢) ديوانه ٧٧

وكان ختنه فخرج تاجرا إلى الشام فمات بموضع يقال له سرد سحيم .

(٣) الديوان : « كأنما » .

(٤) الديوان : « كستهم حبيرا ريدة ومعافر » .

فقدْنا عميدَ الحىّ بالركن خاشعٌ كفقْدِ أبى عثمانَ والبيتُ والحِجْرُ [1]

وكان هشامُ بن المغيرة عِصمةً إذا عَرَكَ الناسَ المخاوفُ والفقْرُ

بأبياته كانت أراملُ قومِه تلوذُ وأيتامُ العشيرة والسَّفْرُ

فودَّتْ قريشٌ لو فدَتْه بشَطْرها وقلَّ لَعَمرى لو فدَوْه له الشَّطْرُ

نقول لعمرٍو أنتَ منه وإنّنا لَنرجوكَ فى جُلِّ المُلِمّات ياعمرو

عمرو هذا هو أبو جهل بن هشام ، وأبو عثمان هو هشام .

وقالت ضُباعةُ بنتُ عامرِ بنِ سلمة بن قرط ترثيه :

إنّ أبا عثمانَ لم أنسَهُ وإنّ صَبْرًا عن بُكاه لَحُوبْ

تفاقَدوا من معشرٍ مالَهمْ أىّ ذَنوبٍ صُوِّبوا فى القَليبْ

وقال حَسّان بنُ ثابت وهو يهجو أبا جَهْل ، وكان يُكنَى أبا الحكَم :

الناسُ كَنّوْه أبا حَكَمٍ والله كَنّاه أبا جَهْلِ [2]

أبقتْ رِياسَتُه لأُسْرَتِه لؤمَ الفُروع ودِقَّةَ الأصلِ [3]

فاُعترف له بالرياسة والتقدّم .

وقال أبو عُبَيد مَعمَر بنُ المثنّى : لمّا تَنافَرَ عامرُ بنُ الطُّفَيل وعَلْقمةُ بنُ عُلاثة إلى إلى هَرِم بن قُطْبة وتَوارَى عنهما ، أرسَل إليهما : عليكما بالفتى الحديثِ السّنّ ، الحديدِ الذِّهن ؛ فصارا إلى أبى جَهْل ، فقال له ابنُ الزِّبَعْرَى :

فلا تَحكُمْ فِداكَ أبى وخالِى وكن كالمرءِ حاكِمِ آلِ عَمْرِو

---

(١) ديوانه ٨٠

(٢) ديوانه ٣٤٤ ، وروايته :

سمّاهُ معشرُه أبا حكمٍ واللهُ سَمّاهُ أبا جَهْلِ

(٣) الديوان :

أبقَتْ رياستُهُ لمعشرِهِ غضبَ الإلهِ وذِلّةَ الأصلِ

فأبَى أن يَحكُم ، فرَجَعا إلى هَرِم .

وقال عبدُ الله بنُ ثَور :

هَرِيقــــا من دُموعِكما سِجاماً ضبـــاعُ وحارِبى نَوْحاً قِياماً

فمَن للرَّكْب إذ جاءوا طُروقاً وغُلِّقت البيوتُ فــلا هِشاما

وقال أيضا فى كلمة له :

وما ولَدتْ نساء بنى نِزارٍ ولارَشَّحْنَ أكرمَ مِنْ هِشامِ

هشامِ بن المُغيرةِ خـيرِ فِهْرٍ وأفضل من سقى صَوْبَ الغَمام

وقال عُمارة بنُ أبى طَرَفة الهُذَلىّ : سمعتُ ابنَ جُرَيج يقول فى كلام له : هَلَكَ سيّد البَطْحاء بالرُّعاف ؛ قلت : ومن سيّد البَطْحاء ؟ قال : هِشامُ بنُ المغيرة .

وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « لو دخل أحدٌ من مُشرِكى قريشٍ الجنّة لدَخَلها هشامُ بنُ المغيرة ، كان أبذَلَهم للمعروف ، وأحمَلَهم للكَلّ » .

وقال عُمرُ بنُ الخطّاب ، لا قليلٌ فى الله ، ولا كثيرٌ فى غير الله . ولو بالْخلق الجَزْل والفَعال الدَّثْر ، تُنال المَثوبة لَنالَها هشامُ بنُ المغيرة ، ولكن بتوحيد الله ، والجهاد فى سبيله .

وقال خِداشُ بنُ زُهَير فى يومِ شَمَطة [١] ، وهو أحدُ يومِ الفِجار ، وهو عدوّ قريش وخَصْمُها :

وبَلِّغْ إن بَلَغْتَ بنــا هِشاماً وذا الرُّمحين بلِّغ والوَليــدا [٢]

أولئك إن يكنْ فى الناسِ جُودٌ فإنّ لديهمُ حَسَبــاً وَجودا

همُ خــيرُ المعَاشِرِ من قريشٍ وأوْراهــا إذا قَدَحوا زُنودَا

---

(١) لقيس على كنانة وقريش . وشمطة : موضع قريب من عكاظ .

(٢) أيام العرب فى الجاهلية ٣٣٢

وقال أيضا وذَكَرَهما فى تلك الحروب :

يا شَدّةً ماشَدَدْنا غـــيرَ كاذبةٍ على سَخِينةَ لولا الليـلُ والحَرَمُ [1]

إذا ثقفنا هِشاماً بالوَليـــد ولو أنّا ثقفنا هِشاما شالَت الجِـــذمُ

وذكَرَهم ابنُ الزِّبَعْرَى فى تلك الحروب فقال :

ألا لله قـــومٌ وَ لدتْ أختُ بَنِى سَهْم [2]

هِشامٌ وأبو عبـــدِ منافٍ مِـدْرَه الخَصْم

وذو الرمحين أشبـــاكَ من القوّة والحَزْم [3]

فهـــذانِ يَذُودانِ وذا عَنْ كَثَبٍ يَرْمى

وهمْ يومَ عُـكاظٍ مَ نَعُوا الناسَ من الهَزْمِ

بجأواءَ طَحُونٍ فَخْـمةِ القَوْنَسِ كالنَّجْمِ

أُسودٌ تَزْدَهى الأقرا نَ مَنّاعُون للهَضْمِ [4]

فإنْ أحلِفْ وبيت اللّـ ـهِ لا أحلِفْ على إثمِ

ما مِنْ إخوةٍ بينَ دروبِ الشام والرَدْمِ

بأزكى من بنى رَيْطـ ـةَ أو أَرزَنَ من حِلمِ

رَيْطة ، هى أمّ وَلَد المغيرة ، وهى رَيْطة بنتُ سَعيد بنِ سَهْم بنِ عَمْرو بن هصيص ابن كَعْب ، وأبو عبدِ مناف هو أبو أُميّة ابن المُغيرة ، ويُعرَف بزاد الرَّكْب ، واُسمُه حُذَيفة ، وإنّما قيل له : زادُ الرَّكْب لأنّه كان إذا خرج مسافرا لم يتزوَّدْ معه أحدٌ ، وكانت

---

(١) الأغانى ١٩ : ٧٦ ؛ من أبيات أربعة ، والثانى فى نسب قريش ٣٠٠ مع اختلاف فى الروايات .

(٢) الأغانى : ١ : ٦٢ ، الأمالى ٣ : ١٩٦ ، ١٩٧ (طبعة دار الكتب)

(٣) فى الأصول : « أشبال » ، صوابه من الأمالى ٢ : ٢٠٨ ، قال : يقال : أشباك بفلان ؛ كما يقال : حسبك بفلان ؛ وأنشد البيت .

(٤) الأغانى : « منعوا الناس من الهزم » .

عندَه عاتكةُ بنتُ عبدِ المطّلب بنِ هشام ، وأمّا ذو الرُّمحين فهو أبو ربيعةَ بنِ المغيرة واسمُه عمرو ، وكان المُغيرةُ يُكنَى باسم ابنِه الأكبر ، وهو هاشم ، ولم يُعقِب إلّا مِن حَنْتَمةَ ابنته ، وهى أمّ عُمَر بنِ الخطّاب .

وقال ابنُ الزِّبَعْرَى يمدَح أبا جَهْل :

رُبَّ نَديمٍ ماجِدِ الأصلِ مهذَّبِ الأعراق والنَّجلِ
منهمْ أبو عبدِ منافٍ وكم سربت بالضَّخْم على العَدْلِ
عَمْرو النَّدى ذاكَ وأشياعهُ ماشئتَ مِن قولٍ ومِن فِعلِ

وقال الوَرْد بن خلاس السَّهْمِىّ ، سَهْم باهلةَ يمدَح الوليد :

إذا كنت فى حَيَّىْ جَذِيمةَ ثاوياً فعنَد عظيم القَرْيَتِين وليدُ
فذاكَ وحيدُ الرَّأى مشترك النَّدَى وعِصْمة مَلْهوف الجفان عَميدُ

وقال أيضا :

إنّ الوَليدَين والأبناء ضاحية رَبَّا تِهامةَ فى المَيْسور والعُسُرِ
همُ الغِياثُ وبعضُ القوم قِرْقمةٌ عِزّ الذّليل وغيظُ الحاسدِ الوَغِرِ

وقال :

ورهْطُكَ يا ابنَ الغَيثِ أكرَم مَحتِداً وامنَع للجارِ اللّهيفِ المُهَفَّا

قالوا : الغيثُ لَقَب المُغيرة ، وجعلَ الوليدَ وأخاه هِشاما رَبَّىْ تِهامةَ كما قال لَبيدُ بنُ ربيعة فى حُذَيفة بن بَدْر :

وأهلَكنا يوماً رَبُّ كِندة وابنه وربَّ معدٍّ بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ [1]

فجعله رَبَّ مَعَدّ .

***

(١) ديوانه ٥٥

قالوا : ويدلّ على قَدْر مخزوم مارأينا من تعظيم القرآن لشأنهم دونَ غيرهم من سائر قريش ، قال الله تعالى مُخبرا عن العرب : إنّهم قالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١) فأحدُ الرّجلين العظيمين بلا شكّ الوليدُ بنُ المُغيرة ، والآخَر مختلَفٌ فيه؛ أهو عُرْوَة بنُ مسعود ، أم جدّ المُخْتار بن أبى عُبَيد .

وقال سبحانَه فى الوليد : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً ... ﴾ (٢) الآيات .

قالوا : وفى الوليد نزلتْ : ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ (٣) .

وفى أبى جَهْل نزلتْ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (٤) .

وفيه نزلتْ : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (٥) ﴾ .

وفى مخزوم : ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ (٦) .

وفيهم نزلتْ : ﴿ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ (٧) .

وزعم اليقطرىّ أبو اليقظان وأبو الحَسَن أنّ الحجّاج سأل أعشَى هَمْدانَ عن بيُوتات قريش فى الجاهليّـة ، فقال : إنّى قد آليْتُ ألّا أنفر أحـداً على أحد ، ولـكن أقول وتَسْمَعون ، قالوا : فقُلْ ؛ قال : من أيّهم المحبَّب فى أهلِه ، المؤرَّخ بذِكْره ، مُحلِّى الـكعبة ، وضارِب القُبّة ، والملقّب بالخير ، وصاحب الخـير والمَيْر ؟ قالوا : مِن بنى مخزوم ، قال : فمن أيّهم ضجيعُ بَسْباسة ، والمَنْحور عنه ألف ناقة ، وزادُ الركب، ومبيِّض البَطْحاء ؟ قالوا : مِنْ بنى مخزوم ، قال: فمَنْ أيّهم كان المقنعُ فى حُـكْمِه ، والمنفّذ وصيّته على تهكّمه ، وعدل الجميع فى الرِّفادة ، وأوّل من وَضَع أساسَ الـكعبة ؟ قالوا مِن بنى مخزوم ، قال : فمِن

(١) سورة الزخرف ٣١
(٢) سورة المدثر ١١–١٣
(٣) سورة عبس ٥ ، ٦
(٤) سورة الدخان ٤٩
(٥) سورة العلق ١٧
(٦) سورة المزمل ١١
(٧) سورة الأنعام ٩٤

أيّهم صاحب الأرِيكة ، ومُطعِم الخزِيرة ، قالوا من بنى مخزوم ؛ قال فمِن أيّهم الإخْوة العَشَرة ، السكرام البَرَرة ؟ قالوا : من بنى مخزوم ، قال : فهو ذاك ؛ فقال رجلٌ من بنى أميّة ، أيّها الأمير ، لو كان لهم مع قديمهم حديث إسلام ! فقال الحجّاج : أوَ ما علمت بأنّ منهم ردّاد الرِّدّة ، وقاتل مُسَيْلِمة ، وآسِر طُلَيحة ، والمُدرِك بالطائلة ، مع الفتوح العِظام والأيادِى الجِسام ! فهذا آخرُ ما ذكَرَه أبو عثمان .

ويُمكِن أن يُزاد عليه فيقال : قالتْ مخزوم ما أنصفَنا من اقتصَر فى ذكرِنا على أن قال : مخزوم رَيحانةُ قُرَيش، تحبّ حديثَ رجالِهم ، والنِّكاحَ فى نسائهم ،ولنا فى الجاهليّة والإسلام أثَر عظيم ، ورجالٌ كثيرة ، ورؤساء شهيرة ، فمِنّا المغيرةُ بنُ عبد الله بن عمْرو ابنِ مخزوم ، كان سيّدَ قريش فى الجاهليّة ، وهو الذى منَع فزارَةَ من الحجّ لما عيّر خشين ابن لأى الفزَارِىّ ثمّ الشَّمخِى قوماً من قريش إنّهم يَأخذُون ما ينحَره العرَب من الإبل فى المَوْسم ، فقال خشين لمّا منع من الحجّ :

يا ربِّ هل عندكَ من عَقِيرهْ ... أصلِحُ مالى وَأَدَعْ تنحيرَهْ

فإنّ منّا مانع المغيرهْ ... ومانع بعد منى بشِيرَهْ

ومانِع بَيْتَك أنْ أزورَهْ

منّا بنو المغيرة العشرة أمّهم رَيْطة ، وقد تقدّم ذكرُ نسبِها ، وأمّها عاتكةُ بنتُ عبدِ العُزّى بن قُصَىّ ، وأمّها الحُطَيّا بنت كَعْب بن سعد بن تيم بنِ مُرّة ، أوّل امرأة من قريش ضَربتْ قِبابَ الأدَم بذى المَجاز ، ولها يقول الشاعر :

مَضَى بالصالحاتِ بنو الحُطَيّا ... وكان بسَيْفِهمْ يَغْنى الفقيرُ

فمِن هؤلاء أعنِى الحُطَيّا الوليدُ بنُ المغيرة أمّه صَخْرة بنتُ الحارث بنِ عبد الله بنِ

عبدِ شمس القُشَيرىّ ، كان أبو طالب بنُ عبد المطلب يَفتخِر بأنَّه خاله ، وكفاكَ من رجل يَفتخِر أبو طالب بخُئُولتِه ! ألا ترَى إلى قولِ أبى طالب :

وخالِى الوليـد قد عرفتمْ مَكانَه ... وخالى أبو العاصِى إياسُ بنُ مَعبدِ

ومنهم حفصُ بنُ المغيرة ، وكان شريفا . وعثمان بنُ المغيرة . وكان شريفا . ومنهم السيّد المُطاع هشامُ بنُ المغيرة ، وكان سـيّدَ قريش غيرُ مُدافَع ، له يقول أبو بكر بنُ الأسوَد بن شعوب يرثيه :

ذَرِينِى أصطبِـحْ يا بَـكْر إنّى ... رأيتُ الموتَ نَقَّبَ عن هِشامِ
تخَيَّرَه ولم يَعـدِل سـواهُ ... ونِعم المرء بالبَـلدِ الحـرامِ !
وكنتُ إذا ألاقِيه كأنّى ... إلى حَرَمٍ وفى شهرٍ حَرامِ
فودَّ بنو المُغـيرةِ لو فدَوْه ... بألفِ مُقاتِلٍ وبألفِ رامِ
وودَّ بنو المغـيرة لو فدَوْه ... بألفٍ من رجالٍ أو سَوامِ
فبَكِّيه ضُـباعُ ولا تَمَـلِّى ... هِشـاماً إنَّهُ غَيثُ الأنامِ

ويقول له الحارث بن أُميّة الضَّمْرِىّ :

ألاَ هلك القنّاصُ والحامِلُ الثِّقلاَ ... ومن لا يَضَنّ عن عشيرتِه فَضْلا
وحَرْب أبا عثمانَ أطفأت نارَها ... ولولا هِشامٌ أوقدَتْ حَطَبا جزْلا
وعانٍ تريكٍ يستكِين لِعِـلّةٍ ... فـكَكْتَ أبا عثمانَ عن يدِه الغُلاّ
ألا لَسْتَ كالهلْكَى فتُبكى بكاءهم ... ولـكنْ أرى الهُلاّكَ فى جَنْبه وَغْلا
غداةَ غدتْ تبـكى ضباعةُ غَيثَنا ... هِشاماً وقد أغلتْ بمَهْلـكِه ضَحْلا
ألم تريَا أنّ الأمانةَ أصعدَتْ ... مع النَّعْش إذْ وَلّى وكان لها أَهْلا !

وقال أيضاً يبكيه و يَرْثيه :

وأصبحَ بطنُ مَـكّة مقشعِرًّا ... شديدَ المَحْل ليس به هِشامُ
يَرُوح كأنّه أَشــــلاء سَوْطٍ ... وفوقَ جِفانِه شَحْمٌ رُكامُ
فللكُبراء أُكْلٌ كيف شاءوا ... وللوِلْدان لَقْمٌ واغتِنــــامُ
فبَـكّيهِ ضُبـاعُ ولا تَمَـلىِّ ... ثِمال الناس إن قَحَط الغَمامُ
وإنّ بنى المُغيرة مِنْ قُرَيش ... هم الرأسُ المقـــدّم والسّنامُ

وضُباعة التى تذكرها الشعراء زوجةُ هِشام ، وهى من بنى قُشَير .

قال الزبيرُ بنُ بَـكّار : فلما قال الحارث : « ألا لستَ كالهَلْـكى ... » البيت ، عَظُم ذلك على بنى عبد مناف فأغرَوْا به حكيمَ بن أُمَيّة بن حارثة بن الأَوْقَص السُّلمىّ حليفَ بنى عبدِ شمْس ، وكانت قريشٌ رضيتْ به واستعملته على سِقَائها ، ففرّ منـه الحارث ، وقال :

أُفِرُّ من الأباطِحِ كلّ يوم ... مخافَةَ أن ينكِّل بى حَـكيمُ

فهدم حكيمٌ دارَه ، فأعطاه بنوهشام دارَه التى بأجْياد عِوَضا منها .

وقال عبد الله بنُ ثور البكّائىّ يرثيه :

هَرِيقى من دموعِها سِجاما ... ضباعُ وجاوبى نَوْحاً قياماَ
على خـــير البريّة لن تراه ... ولن تلقى مَواهبَه العِظاماَ
جَوادٌ مثل سَيْل الغَيْث يوما ... إذا علجَانُه يعـــلو الإ كاما
إذا ما كان عامٌ ذو عُرامٍ ... حسبتُ قُدورَه جَبلا صِياماَ

فمن للرَّكْب إذ أمْسَوْا طُروقاً وغُلِّقتُ البيوتُ فلا هِشاماَ
وأَوْحَش بطنُ مَكةَ بعدَ أُنْسٍ ومجد كان فيها قد أقاماَ
فلم أرَ مِثله فى أهـــل نَجْدٍ ولا فيمن بِغَوْرِكِ ياتِهاماَ

* * *

قال الزبير : وكان فارس قريش فى الجاهلية هشامُ بنُ المغيرة ، وأبو لَبيد بن عَبْدة بن حَجْرة بن عبد بن مَعِيص بن عامر بن لؤىّ ، وكان يقال لهشام : فارس البَطْحاء ، فلمّا هَلكا كان فارِسَىْ قريشٍ بعدهما عمرو بن عبد العامرىّ المقتول يوم الخَنْدق ، وضِرارُ بنُ الخطَّاب المحاربّى الفِهْرى ، ثمّ هُبَيرة بن أبى وهب وعِكْرمة بنُ أبى جهل المخزوميّان . قالوا : وكان عامَ ماتَ هشامٌ تاريخا ، كعامِ الفيل ، وعام الفِجار ، وعام بُنْيان الكعبة . وكان هشام رئيسَ بنى مخزوم يومَ الفِجار .

قالوا : ومنّا أبو جهل بنُ هشام ، واسمه عَمرو ، وكُنْيته أبو الحكم ، وإنّما كناه «أبا جهل» رسول الله صلى الله عليه وآله ، كان سيّدا أدخلتـه قريش دار النَّدْوة فسوّدَتْه وأجلَسَتْه فوق الجِلّة من شُيوخ قُرَيش ، وهو غلام لم يطرّ شارِبُه ، وهو أحد من سادَ على الصِّبا . والحارث بن هشام أخو أبى جَهل كان شريفا مذكورا ، وله يقول كعب ابن الأشرف اليهودىّ الطائىّ :

نُبِّئتُ أنّ الحـارث بن هِشامٍ فى الناس يبنى المكرُماتِ ويجمعُ[1]
ليزورَ يَثْرِب بالجموعِ وإنمـا[2] يبنى على الحسب القديم الأرْوَعُ

وهو الذى هاجَرَ من مكة إلى الشام بأهله وماله فى خلافة عمرَ بن الخطّاب ، فتبعه أهلُ مكةَ يبْكون ، فرقّ وبَكى وقال : إنّا لو كنّا نستبدِل داراً بدار ، وجاراً

(١) نسب قريش ٣٠١

(٢) نسب قريش « أثرب » ؛ وهى لغة فى « يثرب » .

بجار ، ما أردْنا بكم بدلا ، ولـكنها النُّقْلة إلى الله عزّ وجلّ ، فلم يزل حابساً نفسه ومن مَعه بالشام مُجاهدا حتى مات .

قال الزُّبير : جاء الحارثُ بنُ هشام وسُهَيلُ بنُ عمرو إلى عمر بن الخطاب فجلسا عنده وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأوّلون والأنصار يأتون عمرَ فينُحِّيهما ويقول : هاهنا يا سُهَيل ، ها هنا يا حارث ! حتّى صارا فى آخر الناس ؛ فقال الحارث لسُهيل : ألم تر ما صَنَع بنا عمر اليوم ! فقال سُهيل : أيّهـا الرجل ، إنه لا لَوْم عليـه ، ينبغى أن نرجع باللَّوْم على أنفسنا ، دُعِىَ القومَ ودُعينا ، فأسرَعوا وأبطأْنا . فلما قاما من عند عمرَ أَتَياه فى غدٍ فقالا له : قد رأينـــا ما صنعتَ بالأمْس ، وعلِمْنـا أنّا أُتينا من أنفسِنا فهل من شىء نَستدرك به ؟ فقال : لا أعلم إلاّ هـذا الوجه ـ وأشار لهما إلى ثغْر الرّوم فخرجا إلى الشام ، فجاهدا بها حتى ماتا .

قالوا : ومنّا عبدُ الرحمن بنُ الحارث بن هشام ، أمّه فاطمةُ بنتُ الوَليد بنِ المُغيرة ، وكان شريفا سيّدا ، وهو الّذى قال لمعاوية لمّا قُتِل حُجْر بنُ عَدِىّ وأصحابه : أين عَزَب منكَ حِلْمُ أبى سُفْيان ، ألا حبَسْتَهم فى السّجون ، وعرّضْتَهم للطاعون ! فقال حين غاب عنّى مثلك من قومى ! وعبد الرحمن بنُ الحارثِ بن هشام هو الّذى رَغِب فيه عثمانُ بنُ عَفّان وهو خليفة فزوّجه ابنَته .

قالوا : ومنّا أبو بكر بنُ عبدِ الرحمن بن الحارثِ بنِ هشام ، كان سيّدا جَواداً وفقيها عالما ، وهو الّذى قَدِم عليه بنو أسَد بن خزيمة يسألونه فى دِماء كانت بينهم ، فاحتَمَل عنهم أربَعمائة بعير دِية أربعةٍ مِنَ القَتْلى ، ولم يـكن بيَدِه مال ، فقال لابنه عبدِ الله بن أبى بكر : اذْهَب إلى عمّك المغيرة بن عبد الرحمن فاسأله المعونة ، فذَهَب عبد الله إلى عمّه فذَكَر له ذلك ، فقال المغيرة : لقد أكبر علينا أبوك ، فانصرَف عنه عبدُ الله وأقام أيّاما

لا يَذكُر لأبيه شيئاً ، وكان يَقُودُ أباه إلى المسجد وقد ذَهَب بصرُه ، فقال له أبوه يوما : أذَهَبتَ إلى عمّك ؟ قال : نعم ، وسكت ، فعرَف حين سَكَت أنّه لن يجد عند عمّه مايُحِبّ . فقال له : يا بُنَيّ ألا تُخبِرنى ماقال لك ؟ قال : أيفعل أبو هاشم ـ وكانت كُنْية المُغِيرة ـ فربّما فعَل ، ولكن اُغدُ غداً إلى السّوق فخُذْ لى عيّنة ، فغدا عبد الله فتعيّن عينة من السّوق لأبيه وباعَها ، فأقام أيّاما لا يَبيع أحد فى السّوق طعاما ولا زَيْتا غير عبد الله ابنِ أبى بكر من تلك العَيِّنة ، فلمّا فرغ أمَرَه أبوه أن يدفعَها إلى الأسَديّين فدَفَعها إليهم .

وكان أبو بكر خَصيصا بعبدِ الملك بنِ مَرْوان ، وقال عبدُ الملك لابنِه الوَليد لمّا حضرتْه الوفاة : إنّ لى بالمدينة صَديقَين فاحفَظْنى فيهما : عبدُ الله بنُ جعفر بن أبى طالب وأبو بكر بنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بن هشام .

وكان يقال : ثلاثة أبيات من قريش توالَتْ بالشّرف خَمْسة خَمْسة ، وعدّوا منها أبا بكر بن عبد الرّحمن بن الحارث بنِ هشام بنِ المغيرة .

قالوا : ومنّا المغيرةُ بن عبد الرحمن بنِ الحارث بنِ هشام ، كان أجوَدَ الناس بالمال ، وأطعَمَهم للطّعام ؛ وكانت عَيْنُه أصيبتْ مع مَسلَمة بن عبد المَلِك فى غَزْوة الروم ، وكان المُغيرةُ يَنحَر الجزور ، ويُطعِم الطّعام حيث نزل ، ولا يردّ أحدا ، فجاء قومٌ من الأعْراب فجلسوا على طعامِه ، فجعل أحدُهم يُحِدّ النظَر إليه ، فقال له المغيرة : مالَكَ تُحِد النّظر إلىّ ! قال : إنّى ليرَيبنى عينُك وسَماحُك بالطعام ؛ قال : ومَّ ارتَبتَ ؟ قال : أظنّك الدّجّال ، لأنّا رُوِّينا أنّه أعوَر ، وأنّه أطعَمُ الناسِ للطّعام ، فقال المغيرة : وَيْحَك! إنّ الدجّال لا تُصابُ عينُه فى سبيل الله . وللمغيرة يقول الأقَيْشر الأسَدىّ لمّا قَدِم الكوفة فنَحَر الجزرَ وبَسَط الأنْطاع وأطعَم الناس ، وصارَ صِيتُه فى العرَب :

أتاكَ البَحْرُ طَمَّ على قريشٍ ... مُعيِّرتى فقد راعَ ابنَ بِشرِ (١)
وراعَ الجِدْىَ جَدْىَ التَّيْمِ لمّا ... رأى المعروفَ منه غيرَ نَذْرِ
ومن أوتارِ عُقْبة قد شفانى ... ورهط الحاطبىّ ورَهْطِ صَخْرِ
فلا يغرُرْكَ حُسنُ الزِّىِّ منهمْ ... ولا سرح ببُزْيونٍ ونمرِ (٢)

فابن بِشْر، عبدُ الله بنُ بِشْر بن مروان بنِ الحكَم، وجَدْى التَّيْم : حمّاد بن عمران ابن موسى بن طلحة بن عُبَيد الله، وأَوْتار عُقْبة يعنى أولادَ عُقْبَة بن أبى مُعَيط، والحاطبىّ لُقْمان بنُ محمد بن حاطب الجُمَحىّ ، ورهط صَخْر : بنو أبى سُفْيان بن حَرْب بنِ أمَيّة ، وكلّ هؤلاء كانوا مشهورين بالكوفة ، فلمّا قدمَها المغيرة أَخملَ ذكرَهم ، والمغيرة هذا هو الّذى بلَغه أنّ سُلَيم بنَ أفلح مولى أبى أيّوب الأنصارىّ أراد أن يبيع المنزلَ الّذى نزل فيه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله مَقدَمَه المدينة على أبى أيّوب بخمسمائة دينار ، فأرسَل إليه ألف دينار ، وسأله أن يبيعه إيّاه، فباعَه ، فلمّا ملَكَه جعلَه صدقةً فى يومه .

قال الزبير : وكان يزيدُ بنُ المغيرة بنِ عبدالرحمن يُطافُ به بالكوفة على العِجْل، وكان ينحَر فى كلّ يوم جَزورا ، وفى كلّ جمعة جَزُورَين ، ورأى يوما إحدَى جَفَناته مُكلّلة بالسَّنام تكليلا حَسَنا ، فأعجَبه ذلك ، فسأَل فقال : من كَلَّلها ؟ قيل : اليَسَع ابنك؛ فسُرّ ، وأعطاه ستّين دينارا .

ومرّ إبراهيم بن هشام على بُرْدةِ المغيرة وقد أشرقتْ على الجَمْنة ، فقال لعبدٍ من عبيد المغيرة : ياغلام ، على أىّ شىء نصَبْتم هذا الثّريدَ على العمد ؟ قال : لا ، ولكن على أعضادِ الإبل ، فبلغ ذلك المغيرة ، فأعتق ذلك الغلام .

والمغيرة هو الذى مرّ بحَرّة الأعراب فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا هاشم ، قد فاضَ

---

(١) نسب قريش ٣٠٥
(٢) البزيون ، بالضم : السندس ، وقال ابن برى : هورقيق الديباج

معروفُك على الناس ، فما بالُنا أشقى الخلق بك ! قال : إنه لا مالَ معى ، ولكن خذوا هذا الغلام فهو لكم ، فأخذوه ، فبكى الغلامُ فقال : يا مَوْلاى ، خدمتى وحُرمتى ! فقال : أتبيعونى إيّاه ؟ قالوا : نعم ، فاشتراه منهم بمالٍ ثم أعتقه ، وقال له : والله لا أُعرِّضك لمثلها أبدا ، اذهبْ فأنتَ حرّ ، فلما عاد إلى الكوفة حمل ذلك المال إليهم .

وكان المغيرة يأمر بالسكّر والجَوْز فيدقّان ويُطعِمُهما أصحاب الصُّفّة المساكين ، ويقول : إنهم يشتهون كما يَشتهى غيرهم ولا يمكنهم ، فخرج المغيرةُ فى سفرٍ ومعه جماعةٌ فورَدوا غديراً ليس لهم ماء غيره ـ وكان مِلحا ـ فأمر بِقرب العسَل فشقّت فى الغدير وخيضت بمائه ، فما شَرِبَ أحدٌ منهم حتى راحو إلاّ من قرب المغيرة .

وذكر الزبيرُ أنّ ابناً لهِشَام بن عبد الملك كان يسوم المُغيرة ماله بالمكان المسمّى بديعا ، فلا يبيعه ، فغزا ابن هشام أرض الروم ومعه المغيرة ، فأصابت الناسَ مجاعة فى غَزاتهم ، فجاء المغيرة إلى ابن هشام فقال : إنك كنت تَسومُنى ما لى ببديع(١) ، فأبى أن أبيعكه ، فاشترِ الآن منّى نِصفَه بعشرين ألف دينار . فأطعم المغيرةُ بها الناس ، فلما رجع ابنُ هشام بالناس من غزوته تلك وقد بلغ هشاما الخبرُ قال لابنه : قبّح اللهُ رأيك أنت أمير الجيش ، وابن أمير المؤمنين ، يصيبُ الناس معك مجاعة فلا تُطعمهم حتى يبيعك رجل سُوقة ماله ، ويطعم به الناس ! وَيْحك ، أخشيتَ أن تفتقر إن أطعمتَ الناس !

قالوا : ولنا عِكرمة بن أبى جَهل الذى قام له رسول الله صلى الله عليه وآله قائما ، وهو بَعدُ مُشرِكٌ لم يُسلِم ، ولم يَقُمْ رسول الله صلى الله عليه وآله لرَجُلٍ داخِلٍ عليه من الناس شريفٍ ولا مشروفٍ إلّا عكرمةَ ، وعكرمة هو الذى اجتهد فى نُصْرة الإسلام بعدَ أن كان شديد العداوة ، وهو الذى سأله أبو بكر أن يقبل منه مَعونةً على الجهاد فأبى ،

(١) بديع : ماء عليه نخيل وعيون جارية بقرب وادى القرى . ياقوت .

وقال : لا آخذ على الجهاد أجراً ولا معونة ، وهو الشهيد يوم أَجْنَادين ، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « لا تسألنى اليومَ شيئاً إلا أعطيتك » ، فقال : فإنى أسألك أن تستغفرَ لى ، ولم يسأل غيرَ ذلك ، وكلّ قريش غيره سألوا المالَ كسُهَيْل بن عمرو وصَفْوان بن أميّة وغيرهما .

قالوا : ولنا الحارث بن خالد بنِ العاص بن هشام بنِ المغيرة ، كان شاعرا مجيدا مُكثرا ، وكان أمير مكة استعمَله عليها يزيدُ بنُ معاوية .

ومِن شِعره :

مَن كان يَسألُ عنّا أينَ منزلُنا فالأُقْحُوانةُ منّا منزل قَمِنُ[1]

إذْ نَلبَس العيْشَ غضًّا لا يُكدِّرُه قربُ الوُشاة ولا يَنْبو بنا الزَّمنُ

وأخوه عِكرمة بنُ خالد كان من وجوهِ قريش، ورَوَى الحديث، وروى عنه .

ومن ولد خالدِ بنِ العاص بنِ هشام بن المغيرة خالد بن إسماعيل بن عبدالرحمن ، كان جَواداً مِتْلافا ، وفيه قال الشاعر :

لَعمْرُك إن المجدَ ما عاشَ خالدٌ على العُمْر من ذى كبدة لمُقيمُ

وتَندَى البِطاحُ البيضُ من جُود خالد ويُخْصِبن حتى نبتهنّ عميمُ

قالوا : ولنا الأَوْقص ، وهو محمّد بنُ عبد الرحمن بن هشام بن المغيرة ، كان قاضى مكة ، وكان فقيها .

قالوا : ومن قُدَماء المسلمين عبدُ الله بن أمية بن المغيرة أخو أمّ سلمة زوج رسول الله

(١) نسب قريش ٣١٣ ، معجم البلدان ١ : ٣٠٩ من غير نسبة . والأقحوانة : موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطىء بحيرة طبرية

صلّى الله عليه وآله ، كان شديدَ الخلاف على المسلمين ، ثم خرج مهاجرا ، وشَهد فتح مَـكة وحُنين ، وقُتِل يومَ الطائف شهيدا .

والوليدُ بنُ أمية غَيَّر رسول الله صلى الله عليه وآله اسمـه فسمّاه المهاجر ، وكان من صُلحاء المسلمين .

قالوا : ومنا زُهيرُ بن أبى أميّة بن المغيرة ، وبُجَيْر بن أبى ربيعة بن المغيرة ، غيَّر رسول الله صلى الله عليه وآله اسمه ، فسماه عبدَ الله ، كانا من أشراف قريش ، وعباس ابن أبى ربيعة كان شريفا .

قالوا : ومنّا الحارثُ القُباع ، وهو الحارث بنُ عبد الله بن أبى ربيعة ، كان أميرَ البَصْرة ، وعمر بن عبد الله بن أبى ربيعة الشاعر ، المشهور ذى الغزَل والتشبيب .

قالوا : ومن ولِد الحارث بنِ عبد الله بن أبى ربيعة الفقيه المشهور ، وهو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث ، كان فقيهَ المدينة بعد مالك بن أنس ، وعرَض عليه الرشيدُ جائزةً أربعة آلاف دينار فامتَنَع ولم يتقلّد له القضاء .

قالوا : ومَن يعدّ ما تعدّه مخزوم ولها خالد بن الوليد بن المغيرة سيف الله ! كان مُباركا ، ميمونَ النَّقيبة شُجاعا ، وكان إليه أعِنّة الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشهِد معه فتحَ مَـكّة ، وجُرِح يوم حُنَين فنَفَث رسول الله صلى الله عليه وآله على جُرْحه فبَرَأ ، وهو الذى قَتَل مُسَيْلمة وأَسَر طُلَيحة وَمهَّد خِلافة أبى بكر ؛ وقال يوم موته : لقد شهدتُ كذا وكذا زَحْفا ، وما فى جَسَدى موضعُ إصْبَع إلاّ وفيـه طعنة أو ضربة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العـيْر ، فلا نامت أعيُنُ الجُبناء ! ومرّ عمرُ بن الخطاب على دُور بنى مخزوم والنساء يندُبن خالدا وقد وصـلَ خبرُه إليهم

وكان مات بحِمْص ، فوقف وقال : ما على النساء أن يندُبن أبا سليمان ، وهل تقوم حُرّة عن مِثله ! ثم أنشد :

أتبكى ما وصلتَ به النَّدامى ولا تبكى فوارسَ كالجبالِ
أولئك إنْ بكيت أشدُّ فَقْداً من الأنعام والعَكَر الحلالِ[1]
تَمنّى بعدَهمْ قومٌ مَداهمْ فما بَلَغوا لِغايات الكمالِ

وكان عمرُ مُبغِضاً لخالد ، ومنحرفا عنه ، ولم يمنعه ذلك من أن صدق فيه .

قالوا : ومنا الوليد بن الوليد بن المغيرة ، كان رجلَ صِدْق من صُلَحاء المسلمين .

ومنّا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، كان عظيم القَدْر فى أهل الشام ، وخاف معاوية منه أن يَثِب على الخلافة بعدَه ، فسمَّه؛ أمر طبيبا له يُدعى ابن أثال فسقاه فقتله . وخالد ابن المهاجر بن خالد بن الوليد قاتل ابن أثال بعَمّه عبدِ الرحمن والمخالف على بنى أمية ، والمنقطع إلى بنى هاشم . وإسماعيل بن هشام بن الوليد كان أمير المدينة . وإبراهيم ومحمد ابنا هشام بن عبد الملك . وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، وكان من رجال قريش ، ومن ولدِه هشام بنُ إسماعيل بن أيوب . وسَلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، ولى شُرْطة المدينة .

قالوا : ومن ولد حَفْص بن المغيرة عبدُ الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة ، هو أوّل خَلْق الله حاجَّ يزيد بن معاوية .

قالوا : ولنا الأزْرَق ، وهو عبد الله بنُ عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس ابن المغيرة والى اليمن لابن الزبير ، وكان من أجودِ العَرَب[2] ، وهو ممدوح أبى دَهْبَل الجمحىّ .

(١) العكر : ما فوق الخمسمائة من الإبل .
(٢) فى د : « الناس » .

قالوا : ولنا شرِيك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو عبد الله بن السائب بن أبى السائب ، واسم أبى السائب صَيْفِىّ بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، كان شريك النبي صلى الله عليه وآله فى الجاهليّة فجاءه يوم الفتح فقال له : أتعرفنى ؟ قال : ألستَ شَرِيكى ؟ قال : بلى ، قال : لقد كنت خير شَرِيك ، لا تُشارى ولا تُمارى .

قالوا : ومنا الأرقم بن أبى الأرقم الذى استتر رسولُ الله فى داره بمكة فى أوّل الدعوة واسم أبى الأرْقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ومنا أبو سَلمة بن عبد الأسد ، واسمُه عبد الله ، وهو زوج أمِّ سَلمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، قَبْلَ رسول الله صلى الله عليه وآله ، شهد أبو سَلمة بَدْرا ، وكان من صُلَحاء المسلمين .

قالوا : ولنا هُبَيْرة بن أبى وَهب ، كان من الفُرْسان المذكورين ؛ وابنه جَعدة بن هبيرة ؛ وهو ابن أخت على بن أبى طالب عليه السلام ، أمه أم هانئ بنتُ أبى طالب ، وابنه عبد الله ابن جعدة ابن هُبَيرة هو الذى فتح القُهُنْدر وكثيرا من خُراسانَ ، فقال فيه الشاعر :

لولا ابنُ جَعْدَةَ لم تُفْتَحْ قُهُنْدُرُكُمْ ولا خراسانُ حتى ينفخ الصُّورُ

قالوا : ولنا سعيد بن المسيِّب الفقيه المشهور . وأما الجواد المشهور فهو الحكم بن المطلب ابن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم .

وقد اختصرْنا واقتصرنا على من ذكرْنا ، وتركْنا كثيرا من رجال مخزوم خوف الإسهاب .

***

وينبغى أن يقال فى الجواب : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل هذا الكلام احتقارا لهم ولا استصغارا لشأنهم ولكن أمير المؤمنين عليه السلام كان أكثر همّه يوم المُفاخَرة أن يُفاخر بنى عبد شمس لما بينه وبينهم ، فلما ذكر مخزوما بالعرَض قال فيهم ما قال ، ولو كان يريد مفاخرتهم لما اقتصر لهم على ما ذكره عنهم ، على أنّ أكثر هؤلاء الرجال إسلاميّون بعد عصر علىّ عليه السلام ، وعلىّ عليه السلام إنما يذكر من قبله لا من يجىءُ بعده .

فإن قلت : إذا كان قد قال فى بنى عبدِ شَمْس إنهم أمنَع لمـا وراء ظهورهم ، ثم قال فى بنى هاشم: إنهم أسمحُ عند الموت بنفوسهم ، فقد تناقض الوَصْفان .

قلتُ : لا مُناقضةَ بينهما ، لأنه أراد كثرة بنى عبدِ شمس ، فبالـكَثْرة تمنـع ما وراء ظهورها ، وكان بنو هاشم أقلّ عددا من بنى عبدِ شمس ، إلّا أن كلّ واحد منهم على انفراده أشجع وأسمح بنفسه عند الموت من كلّ واحد على انفراده من بنى عبدِ شمس ، فقد بان أنه لا مناقَضة بين القولين .

(١١٧)

الأصل :

شَتَّانَ ما بَيْنَ عَمَلَيْنِ ؛ عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ ، وتَبْقَى تَبِعَتُهُ ؛ وعملٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ ، ويَبْقَى أَجْرُهُ .

***

الشرح :

أخذ هذا المعنى بعضُ الشعراء ، فقال :

تفْنَى اللذَّاذَةُ مِمّن نَال بُغْيَتَهُ ... من الحرَام ويبقى الإثمُ والعارُ

تُبقِي عواقبَ سوءٍ فى مَغَبَّتِها ... لا خيرَ فى لذّةٍ من بعدِها النّارُ

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ وقدْ تبِعَ جنازَةً فسمعَ رَجلاً يضحكُ ، فقالَ :
كأنَّ الموْتَ فيها على غَيْرِنا كُتِبَ ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غَيْرِنا وَجبَ ، وكأنَّ الَّذِى نَرَى مِنَ الأمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إليْنا رَاجِعُونَ ، نُبَوِّئُهُمْ أجْدَاثَهُمْ ، ونأْكُلُ تُرَاثَهُمْ ، كأنَّا مُخَلَّدُونَ بعْدَهُمْ ، قَدْ نَسِينا كُلَّ واعِظٍ ووَاعِظَةٍ ، ورُمِينا بِكُلِّ فادِحٍ وجائحَةٍ .

طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فى نَفْسِهِ ، وطابَ كَسْبُهُ ، وصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ ، وحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ وأنفَقَ الْفَضْلَ منْ مالِهِ ، وأمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسانِهِ ، وعَزَلَ عَنِ النّاسِ شَرَّهُ ، ووَسِعَتْهُ السُّنَّةُ ، ولَمْ يُنْسَبْ إلَى بِدْعَةٍ .

* * *

قالَ الرَّضىّ رَحمهُ الله تعالى . أقولُ : ومِنَ الناس من يَنسُبُ هذا الكلامَ إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وكذلك الّذى قبْلَهُ .

* * *

الشَّرحُ :

الأشهر الأكثر فى الرّواية أنّ هذا الكلام من كلام رسولِ الله صلى الله عليه وآله ومِثلُ قوله : « كأنّ الموت فيها على غيرنا كُتِب » قولُ الحسن عليه السلام : ما رأيت حقّا لا باطل فيه أشبهَ بباطلٍ لا حقّ فيه من المَوْت . والألفاظ التى بعده واضحة ليس فيها ما يُشْرَح ، وقد تقدّم ذِكرُ نظائرها .

(١١٩)

الأصل

غَيْرَةُ المَرْأةِ كُفْرٌ ، وغَيْرَةُ الرَّجُلِ إيمانٌ .

***

الشرح :

المرجع فى هذا إلى العَقْل والتماسك ، فلمّا كان الرجل أعقَل وأشدّ تماسُكا كانت غَيْرَته فى موضعها ، وكانت واجبةً عليه ، لأنّ النهى عن المنكَر واجب ، وفعل الواجبات من الإيمان ، وأما المرأة فلما كانت أنقَصَ عقْلا وأقلّ صَبْرا كانت غَيْرَتها على الوَهْم الباطل والخيال غير المحقَّق ، فكانت قبيحةً لوقوعها غير موقعها ، وسمّاها عليه السلام كُفْراً لمشارَكتها الكُفْرَ فى القُبْح فأَجرى عليها اسمَه .

وأيضا فإن المرأة قد تؤدِّى بها الغيرةُ إلى ما يكون كُفْرا على الحقيقة كالسِّحْر ، فقد وَرَد فى الحديث المرفوع أنه كُفْر ، وقد يُفضى بها الضَّجَر والقَلَق إلى أن تَتَسَخّط وتَشْتُم وتتلفّظ بألفاظٍ تكون كُفراً لا محالة .

الأصلُ :

لَأَنْسُبَنَّ الإِسْلامَ نِسبَةً لَمْ يَنْسُبْها أحَدٌ قَبْلِي . الإِسْلامُ هُوَ التَّسْلِيمُ ، والتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ ، والْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ ، والتَّصْدِيقُ هُوَ الإِقْرَارُ ، والإِقْرَارُ هُوَ الأَدَاءُ ، والأَدَاءُ هُوَ العَمَلُ .

***

الشَّرْحُ :

خلاصةُ هذا الفَصْل تقتضى صحة مَذهَب أصحابنا المعتزلة فى أنّ الإسلام والإيمان عبارتان عن معبّر واحد ، وأنّ العمل داخلٌ فى مفهوم هذه اللفظة ، ألا تراه جَعَل كلّ واحدة من اللَّفَظات قائمةً مقامَ الأخرى فى إفادة المفهوم ، كما تقول : اللّيث هو الأسَدُ والأسد هو السّبع ، والسبع هو أبو الحارث ! فلا شُبهةَ أن اللّيث يكون أبا الحارث ؛ أى أنّ الأسماء مترادفة ، فإذا كان أوّل اللَّفظَات الإسلام ، وآخرها العَمل، دَلّ على أنّ العمل هو الإسلام ؛ وهكذا تقول أصحابُنا : إنّ تارك العمل وتارك الواجب لا يسمَّى مسلما .

فإن قلت : هَبْ أنّ كلامَه عليه السلام يدلّ على ما قلت ، كيف يدلّ على أن الإسلام هو الإيمان ؟

قلت : لأنه إذا دَلّ على أن العمل هو الإسلام وَجَب أن يكون الإيمان هو الإسلام لأنّ كلّ من قال : إنّ العمل داخل فى مُسمّى الإسلام ؛ قال : إنّ الإسلام هو الإيمان ،

فالقول بأنّ العمل داخلٌ فى مسمَّى الإسلام ، وليس الإسلام هو الإيمان، قول لم يَقُل به أحد ؛ فيكون الإجماع واقعا على بُطْلانه .

فإن قلت : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل كما تقوله المعتّزلة ، لأنّ المعتزلة تقول : الإسلامُ اسمٌ واقعٌ على العَمَل وغيرِه من الاعتقاد ، والنطق باللسان، وأمير المؤمنين عليه السلام جَعل الإِسلامَ هو العمل فقط ، فكيف ادّعيتَ أنّ قولَ أميرِ المؤمنين عليه السلام يُطابق مذهبهم ؟

قلت : لا يجوز أن يريد غيره ، لأن لفظ العَمَل يشمل الاعتقاد ، والنطق باللسان ، وحركات الأركان بالعبادات ، إذ كلُّ ذلك عملٌ وفِعْل ، وإن كان بعضه من أفعال القلوب ، وبعضه من أفعال الجوارح ، ولو لم يُرِد أميرُ المؤمنين عليه السلام ما شرَحْناه لكان قد قال: الإسلام هو العمل بالأركان خاصة ،ولم يعتبر فيه الاعتقاد القلبىّ ، ولا النطق اللفظىّ ، وذلك مما لا يقوله أحد .

(١٢١)

الأصلُ :

عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ ٱلْفَقْرَ ٱلَّذِى مِنْهُ هَرَبَ ، وَيَفُوتُهُ ٱلْغِنَى ٱلَّذِى إِيَّاه طَلَبَ ، فَيَعِيشُ فِى الدُّنيَا عَيْشَ ٱلْفُقَرَاءِ ، وَيُحَاسَبُ فِى ٱلْآخِرَةِ حِسَابَ ٱلْأَغْنِيَاءِ ، وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ ٱلَّذِى كانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً ، وَيَكُونُ غداً جِيفَةً ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِى ٱللهِ وَهُوَ يرَى خَلْقَ ٱللهِ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ ٱلْمَوْتَ وهُوَ يرَى مَنْ يَمُوتُ وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَى وَهُوَ يرَى النَّشْأَةَ ٱلْأُولَى ، وَعَجِبْتُ لِعَامِرٍ دَارَ ٱلْفَنَاءِ وَتَارِكٍ دَارَ ٱلْبَقَاء .

* * *

الشرحُ :

قال أعرابىّ : الرِّزق الواسعُ لمن لا يَستمتِع به بمنزلة الطعامِ الموضوعِ على قبْر . ورأى حكيمٌ رجلا مُثرِيًا يأكل خُبْزا ومِلْحا ، فقال : لِمَ تفعَل هذا ؟ قال : أخافُ الفقرَ ، قال : فقد تعجَّلتَه . فأمّا القول فى الكِبْر والتِّيه فقد تقدّم منه مافيه كفاية ؛ وقال ابنُ الأعرابىّ : ماتاهَ علىَّ أحدٌ قطّ أكثرَمن مرّةواحدة ، أخَذَ هذا المعنى شاعرٌ فقال وأَحسَن:

هـــذه منكَ فإن عُدْ تَ إلى البابِ فمـــنِّى

وقد تقدّم من كلامِنا فى نظائرِ هذه الألفاظ المذكورة ما يُغنى عن الإطالة هاهُنا .

(١٢٢)

الأصلُ :

مَنْ قَصَّرَ فِي ٱلْعَمَلِ ، ٱبْتُلِيَ بِالْهَمِّ .

* * *

الشرحُ :

هذا مخصوصٌ بأصحاب اليقين ، والاعتقادِ الصّحيح ، فإنّهم الّذين إذا قصّروا فى العمل ابتُلوا بالهمّ ، فأمّا غيرُهم من المُسرِفين على أنفسهم وذوى النّقص فى اليقين والاعتقاد فإنّه لا همّ يعرُوهم وإن قصّروا فى العمل ، وهذه الكلمة قد جرّبْناها من أنفسِنا فوجَدْنا مِصداقَها واضحا ، وذلك أنّ الواحد منّا إذا أخَلّ بفريضةِ الظّهر مَثَلا حتّى تغيبَ الشمس وإن كان أخلّ بها لعُذْر وَجَد ثِقْلا فى نفسِه وكَسَلا وقِلّةَ نَشاط ، وكأنّه مشكولٌ بشِكالٍ أو مقيَّدٌ بقَيْد ، حتّى يقضىَ تلك الفَرِيضة ، فكأنّما أُنشِطَ من عِقال .

الأصْـلُ :

لَا حَاجَةَ لِلّٰهِ فِيمَنْ لَيْسَ لِلّٰهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد جاء فى الخبر المرفوع : « إذا أَحَبَّ اللهُ عبدًا أبتلاَه فى مالِه أو فى نفسِه ».

وجاء فى الحديث المرفوع : « اللّهمّ إنّى أعوذ بك من جَسَدٍ لا يَمرَض ، ومن مالٍ لا يُصاب » .

ورَوَى عبدُ الله بنُ أَنَس عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « أيّـكم يُحِبّ أن يَصِحّ فلا يَسقَم » ؟ قالوا : كُلّنا يارسولَ الله ، قال : « أتحبّون أن تـكونوا كالحُمُر الصائلة ؛ ألا تُحِبّون أن تـكونوا أصحابَ بَلاَيا وأصحابَ كَفّارات ! والّذى بَعثَنى بالحقّ إنّ الرجل لتـكونُ له الدّرجة فى الجنّة فلا يبلُغها بشىء من عَمَلِه فيَبتَلِيه اللهُ ليُبلِّغه الله درجةً لا يَبلُغها بعمَله » .

وفى الحديث أيضا : « مامِن مُسلِم يَمرَض مرضا إلّا حَتّ الله به خَطَاياه كما تَحُتّ الشجرة وَرَقَها » .

ورَوَى أبو عثمانَ النَّهْدِىّ قال : دخل رجل اعرابىّ عَلَى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ذو جُسْمانٍ عَظيم ، فقال له : مَتَى عَهْدُك بالحُمّى ؟ قال : ما أعرفهـا ، قال : بالصُّداع ،

قال : ما أدرى ماهو ؟ قال : فأُصِبْتَ بمالِك ؟ قال : لا ، قال : فرُزِئت بوَلَدِك ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : « إن الله ليَكرَه العِفْريت النِّفْريت الّذى لا يُرزأ فى وَلَدِه ولا يُصَابُ فى مالِه » .

وجاء فى بعض الآثار : « أشدّ الناس حسابا الصحيحُ الفارغ » .

وفى حديث حذيفةَ رضى الله عنه : إنّ أقَرَّ يوم لعينى لَيَوْمٌ لا أجد فيه طعاما ، سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « إنّ الله ليَتعاهَد عبدَه المؤمنَ بالبلاء كما يَتعاهَد الوَالد ولدَه بالطّعام ، وإنّ الله يَحمِى عبدَه المؤمنَ كما يَحمِى أحدُكم المريض من الطعام » .

وفى الحديث المرفوع أيضا : « إذا أحَبَّ اللهُ عبداً ابتلاه ، فإذا أحبّه الُحبَّ البالغَ اقْتَناه »، قالوا وما اقتناؤُه ، قال : «ألّا يَترُك له مالا ولا ولداً» . مَرّ موسى عليه السلام برجل كان يَعرِفه مطيعا لله تعالى قد مَزَّقَت السباعُ لَحمَه وأضلاعَه ، وكَبِدُه ملقاةٌ ، فوَقَف متعجّبا فقال : أى ربِّ ، عبدُك المطيعُ لك ابتليتَه بما أَرَى ، فأَوحَى اللهُ إليه : إنّه سألنى درجةً لم يَبلُغها بعَمَله ، فجعلتُ له بما ترَى سبيلا إلى تلك الدرجة .

وجاء فى الحديث : « إنّ زكريّا لم يزَل يرَى وَلَدَه يحيى مَغْموما باكيا مشغولا بنفسه ، فقال : يارِبّ طلبتُ منك ولدا أنتفِع به فرزَقْتَنيه لا نَفْع لى فيه ، فقال له : إنّك طلبتَه وليّا ، والولىّ لا يكون إلّا هكذا ، مِسْقاما فقيرا مهموما .

وقال سُفْيان الثَّوْرِىّ : كانوا لا يعدّون الفقيهَ فقيهاً من لا يَعُدّ البلاءَ نِعْمة والرخاءَ مُصيبة .

جابرُ بنُ عبد الله يَرفعه : «يَوَدّ أهل العافِية يومَ القيامة أنّ لحومَهم كانت تُقرَض بالمَقارِيض لما يرَوْن من ثواب أهلِ البَلاء» .

الأَصْلُ :

تَوَقَّوُا ٱلْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي ٱلْأَبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي ٱلْاشْجَارِ ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ ، وَآخِرُهُ يُورِقُ .

***

الشَّرْحُ :

هـذه مسألةٌ طبيعيّة قد ذَكَرها الحكماء ، قالوا : لمّا كان تأثيرُ الخريف فى الأبدان ، وتوليدُه الأمْراض كالزُّكام والسُّعال وغيرهما أكثرَ من تأثيرِ الرّبيع ، مع أنهما جميعا فَصْلاَ اعتدال ، وأجابوا بأنّ بَرْد الخريف يَفْجأ الإنسانَ وهو معتادٌ لحرّ الصّيف فينكأ فيه ، ويسُدّ مَسامَّ دِماغه ، لأنّ البرد يَكثُف ويَسُدّ المَسامّ فيكون كمن دَخَل من موضع شديدِ الحرارة إلى خيش بارد .

فأما المُنتقِل من الشّتاء إلى فَصْل الربيع فإنّه لا يكاد بَرْد الربيع يُؤْذِيه ذلك الأذى لأنّه قد اعتاد جسمُه برَد الشتاء ، فلا يُصادِف من بَرْد الربيع إلّا ماقد اُعتاد ماهو أكثر منه ، فلا يظهَر لبَرْد الربيع تأثيرٌ فى مِزاجِه ، فأمّا لِمَ أورقت الأشجار وأَزْهَرت فى الرّبيع دون الخريف ؟ فلما فى الرّبيع من الكيفيّتين اللّتين هما مَنْبَع النموّ والنفس النباتيّة ، وهما الحرارَة والرّطوبة وأما الخريف فخالٍ من هاتين الكيفيّتين ومستبدل بهما ضدّهما ، وهما

البرودَة واليُبْس المُنافِيان للنّشوء وحَياةِ الحيوَان والنّبات . فأما لِمَ كان الخريف باردا يابسا والرّبيع حارّا رَطْبا مع أنّ نسبَة كلّ واحد منهما إلى الفَصْلين الخارجَيْن عن الاعتدال وهما الشّتاء والصّيف نسبةٌ واحدة ؟ فإنّ تعليلَ ذلك مذكورٌ فى الأصول الطبية ؛ والكُتُب الطبيعيّة ، وليس هذا الموضع ممّا يَحسُن أن يُشرح فيه مِثلُ ذلك .

الأصْلُ :

عُظْمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ الْمَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ .

***

الشَّرْحُ :

لا نِسبَةَ للمخلوق إلى الخالق أَصْلا وخصوصا البَشَر ، لأنّهم بالنّسبة إلى فَلَكِ القمَر، كالذَّرّة،ونسبة فلك القمر كالذَّرّة بالنِّسبة إلى قُرْص الشّمس ، بل هُمْ[١] دون هذهالنسبة ممّا[٢] يَعجَز الحاسبُ الحاذِقُ عن حِساب ذلك ، وفَلَكُ القمَرِ بالنّسبة إلى الفَلَك المحيط دون هذه النِّسبة ، ونِسْبة الفَلَك المحيطإلى البارى سبحانه كنِسْبة العَدَم المَحْض والنّفى الصرف إلى الموجود البائن ، بل هذاالقياس أيضا غيرُ صحيح ، لأنّ المعدوم يُمكِن أن يصير موجودا بائنا ، والفَلَك لا يتصوّر أن يكون صانع العالم الواجب الوجود لِذاتِه .

وعلى الجملة فالأمرُ أعظَم من كلّ عظيم ، وأجلُّ من كلّ جليل ، ولا طاقةَ للعُقول والأذْهان أن تعبِّر عن جلالة ذلك الجناب وعَظَمتِه ، بل لو قيل : إنّها لا طاقة لها أن تعبِّر عن جلالِ مَصْنوعاته الأولَى المتقدِّمة علينا بالرّتبة العقليّة والزمانيّة لـكان ذلك القولُ حقّا وصِدْقا ، فمَن هو المخلوق لِيقال : إنَّ عِظَمَ الخالِق يصغّره فى العين ! ولـكنّ كلامَه عليه السلام محمولٌ على مخاطَبة العامّة الّذين تَضيق أفهامُهمْ عمّا ذكرْناه .

---

(١) ساقطة من ا ، ب

(٢) ب : « بما » .

الأصـلُ :

وقال عليه السلام : وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِفِّينَ فَأَشْرَفَ عَلَى الْقُبُورِ بِظَاهِرِ الكُوفَةِ .

يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ ، وَالْمَحَالِّ الْمُقْفِرَةِ ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ . يَاأَهْلَ التُّرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ . يَاأَهْلَ الْوَحْشَةِ ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لَاحِقٌ ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ ، وَأَمَّا الْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ ، وَأَمَّا الأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِّمَتْ ، هَذَا خَبَرُ مَاعِنْدَنَا ، فَمَا خَبَرُ مَاعِنْدَكُمْ ؟

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ :

أَمَا وَاللهِ لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الكَلَامِ ، لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

***

الشرح :

الفرَط : المتقدِّمون ؛ وقد ذكرْنا من كلامِ عمرَ مايُناسِب هذا الكلام، لمّا طَعَن فى القُبور وعادَ إلى أصحابه أحمرَ الوجه ، ظاهرَ العرُوق ،قال:قد وقفتُ على قبورِ الأحبّة فناديتُها الحديثَ . . . إلى آخره ، فقيل له : فهل أجابتْك ؟ قال : نعم ، قالت : إنّ خيرَ الزّاد التقوى .

وقد جاء فى حديث القبور ومخاطبتِها وحديثِ الأموات وما يتعلّق بذلك شىء كثير يتجاوَز الإحصاء .

وفى وصيّة النبىّ صلّى الله عليه وآله أبا ذرّ رضى الله عنه : زُر القبورَ تَذكُرْ بها الآخرة ولا تزُرها ليلاً ، وغَسِّل الموتى يتحرّكْ قلبُك ، فإنّ الجسد الخاوِىَ[1] عِظةٌ بليغة ، وصلِّ على الموتى فإن ذلك يُحزِنُك ، فإنّ الحزين فى ظِلّ الله .

وُجِد على قبرٍ مكتوباً :

مقيمٌ إلى أن يَبعثَ الله خَلْقَهُ   لقاؤكَ لا يُرجَى وأنت رقيبُ
تَزِيدُ بِلًى فى كلِّ يومٍ وليلةٍ   وتُنْسَى كما تَبلَى وأنت حبيبُ

وقال الحسن عليه السلام : مات صديق لنا صالح ، فدفنّاه ومدَدْنا على القبر ثوبا ، فجاء صِلَةَ بنُ أُشيَم ، فرَفَع طرفَ الثّوب ونادَى ، يافلان :

إنْ تنجُ منها تَنجُ مِن ذى عَظيمةٍ   وإلّا فإنّى لا إخالُكَ ناجِيَــــا

وفى الحديث المرفوع، أنّه عليه السلام كان إذا تَبِع الجنازة أكثرَ الصُّمات[2]؛ ورُئى عليه كآبةٌ ظاهرة ، وأكثرَ حديثَ النفس .

سَمِع أبو الدّرداء رجلا يقول فى جنازة : من هــذا ؟ فقال : أنت ، فإنْ كرهتَ فأنا .

سَمِع الحسنُ عليه السلامُ امرأةً تبكِى خلف جَنازة وتقول : ياأبتاه ، مِثلَ يومِك لم أرَه ! فقال : بل أبوكِ مِثل يومِه لم يرَه .

وكان مكحولٌ إذا رأى جِنازة قال : اغدُ فإنّا رائحون .

وقال ابن شَوْذَب : اطّلَعت امرأةٌ صالحة فى لَحْد فقالت لامرأةٍ معها : هذا كُنْدُوج العَمَل ـ يَعنِى خِزانتَه . وكانت تُعطيها الشىء بعد الشىء تأمُرُها أن تَتصدّق به ، فتقول : اذهبِى فضَعى هذا فى كُنْدوج العَمَل .

---

(١) الخاوى : الخالى من الروح   (٢) الصمات ، مصدر صمت .

شاعر :

أجازِعةٌ رُدَينـــةُ أنْ أتاها نَعِيِّ أم يكون لها اصطِبارُ !
إذا ما أهْـــلُ قَبْرى ودّعونى وراحُوا والأكُفّ بهـــا غُبارُ
وغُودِرَ أعظُمِى فى لحــدِ قبرٍ تُراوِحُـــه الجنائب والقِطارُ
تَهُبُّ الريحُ فوق مَحَطِّ قَبْرى ويَرعَى حولَه اللَّهَقُ النَّوارُ(١)
مقيمٌ لا يُكلِّمنى صــديقٌ بقَفْـــرٍ لا أَزورُ ولا أزارُ
فَذاكَ النأىُ لا الهِجْرانُ حَوْلاً وحَــوْلاً ثمّ تجتمعُ الدّيارُ

وقال آخر :

كأنِّى بإخــوانى على حافَتَىْ قَبرِى يَهِيـــلُونه فَوْقى وأدمُعُهم تَجرى
فيأيّها المُــــذْرى علىّ دموعَه ستُعرِضُ فى يومين عنّى وعن ذِكرِى
عفـــا اللهُ عنّى يومَ أُتركُ ثاوِياً أُزارُ فلا أَدْرِى وأُجْفَى فـــلا أدْرِى

وجاء فى الحديث المرفوع: « ما رأيتُ مَنظَرا إلّا والقبرُ أفظع منه » .

وفى الحديث أيضا: « القبر أوّل منزلٍ من منازلِ الآخرة ، فمن نجا منه فما بعدَه أيسَر ، ومن لم يَنْجُ منه فما بعدَه شرٌّ منه » .

(١) اللاهق بالتحريك : الثور الأبيض ، والنوار : النافر .

الأصْلُ :

وقال عليه السلام وقد سمع رجلا يذم الدنيا :

أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا ، المُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا المُنْخَدِعُ بِأَبَاطِيلِهَا ؛ أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا ! أَنْتَ المُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا ، أَمْ هِيَ المُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ ! مَتَى اسْتَهْوَتْكَ ، أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ ! أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى ، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى ! كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ ، تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِبَّاءَ ؛ غَدَاةَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ ، وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ !

لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ ، وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ ، وَقَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ ، وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ .

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا . مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللهِ ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللهِ وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ ؛ اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا ، وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا ، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا ، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا الْبَلَاءَ ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ !

رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ ، تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً ، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً ،

فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا؛ وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا.

* * *

الشَّرْحُ :

تجرّمتُ على فلان : ادّعيتَ عليه جُرْما وذنبا ؛ وأستهواه كذا : استزلّه .

وقولُه عليه السلام : « فمثّلتْ لهم ببلائها البلاء » أى بلاء الآخرة وعذابَ جهنّم، وشوّقتهم بسرورها إلى السرور، أى إلى سُرورِ الآخرة ونعيمِ الجنّة .

وهذا الفصل كلّه لمدح الدنيا ، وهو ينبىء عن اقتدارِه عليه السلام على مايريد من المعانى ، لأنّ كلامَه كلّه فى ذمّ الدنيا ، وهو الآن يَمدَحها وهو صادقٌ فى ذاك وفى هذا ؛ وقد جاء عن النبىّ صلّى الله عليه وآله كلام يتضمّن مدحَ الدنيا أو قريبا من المَدْح ، وهو قولُه عليه السلام : « الدّنيا حُلوةٌ خَضِرة ، فمن أَخَذَها بحقّها بُورِكَ له فيها » .

واحتَذَى عبدُ الله بنُ المعتزّ[1] حَذْوَ أميرِ المؤمنين عليه السلام فى مدح الدنيا فقال فى كلام له : الدّنيا دارُ التّأديب[2] والتعريف التى بمَكروهِها توصّل إلى محبوب الآخرةِ، ومضمار الأعمال ، السابقة بأصحابها إلى الجنان ، ودرجة الفَوْز التّى يرتقى عليها المتّقون إلى دار الخُلْد، وهى الواعظة لمن عَقَل ، والناصحة لمن قَبِل ، و بِساط المَهَل ، ومَيْدان العمل ، وقاصِمَة الجبّارين ومُلحِقة الرّغم معاطِسَ المتكبّرين ، وكاسية التّراب أبدانَ المختالين ، وصارعة المغترّين ، ومفرّقة أموالَ الباخلين ، وقاتلة القاتلين ، والعادلة بالموت على جميع العالَمين ، وناصرة المؤمنين ، ومُبيرة الكافرين . الحسنات فيها مضاعَفة ، والسّيئات بآلامها ممحوّة ، ومع عُسرها يُسْران ، والله تعالى قد ضَمِن أرزاقَ أهلِها ، وأَقسم فى كتابه بما فيها، وربّ طيّبة

(١) د : « المغيرة »

(٢) د : « التأدب » .

من نعيمها قد حمِد الله عليها فتلقّتها أيْدِى الكَتَبة ووَجَبتْ بها الجنّة ؛ وكم نائبةٍ من نوائبها وحادثةٍ من حوادثها ، قد راضت الفَهْم ، ونبّهت الفِطْنة ، وأذْكَت القريحة ، وأفادت فضيلَةَ الصّبر ، وكثَّرَت ذخائرَ الأجْر .

ومن الكلام المنسوبِ إلى علىّ عليه السلام : الناسُ أبناء الدّنيا ، ولا يلامُ المرء على حبِّ أمّه ، أخذَه محمّد بن وَهْب الحِمْيَرِىّ فقال :

ونحن بنُو الدّنيا خُلِقْنا لغيرِها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وما كنتَ منه فهو شىءٌ مُحبَّبُ

الأصل :

إنَّ لِلهِ مَلَكاً يُنادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ : لِدُوا لِلْمَوْتِ ، وَاْجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ، وَاْبْنُوا لِلْخَرَابِ .

***

الشرح :

هذه اللام عند أهل العربية تسمّى لامَ العاقبة ، ومِثلُ هذا قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[1] ، ليس أنّهم الْتقطوه لهذه العلّة ، بل التقطوه فكان عاقبةُ التقاطِهم إيّاه العداوةَ والحُزْن ، ومثلُه :

* فللموتِ ماتَلِدُ الوالدة *

ومثلُه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾[2] ؛ ليس أنّه ذرأهم ليعذّبهم فى جهنّم ، بل ذَرَأَهم وكان عاقبةُ ذَرْئِهم أن صاروا فيها ، وبهذا الحرف يحصُل الجوابُ عن كثيرٍ من الآيات المتشابِهة الّتى تتعلّق بها المجبِرة .

وأمّا فَحوَى هذا القول وخلاصتُه فهو التّنبيه على أنّ الدنيا دارُ فَناء وعَطَب ، لا دارُ بَقاء وسلامة ، وأنّ الولد يَمُوت ، والدُّور تُخرَّب ، وما يُجمَع من الأموال يَفنَى .

(١) سورة القصص ٨ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٩

الأَصْلُ :

الدُّنيا دَارُ ممرٍّ ، لا دَارُ[1] مَقَرٍّ ، والنَّاسُ فِيها رَجُلانِ : رَجُلٌ باعَ نَفْسَهُ فأَوْبَقَها ، ورَجُلٌ ابتاعَ نفسهُ فأَعْتَقَها .

***

شَرْحٌ :

قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوما لجلَسائه : أخبرُونى مَنْ أحمَقُ النـاس ؟ قالوا : رجلٌ باعَ آخرتَه بدُنياه ؛ فقال : ألا أنبئـكم بأحمق منه ؟ قالوا : بلى ؛ قال : رجلٌ باعَ آخرته بدُنيا غيره .

قلتُ : لقائلٍ أن يقول له : ذاك باعَ آخرته بدُنْياه أيضا ، لأنه لو لم يـكن له لذّةٌ فى بَيع آخرته بدُنيا غيره لمـا باعها ، وإذا كان له فى ذلك لذّة فإذَنْ إنما باع آخرته بدُنْياه ، لأنّ دُنْياه هى لذّتهُ .

---

(١) فى د « إلى دار » والمعنى عليها يستقيم أيضا .

الأصْلُ :

لا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقاً حَتَّى يَحْفَظَ أخاهُ فى ثَلاثٍ : فى نَكْبَتِهِ ، وغَيْبَتِهِ ، ووَفاتِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم لنا كلامٌ فى الصّديق والصّداقة ؛ وأمّا النَّكْبة وحفظ الصديق فيها فإنه يقال : فى الحُبوسِ(١) مَقابرُ الأحياء ، وشماتةُ الأعداء ، وتجربةُ الأصدِقاء .

وأمّا الغَيْبَة فإنه قد قال الشاعر :

وإذا الفتَى حَسُنَتْ مودّتهُ ... فى القُرْب ضاعَفَها على البُعْدِ

وأما الموت فقد قال الشاعر :

وإنّى لأستحييه والتُّربُ بيننا ... كما كنتُ أستحييه وهو يَرانِى

ومن كلامِ علىٍّ عليه السلام : الصديق من صَدَق فى غَيْبَتِهِ . قيل لحكيم : مَن أبعد الناس سَفَرا ؟

قال : من سافر فى ابتغاء الأخِ الصالح .

أبو العلاء المَعَرّى :

أزْرَتْ بكم ياذَوِى الألبابِ أربعةٌ ... يتركن أحلامَكم نَهْبَ الجهالاتِ

ودُّ الصَّديق، وعِلْم الكيمياء ،وأحْكامُ النّجوم ، وتفسيرُ المنامات

قيل للثّورىّ : دُلّنى على جليس أجلس إليه(٢) ؟ قال : تلك ضالّة لا توجد .

---

(١) د : « الحبس » . (٢) د : « عنده » .

الأصْـلُ :

مَنْ أُعْطِىَ أَرْبَعاً لمْ يُحْرَمْ أَرْبَعاً : مَنْ أُعْطِىَ الدُّعاءَ لَمْ يُحْرَمِ الإِجابَةَ ، ومَنْ أُعْطِىَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ القَبُولَ ، ومَنْ أُعْطِىَ الاسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ المَغْفِرَةَ ، ومَنْ أُعْطِى الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ .

* * *

قال الرَّضِىّ رَحِمهُ اللهُ تعالى : وتَصْدِيقُ ذَلِكَ فى كِتابِ اللهِ تعالى ؛ قالَ فى الدُّعاء : ﴿ أُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[١] .

وقالَ فى الاسْتِغفَار : ﴿ ومَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[٢] .

وقالَ فى الشُّكْرِ : ﴿ لئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[٣] .

وقالَ فى التَّوْبَةِ : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ على اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[٤] .

* * *

الشرح :

فى بعض الروايات أنّ ما نسب إلى الرّضى رحمه الله مِن استنباط هذه المعانى من الكتاب العزيز من متن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقد سبق القولُ فى كلّ واحدةٍ من هذه الأربع مُستقصى .

---

(١) سورة غافر ٦٠

(٢) سورة النساء ١١٠

(٣) سورة ابراهيم ٧

(٤) سورة النساء ١٧

الأصل :

الصَّلاةُ قُرْبانُ كُلِّ تقِيٍّ ، والحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، ولِكُلِّ شَىْءٍ زَكاةٌ ، وزَكاةُ البَدَنِ الصِّيَامُ ، وَجِهادُ المَرْأَةِ حسْنُ التَّبَعُّلِ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم القول فى الصّلاة والحجّ والصّيام ، فأمّا أنّ جهادَ المرأة حسنُ التبعُّل ، فمعناه حسنُ معاشرةِ بَعْلها وحِفظُ ماله وعرضه ؛ وإطاعته فيما يأمر به ، وترك الغيرة فإنها بابُ الطلاق .

* * *

[نبذ من الوصايا الحكيمة]

وأوصت امرأةٌ من نساء العرب بِنْتَها ليلةَ إهدائها[1] فقالت لها : لو تركتُ الوصيّة لأحدٍ لحُسْنِ أدبٍ وكَرَم حَسَب ، لتركتُها لكِ ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ، ومَؤُونةٌ للعاقل . إنك قد خَلّفْتِ العُشَّ الذى فيه دَرَجْتِ ، والوَكْر الذى منه خَرَجْتِ ، إلى منزلٍ لم تَعرِفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فكونى له أمَةً ، يكُن لكِ عَبْدا ، واحفَظِى عنّى خِصالا عشْرا :

---

(١) ليلة إهدائها ، أى ليلة زواجها ؛ يقال : هدى العروس إلى بعلها وأهداها هداء وإهداء .

أما الأولى والثانية، فحَسَنُ الصّحابة بالقناعة ، وجميلُ المعاشرة بالسّمع والطاعة ، ففى حُسْن الصَّحابة راحةُ القلب ، وفى جميل المُعاشَرة رِضا الرَّبّ .

والثالثة والرابعة ، التفقّد لمواقع عَيْنِه ، والتعهُّد لمواضع أنفِه ، فلا تقع عينه منكِ على قبيح ، ولا يَجِد أنفهُ منكِ خبيثَ ريح ، واعلَمى أنّ الكُحْل أحسَنُ الحسن المفقود ، وأن المـاءَ أطيبُ الطِّيب الموجود .

والخامسة والسادسةُ ، الحِفْظُ لمـالِه ، والإرْعاء على حشمه وعِياله ، واعلمى أنّ أصل الاحتفاظ بالمال حُسنُ التقدير ، وأصلَ الإرْعاء على الحَشم والعيال حُسن التّدبير .

والسابعة والثامنة، التّعهّد لوقت طَعامِه ، والهُدُوّ والسّكون عند مَنامِه ، فحرارةُ الجوع ملْهَبة ، وتَنْغيص النوم مَغْضبة .

والتاسعة والعاشرة : لا تُفْشِينَ له سِرّا ، ولا تَعْصِين له أمرا ، فإنك إن أفْشَيْتِ سِرّه لم تأمَنِي غَدْره ، وإن عصيتِ أمرَه أوغَرْتِ صَدْرَه .

***

وأوصت امرأةٌ ابنتها وقد أهدتْها إلى بَعْلها، فقالت : كونى له فِراشا ، يكن لكِ مَعاشا ، وكونى له وِطاء ، يكن لكِ غِطاء ، وإيّاكِ والاكتئاب إذا كان فَرِحا، والفَرَح إذا كان كئيبا ، ولا يَطّلِعَنّ منك على قبيح ، ولا يَشُمّنّ منكِ إلا طيّبَ ريح[1] .

***

وزَوج عامرُ بنُ الظَّرِب ابنته من ابن أخيه ، فلما أراد تَحْويلَها قال لأمّها : مُرِى ابنتك ألّا تنزل مفازَةً إلاّ ومعها ماء ، فإنّه لِلأعْلَى جِلاء ، وللأسْفَل نقاء ، ولا تُكثِرْ مُضاجَعَته ، فإذا ملّ البدنُ ملّ القلب ، ولا تمنعه شهوته ، فإن الحُظْوة فى المواقعة . فلم يلبث إلا شهرا حتى جاءته مشجوجة ، فقال لابن أخيه : يا بُنَيّ ارفعْ عصاكَ عن بَكْرَتك،

---

(١) د : « ريحاً طيباً » .

فإن كان من غير أن تنفر بك فهو الدّاء الذى ليس له دواء ؛ وإن لم يكن بينكما وفاق ففِراق ، الخلْع أحسن مِنَ الطّلاق ، وأن تترك أهلك ومالك .

فردّ عليه صداقَها ، وخلَعهامنه ، فهو أول خُلْعٍ كان فى العرب [(١)] .

***

وأوصَى الفرافِصة الكلبىّ ابنته نائلة حين أهدَاها إلى عثمانَ ، فقال : يا بُنيَّة ، إنّك تقدمين على نساء من نساء قريش هنّ أقدَرُ على الطِّيب منكِ ، ولا تُغلَبين على خصْلَتين : الكُحْل والماء . تطهَّرى حتى يكون ريح جِلْدِك ريح شَنٍّ أصابه مطر ، وإيّاك والغَيْرة على بَعْلِك ، فإنّها مفتاح الطلاق .

***

ورَوَى أبو عمرو بنُ العلاء قال : أنكح ضرارُ بنُ عمْرو الضبىّ ابنته من مَعبد بن زُرارة ، فلما أخرَجَها إليه قال : يا بُنَيّة ، أمسكى عليك الفَضْلين : فضل الغُلْمة ، وفضلَ الكلام .

قال أبوعمرو : وضِرار هذا هو الذى رَفع عَقِيرته بعُكاظَ ، وقال : ألا إنّ شرَّ حائلٍ [(٢)] أمّ ، فزوِّجوا الأمّهات ؛ قال : وذلك أنه صُرِع بين الرماح ، فأشبل عليه إخوته لأمّه حتى استنقذوه .

***

وأوصت أعرابيةٌ ابنتها عندَ إهدائها ، فقالت لها : اقلعى زُجّ رُمحِه ، فإن أقرّ فاقلَعى سِنانه ، فإن أقرّ فاكسرِى العظام بسيفه ، فإن أقرّ فاقطعى اللحم على ترْسه ، فإن أقرّ فضعى الإكاف على ظَهْره ، فإنما هو حمار .

وهذا هو قُبْح التبعُّل ، وذكرناه نحن فى باب حُسْنِ التبعّل ، لأنّ الضّد يُذكر بضدّه .

---

(١) يقال : خلع الرجل امرأته وخالعها إذا افتدت منه بمال فطلقها وأبانها من نفسه .

(٢) الحائل : التى لا تحمل .

(١٣٣)

الأصل :

اُسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ .

* * *

الشرح :

جاء فى الحديث المرفوع ـ وقيل : إنّه موقوفٌ على عثمان: « تاجروا الله بالصَّدَقة تربَحُوا » .

وكان يقال : الصَّدَقَةُ صداقُ الجنّة .

وفى الحديث المرفوع: « ما أحسن عبدٌ الصّدَقة ، إلّا أحسنَ الله الخلافة على مُخَلَّفيه» .

وعنه صلى الله عليه وآله :« ما مِن مسلمٍ يكْسو مسلماً ثوباً إلّا كان فى حفظِ الله ما دام منه رُقْعة » .

وقال عمر بن عبد العزيز : الصّلاة تبلِّغك نصفَ الطّريق ، والصَّوم يبلّغك باب المَلِك ، والصّدقة تُدخِلك عليه .

(١٣٤)

الأصلُ :

ومَنْ أيقَنَ بالْخَلَفِ جَادَ بالْعَطيّةِ .

* * *

الشرحُ :

هذا حقّ ، لأنّ من لم يُوقِن بالْخَلَف ويتخوّف الفقرَ يَضِنّ بالعطيّة ، ويَعلَم أنه إذا أعطَى ثمّ أعطَى اُسْتنفَدَ مالَه ، واُحتاج إلى الناس لانقطاع مادّته ؛ وأمّا من يُوقِن بالْخَلَف ، فإنّه يَعلَم أنّ الجود شَرَفٌ لصاحِبه ، وأن الجواد ممدوحٌ عند الناس ، فقد وَجَد الداعى إلى السّماح — ولا صارفَ له عنه — لأنّه يعلَم أنّ مادّته دائمةٌ غيرُ منقطعة ، فالصارف الّذى يَخافه من قدّمنا ذكرَه مفقودٌ فى حقّه ، فلا جَرَم أنّه يجود بالعطيّة !

الأصْلُ :

تَنْزِلُ المَعُونةُ على قَدْرِ المَؤُونَةِ .

***

الشَّرْحُ :

جاء فى الحديث المرفوع : « مَن وَسَّع وُسِّع عليه ، وكلَّما كثُر العيال كثُر الرزق » .

وكان على بعض المُوسِرين رسومٌ لجماعة من الفُقراء يَدفَعُها إليهم كلَّ سنة ، فاستكثرها ، فأمَرَ كاتبَه بقَطْعها ، فرأى فى المنام كأنّ له أهواء كثيرة فى دارِه ، وكأنّها تصعِّدها أقوامٌ من الأرض إلى السّماء ، وهو يَجزَع من ذلك ، فيقول : يا ربِّ رِزقى رِزْقى ! فقيل له : إنما رزَقْناك هذه لتَصرِفها فيما كنتَ تَصرِفها فيه ، فإذ قَطعتَ ذلك رفعناها منك ، وجعلناها لغيرك . فلمّا أصبح أمَرَ كاتبَه بإعادة تلك الرّسوم أجمَع .

الأصل :

ما عَالَ أمْرُؤٌ أقْتَصَدَ .

***

الشرح :

ما عال ، أى ما أُفتَقَر ، وقد تقدّم لنا قولٌ مُقنع فى مدح الاقتصاد .

وقال أبو العَلاء :

وإن كنتَ تَهوَى العيشَ فابْغِ تَوسُّطاً ... فعنــد التَّناهى يَقصُر المُتطاوِلُ[1]

تُوَقَّى البُدورُ النقصَ وهْى أهِـلّةٌ ... ويُدرِكها النّقصان وهىَ كَواملُ

وهذا الشعرُ وإن كان فى الاقتصاد فى المراتب والوِلايات ، إلّا أنّه مدحٌ للاقتصاد فى الجملة ، فهو مَن هذا الباب .

وسَمِع بعضُ الفُضلاء قَولَ الحكماء : التدبيرُ نصفُ العَيش ، فقال : بل العيشُ كلُّه .

---

(١) سقط الزند ٥٢٢

(١٣٧)

الأصل :

قِلَّةُ الْعِيال أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ .

* * *

الشرح :

اليسار الثانى كثرة المال ؛ يقول : إن قِلّة العيال مع الفَقْر كاليسار الحقيقىّ مع كثرتهم .

ومن أمثال الحكماء : العيالُ أرَضَة المال .

(١٣٨)

الأصلُ :

التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ .

* * *

الشرحُ :

دخل حبيب بنُ شَوْذَب على جعفر بن سليمانَ بالبَصْرة ، فقال : نعم المرء حَبِيب بن شَوْذَب ! حَسَن التودّد ، وطيب الثناء ، يكرَه الزيارة المتصلة ، والقِعدةَ المنسِيَة .

وكان يقال : التودّد ظاهرٌ حَسَن ، والمعامَلة بين الناس على الظاهر ، فأمّا البواطن فإلى عالِم الخفيّات .

وكان يقال : قلَّ مَن تودَّد إلّا صار محبوباً ، والمحبوب مستورُ العيوب .

الأصل :

والْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ .

* * *

الشرح :

مِن كلام بعضِ الحكماء : الهمّ يُشِيب القلب ، و يُعقم العقل ، فلا يتولّد معه رأى ، ولا تَصدُق معه رَويّة .

وقال الشاعر :

همومٌ قد أَبَتْ إلاّ التباسا　　تَبُتّ الشيبَ فى رأسِ الوَليدِ
وتُقعد قائمـا بَشجا حَشاهُ　　وتُطلق للقيام حُباَ القُعودِ
وأضحتْ خُشّعا منها نِزارٌ　　مركّبة الرواجِب فى الخدُودِ

وقال سُفيان بنُ عيينة :الدنيا كلّها هموم ، وغموم ، فما كان منها سرور فهو رِبح .

ومن أمثالهم : الهمّ كافورُ الغُلْمة .

وقال أبو تمّام :

شاب رأسِى وما رأيتُ مَشيبَ الرّأْس إلّا مِن فضلِ شيبِ الفُؤادِ[1]
وكذاك القلوبُ فى كلّ بؤس　　ونعيم طلائـــع الأجسادِ
طالَ إنكارِىَ البياضَ ولو عُمِّرْ　　تُ شيئاً أنكرتُ لونَ السَّوادِ[2]

---

(١) ديوانه ١ : ٣٦٠　　(٢) الديوان : « وإن عمرت »

الأَصْلُ :

يَنْزِلُ الصَّبْرُ على قَدْرِ المُصِيبةِ ، ومَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى فَخِـذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ أَجْرُهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد مضى لنا كلامٌ شافٍ فى الصبر ؛ وكان الحسنُ يقول فى قصصه : الحمد لله الذى كلَّفنا ما لو كلَّفنا غـيرَه لَصِرنا فيه إلى معصيته ، وآجرَنا على ما لا بدّ لنا منه ؛ يقول : كلَّفنا الصبر ، ولو كلَّفنا الجزَع لم يمكنّا أن نقيم عليـــه ، وآجرَنا على الصبر ولا بدّ لنا من الرجوع إليه .

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، كان يقول عند التعزية : عليكم بالصّبر ، فإنّ به يأخذ الحازمُ ، ويعود إليه الجازع .

وقال أبو خِراش الهُذَلِىّ يذكر أخاه عُروة :

تقول أَراهُ بعـدَ عُروة لاهِياً وذلك رُزْءٌ لو علمتِ جليلُ[(١)]

فلا تَحسَبِى أنِّى تناسيتُ عهدَه ولـكنّ صبرى يا أُمَيم جميـلُ

وقال عمرو بن مَعدِ يـكرِب :

كم مِنْ أخٍ لىَ صالحٍ بوّأْتُه بِيدَىَّ لَحـــدَا[(٢)]

---

(١) ديوان الهذليين ٢ : ١١٦

(٢) ديوان الحماسة ١ : ١٧٤ ، ١٧٥ - بشرح التبريزى .

أَلبَسْــــــتُه أكفانَهُ وخُلِقْت يومَ خُلِقتُ جَلْدَا

وكان يقال : من حدّث نفسه بالبقاء ، ولم يُوَطّنها على المصائب ، فهو عاجزُ الرأى .

وكان يقال : كفى باليَأس مُعزِّيا ، وبانقطاع الطمع زاجرا !

وقال الشاعر :

أياعمْرُو لَمْ أصبر ولى فيكَ حِيــلةٌ ولــكن دَعانى اليأسُ منكَ إلى الصّبر
تصبّرتُ مغلوبا وإنِّى لموُجَــعٌ كما صَـــبر القُطّانُ فى البَلَدَ القفْرِ

(١٤١)

الأصل :

كَمْ مِنْ صائمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيامِهِ إلاّ الجوعُ والظَّمَأُ ، وكَمْ مِنْ قائمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيامِهِ إلاّ السَّهَرُ والعَناء . حَبَّذَا نَوْمُ الأكياسِ و إفطارُهُمْ !

***

الشرح :

الأكياس ها هنا العلماء العارفون ؛ وذلك لأنّ عباداتِهم تقــع مطابِقةً لعقائدهم الصحيَّة ، فتــكون فروعا راجعةً إلى أصلٍ ثابت ، وليس كذلك الجاهلون بالله تعالى ، لأنهم إذا لم يعرفوه ولم تــكن عباداتهم متوجِّهةً إليه فلم تــكن مقبولةً ، ولذلك فَسَدَتْ عِبادة النصارى واليهود .

وفيهم وردَ قوله تعالى : ﴿ عامِلةٌ ناصِبَةٌ * تَصلى ناراً حامِيَةً ﴾[1] .

---

(١) سورة الغاشية ٣ ، ٤

(١٤٢)

الأصلُ :

سُوسُوا إيمانَكُمْ بالصَّدَقَةِ ، وحَصِّنُوا أمْوَالَكُمْ بالزَّكاةِ ، وادْفَعُوا أمْوَاجَ الْبَلاءِ بالدُّعاءِ .

* * *

الشرحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى الصّدقة والزّكاة والدّعاء ، فلا معنَى لإعادةِ القولِ فى ذلك .

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لكميل بن زياد النخعي :

قال كُميل بنُ زياد : أخذ بيدِى أميرُ المؤمنين علىُّ بنُ أبى طالبٍ عليه السلام فأخرجَنى إلى الجبّانِ ، فلمّا أصحرَ تنفّس الصُّعَداءَ ، ثمّ قالَ :

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ ؛ إنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا ، فاحْفَظْ عَنِّى مَا أَقُولُ لكَ .

النَّاسُ ثَلاَثَةٌ : فَعَالِمٌ رَبَّانِىٌّ ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجاةٍ ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أتباعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ .

يَا كُمَيْلُ ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ؛ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ . وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ ، وَالْعِلْمِ يَزْكُو عَلَى الإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ المَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ .

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ ، بِهِ يَكْسِبُ الإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِى حَيَاتِهِ ، وَجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ . وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ .

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ ؛ هَلَكَ خُزَّانُ الأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِىَ الدَّهْرُ ؛ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِى الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ . هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً ـ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ـ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً ! بَلَى أُصِيبُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا ، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ،

أَوْ مُنْقاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ ، لا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ ؛ يَنقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ . أَلَا لَاذَا وَلَا ذَاكَ ، أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ ، سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَالادِّخَارِ ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ .

اللَّهُمَّ بَلَى ؛ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً ، وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً ، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ .

وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ ! أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقَلُّونَ عَدَداً ، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً ، يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ . هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رَوْحَ الْيَقِينِ ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى ؛ أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ ، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ ، آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ !

انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ .

***

الشَّرْحُ :

الجبّان والجبّانة : الصّحراء .

وتَنَفَّسَ الصُّعَداء ، أى تنفّس تنفُّسا ممدودا طويلا .

قوله عليه السلام : « ثلاثة » قِسمةٌ صحيحة ، وذلك لأنّ البشر باعتبار الأمور الإلهيّة : إمّا عالِم على الحقيقة يعرِف اللهَ تعالى ، و إمّا شارع فى ذلك فهو بعد فى السّفر إلى الله يَطلُبه بالتعلّم والاستفادة من العالم ، و إمّا لاذا ولا ذاك ؛ وهو العامّىّ الساقط الّذى

لا يَعبأ اللهُ به . وصَدَق عليه السلام فى أنّهم هَمَج رَعاع أتباعُ كلِّ ناعق ، ألا تراهم ينتقلون من التقليد لشخصٍ إلى تقليدِ الآخَر ، لأدنى خَيال وأضعفِ وَهْم !

ثمّ شرع عليه السلام فى ذِكر العلْم وتفضيلِه على المال ، فقال : « العلم يَحرُسك ، وأنت تَحرُس المال » ، وهذا أحدُ وجوه التّفضيل .

ثمّ ابتدأ فذَكر وجها ثانيا ؛ فقال : المالُ يَنقُص بالإنفاق منه ، والعلم لا ينقُص بالإنفاق بل يزْكو ؛ وذلك لأنّ إفاضةَ العلم على التلامذة تفيد المُعلّمَ زيادةَ استعداد ، وتُقرّر فى نفسه تلك العلوم الّتى أفاضها على تلامذته ، وتثبّتها وتزيدها رسوخا .

فأمّا قوله : « وصَنيعُ المال يزولُ بزواله » ، فتحته سرّ دقيق حكَمىّ ، وذلك لأنّ المال إنّما يَظهر أثرُه ونفعُه فى الأمور الجِسْمانية ، والملاذّ الشّهوانيّة ، كالنّساء والخيل والأبنية والمآكل والمَشرَب والمَلابس ونحو ذلك ؛ وهذه الآثار كلُّها تزول بزوال المال أو بزوال ربِّ المال ؛ ألا تَرَى أنّه إذا زال المالُ اضطُرّ صاحبُه إلى بَيْع الأبنية والخيل والإماء ، ورَفَض تلك العادة من المآكل الشهيّة ، والملابس البهيّة ! وكذلك إذا زال ربُّ المالِ بالمَوْت ، فإنّه تزول آثارُ المالِ عنده : فإنّه لا يَبقَى بعد الموت آكِلاً شاربا لابساً ، وأما آثار العِلم فلا يمكن أن تزولَ أبدا والإنسان فى الدّنيا ، ولا بعدَ خروجه عن الدّنيا ؛ أمّا فى الدنيا فلأنّ العالِمَ بالله تعالى لا يَعودُ جاهلا به ، لأنّ انتفاء العلوم البديهيّة عن الذّهن وما يَلزَمها من اللّوازم بعدَ حصولها مُحال ، فإذاً قد صَدَق قولُه عليه السلام فى الفَرْق بين المال والعِلم : « إنّ صنيع المال يزولُ بزواله » ، أى وصنيع العلم لا يزول ، ولا يحتاج إلى أن يقول « بزواله » لأنّ تقديرَ الكلام : وصنيع المال يزول ، لأنّ المالَ يزول ؛ وأمّا بعد خروج الإنسانِ من الدّنيا فإنّ صنيعَ العِلْم لا يزول ، وذلك لأنّ صنيعَ العِلم فى النّفس الناطقة للذّة العقليّة الدائمة لدوام سببها ، وهو حصولُ العِلم فى جَوْهر النفس الّذى هو مَعشُوق

النّفس مع انتفاء مايُشغِلها عن التمتّع به ، والتلذُّذ بمصاحبته ؛ والّذى كان يشغلها عنه فى الدّنيا استغراقُها فى تدبير البدن ، وما تُورِدُه عليها الحواسّ من الأمور الخارجيّة ، ولا ريبَ أنّ العاشق إذا خلا بمعشوقِه ، وانتفَتْ عنه أسبابُ الكَدَر ، كان فى لذّة عظيمة ، فهذا هو سرُّ قولِه : « وصنيع المال يزولُ بزواله » .

فإن قلت : مامعنى قولِه عليه السلام : «معرفةُ العِلْمِ دِينٌ يُدانُ به» ، وهل هذا إلّا بمنزلة قولك : معرفةُ المَعرِفة أو عِلمِ العِلم ! وهذا كلامٌ مضطرِب .

قلت : تقديرُه : معرفةَ فَضْلِ العلم أو شَرفِ العلم ، أو وُجوب العلم دِينٌ يُدانُ به ، أى المعرفة بذلك من أمرِ الدّين ، أى رُكنٌ من أركان الدّين واجبٌ مفروض .

ثمّ شَرَح عليه السلام حالَ العِلم الّذى ذكر أنّ معرفةَ وجُوبه أو شرفه دِينٌ يُدانُ به ، فقال : « العلم يَكسِب الإنسانَ الطّاعة فى حَياته » ، أى مَن كان عالما كان لله تعالى مُطيعا ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾ [1] .

ثم قال : « وجميل الأحدوثة بعدَ وفاتِه » ، أى الذّكر الجميل بعد موْته .

ثم شرع فى تفضيل العِلم على المال من وجهٍ آخَر ، فقال : « العلمُ حاكِم ، والمال محكومٌ عليه » ، وذلك لعِلْمك أنّ مَصلحتَك فى إنفاق هذا المال تُنفِقُه ، ولِعلمك بأنّ المصلحة فى إمساكه تمسِكه ، فالعِلم بالمصلحة داعٍ ، وبالمَضَرّة صارف ؛ وهما الأمْران الحاكمان بالحرَكات والتصرّفات إقْداما وإحْجاما ، ولا يكون القادر قادرا مختارا إلّا باعتبارهما ؛ وليسا إلّا عبارةً عن العِلم أو مايجرى مَجرَى العِلم من الاعتقاد والظّنّ ، فإذَنْ قد بان وظهرَ أنّ العلم من حيثُ هُوَ علمٌ حاكم ، وأنّ المال ليس بحاكم ، بل محكوم عليه .

---

(١) سورة فاطر ٢٨

ثم قال عليه السلام : «هَلك خُزّان المال وهم أحياء» ، وذلك لأنّ المالَ المخزون لا فرقَ بينه و بين الصّخرة المدفونة تحتَ الأرض ، فخازنه هالك لا مَحالَة ، لأنّه لم يلتذّ بإنفاقه؛ ولم يَصرِفْه فى الوجوه الّتى نَدَبَ اللهُ تعالى إليها ؛ وهذا هو الهلاكُ المَعْنَوىّ ، وهو أعظمُ من الهلال الحِسّىّ .

ثم قال : «والعلماء باقون ما بقىَ الدهر» ؛ هذا الكلامُ له ظاهر و باطن، فظاهرُه قولُه: «أعيانُهم مفقودة ، وأمثالُهم فى القلوب موجودة » ، أى آثارُهم وما دَوّنوه من العُلوم ، فكأنّهم موجودون ، و باطنه أنّهم موجودون حقيقةً لا مَجازا ، على قولِ مَن قال ببقاء الأنْفس ، وأمثالهم فى القلوب كنايةٌ ولُغز ، ومعناه ذواتُهم فى حظيرة القُدّوس ؛ والمُشارَكة بينها و بين القلوب ظاهرة ، لأنّ الأمر العامَّ الّذى يَشمَلُهما هو الشّرف ، فكما أنّ تلك أشرَفُ عالَمِها ، كذا القلبُ أشرَفُ عالمه ، فاستُعير لفظُ أحدِهما وعُبِّر به عن الآخَر .

قولِه عليه السلام : « ها إنّ هاهنا لَعِلْما جَمّا ، وأشار بيدِه إلى صدره » ، هذا عندى إشارةٌ إلى العِرْفان والوُصول إلى المقام الأشرَف الّذى لا يصل إليه إلّا الواحد الفَذّ من العالَم ممّن لله تعالى فيه سرّ ، وله به اتّصال .

ثم قال : « لو أصبت له حَمَلَةً ! » ، ومن الّذى يُطيق حَمْله ! بل مَن الذى يُطيق فهمَه فضلا عن حَملِه !

ثم قال : « بلى أصيب » .

ثمّ قسّم الذى يصيبهم خمسةَ أقسام :

أحدُهم : أهلُ الرّياء والسُّمعة؛ الذين يُظهِرون الدّين والعلم ومقصودُهم الدّنيا ، فيَجعَلون النّاموس الدّينى شَبَكةً لاقتناص الدّنيا .

وثانيها : قومٌ من أهل الخير والصّلاح ليسوا بذَوِى بَصيرة فى الأمور الإلهيّة الغامضة ،

فيخاف من إفشاء السرّ إليهم أن تَنقدِح فى قلوبهم شُبْهة بأدنَى خاطر ؛ فإنّ مَقَام المعرفة مَقَامٌ خَطِر صَعْب لا يَثبُت تحتَه إلّا الأفرادُ من الرّجال ، الذين أُيِّدوا بالتّوفيق والعصمة .

وثالثهـا : رجلٌ صاحبُ لَذَّات وَطَرب مشتهِرٍ بقضاء الشّهوة ، فليس من رجالِ هذا الباب .

ورابعُها : رجلٌ بجَمْع المال وادّخارِه ، لا يُنفِقه فى شَهَواته ولا فى غيرِ شَهَواته ، فحكمُه حكمُ القِسْم الثالث .

ثمّ قال عليه السلام: « كذلك يَمُوت العلمُ بموت حامِليه » ،أى إذا مِتُّ ماتَ العلمُ الذى فى صدرى ، لأنى لم أجد أحداً أدفعُه إليه ، وأُورِّثُه إيّاه . ثم أستَدرك فقال : « اللّهمّ بلى ، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ بحجّة الله تعالى » كَيْلا يخلوَ الزمان ممّن هو مهيمِنٌ لله تعالى على عبادِه ، ومسيطِرٌ عليهم ؛ وهذا يكاد يكونُ تصريحا بمَذهب الإماميّة ، إلّا أنّ أصحابَنا يحملونه على أنّ المراد به الأبْدال الذين وردتْ الأخبارُ النبويّةُ عنهم أنّهم فى الأرض سائحون ، فمنهم من يُعرَف ، ومنهم من لا يُعرَف ، وإنهم لا يموتون حتّى يودِعُوا السرّ ، وهو العِرْفان عند قومٍ آخَرِين يقومون مَقامَهم .

ثمّ استنزَرَ عَددَهم فقال : « وكم ذا ! » أى كم ذا القَبِيل ! وكم ذا الفريق !

ثم قال : « وأين أولئك ! » استَبهَم مكانَهم ومحلَّهم .

ثم قال : « هم الأقلّون عَددا ، الأعْظمون قَدْرا » .

ثمّ ذكر أنّ العِلم هجم بهم على حقيقة الأمر ، وانكَشَف لهم المستور المغطَّى ، وباشَروا راحَة اليقين وبَرْدَ القَلْب وثَلَج العلم ، واستَلانوا ماشَقّ على المترَفين من النّاس ، ووعر عليهم نحو التوحّد ورفض الشّهوات وخُشونة العيشة .

قال : « وأَنِسوا بما اُستَوحَش منه الجاهلون » ، يعنى العُزْلةَ ومجانَبةَ الناس ، وطول الصّمت ، وملازَمة الخَلْوة ؛ ونحوَ ذلك ممّا هو شِعار القوم .

قال : «وصَحِبوا الدّنيا بأرواحٍ أبدانُهامعلَّقةٌ بالمَحَلّ الأعلى» ، هذا ممّا يقوله أصحابُ الحِكمة مِن تعلّق النفوس المجرّدة بمبادئها من العقول المفارقة ، فمن كان أزكى كان تعلُّقُه بها أَتَمّ .

ثم قال : « أولئك خُلفاء الله فى أرضِه ، والدعاةُ إلى دينه » ، لا شُبهةَ أنّ بالوصول يستحقّ الإنسان أن يسمّى خليفة الله فى أرضِه ، وهو المعنى بقوله سبحانه للملائكة ﴿ أنّى جاعلٌ فى الأرض خليفة ﴾[1] ، وبقوله : ﴿ هُوَ الذى جَعَلكُمْ خَلائِفَ فى الأرْض ﴾[2] .

ثم قال : « آهِ آهِ شوقاً إلى رؤيتهم ؟ » ، هو عليه السلام أحقّ الناس بأنَ تشتاق إلى رؤيتهم ، لأنّ الجنسية عِلّة الضمّ ، والشىء يشتاق إلى ما هو من سِنْخِه وسُوسَتِه وطبيعته ، ولما كان هو عليه السلام شيخ العارفين وسيّدَهم ، لا جَرَم . اشتاقت نفسه الشريفةُ إلى مُشاهدةِ أبناء جنسِه ، وإن كان كلٌّ واحد من الناس دونَ طبقته .

ثم قال لِكميل : « انصرف إذا شئت » ، وهذه الكلمة من محاسِن الآداب ، ومن لطائف الكلم ، لأنه لم يقتصر على أن قال : «انصرف» كيلا يكونَ أمرا وحُكما بالانصراف لا محالة ، فيكون فيه نوعُ عُلوٍ عليه ، فاتْبَع ذلك بقوله : « إذا شئتَ » ليُخرجه من ذلّ الحكم وقَهْر الأمر إلى عِزّة المشيئة والاختيار .

---

(١) سورة البقرة ٣٠ (٢) سورة الأنعام ١٦٥

الأصلُ :

المَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسانِه .

* * *

الشرح :

قد تكرّر هذا المعنى مرارا ، فأما هذه اللفظة فلا نظير لها فى الإيجاز والدّلالة على لمعنى ، وهى من ألفاظِه عليه السلام المعدودة .

وقال الشاعر :

وكائنْ تَرَى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتُه أو نقْصُه فى التكلّمِ [(١)]
لسانُ الفَتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يَبْقَ إلّا صورةُ اللحمِ والدّم

وتكلم عبدُ الملك بنُ عُمَيْر وأعرابىٌّ حاضر ، فقيل له : كيف تَرَى هذا ؟ فقال : لو كان كلامٌ يؤتَدَم به لكان هذا الكلامُ مما يؤتَدم به .

وتكلم جماعةٌ من الخطباء عند مَسلَمة بن عبد الملك فأسْهَبوا فى القول ، ولم يَصنعوا شيئاً ، ثمّ أفرغ النطق رجل من أخرياتهم ، فجعل لا يخرُج من فَنّ إلّا إلى أحسنَ منه ، فقال مَسلَمة : ما شبّهت كلامَ هذا بعقب كلام هؤلاء [(٢)] إلّا بسحابةٍ لبدتْ عجاجةً .

وسمع رجلٌ منشدا ينشد :

وكان أخلّائى يقولون مَرْحَباً فلمّا رأوْنى مُقْتِرا مات مَرْحَبُ

---

(١) ينسبان لزهير ، من معلقته ٩٤ بشرح الزوزنىّ (٢) بعدها فى د : « أصحابه » .

فقال : أخطأ الشاعر ، إنّ مرحبا لم يَمُت ، و إنما قتله عليٌّ بنُ أبي طالب عليه السلام !

وقال رجل لأعرابيّ : كيف أهلك ؟ قال : صلبا إن شاء الله .

وكان مَسلَمَة بن عبد الملك يعرض الجند ؛ فقال لرجل ما اسمك ؟ فقال : « عبدِ » الله ، وخَفض ، فقال : ابنُ من ؟ فقال : ابن « عبدَ » الله ، وفتح ، فأمر بضَرْبه ، فجعل يقول : « سبحانُ » الله ، و يَضُمّ ، فقال مَسلَمَة : ويحكم ! دعوه فإنه مجبولٌ على اللحْن والخطأ ، لو كان تاركا للحن فى وقتٍ لتركه وهو تحت السِّياط .

الأصل :

هَلَكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَه .

***

الشرح :

هذه الكلمة من كلماته المعدودة . وكتب النعمان بن عبد الله إلى القاسم بن عبيد الله كتابا يُدِلّ فيه بخِدْمته ، ويستزيد فى رِزْقه ، فوقّع على ظهره : رحِمَ الله امرأً عَرَفَ قدرَه! أنتَ رجلٌ قد أعجبتْك نفسُك فلستَ تعرِفها، فإن أحببتَ أن أعرِّفَكها عرّفتُك . فكتب إليه النعمان : كنتُ كتبتُ إلى الوزير أعزّه الله كتابا أستزِيده فى رِزْقى ، فوقّع على ظهره توقيعَ ضَجِرٍ لم يَخرج فيه مع ضَجَره عمّا ألِفْتُه من حِياطته وحُسنِ نظره فقال : إنَّه قد حدَثَ لعَبْده عُجْب بنفسِه ، وقد صدق - أعلى الله قدرَه - لقد شرّفنى الوزيرُ بخِدْمته، وأعلى ذكرى بجميل ذِكرِه، ونبّه على كفايتى باستكفائه ، ورَفَعنى وكثّرنى[1] عندَ نفسى ، فإن أعجبْتُ فبنعمتِه عندى ، وجميل تطوّله علىّ ، ولا عَجَب ، وهل خلا الوزيرُ من قوم يَصطَنِعهم بعدَ مَلّة ، ويرفَعهم بعد خُمول ، ويُحدِث لهم هِمَما رفيعة وأنفسا عليّة ، وفيهم شاكر وكفور ، وأرجو أن أكون أشكَرَهم للنّعمة ، وأقوَمَهم بحقّها . وقال أطال الله بقاءه : إن عَرفَ نفسَه وإلّا عرّفناه إيّاها ، فما أنكَرَها ، هى نفس أنشأتْها نعمةُ الوزير ، وأحدثَتْ فيها مالَم تزل تُحدثه فى نُظَرائها من سائر عبيدِه وخدَمِه ؛ والله يَعلَم ما يأخذ به نفسَه من خدمةِ مولاه وولىِّ نعمتِه ، إمّا عادةً ودُرْبة وإما تأدّبا وهَيْبة ، وإمّا شكراً واستدامةً للنعمة .

فلمّا قرأ القاسمُ بنُ عبيد الله كتابَه استحسَنَه ، وزاد فى رِزْقه .

---

(١) ب : « كبرنى » .

الأصل :

وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه :

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو ٱلآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ، وَيَرْجُو التَّوْبَةَ بِطُولِ ٱلْأَمَلِ ؛ يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ ٱلزَّاهِدِينَ ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ ، يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِمَا لَمْ يَأْتِ .

يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ ، وَيَبْغَضُ ٱلْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ ، يَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ مِنْ أَجْلِهِ ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِماً ، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِياً . يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ ، وَيَقْنَطُ إِذَا ٱبْتُلِيَ ؛ وَإِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرًّا ، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرًّا ، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ ، وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنَى مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ . إِنِ ٱسْتَغْنَى بَطِرَ وَفُتِنَ ، وَإِنِ ٱفْتَقَرَ قَنِطَ وَوَهَنَ ، يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ ؛ إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ ٱلْمَعْصِيَةَ ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ ، وَإِنْ عَرَتْهُ مِحْنَةٌ ٱنْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ ٱلْمِلَّةِ .

يَصِفُ ٱلْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ ، وَيُبَالِغُ فِي ٱلْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَّعِظُ ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ وَمِنَ ٱلْعَمَلِ مُقِلٌّ .

يُنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى ، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى . يَرَى ٱلْغُنْمَ مَغْرَماً ، وَٱلْغُرْمَ مَغْنَماً ، يَخْشَى ٱلْمَوْتَ ، وَلَا يُبَادِرُ ٱلْفَوْتَ ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ

مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ ما يُحَقِّرُهُ مِنْ طاعَةِ غَيْرِهِ ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ .

اللَّغْوُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ ، يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ ، يُرْشِدُ نَفْسَهُ وَيُغْوِي غَيْرَهُ [1] ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصِي ، وَيَسْتَوْفِي وَلَا يُوفِي ، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ ، وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ .

* * *

قال الرَّضيّ رحمه الله تعالى :

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا هَذَا الْكَلَامُ لَكَفَى بِهِ مَوْعِظَةً نَاجِعَةً ، وَحِكْمَةً بَالِغَةً ، وَبَصِيرَةً لِمُبْصِرٍ ، وَعِبْرَةً لِنَاظِرٍ مُفَكِّرٍ .

* * *

الشَّرْح :

كثير من الناس يَرْجون الآخرَة بغير عَمَل ، ويقولون : رحمة الله واسعة ؛ ومنهم من يَظُن أنّ التلفّظ بكلمتَي الشهادة كافٍ فى دُخول الجنّة ، ومنهم من يسوِّف نفسَه بالتوبة ، ويرجِئ الأوقات من اليوم إلى غد ، وقد يُخْتَرَم على غِرّة فيفوتُه ما كان أمّله ، وأكثرُ هذا الفصل للنّهى عن أن يقول الإنسان واعظا لغيره مالم يعلمْهو منْ نفسِه ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [2] .

فأوّل كلمةٍ قالَها عليه السلام فى هذا المعنى من هذا الفصل قولُه : « يقول فى الدّنيا بقول الزّاهدين ، ويَعمَل فيها بعمل الراغبين » .

---

(١) د « يرشد غيره ويغوى نفسه » .

(٢) سورة البقرة ٤٤

ثم وَصَف صاحبَ هذا المذهب وهذه الطريقة فقال : « إنّه إنْ أُعطِيَ من الدّنيا لم يَشبَع » ،لأنّ الطبيعة البشرية مجبولةٌ على حُبّ الازدياد ،وإنما يَقهرها أهلُ التوفيق وأربابُ العَزْم القوىّ .

قال : « وإن مُنِـع منها لم يَقنَع » بما كان وَصَل إليه قبل المَنْع .

ثم قال : يَعجَز عن شكرِ ما كان أنعَمَ به عليه ، ليس يعنى العجزَ الحقيقىَّ ، بل المراد تَرْك الشّكر ، فسمّى ترك الشكر عجزاً . ويجوز أن يُحمَل على حقيقته ، أى أنّ الشكر على ما أُولِى من النّعم لا تَنتهى قُدْرَته إليه ، أى نِعَم الله عليه أجلّ وأعظَم من أن يُقام بواجب شكرها .

قال : « ويَبتغِى الزيادةَ فيما بَقِى » ، هذا راجعٌ إلى النّحو الأوّل .

قال : « يَنهَى ولا يَنتهِى ويأمرُ الناسَ بما لا يأتى » ، هذا كما تقدَّم .

قال : « يُحِبّ الصالحين ولا يعمَل عملَهم » ، إلى قوله : « وهو أحدُهم » ، وهو المعنَى الأوّل بعينه .

قال : يَكرَه الموتَ لكثرةِ ذنوبه ، ويقيمُ على الذّنوب ، وهذا من العجائب أن يَكرَه إنسانٌ شيئاً ثم يُقيمُ عليه ، ولكنّه الغرورُ وتسويفُ النّفس بالأمانىّ .

ثم قال : « إن سَقِمَ ظَلّ نادما ، وإن صَحّ أَمِن لاهيا » ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[1] ... الآيات .

قال : « يُعجَب بنفسه إذا عُوفِى ، ويَقنَط إذا ابُتلِى » ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾[2] ، ومثل الكلمة الأخرى : « إن أصابَه بَلاء » ، و « إنْ ناله رَخاء » .

ثم قال : « تغلبه نفسُه على ما يَظُن ، ولا يغلبها على ما يَستيقِن » ، هذه كلمة جليلةٌ عظيمة

---

(١) سورة العنكبوت ٦٥ (٢) سورة الفجر ١٥ ، ١٦

يقول : هو يستيقِن الحسابَ والثوابَ والعِقابَ ، ولا يغلِب نفسَه على مجانبةِ ومتاركةِ ما يُفضِى به إلى ذلك الخطَرِ العظيم ، وتغلبُه نفسه على السّعى إلى ما يَظنّ أن فيه لَذّةً عاجلة ؛ فواعجبا ممّن يترجّح عندَه جانبُ الظنّ على جانب العلم ! وما ذاك إلّا لضعف يقينِ الناس وحبّ العاجل.

ثمّ قال : « يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ، ويرجو لنفسِه أكثرَ من عَمَله » ، مايزال يرَى الواحد منّا كذلك يقول : إنّى لخائف على فلان من الذّنب الفلانىّ وهو مقيمٌ على أفحشَ من ذلك الذنب ، ويرجو لنفسِه النّجاة بما لا تقوم أعمالُه الصّالحة بالمصير إلى النّجاة به ، نحو أن يكون يصلّى ركَعاتٍ فى اللّيل أو يصومَ أياما يسيرةً فى الشّهر ، ونحو ذلك .

قال : « إن استغنَى بَطِر وفُتِن ، وإن افتقَر قَنِط ووهن » ؛ قنط بالفتح يَقنِط بالكسر ، قُنوطا مثل جَلَس يَجلِس جلوسا ، ويجوز قَنَط يَقنُط بالضمّ مثل قَعَد يَقعُد ، وفيه لغة ثالثة : قَنِط بالكسر يَقنَط قنَطاً ، مثل تَعِب يَتعَب تعبا وقَناطةً فهو قَنِط ، وبه قرئ : ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْقَنِطِينَ ﴾[1] ، والقُنوط : اليأس . ووَهَن الرجلُ يَهِن ، أى ضَعُف وهذا المعنى قد تكرّر .

قال : « يقصّر إذا عَمِل ، ويُبالِغ إذا سُئِل » ، هذا مِثلُ ما مَدَحَ به النبىُّ صلّى الله عليه وآله الأنصارَ : « إنّكم لتَكثُرون عند الفزَع ، وتَقِلّون عند الطمع » .

قال : « إن عرَضَتْ له شهوةٌ أسلَفَ المعصية ، وسوّف التوبة ، وإن عرَتْه مِحْنة انفرَج عن شرائط المِلّة » ، هذا كما قيل : أمدَحُه نَقْدا ويُثيبُنى نَسيئة ، وانفرج عن شرائط الملّة ، قال أو فعل ما يقتضى الخروجَ عن الدّين ؛ وهذا موجودٌ فى كثيرٍ من الناس إذا عرتْه المِحَن كَفَر أو قال ما يُقارِب الكفرَ من التسخّط والتبرّم والتأفّف .

قال : « يَصِف العِبْرة ولا يَعتبِر ، ويُبالِغ فى الموعظة ولا يتّعظ » ، هذا هو المعنى الأوّل .

---

(١) سورة الحجر ٥٥ ، وهى قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب ، وانظر تفسير القرطبى ١٠ : ٣٦

قال : « فهو بالقول مُدِلّ ، ومن العمل مُقِلّ » ، هذا هو المعنىّ أيضا .

قال : « ينافِسُ فيما يَفنَى » ، أى فى شَهَوات الدنيا ولذّاتها ، و« يُسامِح فيما يبقى» أى فى الثّواب .

قال : « يرَى الغُنْم مَغرَما ، والغُرْم مَغنَمًا » ، هذا هو المعنَى الّذى ذكرْناه آنِفا .

قال: « يخشَى الموت،ولا يُبادِر الفَوْت» ، قدتكرّرهذا المعنىفىهذا الفَصْل ، وكذلك قولُه : «يَستعظِم من معصيةِ غيرِه مايستقلّ أكثر منه من نفسِه...» ، وإلى آخر الفصل كلّ مكرّرَ المعنى وإن اختلفت الألفاظ ، وذلك لاقتدارِه عليه السلام على العِبارة ، وسَعةِ مادّة النّطق عندَه .

الأصْـلُ :

لِـكُلِّ اُمْرِئٍ عاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ .

***

الشَّـرْحُ :

هكذا قرأناه ووجَدْناه فى كثيرٍ من النُّسَخ ، ووجَدْناه فى كثير منها « لـكلِّ أمرٍ عاقبة » ، وهو الأليَق ، ومثل هذا المعنى قولُهم فى المَثَل : لـكلِّ سائلٍ قَرار ، وقد أخَذَه الطائىّ فقال :

فـكانتْ لوعة ثمّ استقرّتْ ... كذاكَ لـكلِّ سائلةٍ قَرارُ (١)

وقال الـكُميت فى مِثلِ هذا :

فالآنَ صِرْتَ إلى أُمَيّــةَ ... والأمورُ إلى مَصايرْ (٢)

فأمّا الرواية الأولى وهى : « لـكلِّ امرئٍ » فنظائرُها فى القرآن كثيرة ، نحو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَـكَلَّمُ نَفْسٌ إلَا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيد ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَان مَاسَعَى * وَ برِّزَتْ الْجَحِيمُ لِمَنْ يرَى * فأمّا مَنْ طَغَى وآثَرَ الحياةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى ﴾ (٤) ، وغير ذلك من الآيات .

---

(١) ديوانه ٢ : ١٥٣

(٢) الأغانى ١٥ : ١١١ (ساسى) .

(٣) سورة هود ١٠٥

(٤) سورة والنازعات ٣٥ ـ ٤١

الأصْلُ :

الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانِ : إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ ، وَإِثْمُ الرِّضَا بِهِ .

***

الشرح :

لا فرقَ بين الرّضا بالفعل وبين المُشارَكة فيه ؛ ألا ترى أنه إذا كان ذلك الفعل قبيحا أُستَحَقّ الراضى به الذّم كما يستحقّه الفاعل له ! والرّضا يفسَّر على وجهين : الإرادة وتَرْك الأعتراض ، فإن كان الإرادة فلا رَيْب أنّه يَستحِق الذّم لأنّ مُرِيد القَبيح فاعلٌ للقبيح ، وإن كان ترك الأعتراض مع القدرة على الأعتراض فلا رَيْب أنه يستحقّ الذمّ أيضا ، لأنّ تاركَ النهى عن المنكر مع أرتفاع المَوانِع يستحقّ الذمّ .

فأمّا قولُه عليه السلام : « وعلى كلّ داخل فى باطلٍ إثمان » ، فإن أراد الدّاخل فيه بأن يَفعَله حقيقة فلا شُبْهة فى أنّه يأثم من جهتين :

إحداهما من حيثُ إنّه أراد القبيح .

والأخرى من حيث أنه فَعَله ، وإن كان قومٌ من أصحابنا قالوا : إنّ عِقابَ المُراد هو عقابُ الإرادة .

وإن أراد أنّ الراضىَ بالقبيح فقط يستحقّ إثمين : أحدهما لأنّه رَضِىَ به ، والآخَر لأنه كالفاعل ، فليس الأمْر على ذلك ، لأنّه ليس بفاعلٍ للقبيح حقيقةً لِيستحقّ الإثم من جهة الإرادة ومن جهة الفعليّة جميعا ، فوَجَب إذَنْ أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على الوجه الأوّل .

الأصْلُ :

لِكُلِّ مُقْبِلٍ إدْبارٌ، وما أدْبَرَ فَكأَنْ لَمْ يَكُنْ .

***

الشَّرْحُ :

هذا معنًى قد استُعمل كثيرا جدّا ، فمنه المثل :

ما طارَ طَيرٌ وارتَفعْ إلاّ كما طارَ وَقَعْ

وقول الشاعر :

بقدْر العُلوّ يكونُ الهبوطُ وإيّاك والرُّتبَ العاليَهْ

وقال بعض الحكماء : حركةُ الإقبال بطيئة ، وحركة الإدبار سريعة ، لأن المُقبل كالصاعد إلى مِرْقاة ، ومِرقاةُ المُدبر كالمَقْذوف به من عَلو إلى أسْفل ، قال الشاعر :

فى هذِه الدّار فى هذا الرِّواقِ على هذى الوِسادة كان العزُّ فانقَرَضا

آخر :

إنّ الأمورَ إذا دَنَتْ لزَوالها فعلامَةُ الإدبار فيها تظهرُ

وفى الخبر المرفوع : كانت ناقةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله العَضْباء لا تُسْبَق ، فجاء أعرابىٌّ عَلَى قَعودٍ له فسبَقها ، فاشتد عَلَى الصحابة ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ حقّا على الله ألاّ يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلاّ وَضَعه » .

وقال شيخٌ من هَمْدانَ : بعثنى أهلى فى الجاهليّة إلى ذى الكَلاع بهَدَايا ، فمكثتُ

تحت قصرِه حَوْلا لا أَصِل إليه ، ثم أشرَف إشرافةً من كُوّةٍ له فخرّ له مَنْ حَوْلَ العَرش سُجَّدا ، ثمّ رأيتُه بعد ذلك بحِمْص فقيرا يشترى اللّحم و يسمِّطه[1] خلف دابته ، وهو القائل :

أُفٍّ للدُّنيا إذا كانت كذا   أنا منها فى همـــومٍ وأذَى
إنْ صفا عيشُ امرئٍ فى صُبْحها   جرّعتْه ممسِياً كأس القَذَى
ولقد كنتُ إذا ما قِيل مَن   أنعَمُ العالَم عَيْشا ؟ قيـل : ذا

وقال بعضُ الأدباء فى كلام له : بينا هذه الدنيا تُرضع بدرّتها وتصرّح[2] بزبدتِها ، وتلحِف فضل جناَحِها ، وتغرّ بركود رياحِها ، إذ عطفتْ عطف الضّروس ، وصرَخت صُراخ[3] الشُّموس ، وشنّت غارة الهموم ، وأراقت ما حَلبتْ من النعيم ، فالسعيد من لم يغترّ بنكاحِها . واستعدّ لوشك طَلاقها .

شاعر ـ هو إهاب بن همام بن صَعْصعة المجاشعى ؛ وكان عثمانيّا :

لعمرُ أبيكَ فلا تَـكذِبنَّ   لقد ذهبَ الخيرُ إلاّ قليلاَ
وقد فُتِنَ الناسُ فى دِينهمْ   وخَلّى ابنُ عَفّان شرّا طويلا

وقال أبو العتاهية :

يَعمُر بيتٌ بخراب بيْتِ   يَعيشُ حىٌّ بتراثِ مَيْتِ

وقال أنس بن مالك : ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا شهرٍ ولا سنةٍ إلاّ والذى قبله خيرٌ منه ، سمعتُ ذلك من نبيِّكم عليه السلام ، فقال شاعر :

ربَّ يومٍ بكيتُ منه فلمّـــا   صرتُ فى غيرِه بكيتُ عليهِ

---

(١) يسمطه ، أى يعلقه
(٢) ب : « تصرخ » ، تحريف .
(٣) ب : « صرحت » تحريف

قيل لبعض عُظماء الكُتّاب بعد ما صُودِر : ما تُفكّر فى زوال نِعمتِك ؟ فقال : لابدّ من الزوال ، فلأن تزولَ وأبقى خيرٌ من أن أزولَ وتبقى .

ومِن كلام الجاهلية الأولى : كلّ مقيمٍ شاخِص ، وكل زائدٍ ناقص .

شاعر :

إنما الدنيا دُوَلْ فراحِلٌ قيلَ نزَلْ
* إذ نازلٌ قِيلَ رَحَلْ *

لما فتحَ خالدُ بنُ الوليد عين التمر سأل عن الحُرَقة بنتِ النّعمان بن المنذر ، فأتاها وسألها عن حالها ، فقالت : لقد طلعتْ علينا الشمس وما من شىء يَدِبّ تحت الخَوَرْنَق إلا وهو تحتَ أيدِينا ، ثم غرَبَتْ وقد رَحِمَنا كلّ من نُلِمُّ به ، وما بيت دخلته حَبْرَة ، إلاّ ستدخله عَبْرة ، ثم قالت :

بينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهمْ سُوقةٌ نتنصّفُ
فأفٍّ لدنيا لا يدُوم نعيمها تَقلّب تارات بنا وتَصرّفُ

وجاءها سعدُ بنُ أبى وقاص مرّة ، فلما رآها ، قال : قاتل الله عَدِىّ بن زيد ، كأنه كان ينظر إليها حيث قال لأبيها :

إنّ للدّهرِ صَرْعَةً فاحذرَنْها لا تبيتنّ قد أمِنتَ الدّهورَا (١)
قد يبيتُ الفَتَى مُعافىً فيرْدَى ولقد كان آمِناً مَسرُورا

وقال مطرِّف بنُ الشِّخِّير : لا تنظروا إلى خفضِ عيش الملوك ولينِ رِياشِهم ، ولكن انظروا إلى سُرعةِ ظَعْنِهم وسوء مُنقَلَبهم ، و إن عُمْرا قصيرا يستوجِب به صاحبُه النارلعُمْرٌ مشئومٌ على صاحبه .

لما قتل عامِرُ بنُ إسماعيل مَرْوانَ بن محمد وقعَد على فراشه ، قالت ابنة مَرْوان له : يا عامر ، إنّ دهراً أنزلَ مروانَ عن فُرُشِه وأقْعدَكَ عليها لَمُبلِغٌ فى عِظَتِك إن عَقَلْتَ .

(١) شعراء النصرانية ، الأغانى :

الأصْـلُ :

لا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وإنْ طَالَ بِهِ الزَّمانُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم كلامُنا فى الصّبر .

وقالت الحكماء : الصّبرُ ضَرْبان : جسمىّ ونفسىّ ، فالجسمىّ تحمُّل المَشَاقّ بقدر القوّة البدنيّة ، وليس ذلك بفضيلة تامّة ، ولذلك قال الشاعر :

والصبرُ بالأرواحِ يُعرَف فضـله صبر الملوك وليس بالأجْسامِ

وهذا النّوع إمّا فى الفعل كالمشى ورَفْع الحجَر أو فى رفع الانفعال كالصّبر على المَرَض واحتمال الضرب المُفْظِـع . وأما النفسىّ ففيه تتعلّق الفضيلة ؛ وهو ضَرْبان : صبرٌ عن مشتهى ، ويقال له : عِفّة ، وصَبْر على تحمل مـكروه أو محبوب . وتختلف أسماؤه بحسب اختلافِ مَواقِعه ، فإن كان فى نزول مصيبة لم يتعدّ به اسم الصبر ، ويضادّه الجَزَع والهلع والحُزْن ، وإن كان فى احتمال الغنى سمّى ضبط النفس ، ويضادّه البَطر والأشَر والرّفع وإن كان فى محاربة سمّى شجاعةً ويضادّه الجُبن ، وإن كان فى إمساكِ النفس عن قضـاء وَطَر الغضب سمى حِلْما ، ويضادّه التذمّر والاستشاطة ، وإن كان فى نائبة مضجرة سمّى سَعة صَدْر ، ويضادّه الضَجَر وضيق العَطَن والتبرّم ، وإن كان فى إمساك كلامٍ فى الضمير سمّىَ كِتْمان السرّ ، ويضادّه الإفشاء، وإن كان عن فضول العيش سمّى قناعةً وزهدا ويضادّه الحرْص والشّرَه . فهذه كلها أنواعُ الصبر ، ولـكن اللفظ العُرْفىّ واقع على الصبر الجُسْمانىّ ، وعلى ما يـكون فى نزول المصائب ، وتنفرد [1] باقى الأنواع بأسماء تخصُّها .

---

(١) ب : « وينفرد »

(١٥١)

الأصْلُ :

ما اخْتَلَفَتْ دعْوَتانِ إلاَّ كانَتْ إحْدَاهُما ضَلالَةً .

* * *

الشّرحُ :

هذا عنـد أصحابنا مختصٌّ باختلاف الدّعوة فى أصول الدّين ، و يَدْخل فى ذلك الإمامة ، لأنها من أصول الدين ، ولا يجوز أن يَختلِف قولان متضادّان فى أصول الدين فيكونا صوابا ، لأنه إن عَنَى بالصواب مطابقة الاعتقاد للخارج ؛ فمستَحيل أن يكون الشىء فى نفسه ثابتا منفيا ، وإن أراد بالصّواب سُقوط الإثم ـ كما يحكى عن عُبَيْد بن الحسن العَنْبرى ـ فإنه جعل اجتهاد المجتهدين فى الأصول عُذْراً ، فهو قولٌ مسبوق بالإجماع.

ولا يحمل أصحابنا كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على عمومِه ، لأن المجتهدين فى فروع الشريعة وإن اختَلَفوا وتضادّت أقوالهمْ ليسوا ولا واحد منهم على ضلال ، وهذا مشروحٌ فى كُتُبنا الـكلاميّة فى أصول الفِقْه .

(١٥٢)

الأَصْـلُ :

ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ، ولا ضَلَلْتُ ولا ضُلَّ بى .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذه كلمةٌ قد قالها مرارا ، إحداهنّ فى وقعة النّهروان .

وكُذِبت بالضم أُخْبِرْت بخبَر كاذب ، أى لم يخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله عن المخدَج خبراً كاذبا ، لأن أخبارَه صـلى الله عليه وآله كلها صادقة .

وضلّ بى بالضمّ نحوذلك ، أى لم يُضِللنى مضلّل عن الصدق والحقّ، لأنه كان يَسْتَنِد فى أخباره عن الغيوب إلى رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله وهو منزَّه عن إضلاله وإضلال أحد من المـكلفين .

فـكأنَّه قال لما أخبرهم عن المخدَج[1] و إبطاء ظهورِه لهم : أنا لم أ كذِب على رسول الله صلى الله عليه وآله، ورسول الله صلى الله عليه وآله لا يكذب فيما أخبرنى بوقوعه ، فإذاً لا بدّ من ظفرَكم بالمخدَج فاطلبوه .

---

(١) المخدج : ناقص اليد ؛ وهو ذو الثدية .

الأصلُ :

لِلظَّالِمِ الْبادِي غَداً بِـكَفِّهِ عَضَّةٌ .

* * *

الشرحُ :

هذا من قوله تعالى : ﴿ ويوم يَعَضُّ الظالمُ عَلَى يَدَيهِ ﴾[1] ، وإنما قال : « للبادى » لأنّ من انتصر بعد ظُلْمه فلا سبيل عليه . ومن أمثالهم : البادى أظلم .

فإن قلت : فإذا لم يكن بادياً لم يكن ظالماً ، فأىّ حاجة له إلى الاحتراز بقوله : « البادى » ؟

قلتُ : لأنّ العرب تُطلِق على ما يقَع فى مُقابلة الظلم اسم « الظلم » أيضاً كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثلُها ﴾[2] .

---

(١) سورة الفرقان ٢٧
(٢) سورة الشورى ٤٠

(١٥٤)

الأصـلُ :

الرَّحِيلُ وَشِيكٌ .

* * *

الشـرحُ :

الوشيكُ : السريع ، وأراد بالرحيل ها هنا الرّحيل عن الدنيا وهو الموت .

وقال بعضُ الحكماء : قبل وجود الإنسان عدم لا أوّل له ، وبعدَه عدَم لا آخر له ، وما شبّهت وجوده القليل[1] المتناهى بين العدمين الغير متناهِيَين إلاّ ببَرْق يخطف خَطفة خفيفةً[2] فى ظلامٍ مُعتكر ، ثم يخمد و يَعود الظّلام كما كان .

---

(١) « الوجود القليل » (٢) ا : « يسيرة »

(١٥٥)

الأصلُ :

مَنْ أبْدَى صَفْحَتَهَ لِلْحَقِّ هَلَكَ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم تفسيرُنا لهذه الكلمة في أوّل الكتاب ، ومعناها : من نابَذَ الله وحاربَه هلك ، يقال لمن خالَف وكاشَف : قد أبْدَى صَفْحَته .

الأصْلُ

اسْتَعْصِمُوا بالذِّمَمِ فى أوْتارِها .

***

الشَّرْحُ :

أى فى مَظانّها وفى مركزها ، أى لا تستنِدوا إلى ذمامِ الكافرين والمارِقين ، فإنهم ليسوا أهلا للاستِعصامِ بذِممهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ لاَ يَرْقُبونَ فِي مُؤمنٍ إلًّا ولاذِمّة [١] ﴾ . وقال : ﴿ إنهم لا أيمان لهم [٢] ﴾ .

وهذه كلمة قالها بعد انقضاء أمرِ الجمل وحضور قومٍ من الطُّلقاء بين يديه ليُبايعوه ، منهم مَرْوانُ بن الحكَم؛ فقال : وماذا أصنع ببَيْعتك؟ ألم تُبايعْنى بالأمْس ! يعنى بعدَ قتل عثمان ، ثم أمر بإخْراجهم ورفْعِ نفسه عن مبايعة أمثالهم ، وتكلم بكلامٍ ذكر فيه ذِمامَ العربية وذمامَ الإسلام ، وذكر أنّ من لا دِين له فلا ذِمامَ له .

ثم قال : فى أثناء الكلام : « فاستعصِمَوا بالذمم فى أوتارِها » ، أى إذا صَدَرَتْ عن ذَوِى الدّين ، فمنْ لا دين له لا عَهْدَ له .

---

(١) سورة التوبة ١٠

(٢) سورة التوبة ١٢

الأصْلُ .

عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لا تُعْذَرُونَ فى جَهالَتِهِ .

***

الشَّرْحُ :

يعنى نفسَه عليه السلام ؛ وهو حقٌّ على المذهَبين جميعا ، أما نحن فعندنا أنه إمامٌ واجبُ الطاعة بالاختيار ، فلا يُعذَر أحدٌ مِن المكلّفين فى الجهل بوجوب طاعته ، وأمّا على مذهبِ الشِّيعة فلأنه إمامٌ واجبُ الطّاعة بالنّص ، فلا يُعْذَر أحدٌ من المكلفين فى جَهالة إمامته ، وعندهم أنّ معرفة إمامته تَجرى مجرى معرفةِ محمد صلّى الله عليهوآله ومَجرى معرفة البارى سبحانه ، ويقولون : لا تصحّ لأحد صلاةٌ ولا صَومٌ ولا عبادة إلا بمعرفة الله والنبيّ والإمام .

وعلى التحقيق ، فلا فرق بيننا وبينهم فى هذا المعنى ، لأنّ من جَهل إمامة علىٍّ عليه السلام وأنكرَ صِحّتها ولزومها ، فهو عند أصحابنا مخلد فى النار ، لا ينفعه صوم ولا صلاة ، لأنّ المعرفة بذلك من الأصول الكليّة التى هى أركانُ الدين ، ولكنا لا نُسمّى مُنكر إمامته كافرا ، بل نسمّيه فاسقا، وخارجيا ، ومارِقا ، ونحوذلك ، والشِّيعة تسميه كافرا ، فهذا هو الفرْق بيننا وبينهم ، وهو فى اللفظ لا فى المعنى .

الأصل :

مَاشَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ .

* * *

الشرح :

أى منذ أُعلِمْتُه ، ويجب أن يُقدّر هاهنا مفعول محذوف ؛ أى منذ أُريته حقّا ، لأنّ «أرَى» يتعدّى إلى ثلاثة مَفاعيل ، تقول : أَرَى اللهُ زَيْدًا عَمْراً خيرَ الناس ، فإذا بنيتَه للمفعول به قام واحدٌ من الثلاثة مَقام الفاعِل ووَجَب أن يُؤتى بمفعولين غيره ، تقول : أُريت زيداً خيرَ الناس ، وإن كان أشارَ بالحقّ إلى أمرٍ مُشاهَد بالبَصر لم يَحتَجْ إلى ذلك ، ويجوز أن يَعنِي بالحقّ اللهَ سبحانَه وتعالى ، لأنّ الحق من أسمائه عزّ وجلّ ، فيقول : منذ عرفتُ اللهَ لم أشُكَّ فيه ، وتكون الرؤية بمعنَى المَعرِفة ، فلا يحتاج إلى تقدير مَفعولٍ آخَر ؛ وذلك مِثلُ قولِه تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [١] ؛ أى لا تَعرِفونهم ، اللهُ يَعرِفهم ، والمراد من هذا الكلام ذِكْرُ نعمةِ الله عليه فى أنّه منذ عَرَف الله سبحانَه لم يَشُكَّ فيه ، أو منذ عرفَ الحقّ فى العَقائد الكلاميّة والأصوليّة وَالفِقْهِية لم يشكّ فى شىء منها ؛ وهذه مَزِيّةٌ له ظاهرة على غيره من النّاس ، فإنّ أكثرَهم أو كلَّهم يشكّ فى الشىء بعد أن عرفَه وتعتوِره الشُّبَه والوَساوِس ويَرانُ على قَلْبِه وتَختَلِجُه الشياطين عمّا أَدّى إليه نظره

(٣) سورة الأنفال ٦٠

وقد رُوِى أنّ النبىّ صلّى الله عليـه وآله لمّا بَعَثه إلى اليمن قاضياً ضَرَب على صَدْره وقال : « اللهم اُهدِ قلبه ، وثَبِّت لسانَه » ، فـكان يقول : ماشـكَـكْتُ بعدَها فى قضاء بين اُثنين .

ورُوِى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآلِه لمّا قرأ : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[1] قال : « اللهمّ اجعلها أذنَ علىٍّ » ، وقيل له : « قد أجيبتْ دعوتُك » .

---

(١) سورة الحاقة ١٢

الأصلُ :

وَقَدْ بُصِّرْتُمْ إنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَقَدْ هُدِيتمْ إنِ اهْتَدَيْتُمْ .

***

الشَّرْحُ :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [١] .

وقال سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [٢] .

وقال بعض الصالحين : ألا إنّهما نَجْدا الخيْر والشّر ، فجعل نَجْد الشرّ أحبّ إليكم من نَجْد الخير . قات : النَّجْد : الطّريق .

واعلم أنّ الله تعالى قد نَصَب الأدِلّة ومَكّن المكلّف بما أكمَل له من العقل من الهداية ، فإذا ضلّ فمِنْ قِبَل نفسه أُتى .

وقال بعضُ الحكماء : الّذى لا يَقبَل الحِكمَةَ هو الّذى ضَلّ عنها ليست هى الضالّة عنه .

وقال : متى أحسستَ بأنّك قد أخطأت وأردتَ ألّا تعود أيضا فتُخطِئ فانظر إلى أصلٍ فى نفسك حَدَث عنه ذلك الخطأ ، فاحتَلْ فى قَلْعِه ، وذلك إنّك إن لم تفعل ذلك عادَ فثَبَت خطأ آخر . وكان يقال : كما أنّ البدن الخالى من النّفس تَفُوح منه رائحة النَّتْن ، كذلك النّفس الخالية من الحِكْمَة ؛ وكما أنّ البَدن الخالىَ من النّفس ليس يحسّ

---

(٥) سورة فصلت ١٧ (٦) سورة البلد ١٠

ذلك بالبدن بل الّذين لهم حِسّ يُحِسّونه به كذلك النّفس العَدِيمة للحكمة ليس تحسّ به تلك النفس ، بل يُحِسّ به الحكماء ؛ وقيل لبعض الحكماء : مابالُ الناسِ ضَلّوا عن الحقّ ؟ أتقول : إنّهم لم تُخلَق فيهم قوّة مَعرِفة ؟ فقال : لا ، بل خُلِق لهم ذلك ، ولكنّهم أُستعمَلُوا تلك القوّة على غير وجهِها ، وفى غير ماخُلِقتْ له ، كالسّمّ تَدفَعه إلى إنسانٍ ليَقتُل به عدوّه فيَقْتُلُ به نفسَه .

الأصلُ :

عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ .

***

الشرحُ :

الأصل فى هذا قولُ الله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بالتى هِيَ أَحْسَنُ فإذا الذِى بينَكَ و بينهُ عداوة كأنّه ولىٌّ حميم ﴾(١) .

وروى المبرد فى " الكامل " عن ابن عائشة، عن رجل مَن أهل الشام، قال: دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلا راكباً على بغلة لم أر أحسنَ وَجْها ولا ثَوْباً ولا سَمْتا ولا دابّة منه ، فمال قلبى إليه ، فسألت عنه ، فقيل : هذا الحسنُ بنُ الحسن بن علىّ ، فامتلأ قلبى لهُ بغضاً ، وحسدتُ علياً أن يكون له ابن مثله ، فصرتُ إليه وقلتُ له : أنت ابن أبى طالب ؟ فقال : أنا ابن ابنه ، قلت : فبك وبأبيك ! فلمّا انقضى كلامى قال : أحسَبك غريباً ؟ قلت : أجَل ، قال : فَمِلْ بنا ، فإن احتَجْت إلى منزلٍ أنزلناك ، أو إلى مالٍ واسَيْناك ، أو إلى حاجةٍ عاوَنّاك .

فانصرفْتُ عنه وما على الأرض أحدٌ أحبّ إلىّ منه (٢) .

وقال محمود الورّاق :

إنّى شكرتُ لظالمى ظُلْمِى   وغفَرْتُ ذاكَ لهُ على عِلْمِ

ورأيتهُ أهدَى إلَىَّ يداً   لمّا أبانَ بجهـلِهِ حِلْمِى

رجعَتْ إساءتُهُ عليه وإحـ   ـسانِى فعادَ مُضاعَفَ الْجُرْمِ

---

(١) سورة فصلت ٣٤

(٢) الكامل ٢ : ٥ ، ٦

وغدَوْتُ ذا أجرٍ ومَحْمَدَةٍ ... وغدَا بِكَسْبِ الظّلمِ والإثمِ

فكأنما الإحسانُ كان لهُ ... وأنا المُسيء إليهِ فى الحُكْمِ

ما زالَ يَظْلِمُنِى وأرحَمُهُ ... حتّى بكيتُ له من الظُّلْمِ

قال المبرّد : أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش قال له رجل منهم : إنّى مَرَرْتُ بآل فلان وهم يَشْتُمُونك شَتْمًا رَحِمْتك منه ؛ قال : أفسمِعتَنى أقول إلّا خيراً ! قال : لا ، قال : إيّاهم فارحم[1] .

وقال رجل لأبى بكر : لأشْتُمَنَّكَ شَتْماً يَدْخُل معك قبْرَك ، فقال : مَعَك والله يَدْخُل ، لَا معى[2] .

---

(١) الكامل ٢ : ٤ ، ٥ (٢) الكامل ٢ : ٥

(١٦١)

الأَصْلُ :

مَنْ وضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهَمَةِ فَلا يَلُومَنَّ مَنْ أساءَ بِهِ الظَّنَّ .

* * *

الشَّرْحُ :

رأى بعضُ الصّحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً فى دَرْبٍ من دروب المدينة ومعه امرأةٌ فَسلّم عليه ، فردّ عليه ، فلما جاوَزَه ناداه فقال : هذه زوْجتى فلانة ، قال : يا رسول الله ، أوَفيك يُظَنّ ! فقال : « إنّ الشيطان يجرِى مِن ابن آدم مجرَى الدّم » .

وجاء فى الحديث المرفوع : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يرِيبُك » .

وقال أيضاً : « لا يكملُ إيمانُ عبدٍ حتى يترُك ما لا بأسَ به » .

وقد أخذ هذا المعنى شاعرٌ فقال :

وزعمتَ أنّك لا تَلوط فقل لنا ... هذا المُقَرْطَقُ واقفاً ما يَصنَعُ !
شَهِدتْ مَلاحتُه عليكَ بِرِيبةٍ ... وعلى المُرِيبِ شَواهدٌ لا تُدْفَعُ

الأَصْـلُ :

مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ .

***

الشَّـرْح :

المعنى أن الأغلب فى كلّ ملك يَستأثر على الرعية بالمال والعزّ والجاه .

ونحو هذا المعنى قولهم : من غَلب سَلَب ، ومن عزّ بَزّ .

ونحوه قول أبى الطيّب :

والظلمُ من شِيمِ النفوسِ فإن تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فلِعِـلَةٍ لا يظلـمُ[1]

(١) ديوانه ٤ : ١٢٥

الأصل :

مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، ومَنْ شاوَرَ الرِّجالَ شارَكَها فى عُقُولِها .

***

الشرح :

قد تقدّم لنا قولٌ كافٍ فى المَشُورة مدحا وذما .

وكان عبدُ الملك بن صالح الهاشمىُّ يذمُّها ويقول : ما استَشَرتُ واحدا قطّ إلاّ تكبّر علىّ وتصاغرتُ له ، ودخلتْه العِزّ ودخلَتْنى الذِّلة ، فإياك والمَشُورة وإن ضاقتْ عليك المذاهبُ ، واشتبَهَتْ عليك المسائل ، وأدّاك الاستبدادُ إلى الخطأ الفادح .

وكان عبدُ الله بنُ طاهر يذهب إلى هذا المذهَب ويقول : ماحَكّ جِلدكَ مِثلُ ظُفْرِكَ ؛ ولأَنْ أخطىء مع الاستبداد ألفَ خطأ أحبُّ إلىّ من أن أستشير وأَرَى بعين النقص والحاجة .

وكان يقال : الاستشارة إذاعة السرّ ، ومخاطرةٌ بالأمر الذى ترومُه بالمشاوَرة، فرُبَّ مستشارٍ أذاعَ عنك ما كان فيه فساد تدبيرك .

وأما المادِحون للمشُورة فكثير جدًّا . وقالوا : خاطرَ مَن استبدّ برأيه .

وقالوا : المَشُورة راحةٌ لك، وتَعبٌ على غيرك .

ووقالوا : مَن أكثر من المَشورة لم يعدَم عند الصواب مادحا ، وعند الخطأ عاذرا .

وقالوا : المستشير على طَرَف النّجاح ، والاستشارة مِن عَزْم الأمور .

وقالوا : المَشُورة لقاحُ العقول ، ورائد الصواب .

ومن ألفاظهم البديعة : ثمرَة رأى المُشير أحلى مِن الأَرْيِ المشور[1] .

وقال بَشّار :

إذا بلغ الرأىُ النّصيحةَ فاستَعِنْ بعَزْمِ نصيحٍ أو مشورة حازمِ[2]
ولا تجعَل الشورَى عليك غَضاضةً فإنَّ الخوافى عُدّة للقوادِمِ

---

(١) الأرى : العسل ، والمشور : المستخرج . شرت العسل : استخرجته .

(٢) شرح مختار بشار ٣١٢

الأصلُ :

مَن كَتَمَ سِرَّهُ كانَتِ الخِيَرَةُ في يَدِهِ .

* * *

الشرحُ :

قد تقدّم القولُ في السرِّ والأمر بكتمانه ؛ ونذكر ها هنا أشياء أخر .

من أمثالهم : مَقتل الرَّجُل بين لَحيَيه .

دنا رجلٌ مِن آخر فسارّه ، فقال : إن مِن حق السرّ التداني .

كان مالكُ بنُ مِسمع إذا ساره إنسانٌ قال له : أظهره ، فلو كان فيه خيرٌ لما كان مكتوما .

حكيم يُوصى ابنه : يا بُنيّ كنْ جَواداً بالمال في موضع الحقّ ، ضنينا بالأسرار عن جميع الخلق ، فإنّ أحمد جُود المرء الإنفاق في وجه البرّ .

ومِن كلامهم : سِرُّك من دَمِك ، فإذا تكلّمت به فقد أرَقْتَه .

وقال الشاعر :

فلا تُفْشِ سِرّكَ إلاّ إليكَ فإنّ لكلّ نصيح نَصيحاَ
ألم ترَ أنّ غُواةَ الرّجال لا يتركون أدِيماً صحيحاَ !

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : القلوب أَوْعِيةُ الأسرار والشِّفاه أقْفالها، والألسُن مفاتِيحُها فليحفظ كلُّ امرئ مفتاحَ سِرّه .

وقال بعض الحكماء : مَن أفشى سِرَّه كَثُر عليه المتآمِرُون .

أسَرَّ رجل إلى صديقٍ[1] سرًّا ثم قال له : أفهمْت ؟ قال له : بل جهلتُ ، قال : أحفِظْتَ ؟ قال : بل نسيت .

وقيل لرجل : كيف كتمانك السّر ؟ قال : أجحد المخبر ، وأحلف للمُسْتَخبِر .

أنشد الأصمعىّ قولَ الشاعر :

إذا جاوَزَ الإثنَين سِرٌّ فإنه ... يُبَثّ وتكثيرُ الوُشاة قَمِينُ[2]

فقال : واللهِ ما أراد بالاُثنين إلّا الشَّفَتَين .

---

(١) ا : « صديقه » .

(٢) قمين : خليق .

الأصل :

الْفَقْرُ الْمَوْتُ الأَكْبَرُ .

***

الشرح :

فى الحديث المرفوع : « أشقى الأشقياء مَن جُمِعَ عليه فقرُ الدنيا وعذاب الآخرة » .

وأتى بُزُرْجُمِهر فقيرٌ جاهل ، فقال : بئسما اجتمع على هـذا البائس: فقر ينقص دنياه وجهلٌ يُفْسِد آخرته .

شاعر :

خُلِق المالُ واليَسارُ لقَوْمٍ وأرانى خُلقتُ للإملاقِ

أنا فيما أرَى بقيّةُ قومٍ خُلِقوا بعد قِسْمة الأرزاقِ

أَخَذَ السِّيواسىُّ هذا المعنى فقال فى قصيدته الطويلة المعروفة بالساسانية :

ليتَ شِعرى لمّا بدا يقسِم الأر زاق فى أى مطبق كنت[1]

قرئ على أحد جانبَىْ دينار :

قُرِنْتُ بالنُّجْح وبى كلُّ ما يرادُ مِن ممتنعٍ يُوجَدُ

وعلى الجانب الآخر :

وكلّ من كنتُ له آلِفاً فالإنس والجنّ له أعبُدُ

---

(١) المطبق : السجن .

وقال أبو الدّرداء : مَن حفظ ماله فقد حَفِظ الأكثر من دِينه وعِرْضه .

بعضهم :

وإذا رأيتَ صعوبةً فى مطلبٍ   فاحمـــل صعوبته على الدِّينارِ
تردده كالظّهْر الذّلول فإنّه   حجرٌ يليِّن قوّة الأحْجارِ

ومن دعاء السَّلَف : اللهمّ إنى أعوذ بك من ذُلّ الفقْر و بطَر الغِنى .

الأَصْلُ :

مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لا يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ عَبَّدَهُ .

***

الشَّرْحُ :

عَبَّده بالتشديد ، أى اتخذه عَبْدا ، يقال عَبَّده واستَعْبده بمعنى واحد ؛ والمعنى بهذا الكلام مَدْحُ مَن لا يقضى حقَّهُ ، أى من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان لأنه لم يفعلْ معه ذلك مكافأةً له عن حقّ قضاه إيّاه ، بل فعل ذلك إنعاما مبتدأ ، فقد استعبده بذلك[(١)] .

وقال الشاعر فى نقيض هذه الحال يخاطب صاحباً له :

كنْ كأنْ لم تلاقِنِى قَطُّ فى النّا ... سِ ولا تجعلَنَّ ذِكْراىَ شَوْقا
وتيَقّنْ بأننى غيرُ راء ... لك حقّا حتى ترَى لىَ حَقَّا
وبأنّى مفوِّقٌ ألفَ سَهْمٍ ... لكَ إن فوّقَتْ يمينُك فُوقا

---

(١) ا : « بهذا » .

الأصلُ :

لا طاعةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخالِقِ .

***

الشرحُ :

هذه الكلمةُ قد رويتْ مَرفوعة ، وقد جاء فى كلام أبى بكر : أطيعونى ما أطعتُ الله ؛ فإذا عصيتُه فلا طاعة لى عليكم .

وقال معاوية لشدّاد بن أوس : قم فاذكر عليّا فانتقصْه[1]؛ فقام شدّاد فقال : الحمد لله الذى افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى آثرَ مِن رضا غيره ، على ذلك مَضى أوّلهم ، وعليه مضى آخرهم . أيّها الناس ، إنّ الآخرة وعدٌ صادق يَحكم فيها مَلِك قاهر وإنّ الدّنيا أكلٌ حاضر ، يأكل منها البَرّ والفاجِر ، وإن السامع المطيع لله لا حُجّة عليه وإن السامع العاصىَ لله لا حجّة له ، وإنّه لا طاعةَ لمخلوق فى معصيةِ الخالق ، وإذا أراد الله بالناس خيراً استعمل عليهم صُلحاءهم ، وقضى بينهم فُقَهاؤُهم[2] ، وجعل المال فى سُمَحائهم ، وإذا أراد بالعباد شرّا عمل عليهم سُفهاءهم ، وقضى بينهم جُهلاؤُهم ، وجعل المال عند بُخَلائهم . وإنّ من إصلاح الوُلاة أن تُصلح قرناءها . ثمّ التفَت إلى معاوية فقال : نَصَحك يا معاوية مَن أسخَطَك بالحق ، وغَشّك من أرْضاك بالباطل ! فقطع معاويةُ عليه كلامَه ، وأمَرَ بإنزاله ، ثم لاطَفَه وأمَرَ له بمال ، فلما قبضه قال : ألستَ من السّمحاء الذين ذكرت ؟ فقال : إن كان لك مالٌ غيرُ مال المسلمين أصبته حلالا ، وأنفقته إفضالا فنعم ، وإن كان مالُ المسلمين احتجبْتَه دونهم أصبْتَه اقترافا ، وأنفقْتَه إسْرافا ، فإن الله يقول : ﴿ إنّ المبَذِّرِين كانُوا إخْوانَ الشَّيَاطين ﴾[3] .

(١) فى د « وتنقصه » وهو مستقيم أيضا . (٢) فى د « علماؤهم » .

(٣) سورة الإسراء ٢٧

(١٦٨)

الأصلُ :

لا يُعَابُ المَرْءِ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَالَيْسَ لَهُ .

* * *

الشرح :

لعل هذه الكلمةَ قالها فى جواب سائلٍ سأله : لِمَ أخّرت المطالبةَ بحقّك من الإمامة ؟ ولا بدّ من إضمار شىء فى الكلام على قولنا وقولِ الإماميّة ، لأنّا نحن نقول : الأمرُ حقّه بالأفضليّة ، وهم يقولون : إنّه حقّه بالنّصّ ، وعلى كِلاَ التقديرَين فلا بدّ من إضمار شىء فى الكلام ، لأنّ لقائلٍ أن يقول له عليه السلام : لو كان حَقُّك من غير أن يكون للمكلّفين فيه نصيبٌ لجاز ذَلك أن يؤخَّر كالدّين الّذى يستحقّ على زيد ، يجوز لك أن تؤخّره لأنّه خالِصٌ لك وَحْدَك ؛ فأمّا إذا كان للمكلّفين فيه حاجةٌ ماسّة لم يكن حقّك وحدَك؛ لأنّ مصالح المكلَّفين مَنوطةٌ بإمامَتِك دون إمامةِ غيرِك ، فكيف يجوز لك تأخيرُ ما فيه مصلحةُ المكلَّفين ؟ فإذَنْ لا بدّ من إضمارِ شىء فى الكلام . وتقديرُه : لا يُعابُ المرء بتأخير حقّه إذا كان هناك مانعٌ عن طَلَبه ، ويستقيم المعنى حينئذٍ على المَذهبَيْن جميعا ، لأنّه إذا كان هناك مانعٌ جاز تقديم غيره عليه ، وجاز له أن يؤخّر طلبَ حقّه خوفَ الفتنة ، والكلام فى هذا الموضع مُستقصًى فى تصانيفِنا فى علمِ الكلام .

الأصل :

أَلْإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ الأَزْدِيَادِ .

***

الشرح :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقنِع فى العُجْب ؛ وإنّما قال عليه السلام : « يمنع من الأزدياد » لأنّ المُعجَب بنفسه ظانٌّ أنّه قد بلغ الغرَض ، وإنّما يَطلُب الزّيادةَ مَنْ يستشعِر التقصير لا مَن يتخيّل الكمال ؛ وحقيقة العَجَب ظنُّ الإنسان بنفسِه استحقاقَ منزِلةٍ هو غيرُ مستحِقٍّ لها ؛ ولهذا قال بعضهم لرجل رآه معجَباً بنفسِه : يسرّنى أن أكون عندَ الناس مِثلك فى نفسِك ، وأنْ أكونَ عندَ نفسى مِثلك عند الناس ، فتمنّى حقيقة مايقدّره ذلك الرجل ، ثمّ تمنّى أن يكون عارِفاً بعيوب نفسِه ، كما يَعرِف الناسُ عيوبَ ذلك الرجل المُعجَب بنفسه .

وقيل للحَسَن : مَن شرُّ الناس ؟ قال : مَن يرى أنّه خيرُهم .

وقال بعض الحكماء : الكاذب فى نهاية البُعْدِ من الفَضْل ؛ والمُرائى أسوأُ حالاً من الكاذب ، لأنّه يَكذِب فعلا ، وذاك يَكذِب قَوْلا ، والفِعْل آكَدُ من القَوْل ؛ فأمّا المُعجَب بنفسِه فأسوأُ حالاً منهما ، لأنهما يرَيان نَقْصَ أنفسِهما ، ويُرِيدان إخفاءه والمُعجَب بنفسِه قد عَمِى عن عيوبِ نفسِه فيرَاها محاسنَ ويُبدِيها .

وقال هذا الحكيمُ أيضا : ثمّ إنّ المُرائِيَ والكاذبَ قد يُنتفَع بِهما، كمَلاّح خافَ

رُكّابُه الغَرَق من مكانٍ مَخُوف من البَحر ، فبَشّرهم بتجاوُزِه قبل أن يتجاوزه لئلّا يَضْطربوا فيتعجّل غرَقهم .

وقد يُحمَد رِياء الرئيس إذا قَصَد أن يُقتدَى به فى فِعل الخير ، والمُعجب لا حظّ له فى سببٍ من أسباب المَحمَدة بحالٍ .

وأيضا فلأنّك إذا وَعَظْتَ الكاذب والمرائىَ فنفْسهما تصدِّقك وتثلبهما لمعرفتهما بنفسِهما ، والمعجب فلِجهلِه بنفسِه يظنُّك فى وَعْظه لاغيا ، فلا يَنتَفع بمَقالِك ، وإلى هذا المعنى أشارَ سبحانَه بقوله : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾[1] ، ثم قال سبحانه : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[1] تنبيها على أنّهم لا يَعْقلون لإعجابهم .

وقال عليه السلام : ثلاثٌ مُهلِكات : شحّ مُطاع ، وهَوًى متّبَع ، وإعجابُ المرءِ بنفسه .

وفى المَثَل : إنّ إبليسَ قال : إذا ظفرتُ من ابن آدمَ بثلاثٍ لم أُطالِبْه بغيرِها : إذا أُعجِب بنفسِه ، واستكثرَ عملَه ، ونسىَ ذُنوبَه .

وقالت الحكماء : كما أنّ المُعجَب بفرَسه لا يرُوم أن يَستبدِل به غيرَه ، كذلك المُعجَب بنفسه لا يُريد بحالِه بَدلاً وإن كانت رديئةً .

وأصل الإعجاب من حُبّ الإنسان لنفسِه ، وقد قال عليه السلام : « حُبُّك الشىء يُعمِى ويُصِمّ » ، ومن عَمِىَ وصَمّ تَعذّر عليه رؤيةُ عُيوبه وسماعُها ، فلذلك وَجَب على الإنسان أن يَجعَل على نفسه عيونا تُعرِّفه عيوبَه ، نحوَ ماقال عمر : أحبُّ الناسِ إلىّ امرؤٌ أهدَى إلىّ عيوبى .

ويَجب على الإنسان إذا رَأَى من غيره سيئة أن يَرجِع إلى نفسه ، فإن رَأَى ذلك

---

(١) سورة فاطر ٨

موجوداً فيهـا نزَعهـا ولم يَغفَل عنهـا ، فما أَحسنَ ماقال المتنبّى :

ومن جهلتْ نفسُه قـــدرَه رأى غـــيرُه منه مالا يرَى [١]

وأما التيه وماهيّتُه فهو قريب من العُجب ، لـكنّ المُعجَب يصدّق نفسه وَهْما فيما يظنّ بها ، والتياه يصدّقها قَطْعا ، كأنه متحيّر فى تيه . ويُمكِن أن يفرق بينهما بأمرٍ آخَر ، ويقول : إنّ المعجَب قد يُعجَب بنفسِه ولا يؤذى أحداً بذلك الإعجاب ، والتّياه يَضُمّ إلى الإعجاب الغَضّ من الناس والترفُّع عليهم ، فيَستلزم ذلك الأذى لهم ، فـكلُّ تائهٍ معجَب ، وليس كلُّ معجَب تائهاً .

---

(١) ديوانه ١ : ٤٤

(١٧٠)

الأصلُ :

ٱلْأَمْرُ قَرِيبٌ، وَٱلِاصْطِحَابُ قَلِيلٌ.

***

الشرح :

هذه الكلمةُ تذكِّر بالموت وسرعةِ زَوال الدّنيا؛ وقال أبو العَلاء :

نفسِي وجِسْمِيَ لمّا استجمعَا صَنَعا شرًّا إلىّ فَجلّ الواحدُ الصَّمَدُ

فالجِسْم يعذل فيه النفسَ مجتهداً وتِلكَ تزعُم أنّ الظالمَ الجَسَدُ

إذا هُما بعدَ طُولِ الصُّحبة افترَقا فإنّ ذاكَ لأحداث الزمانِ يَدُ

وأصبحَ الجوهرُ الحسّاسُ في مِحَنٍ موصولةٍ واستراحَ الآخر الجَمَدُ

الأصْـلُ :

قَدْ أضاءَ الصُّبْحُ لِذِى عَيْنَيْنِ .

* * *

الشرح :

هذا الـكلامُ جارٍ مَجرَى المَثَل ، ومثله .

* والشمسُ لا تَخفَى عن الأبْصارِ *

ومِثله :

* إنّ الغزَالةَ لا تَخفَى عن البَصَرِ *

وقال ابن هانئ يَمدَح المعتزّ :

فاستيقظوا من رَقْدةٍ وتَنَبَّهوا ... مابالصّباح عن العُيون خَفاء [1]

ليستْ سَماء الله ماترَوْنَها ... لـكنّ أرضـا تَحتَويه سَماء

---

(١) ديوانه ٤

الأصْلُ :

تَرْكُ الذَّنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا حقّ ، لأنّ ترك الذَّنْب هو الإحجامُ عنه ، وهذا سَهلٌ على من يَعرِف أثَرَ الذّنب على ماذا يكون ، وهو أسهَلُ من أن يُواقِع الإنسانُ الذّنب ، ثمّ يَطلُب التّوبة ، فقد لا يخلص داعيه إليها ، ثمّ لو خَلَص فكيف له بحصُوله على شروطها ، وهى أن يَندَم على القبيح لأنّه قبيح ، لا لخَوْف العقاب ، ولا لِرجاء الثّواب ، ثمّ لا يكفيه أن يتوبَ من الزّنا وحدَه ، ولا مِنْ شُرب الخمر وحدَه ، بل لا تصحّ توبتُه حتّى تكون عامّةً شاملة لكلّ القبائح فيندَم عَلى ماقال ويودّ أنّه لم يَفعَل ، ويَعزم على أن لا يُعاود معصيةً أَصْلا ، وإن نَقَض التّوبةَ عادتْ عليه الآثامُ القديمةُ والعقاب المستحق ولا الّذى كان سَقَط بالتّوبة على رأىِ كثيرٍ من أرباب عِلم الكلام ؛ ولا رَيْب أنّ تركَ الذَّنب من الابتداء أسْهَلُ من طَلَب توبةٍ هذه صِفَتها .

وهذا الكلام جارٍ[1] مَجرَى المَثَل يُضرَب لمن يَشرع فى أمرٍ يخاطر فيه ، ويرجو أن يتخلّص منه فيما بعدُ بوَجْه من الوجوه .

---

(١) د : « يجرى »

الأصلُ :

كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكَلاتٍ .

* * *

الشرح :

أَخَذَ هـذا المعنى بلفظه الحريريُّ فقال فى المقامات : « رُبَّ أَكْلَةٍ هاضَت الآكل ، ومنَعَتْه مآكل » ، وأخَذه أبو العلاّف الشاعر فقال فى سِنَّوره الَّذى يَرْثيه :

أردتَ أن تأكلَ الفِراخ ولا ... يأكُلكَ الدهرُ أكلَ مضطهِدِ[1]

يامَن لَذيذ الفِــراخ أوْقَعَه ... وَيْحَكَ هــلاّ قنعتَ بالقِدد!

كم أكلةٍ خامرتْ حَشا شَرِهٍ ... فأخرَجَتْ رُوحَه من الجَســدِ

* * *

[نوادر المكثِرين من الأكل]

وكان ابنُ عيّاش المَنْتوف يُمازِح المنصورَ أبا جعفر فيَحتمله على أنّه كان جِدّ أُكلّه ؛ فقدّم المنصورُ لجلسائه يوما بطّة كثيرة الدُّهن ، فأكلوا وجَعَل يأمرهم بالأزدياد من الأكل لطيبها ، فقال ابنُ عيّاش: قد علمتُ غَرَضَك يا أمير المؤمنين، إنما تُريد أن ترميَهم منها بالحجاب ـ يعنى الهَيْضة ـ فلا يأكلوا إلى عشرة أيّام شَيْئاً .

وفى المَثَل: «أَكْلَةَ أبى خارجةٍ» ؛ وقال أعرابىّ وهو يدعو اللهَ بباب الكَعْبة : اللّهمّ

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٣٨

مِيتةً كمِيتة أبى خارِجة ، فسألوه فقال : أكل بذجا وهو الحَمَل ، وشرب وَطْبا من اللبن وتَروّى من النّبيذ وهو كالحَوْض من جلود ينبذ فيه ، ونام فى الشّمس فماتَ فلقى الله تعالى شَبْعانَ ريّانَ دفيئا .

والعرب تعيّر بكثرة الأكْل ، وتعيب بالجشَع والشَّرَه والنَّهَم ، وقد كان فيهم قومٌ موصوفون بكثرة الأكْل منهم معاوية ؛ قال أبو الحسن المَدائنيّ فى "كتاب الأَكَلة": كان يأكل فى اليوم[1] أربع أَكَلات أُخْراهن عُظْماهُنّ ، ثمّ يتعشّى بعدَها بثَريدة عليها بصلٌ كثير ، ودُهن كثير قد شغَلها وكان أكلُه فاحشا يأكل فيلطّخ مِنديلين أو ثلاثة قبل أن يَفرُغ ، وكان يأكل حتّى يَستلقى ويقول : ياغلام ، ارفَع فلأْنى والله ماشَبِعت ولكن مَلِلت .

وكان عُبيدُ الله بنُ زياد يأكل فى اليوم خمس أَكَلات أخراهن خبيّة بعَسَل ، ويُوضَع بين يديه بعد أن يَفرُغ الطعام عَناقٌ أو جَدْى فيأتى عليه وحدَه .

وكان سليمان بنُ عبدِ الملك المصيبة العظمى فى الأكل ، دَخَل إلى الرافقة فقال لصاحب طعامِه : أطعِمْنا اليومَ من خِرْفان الرافقة ، ودخل الحمّام فأطال ، ثمّ خرج فأكلَ ثلاثين خَروفا بثمانين رغيفا ، ثم قعَد على المائدة فأكَل مع النّاس كأنّه لم يأكل شيئاً .

وقال الشمردلُ وكيلُ آلِ عَمْرو بن العاص : قَدِم سليمانُ الطائفَ وقد عرفتُ أُستِجاعَتَه ،فدخل هو وعمرُ بنُ عبد العزيز وأيّوب ابنه إلى بُستانٍ لى هناك يُعرَف بالرَّهْط فقال : ناهيك بمالِك هـذا لولا جِرار فيه ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، إنّها ليست بجرار ولـكنّها جرار الزّبيب ، فضَحِك ، ثمّ جاء حتّى ألقَى صدره على غُصْن شجرةٍ هناك ؛ وقال : ياشمردل أمَا عِندَك شىء تُطعِمنى وقد كنت أُستَعدَدْتَ له ، فقلت : بلَى والله عندى جَدْى كانت تغدو عليه حافلة ، وترُوح عليه أخرى ، فقال : عَجّل به ، فجئته

---

(١) فى د « كل يوم » .

به مشويّا كأنّه عُكّة سَمْن ، فأكله لا يَدْعو عليه عمر ولا ابنه ، حتّى إذا بقىَ فَخذ قال : ياعمر ، هَلُمّ ، قال : إنّى صائم . ثمّ قال : ياشَمَرْدل ، أمَا عندك شىء ؟ قلت : بلى ، دَجاجات خمس كأنّهنّ رِئْلان النّعام ؛ فقال : هاتِ ، فأتيتُه بهنّ ، فكان يأخذُ برجل الدّجاجة حتى يُعَرّىَ عِظامَها ، ثمّ يُلقيها حتى أتى عليهنّ ، ثم قال : وَيْحك ياشمردل ! أما عندك شىء ؟ قلت : بلى ، سَويق كأنّه قُراضة الذّهَب مَلْتوت بعَسَل وسَمْن ؛ قال : هَلُمّ ، فجئتُه بعُسٍّ تغيب فيه الرأسُ ، فأخذَه فلَطَم به جَبْهَته حتى أَتَى عليه ، فلما فرغ تجشّأ كأنه صارخ فى جُبّ ، ثم التفت إلى طَبّاخه فقال : وَيْحَك ! أفرغتَ من طبيخك؟ قال : نعم ؛ قال : وما هو ؟ قال : نيّف وثمانون قِدْرا ، قال : فأْتِنى بها قِدْرا قِدْرا ، فعرَضها عليه ، وكان يأكل من كلّ قِدْرٍ لقمتين أو ثلاثا ، ثمّ مسح يدَه واستلقى على قَفاه ، وأَذِن للناس ، ووُضِعت الموائد ، فقعَد فأكل مع الناس كأنّه لم يَطعَم شيئاً .

قالوا : وكان الطعام الذى مات منه سُليمان أنّه قال لدَيْرانىّ كان صديقه قبل الخلافة: وَيْحَك لا تَقطَعنى ألطافَك التى كنتَ تُلطِفُنى بها على عَهْد الوليد أخى ؛ قال : فأتيتُه يوما بزِنْبيلين كبيرين أحدُهما بَيْض مسلوق ، والآخرَ تِين ؛ فقال : لَقِّمْنيه ، فكنتُ أقشر البَيْضة وأقرِنها بالتِّينة وألقِمه ، حتى أتى على الزّنبيلين ، فأصابتْه تُخَمة عظيمةٌ ومات .

ويُحكَى أن عمرو بنَ مَعديكربَ أكل عَنْزاً رَبَاعِية وفرْقا من ذُرَة والفِرْق ثلاثةُ آصُع وقال لامرأته : عالجى لنا هذا الكَبْش حتى أرجِع ، فجعلتْ تُوقد تحتَه وتأخذ عُضْوا عُضْوا فتأكله ، فاطّلعتْ فإذا ليس فى القِدْر إلّا المَرَق ، فقامت إلى كبش آخَر فذبَحته وطبختْه ، ثمّ أَقبَل عمرو فثَرَدتْ له فى جَفْنةالعجين وكفأتْالقِدْر عليها ، فمدّ يدَه وقال : ياأمّ ثَوْر ، دونَكِ الغَدَاء ؛ قالت : قد أكلتُ ،فأكَلَ الكبشَ كلَّه ثمّ اضطجع ودعاها إلى الفِراش فلم يَستطع الفِعلَ ، فقالت له : كيف تستطيع وبينى وبينَك كَبْشان .

وقد رُوِى هذا الخبر عن بعضِ العرب ؛ وقيل : إنه أكل حُوَارا [١] وأكلت امرأته حائلا [٢] ، فلمّا أراد أن يدنوَ منها وعَجَز قالت له : كيف تَصِل إلىّ وبينى وبينَك بعيران .

وكان الحجّاج عظيمَ الأكل ؛ قال مسلم بنُ قتيبة : كنتُ فى دارِ الحجّاج مع ولده وأنا غلام ، فقيل : قد جاء الأميرُ ، فدخل الحجّاج فأمر بتَنُّور فنُصِب ، وأمر رجلاً أن يَخبِز له خبزَ الماء ، ودعا بسَمَك ، فأتَوْه به ، فجعل يأكل حتى أكل ثمانين جاماً من السَّمَك بثمانين رَغِيفا من خبز المَلّة [٣] .

وكان هلالُ بن أشعرَ المازنىُّ موصوفا بكثرة الأكْل ، أكَلَ ثلاثَ جِفانِ ثريد ، واستَسْقَى ، فجاءوه بقِرْبة مملوأةٍ نبيذا فوضعوا فمَها فى فمه حتى شربَها بأسْرها .

وكان هلال بنُ أبى بُرْدةَ أكولا ، قال قصّابُه : جاءنى رسولُه سَحرةً فأتيتُه وبين يديه كانونٌ فيه جَمْر وتَيْسٌ ضَخْم ، فقال : دونَك هذا التَّيْس فاذبحْه فذبَحْتُه وسلَخْتُه ، فقال : أَخرِج هذا الكانونَ إلى الرّواق وشَرِّح اللحم وكُبَّه على النار ، فجعلتُ كلّما استَوَى شىء قدّمتهُ إليه حتى لم يبق من التَّيس إلا العظام وقطعةُ لَحْم على الجَمْر ، فقال لى : كُلْها ، فأكَلْتُها ، ثمّ شَرِب خمسةَ أقْداح ، وناوَلَنى قَدَحا فشربتُه فهزّنى ، وجاءته جاريةٌ ببُرْمةٍ فيها ناهضان [٤] ودَجاجَتان وأرْغِفة ، فأكل ذلك كلَّه ، ثمّ جاءته جاريةٌ أخرى بقَصْعة مغطّاة لا أدرى ما فيها ، فضَحِك إلى الجارية ، فقال : وَيْحَكِ ، لم يَبقَ فى بطنى موضعٌ لهذا ، فضحِكتِ الجاريةُ وانصرفت ، فقال لى : الْحَقْ بأهْلِك .

---

(١) الحوار : ولد الناقة

(٢) الحائل : الناقة التى لم تحمل

(٣) الملة : الرماد : الحار .

(٤) الناهض : فرخ العقاب

وكان عَنْبَسة بنُ زِياد أكُولا نهماً ، فحدّث رجلٌ من ثقيف قال : دعانى عُبيدُ الله الأحمر ، فقلت لعَنْبسة : هل لك ياذُبحة ـ وكان هذا لَقبَه ـ فى إتْيان الأحمر ! فمضَيْنا إليه ، فلمّا رآه عُبيد الله رحّب به وقال للخبّاز : ضَعْ بين يدى هذا مثل ماتَضع بين يدى أهل المائدة كلّهم ، فجعل يأتيه بقَصْعة وأهل المائدة بقَصْعة ، وهو يأتى عليها ، ثمّ أتاه بجَدْى فأكَلَه كلَّه ، ونهَض القومُ فأكل كلّ ماتخلّف على المائدة ، وخرجْنا فلقينا خَلَف بنُ عبد الله القَطامىّ؛ فقال له : ياخَلَف ، أما تُغدِّينى يوما ؟ فقلت لخلفَ : وَيْحك ! لا تَجِده مِثل اليوم . فقال له : ماتَشتَهى ؟ قال : تَمْراً وسَمْناً ، فانطلق به إلى مَنْزِله فجاء بخَمْس جِلال [1] تمراً وجَرّة سَمْنا ، فأكل الجميعَ وخرج ؛ فمرّ برجل يبنى دارَه ومعه مائةُ رجل ، وقد قَدّم لهم سَمْنا وتَمْرا ، فدعاه إلى الأكل معهم ، فأكل حتّى شكَوْه إلى صاحب الدار ، ثمّ خرج فمرّ برجل بين يديه زِنْبيل فيه خُبْز أُرزٍ يابس بسِمْسِم وهو يبيعه ، فجعل يساوِمُه ويأكل حتّى أتَى على الزِّنبيل ، فأعطيت صاحبَ الزّنبيل ثمنَ خُبْزه .

وكان مَيْسرة الرأسُ أكُولا ؛ حُكِى عنه عند المهدىّ محمّد بن المنصور أنّه يأكل كثيرا ، فاستدعاه وأحضَر فِيلا ، وجعل يَرمِى لكلّ واحد منهما رغيفا حتّى أكل كلّ واحد منهما تسعةً وتسعين رغيفا ؛ وامتَنَع الفيلُ من تَمام المائة ، وأكل ميسرة تمامَ المائة وزاد عليها .

وكان أبو الحسَن العَلّاف والد أبى بكر بن العَلّاف الشاعر المحدّث أكُولا دخل يوما على الوزير أبى بكر محمد المهلّبىّ ، فأمَر الوزير أن يُؤخَذ حمارُه فيُذبح ويُطبَخ بماء ومِلح ، ثمّ قدّم له على مائدة الوزير ، فأكل وهو يظنّه لَحم

(١) الجلال : جمع جلة ، وهو وعاء التمر يصنع من الخوص .

البقر ، ويستطيبه حتى أتى عليه ، فلما خرج ليركب طلب الحمار ، فقيل له : في جوفك .

وكان أبو العالية أكولا ، نذرت امرأة حامل إن أتت بذكر تُشبِع أبا العالية خبيصا ، فولدت غلاما ، فأحضرته ، فأكل سبع جفان خبيصا ، ثم أمسك ، وخرج ، فقيل له : إنها كانت نذرت أن تُشبعك ، فقال : والله لو علمتُ ماشبعتُ إلى الليل .

الأصْلُ :

النَّاسُ أعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

***

الشَّرْحُ :

هذه الكلمةُ قد تقدّمت وتقدّم منّا ذكرُ نَظائِرِها . والعِلّة فى أنّ الإنسانَ عدوّ مايَجهَله أنّه يخاف من تقريعه[1] بالنّقص و بعَدَم العِلْم بذلك الشىء ، خصوصًا إذا ضمّه نادٍ أو جَمْعٌ من الناس فإنّه تتصاغر نفسُه عنده إذا خاضوا فيما لا يَعرِفه ويَنقُص فى أعيُن الحاضرين ، وكلّ شىء آذاكَ ونَال منكَ فهو عدوُّك[2] .

---

(١) د : « تعريضه » .

(٢) ا : « فهو عدو لك » .

الأصل :

مَنِ اُسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ اُلْخَطَأ .

* * *

الشرح :

قد قالوا فى المَثَل : شَرّ الرأىِ الدَّبَرِىّ .

وقال الشاعر :

وخيرُ الرأىِ ما اُستقبلتَ منه … وليس بأنْ تَتَبّعه اتّباعَا

وليس المراد بهذا الأمر سُرْعة فَضْل الحال لأوّل خاطر ، ولأوّل رأى ، إنّ ذلك خطأ ، وقديما قيل : دَعْ الرأىَ يغبّ .

وقيل : كلّ رأىٍ لم يخمَّرْ ويُبيّت[1] فلا خيرَ فيه .

وإنّما المنهىّ عنه تضييعُ الفُرْصة فى الرأى ، ثمّ محاوَلة الاستدراك بعد أن فات وَجْهُ الرأىِ ، فذاك هو الرأىُ الدّبرىّ .

---

(١) د : « يبث » .

(١٧٦)

الأصل :

مَنْ أَحَدَّ سِنَانَ الْغَضَبِ لِلهِ قَوِيَ عَلَى قَتْلِ أَشِدَّاءِ الْبَاطِلِ .

***

الشرح :

هذا من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والكلمة تتضمّن استعارةً تدُلّ على الفَصاحة ؛ والمعنى أنّ من أرهَف عزمَه على إنكار المنكَر وقوِىَ غضَبُه فى ذاتِ الله ولم يَخَفْ ولم يُراقِب مخلوقا ؛ أعانَه الله على إزالة المُنكَر ؛ وإن كان قويّا صادراً من جهة عزيزة الجانب ، وعنها وَقَعت الكناية بأشدّاء الباطل .

(١٧٧)

الأصل :

إِذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فِيهِ ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ .

***

الشرح :

ما أحسنَ ماقال المتنبّى فى هذا المعنى :

وإذا لم يكنْ من الموتِ بُدٌّ … فمِن العَجْز أن تكونَ جَبانا
كلُّ مالم يكن من الصَّعْب فى الأ … نفُسِ سهلٌ فيها إذا هوَ كانا

وقال آخر :

لَعمْرُكَ ما المكروهُ إلا ارتقابه … وأعظم ممّا حلَّ ما يُتوقَّعُ

وقال آخر :

صعوبةُ الرُّزْء تُلقَى فى توقُّعه … مستقبَلا وانقضاء الرزء أن يقَعا

وكان يقال : توسَّطِ الخوفَ تأمنْ .

ومِن الأمثال العامّيّة : أمّ المقتول تنام ، وأمّ المهدَّد لا تنام .

وكان يقال : كل أمرٍ من خير أو شرّ فسماعُه أعظمُ من عِيانه .

وقال قوم من أهل المِلّة وليسوا عند أصحابنا مُصيبِين : إنّ عذاب الآخرة المتوعَّد به إذا حَلّ بمستحقّيه وَجدُوه أهوَنَ ممّا كانوا يسمعونه فى الدّنيا ؛ والله أعلم بحقيقةِ ذلك .

الأصل:

آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ .

* * *

الشرح :

الرئيس محتاجٌ إلى أمور ، منها الجود ، ومنها الشجاعة ، ومنها وهو الأهمّ سَعَة الصّدر ؛ فإنه لا تتمّ الرئاسة إلاّ بذلك :

وكان معاوية واسعَ الصدر كثيرَ الاحتمال ، و بذلك بَلَغ ما بَلَغ .

* * *

[سعة الصدر وما ورد فى ذلك من حكايات]

ونحن نذكر من سَعَة الصدر حكايتَين دالَّتين على عِظَم محلّه فى الرئاسة ، وإن كان مذموما فى باب الدين ، وما أحسنَ قولَ الحسن فيه وقد ذكر عنده عقيبَ ذكرِ أبى بكر وعمر ، فقال : كانا والله خيراً منه ، وكان أسوَدَ منهما .

الحكاية الأولى :

وفدَ أهلُ الكوفة على معاوية حين خطب لابنه يزيد بالعَهْد بعده ، وفى أهل الكوفة هانئُ بنُ عُرْوة المرادىّ ـ وكان سيّدا فى قومه ـ فقال يوما فى مسجد دِمشق والناسُ حوله : العجَب لمعاوية يريد أن يقسرنا على بَيْعة يزيد ، وحالُه حالُه ، وما ذاك والله بكائن وكان

فى القوم غلامٌ منْ قريش جالسا ، فتحمّل الـكلمة إلى معاوية ، فقال معاوية : أنت سمعت هانئاً يقولها ؟ قال : نعم ، قال : فاخرُج فأْتِ حلْقته ، فإذا خفّ الناسُ عنه فقل له : أيّهـا الشيخ ، قد وصلتْ كلمتُك إلى معاوية ، ولستَ فى زمن أبى بكر وعمرَ ولا أحبّ أنْ تتـكلم بهـذا الـكلام فإنهم بنو أُميّةِ ، وقد عرفتَ جُرأتهم وإقدامَهم ، ولم يدْعنى إلى هـــذا القول لك إلا النّصيحة والإشفاق عليك ، فانظر ما يقول ؛ فأْتنى به .

فأقبل الفَتَى إلى مجلس هانئ ، فلمـا خَفّ من عنده دنا منه فقَصّ عليه الـكلامَ وأخْرَجَـه مخرَج النصيحة له ، فقال هانئ : والله يابن أخى مابلغت نصيحتُك كلّ ما أَسمَع؛ وإنّ هذا الـكلام لـكلامُ مُعاوية أعرفه ! فقال الفتى : وما أنا ومُعاوية ! والله ما يعرِفنى ؛ قال : فلا عليك ، إذا لقيتَه فقل له : يقول لك هانئ : والله ما إلى ذلك من سبيل ، انهض يابن أخى راشداً !

فقام الفتى فدخل على معاوية فأعلمَـه ، فقال :نستعين بالله عليه .

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد : ارفعوا حوائجَـكم، وهانئ فيهم ، فعرَضَ عليه كتابَه فيه ذكرُ حوائجه ، فقال : يا هانئ ، ما أَرَاك صنعتَ شيئا ، زِدْ ؛ فقام هانئ فلم يَدَعْ حاجةً عرضتْ له إلاّ وذَكَرها ، ثم عرَض عليه الـكتاب فقال : أراك قصّرتَ فيما طلبتَ ، زِدْ ، فقام هانئ فلم يَدَع حاجةً لقومه ولا لأهل مِصرِه إلاّ ذكَرَها ، ثمّ عرَض عليهالـكتاب، فقال : ما صنعت شيئا ، زِدْ ، فقال : يا أميرالمؤمنين ، حاجةٌ بقيَتْ ، قال : ما هى ؟ قال : أن أتولّى أخْذَ البيْعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعراق ؛ قال : افعل ، فما زِلْتَ لِمثل ذلك أهلا ؛ فلما قَدِم هانئ العراق قام بأمر البيْعة ليزيد بمَعُونةٍ من المغيرة بنِ شُعْبة وهو الوالى بالعراق يومئذ .

وأمّا الحكايةُ الثانية :

كان مالٌ حُمِل من اليمن إلى معاوية ؛ فلما مرّ بالمدينـة وثَبَ عليه الحسينُ بنُ علىّ عليه السلام ، فأخَذَه وقَسَمَه فى أهل بيته ومواليه ، وكتب إلى معاوية : مِن الحسين بنِ علىّ إلى معاوية بن أبى سُفْيان ، أمّا بعد ، فإنّ عيراً مرّت بنا من اليَمَن تحمِل مالاً وحُللا وعنبرا وطيباً إليكَ لتودِعها خزائنَ دِمَشق، وتَعُلَّ بها بعد النَّهلِ بنى أبيك، و إنّى احتجتُ إليها فأخذتُها . والسلام .

فـكتب إليه معاوية : من عند عبدِ الله معاوية أمير المؤمنين إلى الُحسَين بن علىّ عليه السلام : سلامٌ عليك ، أمّا بعد ، فإنّ كتابك ورد علىّ تذكُر أن عيراً مرّت بك من اليمن تحمـل مالاً وحُللا وعَنبرا وطِيبا إلىّ لأودِعها خزائن دِمشق ، وأُعُلّ بها بعد النَّهَل بنى أبى ، وأنك احتجت إليها فأخذتها ولم تـكن جديراً بأخذها إذ نَسَبتها إلىّ ، لأنّ الوالى أحقّ بالمـال ، ثمّ عليه المَخرج منه ، وايمُ الله لو تركت ذلك حتى صار إلىّ لم أبْخَسْك حظَّك منه ، ولـكنى قد ظننتُ يابنَ أخى أنّ فى رأسك نَزْوَةً وبودّى أن يكون ذلك فى زمانى فأَعرف لك قدرَك ، وأتجاوزَ عن ذلك ؛ ولـكنى واللهِ أتخوّف أن تبتلى بمن لا يُنظِرك فُواقَ ناقةٍ ، وكتب فى أسفل كتابه :

ياحسينُ بنَ علىٍّ ليس ما	جئتَ بالسائغ يوماً فى العِلَلْ
أخذُكَ المـال ولم تُؤمرْ به	إنّ هذا من حُسين لعَجَلْ
قد أجزْناها ولم نَغْضَبْ لها	واحتمَلْنا من حُسينٍ ما فَعلْ
يا حسينُ بنَ علىّ ذا الأمَل	لك بعدِى وَثْبَةٌ لا تُحتَملْ
و بودّى أننى شاهِـــدُها	فأُليها منك بالخلُق الأَجَلْ
إننى أرْهَب أن تَصْلَى بمَنْ	عندَه قد سَبَق السيفُ العذَلْ

وهذه سعةُ صدرٍ وفراسةٌ صادقة .

(١٧٩)

الأصل :

أَزْجُرِ لِلْمُسِيءِ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ .

***

الشرح :

قد قال ابنُ هانئ المغربيّ فى هذا المعنى :

لولا انبعاثُ السَّيفِ وهو مُسلَّطٌ ... فى قتلهمْ قتلتْهُمُ النَّعْماء

فأفصَح به أبو العَتاهية فى قوله :

إذا جازيتَ بالإحسان قوما ... زجرتَ المذنبين عن الذّنوبِ

فمالكَ والتناوُل من بعيـــدٍ ... ويمكنك التّناوُل من قريبِ

(١٨٢)

الأصْلُ :

احْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ ، بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ .

***

الشَّرْحُ:

هذا يفسَّر على وجهين :

أحدهما أنه يريد : لا تُضمر لأخيك سوءا فإنّك لا تُضمر ذاك إلاّ يضمِرهو لك سوءا ، لأنّ القلوب يشعُر بعضها ببعض ، فإذا صفَوْتَ لواحدٍ صفا لك .

والوجه الثانى :أن يريد لا تَعِظِ الناس ولا تَنْهَهم عن منكرٍ إلاّ وأنت مُقلِعٌ عنه ، فإن الواعظ الذى ليس بزكىّ لا ينجَعُ[1] وعْظُه ، ولا يؤثّر نهيُه .

وقد سبَق الكلام فى كلا المعنيين .

---

(١) ا : « ينفع » .

(١٨١)

الأصْـلُ :

اللَّجاجَةُ تَسُلُّ الرَّأْىَ .

***

الشَّـرحُ :

هذا مشتقّ من قوله عليه السلام : «لا رأى لمن لا يُطاع» ، وذلك لأن عدم الطاعة هو اللّجاجة ، وهو خُلُق يتركَّب من خُلقين: أحدهما الـكِبْر ، والآخر الجهـل بعواقب الأمور وأكثر ما يعترى الولاة لمـا يأخذهم من العِزة بالأثم .

ومن كلام بعض الحـكماء : إذا اضطررت إلى مُصاحَبة السلطان ، فابدأ بالفَحْص عن معتاد طَبْعِه ، ومألوفِ خُلُقه ، ثم استحدِث لنفسك طَبْعا ففرّغه فى قالب إرادته ، وخُلُقا تركِّبهُ مع موضع وفاقه حتى تَسلم معه ، وإن رأيته يَهوَى فنًّا مِن فُنون المحبُوبات فأظهر هَواك لضدّ ذلك الفنّ ، ليُبعِد عنك إرهابه ، بل ويَـكثر سكونهُ إليك ، وإذا بدا لك منه فِعْـل ذَمِيم فإيّاك أن تبدأه فيه بقولٍ ما لم يَستبذل فيه نُصْحك ، ويستدعى رأيك؛ وإن استدعى ذاك فليـكن ما تفاوِضه فيه بالرّفق والاستعطاف ، لا بالخشونة والاستنكاف ، فيَحْمِله اللّجاج المركَّب فى طَبْع الولاة على ارتـكابه ، فـكلُّ والٍ لَجُوج ، وإن علم ما يتعقّبه لجاجه من الضرر ، وأنّ اجتنابه هو الحسن .

(١٨٢)

الأَصْلُ :

الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ .

***

الشَّرْحُ :

هذا المعنى مطروقٌ جدّا ، وقد سبق لنا فيه قولٌ شافٍ .

وقال الشاعر :

تعفّف وعِشْ حُرّا ولا تكُ طامِعاً فما قَطّع الأعناق إلاّ المَطامِعُ

وفى المَثَل : أطمع من أشعب ؛ رأى سَلاّلا يصنَع سَلّة ، فقال له : أوْسِعْها ؛ قال : ما لكَ وذاك ؛ قال : لعلّ صاحَبها يُهدِى لى فيها شيئاً .

ومرّ بمكْتب وغلامٌ يقرأ على الأستاذ : ﴿ إنَّ أبى يدْعوك ﴾ ، فقال : قم بين يَدَىّ حَفِظك الله وحَفِظ أباك ، فقال : إنما كنت أقرأ وِرْدى ، فقال : أنكرت أن تُفْلح أو يُفلح أبوك !

وقيل : لم يكن أطمَعُ من أشعَب ألاّ كلبُه ، رأى صورة القَمَر فى البئر فظَنّه رغيفا ، فألقَى نفسه فى البئر يطلبه ، فمات .

الأصْلُ :

ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ ، وثَمَرَةُ الحَزْمِ السَّلامَةُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سبق من الكلام فى الحزم والتفريط ما فيه كفاية . وكان يقال : الحَزْم مَلَكَةٌ يُوجِبها كثرةُ التجارب ،وأصله قوّة العقل ، فإنّ العاقل خائفٌ أبدا ، والأحمق لا يخاف ، وإن خاف كان قليل الخوف ، ومن خاف أمراً توقّاه ، فهذا هو الحَزْم .

وكان أبو الأسود الدّؤلىّ من عُقَلاء الرجال وذَوِى الحَزم والرأى ، وحكى أبو العباس المبرّد قال : قال زياد لأبى الأسوَد ـ وقد أسَنّ ـ لولا ضَعفُك لا ستعملناك على بعض أعمالِنا ، فقال : للصِّراع يريدُنى الأمير ! قال : زياد : إنّ للعمل مئونة ، ولا أراك إلا تضعف عنه ، فقال أبو الأسود :

زعَمَ الأميرُ أبو المغيرةِ أننى ... شيخٌ كبيرٌ قد دنَوْتُ من البِلَى
صدَق الأميرُ لقد كبِرتُ وإنما ... نالَ المكارمَ من يدبّ على العصا
يابا المغيرةِ رُبّ أمرٍ مُبْهَمٍ ... فرجْتُه بالحَزْم منّى والدّهَا

وكان يقال : مِن الحَزْم والتّوقّى تركُ الإفراط فى التوقّى .

لما نزل بمعاوية الموتُ وقَدِم عليه يزيد ابنُه فرآه مسكتالا يتكلم، بكى وأنشد :

لو فات شىء يُرَى لفاتَ أبو ... حَيّان لا عاجزٌ ولا وَكِلُ
الحُوّل القُلّب الأرِيبُ ولا ... تدفَع يوم المنيّة الحِيَلُ

---

(١) الكامل .   (٢) ديوانه

الأصل :

مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ ، أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ .

***

الشرح :

قد تقدّم لنا قولٌ شافٍ فى الصبر والجزع .

وكان يقالُ : ما أحسَن الصّبر لولا أنّ النفقة عليه من العمر ! أخذه شاعر فقال :

وَإنّى لأدرِى أنّ فى الصَّبْرِ رَاحَـةً ولـكنّ إنفاقى على الصبر من عُمْرِى

وقال ابن أبى العلاء يستبطئُ بعض الرؤساء :

فإنْ قيل لى صبراً فلا صَبْرَ للذى غدا بيد الأيّام تقتـلُه صَبْرَا

وإن قيل لى عذراً فوالله ما أرى لمن ملك الدنيا إذا لم يجِدْ عـذرا

فإن قلت : أى فائدة فى قوله عليه السلام: « مَنْ لم ينجه الصّبر أهلـكه الجزع »؟ وهل هذا إلا كقول مَنْ قال : « مَنْ لم يجد ما يأ كل ضرّه[1] الجوع ! » .

قلت : لو كانت الجهة واحدة ، لـكان الـكلام عبثا ، إلا أن الجهة مختلفة، لأن معنى كلامه عليه السلام من لم يخلّصه الصبر من هموم الدّنيا وغُمومها هَلَك مع الله تعالى فى الآخرة بما يستبدله من الصبر بالجزع ؛ وذلك لأنه إذا لم يصبر فلاشكّ أنّه يجزع، وكل جازع آثم؛ والإثم مهلـكة، فلما اختلفت الجهة وكانت تارة للدنيا وتارة للآخرة لم يكن الـكلام عبثا بل كان مفيدا .

(١) فى د : « أهلـكه » .

الأصْلُ :

وَاعَجَبَاً أَنْ تَكُونَ الْخِلاَفَةُ بِالصَّحَابَةِ ولا تكون بالصحابة وَالْقَرَابَةِ .

قال الرضىّ رحمه الله تعالى وقد روى له شعر قريب من هذا المعنى وهو :

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ فَكَيْفَ بِهَذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيَّبُ !(١)

وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

* * *

الشَّرْحُ :

حديثه عليه السلام فى النثر والنظم المذكورين مع أبي بكر وعمر ، أمّا النثر فإلى عمر توجيهه لأنّ أبا بكر لما قال لعمر : امدد يدك ، قال له عمر : أنت صاحب رسول الله فى المواطن كلّها ، شدّتها ورخائها ، فامدد أنت يدك ، فقال على عليه السلام : إذا احتججتَ لاستحقاقه الأمر بصحبته إيّاه فى المواطن كلّها ، فهلا سلّمت الأمر إلى من قد شركه فى ذلك ، وزاد عليه «بالقرابة» ! وأما النظم فموجّه إلى أبى بكر ؛ لأن أبا بكر حاجّ الأنصارَ فى السقيفة ، فقال : نحن عِتْرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيضته التى تفقّأت عنه ، فلما بويع احتجّ على الناس بالبيعة ، وأنها صدرت عن أهل الحلّ والعقْد ، فقال علىّ عليه السلام : أمّا احتجاجك على الأنصار بأنك من بيضة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن قومه ، فغيرك أقرب نسباً منك إليه ، وأما احتجاجك بالاختيار ورضا الجماعة بك، فقد كان قوم من جملة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد فكيف يثبت !

واعلم أن الكلام فى هذا تتضمّنه كتب أصحابنا فى الإمامة، ولهم عن هذا القول أجوبة ليس هذا موضع ذكرها .

تم الجزء الثامن عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء التاسع عشر

فهرس الموضوعات

صفحة